

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية



المجلة التاريخية المصرية

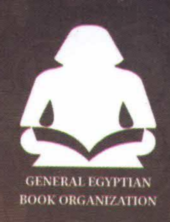
المجلد ٤٩

القاهرة

٢٠١٤-٢٠١٥



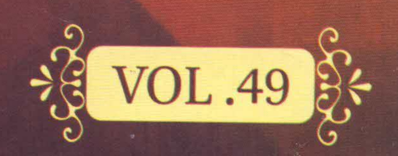
SOCIETÉ EGYPTIENNE
DES ÉTUDES HISTORIQUES





REVUE EGYPTIFNNE DES ÉTUDES HISTORIQUES





LE CAIRE
2014 - 2015



REVUE EGYPTIENNE DES ÉTUDES HISTORIQUES

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د.أحمد مجاهد

المجلة التَّاريخيَّة المصْريَّة

مجلةٌ دوريةٌ تُصْدِرُها

الجمعية المصرية للدّراسات التاريخية

رقم الإيداع بدار الكتب
99/9440

الترقيم الدولي
977-5366-11-9

١٤٣٦- ٢٠١٥م

قطعة ٤ بلوك ٧ - المنطقة التاسعة - شارع د. رؤوف عباس - مدينة نصر - القاهرة
تليفون : ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ - ٢٤٧٢٨٢٩٤ - ٢٤٧٢٨٢٩٦ - فاكس : ٢٤٧٢٨٢٩٨
Email: Seehist 1995@yahoo.com







REVUE EGYPTINNE
DES ETUDES HISTORIQUES

تُصْدِرهَا
الجمعية المصرية للدّراسات التاريخية
المراسلات - الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد
رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المجلد التاسع والأربعون

القاهرة
٢٠١٤ - ٢٠١٥م

المحتويات

***

الأَحْنَفُ بن قَيْس
وَدَوْرُه في التَّاريخ الإسْلامي

محمَّد أحمد محمَّد إسماعيل

مُقدِّمَـة

تعدُّ الترجمة إحدى الصور التاريخية التي تنتهجها الشعوب والأمم في التعبير عن تقديرها واحترامها للشخصيات والأفراد الذين أثروا حياة شعوبهم، وكان لهم دور مهم في تسيير توجهاتهم إلى الرقي والتقدم، كما تعدُّ شكلا من أشكال التفسير الفردي للتاريخ والذي يُعد الفردُ فيه محورًا أساسًا لتحريك عجلة الأحداث التاريخية، ولا يستطيع أحد من الباحثين أن يغفل دور التفسير الفردي في الأحداث التاريخية كغيره من التفسيرات التاريخية الأخرى.

وفى تاريخنا الإسلامي شخصياتٌ لم يكونوا حكاما ولا خلفاء ولا أمراء، ولكن يستمع الحكام لرأيهم، ويسترشد الخلفاء بفكرهم، ويقتنع الأمراء بوجهة نظرهم.

ومن هؤلاء (الأحنفُ بنُ قيس) الذي كان موضع ثقة كثير من الخلفاء والأمراء الذين عاصرهم، وتأتى أهمية هذه الشخصية أنها عاصرت حقبة مهمة في تاريخنا العربي والإسلامي، فقد عاصر أواخر عصر الرسالة حتى عصر عبد الملك بن مروان، ولم يُكن معاصرا فقط، بل كان فاعلا أساسيا في كل المواقف التي تعرض لها أو وافق أن كان فيها، فقد حاور عمر بن الخطاب وأقنعه برأيه، كما لم يمنعه قوة وسيطرة معاوية بن أبي سفيان أن يقول الحق ما دام من قناعاته، كما لم يكن محاورا للخلفاء والأمراء فقط، بل كان فاتحا لأحد أهم أقاليم العالم الإسلامي وهو خراسان، وقام بفتحه مرتين، ويهدف هذا البحث إلى جمع شتات معظم ما كتب عن الأحنف من المصادر والمراجع محاولا تكوين صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة والواقع دون مغالاة أو إغراق في ذكر فضائل هذه الشخصية.

وقد قسمت البحث إلى خمسة مباحث رئيسية:

المبحث الأول: تناولت فيه اسم الأحنف وأسرته والتعريف بأمه وأعمامه وأخواله، خاصة أنه من قبيلة تميم من بنى سعد، وكانت هذه القبيلة من القبائل المهمة عند العرب، وعائلة الأحنف كانت ذات وجاهة اجتماعية في قبيلتها، ثم تناولت إسلام الأحنف وكيف أن قومه أسلموا بمشورته ودعاء الرسول له، وأن ذلك كان يسعد الأحنف أيما إسعاد.

المبحث الثاني: تناولت فيه دور الأحنف في الفتوحات الإسلامية، وكيف أنه أشار على عمر بن الخطاب بمواصلة فتوحات فارس كما أنه افتتح فارس مرتين الأولى سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، والثانية سنة٣١هـ/٦٥٢م، في عصر عثمان بن عفان، رضي الله عنه، وولاية ابن عامر على البصرة، واختيار الأحنف مرتين يدل على حسن معرفته بهذه المناطق، وثقة أهل الحل والعقد في شخصية الأحنف وقيادته، وفى هذا الجزء تظهر شخصية الأحنف القيادية، واستطاعته قيادة الجيوش ماديا ومعنويا، كما شارك في الفتوحات الأخرى تحت قيادة أبي موسى الأشعري، مثل قم واليهودية، وهذا يؤكد أنه لم يشارك في الفتوحات قائدا فقط، بل شارك جنديا أيضا.

المبحث الثالث: وتناولت فيه مواقف الأحنف وآراءه السياسية، ووفوده على الخلفاء والأمراء بداية من عمر بن الخطاب حتى مصعب بن الزبير مرورا بعلي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان وزياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد والمختار الثقفي، كما أوضحت دوره في معركتي الجمل وصفين، وأنه كان يأخذ جانب الحق أينما كان حسب رؤيته، كما كان له دور بارز في التحكيم، ثم ظهر دورُه مرة أخرى في قضية بيعة يزيد، وقال فيه بقوله الذي لم يُمار فيه، وكيف ساعد على إعادة عبيد الله بن زياد إلى ولاية البصرة، وموقفه من دعوى المختار الثقفي، ثم مواقفه مع مصعب بن الزبير.

المبحث الرابع: ويشمل صفات الأحنف الخلقية والخلقية التي أهلته حتى يكون سيد أهل المشرق، أو سيد أهل البصرة كما سماه عمر بن الخطاب، وأعقبتُ ذلك بأقوال الأحنف والأقوال التي قيلت عنه حتى تكتمل الصورة.

المبحث الخامس: وتحدثت فيه عن وفاة الأحنف بن قيس، وحاولت الوصول لأدق التواريخ عن وفاته.

ووضعت خاتمة أوضحت فيها أهم نتائج البحث، كما ألحقت البحث بملحقين مهمين.

أولا: اسمه، عائلته، إسلامه

١- اسمه، عائلته

هو أبو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي السعدي المعروف بالأحنف، وقيل اسمه صخر[١].

وأم الأحنف حبة بنت عمرو بن قرط بن ثعلبة بن قراوش من بني زاهر بن أود بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن سعد بن قيس بن عيلان[٢].

---

(١) ابن سعد : طبقات ابن سعد، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١ ، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج٩، ص٩٢، خليفة بن خياط:الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد، ط١، ١٩٦٧م، ص١٩٥، ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٢٤، ص٢٩٨، ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ج٢، ص٤٩٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط، حقق هذا الجزء مأمون الصاغرجي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج٤، ص ص٨٦-٨٧، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج٥، ص ص٣٤٥-٣٤٦، ابن كثير: البداية والنهاية، خرج أحاديثه أحمد بن شعبان بن أحمد، محمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفاء، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج٨، ص٢٧٦، ولكننا نميل إلى أن اسمه صخر، وليس الضحاك، فقد ورد في الطبري وابن حبيش أن اسمه صخر بن قيس في نص الصلح بين الأحنف ومرزبان مَرْو الرُّوز ، راجع الطبري : تاريخ الرسل والملوك، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م، ج٤، ص٣١٠، ابن حبيش:كتاب الغزوات الضامنة الكاملة والفتوحات الجامعة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، المجلد الثاني، ص٧٥٥، وانظر نص الصلح والرسالة بين الأحنف ومرزبان مرو الروز في ملحق خاص في آخر البحث.

(٢) خليفة بن خياط، الطبقات، ص١٩٥، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٤، ص٣٠٢.

وكان أبو الأحنف يكنى أبا مالك، قتله بنو مازن في الجاهلية، أما جده معاوية بن حصين فقد قتله الفارس المشهور عنترة بن شداد العبسي.

وعماه صعصعة وجزي ابنا معاوية بن حصين بن عبادة، وكان صعصعة سيد بني تميم البصرة في عهد معاوية، وجزي ولي الأهواز لعمر بن الخطاب، وعمه المتشمس بن معاوية يفضل على الأحنف في حلمه.

وخاله الأخطل بن قرط من الشجعان، وقد قال الأحنف مفاخرا بخاله هذا: «ومن له خال مثل خالي»(١).

وُلد الأحنف سنة ٣ق.هـ/٦١٩م، وكانت أمه ترقصه وتقول له:

واللهِ لَوْلَا حَنَفٌ بِرِجْلِهِ

وقِلَّةٌ أَخَافُهَا مِنْ نَسْلِهِ

مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ(٢)

أما عن سبب تلقيبه بالأحنف فمعناه المائل؛ لحنف رجليه، وهو العوج والميل، فقد ولد معوج الرجلين، وكان يمشي على وحشي قدمه أي ظهرها.

ولا شك أن الأحنف قد تربى كغيره من أبناء العربية البدوية على الشجاعة والإقدام وحمل السلاح خاصة في فترات الحروب المتعددة التي كانت تنشب بين القبائل، وسوف يظهر أثر ذلك في فتوحاته التي سنذكرها من خلال البحث، كما نرجح أنه استمع إلى شعراء عصره

---

(١) خليفة بن خياط: الطبقات، ص١٩٥، محمود شيت خطاب : قادة فتح بلاد فارس، دار الفتح، بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص٢١٧.

(٢) ابن سعد: طبقات ابن سعد، ج٩، ص٩٢، ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣٠٤-٣٠٥، ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٦، ص٩٣، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٤، ص٨٧ تاريخ الإسلام، ج٥ ص٣٤٧، خير الدين الزركلي : الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، أيار/مايو ٢٠٠٢م، ج١، ص٢٧٦ منير البعلبكي : معجم أعلام المورد، إعداد رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٤٩.

المشهورين أمثال النابغة الذبياني وحسان بن ثابت وغيرهم من شعراء وخطباء عصرهم خاصة في أوقات وأماكن الأسواق العربية، وظهر أثر ذلك من خلال روايته للشعر والخطب والأقوال التي أُثرت عنه، كما أنه ولا شك تأثر بالأصل العريق لأسرته وقبيلته التي كانت تضم كثيرا من أعلام عصره مثل جده ووالده وأعمامه مما أثر فيه وفى شخصيته فيما بعد.

٢- إسلامه

أرسل النبي، ﷺ، إلى قومه ليسلموا فأسلموا بمشورة الأحنف بن قيس، رغم صغره الذي لم يتعد الثانية عشرة حينها، فقد أسلم سنة ٩هـ/٦١٩م، وقد أشار هو إلى هذا الأمر بقوله: «بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان بن عفان إذ لقيني رجل من بني ليث فأخذ بيدي، فقال: ألا أبشرك قلت: بلى، قال:تذكر إذ بعثني رسولُ الله، ﷺ، إلى قومك بنى سعد، فجعلتُ أَعْرِضُ عليهم الإسلام وأدعوهم إليه، فقلتَ أنت: إنه يدعو إلى خير، وما أسمع إلا حسنا، قال: فإني ذكرتُ ذلك لرسول الله، ﷺ، فقال: اللَّهُمَّ اغفر للأحنف، فقال الأحنف: فما شيء أرجى عندي من ذلك»[1].

وقد أسلم في حياة النبي، ﷺ، ولم يره، كما دعا له حين قدم عليه وفد تميم فذكروه له، كما كان له دور مهم بعد إسلامه، فقد كَفَّ أذى بنى مرة عن رسل رسول الله، ﷺ، حين بعثهم لجمع الصدقات، وقد كان بنو مرة قد هموا بهم. وقد ثبت الأحنف على إسلامه حين ارتد قومه بعد لحاق الرسول، ﷺ، بالرفيق الأعلى، وقد أتى هو وعمه المتشمس بن معاوية مسيلمةَ الكذاب ليسمعا منه، فلما خرجا قال الأحنف: «كيف تراه؟» فقال: «أراه كذابا»[2].

---

(١) ابن سعد، ج٩، ص٩٢، ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٠٧، الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٨، تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٤٧، ابن كثير، ج٨، ص٢٧٦، وفى رواية ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج٢، ص٤٩٩، إن الأحنف قال عند دعوة النبي، ﷺ، حين أرسل لهم النبي، ﷺ، رسله قال: « إنه يدعوكم إلى مكارم الأخلاق وينهاكم عن ملائمها ».

(٢) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٠٩، الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٨، تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٤٨، محمود شيت خطاب : قادة فتح بلاد فارس، ص٢١٩.

قدم وفد تميم على النبي، ﷺ، في العام التاسع للهجرة، وأسلموا بين يديه الشريفة، وكان فيهم الزبرقان بن بدر والأقرع بن حابس وعمرو بن الأهتم وعطارد بن حاجب بن زرارة والحتحات بن يزيد في وفد كبير من بنى تميم، وفيهم نزلت سورة الحجرات.

وقد يتساءل البعض: كيف لفتى لم يتعد الثانية عشرة أن يسلم قومه بإشارته، وهل فقد قومه من ذوي العقول والنهى من يشير عليهم بهذا الأمر

والجواب على هذا أن البيئة بما تشتمل عليه من مؤثرات طبيعية واجتماعية تؤثر في تكوين الشخصيات التي تعيش في محيطها، وكما يقال: إن الإنسان ابن بيئته؛ لذا فقد ينضج الإنسان بشكل أكبر في بيئة معينة، وقد لا ينضج نفس الإنسان في بيئة أخرى، وليس هذا على مستوى البيئات فقط، بل على مستوى الأشخاص أيضا، فمن الممكن أن ينضج شخص فكريا واجتماعيا وجسديا، بصورة أكبر من شخص آخر في نفس البيئة؛ لذا نرجح أن الأحنف قد نضج مبكرا في بيئته التي ساعدته على ذلك، والدليل على ذلك أن عمر أطلق عليه سيد أهل البصرة ولم يكن قد تعدى العشرين من عمره، كما استمع إلى رأيه في غزو فارس وهو لم يزل شابا.

ثانيا : دوره في الفتوحات الإسلامية

كان للأحنف بن قيس دورٌ مهم في حركة الفتوحات الإسلامية فقد شارك فيها برا وبحرا، كما شارك فيها جنديا وقائدا، وأول إشارة لدور الأحنف في الفتوحات الإسلامية وردت في المصادر العربية أنه كان ضمن الجيش الذي أرسله عتبة بن غزوان[1] والي البصرة لإنقاذ جيش

---

(١) عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب بن نسيب بن زيد بن مالك، ولد سنة٤٠ق.هـ/٥٨٤م، صحابي قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا، استعمله عمر بن الخطاب على البصرة، وهو الذي فتحها وأسسها سنة ١٤هـ /٦٣٥م، وتوفي سنة ١٧هـ/٦٣٨هـ، ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج٩، ص ص٥-٨. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، مايو٢٠٠٢م، ج٤، ص٢٠١.

المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي[١] والي البحرين الذي حاول غزو بلاد فارس من قِبل البحرين، وتفصيل ذلك أن العلاء كان والي البحرين للنبي، ﷺ، وأبي بكر، فعزله عمر، وجعل قدامة بن مظعون[٢] مكانه، ثم عزل قدامة، وردَّ العلاء، وكان العلاء يُباري سعد بن أبي وقاص، فلما جاء العلاء بفضل القضاء على الردة في البحرين، جاء بعده سعد بن أبي وقاص بإزاحة الفرس وهزيمتهم في القادسية، أراد العلاء أن يحوز فضلا آخر على سعد بن أبي وقاص، وكان عمر قد نهاه عن غزو البحر ولكنه عصى أوامر عمر فندب أهل البحرين إلى فارس فخرجوا إلى إصطخر[٣]، ثم عادوا إلى البصرة، وقد هزموا فوجدوا سفنهم قد غرقت، ولما بلغ عمر الذي صنع العلاء كتب إلى عتبة بن غزوان يأمره بندب الناس لإنقاذ قوات المسلمين في فارس، كما كتب إلى العلاء بتأمير سعد عليه، وانتدب عتبة قوات المسلمين، وكانوا اثني عشر ألفا، وأمر عليهم أبا سبرة بن أبي رهم، وكان ذلك سنة ١٧هـ/٦٣٨م، واستطاعت هذه الإمدادات إنقاذ جيش العلاء بن الحضرمى[٤].

---

(١) العلاء بن الحضرمي: من رجالات الفتوحات في صدر الإسلام، أصله من حضرموت، وفد أبوه مكة فنشأ بها العلاء، ولاه الرسول، ﷺ، البحرين سنة ثمان للهجرة، وجعل له جباية الصدقة، وبعد وفاة النبي، ﷺ، أقره أبو بكر و عمر، ووجَّهه عمرُ إلى البصرة فمات في الطريق، وقيل مات في البحرين سنة ٢١هـ /٦٤٢م، وهو أول مسلم يغزو في البحر. الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٢٤٥.

(٢) قدامة بن مظعون بن حبيب الجمحي القرشي، والي من مهاجري الحبشة، شهد بدرا وأُحُدًا والخندق وسائر المشاهد مع الرسول، ﷺ، واستعمله عمر على البحرين، ثم عزله لشرب الخمر وأقام عليه الحد في المدينة، وتوفي سنة ٣٦هـ/٦٥٦م. الزركلي، ج٥، ص١٩١.

(٣) إصطخر: بلدة بفارس وهي من أعيان حصون فارس ومدنها وكورها، ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٢١١.

(٤) الطبري، ج٤، ص ص٧٩-٨٣، ابن مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١، ص ص ٢٣٥-٢٣٧، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٢، ص ص٨٢-٨٣، ابن كثير، ج٧، ص ص٦٧-٦٨، محمود شيت خطاب، ص٢١٩، أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان، المدينة المنورة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٣٦٢.

Translated 'ABDUL AL-AZIZ SHINNAWY , *AL-Fatuhat AL-islamiyah 'THE ISLAMIC OPENING* by heba samir Handawi Revised by EL Fwine Acales mischler umm AL-QURA-AL-Mansura-first . Edition1422A.H /2002 PP211-213

مشورة الأحنف لعمر بن الخطاب لمواصلة فتوح فارس[١]

بعد فتح الأهواز[٢] وتستر[٣] وأسر الهرمزان[٤] أرسل أبو موسى الأشعري والي البصرة سنة ١٧هـ/٦٣٨م الهرمزان إلى عمر بن الخطاب ، وبرفقته وفد فيهم أنس بن مالك[٥] والأحنف بن قيس، وتقابل الهرمزان وتحاور مع أمير المؤمنين ثم أسلم بعد ذلك، وقال عمر للوفد: لعل المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ينتقضون بكم فقالوا: ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكة، قال: فكيف هذا فلم يجد عند أحد منهم شيئا يشفيه ويبصر به مما يقولون إلا ما كان من الأحنف، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرك أنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وأمرتنا بالاقتصاد على ما في أيدينا، وإن ملك فارس حي بين أظهرهم، وإنهم لا يزالون يساجلوننا، ما دام ملكهم فيهم، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه، وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئا بعد شيء إلا بانبعاثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيلهم من فارس، ونخرجه من مملكته وعز أمته، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويضربون جأشا

---

(١) الطبري، ج٤، ص٨٩، ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج١، ص٢٤٠، ابن حبيش: غزوات ابن حبيش، المجلد الثاني، ص٧٥٥، ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٢٣٥، ابن كثير، ج٧، ص ص٧٠- ٧١، محمد الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية)، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ج١، ص ص٢٣٩-٢٤٠، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٩٠، أكرم ضياء العمري، ص٣٦٤، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، ط٤، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٣١٦-٣١٧.

ABDUL AZIZ ELSHINNAW: *The Islamic Opening.* pp236-237

(٢) الأهواز: كان اسمها عند الفرس خوزستان وهى كورة بين البصرة وفارس وسوق الأهواز من مدنها. ياقوت الحموى، ج١، ص ص٢٨٤-٢٨٦.

(٣) تستر: أعظم مدينة بخوزستان. ياقوت الحموى، ج٢، ص٢٩.

(٤) الهرمزان:كان عامل يزدجرد الثالث على تستر وأسره المسلمون فقدم على عمر في المدينة وأسلم على يديه، توفي في خلافة عثمان بن عفان. ابن سعد، ج٧، ص ص٩٠-٩٢.

(٥) أنس بن مالك:خادم رسول الله، ﷺ، قدم الرسول المدينة وأنس عنده عشر سنين فخدمه عشر سنين، توفي سنة ٩٣هـ/٧١٢م بالبصرة وهو آخر من توفي بها من الصحابة.

الزركلي، ج٢، ص ص٢٤-٢٥.

فقال: صدقتنى والله، وشرحت لي الأمر عن حقه، ونظر في حوائجهم وسرحهم[١].

وقد استجاب عمر لرأي الأحنف، وأمر على أهل البصرة أمراء، وعلى أهل الكوفة أمراء، وأمر هؤلاء وهؤلاء بأمره، وأذن لهم في الانسياح في سنة ١٧هـ/٦٣٩م، وبعث بألوية من ولي مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الأشهل، فقدم سهيل بالألوية، ودفع لواء خراسان[٢] إلى الأحنف بن قيس، ولواء كرمان[٣] مع سهيل بن عدي، ولواء سجستان[٤] إلى عاصم بن عمرو، وكان عاصم من الصحابة، ولواء مكران[٥] إلى الحكم بن عمير التغلبي، فعسكروا ليخرجوا إلى هذه الكور فلم يستتب مسيرهم حتى دخلت سنة ١٨هـ/٦٣٩م، وأمدَّهم عمر بأهل الكوفة، فأمدَّ سهيل بن عدى بعبد الله بن عبد الله بن عتبان، وأمدَّ الأحنف بعلقمة بن النضر، وبعبد الله بن أبي عقيل، وبربعي بن عامر، وبابن أم غزال، وأمدَّ عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الأشجعي، وأمدَّ الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق المازني[٦].

وفى سنة ٢٢هـ/٦٤٣م غزا الأحنف بن قيس خراسان، وقيل سنة ١٨هـ/٦٣٩م، وسبب ذلك

---

(١) يضربون جأشا:يسكنون.

(٢) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان وتشتمل على أمهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، ياقوت الحموى، ج٢، ص٣٥٠.

(٣) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، ياقوت الحموى، ج٤، ص٥٥٤.

(٤) سجستان: يقال إن اسم سجستان للناحية ومدينتها زرنج، وبينها وبين هراة عشرة أيام، ثمانون فرسخا، وهي جنوبي هراة، وأرضها كلها رملة سبخة. ياقوت الحموى، ج٣، ص١٩٠.

(٥) مكران: ولاية عظيمة واسعة، وهذه الولاية بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند في شرقيها، ياقوت الحموى، ج٥، ص١٨٠.

(٦) الطبري، ج٤، ص٩٤، ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٣٤، محمد الخضري: تاريخ الدولة الأموية، ج١، ص٢٤٣، أكرم ضياء العمري، ص٣٦٤، سامي ريحانا:معارك العرب منذ قبل الإسلام حتى حروب الخليج، الفتوحات الكبرى، دار نوبليس، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م، المجلد الخامس، ص١٣٠،

ABDUL AZIZ ELSHINNAW : op.cit.pp 237-238

أن يزدجرد[١] ملك الفرس لما سار إلى الري[٢] بعد هزيمة أهل جلولاء[٣]، وانتهى إليها وعليها أبان جاذويه وثب عليه فقال يزدجرد: يا أبان، أتغدر بي فقال: لا ولكن قد تركت ملكك فصار في يد غيرك فأحببت أن أكتتب على ما كان لي من شيء، وأخذ خاتم يزدجرد واكتتب الصكاك [وسجل السجلات] بكل ما أعجبه، ثم ختم عليها ورد الخاتم، ثم أتى بعد سعدا فرد عليه كل شيء في كتابه[٤].

وسار يزدجرد من الري إلى أصبهان[٥] ثم منها إلى كرمان[٦] والنار معه، ثم قصد خراسان فأتى مرو[٧] فنزلها وبنى بيتا للنار واطمأن وأمن من أن يُؤتى، وادان له من بقي من الأعاجم، وكاتب الهرمزان، وأثار أهل فارس فنكثوا، وأثار أهل الجبال والفيزران[٨]، فأذن عمر للمسلمين

(١) يزدجرد الثالث:: آخر ملوك الفرس الساسانيين حكم من سنة ٦٣٢م حتى سنة ٦٥١م ، انتصر العرب على قواته في معركة القادسية عام ٦٣٦، ٦٣٧م، وفي معركة نهاوند عام ٦٤٢م، فراح يهيم على وجهة من مقاطعة لأخرى حتى اغتيل في مرو، وبسقوطه سقطت دولة الساسانيين، منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص٥٠٤.

(٢) الري: قصبة بلاد الجبال وبينها وبين نيسابور مئة وستون فرسخا. ياقوت الحموي، ج٣، ص ص١١٦-١١٧.

(٣) جلولاء: طسوج من طساسيج السواد في طريق خراسان، بينها وبين خانقين سبعة فراسخ، وبها كانت الواقعة بين المسلمين والفرس سنة ١٦هـ، فسميت جلولاء الوقيعة لما أوقع المسلمون بالفرس، وسميت جلولاء لما جللها من قتلاها. ياقوت الحموى، ج٢، ص١٥٦.

(٤) الطبري، ج٣، ص١٦٦، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٥٥-٧٥٦، ابن الأثير، ج٢، ص٤٣٤، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل ذكار، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٥٦٤.

(٥) أصبهان: مدينة مشهورة من أعيان المدن، ويسرف الجغرافيون في وصف مزاياها، وهو اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولا جيا، ثم صارت اليهودية. ياقوت الحموى، ج١، ص٢٠٦.

(٦) كرمان: ناحية كبيرة واسعة ذات بلاد كثيرة، بين فارس ومكران وسجستان وخراسان، فشرقيها مكران ومفازة مكران والبحر من وراء البلوص، وغربيها أرض فارس، وجنوبيها بحر فارس، وشماليها مفازة خراسان، ياقوت الحموى، ج٤، ص٤٥٤.

(٧) مرو: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام وهي مدينتان مرو الروذ ومرو الشاهجان، والنسبة إلى مرو مروزي: ياقوت الحموي، ج٥، ص١١٢.

(٨) الفيزران: من قرى أصبهان ثم من ناحية النخان، من أحسن القرى وأطيبها هواء، ياقوت الحموى، ج٤، ص٢٨٣.

فدخلوا بلاد فارس، فسار الأحنف إلى خراسان فدخلها من الطبسين[(١)] فافتتح هراة[(٢)] عنوة واستخلف عليها صحار بن فلان العبدى[(٣)]، ثم سار نحو مرو الشاهجان فأرسل إلى نيسابور مطرف بن عبد الله الشخير[(٤)]، وإلى سرخس[(٥)] الحارث بن حسان[(٦)].

فلما دنا الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد إلى مرو الروذ حتى نزلها، ونزل الأحنف مرو الشاهجان، وكتب يزدجرد -وهو بمرو- إلى خاقان، وإلى ملك الصغد يستمدهم[(٧)].

وخرج الأحنف من مرو الشاهجان واستخلف عليها حارثة بن النعمان الباهلي بعدما لحقت به أمداد أهل الكوفة [على أربعة أمراء:علقمة بن النضر النضري، وربعي بن عامر التميمي، وعبد الله بن أبي عقيل الثقفي، وابن أم غزال الهمذاني] وسار نحو مرو الروذ فلما سمع

(١) الطبسين: قصبة ناحية بين نيسابور وأصبهان تسمى قهستان قاين، وهي بلدتان، كل واحدة تسمى طبس، إحداهما طبس العناب والأخرى طبس التمر. ياقوت الحموى، ج٤، ص٢٠.

(٢) هراة:مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة محشوة بالعلماء. ياقوت الحموى، ج٥، ص ص٣٩٦-٣٩٧.

(٣) صحار بن فلان العبدى: صحار بن عياش(عباس) بن شراحيل بن منقذ العبدي من بني عبد القيس، خطيب مفوه، كان من شيعة عثمان له صحبة وأخبار حسنة، وكان ممن شهدوا فتح مصر، ولما قتل عثمان قام صحار مطالبا بدمه، وشهد صفين مع معاوية وسكن البصرة وتوفي فيها سنة ٤٠هـ/٦٦٠. ابن سعد، ج٩، ترجمة ٣٧٩٧، ص٨٦، الزركلي، ج٣، ص٢٠١.

(٤) مطرف بن عبد الله الشخير: أبو عبد الله، زاهد من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة وأخبار، ثقة في ما رواه من حديث، ولد في حياة النبي، ﷺ، ثم كانت إقامته ووفاته بالبصرة سنة ٨٧هـ/٧٠٦م. الزركلي، ج٧، ص٢٥٠.

(٥) سرخس: مدينة قديمة من نواحي خراسان، كبيرة واسعة وهى بين نيسابور ومرو في وسط الطريق، بينها وبين كل واحدة منهما ست مراحل. ياقوت الحموي، ج٣، ص٢٠٨.

(٦) الحارث بن حسان الذهلي البكري: صحابي، كان شريفا مطاعا من السادة الشجعان، وشهد يوم الجمل ومعه راية بكر بن وائل فقتل وقتل معه ابن له وخمسة من أهله ورثاه بعض الشعراء توفي سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، الزركلي، ج٢، ص١٥٤.

(٧) الطبري، ج٤، ص ص١٦٧-١٦٨، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٥٦-٧٥٧، ابن الجوزي، ج٤، ص ص٣٢٢-٣٢٣، ابن الأثير، ج٢، ص ص٤٣٤-٤٣٥، ابن كثير، ج٧، ص ص١٠٣-١٠٤، محمد الخضري: تاريخ الدولة الأموية، ج١، ص٢٤٣، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص ص٩٢-٩٣، محمود شيت خطاب، ص٢١، أكرم ضياء العمري، ص٣٦٧، سامي ريحانا: معارك العرب، المجلد الخامس، ص ص١٣٥-١٣٧، حمدي شاهين: الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، دار القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ص١٨٨-١٨٩.

يزدجرد سار عنها إلى بلخ[١].

ونزل الأحنف مرو الروذ وقدم أهل الكوفة إلى يزدجرد، واتبعهم الأحنف فالتقى أهل الكوفة ويزدجرد ببلخ فانهزم يزدجرد [في أهل فارس] وعبر النهر، ولحق الأحنف بأهل الكوفة، وقد فتح الله عليهم، فبلخ من فتوح أهل الكوفة، وتتابع أهل خراسان من هرب وشذ على الصلح بين نيسابور [٢] وطخارستان[٣].

وعاد الأحنف إلى مرو الروذ فنزلها واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر، وكتب الأحنف إلى عمر بالفتح، فقال عمر: (إني لم أكن بعثت إليها جندا، ولوددت أن بيننا وبينها بحرا من نار)، فقال علي: (ولم يا أمير المؤمنين؟) قال: (لأن أهلها سينقضون منها ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة، فكان ذلك بأهلها أحب من أن يكون بالمسلمين). وكتب عمر إلى الأحنف أن يقتصر على ما دون النهر ولا يجوزه، وقال له: (لقد علمتم بأي شيء دخلتم خراسان فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر). وأطلق عليه سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه[٤].

ولما عبر يزدجرد النهر مهزومًا أنجده خاقان الترك وأهل فرغانة[٥] والصغد[٦]، فرجع يزدجرد

---

(١) بلخ: مدينة مشهورة، من أجلّ وأهمّ مدن خراسان، تحمل غلتها لجميع خراسان وخوارزم، ياقوت الحموي، ج١، ص٤٧٩.

(٢) نيسابور: مدينة عظيمة وصفها ياقوت بقوله: (إنه لم ير أحسن منها)، وقد خرج منها كثير من العلماء، ياقوت الحموي، ج٥، ص٣٣١.

(٣) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد، وهي من نواحي خراسان، ومن مدن طخارستان: خلم وسمجنان وبغلان، وأكبر مدنها طالقان. ياقوت الحموي، ج٤، ص٢٣.

(٤) الطبري، ج٤، ص١٦٨، ابن الأثير، ج٢، ص٤٣٥، ابن كثير، ج٧، ص١٠٤.

(٥) فرغانة: مدينة وكورة واسعة ببلاد ما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان، ياقوت الحموي، ج٤، ص٢٥٣.

(٦) الصغد: بضم الصاد كورة عجيبة قصبتها سمرقند، وقيل: هم صغدان صغد سمرقند، وصغد بخارى. ياقوت الحموي، ج٣، ص٤٠٩.

وخاقان إلى خراسان فنزلا بلخ ورجع أهل الكوفة إلى الأحنف بمرو الروذ، ونزل المشركون عليها بمرو أيضا، وكان الأحنف لما بلغه خبر عبور يزدجرد وخاقان النهر إليه خرج ليلا يتسمع برأي ينتفع به، فمرَّ برجلين ينتقيان علفا وأحدهما يقول لصاحبه: لو أسندنا الأمير إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا وكان الجبل في ظهورنا فلا يأتوننا من خلفنا، وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله. واستمع الأحنف لرأي الرجلين وقاتل قتالا شديدا، وعبَّر عن ذلك بأبيات من شعره تدل على قوته وصلابته في الحرب(١).

ثم انصرف الأحنف إلى معسكره، وكانت عادة الترك أنهم لا يخرجون حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم أكْفاء كلهم يضرب بطبله، ثم يخرجون بعد خروج الثالث، والواقع أن طريقة المبارزة التي تسبق القتال الفعلي كانت تحدث عند كثير من الجيوش وفى كثير من المعارك، ونحن نذكر موقعة بدر والمبارزة التي جرت بين القادة المسلمين وقادة قريش، وأرجح أن هذه الطريقة كانت تلجأ إليها الجيوش القديمة لعدة أسباب منها:

١- إظهار القوة العسكرية أمام العدو في بداية المعارك لإرهابه وبيان ضعف قوته العسكرية من أول اللقاء.

٢- توفير الجهد والوقت والدماء في حالة ما إذا انتهت المعركة على هذا النحو.

فلما خرجوا تلك الليلة بعد الثالث أتوا على فرسانهم مقتلين، تشاءم خاقان وتطير فقال: قد طال مقامنا وقد أصيب فرساننا، ما لنا في قتال هؤلاء القوم خير، فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولم يروا منهم أحدا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان بمرو الروذ وانصرف إلى مرو الشاهجان فتحصن حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج خزائنه من موضعها وخاقان مقيم ببلخ، فقال المسلمون للأحنف: (ما ترى في أتباعهم) فقال: (أقيموا

---

(١) الطبري:ج٤، ص ص١٦٩-١٧٠، ابن عساكر، ج٢٤، ص٣١٣، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٥٨-٧٥٩، ابن الجوزي، ج٤، ص٣٢٢، ابن الأثير، ج٢، ص٤٣٥، ابن كثير، ج٧، ص ص١٠٣-١٠٤، محمود شيت خطاب، ص٢٢٤، سامي ريحان، المجلد الخامس، ص١٤٠، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، المجلد السادس (عصر الخلفاء الراشدين) ج٤، ص ص٢٨١-٢٨٢.

مكانكم ودعوهم)[١].

وأراد يزدجرد أن يستولي على الخزائن والأموال ويهرب، ولكن أهل فارس منعوه، وأقام يزدجرد ببلد الترك فلم يزل مقيما زمن عمر كله إلى أن كفر أهل خراسان زمن عثمان وكان يكاتبهم ويكاتبونه[٢].

ثم أقبل أهل فارس بعد رحيل يزدجرد على الأحنف فصالحوه وعاقدوه ودفعوا إليه تلك الخزائن والأموال وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا عليه زمن الأكاسرة، واغتضبوا بملك المسلمين، وأصاب الفارس يوم يزدجرد كسهمه يوم القادسية، وسار الأحنف إلى بلخ فنزلها بعد عبور خاقان النهر منها، ونزل أهل الكوفة في كورها الأربع، ثم رجع إلى مرو الروذ فنزلها، وكتب إلى عمر بالفتح، وبعث إليه بالأخماس، ووفد إليه الوفود، ولما عبر خاقان ويزدجرد النهر لقوا رسول يزدجرد الذي أرسله إلى ملك الصين فأخبرهما أن ملك الصين طلب منه وصف العرب المسلمين وبعد وصفهم اقترح عليه أن يسالمهم ولا يهيجهم، فأقام يزدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعدة من خاقان[٣].

---

(١) الطبري، ج٤، ص١٧٠، ابن مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص ص٢٥٧-٢٥٩، ولكنه ذكرها ضمن أحداث٣١هـ، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ٧٥٩، ابن الجوزي ج٤، ص ص٣٢٢-٣٢٣، ابن الأثير، ج٢، ص ص٤٣٥-٤٣٦، ابن كثير، ج٧، ص١٠٤، سامي ريحانا، المجلد الخامس، ص ص١٣٩-١٤٠ ، وذكر أن عدد جيش الأحنف بعد معركة بلخ بلغ ٢٠ ألفا، محمود شيت خطاب، ص٢٢٤، حمدي شاهين، الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، ص١٨.

(٢) الطبري، ج٤، ص ص١٧٠-١٧١، ابن مسكويه، ج١، ص٢٥٩، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص٧٦٠، ابن الجوزي، ج٤، ص٣٢٣، ابن الأثير، ج٢، ٤٣٦، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص ص٥٦٣-٥٦٤، سامي ريحانا، المجلد الخامس، ص ص١٤٢-١٤٤، وكان يزدجرد قد ظن أنه رأى في الحلم النبي، ﷺ، وأنهما تناجيا عند الله، فقال له- يعني النبي - أملكهم مئة سنة فقال: زدني فقال: عشر ومئة: قال: زدني، فقال: مئة وعشرين سنة، فقال: لك، فقال يزدجرد لخواصه حين أيقظوه: فلو تركتموني لعلمت مدة هذه الأمة، وهذه الرواية تدل على روح العصر التي نشأت فيه والذي كانت تمثل فيه الأحلام والرؤى شيئا مهما، كما كان لعلم الكهانة دور مهم في انتشار تلك الأشياء.

(٣) الطبري، ج٤، ص١٧١-١٧٣، ابن مسكويه، ج١، ص ص٢٥٩-٢٦١، ابن حبيش المجلد الثاني، ص ص٧٦٠-٧٦١، ابن الأثير، ج٢، ص ص٤٣٦-٤٣٧، ابن كثير، ج٧، ص١٠٤، محمود شيت خطاب، ص٢٢٥، وقد وصف رسول يزدجرد لملك الصين المسلمين بأنهم يوفون بالعهد، ويدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وأنهم أطوع قوم لقائدهم، وأنهم يحاربون بالخيل والدواب فنصحه ملك الصين بمهادنتهم، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٦١-٧٦٢.

ولما وصل خبر الفتح إلى عمر بن الخطاب ﷺ جمع الناس وخطبهم وقرأ عليهم كتاب الفتح وحمد الله في خطبته على إنجاز وعده ثم قال: (ألا وإن ملك المجوسية قد هلك، فليسوا يملكون من بلادهم شبرا يضر بمسلم، ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون، فلا تبدلوا فيستبدل الله بكم، فإني لا أخاف على هذه الأمة إلا أن تؤتى من قبلكم)[١]. وبذلك يكون دور الأحنف قد انتهى في عهد عمر بن الخطاب، وسوف يثور الفرس بتحريض من يزدجرد في عهد عثمان بن عفان، وسيقوم الأحنف بإعادة فتح خراسان مرة أخرى سنة٣١هـ.

فتوح قم وقاشان واليهودية:

لما انصرف أبو موسى الأشعري ﷺ من نهاوند[٢] سار إلى الأهواز فاستقراها ثم أتى قم[٣]، وأقام عليها أياما، ثم افتتحها ووجه الأحنف بن قيس إلى قاشان[٤] ففتحها عنوة ثم لحق به، ووجه عمر بن الخطاب عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي[٥] إلى أصبهان سنة ٢٣هـ/٦٤٣م، ويقال بل كتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يأمره بتوجيه جيش إلى أصبهان، فوجه عبد الله بن بديل الخزاعي إلى جي[٦] ففتحها صلحا بعد قتال، على أن يؤدي أهلها الخراج والجزية، وعلى

---

(١) الطبري، ج٤، ص١٧٣، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٦١-٧٦٢، ابن الأثير، ج٢، ص٤٣٧، ابن كثير، ج٧، ص١٠٤، سامي ريحانا، المجلد الخامس، ص ص١٤٣-١٤٤.

(٢) نهاوند: معركة عظيمة حدثت وانتصر فيها المسلمون على الفرس سنة ٢١هـ، ونهاوند بفتح النون الأولى وتكسر، والواو مفتوحة. مدينة عظيمة في قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام. ياقوت الحموي، ج٥، ص٣١٣.

(٣) قم: بالضم وهي كلمة فارسية وهي مدينة مستحدثة في الإسلام لا أثر لأعاجم فيها، وهي بين أصبهان وساوة، وأهلها كلهم شيعة إمامية. ياقوت الحموي، ج٤، ص٣٩٧.

(٤) قاشان: مدينة قرب أصبهان، تذكر مع قم، وأهلها كلهم شيعة إمامية، وبين قم وقاشان ١٢فرسخا. ياقوت الحموي، ج٤، ص ص٢٩٦-٢٩٧.

(٥) عبد الله بن بديل الخزاعي: صحابي كان من الدُهاة الفصحاء، انتهت إليه السيادة في خزاعة، أسلم يوم الفتح وشهد حنينا والطائف وتبوك وقاتل مع علي بصِفّين، فكان قائد الرجالة، ولم يزل يضرب حتى انتهى إلى معاوية فأزاله عن موقعه، فتكاثر عليه أصحاب معاوية فقتل سنة ٣٧هـ/٦٥٧م. الزركلي، ج٤، ص٧٣.

(٦) جي: اسم مدينة ناحية أصبهان القديمة، وتسمى شهرستان، بينها وبين اليهودية ميلان. ياقوت الحموي، ج٢، ص٢١٢.

أن يؤمنهم على أنفسهم، وأموالهم خلا ما في أيديهم من السلاح، ووجه عبد الله بن بديل الأحنف بن قيس وكان في جيشه إلى اليهودية(١)فصالحه أهلها على مثل ذلك الصلح، وكان فتح أصبهان وأهلها في بعض سنة ٢٣/٢٤هـ، وعلى ذلك يكون الأحنف قد شارك في فتح قم واليهودية وقاشان مع أبي موسى الأشعري وعبد الله بن بديل الخزاعي، كما شهد فتح نهاوند مع أهل البصرة الذين جاءوا مددا لأبي موسى الأشعري(٢).

إعادة فتح خراسان في عهد عثمان بن عفان، رضي الله عنه(٣):

---

(١) اليهودية: نسبة إلى اليهود في موضعين: أحدهما محلة في جرجان، والأخرى بأصبهان وهي موضع إلى جانب جي مدينة أصبهان، ومدينة أصبهان العظمى هي اليهودية، ياقوت الحموي، ج٥، ص ص٤٥٣-٤٥٤.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، شرحه وحققه وعلق على حواشيه وأعد فهارسه وقدم له: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، د.ت، ص ص٤٣٦-٤٣٨. ياقوت الحموي، ج١، ص ص٣٠٦-٢١٠، محمود شيت خطاب، ص٢٢٠.

(٣) اختلفت أقوال المؤرخين حول السنة التي أعاد فيها المسلمون فتح خراسان، فيرى خليفة بن خياط أنها حدثت سنة ٣٠هـ/٦٥١م، ص١٦٤. ويتبعه في هذا الرأي كل من اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، المجلد الثاني، ص١٦٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ص٣٣٠-٣٣١، دول الإسلام، حققه وعلق عليه: حسن إسماعيل، قرأه وقدم له: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج١، ص ص٢٠-٢١، العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج١، ص ص٢١-٢٢، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص١٩١.

ويرى البعض أنها حدثت سنة ٣١هـ/٦٥٢م، ومنهم الطبري، ج٤، ص ص٣٠٠-٣٠٣، ابن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ج٢، ص٣٤٠، المطهر بن طاهر المقدسي: كتاب البدء والتأريخ، باريس، ١٨٩٩م، ج٥، ص١٩٨، ابن حبيش، المجلد الثاني، س ص٧٩٤-٧٩٧، ابن الجوزي، ج٥، ص١٥، ابن الأثير، ج٣، ص ص١٨-٢١، الخضري: الدولة الأموية، ج٢، ص٢٧٦، إتمام الوفاء في سير الخلفاء، ص١٤٩، محمود شيت خطاب، ص ص٢٢٦-٢٢٨، أكرم ضياء العمري، ص٣٦٨، سامي ريحان: معارك العرب، المجلد الخامس، ص ص١٦٦-١٦٧، محمد نصر مهنا: الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية في آسيا، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٦٨، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، دار الجيل بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠١م، ج١، ص٢١١.

HUGY KENNDY, *The PROPHET and The AGE OF The CALIPHATES The ISLamic* Near East from the Sixth to eleventh century, long man group Limited, London , seventh impression ,1996, p72-

- ABDUL AZIZ ELSHINNAW, P271 =

بعد تولي عبد الله بن عامر[1] البصرة سنة ٢٩هـ/٦٥١م، وقتل عمر بن الخطاب نقض أهل خراسان وغدروا، فلما افتتح ابن عامر فارس قام إليه حبيب بن أوس التميمي، فقال له: أيها الأمير إن الأرض بين يديك، ولم يفتح منها إلا القليل فسر؛ فإن الله ناصرك، قال: أو لم نؤمر بالمسير، وكره أن يظهر أنه قبل رأيه.

وقيل: إن ابن عامر لما فتح فارس عاد إلى البصرة واستخلف على إصطخر شريك بن الأعور الحارثي، فلما دخل البصرة أتاه الأحنف بن قيس، وقيل غيره فقال له: إن عدوك منك هارب، ولك هائب، والبلاد واسعة فسِرْ فإن الله ناصرك، ومعز دينه، فتجهز وسار، واستخلف على البصرة زيادا[2]، وسار إلى كرمان فاستعمل عليها مجاشع بن مسعود السلمي وله صحبة، وأمره بمحاربة أهلها، وكانوا قد نكثوا أيضا، واستعمل على سجستان الربيع بن زياد الحارثي، وكانوا قد غدروا ونكثوا، وسار ابن عامر إلى نيسابور وجعل على مقدمته الأحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما بابا خراسان فصالحه أهلهما، وسار إلى قهستان[3] فلقيه أهلها وقاتلهم حتى ألجأهم

- وذكرها ابن كثير في حوادث سنة 32هـ/653م، ج7، ص ص130-129، ولكننا نميل إلى أن الفتح الثاني لخراسان كان سنة 31هـ، كما ذكر ذلك معظم المؤرخين، كما أن ابن عامر تولى إمارة البصرة سنة 29هـ، ومن الصعب أن يواصل الفتوح بعد عام واحد من ضبط ولايته؛ لذا نظن أنه انتظر عامين حتى تستقر شؤون الولاية خاصة مع وجود والى جديد لها، ثم استأنف فتح خراسان سنة 31هـ .

(١) عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة الأموي القرشي ولد سنة ٤هـ/٦٢٥م، وولي البصرة سنة ٢٩هـ فوجه جيشا إلى سجستان فافتتحها صلحا، وافتتح الدامور، وبلادا من دار أبجرد ومرو الروذ وسرخس وأبرشهر وطوس وطخارستان وبلخ والطالقان، وتوفي بمكة سنة ٥٩هـ/٦٧٩م. الزركلي، ج٤، ص٩٤.

(٢) زياد بن أبيه: أمير من الدهاء، القادة، الفاتحين الولاة، من أهل الطائف اختلفوا في اسم أبيه فقيل عبيدة الثقفي، وقيل أبو سفيان، ولدته أمه سمية (جارية الحارث بن كلدة الثقفي) في الطائف وتبناه عبيدة الثقفي (مولى الحارث بن كلدة أيضا)، وألحقه معاوية بنسبه وولاه البصرة سنة ٤٥هـ/٦٦٥م، وكان من الولاة الأشداء، وتوفي سنة ٥٣هـ/٦٧٣م، ابن سعد، ج٩، ص ص٩٨-٩٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ص٤٩٤-٤٩٧، الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٥٣.

(٣) قهستان: هي مجموعة جبال بين هراة ونيسابور، أحد أطرافها متصل بنواحي هراة ثم يمتد في الجبال طولا حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان وبروجرد. ياقوت الحموي، ج٤، ص٤١٦.

إلى حصنهم، وقدم عليها ابن عامر فصالحه أهلها على ست مئة ألف درهم.

وقيل كان المتوجه إلى قهستان أمير بن أحمر اليشكري، وهي بلاد بكر بن وائل، وبعث ابن عامر سرية إلى رستاق زام من أعمال نيسابور أيضا ففتحه عنوة وفتح باخرز[١] من أعمال نيسابور أيضا، وفتح جوين[٢] من أعمال نيسابور، ووجه ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوي من عدي الرباب، وكان ناسكا إلى بيهق[٣]، ووجه ابن عامر الأحنف بن قيس إلى طخارستان، فمرَّ برستاق يعرف برستاق الأحنف[٤] ويدعى سوانجرد فحصرها أهلها فصالحوه على ثلاث مئة ألف درهم، فقال الأحنف:أصالحكم على أن يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه ويقيم فيكم حتى ينصرف فرضوا بذلك[٥].

إعادة فتح مرو الروذ:

بعد فتح سوانجرد (رستاق الأحنف) مضى الأحنف إلى مرو الروذ - وكان قد فتحها سنة ٢٢هـ - فقاتله أهلها فقتلهم وحصرهم وهزمهم، وكان مرزبانها من أقارب باذان صاحب اليمن، فكتب إلى الأحنف أنه دعاني إلى الصلح إسلام باذان، فصالحه على٦٠٠ ألف درهم، وسير سرية فاستولت على رستاق بغ واستاقت منه مواشي ثم صالحه أهلها، وجمع له أهل طخارستان،

---

(١) باخرز: بفتح الخاء كورة ذات قرى كبيرة تشتمل على ١٦٨ قرية صغيرة، وهي بين نيسابور وهراة. ياقوت الحموي، ج١، ص٣١٦.

(٢) جوين: اسم كورة جليلة على طريق القوافل بين بسطام ونيسابور، حدودها متصلة ببيهق من جهة القبلة، وبحدود جرجام من جهة الشمال، وتحتوي على ١٨٩ قرية كل واحدة متصلة بالأخرى. ياقوت الحموي، ج٢، ص١٩٢.

(٣) بيهق: تعني بالفارسية الأجود، وهي ناحية كبيرة كثيرة البلدان والعمارة، من نواحي نيسابور، بين أول حدودها ونيسابور ستون فرسخًا. ياقوت الحموي، ج١، ص٥٣٧.

(٤) رستاق الأحنف: ويعرف بقصر الأحنف من نواحي طخارستان. ياقوت الحموي، ج٤، ص٣٥٥.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٧١، اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٦٧، ابن الأثير، ج٣، ص ص١٩-٢٠، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص٥٧٩.

ABDUL AZIZ ELSHINNAW,p277 -

فاجتمع له أهل الجوزجان[١] والطالقان[٢] والفارياب[٣]، ومن حولهم في خلق كثير فالتقوا، واقتتلوا، وحمل ملك الصغانيان على الأحنف واستطاع الأحنف هزيمته، وعاد إلى مرو الروذ[٤].

ولحق بعض العدو بالجوزجان فوجه إليهم الأقرع بن حابس التميمي[٥] في خيل وقال: يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تعدل أموركم، وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم. فسار الأقرع فلقي العدو بالجوزجان فكانت بالمسلمين جولة، ثم عادوا فهزموا المشركين، وفتحوا الجوزجان عنوة.

وفتح الأحنف الطالقان صلحا وفتح الفارياب، وقيل: بل فتحها أمير بن أحمر، ثم سار الأحنف إلى بلخ، وهي مدينة طخارستان فصالحه أهلها على ٤٠٠ ألف، وقيل ٧٠٠ ألف درهم، واستعمل على بلخ أسيد بن المتشمس، ثم سار إلى خوارزم[٦]، وهي على نهر جيحون، فلم يقدر عليها.

---

(١) جوزجان: كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهي بين مرو الروذ وبلخ، وقصبتها اليهودية. ياقوت الحموي، ج٢، ص١٨٢.

(٢) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ، وبينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل، وهي أكبر مدينة بطخارستان، وهي المقصودة في البحث، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر، وبها عدة قرى يقع عليها هذا الاسم. ياقوت الحموي، ج٤، ص ص٦-٧.

(٣) الفارياب:مدين مشهورة بخراسان من أعمال جوزجان قرب بلخ غربي جيحون. ياقوت الحموي، ج٤، ص٢٢٩.

(٤) البلاذري:فتوح البلدان، ص٥٧١، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٩٤-٧٩٦، ابن أعثم الكوفي، كتاب الفتوح، ج٢، ص ص٣٤٠-٣٤١، المطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتأريخ، ج٥، ص١٩٨، اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٦٧، ابن عساكر، ج٢٤، ص٣١٤، ابن كثير، ج٧، ص١٢٩، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص٥٧٩، محمد الخضري، الدولة الأموية، ج٢، ص٢٧٦، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، ص١٤٩، محمود شيت خطاب، ص ص٢٢٦-٢٢٧، سامي ريحانا، معارك العرب، المجلد الخامس، ص ص١٦٦-١٦٨، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي، المجلد السادس، ج٤، ص ص٣٨١-٣٨٢.

- ABDUL AZIZ ELSHINNAW ,p277

(٥) الأقرع بن حابس التميمي: صحابي من سادات العرب في الجاهلية، قدم على رسول الله ﷺ في وفد بني دارم من بني تميم، فأسلموا وشهد فتح الطائف وحنين، وفتح مكة وسكن المدينة، وكان من المؤلفة قلوبهم، ورحل إلى دومة الجندل في خلافة أبي بكر الصديق، وكان مع خالد بن الوليد في أكثر معاركه حتى اليمامة، واستشهد بالجوزجان سنة ٣١هـ/٦٥١م. ومن المؤرخين من يقول إن اسمه فراس وإن الأقرع لقبه لقرع برأسه، وكان حكما في الجاهلية، ابن سعد، ج٩، ص٣٧، الزركلي، ج٢، ص٥، منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص٦٠.

(٦) خوارزم: ولاية كبيرة عامرة دمرها التتار في غزوات ما وراء النهر سنة ٦١٦هـ. ياقوت الحموي، ج٢، ص٣٩٦.

فعاد إلى بلخ وقد قبض أسيد صلحها، ووافق وهو يجيبهم بالمهرجان، فأهدوا له هدايا كثيرة من دراهم، ودنانير، وأواني، وثياب، وغير ذلك، فقال لهم: ما صالحناكم على هذا، فقالوا: هذا شيء نفعله في هذا اليوم بأمرائنا فقال: ما أدري ما هذا، ولعله من حقي، ولكني أقبضه حتى أنظر، فقبضه حتى قدم الأحنف، فأخبره فسألهم عنه، فقالوا له: ما قالوا لأسيد، فحمله إلى ابن عامر وأخبره عنه، فقال: خذه يا أبا بحر، فقال: لا حاجة لي به، فأخذه ابن عامر(١).

تقييم دور الأحنف في الفتوح الإسلامية:

شارك الأحنف في الفتوحات الإسلامية مثله مثل كل مسلم حين يسمع داعي الجهاد يلبي مسرعا، فقد شارك أميرا وقائدا وجنديا، فعندما أرسله عمر بن الخطاب إلى خراسان سنة ٢٢هـ كان تحت القيادة المباشرة لأمير المؤمنين، كما حارب تحت قيادة والي البصرة عبد الله بن عامر سنة ٣١هـ، وشارك تحت قيادة عبد الله بن بديل الخزاعي في فتوح قم وقاشان واليهودية جنديا، والذي كان بدوره تحت قيادة أبي موسى الأشعري، وشارك أيضا بالرأي والفكر والتوجيه؛ فقد رأينا أنه اقترح على عمر بن الخطاب مواصلة الفتوحات في فارس، وبرَّر ذلك بوجود الملك الفارسي الذي كان يؤيد ويساعد السكان على إحداث الفوضى والثورات والاضطرابات ضد الفاتحين الجدد، وقد اقتنع أمير المؤمنين بوجاهة رأي الأحنف، وأمَّرَه على أحد الجيوش المتجهة إلى فارس، ألا وهو جيش خراسان، وكان اختيار عمر للأحنف كأحد قادة الجيوش الإسلامية راجعا أيضا لدوره في الدعوة الإسلامية، فقد تصدى لبني مرَّة حين أرسل النبي ﷺ دعاته وأرادوا أن يعتدوا عليهم فوقف مدافعا عنهم، كما لا ننسى أن الأحنف كان أحد كبار رجال البصرة ومن أكبر قبائلها وهى قبيلة تميم، وقد عرف أمير المؤمنين قَدْرَه، فحين علم بنتائج فتوحاته في خراسان وانتصاراته سماه: (سيد المشرق المسمى بغير اسمه)؛ لأن اسمه الأحنف، وتعني المائل أو المعْوَجّ، وقد ظهرت في الفتوحات قدرات الأحنف القيادية، فهو يشاور جنده

---

(١) البلاذري، ص ص٥٧٢-٥٧٣، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص٧٩٧، ابن الأثير، ج٣، ص٢٠، ابن كثير، ج٧، ص ص١٢٩-١٣٠، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص٥٧٩، محمود شيت خطاب، ص٢٢٧، سامي ريحانا: معارك العرب، المجلد الخامس، ص١٦٨، عبد العزيز الحميدي: التاريخ الإسلامي، المجلد السادس، ج٤، ص٣٨٣.

ويأخذ بما يراه مناسبا من آراء، فقد سمع أحد الآراء من بعض جنده في فتح خراسان فرآه حسنا وقام بتطبيقه في حروبه، وقد استخدم شجاعته في مبارزة قادة الفرس في إحدى المعارك، فكفى جنده وجيشه مشقة بعض الجهد في هذه الحروب، كما أوضحت الفتوحات أخلاق المسلمين والعرب عامة وأخلاق الأحنف بصفة خاصة، فحين أعطى أهل بلخ أسيد بن المتشمس هدايا كثيرة من دراهم ودنانير وأواني وثياب لم يأخذها، وأعطاها للأحنف الذي لم يأخذها وأعطاها بدوره إلى ابن عامر الذي أراد أن يعطيها للأحنف فقال: لا حاجة لي فيها.

وهذا الموقف يوضح الأمانة والزهد اللذين كان يتمتع بهما المسلمون وقادتهم، فقد رفض أسيد والأحنف أن يأخذا شيئا ليس من حقهما، وهذا يدل على أن المسلمين لم يكن غرضهم من فتوحاتهم المال فقط، فقد كان الغرض الرئيسي من الفتوحات هو نشر الدعوة الإسلامية والاستجابة لله ورسوله، ودليل آخر على نقاء وصفاء الدعوة الإسلامية وحب المسلمين لدينهم ونشره بشتى الوسائل والطرق، فحين وجه ابن عامر الأحنفَ إلى طخارستان فمر برستاق الأحنف ويدعى سوانجرد فحصرها أهلها فصالحوه على ٣٠٠ ألف درهم، فصالحهم الأحنف على أن يدخل رجل من المسلمين القصر فيؤذن فيه ويقيم حتى ينصرفوا، وذلك من مظاهر السيادة والسيطرة التي فرضها المسلمون على البلاد التي فتحوها.

وأسفرت هذه المعارك عن نتائج اقتصادية مهمَّة، وهى أموال الجزية التي كان يأخذها المسلمون من البلاد التي فتحوها والتي كانت تسهم في تجهيز الجيوش وإصلاح البلاد الإسلامية والإنفاق على منشآت ومصالح الدولة، خاصة وأن الدولة كانت في طور الإنشاء وتحتاج لكل الأموال حتى تنفقها في مظانها، ومن أمثلة ذلك الجزية التي حصل عليها الأحنف والتي كانت ٧٠٠ ألف درهم مرة، و٣٠٠ ألف مرة أخرى، كما ضمت هذه الفتوحات أراضي جديدة للدولة الإسلامية، وبذلك اتسعت الدولة الإسلامية، وأصبحت من الدول العظمى في عصرها، ويلاحظ أن البلاد المفتوحة خاصة بلاد فارس قد انتفضت أكثر من مرة بسبب وفاة عمر بن الخطاب، وظنهم أن سياسة الدولة ستتغير بوفاته، خاصة أن سياسة عمر كانت تميل إلى الصلابة والتحكم واللين في آن واحد، وكان يجيد التعامل مع كافة قضايا الدولة الإسلامية،

وكان يعرف كيف يتعامل مع البلاد المفتوحة والقوات المجاهدة.

والملاحظ أن عمر بن الخطاب عقد الألوية للفاتحين سنة ١٨هـ، ورغم ذلك فقد أرسل الجيوش سنة ٢٢هـ، ونرجح أن سبب ذلك راجع لانشغال عمر بالفتوحات في جهات كثيرة في الشام والعراق وبعض بلاد فارس، كما كان عمر يجهز الجيوش بالإمكانيات من عدة وعدد خلال هذه السنوات الأربع، وكان معروفا عن عمر التأني في الأمور وعدم التسرع، وذلك واضح من عدم رغبة عمر في غزو البحر في عهده، وأنه كان يلتزم دائما طريق النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، ولا يحيد عنهما، وبالتالي كان لا يخرج عن سُنَّتهم.

وكانت المعارك غالبا ما تبدأ بعدد محدد من القوات ثم يرى القائد أن يطلب من الخليفة إمدادات خاصة بعد أن يرى نتائج الفتوحات إما إيجابية فيحتاج قوات إضافية أو يتأزم الموقف فيحتاج قوات تساعده على تحمل الهجمات من الأعداء، أو يرى الخليفة أن قائد جيشه قد تأزم فيرسل له قوات أخرى أو يطلب من أحد قادته الآخرين أن يكون مددا وعونا له.

ومن أمثلة ذلك الأحنف بن قيس فقد بدأ غزو خراسان بقوات معينة، ثم أمده الخليفة بقوات إضافية عليها القادة الأربعة السابق ذكرهم.

وقبل أن ننتهي من هذا التقييم هناك سؤالان يتبادران للذهن يجب الإجابة عليهما، لماذا لم يشارك الأحنف في الفتوحات بعد خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه ولماذا لم يتول إمارة مدينة أو بلدة رغم مكانته ودوره المهم في الفتوحات

والجواب على ذلك أن الأحنف في الفترة التالية لوفاة عثمان بن عفان لم يشارك في الفتوحات لتوقف الفتوحات بوجه عام في فترة الفتن والصراع بين المسلمين، وبعد تولي معاوية خلافة المسلمين كان هناك آخرون اختارهم معاوية لمهمة الفتوحات، وقد يعود ذلك لكبر سن الأحنف إلى حد ما، رغم وجود قادة استطاعوا قيادة الجيوش وإحراز الانتصارات وهم في سن متقدمة، أو موقف من خلفاء بني أمية من الأحنف لتأييده لعلي بن أبي طالب مع اهتمامهم بالاستماع لنصائحه.

أما عن عدم تولِّيه إمارة مدينة أو بلدة فقد يكون مَرَدُّ ذلك إلى أن ولاة الأمر رأوا أن وجوده في قومه ومكانته كسيد بني تميم البصرة، أهمُّ عندهم من تولِّيه حكم مدينة أو إمارة إقليم حتى يكون رمانة الميزان في مدينته البصرة، وهي مدينة مهمَّة في الدولة الإسلامية؛ ليكون ذلك منعا للاضطرابات والفتن.

أو رأى هو أن يبتعد عن المناصب والحكم خوفًا من تبِعة تحمل المسؤولية.

ثالثا: مواقفه وآراؤه السياسية

كان لعقل الأحنف وفكره الثاقب دور في جعله من أهل الشورى وجماعة الرأي، لكل خليفة أو أمير أو قائد يستأنس برأيه ويأخذ من قوله، كما كان لمكانته في قومه وقبيلته - فهو سيد بني تميم البصرة - دور مهم في الاستماع لنصائحه، وقد مر بنا كيف أن قومه أسلموا بمشورته، وكيف كان له دور بارز في التصدي للاعتداء على رسل رسول الله، ﷺ، وموقفه من المرتدين أمثال مسيلمة الكذاب، وأنه أقنع الخليفة بمواصلة فتوح فارس، وكان لوجاهة رأيه وقوة حجته دور في تنفيذ الخليفة لمقترحه هذا.

وسوف نقسم هذا الجزء من البحث إلى عدة نقاط فرعية ملتزمين في ذلك بالبعد التاريخي والزمني لكل حدث أو موقف.

١- مواقفه مع عمر بن الخطاب:

وفد الأحنف على عمر سنة ١٧هـ/٦٣٨م، في وفد أرسله والي البصرة عتبة بن غزوان، ومعهم الهرمزان، وقد ذكرنا أحداث هذه الوفادة سابقا، وفي هذا الوفد أمر عمر الوفد أن يرفعوا حوائجهم، فلما قدموا على عمر عرض على الأحنف جائزة فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين ما قطعنا الفلوات ودأبنا الروحات العشيات للجوائز، وما حاجتي إلا حاجة من خلفي، وقد تكلم كل رجل في خاصة نفسه ، وكان الأحنف في آخر القوم، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ ثم قال: أما بعد، يا أمير المؤمنين فإن أهل مصر نزلوا منازل فرعون وأصحابه، وإن أهل الشام نزلوا منازل قيصر، وإن أهل الكوفة نزلوا منازل كسرى ومصانعه في الأنهار

العذبة والجنان الخصبة، وفى مثل عين البعير وكالحوار في السَّلى، تأتيهم ثمارهم قبل أن تبلغ، وإن أهل البصرة نزلوا في أرض سبخة، زعقة نشاشة لا يجف ترابها، ولا ينبت مرعاها، طرفها في بحر أجاج، والطرف الآخر في الفلاة، لا يأتينا شيء إلا في مثل مَرِّيء النعامة، فارفع خسيستنا، وأنعش وكيستنا، وزد في عيالنا، وفي رجالنا رجالا، وضع درهمنا وأكثر فقيرنا، ومُرْ لنا بنهر نستعذب به، فقال عمر: عجزتم أن تكونوا مثل هذا، هذا والله السيد، قال الأحنف: فما زلتُ أسمعها بعدُ[1]، وفى رواية الطبري: قال عمر: هذا الغلام سيد أهل البصرة، وكتب إلى عتبة فيه بأن يَسمع منه ويرجع إلى رأيه، وأقطعهم مما كان فيئًا لأهل كسرى.

وقد قدم على عمر بخبر فتح تُسْتَر سنة ١٧هـ/٦٣٨م، وهو نفس الوفد الذي أرسله عتبة بن غزوان فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله قد فتح عليك تُسْتَرَ، وهي من أهل البصرة، فقال رجل من المهاجرين: يا أمير المؤمنين، إن هذا - يعنى الأحنف - الذي كفَّ عنا بني مرة حين بعثنا رسول الله، ﷺ، في صدقاتهم، وقد كانوا هَمُّوا بنا، قال الأحنف: فحبسني عمر عنده سنة بالمدينة يأتيني في كل يوم وليلة، فلا يأتيه عني إلا ما يحب، فلما كان رأس السنة - أعني

---

(١) الطبري، ج٤، ص ص٧٤-٧٥، ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣١٢-٣١٣، ابن الأثير، ج٢، ص ص٣٨٧-٣٨٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ص٨٩-٩٠.

وورد هذا النص بألفاظ مختلفة عند المؤرخين، فذكر الطبري أن الوفد ذكروا لعمر أن العامة هو صاحبها، وأنه لم يبق إلا العامة وهو صاحبها، وأنه لم يبق إلا خواص أنفسهم، فطلبوا لأنفسهم، وأما الأحنف فقد قال: يا أمير المؤمنين، إنك لكما ذكروا، ولقد يعزب عنك ما يحق علينا إنهاؤه إليك مما فيه صلاح العامة، وإنما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر، ويسمع بآذانهم، ويقال: إن من أرسل الوفد هو أبو موسى الأشعري، وكان والي البصرة، وهذا الخلاف ناشئ من أن عتبة بن غزوان كان والي البصرة حتى توفي سنة ١٧هـ، ثم وليها بعده المغيرة بن شُعبة بقية السنة ووليها أبو موسى الأشعري آخر السنة، وهذا مما أحدث الخلط لدى المؤرخين، ويجوز أن يكون الوفدُ قدم مرتين؛ مرَّة في عهد عتبة بن غزوان، والأخرى في عهد أبي موسى الأشعري. الطبري، ج٤، ص٧٥.

وهناك بعض الألفاظ التي تحتاج لإيضاح وهي:

الحوار: ولد الناقة ساعة وضعه، والسَّلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه ملفوفا فيه وأراد بعين البعير الخصب.

النشاشة: النزارة، بئر زعقة: مرة.

الأرض السبخة: ذات ملح، ونزو المشاشة: الرخوة اللينة، وزعقة نشاشة: أي أرض ذات شقوق يظهر فيها ماء السباخ فينش فيها حتى يعود مِلْحًا. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٨.

سنة ١٨هـ/٦٣٩م - دعاني فقال: يا أحنف، هل تدري لم حَبَسْتُكَ عندي، قلت: لا يا أمير المؤمنين، فقال عمر: إن رسول الله، ﷺ، حذَّرنا كُلَّ منافقٍ عليم، فخشيتُ أن تكون منهم، فاحمد الله يا أحنف، وإني بلوتك وخبرتك فرأيتُ علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك[1].

ودافع الأحنف عن قومه من الانتقادات التي وجَّهها لهم عمر فقد ذكر عمر بني تميم فذمهم، فقام الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، ائذن لي، قال: تكلم، قال: إنك ذكرت بني تميم فعممتهم بالذم، وإنما هم من الناس، فيهم الصالح والطالح، فقال:صدقتَ، فقام الحتات وكان يناوئه، فقال: يا أمير المؤمنين، ائذن لي فلأتكلم، فقال: اجلس، فقد كفاكم سيدكم الأحنف[2].

٢-دوره في موقعتي الجمل وصفين والتحكيم:

إذا كان الإنسان يرى الأمور بشكل واضح في وقت معين فقد يراها غير واضحة في وقت آخر، وفي أزمنة الفتن والابتلاءات يتوه الحكيم، ويطيش عقل اللبيب، ويفقد الحليم حلمه، ورغم ذلك فقد ثبت الأحنف على رجاحة عقله، وقوة فكره، وثبات رأيه، ولم يكن يميل لرأي على حساب الآخر، إلا إذا رأى أن رأيه هو الصواب، وقد ذكرنا دوره في زمن الاستقرار والأمان، وسوف نرى أن دوره لن يقل عن ذلك في زمن الفتن التي مرت بها الأمة.

أ-دوره في موقعة الجمل:

بعد مقتل عثمان بن عفان، رضي الله عنه، في ١٨ ذي الحجة ٣٥هـ/٢٠مايو٦٥٦م، خرجت السيدة عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، رضي الله عنهما، إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان من قتلته، وذلك في أوائل سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وأرسلت إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس فشك في أمره، وبرر ذلك بأن في عنقه بيعة لعلي بن أبي طالب، وكان الأحنف قد بايع عليًّا بالمدينة بعد مقتل عثمان؛ لأنه كان قد خرج

---

(١) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣١٩-٣١٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٨.

(٢) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣١٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩١.

حاجًّا وعاد من الحج فبايعه، وقال الأحنف: ولم أبايع عليا حتى لقيت طلحة والزبير وعائشة بالمدينة، وأنا أريد الحج وعثمان محصور، فقلت لكل منهم: إن الرجل مقتول يعني عثمان فمن تأمروني أبايع فكلهم قال: بايعْ عليًّا، فقلت: أترضونه لي فقالوا: نعم، فلما قضيتُ حجي ورجعتُ إلى المدينة رأيتُ عثمان قد قُتل فبايعت عليا ورجعتُ لأهلي ورأيت أن الأمر قد استقام [١].

وكان الأحنف بن قيس في البصرة حين قدمت عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهم، وأرادوا أن يكون معهم في الصراع مع علي، ولكنه رفض ووضح رأيه بقوله: (بينما أنا كذلك إذ أتاني آت فقال: هذه عائشة وطلحة والزبير بالخريبة[٢]، يدعونك فقلت: ما جاء بهم قال: يستنفرونك على قتال علي في دم عثمان، فأتاني أعظم أمر، إنَّ خِذْلاني أمَّ المؤمنين وحواريَّ رسولِ الله ﷺ لشديدٌ، وإنَّ قتال ابن عم رسول الله ﷺ وقد أمروني ببيعته أشدُّ.

فلما أتيتهم قالوا: جئنا لكذا وكذا، قال: فقلت: يا أم المؤمنين، ويا زبير، ويا طلحة نشدتكم الله، أقلتُ لكم: من تأمروني أبايع فقلتم: بايع عليا، فقالوا: نعم، ولكنه بدَّل وغيَّر، فقلت: لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين، ولا أقاتل ابن عم رسول الله ﷺ وقد أمرتموني ببيعته، ولكنى أعتزل، فأذنوا له في ذلك، فاعتزل بالجلحاء[٣]، ومعه زهاء ستة آلاف، وهي من البصرة على فرسخين.

فلما قدم عليٌّ أتاه الأحنفُ فقال له: إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غدا قتلت رجالهم وسبيت نساءهم، فقال: ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحل هذا إلا لمن تولى وكفر، وهم قوم مسلمون، قال: اختر مني واحدة من اثنتين، إما أن أقاتل معك، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف، قال: فكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال، قال: إن من الوفاء قتالهم، قال: فاكفف عنا عشرة آلاف سيف، فرجع إلى الناس فدعاهم إلى القعود ونادى: يا آل

(١) الطبري، ج٤، ص ص٤٩٧-٤٩٨، ابن الأثير، ج٣، ص١٢٧، ابن كثير، ج٧، ص١٨٩، ص١٩٥، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص٦١٦.

(٢) الخريبة: لفظ تصغير خربة، موضع بالبصرة، وسميت بذلك فيما ذكره الزجاجي؛ لأن المرزبان كان قد ابتنى قصرا وخرب بعده على يد المثنى بن حارثة. ياقوت الحموي، ج٢، ص٣١٣.

(٣) الجلحاء: موضع على ستة أميال من الغوير المعروف بالزبيدية، بين العقبة والقاع، فيها بركة وقباب خراب. ياقوت الحموي، ج٢، ص١٥٠.

خندف، فأجابه ناس، ونادى: يا آل تميم، فأجابه ناس، ثم نادى: يا آل سعد، فلم يبق سعديٌّ إلا أجابه، فاعتزل بهم ونظر ما يصنع الناس، فلما كان القتال وظفر علي دخلوا فيما دخل فيه الناس وافرين[١].

وذكر ابن مسكويه[٢] أن الأحنف لما رجع من عند علي لقيه هلال بن وكيع وهو سيد رهطه، فقال: ما رأيك قال: مكاتفة أم المؤمنين، أفتدعنا وتعتزل عنا وأنت سيدنا.

قال: إنما أكون سيدكم غدا إن قتلت وبقيت.

فقال هلال: تقول هذا وأنت شيخنا.

فقال: أنا الشيخ المعصي وأنت الشاب المطاع.

ويتّهِم اليعقوبي[٣] الأحنف بأنه حرَّض على قتل الزبير بن العوام، فيذكر أن الأحنف قال: ما

---

(١) الطبري، ج٤، ص٤٩٨، ابن الأثير، ج٣، ص١٢٧، ابن كثير، ج٧، ص١٩٥، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص٦١٦، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، أيام العرب في الإسلام، ص٣٤١.

وذكر الطبري أن الأحنف قال لعائشة وطلحة والزبير: اختاروا مني واحدة من ثلاث خصال، إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض العجم حتى يقضي الله من أمره ما قضى، أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضي الله، عز وجل، من أمره ما قضي، أو أعتزل فأكون قريبا، قالوا: نفتح له الجسر يخبرهم بأخباركم، ليس ذاكم برأي، اجعلوه ها هنا قريبا حين تطئون على صماخه وتنظرون إليه، فاعتزل بالجلحاء على بعد فرسخين من البصرة، فاعتزل معه ستة آلاف. الطبري، ج٤، ص٤٩٨.

(٢) تجارب الأمم، ج١، ص٣١٨.

(٣) اليعقوبي، المجلد الثاني، ص١٨٣، الطبري، ج٤، ص ص٥٣٤-٥٣٥، ابن الأثير، ج٣، ص١٣٢، أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، يحيى سيد حسين، محمد فخري الوصيف.

تقديم، حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط١، د.ت، ج١، ص٢١، ابن كثير، ج٧، ص ص٢٠٣-٢٠٤، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص٣٢٠.

وقد قتله ابن جرموز غَدْرًا واستدبره وقتله.وهو يصلي وسلبه فرسه وسلاحه وخاتمه، ويذكر الطبري وابن الأثير، أن ابن جرموز بعد قتل الزبير بن العوام رجع للأحنف فقال له الأحنف: والله ما أدري أحسنتَ أم أسأتَ، ثم انحدر إلى علي وابن جرموز معه، فدخل عليه فأخبره فدعا بالسيف، فقال:سيف طالما جلَّى الكرب عن رسول الله، ﷺ، وبعث بذلك إلى عائشة، ثم أقبل على الأحنف فقال: تربصت، فقال: ما كنتُ أراني إلا قد أحسنتُ، وبأمرك كان ما كان يا أمير المؤمنين، فارفق؛ فإن طريقك الذي سلكتَ بعيد، وأنت إليَّ غدًا أحوجُ منك أمس، فاعرف إحساني، واستصف مودتي لغدٍ، ولا تقولن مثل هذا، فإني لم أزل لك ناصحا. الطبري، ج٤، ص٥٣٥، ابن الأثير، ج٣، ص١٣٢.

رأيت مثل هذا - يعني الزبير - أتى بحرمة رسول الله ﷺ يسوقها، فهتك عنها حجاب رسول الله ﷺ وستر حرمه في بيته ثم أسلمها وانصرف، ألا رجل يأخذ الله منه فاتبعه عمرو بن جرموز التميمي فقتله بموضع يسمى وادي السِّباع.

والحقيقة أن الأحنف ما كان يفكر في قتل الزبير بن العوام، وهو يعرف قَدْر الرجل، وأنه من أفضل صحابة رسول الله ﷺ ، والأحنف رجل يعرف الرجال وقدرها، وكل ما في الأمر أن الأحنف لم يُعجبه أن خرج الزبير وطلحة، رضي الله عنهما، بالسيدة عائشة إلى البصرة، فعبَّر عن ذلك بقوله هذا، ففهم أحد أتباعه - وهو عمرو بن جرموز - أن هذا رأيه فقام بذلك ظنا منه أن ذلك يُرْضي الإمام عليًا والأحنفَ، فلما رجع إليهم أخبره الإمام علي أنه من أهل النار بقوله: (بشروا قاتل ابن صفية بالنار).

وأسلوب التعريض هو أحد أساليب الحديث، فقد يشير الإنسان إلى شيء ويقصد شيئا آخر، فيفهم كل إنسان حسب هواه، ومن هنا يحدث الاختلاف في ردود الفعل.

ولا يمكن أن يأمر الأحنف بقتل صحابي حتى وإن كان ذلك في وقت الحروب والمعارك، ولكنه أيضا لم يعجبه خروج طلحة والزبير وعائشة، رضي الله عنهم.

ويقال: إن عليًا لما ظهر على أهل البصرة يوم الجمل أتاه الأشتر وأهل الكوفة بعدما اطمأنَّ به المنزل وأثخن في القتل فقالوا: أعطنا، إن كنا قاتلنا أهل البصرة حين قاتلناهم وهم مؤمنون فقد ركبنا حوبا كبيرا، وإن كنا قاتلناهم كفارا وظهرنا عليهم عنوة فقد حلت لنا غنيمة أموالهم وسبي ذراريهم، وذلك حكم الله تعالى، وحكم نبيه في الكفار إذا ظهر عليهم، إنه لا حاجة بكم أن تهيجوا حرب إخوانكم، وسأرسل إلى رجل منهم فإنه سيطلع رأيهم وحجتهم في ما قلتم، فأرسل إلى الأحنف بن قيس في رهط فأخبرهم بما قال أهل الكوفة، فلم ينطق غير الأحنف، فإنه قال: يا أمير المؤمنين، لماذا أرسلتَ إلينا فوالله إن الجواب عنا لعندك، ولا نتبع الحق إلا بك، ولا علمنا العلم إلا منك، قال: أحببت أن يكون الجواب عنكم منكم؛ ليكون أثبت للحجة وأقطع للتهمة، فقل: فقال: إنهم قد أخطئوا وخالفوا كتاب الله

وسنة نبيهم، ﷺ، إنما كان السبي والغنيمة على الكفار الذين دارهم دار كفر، والكفر لهم جامع، ولذراريهم، ولسنا كذلك، وإنما دار إيمان ينادَى فيها بالتوحيد وشهادة الحق وإقام الصلاة، وإنما بغت طائفة أسماؤهم معلومة، أسماء أهل البغي، والثانية:حجتنا أنا لم نستجمع على ذلك البغي، فإنه قد كان من أنصارك من أثبتهم بصيرة في حقك أعظمهم غناء عنك طائفة من أهل البصرة، فأي أولئك يجهل حقه وتنسى قرابته، إن هذا الذي أتاك به الأشتر وأصحابه من متعلمة أهل الكوفة، وأيم الله لئن تعرضوا لها لتكرهن عاقبتها ولا تكونن الآخرة كالأولى، فقال علي: ما قلت إلا ما نعرف، فهل من شيء تخصون به إخوانكم بما قاسوا من الحرب قال: أعطياتنا في بيت المال، ولم نكن لنصرفها في عدلك عنا، فقد طبنا عنها نفسا في هذا العام فاقسمها فيهم، فدعاهم علي فأخبرهم بحجج القوم وبما قالوا وبموافقتهم إياه، ثم قسم المال بينهم خمس مئة لكل رجل[1].

ب- الأحنف وموقعة صفين:

كان دور الأحنف في معركة الجمل متحفظا إلى حد ما فالأمر أمامه كان غير واضح، فهو لم يشأ أن يقاتل أم المؤمنين السيدة عائشة، رضي الله عنها، كما أنه كان في رقبته بيعة للإمام علي، وكانت السيدة عائشة أحد من أشار عليه بهذه البيعة حين استشارها؛ لذا لم يبرز دوره في الجمل بشكل واضح، أما في موقعة صفين فالأمر مختلف، فهو هنا أصبح من أشد أنصار الإمام علي، بسبب إيمانه بقضية إمامه، وتكفيرا عن تباطئه عن نصرته في موقعة الجمل؛ لذا كان أحد قادة علي، كرم الله وجهه، في صفين، فكانت تميم البصرة تحت قيادته[2].

ولم يكتف الأحنف بالمشاركة بالقتال فقط، بل شارك أيضا بالرأي الصائب والنية الصادقة، فقد قام للإمام علي قائلا له: (يا أمير المؤمنين، إنه إن يك بنو سعد لم ينصروك يوم الجمل، فلن ينصروا عليك غيرَك، وقد عجبوا ممن نصرك يومئذ، وعجبوا اليوم ممن خذلك؛

---

(١) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣١٩-٣٢٠.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص١٩٤، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٥٤١، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، ص٣٧٥.

لأنهم شكوا في طلحة والزبير، ولم يشكوا في عمرو ومعاوية، وإن عشيرتنا بالبصرة فلو بعثنا إليهم فقدموا علينا، فقاتلنا بهم العدو، وانتصفنا بهم من الناس، وأدركوا اليوم ما فاتهم بالأمس، وهذا جمع قد حشره الله عليك بالتقوى، لم نستكره أحدا، ولم نشخص فيه مقيما، ومن كان معك نافعك، ورب مقيم خير من شاخص، وإنما نشوب الرجاء بالمخافة، ووالله لوددنا أن أمواتنا رجعوا إلينا، فاستبقنا بهم على عدونا، وليس لك إلا من كان معك، ولنا من قومنا عدد، ولا نَلْقَى بهم عدوًّا أعدى من معاوية، ولا تسد بهم ثغرا أشد من الشام)[1].

وهذا النص يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا من أن الأحنف كان يشعر بدوره المحدود في معركة الجمل، وأنه لم ينصر الإمام عليًّا بشكل كامل، وليس هو فقط، بل هو وقومه من بني سعد، وعلل ذلك بأنه وقومه شكوا في طلحة والزبير، ولكنه وعده أنه سينصره وقومه في محاربة معاوية، وسيكون دوره أكثر إيجابية ونشاطا.

لذا فقد نفذ الأحنف ما وعد به علي بن أبي طالب من أن يكتب إلى قومه، فلبى طلبه، وكتب الأحنف إلى بني سعد قائلا: (أما بعدُ، فإنه لم يبق أحد من بني تميم إلا وقد شقوا برأي سيدهم غيركم، وعصمكم الله برأيي، حتى نلتم ما رجوتم، وأمنتم مما خفتم، وأصبحتم منقطعين من أهل البلاء، لاحقين بأهل العافية، وإني أخبركم أنا قدمنا على تميم الكوفة، فأخذوا علينا بفضلهم مرتين: مسيرهم إلينا مع علي، وتهيؤهم للمسير إلى الشام، ثم انحشرنا معهم، فصرنا كأنا لا نُعرَف إلا بهم، فأقبلوا إلينا، ولا تتكلوا علينا، فإن لهم أعدادنا من رؤسائهم فلا تُبطئوا عنا، فإن من تأخير العطاء حرمانا، ومن تأخير النصر خذلانا، فحرمان العطاء القلة، وخذلان النصر الإبطاء، ولا تنقضي الحقوق إلا بالرضا وقد يرضى بدون الأمل).

فلما انتهى كتاب الأحنف إلى بني سعد ساروا بجماعتهم، حتى نزلوا الكوفة[2].

ورغم ولاء الأحنف للإمام علي، فإنه كان مؤمنا بأن قتال أهل الشام كان لله، فقد قام

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة أو تاريخ الخلفاء المنسوب لابن قتيبة، تحقيق: د. طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، د.ت، ج١، ص٧٩.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج١، ص ص٧٩-٨٠.

خطيبا وقال: (يا أمير المؤمنين، إن الناس بين ماض وواقف، وقائل وساكت، وكل في موضعه حسن، وإنه لو نكل الآخر عن الأول لم يقل شيئا، إلا أن يقول اليوم ما قد قيل بالأمس، ولكنه حق يقضى، ولم نقاتل القوم لنا ولا لك، إنما قاتلناهم لله، فإن حال أمر الله دوننا ودونك فاقبله، فإنك أولى بالحق، وأحقنا بالتوفيق، ولا أرى إلا القتال)(١).

ج-الأحنف بن قيس والتحكيم:

بعد رفع أهل الشام المصاحف على الرماح بمشورة عمرو بن العاص، بعد أن أوشكوا على الهزيمة من أهل العراق، وقبول علي بن أبي طالب التحكيم بعد ضغط من قراء جيشه، عرض عليه الأحنف أن يكون حكمه والمتحدث باسمه، فقال له: (يا أمير المؤمنين، إنك قد رميت بحجر الأرض، وإني قد عجمت أبا موسى وحلبت أشطره، فوجدته كليل الشفرة، قريب القعرة، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم، ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم، فإن أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانيا أو ثالثا، فإنه لن يعقد عقدة إلا حللتها ولا يحل عقدة إلا عقدت أخرى أحكم منها، فأبى الناسُ إلا أبا موسى والرضا بالكتاب، فقال الأحنف: إن أبيتم إلا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال)(٢).

كما لم يكن الأحنف هو من رشح نفسه في التحكيم فقط، فقد رشَّحه ابنُ عباس أيضا، فيذكر الذهبي(٣) أن ابن عباس جاء إلى علي لما رآه قد هم أن يحكِّم أبا موسى الأشعري فقال له: علام تحكِّم أبا موسى؟ فوالله لقد عرفتَ رأيه فينا، فوالله ما نصرنا، وهو يرجو ما نحن فيه فتدخله الآن في معاقد أمرنا، مع أنه ليس بصاحب ذاك، فإن أبيت أن تجعلني مع عمرو، فاجعل الأحنف بن قيس، فإنه رجل مجرَّبٌ من العرب، وهو قرن لعمرو، فقال علي: أفعل، فأبت اليمانية أيضا.

---

(١) ابن قتيبة، ج١، ص ص١٠٧-١٠٨.

(٢) الطبري، ج٥، ص٥٢، ابن مسكويه، ج١، ص٣٥٠، ابن الأثير، ج٣، ص ص١٩٤-١٩٥، ابن كثير، ج٧، ص٢٢٥، ابن خلدون، العبر، ج٢، ص٦٣٣، محمد أبو الفضل إبراهيم، ص٣٧٥.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ص٥٤٧-٥٤٨.

كما أوضح الأحنف أن سبب رفض القوم أن يكون أحد الحكمين أنه ليس من أصحاب النبي، ﷺ، فقال لعلي بن أبي طالب: يا أمير المؤمنين، إن أبا موسى رجل يماني وقومه مع معاوية، فابعثني معه، فوالله لن يعقد لك عقدة إلا عقدت لك أشد منها، فإن قلت: إني لستُ من أصحاب رسول الله، ﷺ، فابعث ابن عباس وابعثني معه[١].

وعند كتابة صحيفة التحكيم وأراد علي أن يكتب صفة أمير المؤمنين الملحقة باسمه رفض عمرو بن العاص، وقال: اكتب اسمه واسم أبيه، هو أميركم، وأما أميرنا فلا، فقال الأحنف: لا تمح اسم أمير المؤمنين؛ فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبدا، لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضا، فأبى علي بعض الوقت ثم وافق بعد ذلك[٢].

٣- الأحنف ومعاوية بن أبي سفيان:

بعد مقتل الإمام علي بن أبي طالب وتحول الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان[٣] حدثت محاورات ومواقف بين أنصار الإمام علي ومعاوية بن أبي سفيان توضح وجهة نظر كل واحد في الآخر، ومن هؤلاء الأنصار الأحنفُ بن قيس، ومن هذه المواقف أن الأحنف والحتات المجاشعي، وجارية بن قدامة السعدي، قدموا على معاوية في نفر من أهل العراق فقال معاوية للأحنف: أنت الشاهر علينا سلاحك يوم صفين، والمخذل عن أم المؤمنين عائشة، فقال الأحنف: لا يُوسا بما مضى منا، ولا ترد الأمور على أدبارها، فإن القلوب التي أبغضناك بها بين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها على عواتقنا، وإنك لا تدني إلينا شبرا مِنْ غَدْر إلا مَدَدْنا

---

(١) ابن قتيبة، ج١، ص١١٤، ابن كثير، ج٧، ص٢٢٥.

(٢) الطبري، ج٥، ص٥٢، ابن الأثير، ج٣، ص١٩٥، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج١، ص٢٢٠، ابن خلدون، ج٢، ص٦٣٣.

(٣) قتل علي بن أبي طالب على يد أحد الخوارج ويدعى عبد الرحمن بن ملجم في ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ، وبويع معاوية بن أبي سفيان البيعة الشرعية بعد الصلح مع الحسن بن معاوية في ربيع الأول سنة ٤١هـ، ومن هذا التاريخ يُعَدُّ معاوية الخليفة الشرعي، وسُمِّيَ هذا العامُ بعام الجماعة لاجتماع الناس على خليفة واحد.

إليك ذراعا من ختر، ولئن شئت مع ذلك فلتستصفين كدر قلوبنا بفضل حلمك، قال: أفعل، وأعطاهم وحباهم وأرضاهم(١).

ويذكر ابن خلكان(٢) أن معاوية لما استقر له الأمرُ دخل عليه الأحنف فقال له معاوية: والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة، فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإنْ تَدْنُ من الحرب فِتْرًا نَدْنُ منها شبرًا، وإن تمش إليها نهرول إليها، ثم قام وخرج، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه فقالت: يا أمير المؤمنين، من هذا الذي يتهدد ويتوعد قال: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مئة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب.

أ- موقف الأحنف من خطبة زياد بن أبيه بالبصرة:

تولى زياد بن أبيه البصرة سنة ٤٥هـ/٦٦٦م، وكان الفساد فاشيا في البصرة بصورة واضحة، فصعد زياد منبر البصرة وخطب خطبته البتراء(٣).

ورد الأحنف على هذه الخطبة بقوله: (أيها الأمير، قد قلت فأسمعت، ووعظت فأبلغت،

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٤، ص ص٣٢٦-٣٢٧، ابن خلكان، ج٢، ص٥٠٠.

الختر: أسوأ الغدر وأقبحه.

وجارية بن قدامة التميمي السعدي: أبو أيوب، ويقال أبو يزيد، له صحبة، وكان بطلا شجاعا شريفا مطاعا من كبار أمراء علي، شهد معه صفين، ثم وفد بعده على معاوية مع ابن عمه الأحنف، وكان سفاكا فاتكا، ويدعى محرقا؛ لأن معاوية وجه ابن الحضرمي إلى البصرة يستفز الناس للأخذ بثأر عثمان، رضي الله عنه، فوجه عليٌّ جاريةَ هذا، فتحصن منه ابن الحضرمي، فأحرق عليه الدار، فاحترق فيه خلقٌ. ويروى أن عليا بلغه ما صنعه بسر بن أرطأة من السفك بالحجاز، فبعث جاريةَ هذا، فجعل لا يجد أحدا خلع عليا إلا قتله وحرقه بالنار حتى انتهى إلى اليمن فسمي محرقا. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ص٢٦-٢٧.

(٢) ابن خلكان، ج١، ص٥٠٠.

(٣) الخطبة البتراء: هي التي لم تبدأ بحمد الله دليل الرحمة في التعامل مع الرعية، وخطبة زياد من أشهر الخطب في الأدب العربي، ليس في العصر الأموي فقط، بل في كل العصور الإسلامية، وسميت بالبتراء لأنه لم يحمد الله فيها، ويقال بل حمد الله فقال: (الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله مزيدا من نعمه، اللَّهُمَّ كما زدتنا نعما فألهمنا شكرًا على نعمتك).

أيها الأمير إنما السيف بحده، والفرس بشده، والرجل بجده، وإنما الثناء بعد البلاء، والحمد بعد العطاء، ولن نثني حتى نُبتلى)، فقال زياد: (صدقتَ)[1].

والخطبة تحتوي على تهديد ووعيد ومبالغة في أدوات القهر والإرهاب والحكم المتشدد، وفيها عدَّد زياد الجرائم المستحدثة، وعدَّد لكل جريمة عقابا يناسبها من وجهة نظره، وكان قدوم زياد البصرة في آخر ربيع الآخِر سنة ٤٥هـ.

وقد تعددت ردود فعل الحاضرين تجاه هذه الخطبة، فقد قام عبد الله بن الأهتم فقال: أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب، فقال: كذبتَ ذاك نبي الله داود، وقام أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج، فقال: أنبأ الله بغير ما قلتَ، قال الله تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ [النجم: ٣٧-٣٩]، فأوعدنا الله خيرًا مما أوعدتنا يا زياد، فقال زياد: إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوضا، وفي رواية: إن زياد قال: إنا لا نجد إلى ما تريد أنت وأصحابك حتى نخوض إليها الدماء.

ونص الخطبة موجود في عدة مصادر، نذكر منها:

الزبير بن بكار، الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦، ص ص٢٥١-٢٥٨، الطبري، ج٥، ص ص٢١٨-٢٢١، ابن مسكويه، ج٢، ص ص٨-١٠، ابن الأثير، ج٣، ص ص٣٠٤-٣٠٦، الخضري، الدولة الأموية، ج٢، ص ص٣٥٣-٣٥٤.

ب- موقف الأحنف من بيعة يزيد بن معاوية:

أراد معاوية بن أبي سفيان أن يبايع ليزيد بولاية العهد، فأرسل في سنة ٥٦هـ/٦٧٦م إلى الأمصار لتأتي له ببيعة الأمصار، فوفد الأحنف في وفد البصرة، وخطب كل خطيب مفوه بما أوتي من منطق ولغة، فبعد أن عرض كل الأعلام أمثال ثور بن معن، عبد الله بن عصام، عبد الله بن مسعدة، وأعلنوا تأييدهم للبيعة، قال معاوية: أوكلكم قد أجمع رأيه على ما ذكرنا،

---

(1) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات، ص٢٥٤، ص٢٥٨.

فقالوا: كلنا قد أجمع رأيه على ما ذكرنا، قال: فأين الأحنف فأجابه، قال: ألا تتكلم فقام الأحنف، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن الناس قد أمسكوا في منكر زمان قد سلف، ومعروف زمان مؤتنف[١]، ويزيد ابن أمير المؤمنين نعم الخلف، وقد حلبت الدهر أشطره[٢] يا أمير المؤمنين، فاعرف من تسند إليه الأمر من بعدك، ثم اعص أمر من يأمرك، لا يغررك من يشير عليك، ولا ينظر لك، وأنت أنظر للجماعة، وأعلم باستقامة الطاعة، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ما دام الحسن حيا[٣].

وقد غضب الضحاك بن قيس، فقام وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن أهل النفاق من أهل العراق، مروءتهم في أنفسهم الشقاق، وألفتهم في دينهم الفراق، يرون الحق على أهوائهم، كأنما ينظرون بأقفائهم، احتالوا جهلا وبطرا، لا يرقبون من الله راقبة، ولا يخافون وبال عاقبة، اتخذوا إبليس لهم ربًّا، واتخذهم إبليس حزبًا، فمن يقاربوه لا يسروه، ومن يفارقوه لا يضروه، فادفع رأيهم يا أمير المؤمنين في نحورهم، وكلامهم في صدورهم، ما للحسن وذوي الحسن في سلطان الله الذي استلحق به معاوية في أرضه، هيهات لا تورث الخلافة من كلالة[٤]، ويحجب غير الذكر العصبة[٥]، فوطنوا أنفسكم يا أهل العراق على المناصحة لإمامكم، وكاتب نبيكم وصهره، يسلم لكم العاجل وتربحوا من الآجل[٦].

وقد أجاب الأحنف بن قيس على الضحاك بقوله: يا أمير المؤمنين، إنا فررنا عنك قريشا[٧]، فوجدناك أكرمها زندا، وأشدها عقدا، وأوفاها عهدا، وقد علمت أن لم تفتح العراق عنوة ،

---

(١) مؤتنف: مستقبل.

(٢) هذا مثل يضرب للمجرب للأمور المحنك، يقال حلب الدهر أشطره.

(٣) ابن قتيبة، ج١، ص ص١٤٥-١٤٦.

(٤) الكلالة: الذي لا ولد له ولا والد.

(٥) العصبة: هم الذكور من الورثة الذين يأخذون كل التركة إذا انفردوا، أو معظم التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصبتهم. ابن قتيبة، ج١، ص١٤٦، حاشية ٢.

(٦) ابن قتيبة، ج١، ص١٤٦.

(٧) فررنا عنك قريشا: أي بحثنا عنك قريشا وفتشنا عنك.

ولم تظهر عليها قمصا[1]، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت، ليكون له الأمرُ من بعدك، فإن تف فأنت أهلُ الوفاء، وإن تغدر تعلم والله أن وراء الحسن خيولا جيادًا، وأذرعا شدادا، وسيوفا حدادا، إن تدن له شبرا من غدر، تجد وراءه باعا من نصر، وإنك تعلم أن أهل العراق ما أحبوك منذ أبغضوك، ولا أبغضوا عليا والحسن منذ أحبوهما، وما نزل عليهم في ذلك خبرٌ من السماء. وإن السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم، والقلوب التي أبغضوك بها لبين جوانحهم، وأيم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من علي[2].

ويقال إن الأحنف بن قيس دخل على يزيد، فلما خرج من عنده قال له معاوية: كيف وجدت ابن أخيك قال: رأيت شبابا، نِشاطا، وجلدا، ومزاحا.

وعندما خطب الخطباء قال معاوية للأحنف: ما تقول يا أبا بحر فقال: نخافكم إن صدقنا، ونخاف الله إن كذبنا، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلانيته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه لله تعالى وللأمة رضا فلا تشاور فيه، وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة، وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا. وقام رجل من أهل الشام فقال: ما ندري ما تقول هذه المعدية العراقية، وإنما عندنا سمع وطاعة وضرب وازدلاف، فتفرق الناس يحكون قول الأحنف[3].

---

(١) القمص: القتل. والمراد أن معاوية لم يأخذ العراق بالحرب، وإنما بايعته طائعة بعد صلحه مع الحسن.

ابن قتيبة، ج١، ص١٤٧، حاشية ٢.

(٢) ابن قتيبة، ج١، ص١٤٧

(٣) ابن قتيبة، ج١، ص ص١٤٦-١٤٧.

ومن الشروط التي اشترطها الحسن على معاوية:

١- أن يجعل له ما في بيت ماله وكان في بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف درهم.

٢- أن يكون له خراج دار أبجرد.

٣- أن لا يُشتم علي وهو يَسمع.

٤- وأن يُحمل إلى الحسين كل عام ألفا ألف درهم.

ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج١، ص٣٧١.

السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٣٣٧.

والمتتبع لأحداث بيعة يزيد ودور الأحنف فيها يلاحظ عدة أمور:

١- أن فكرة البيعة ليزيد تعود للمغيرة بن شعبة، وقد وافق بذلك رغبة لدى معاوية، وكان سبب ذلك أن معاوية أراد عزل المغيرة عن ولاية الكوفة، فأراد المغيرة أن يحوز رضاء معاوية حتى يستقر في منصبه.

٢-وقد أراد المغيرة أن يؤكد تلك الرغبة بالفعل، فأرسل وفدا من كبراء الكوفة مع ابنه موسى لمعاوية في دمشق، ليعلنوا موافقتهم عن هذه البيعة، ولم يذكر لنا المؤرخون أفراد هذا الوفد، ولكننا نرجح أنه كان يتضمن الأحنف بن قيس كأحد أعلام البلاد.

٣- وفد هذا الوفد على معاوية قبل وفاة الحسن سنة ٤٩هـ، وقبل وفاة المغيرة سنة ٥٠هـ؛ لذا نرجح أنه كان بين عامي ٤٧، ٤٨هـ.

٤- أن الأحنف قدم على معاوية مرتين مرة قبل وفاة الحسن، ومرة بعدها سنة ٥٦هـ.

٥-كان الأحنف يرى وهو من أهل العراق أن معاوية لم يفتح العراق عنوة، وإنما خضعت له بعد صلحه مع الحسن، وبالتالي فهي ذات وضع خاص ومختلف.

٦- ويرى أيضا أن الناس لن تبايع ليزيد طالما كان الحسن حيا.

٧-لم ينس الأحنف أن يذكّر معاوية بأن أهل العراق ما زالوا على عهدهم، فالقلوب التي أبغضوه بها ما زالت في صدروهم، والسيوف التي حاربوه بها ما زالت على عواتقهم، وهو منهم وأعلم بطبائعهم، وأن أهل العراق ذو طبيعة خاصة؛ لأنهم لا يخضعون بسهولة لأي والٍ. هذا من جانب، ومن جانب آخر فهم من أنصار الإمام علي ومن مؤيدي ولده الحسن، حتى وإن تخلوا عنه في بعض المواقف؛ لذا لزم استخدام الحنكة والتروي والهدوء في التعامل معهم وكسب ودهم، وكان معاوية يعلم ذلك حتى إنه أوصى ولده يزيد قبل موته أن يعزل الولاة عن الكوفة إذا أراد أهلُها؛ لأن ذلك أفضل من قيام الآلاف ضده.

٨-كان من رأى الأحنف أيضا أن معاوية أعلم بابنه من أي فرد قد ينافقه أو يجامله، أو

أحد قد يعترض على توليته، وأراد بذلك أن يتحمل معاوية تبعة بيعته لابنه أمام الله والناس في الدنيا والآخرة. هذا من جانب، ومن جانب آخر جاهر بما رآه حقا دون أن يُغضِب الخليفة الشرعي(معاوية).

ج- موقف الأحنف من إعادة تولية عبيد الله بن زياد على البصرة:

تولى عبيد الله بن زياد البصرة سنة ٥٥هـ/٦٧٦م ، وفي سنة ٥٩هـ/٦٧٩م وفد ابن زياد على معاوية في وجوه أهل البصرة وفيهم الأحنف - وكان سيئ المنزلة من عبيد الله - فلما دخلوا رحب معاوية بالأحنف وأجلسه على سريره، فأحسن القوم الثناء على ابن زياد، والأحنف ساكت، فقال له معاوية: ما لك يا أبا بحر لا تتكلم فقال: إن تكلمت خالفت القوم، فقال معاوية: انهضوا فقد عزلته عنكم فاطلبوا واليا ترضونه، فلم يبق أحد إلا أتى رجالا من بني أمية أو من أهل الشام، والأحنف لم يبرح منزله فلم يأت أحدا، فلبثوا أياما ثم جمعهم معاوية وقال لهم: من اخترتم فاختلفتْ كلمتهم، والأحنف ساكت، فقال: ما لك لا تتكلم فقال: إن وليتَ أحدًا من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحدا، وإن وليت من غيرهم فانظر في ذلك، فردَّه معاوية عليهم وأوصاه بالأحنف، وقبح رأيه من مباعدته وقال له: هو الذي ولاك وعزلك وهو ساكت، فلما هاجت الفتنة لم يف له غير الأحنف[1].

وذكر ابن خلكان[2] أن معاوية قال لعبيد الله: كيف ضيعتَ مثل هذا الرجل - يعني الأحنف - فإنه عزلك وولاك وهو ساكت، وهؤلاء الذين قدمتهم عليه واعتمدت عليهم لم ينفعوك ولا عرجوا عليك لما فوضت الأمر إليهم، فمثل الأحنف من يتخذه الإنسان عونا وذخرا.

ومن ذلك أيضا أن يزيد بن مفرغ الحميري هجا بني زياد عباد بن زياد ويزيد بن زياد

---

(١) الطبري، ج٥، ص ص٣١٩-٣١٧، ابن الأثير، ج٣، ص ص٣٦٣-٣٦٤، ابن خلكان، ج٢، ص ص٥٠٣-٥٠٤، ابن كثير، ج٨ص ص٨٢-٨٣، ابن خلدون: العبر، ج٣، ص٢٢.

(٢) ج٢، ص٥٠٤.

وعرض في شعره بأمهم سمية، وهرب إلى البصرة، وعبيد الله يومئذ وافد على معاوية فكتب عباد إلى عبيد الله ببعض ما هجاه به، فلما قرأ عبيد الله الشعر دخل على معاوية فأنشده إياه، واستأذنه في قتله فأبى عليه أن يقتله، وقال: أدِّبْه ولا تبلغ به القتل، واستجار مفرغ بالأحنف بن قيس فقال: إنا لا نجيرُ على ابن سمية، فإن شئت كفيتك شعراء بني تميم، قال: ذاك ما لا أبالي أن أكفاه[1].

د- دور الأحنف في قتال الخوارج:

في سنة ٦٥هـ/٦٨٥م أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال، فإذا أجيب لمقالته جبى الخراج ونشر عماله في سواده، فارتاع لذلك أهل البصرة، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس وقالوا: ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى، فقال الأحنف: إن فعلهم في مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم في سوادهم فجدوا في جهاد عدوكم.

فاجتمع إليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز، وكان دينا شجاعا، فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب[2]، وهناك قابله الخوارج واقتتلوا قتالا شديدا، وقتل في هذه المعركة سليم بن عبيس ونافع بن الأزرق، وتولى أمر جيش البصرة كثير من

---

(١) الطبري، ج٥، ص ص٣١٧-٣١٨، ابن الأثير، ج٣، ص ص٣١٤-٣١٥، ابن كثير، ج٨، ص٨٣.

ويزيد بن مفرغ الحميري هو يزيد بن زياد بن ربيعة الملقب بالمفرغ الحميري، وهو صاحب البيت المشهور: (العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة).

وكان يهجو بني زياد، وتوفي بالكوفة سنة ٦٩هـ/٦٨٨م (الزركلي: الأعلام، ج٨، ص١٨٣).

ومن شعره الذي هجا به بني زياد وسب سمية أمهم:

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زان
فأشهد أن رحْمك من زياد كرحْم الفيل من ولد الأتان

الطبري، ج٥، ص٣١٨.

(٢) دولاب: اسم لأماكن كثيرة، ولكن الموقع المقصود هنا هو قرية بينها وبين الأهواز ٤ فراسخ. (ياقوت الحموي، ج٢، ص٤٨٥).

القادة الذين قتلوا على يد الخوارج[١].

وولى ابن الزبير المهلب بن أبي صفرة[٢] خراسان وكان مع مصعب فقدم البصرة وقد حصرت الخوارج أهلها وغلبت على سوادها وكورها، فلم يبق في أيدي أهلها إلا المدينة فلما قدم المهلب فزع إليه أشراف الناس ووجوههم وأتاه الأحنف بن قيس والمنذر بن جارود[٣] ومالك بن مسمع[٤] فيمن معهم من العشائر، فقالوا: يا أبا سعيد أنت شيخ الناس وسيف العراق، وقد ترى ما فيه أهل مصرك من هذه الخوارج المارقة، والإقامة على منع عدوك والذب عن حريمك أولى لك من خراسان، فقال: نعم أقيم على قتال هؤلاء، على أن لي جميع ما أغلبهم عليه، وأنتزعه من أيديهم من خراج وغيره، فافتعلوا كتابا على لسان ابن الزبير..

ولكن الرواية تؤكد أنه عاش حتى حضر حروب الخوارج مع المهلب بن أبي صفرة. حيث قام المهلب بتولي أمر الخوارج، فأجابته العشائر إلى ذلك خلا مالك بن مسمع، فإنه امتنع عليه، وقد كانت في مالك أبهة شديدة وكبر معروف، فوثب الأحنف بن قيس والمنذر بن

---

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ص١٥-١٦، الخضري: الدولة الأموية، ج٢، ص ص٤٠٣-٤٠٤.

نافع بن الأزرق: هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي رئيس الأزارقة، كان أمير قومه وفقيههم من أهل البصرة. وحين علموا بثورة ابن الزبير على الأمويين بمكة ذهبوا ومعهم نافع إلى ابن الزبير للدفاع عن مكة وأرادوا معرفة رأيه في أبي بكر وعمر وعثمان فلم يعجبهم رأيه فانفضوا من حوله وعادوا ومعهم ابن الأزرق إلى البصرة يفتك ويقتل حتى قتل سنة ٦٥هـ/٦٨٥م. (الزركلي، ج٧، ص ص٣٥١-٣٥٢).

(٢) المهلب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العكي، ولد سنة ٧هـ/٦٢٨م في دبا ونشأ بالبصرة، وولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير لقتال الأزارقة، فأقام يحاربهم ١٩سنة لقي منهم الأهوال وانتصر عليهم، ثم ولاه عبد الملك بن مروان خراسان سنة ٧٩هـ، ومات فيها سنة ٨٣هـ/٧٠٢م. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ص٣٨٣-٣٨٥، الزركلي، ج٧، ص٣١٩).

(٣) المنذر بن الجارود (بشر) بن عمرو بن خنيس العبدي، أمير، ولد سنة ١هـ/٦٢٢م، وولاه عبيد الله بن زياد الهند سنة ٦١هـ/٦٨١م فتوفي في آخرها. (الزركلي، ج٧، ص٢٩٢).

(٤) مالك بن مسمع بن شيبان البكري الربعي، أبو غسان، سيد ربيعة في زمانه. كان مقدما رئيسا. ولد في عهد النبي(ص)، وكان من جملة من انضاف إلى خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد حين قدم البصرة من مكة ناكثا ببيعة عبد الله بن الزبير، وقاتلهم مصعب بن الزبير فانهزموا بعد حروب إلى الشام، وتوفي في أول خلافة عبد الملك بن مروان بالبصرة سنة ٧٣هـ/٦٩٢م. (الزركلي، ج٥، ص٢٦٥).

الجارود على مالك بن مسمع فقالا له: أرأيت الذي تمنعه أبا سعيد، أهو شيء في يدك أو في يد عدوك؟ قال: في يد عدوي، قالا: فوالله ما أنصفته أن تسأله أن يحمي دمك وحرمتك ثم تمنعه ما أنت مغلوب عليه، فهو يجعل لك ما سألت، وقم بمحاربة القوم، قال: لا أقوى على ذلك، فقالا: فهذا الظلم والعجز. ثم جعلوا جميعا للمهلب ما سأل، فأقام على محاربة الخوارج ورئيسهم نافع بن الأزرق حتى جلاهم عن البصرة[١].

هـ- الأحنف ودعوى المختار بن أبي عبيد الثقفي:

في سنة ٦٦هـ/٦٨٦م دعا المثنى بن مخربة العبدي[٢] إلى البيعة للمختار[٣] بالبصرة لأهلها، وكان المثنى ممن شهد عين الوردة[٤] مع سليمان بن صرد[٥]، ثم رجع مع من بقي من التوابين إلى الكوفة والمختار محبوس، فأقام حتى خرج المختار من السجن، فبايعه المثنى سرا، وقال

---

(١) اليعقوبي، المجلد الثاني، ص ص٢٦٤-٢٦٥، الطبري، ج٥، ص ص٦١٥-٦٢٠، ابن الأثير، ج٣، ص ص١٦-١٧.

(٢) المثنى بن مخربة العبدي: ثائر من أشراف البصرة وشجعانها، كان من رجال علي بن أبي طالب، ولما قام سليمان بن صرد بالكوفة داعيا إلى الثأر للحسين بن علي كتب إلى المثنى وهو بالبصرة يخبره بقيامه مع التوابين، وقاتل مع المختار وقتل المختار، ولم يعرف للمثنى ذكر بعد سنة ٦٧هـ/٦٨٦م. (الزركلي، ج٥، ص٢٧٦).

(٣) المختار بن أبي عبيدة بن مسعود الثقفي: من زعماء الثائرين على بني أمية وأحد الشجعان الأفذاذ من أهل الطائف. ولد سنة ١هـ/٦٢٢م، انتقل منها إلى المدينة مع أبيه زمن عمر بن الخطاب، وتوجه أبوه إلى العراق فاستُشهِد يوم الجسر، وبقي المختار في المدينة منقطعا إلى بني هاشم، وقتل كثيرا ممن شاركوا في قتل الحسين بن علي، وورد البصرة وقاتل بها مصعب بن الزبير حتى قتله مصعب سنة ٦٧هـ/٦٨٦م، بعد أن عاث في البصرة ١٦شهرا، ويقال عنه إنه ادعى النبوة. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ص٥٣٨-٥٤٤، الزركلي، ج٧، ص١٩٢).

(٤) عين الوردة: موقعة حدثت سنة ٦٥هـ/٦٨٥م بين الشيعة ممثلين في جيش التوابين، ويقوده سليمان بن صرد وجيش الشام للأخذ بثأر قتلة الحسين، وقد هزم جيش التوابين وقتل سليمان بن صرد.

وعين الوردة: رأس عين المدينة المشهورة بالجزيرة الفراتية. الحموي، ج٤، ص١٨٠.

(٥) سليمان بن صرد بن الجون بن أبي الجون بن عبد العزى، السلولي الخزاعي. وُلد سنة ٢٨ق.هـ/٥٩٥م، صحابي من الزعماء القادة، شهد الجمل وصفين مع علي، وسكن الكوفة، ثم كان ممن كتب إلى الحسين، وتخلف عنه ثم خرج مطالبا بدمه، وترأس التوابين وحاول قتل عبيد الله بن زياد، وقتل سليمان في عين الوردة سنة ٦٥هـ/٦٨٥م. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٣، ص ص٣٩٤-٣٩٥، الزركلي، ج٣، ص١٢٧).

له المختار: الحق ببلدك البصرة، فازْعَ الناس وأَسِـرَّ أمرَك، فقدم البصرة فدعا فأجابه رجال من قومه وغيرهم، فلما أخرج المختار ابن مطيع[١] من الكوفة ومنع عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام من الكوفة خرج المثنى بن مخرمة فاتخذ مسجدا واجتمع إليه قومه، ودعا إلى المختار، ثم أتى مدينة الرزق[٢] فعسكر عندها، وجمعوا الطعام في المدينة، ونحروا الجزر.

فوجه إليهم القباع[٣] عباد بن حصين[٤] وهو على شرطته، وقيس بن الهيثم في الشرط والمقاتلة فقاتلوه وأخذوا من المدينة، وانهزم أصحابه، وكان قد قام بنصرتهم بنو عبد القيس، فبعث إليهم الجيش فبعثوا إليه، فأرسل إلى الأحنف بن قيس وعمرو بن عبد الرحمن المخزومي ليصلحا بين الناس فأتيا عبد القيس، فقال الأحنف لبكر والأزد والعامة: ألستم على بيعة ابن الزبير، فقالوا: بلى، ولكنا لا نسلم إخواننا، قال: فمروهم فليخرجوا حيث شاءوا، فمشى مالك بن مسمع وزياد بن عمرو ووجوه أصحابهم إلى المثنى فقالوا له ولأصحابه: إنا والله ما نحن على رأيكم ولكنا كرهنا أن تضاموا، فالحقوا بصاحبكم، فإن من أجابكم إلى رأيكم قليل وأنتم آمنون. فقبل المثنى قولهما وما أشارا به وانصرف[٥].

ورجع الأحنف وقال: ما غبنت رأيي إلا يومي هذا، إني أتيت هؤلاء القوم وخلفت بكرا

---

(١) ابن مطيع: عبد الله بن مطيع بن الأسود الكعبي القرشي العدوي. من رجال قريش جلدًا وشجاعةً، ولد في حياة النبي (ص)، وكان على قريش يوم الحرة، واستعمله ابن الزبير على الكوفة، فأخرجه المختار بن أبي عبيدة منها فعاد إلى مكة، فلم يزل فيها إلى أن قُتل مع ابن الزبير، وأرسل برأسه إلى الشام مع رأسي ابن الزبير وصفوان بن أمية. (الزركلي، ج٤، ص١٣٥).

(٢) مدينة الرزق: إحدى مسالح العجم بالبصرة قبل أن يخطها المسلمون. (ياقوت الحموي، ج٣، ص٤١).

(٣) القباع: الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، والٍ من التابعين، من أهل مكة، وهو أخو عمر بن أبي ربيعة الشاعر، وكان خطيبا من وجوه قريش ورجالهم، ولي البصرة في أيام ابن الزبير سنة واحدة، وكان أهلها يلقبونه بالقباع، وهو الواسع الرأس القصير. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ص١٨١-١٨٢، الزركلي، ج٢، ص١٥٦).

(٤) عباد بن حصين بن يزيد بن عمرو الحبطي التميمي، فارس تميم في عصره، ولي شرطة البصرة أيام ابن الزبير، وكان مع مصعب أيام قتل المختار، وشهد فتح كابل مع عبد الله بن عامر، وأدرك فتنة ابن الأشعث وهو شيخ مفلوج ورحل إلى كابل فقتله العدو هناك سنة ٨٥هـ/٧٠٥م. (الزركلي، ج٣، ص٢٥٧).

(٥) الطبري، ج٦، ص ص٦٦-٦٨، ابن الأثير، ج٤، ص ص٤٩-٥٠، ابن كثير، ج٨، ص٢٣٩.

والأزد ورائي، ورجع عباد وقيس إلى القباع.

وكتب المختار إلى الأحنف بن قيس:

من المختار إلى الأحنف ومَنْ قِبَله، فسلم أنتم، أما بعد فويل أم ربيعة من مضر، فإن الأحنف مورد قومه سقر، حيث لا ينفع لهم الصدر، وإني لا أملك ما خط في القدر، وقد بلغني أنكم تسمونني كذابا، وقد كذب الأنبياء من قبلي، ولستُ بخير من كثير منهم.

وكتب إلى الأحنف:

إذا اشتريتَ فرسًا من مالكًا

ثم أخذتَ الجوب من شمالكًا

فاجعلْ مصاعًا خدَمًا من بالكًا

فلما بلغت الصحيفة الأحنف غضب وقرأها ثم قال: هذا منا ومنكم[١].

و- الأحنف وعزل حمزة بن عبد الله بن الزبير عن البصرة:

وفي سنة ٦٧هـ/٦٨٦م عزل ابن الزبير أخاه مصعب عن العراق بعد أن قتل المختار وولى مكانه ابنه حمزة، وكان حمزة جوادا يجود أحيانا حتى لا يدع شيئا يملكه، ويمنع أحيانا ما لا يمنع مثله، وظهر منه بالبصرة خفة وطيش فيقال: إنه ركب يوما فرأى فيض البصرة فقال: إن هذا الغدير إن رفقوا به ليكفينهم ضيعتهم، فلما كان بعد ذلك رآه جازرا فقال: قد قلت لو رفقوا به لكفاهم، وظهر منه غير ذلك. فكتب الأحنف إلى أبيه وسأله أن يعزله عنهم ويعيد مصعبا، فعزله، فاحتمل مالا كثيرا من مال البصرة، فعرض له مالك بن مسمع فقال له: لا ندعك تخرج بعطايانا، فضمن له عبيد الله بن عبد الله العطاء فكف عنه وشخص حمزة بالمال وأتى المدينة فأودعه رجالا فجحدوه إلا رجلا من أهل الكتاب فوفى له، وبلغ ذلك أباه فقال: أبعده الله أردت أن أباهي به بني مروان، فنكص، ثم إن مصعبا وفد على أخيه عبد الله فرده

---

(١) الطبري، ج٦، ص ص٦٨-٧٠، ابن كثير، ج٨، ص٢٣٣.

على البصرة[١].

ي- الأحنف ومصعب بن الزبير:

كان الأحنف بن قيس أحد أنصار مصعب بن الزبير والي البصرة [٢]، فكان أحد قادة مصعب في قتال المختار بن أبي عبيدة الثقفي، فكان على خمس تميم، وذلك سنة ٦٧هـ/٦٨٦م[٣].

وكان السبب وراء عودته إلى تولي إمارة البصرة بعد عزله بحمزة بن أخيه - كما مرَّ بنا - وعندما بعث عبد الملك بن مروان بقواته يقودها مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ/٦٩١م وجعل على مقدمة جيشه محمد بن مروان[٤]، فلما التقى جيش الشام والعراق خذل أهل العراق مصعبًا حينها، تذكر الأحنف بن قيس فقال: رحم الله أبا بحر - يعني الأحنف - إن كان ليحذرني غدر العراق، وكأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه الآن ويقول له: (إنهم كالمومسة تريد كل يوم بعلا، وهم يريدون كل يوم أميرا)[٥].

---

(١) الطبري، ج٦، ص ص١١٧-١١٨، ابن الأثير، ج٤، ص ص٧٢-٧٣، ابن كثير، ج٨، ص٢٤٧.

ومن المواقف التي ذكرها الطبري التي تدل على ضعف تفكيره، أنه شَخَصَ إلى الأهواز فلما رأى جبلها قال: هذا قعيقعان - لموضع بمكة - فسمى الجبل قعيقعان، وبعث إلى مردانشاه، فاستحثه بالخراج فلما أبطأ به، فقام إليه بسيفه فضربه، فقال الأحنف: ما أحد سيف الأمير.

الطبري، ج٦، ص١١٧.

(٢) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، ولد سنة ٢٦هـ/٦٤٧م، نشأ بين يدي أخيه عبد الله بن الزبير، فكان عضده الأقوى في تثبيت ملكه بالحجاز والعراق، وولاه البصرة سنة ٦٧هـ وقصدها، وضبط أمورها، وقُتِل بدير الجاثليق سنة ٧١هـ/٦٩٠م على يد عبد الملك بن مروان. (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ص١٤٠-١٤٥، الزركلي، ج٧، ص ص٢٤٧-٢٤٨).

(٣) الطبري، ج٦، ص٩٥، ابن الأثير، ج٤، ص٦٥، ابن كثير، ج٨، ص٢٤٣.

(٤) محمد بن مروان بن الحكم الأموي:أمير من الشجعان الأبطال، كان والي الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان، واشتهر بقوة بأسه حتى كان أخوه الخليفة عبد الملك يحسده على ذلك، له وقائع وحروب مع الروم، وهو والد مروان آخر ملوك بني أمية. تُوفي سنة ١٠١هـ/٧٢٠م. (الزركلي، ج٧، ص٩٥).

(٥) ابن الأثير، ج٤، ص١٠٥، ابن كثير، ج٨، ص٢٦٧.

تقييم مواقف الأحنف السياسية:

بعد هذا العرض لمواقف وآراء الرجل نستطيع أن نقيِّم مواقفه وآراءه في هذه السطور، فقد كان الرجل موضع ثقة من جميع الحكام والأمراء الذين تقابل معهم ودار بينهم حوار، فعندما وفد على عمر بن الخطاب مرة أو مرتين ورآه الفاروق وأعجب بمنطقه وفكره وأجوبته أطلق عليه سيد أهل البصرة، رغم أنه لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، وكلنا يعرف التقييم العمري للرجال، وكيف أنه كان يرى الرجال بعين عقله لا بعين رأسه، وقليل من الرجال من ينجح في الاختبار العمري، وفي واقعة الجمل نجد أنه لم يتبين له الأمر بالشكل الواضح؛ لذا لم يأخذ موقفا محددا لفريق معين، رغم ميلة للإمام علي، أما في موقعة صفين فقد كان أحد قادة جيش علي، وكان أحد من رُشِّح للتحكيم، ولولا قوة القراء في جيش علي لكان أحدَ الحكمين، ومع أنه كان أحد أنصار الإمام علي فإن ذلك لم يمنعه من القدوم على معاوية، كما أن ذلك لم يمنع معاوية من أن يأخذ برأيه في أهم القضايا لعلمه بقوة حجته وشخصيته ومنعته في قومه؛ فهو سيد بني تميم بالبصرة، ويأتمر بأمره الآلاف.

ومن أهم القضايا التي عُرِضت على الأحنف فعرض فيها رأيه بقوة قضية بيعة يزيد، فقد أبدى فيها رأيه بكل صراحة، كما أبدى رأيه في خطبة زياد بن أبيه، وإعادة تولية عبيد الله بن زياد، وفي قتال الخوارج، ومواقفه مع مصعب بن الزبير.

كل ذلك يجعلنا نتساءل كيف حصل الأحنف على رضا وقبول كل هذه الأطراف على اختلاف آرائهم وأهوائهم طوال هذه الفترة التي تجاوزت نصف قرن

والجواب على ذلك يحتمل وجهين، أحدهما: أن الرجل كان منافقا بالغ الحجة استطاع أن يُرضي كل هذه الأطراف طوال هذه الفترة، أو أن الرجل كان يعبر عن آرائه بصدق وأمانة أعجبت الجميع من عامة وحكام. والحقيقة أننا نميل إلى الرأي الأخير، فقد حبسه عمر لمدة سنة، وقال له بعدها: (إن النبي ﷺ حذَّرَنا كل منافق عليم، ولستَ منهم).

رابعا: صفات الأحنف وأخلاقه

أعمال الإنسان هي مرآة لصفاته وأخلاقه، وكلما زاد قدر الرجل أمام نفسه وأمام الناس، كان ذلك دليلا على عظم صفاته وقوة أخلاقه التي جعلته كفيلا بحمل هذه المهام، وإذا طبقنا ذلك على شخصية الأحنف نجد أنه شارك في الفتوحات الإسلامية وحاور الخلفاء والأمراء والقادة وعامة الناس وأقنعهم بآرائه، وحظي بتأييد الجميع - كما مرَّ بنا - لذا لا بد أن نلقي بعض الضوء على هذه الصفات؛ لكي نعرف كيف وصلت هذه الشخصية لهذه المكانة في تاريخنا الإسلامي والعربي.

أ- صفات الأحنف الجسدية:

كان أحنف الرِّجْلين - أي في رجليه ميل واعوجاج - وكان أعور ذهبت عينه في فتح سمرقند، قصيرا، وولد ملتصق الإليتين حتى شق، وروى الأصمعي عن عبد الملك بن عمير: قال: قدم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب، فما رأيت خصلة تذم إلا رأيتها فيه، كان ضئيلا، صغير الرأس، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتئ الوجه، باخق العينين، خفيف العارضين، أحنف الرِّجْل، فكان إذا تكلم جلا عن نفسه.

باخق: منخسف العين. وكان كوسجا، أي لا لحية له - وكان قومه يقولون: وددنا أننا اشترينا للأحنف لحية بعشرة آلاف[1].

وكان له ولد يسمى بحر، وكان مضعوفا، قيل له: لم لا تتأدب بأخلاق أبيك، قال: الكسل، ومات، وانقطع عقبه.

ب- صفات الأحنف الخلقية:

رغم أن الأحنف كانت صفاته الخلقية مجال انتقاد من بعض الناس، حتى إن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين لما رآه قال له: (لما رأيتك ازدريتك)، ثم أُعجِب بمنطقه بعد ذلك، فإن رجلا كهذا له من الصفات الخلقية ما جعلته في هذه المكانة، لذا سنحاول أن نوضح هذه

---

(١) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣٤٩-٣٥١، ابن خلكان، ج٢، ص٥٠٦، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٤٨، ص٣٥٢، محمود شيت خطاب، ص٢٣١.

الصفات التي جعلت هذا الرجل يتمتع بهذه المكانة.

وهذه الصفات هي: ١- الحلم. ٢- العلم. ٣- الشجاعة. ٤- التقوى. ٥- قوة الحجة والإقناع. ٦- البلاغة. ٧- الأمانة. ٨- الصبر والأناة. ٩- الصدق.

١- الحلم:

أشهر وأظهر صفات الأحنف، والتي كانت من أسباب شهرته، فإذا ذكر الحلم ذكر الأحنف، وإذا ذكر الأحنف ذكر حلمه، حتى أصبح مضرب الأمثال فيقال: (أحلم من الأحنف).

وقد تعَلَّم الأحنفُ الحلمَ من أحد كبار قومه، وهو قيس بن عاصم المنقري[١]، فقد قيل للأحنف: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقري، لقد اختلفنا إليه في الحكم كما يُختَلَفُ إلى الفقهاء، فبينما نحن عنده يوما وهو قاعد بفنائه محتب بكسائه أتته جماعة فيهم مقتول ومكتوف فقالوا: هذا ابنك؟ قتله ابن أخيك، قال: فو الله ما حلَّ حبوتَه حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المسجد فقال: أطلقْ عن ابن عمك، ودارِ أخاك، واحمل إلى أمه مئة من الإبل؛ فإنه غريبة[٢].

وسُئل الأحنف عن الحلم فقال: هو الذل مع الصبر[٣].

---

(١) قيس بن عاصم بن سنان المنقري السعدي التميمي: أبو علي، أحد أمراء العرب وعقلائهم والموصوفين بالحلم والشجاعة فيهم، كان شاعرا اشتهر وساد في الجاهلية وهو ممن حرَّم على نفسه الخمر فيها، ووفد على النبي، ﷺ، في وفد تميم سنة ٩هـ فأسلم، وقال النبي ﷺ لما رآه: هذا سَيِّدُ أهلِ الوَبَر، واستعمله على صدقات قومه، ثم نزل البصرة في أواخر أيامه، وتوفي فيها سنة ٤٧هـ/٦٦٧م.

وقد رثاه أحد الشعراء بقوله:

وما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وكان له ٣٣ ولدا، وكان يئد البنات في الجاهلية.

ابن سعد، ج٩، ص ص٣٥-٣٦، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٤، ص١٠٤-١٠٥، الزركلي، ج٥، ص٢٠٦، منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، ص٣٥٠.

(٢) ابن كثير، ج٨، ص٢٨، محمود شيت خطاب، ص ص٢٣٣-٢٣٤.

(٣) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٣٠، ابن خلكان، ج٢، ص ص٥٠١-٥٠٢.

وقال: ليس فضل الحلم أن تظلم فتحلم، حتى إذا قدرتَ انتقمتَ، ولكنه إذا ظلمتَ فحلمتَ، ثم قدرتَ فعفوتَ.

ويقول: لا تبين حلم الرجل إلا حين يغضب، إن الحلم لا يكون إلا عند الغضب.

وكان يقول: لست حليما ولكني أتحالم.

وشتم رجل الأحنف بن قيس فقام الأحنف إلى منزله فاتبعه الرجل يسبه ويشتمه حتى بلغ منزله، فالتفت إليه الأحنف، قال: حسبك الآن ثم دخل.

قال رجل للأحنف بن قيس: لتسمعن عشرا، فقال الأحنف له: لبيك لئن قلت عشرا لم تسمع واحدة[1].

ومن فضله أنه قيل فيه: عاشت بنو تميم بحلم الأحنف أربعين سنة، وفيه يقول الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيس ظللن مهابة منه خشوعا[2].

٢- العلم:

كان الأحنف بن قيس على درجة كبيرة من العلم، فقد روى عن عدد كبير من الصحابة، منهم العباس بن عبد المطلب، عم النبي ﷺ، وأبو ذر الغفاري، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وآخرون من صحابة النبي ﷺ وحدّث عنه عمرو بن جاوان، والحسن البصري، وعروة بن الزبير، وطلق بن حبيب، وعبد الله بن عميرة، ويزيد بن الشخير، وخليد العصري، وآخرون، وكان قليل الحديث.

وعدّه اليعقوبي[3] من الفقهاء في عهد معاوية بن أبي سفيان.

ولم يكن العلم الديني فقط هو ما كان يتمتع به هذا الرجل، فقد كان كثيرا ما يستشهد

---

(١) ابن سعد، ج٩، ص٩٤، ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣٣٠-٣٣١.

(٢) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣١٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩١.

(٣) اليعقوبي، المجلد الثاني، ص٢٤٠.

بأبيات شعرية إما مشهورة أو غير مشهورة، وذلك دليل على أنه كان راويًا جيدًا للشعر، وفي بعض الأوقات كان ينظم شعرا.

وقد أورد ياقوت الحموي[1] بعضا من شعره.

٣- الشجاعة:

تتبين صفة الشجاعة في الأحنف من اختيار عمر بن الخطاب له لقيادة جيش المسلمين في خراسان، ثم تأكيد ذلك باختيار ابن عامر له لأحد قادة جيش خراسان لمواصلة فتح هذا الإقليم في عهد عثمان بن عفان، وكان الأحنف يتقدم جيوشه لمواجهة أعدائه، وقد مر بنا أنه كان يتقدم لمبارزة فرسان وقادة جيش الأعداء ويهزمهم واحدا تلو الآخر، كما كان يقود جيشه ويرتجز شعرا يؤكد شجاعته، ومواجهته لأعدائه، كما لم تظهر شجاعته في ميدان الحرب فقط، فكان يواجه الخلفاء والأمراء بكل شجاعة بما يراه صوابا وحقا من وجهة نظره، ومن هؤلاء الخلفاء: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، ومن الأمراء: زياد بن أبيه وعبيد الله بن زياد ومصعب بن الزبير.

٤-التقوى:

ظهرت صفة التقوى عند الأحنف من الروايات التي رويت عنه، وهذه الصفة هي التي كانت تمنعه من أن يخطئ في حق أحد، أو يفعل شيئا يشينه ويُغضِب عليه ربَّه، ومن هذه الروايات أن الأحنف كانت عامة صلاته بالليل، وكان يضع إصبعه في السراج فيقول: «حِسَّ»

---

(١) ومن ذلك قوله:

سألزم نفسي الصفح عن كل مجرم ... وان كثرت منهم الى الجرائمُ
فما أنا إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاومُ
فأما الذي فوق فأعرف قدرَهُ ... وأتبع فيه الحق والحق قائمُ
وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا ... تفضلتُ إنَّ الفضل للحر لازمُ
وأما الذي دوني فإن قال صنت عن ... إجابته نفسي وإن لام لائم

ثم يقول: يا أحنف، ما حملك على أن تصنع كذا وكذا يوم كذا وكذا[١].

وقيل للأحنف: إنك شيخ كبير، وإن الصيام يضعفك، قال: إني أعده لسفر طويل[٢].

وكان يقول: اللَّهُمَّ إن تغفر لي فأنت أهل لذلك، وإن تعذبني فأنا أهل لذلك[٣].

وكان قلما خلا إلا دعا بالمصحف، وكان يدعو: اللَّهُمَّ هب لي يقينا تهون به علي مصيبات الدنيا[٤].

٥- قوة الحجة والإقناع:

عن هشام بن عقبة بن أخي ذي الرمة الشاعر قال: شهدت الأحنف بن قيس وقد جاء إلى قوم في دم وقال: احتكموا، قالوا نحتكم ديتين، قال: ذاك لكم، فلما سكتوا قال: أنا أعطيكم ما سألتم، فاسمعوا: إن الله قضى بدية واحدة، وإن النبي، ﷺ، قضى بدية واحدة، وإن العرب تعاطي دية واحدة، وأنتم اليوم تطالبون، وأخشى أن تكونوا غدا مطلوبين، فلا ترضى الناس منكم إلا بمثل ما سننتم، قالوا: ردوها إلي دية [٥].

أما الأناة وهي التروي والتدبر في التفكير وعدم التعجل في الأمور واتخاذ القرارات، فكانت إحدى مميزاته، فقد قيل له: يا أبا بحر، إن فيك أناة شديدة، قال: قد عرفت من نفسي عجلة في أمور ثلاثة: في صلاتي إذا حضرتْ حتى أصلِّيها، وجنازتي إذا حضرتْ حتى أغيبها في حفرتها، وابْنَتي إذا خطبها كفؤها حتى أزوجها[٦].

---

(١) ابن سعد، ج٩، ص٩٤، ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٢٣، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٥٠، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ص٩١-٩٢، ابن كثير، ج٨، ص٢٧٧، محمود شيت خطاب، ص٢٤١.

(٢) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٢٣، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٥٠، سير أعلام النبلاء، ج٢، ص٩٢.

(٣) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٢٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩٢، ابن كثير، ج٨، ص٢٧٧، محمود شيت خطاب، ص٢٤١.

(٤) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٢٤.

(٥) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣٣٢-٣.

(٦) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣٣٢-٣.

٦-البلاغة:

كان الأحنف أحد من أوتي البلاغة، وكانت البلاغة أحد أعمدة العلم في ذلك الوقت، وكانت من لوازم الخطابة، والخطابة كانت مهمَّة، خاصة لقادة الجيوش وأمراء القبائل، وكان الأحنف كقائد جيش خراسان، وسيد بني تميم البصرة من أحد البلغاء الفصحاء، كما وضح ذلك من خلال محاوراته الكثيرة مع الخلفاء والأمراء، وأوضح الأمثلة على ذلك أنه كان في مجلس وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن من الكرم منع الحزم، ما أقرب النعمة من أهل البغي، لا خير في ولد يعقبه ندم، لن يهلك ولن يفتقر من زهد، رب هزل قد عاد جدا، من أمن الزمان خانه، من يعظم عليه أهانه، دعو المزاح فإنه يورث الضغائن، وخير القول ما صدقه الفعل، احتملوا من أذل لكم، واقبلوا عذر من اعتذر إليكم، أطِعْ أخاك وإن عصاك، صله وإن جفاك، أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، وإياك ومشاورة النساء، واعلم أن كفر النعمة شؤم، وصحبة الجاهل شؤم، ومن الكرم الوفاء بالذمم، ما أقبح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، وأقبح العدواة بعد الود، لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع منك على البذل، واعلم أن لك من دنياك ما أصلحتَ به مثواك، فأنفق في حق، ولا تكونن خازنا لغيرك، وإذ كان الغدر في الناس موجودا فالثقة بكل أحد عجز، اعرف الحق لمن عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة الغافل.

قال أحد بني تميم: فما رأيت كلاما أبلغ منه، فقمتُ وقد حفظتُه[١].

---

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات، ص١٥١، ويقال إنه استمر مصابا في عينه أربعين أو ثلاثين سنة، وقد أصيبت في فتح سمرقند.

ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٣٥.

ياقوت الحموي: معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ج٣، ص ص١٢٦٨-١٢٦٩.

٧-الأمانة:

الأمانة هي إحدى الصفات التي تميز أي إنسان، والتي تجعل منه موضع تقدير واحترام أمام نفسه وأمام الآخرين، وقد تمتع بها الأحنف، فقد رفض ما نفله عبد الله بن عامر في فتح خراسان.

٨-الصبر والأناة:

كان الأحنف صابرا على ما ابتلاه الله، فقد روي أنه قال لأصحابه: أتعجبون من أخلاقي وعلمي، إنما هذا شيء استفدته من عمي صعصعة، فإني أنا في ذود (٣-٩ بعير أو١٥، ٢٠، ٣٠) لأبي أرعاها، إذ عرض لي وجع في بطني، فلبثت أياما أشتهى أن أرى بعض أهلي، فأشكو إليه إذ مر بي عمي صعصعة ينتجع أرضا، فمشيت معه، أو قال: سرت معه، فذهبت أشكو إليه فأسكتنى، ثم مشيت أشكو إليه فأسكتني، أحسبه قال الثالثة، ثم قال: يا ابن أخي لا تشكو الذي ينزل بك إلى أحد من الناس؛ فإنما الحياةُ رجلان، صديق فيسؤوه مما تشكو إليه، أو عدو فيسره، ولا تشك الذي ينزل بك إلى مخلوق مثلك لا يستطيع أن يدفع عن نفسه مثل الذي نزل بك، ولكن اشك إلى الذي ابتلاك، والذي يقدر أن يفرجه عنك، يا ابن أخى، هل ترى عيني هذه، ما أبصرتُ بها سهلا ولا جبلا منذ عشرين سنة، ما اطلعت على ذلك زوجتي، ولا أحد من أهلي[١].

٩-الصدق:

قال الأحنف: ما كذبت منذ أسلمت إلا مرة واحدة ، فإن عمر سألني عن ثوب بكم أخذتَه، فأسقطت ثلثي الثمن[٢].

أقوال الأحنف والأقوال التي قيلت عنه:

بعد أن استعرضنا صفات الأحنف، أحببنا أن نورد بعضا من أقواله التي منها نتبين فكر

---

(١) محمود شيت خطاب، ص ص٢٣٩-٢٤٠.

(٢) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣١١، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٨٩.

الرجل ومنهجه في الحياة، فالإنسان عبارة عن قول وفعل، كما رأيت أنه لزاما علينا أن نورد أقوال العلماء وأهل الفضل في الأحنف؛ لأن رأي الإنسان في نفسه قد يكون إما مبالغا فيه فيبدو الإنسان أعلى من قدره، أو يكون بصورة أقل من حقه لكي يبدو أكثر تواضعا، فيضيع بذلك حق الرجل، وحتى تكتمل صورة هذا الرجل قدر الإمكان.

من أقوال الأحنف:

- الكامل من عدت هفواته، ولا تعد إلا من قلة[١].

- ثلاث ما أقولهن إلا ليعتبر بهن معتبر: لا أخلف جليسي بغير ما أحضره به، ولا أدخل نفسي في أمر لم أدخل فيه، ولا آتي سلطانا حتى يرسل إلي.

- إني ما رددت عن حاجة قط، قيل له: ولم قال: لأني لا أطلب المحال[٢].

- ما نازعني أحد قط إلا أخذت أمري بثلاث خلال: إن كان فوقي عرفت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان مثلي تفضلت عليه.

- من كانت فيه أربع خصال ساد قومه بغير مدافع: من كان له دين يحجزه، وحسب يصونه، وعقل يرشده، وحياء يمنعه.

- ما دخلت بين اثنين حتى يكونا هما من يدخلاني في أمرهما، ولا أقمت عن مجلس، ولا حجبت عن باب قط، ولا أجلس مجلسا وأعلم أني لا أقام عن مثله، ولا أقف على باب أخاف أن أحجب عن صاحبه.

- عجبت لمن يجرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر[٣].

- وقيل للأحنف: من أين أوتيت الحلم والوقار؟

قال:.بكلمات سمعتُهنَّ من عمر بن الخطاب، سمعتُ عمر يقول: يا أحنف، من

---

(١) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٤٠.

(٢) لمصدر السابق، ج٢٤، ص٣٣٥.

(٣) المصدر السابق، ج٢٤، ص٣٢٨، ص٣٣٠.

مرح استخف به، ومن ضحك قلت هيبته، ومن أكثر من شيء عُرِف به ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه[١].

- وقيل للأحنف: بأي شيء سَوَّدَكَ قومُكَ ؟

قال : لو عاب الناس الماء لم أشربه.

- ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة: شريف من دنيء، وبر من فاجر، وحليم من أحمق.

- لو جلس إليَّ مئةٌ لأحببتُ أن ألتمس رضا كل واحد بما يسره[٢].

قالوا عن الأحنف:

- قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: أخبرني عن الأحنف بن قيس ، قال: إن شئت يا أمير المؤمنين أخبرتك عنه في ثلاث، وإن شئت باثنتين، وإن شئت بواحدة، قال: فأخبرني عنه بثلاث، قال: كان لا يحرص ولا يجهل، ولا يدفع الحق إذا نزل به خضع لذلك، قال: فأخبرني عنه باثنتين: كان يؤتي الخير ويتوقى الشر، قال: فأخبرني عنه بواحدة: قال: كان أعظمَ الناس سلطانًا على نفسه[٣].

- وعن الحسن قال: ما رأيت شريف قوم أفضل من الأحنف.

- وقيل: ما وزن عقل الأحنف بعقل أحد إلا وزنه.

- وقال خالد بن صفوان: كان الأحنف يفر من الشرف والشرف يتبعه[٤].

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٢٣.

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء، ص٣٢٤، ص٣٢٧.

(٣) ابن عساكر، ج٢٤، ص٣١٧.

(٤) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٣١٥-٣١٧.

خامسًا : وفاة الأحنف

بعد حياة حافل بعظائم الأمور وجلائل الأعمال بما تشمل من فتوحات وجهاد وسياسة وحرب، توفي الأحنف بن قيس على خلاف بين المؤرخين في سنة وفاته فذكر البعض أنها سنة ٦٧هـ[١]، أو سنة ٦٨هـ[٢]، أو سنة ٦٩هـ[٣]، أو سنة ٧٠هـ[٤]، أو سنة ٧١هـ[٥]، أو سنة ٧٢هـ[٦]، أو سنة ٧٧هـ[٧].

ويقال إنه توفي في إمارة مصعب بن الزبير على الكوفة، وسار مصعب في جنازته بغير رداء، وإذا علمنا أن مصعب قُتل سنة ٧١هـ[٨]، يكون احتمال وفاة الأحنف قبل هذا التاريخ.

ويقال إنه توفي عن سبعين سنة، ونرجح أنه توفي سنة ٧٢هـ، حيث تذكر الرواية أنه توفي عن أكثر من سبعين سنة، وإذا علمنا أنه عند الهجرة كان عمره ثلاث سنوات يكون سنه عند وفاته ٧٥ سنة، كما أن جمهرة كبيرة من العلماء قد ذكروا وفاته في هذه السنة، وهذا ما رجح لدينا هذه الرواية.

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص٢٦٤، ابن عساكر، ج٢٤، ص٣٥٥، ابن خلكان، ج٢، ص٥٠٤، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٥٣، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩٦، محمود شيت خطاب، ص٢٣١.

(٢) ابن خلكان، ج٢، ص٥٠٤، محمود شيت خطاب، ص٢٣١.

(٣) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ج٦، ص٩٣.

(٤) ابن كثير، ج٨، ص٢٧٧، محمود شيت خطاب، ص٢٣١.

(٥) ابن خلكان، ج٢، ص٥٠٤، محمود شيت خطاب، ص٢٣١.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص٣٥٣، سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩٦، العبر في خبر من غبر، ج١، ص٥٨، دول الإسلام، ج١، ص ص٦٤-٦٥، الإعلام بوفيات الأعلام، حققه مصطفى بن علي عوض، ربيع.

(٧) ابن خلكان، ج٢، ص٥٠٤، محمود شيت خطاب، ص٢٣١.

(٨) ابن كثير، ج٨، ص٢٧٧، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، د.ت ، ج١، ص٣٠٢، الزركلي، ج١، ص٢٧٦، منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، ص٤٩، وذكر بعض المؤرخين أمثال اليعقوبي، والذهبي أن مصعب توفي في جُمادى الأولى أو ذي القعدة سنة ٧٢هـ، وعلى ذلك يحتمل أن يكون الأحنف قد توفي في عهد مصعب، وأن مصعبًا قد حضر وفاته، كما ذكر في المصادر. اليعقوبي، المجلد الثاني، ص٢٦٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٤٣.

الخاتمة

في نهاية البحث نود أن نشير إلى أن الباحث قد توصل للنتائج التالية:

١- إن شخصية الأحنف من الشخصيات المهمّة في تاريخنا الإسلامي والعربي التي تستحق العناية والتمحيص من القراءة والدرس.

٢- حملت شخصية الأحنف كثيرا من الصفات التي استحق بها ذلك الدور المهمّ في التاريخ، وهذه الصفات تنوعت بين الصدق والشجاعة والحلم والأناة والبلاغة وجميع الصفات التي جعلته سيدا كما سماه عمر بن الخطاب.

٣- برز دور الأحنف في الفتوحات الإسلامية بين قائد وأمير، وكان الاختيار لوجهة خراسان في المرتين، وذلك من ذكاء القيادة الإسلامية حيث تم اختياره من قِبَل عمر بن الخطاب، وأخرى من قِبَل عبد الله بن عامر والي البصرة، وذلك لعلمه بمعرفة الأحنف بحرب أهل خراسان ومعرفة المنطقة والمجال الحيوي لها.

٤- كان دور الأحنف في السياسة ووقت الفتن أكثر بروزا من دوره في الفتوحات؛ لأنه كان دائما ما يصدع بالحق دون خوف ولا مواراة، كما أن قادة الفتوحات الإسلامية كان لهم دور أكثر من الأحنف؛ لأن مناطق فتوحاته كانت أكثر ومجال قدراتهم وصلاحياتهم أكبر، كما أن معظمهم كانوا من صحابة النبي ﷺ، أمثال أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم.

٥- رغم صدوع الأحنف دائما بالحق فإن ذلك لم يمنع الخلفاء والأمراء وذوي الرأي من الاعتراف بفضله والإذعان لرأيه في أوقات كثيرة، والأمثلة على ذلك كثيرة منها اقتناع عمر بن الخطاب برأيه في فتوح فارس، ومعاوية بن أبي سفيان في البيعة ليزيد وإعادة تولية عبيد الله بن زياد، وعبد الله بن الزبير في إعادة مصعب إلى ولاية البصرة، واختياره للمهلب بن أبي صفرة في قتال الخوارج.

كل ذلك يؤكد ثراء شخصية الأحنف، وهذا التنوع يوحي بدوره المهم في التاريخ بوجه

عام، وتاريخنا الإسلامي والعربي بوجه خاص. وفي ختام بحثنا نرى أن هناك شخصيات في التاريخ الإسلامي والعربي تحتاج لمزيد من القراءة والدرس والتمحيص والكتابة عنها بشكل أوضح؛ نظرًا لدورهم المهم في التاريخ، أمثال الضحاك بن قيس الفهري، طارق بن زياد، المغيرة بن شعبة، مصعب بن الزبير، بشر بن مَرْوان، عبد الله بن علي عمِّ المنصور، الأشعث بن قيس الكندي.

***

ملاحق مهمة

ملحق١

نص الصلح بين الأحنف بن قيس ومرزبان مَرْو

كتب مرزبان مرو إلى الأحنف كتابا نصه:

إلى أمير الجيش، إنا نحمد الله الذي بيده الدول، يغير ما يشاء من الملك ويرفع ما يشاء بعد الرفعة، إنه دعاني إلى مصالحتك وموادعتك ما كان من إسلام جدي، وما رأى من صاحبكم - الرسول ﷺ - من الكرامة والمنزلة، فمرحبًا بكم وأبشروا، وأنا أدعوكم إلى الصلح فيما بيننا وبينكم؛ على أن أؤدي إليكم خراجًا ستين ألف درهم، وأن تقروا بيدي ما كان الملك كسرى أقطع جد أبي، حيث قتل الحية التي أكلت الناس، وقطعت السبيل من الأرض والقرى بما فيها من الرجال، ولا تأخذوا من أحد من أهل بيتي شيئا من الخراج، ولا تخرجوا المرزبة من أهل بيتي إلى غيرهم، فإن جعلت ذلك لي خرجت إليك، وقد بعثت إليك ابن أخي ماهك؛ ليستوثق منك بما سألت.

فكتب إليه الأحنف:

بسم الله الرحمن الرحيم

من صخر بن قيس أمير الجيش إلى باذان مرزبان مَرْو الرُّوز ومن معه من الأساور والأعاجم: سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى، أما بعد: فإن ابن أخيك ماهك قدم لك فنصح لك جهده، وأبلغ عنك، وقد عرضت ذلك على من معي من المسلمين، وأنا وهم فيما عليك سواء، وقد أجبناك إلى ما سألت وعرضت؛ على أن تؤدي عن أكرتك وفلاحيك والأرضين ستين ألف درهم إلي، وإلى الوالي من بعدي من أمراء المسلمين إلا ما كان من الأرضين التي ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التي

أفسدت الأرض وقطعت السبيل، والأرض لله ورسوله يورثها من يشاء من عباده، وإن عليك نصرة المسلمين، وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة، إن أحب المسلمون ذلك وأرادوا. إن لك على ذلك نصر المسلمين على من تقاتل من ورائك من أهل ملتك، جاز لك بذلك مني كتابٌ يكون لك بعدي، ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوي الأرحام، وإن أنت أسلمتَ واتبعتَ الرسول كان لك ما للمسلمين من العطاء والمنزلة والرزق، وأنت أخوهم، ولك بذلك ذمتي وذمة أبي والمسلمين، وذمم آبائهم، شهد على ما في هذا الكتاب جزء بن معاوية، أو معاوية بن جزء، وحمزة بن الهرماس، وحميد بن الخيار المازنيان، وعياض بن ورقاء الأسيدي.

وكتب كيسان مولى بني ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم [سنة ٣٢هـ]، وختم أمير الجيش الأحنف بن قيس، ونقش خاتمه الأحنف بن قيس يعبد الله[1].

ملحق٢

رثاء الأحنف بن قيس

توفي الأحنف بن قيس في دار عبيد الله بن أبي عصفير، وكان قد أوصى ألا تتبع جنازته امرأته، فلما ولي في حفرته أقبلت بنت لأوس بن معسر السعدي ثم القريعي على راحلتها، وهى عجوز كبيرة، فوقفتْ عليه وقالت: من الموافَى به في حفرته لوقت حِمامه قيل لها: هذا الأحنف بن قيس، قالت: أبو بحر، قالت: والله لئن كنتم سبقتمونا إلى الاستمتاع به في حياته لا تسبقونا إلى الثناء عليه عند وفاته، قالت: لله درك من مجن في جنن (القبر)، ومدرج في كفن، وإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله الذي ابتلانا بموتك، وفجعنا بفقدك أن يوسع لك في قبرك، وأن يغفر لك يوم حشرك، وأن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الرشاد دليلك، ثم نظرتْ إلى الناس فقالت: أيها الناس، إن أولياء الله في بلاده هم شهوده على عباده، وإنا لقائلون حقا ومثنون صدقا، وهو أهل لحسن الثناء، وطيب الثناء، أما والذي كنت من أجله في عدة،

---

(١) الطبري، ج٤، ص ص٣١٠-٣١١، ابن حبيش، المجلد الثاني، ص ص٧٩٤-٧٩٥.

ومن الحياة في مدة، ومن المضمار إلى غاية، ومن الآثار إلى نهاية، الذي رفع عملك عند انقضاء أجلك، لقد عشت مودودًا حميدا، ولقد مت سعيدا فقيدا، ولقد كنتَ عظيم الحلم، فاصل السلم، رفيع العماد، واري الزناد، منيع الحريم، سليم الأديم، عظيم الرماد، قريب البيت من الباد (البعيد)، ولقد كنت في المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا، ومن الناس قريبا، وفيهم غريبا، وإن كنت فيهم مسودا، وإلى الخلفاء موفدا، وإن كانوا لقولك مستمعين ولرأيك متبعين، رحمنا الله وإياك.

قال مصعب بن الزبير، وكان حاضرا لقولها: « ما رأيت كاليوم قط امرأة أفضح للرجال من هذه » .

ويقال إن هذا الكلام لسَوْدَة بنت الحارث المنقرية[1] .

•••

(١) ابن عساكر، ج٢٤، ص ص٢٥٣-٢٥٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٩٦.

ثَبَت المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

ابن أعثم الكوفي (العلامة أحمد بن أعثم الكوفي، ت نحو٣١٤هـ/٩٢٦م)

- كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري، دار الأضواء، بيروت، ط١، ١٩٩٠م

ابن الأثير (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)

- الكامل في التاريخ، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، راجعه وصححه د: محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

ابن العماد (شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد، ت ١٠٨٩هـ/١٦٩٠م)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أشرف على تحقيقه وخرَّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، دون تاريخ، المجلد الأول (١-١٠٠هـ).

ابن حبيش (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن حبيش، ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)

- الغزوات الضامنة الكاملة والفتوح الجامعة الحافلة الكائنة في أيام الخلفاء الأول الثلاثة، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون، أبو يزيد، ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، حققه: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ج٢.

ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م)

- كتاب الإمامة والسياسة أو تاريخ الخلفاء المنسوب لابن قتيبة، تحقيق: طه محمد الزيني،

مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، دون تاريخ.

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

- البداية والنهاية، خرَّج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، محمد بن عيادي بن عبد الحليم، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع الزهري، ت ٢٣٠هـ/٨٣٥م)

- الطبقات الكبرى، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج٩.

ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، ت ٥٧١هـ/١١٧٢م)

- تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٢٤.

ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، ت ٤٢١هـ/١٠٣١م)

- تجارِب الأمم وتعاقُب الهمم، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.

ج١: (أخبار ملوك فارس السابقين على الإسلام حتى خلافة الحسن بن علي).

ج٢: (خلافة معاوية حتى خلافة مَرْوان بن محمد ١٣٢هـ).

أبو الفدا (الملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل بن علي، صاحب حماة، ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)

- المختصر في أخبار البشر، تحقيق: محمد زينهم عزب، يحي سيد حسين، محمد فخري الوصيف، تقديم: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط١، دون تاريخ.

البلاذري (أحمد بن يحي بن جابر، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)

- فتوح البلدان، شرحه وحققه وعلق على حواشيه وأعدَّ فهارسه وقدَّم له: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، دون تاريخ.

خليفة بن خياط (خليفة بن خياط الشيباني العصفري البصري، ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م)

- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

- الطبقات، تحقيق: أكرم ضياء العمري، بغداد، ط١، ١٩٦٧م.

الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م)

- تاريخ الإسلام ووَفَيَات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب

العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م. الأجزاء :

الثالث، عهد الخلفاء الراشدين (١١-٤٠).

الرابع، عهد معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠).

الخامس، حوادث ووَفَيَات (٦١-٨٠).

- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيق الكتاب وخرَّج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط، تقديم: بشَّار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

الجزء الثالث: تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي ومأمون الصاغرجي.

الجزء الرابع: تحقيق: مأمون الصاغرجي.

- دول الإسلام، حققه وعلق عليه: حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدم له: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، الجزء الأول.

- الإعلام بوَفَيَات الأعلام، تحقيق: مصطفى بن علي عوض، ربيع أبو بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، المجلد الأول.

- العبر في خبر من غَبَر، حققه وضبطه على مخطوطتين: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ.

الزبير بن بكار (الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي الأسدي المكي، ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م)

- الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م، الأجزاء الرابع، الخامس، السادس.

المطهر بن طاهر المقدسي، ت بعد ٣٥٥هـ/٩٦٦م :

-كتاب البدء والتأريخ، باريس، ١٨٩٩م، ج٥.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)

- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م)
- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، دون تاريخ.
ثانيا: المراجع:
أكرم ضياء العمري :
- عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، مكتبة العبيكان، المدينة المنورة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
حسن إبراهيم حسن
- تاريخ الإسلام السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، دار الجيل، بالاشتراك مع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١٥، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
الجزء الأول الدولة العربية في الشرق ومصر والمغرب والأندلس.
حمدي شاهين
- الدولة الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين، دار القاهرة، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
خير الدين الزركلي
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، مايو٢٠٠٢م.
سامي ريحانا
- معارك العرب منذ ما قبل الإسلام حتى حروب الخليج، دار نوبليس، بيروت، ط١، ٢٠٠٧م.
- المجلد الخامس، ج٥، الفتوحات الكبرى.
السيد عبد العزيز سالم
- تاريخ الدولة العربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٤م.
عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
- التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، دار الدعوة، الإسكندرية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، المجلد السادس، الجزء الرابع.
محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي
- أيام العرب في الإسلام، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٤، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
الشيخ محمد الخضري

- تاريخ الدولة الأموية (محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية)، مكتبة الإيمان، المنصورة، دون تاريخ.

- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

محمد نصر مهنا

- الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية في آسيا، منشأ المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٢م.

محمود شيت خطاب

- قادة فتح بلاد فارس (إيران)، دار الفتح، بيروت، ط١، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

منير البعلبكي

- معجم أعلام المورد، إعداد رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

المراجع الأجنبية

- ABDUL AZIZ AL-SHINNAWY, *THE ISLAMIC OPENINGS(AL Fatuhat AL Islamiyah)* TransLated by Heba samir Hendawi,omm AL-QURA For translation,pubLishing,Distribution,EL Mansura,Egypt,fisrt Edition,1422A· H/2002.

- HUGH KENNEDY, *The prophet and the age of the CALIPHAtes the ISLmic near East from the sixth to the eleventh century*,Long man Group Limited,London,seventh impression,1996.

***

قَلْعَةُ بَنِي حَمَّاد بالجَزَائِر مِن خِلال كُتُب الرِّحلة وَالجُغْرَافِيا
-رِحْلَةُ صَاحِب الاسْتِبْصَار أُنْمُوذجًا-

جهيدة بوعزيز*

حَظِيت الجزائر بالعديد من الرحلات التاريخية الهامة التي ألفها المغاربة عند مرورهم بطريقها إلى بلاد المشرق العربي، وقد اكتست هذه الرحلات قيمة بالغة الأهمية نظرا لما تحويه من إشارات قيّمة لا يمكن للباحث التاريخي الاستغناء عنها. وحول هذا النوع من المصادر التاريخية يذهب المستشرق الروسي «أغناطيوس كراتشكوفسكي» إلى اعتبار أدب الرحلة «المصدر الأساسي والموثوق به في دراسة ماضي العالم الإسلامي؛ إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها، لا للمؤرخ أو الجغرافيّ فحسب، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرّخي الأدب والعلم والدين، وللغويين وعلماء الطبيعة... وقد يحدث أحيانا أن تمثل المادة الجغرافية العربية، إما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معينة لقطر ما»[1].

وعلى هذا فقد أدى الرحالة العرب مهمة سامية للأجيال اللاحقة، حيث أسهمت مؤلفاتهم في حفظ معلومات دقيقة وغاية في الأهمية ونقلت لنا الكثير من الصور والمشاهد الحية للبلدان وطبيعتها الجغرافية، وظروفها المعيشية وألقت الضوء على تاريخها وثقافة سكانها وأفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم وغيرها. وكان لقلعة بني حماد نصيبٌ من هذا الإرث الحضاري، وإنْ كان ضئيلا، لكنه مكّننا من التقاط إشارات قيّمة لتحديد الملامح الطبيعية والبشرية والاقتصادية والعمرانية للقلعة، ومن بين تلك الرحلات نذكر «رحلة صاحب الاستبصار في عجائب الأمصار» التي اخترتها لكتابة هذا البحث، رغم أنها متقدمة زمنيا عن نشأة

(*) أستاذ مشارك - قسم التاريخ - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة المسيلة - الجزائر

(1) أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة: إيفور بلياييف، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، ص ١٧.

القلعة وأحداثها السياسية على عكس رحلة البكري[١] التي كانت متوافقة زمنيًا مع تلك الأحداث، بيدَ أن البكري لم يتكلم كثيرا عن القلعة إلا في إشارات بسيطة فقط، وذلك ما جعلني أختار رحلة صاحب الاستبصار التي يتميز مؤلفها[٢] بقدرة كبيرة على الملاحظة الدقيقة لكل ما يصادفه أو يمرُّ به، فهو مصدر لمعلوماتٍ متنوعة عن القلعة جغرافية وتاريخية وأثرية. وقد وصفها محقق الرحلة الدكتور «سعد زغلول عبد الحميد» بأنها مصنَّف يحوى معلومات دقيقة وأخبارا عامة وأساطير طريفة، جُمعت بغرض تقديم وصف سهل لطيف ومستساغ للقارئ لا تثقله الدقة العلمية المتعبة والتي لا تهم سوى المختصين، وأكَّد على أنها موسوعة تاريخية جغرافية مختصرة. وأجد «صاحب الاستبصار»، حسب اطلاعي، من أهم الرحالة الذين كتبوا عن القلعة وزودونا بوصف دقيق في بعض جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية، وهو ما سنتطرَّق إليه في هذا البحث.

أصل بني حماد:

يذكر «صاحب الاستبصار»: أن أصل حماد بن بُلكين مؤسس قلعة بني حماد من قبيلة صنهاجة البربرية قائلا: «دار مملكة بني حماد من صنهاجة»[٣] هذه الأخيرة التي قال عنها ابن خلدون إنها: «من أوفر قبائل البربر، وأكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده، لا يكاد

---

(١) المتوفى سنة (٤٨٧هـ/١٠٩٤م).

(٢) للأسف ليست لدينا أي معلومات حول المؤلف غير أن محقق الرحلة يعتقد أنه من المغرب الأقصى، وذلك اعتمادا على إشارات كثيرة بالكتاب توحي بذلك، وهو يرجح أيضا أنه عاش في عهد يعقوب المنصور الموحدي (١١٨٤-١١٩٩م) وكتب رحلته سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م)، وقد كان ينظر بعين الولاء لأحد كبار رجال الدولة حينئذ وهو الشيخ أبو عمران بن أبي يحي بن وقتين الذي يهدي إليه الكتاب، ويُفترض أن المؤلف كان يشغل وظيفة لدى يعقوب المنصور كانت تمكّنه من الاطلاع على مجريات الأمور في ديوان الخليفة أو في بلاطه. انظر: مقدمة محقق رحلة الاستبصار في عجائب الأمصار، تقديم وتحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦.

(٣) مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تقديم وتحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص١٦٧.

قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر»[١]، وهذا ما يعني أن قلعة بني حماد عُرفت بنسيج عمراني يتميز بخصائصه ومميزاته الخاصة من الأنفة والشجاعة والعصبية القبلية والثأر وغيرها من المميزات التي اشتهرت بها قبيلة صنهاجة البربرية في المغرب الإسلامي[٢].

الموقع الجغرافي:

إن لفظ قلعة بني حماد في المتون المصدرية وعند «صاحب الاستبصار» لا ينحصر فقط في معناه على مجرد مدينة المعاضيد الحالية والواقعة شمال شرق ولاية المسيلة، وإنما يتسع ليشكل مركزا حضاريا كبيرا عاصمته قلعة بني حماد، إضافة لكل بلاد المغرب الأوسط في تلك الفترة، ولذلك نجد «صاحب الاستبصار» لا يتحدث عن موقع قلعة بني حماد فقط، وإنما يتحدث عن «دولة بني حماد»، للدلالة على الحيِّز الجغرافي الكبير ومدى شساعة المناطق التابعة لها. وفي هذا السياق يذكر أن «ملك بني حماد قد عظم بجهة القلعة وبِجَايَة وتلك البلاد»[٣] قاصدا بلاد المغرب الأوسط، وهو ما تؤكده جُلُّ المصادر التاريخية بعد توقيع حماد بن بُلكين لمعاهدة الصلح بينه وبين ابن أخيه المعز بن باديس والتي انتهت بتقسيم الملك بين بني زيري إلى دولتين: دولة إلى المنصور بن بُلكين صاحب القيروان، ودولة إلى حماد بن بُلكين صاحب القلعة[٤].

ملوك صنهاجة وحادثة قتل المعز بن باديس للشيعة بأفريقية:

في حديثه عن ملوك صنهاجة يقول «صاحب الرحلة»: إنهم هم أنفسهم من «كانوا ملوك

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ج٦، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٠، ص٢٠١.

(٢) للاطلاع أكثر حول قبيلة صنهاجة البربرية انظر، ابن خلدون: المصدر السابق، ص ص ٢٠١-٢١٦.

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٦.

(٤) ابن خلدون: المصدر السابق، ص٢١٠.

أفريقية، فلما رحلوا إلى بلاد مصر ولوا على إفريقية بُلجين[١] بن زيري بن مناد الصنهاجي[٢]، فكان كذلك على طاعتهم إلى أن مات ثم ولي بعده ابنه حبوس[٣]، فكان كذلك على طاعتهم إلى أن مات، فولى بعده ابنه باديس، ثم ولي بعده ابنه المعز، وهو الذي خلع طاعة الشيعة وقتلهم بأفريقية قتلا ذريعًا»[٤].

ويبدو واضحا هنا أن عهد المعز بن باديس قد شهد استقرارا سياسيا وقوة عسكرية كبيرة للأسرة الحاكمة، وهو ما أكدته المتون المصدرية حيث بلغت أفريقية قمة ازدهارها حينئذ، ونجح المعز بن باديس في إخضاع حماد بن بُلكين لسلطته وأمضى معه اتفاقية صلح تقضي بتسليمه المغرب الأوسط كاملا[٥]؛ ليتفرغ المعز بن باديس بعدها للقضاء على التعصب الديني الحاصل بين طائفتي الشيعة والسنة بأفريقية، والذي كان يزداد يوما بعد يوم منذ رحيل الخليفة الفاطمي إلى مصر.

ويذكر «صاحب الاستبصار» أن سبب حادثة قتل المعز للشيعة كان «أن المعز بن باديس كان يضمر حب الصحابة (رضوان الله عليهم)، وكان يُظهر التشيع والقليل من أهل أفريقية سنية لكون الدولة للشيع (للشيعة)، فقيل: إن المعز كان ماشيًا يومًا بالقيروان، وكانت دار مملكة أفريقية، إذْ كَبَتْ به دابتُه فقال: «أبو بكر وعمر»! فلما سمع منه أهل القيروان ذلك

(١) يقصد به بُلكين بن زيري.

(٢) تكاد تجمع كل المصادر أن المعز الفاطمي عندما استخلف بُلكين بن زيري على بلاد المغرب وأوصاه بثلاث توصيات قبل رحيله قائلا: «إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء: إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية والسيف عن البربر (الزناتيين الرُّحَّل والخوارج)، ولا تول أحدا من إخوتك وبني عمك، فإنهم يرون أنهم أحق في هذا الأمر منك، وافعل مع أهل الحضر (أهل المدينة) خيرًا». انظر: ابن خلدون: المصدر السابق، ص٢٠٧. والهادي، روجي إدريس، الدولة الصنهاجية تاريخ أفريقية في عهد بني زيري من القرن ١٠ إلى القرن ١٢م، ترجمة: حمدي الساحلي، ج١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص٧٨.

(٣) يقصد به المنصور بن بُلكين (٣٧٣هـ/٣٨٦هـ).

(٤) نفس المصدر، ص١٦٦.

(٥) الهادي، روجي إدريس: المرجع السابق، ص١٦٣.

قاموا على الشيعة فقتلوهم حيثما وجدوهم وقُتلوا في جميع أفريقية؛ ويقال إنه قتل منهم بالقيروان وأحوازها نيف على ٢٠ ألفا. وملك بنو زيري ابن مناد الصنهاجي بلاد أفريقية إلى أن دخلها عليهم العرب، فرجع صاحب القيروان يسكن مدينة المهدية»[١].

وصف «صاحب الاستبصار» لقلعة بني حماد:

يصف «صاحب الاستبصار» مدينة القلعة كغيره من الرحالة الجغرافيين بإعجاب. كبير لحصانتها العسكرية وفخامة بنائها قائلا: «هي مدينة عظيمة قديمة أزلية على نظر عظيم كثير الزرع وجميع الخيرات. وهي في جبل عظيم، وهى حصينة منيعة لا تُمكّن بقتال»[٢]. كما يشيد بمبانيها العظيمة وقصورها المتقنة البناء ويتعجب لصنعها المدهش الذي عجز عن وصفه في قوله: «لبني حماد بالقلعة مبانٍ عظيمة وقصورٌ منيعة متقنة البناء عالية السناء، منها قصر يسمى بدار البحر، وقد وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بُعْد. وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف، وفيه قصور غير هذا ومبانٍ عجيبة؛ وفيها آثارٌ للأول عجيبة»[٣].

حماد بن بُلكين وبعض الأخبار المحفوظة عنه:

بعد التعريف بالقلعة وموقعها وأصل سكانها ينتقل «صاحب الرحلة» إلى الكلام عن حماد بن بُلكين مؤسّس القلعة واصفًا دهاءه بقوله: «كان له دهاء وفطنة وتجربة في الحروب، وكانت له فِراسة حسنة وذكاء»[٤]، ويبدو من خلال هذا الوصف أن حماد بن بُلكين كان صاحب سياسة حكيمة مبنية على المزج بين القوة العسكرية الصارمة والحنكة السياسية، كيف لا وهو من استطاع بذكائه أن يمهّد الدولة الحمادية له ولخلفائه من بعده بعدما كانت حكرًا على أبناء عمومتهم بأفريقية.

---

(١) نفس المصدر، ص١٦٧.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه.

وفي السياق نفسه يروي لنا «صاحب الرحلة» بعضا من مواقف هذه الشخصية الفذة والتي حُفظت في ذهن مجتمع المغرب الأوسط رغم مرور السنين عليها؛ إذ جادت بها معظم المتون المصدرية التي تحدثت عن قلعة بني حماد، نذكر منها خبرين مشهورين ومحفوظين بالأذهان أوردهما «صاحب الاستبصار» في رحلته:

الأول: خبر الشيخ وزوجته حيث يروي لنا الرحالة قصة الشيخ وزوجته بتفاصيلها التي تدل على ذكاء وفطنة حماد بن بُلكين من جهة وقرب الرعية للأسرة الحاكمة من جهة أخرى، حيث جاء في الخبر المحفوظ: «أن رجلا شيخا خرج مع امرأته من بعض البلاد يريد القلعة فصحبه في الطريق فتًى شابٌّ وكان له جمال، فكلِفتْ به المرأة وكلِف بها فتواطآ على أن يدعي في زوجها وتفعل هي كذلك، ويسقط الشيخ، فلما وصلا القلعة فعلا ذلك. قال فتعرض الشيخ إلى حماد وشكا إليه ما دهاه. وكان الشيخ مولعًا بالمرأة فأمر حماد بإحضار الفتى والجارية، فسألهما عما ذكره الشيخ فأنكرا ما قال الشيخ وتعارفا أمامه بالزوجية. فجعل حماد يسأل الشيخ من صحبه في الطريق، أو هل له بيِّنة أو شُبهة؛ فقال له الشيخ: ما صحبني وامرأتي غير هذا الكلب، خرج معنا من البلد الفلاني، وهو تربيتنا؛ فأمر حماد بربط الكلب إلى شجرة، ثم أمر المرأة أن تحله، فقربتْ منه فهشَّ الكلبُ إليها، فحلَّتْه، ثم أمرها فربطته ثم حلَّتْه، والكلب في ذلك كله يهشُّ إليها ولا ينكر شيئا مما تفعل به، ثم قال للفتى: قم إلى الكلب وحله واربطه فلما دنا منه خجَّه الكلب وأنكره، ولم يقدر على الدنوّ منه، فقال حماد للشيخ: قم إلى الكلب، فقام إليه فهشَّ الكلبُ كما هشَّ للمرأة، فأمر بضرب عنق الفتى، وقال للشيخ: شأنك والجارية»[1].

والثاني: خبر دهاء المرأة البربرية مع حماد بن بُلكين: وقد جاء على لسان حماد بن بُلكين نفسه حيث قيل لصاحب «رحلة الاستبصار» إنه قال: «ما تداهى علي أحد قط ولا خدعني غير امرأة وكعاء من البربر، قيل له: وكيف كان ذلك؟ قال: كان لي صاحب من البربر نشأتُ معه بالقيروان ولم يفرق بيننا ريبُ الزمان، وكنتُ خالطته بنية نفسي وجعلته محل أنسي، فلما صرتُ إلى ما أنا فيه من الرياسة (كذا)، فقدتُه، فجعلت أطلبه فلا أقدر عليه، فلما نزلت على

(١) نفسه، ص١٦٨.

مدينة باغاية[١]، ودخلتها عُنوة واستبحت جميع ما فيها فإذا أنا في صبيحة ذلك اليوم بصائح يصيح: «أنا بالله وبالأمير» ؛ فقلت: «مالك ومن أنت» فقال: أنا فلان، فإذا بصاحبي الذي كنت أطلب مع أهل باغاية، قد حبسه عني نسكه، وغلب على هواه وَرَعُه؛ فأظهرت البِشر بمكانه والجزل بشأنه، ولو شفع إليّ في أهل باغاية لشفعته. فجعلت أوانسه وهو كالوالد فسألته عن أمره، فقال: إنه فقد بنتا كانت له فيمن فقد من النساء؛ فقلت له: والله لو خرجت إليّ بالأمس لحقنت دم أهل بلدك لحرمتك عندي؛ فقال: القدر غالب والمحروم خالب. قال حماد: ثم أمرت القواد فأحضروا جميع ما كان في أخبئتهم من النساء، فعرف الرجل أن ابنته فيهن. قال حماد: فأمرت بسترها وترفيهها وحملها مع أبيها في أحسن حال، قال: فرفعتْ صوتها قائلة، والله يا حماد لا رجعت مع أبي ولا مع الذي غصبني، قال: فقلت لها: فما الذي تريدين؟ قالت: إني لا أصلح إلا للملوك، فلا حاجة لي بسواهم، فلما سمع ذلك أبوها سكن ما كان في نفسه لها من الإشفاق، وظن أنها قد فتنت وفسدت. قال حماد: ومن أين تقولين إنك تصلحين للملوك؟ قالت: لأن عندي علمًا لا أشارك فيه ولا يدعيه غيري، فقلت لها: ألا أريتينا شيئا من علمك، قالت: نعم تأمر بقتل إنسان وتحضر أمضى سيف عندك، أتكلم عليه بكلمات تمنع من تأثيره في أحد ويعود في كف حامله أكَلَّ من قبله. قال حماد: فقلت إن الذي يجرِّب هذا فيه لمغرور، فقالت لي: أوَتُتَّهَمُ أحدٌ في قتل نفسه؟ قلت لها: لا، فقالت: إني أريد أن تجرِّب ذلك فيّ حتى تروا عجبا. قال: فأتى بسيف ماض فتكلمت عليه وأشارت إلى السماء مرارا ومدّتْ عنقها، فضربها السَّياف ضربة أبان رأسها من جسدها؛ فاستيقظت من غفلتي، وعلمت أنها تداهت عليّ، وكرهتُ العيش بعد الذي جرى عليها واستبان لأبيها ذلك فجعل يلقي نفسه عليها، ويتمرغ في دمها اغتباطا بما رأى من عظيم أنفاسها، إذ اختارت الموت على ما نزل بها، وقال: لا شك أن إشارتها إلى السماء إنما كان ذِكْرًا للشهادة والدعاء لله تعالى أن يغفر لها»[٢].

---

(١) يذكر «صاحب رحلة الاستبصار» أن مدينة باغاية هي مدينة عظيمة جليلة، فيها آثار للأول، ولها أنهار عامرة، وعيون، ومزارع، ومسارح. وهي تحت جبل أوراس، وهذا الجبل يشق بلاد المغرب وأفريقية. انظر: نفس المصدر، ص١٦٣.

(٢) نفس المصدر، ص١٦٩.

والواقع أن القارئ لهذه الحادثة الأليمة يستطيع تسجيل عدة ملاحظات أولية حول ذهنية مجتمع المغرب الأوسط في تلك الفترة، أولها: تغلغل الزهد والورع الديني في نفوس المجتمع المغربي آنذاك، ويضرب لنا والد المرأة البربرية مثالا حيًّا على ذلك رغم إمكانية العيش المترف له ولقبيلته خاصة وأنه صديق الملك حماد بن بُلكين. ومن جهة أخرى: تكشف لنا الحادثة عن ذهنية المرأة المغربية وشجاعتها الكبيرة، رغم أنها الحلقة الأضعف ضمن باقي الشرائح الاجتماعية، لكنها فضلت الموت على عار السبي الذي سيبقى حتما ملتصقا بها طوال حياتها.

بعض الملامح الاقتصادية لقلعة بني حماد:

لقد صور لنا «صاحب الاستبصار» بعض الإشارات القيمة حول الجوانب الاقتصادية لقلعة بني حماد بطريقة تدل على ازدهارها وجودة صناعتها خاصة عندما يصف لنا صناعة الأكسية بكثير من الإعجاب، ويؤكد أن ليس لها مثيل إلا في وَجْدَة بالمغرب الأقصى في قوله: «وتصنع بمدينة قلعة حماد أكسية ليس لها مثيل في الجودة والرقة إلا الوَجْدِية التي تصنع بوَجْدَة»[١]. كما يشير إلى سعر هذه الأكسية ويحدده بـ ٣٠ دينارا للكساء الواحد، وهو ما يدل على أن المدينة كانت تعيش غلاءً كبيرا في الحقبة التي زار فيها صاحب الرحلة المغرب الأوسط، خاصة إذا علمنا أنه يتحدث على الصناعة المحلية للقلعة حيث يقول: «يساوي كساء عيد من عمل القلعة ٣٠ دينارا».[٢]

وفي السياق نفسه يصف لنا الرحالة غلاء العمائم المذهبة والفاخرة التي يرتديها ملوكُ القلعة، كما يشيد بفن صُنعها وإتقانها مشبها إياها بالتيجان فوق الرؤوس قائلا: «وكانت لملوك صنهاجة عمائم مذهبة يغلون في أثمانها، تساوي العمامة الـ ٥٠٠ دينار والـ ٦٠٠ دينار وأزيد. وكانوا يعممونها بأتقن صنعة فتأتي تيجانا، وكان ببلادهم صناع لذلك، يأخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وأزْيَدَ. وكانت لهم قوالبُ من عود في حوانيتهم، يسمونها الرؤوس، يعممون

(١) نفس المصدر، ص١٧٠.

(٢) نفسه.

عليها تلك العمائم».(١)

وعلى صعيد آخر يتحدث صاحبُ الرحلة على واردات أهل القلعة، ويضرب لنا مثلا بالجوز الذي يُجلب من مدينة نِقاوُس الغنية بأنهارها وثمارها ومزارعها الشهيرة بشجر الجوز قائلا: «منها (مدينة نقاوس) يحمل الجوز إلى قلعة حماد وإلى بجَاية وإلى أكثر تلك البلاد»(٢).

ذكر «صاحب الاستبصار» لسبب اختيار بجَاية عاصمة جديدة لبني حماد:

تُجمِع جُلُّ المتون المصدرية أن بني حماد قد اختاروا مدينة بجَاية كعاصمة جديدة لهم بعد دخول عرب بني هلال لأفريقية ووصولهم المغرب الأوسط، ويوضح لنا "صاحب الاستبصار" ذلك من خلال وصفه لمدينة بجَاية قائلا: «هي مدينة عظيمة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهى محدثة، من بناء ملوك صنهاجة، أصحاب قلعة أبي طويل، وتعرف بقلعة حماد اليوم. وكان سبب بنائها، أن العرب لما دخلوا أفريقية وأفسدوا القيروان وأكثر مدن أفريقية، هرب منهم صاحب القيروان الصنهاجي، وتحصَّن بمدينة المهدية. وكان ابن عمه صاحب القلعة، المنصور بن حماد(٣)، أشدَّ شوكة من صاحب القيروان وأكثر جيشًا، فخرج لنصرة ابن عمه وجَيَّش جيشًا كبيرا. فلقيته العرب بجملتها بفحص سبيبة*، على مقربة من القيروان، فكان بينهم يوم عظيم حتى هُزم المنصور، وقُتل أخوه وأكثر صنهاجة. وذلك أن أخاه(٤) كان أسنَّ منه فنهاه عن مقابلة العرب، وقال له: «أقم أنت ببلادك وابعث إليهم وصانعهم يأتوك خاضعين وفي جبائك طامعين، فهذا من خلق العرب قديما فلا تلقاهم». فلما كان ذلك اليوم، وهزم، قال

---

(١) نفس المصدر، ص١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص١٧٢.

(٣) المقصود به الناصر بن علناس بن حماد؛ لأنه هو من أسس العاصمة الجديدة ببجاية، وسماها على اسمه «الناصرية» وليس المنصور.

(*) سبيبة: منطقة ريفية بتونس، تقع في ولاية القصرين وتبعد عنها حوالي ٧٠ كلم، وقد كانت سبيبة مدينة رومانية اسمها سوفاس "Sufes" وهي كلمة تعني «العين الصغيرة».

(٤) وهو القاسم بن علناس بن حماد.

له أخوه: «ألم أنهك أن تلقاهم بنفسك، ولكن اعطني تاجك والراية أقم على الجيش، وانجُ بنفسك، فإن كانت السلامة فمن الله، وإلا بقيتَ أنت للناس، فليس منك الخلف»[1].

ويعلق على هذا الموقف الشهم، الذي يبرز قوة التلاحم والتآزر بين أفراد الأسرة الحاكمة، صاحب الرحلة بقوله إنه: «من أغرب ما يصنع الأخ مع أخيه والولي مع وليه»[2]، ثم يسترسل في إكمال الحدث قائلا: «فأعطاه عمامته ورايته وكانت مشهورة، فسار بالجيش حتى لحق وقتل... فلما نجا المنصور (الناصر) إلى القلعة، نزلت عليه جيوش العرب وضيقوا [عليه] ببلاده، فكان يصانعهم حتى ضاق ذرعا بهم، وكان لا يقدر على التصرف في بلاده؛ فطلب موضعا يبني فيه مدينة ولا يلحقه فيها العرب فدُلَّ على موضع بِجَاية، وكان مرسى. ويقال إنه كانت فيه آثار قديمة، وإنها كانت مدينة فيما سلف، فبناها المنصور (الناصر)، وسماها المنصورية (الناصرية)، وانتقل ملكهم من القلعة إلى بِجَاية، واتخذها دار مملكتهم؛ وبينها وبين قلعة حمَّاد مسيرة أربعة أيام».[3]

ويبدو أن اختيار مدينة بِجَاية لم يكن بالصدفة مثلها في ذلك مثل اختيار حماد بن بُلكين للقلعة في البداية لحصانتها، ذلك أن صاحب الرحلة يذكر الموقع الاستراتيجي للمدينة وحصانتها الطبيعية المحاطة بالجبال الشامخة والبحر، إضافة إلى طرقها الوعرة والملتوية قائلا: «هي مدينة عظيمة ما بين جبال شامخة قد أحاطت بها، والبحر منها في ثلاث جهات: في الشرق والغرب والجنوب. ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسمى بالوادي الكبير، وطريق القبلة إلى قلعة حماد على عقاب وأوعار، وكذلك طريقها إلى الشرق. وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب، فلم يكن للعرب إليها سبيل، ولا كان يدخل من العرب إلا من يبعث إليه الملك لمصانعه على بلاد القلعة وغيرها؛ فيدخلها أفراد وفرسان دون عسكر»[4].

---

(١) نفس المصدر، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) نفس المصدر، ص١٢٩.

(٣) نفسه.

(٤) نفس المصدر، ص١٢٩-١٣٠.

كيف عاش الحماديون في العاصمة الجديدة بجَاية؟

يذكر «صاحب الرحلة» أن صاحب بجَاية قد استتبَّ له الأمر فيها وعاش في عز وبذخ يضاهي ملك صاحب مصر قائلا: «فبقي صاحب بجَاية في ملك شامخ وعز باذخ يضاهي في ملكه صاحب مصر»[1]، ويرجع السبب في ذلك إلى خيرات المدينة فيبدع الرحالة في وصفها ووصف شساعة أراضيها وأسوارها العظيمة وأنهارها وكذا صناعتها للمراكب والسفن وموانئها التي ترسَى فيها السفن من كل صوب حيث يقول: «إن بَجاية على نظر كبير وفائد (كذا) عظيم. وبجاية معلقة من جبل، وقد دخل في البحر يسمى مسيون، وعليها سور عظيم، والبحر يضرب فيه. ولها داران لصناعة المراكب، وإنشاء السفن، ومنها تُغزى بلاد الروم؛ فإنها ليس بينها وبين صقلية غير ثلاثة مجار. وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر وبلاد اليمن، والهند، والصين، وغيرها. ومدينة بجَاية كثيرة الفواكه والأثمار، وجميع الخيرات. وهى مشرفة، نزيهة، ومطلة على البحر وعلى فحص قد أحاطت به جبال دوره نحو عشرة أميال، تسقيه أنهار وعيون، وفيه أكثر بساتينهم. ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميلين أو دونهما، وعليه كثير من جنَّاتهم، وقد صنعت عليه نواعير تُسقَى من أنهُر، وله مُنتزَهٌ عظيم. وفى بجاية موضع يعرف باللؤلؤة، وهو أنف من الجبل قد خرج في البحر، متصل بالمدينة، فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراءون (كذا) أحسن منها بناء، ولا أنزه موضعا؛ فيها طاقات مشرفة على البحر عليها شبابيك الحديد والأبواب المخرمة المحنية، والمجالس المقرَّصة المبنية حيطانها بالرخام الأبيض من أعلاها إلى أسفلها؛ قد نقشت أحسن نقش وأنزلت بالذهب واللازورد، وقد كتبت فيها الكتابات المحسنة، وصورت فيها الصور الحسنة، فجاءت من أحسن القصور وأتمها منتزها وجمالا. وهذا الجبل مسيون، الذي فيه بجاية، جبل عظيم عالٍ قد ذهب في الجو، وقد خرج في البحر، وفيه مياه سائحة، وعيون كثيرة وبساتين، وهو كثير القردة؛ ويكون فيه

---

(١) نفس المصدر، ص١٣٠.

الحيوان المشوّك المسمَّى بالذرب»[١].

ورغم هذا الاستقرار لملوك القلعة بعاصمتهم الجديدة وبنائهم لها بالروعة التي وصفها الرحالة فإنه سرعان ما انتهى مُلك بني حماد في بجّاية وكل بلاد المغرب الأوسط بسبب ضعف الملوك الأواخر وبروز قوة جديدة بالمغرب الأوسط مثّلها الموحدون بداية من ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢م. وفي هذا يذكر «صاحب الاستبصار» أن سبب انهيار مُلك الصنهاجيين هو مداهمة علي بن إسحاق بن حمو بن غانية لبِجّاية، وعاث فيها فسادا وهرب منها إلى قُسَنْطِينة فطردته منها عساكر الموحِّدين، فتوغّل إلى بلاد الجريد وعاث فيها وسفك الدماء وأخذ الأموال وأباح الحريم فسارع لغزوه أمير المؤمنين أبو يوسف وقتله سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م[٢].

* * *

نخلص من هذا البحث إلى أن صاحب «رحلة الاستبصار» قد دَوَّن مشاهداته ونظمها تنظيمًا علميًا هادفا، وظلت رحلتُه إلى يومنا هذا مصدرًا مهما لمعرفة الكثير من الحقائق التاريخية والجغرافية عن قلعة بني حماد وغيرها من المناطق التي زارها الرحالة، كما أن رحلته لا تتوقف أهميتها عند قراءة تاريخ القلعة وحفظه بطريقة كشفت لنا عن أهم مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية بها فقط، بل تتعدى لأسمى من ذلك، وهو كونها تعمل على تعميق أواصر الارتباط والتواصل باعتبارها قناة من قنوات الاتصال بين الماضي والحاضر؛ إذ إن قلعة بني حماد الحالية بعمرانها ومجتمعها واقتصادها ليست متقطعة الجذور عن أصولها التاريخية مهما بدت غريبة أو مخالفة للصورة التي كانت عليها في العصر الوسيط، فهي ليست إلا حصيلة لكل التطورات والتحولات والأحداث التي شهدتها منذ تأسيسها إلى يومنا هذا.

* * *

(١) نفس المصدر، ص١٣٠.

(٢) نفسه.

السفارات الدبلوماسية بين دولة بني مرين ومملكة مالي

٧٣٧ ـ ٧٦٢هـ/ ١٣٣٦ ـ ١٣٦٠م

محمد عبد الكريم شكيران(*)

أولًا ـ دولة بني مرين ومملكة مالي (التطور السياسي والاتصال الحضاري):

لا بد بداية أن نعرض لمحة موجزة عن دولة بني مرين (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٥م) ومملكة مالي الإسلامية في جنوب الصحراء (٦٢٨- ٨٣٣هـ/ ١٢٣٠ -١٤٣٠م) من حيث التطور السياسي والخصائص العامة لكلا الدولتين، كذلك الاتصال الحضاري بينهما الذي سبق اتصالهما الرسمي عبر السفارات التي سوف نعرضها.

قطعت دولة بني مرين مرحلة طويلة في النشوء والتكوين، وكانت البداية بمحاربة الموحدين و الانتصار عليهم في عدة معارك، وتضخمت قوة المرينيين على إثرها، وأصبحوا قوة سياسية وعسكرية كبيرة على الساحة المغربية[1].

وفرضوا نفوذهم على مساحات واسعة من أرض المغرب وبواديه وخضعت لهم جميع قبائل المغرب، وسيطروا على عدة مدن على الساحل الأطلسي[2].

ثم واصل المرينيون مهاجمة المدن المغربية الكبرى ففتحوا مدينة فاس ٦٤٦هـ/١٢٤٨م

(*) قسم التاريخ . جامعة البعث . سوريا

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، ١٩٧٢، ص٣١ ٣٥، محمد

- عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٩٨٧، ص١٢.

(٢) المقريزي: درر العقود المفيدة في تراجم الأعيان الفريدة، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥، ج١، ص١٣٥ ١٣٨.

واتخذوها عاصمة للدولة الناشئة[١]، ثمّ فرضوا نفوذهم على مجال المغرب الأقصى[٢].

كان المؤسس الفعلي للدولة المرينية الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦- ٦٨٥ هـ/ ١٢٥٨ - ١٢٨٦م)، بدأ عهده بمواجهة بعض المشاكل التي اعترضت المرينيين في هذه الفترة، ودخل في عدة معارك مع الموحّدين تمهيدًا لدخول العاصمة مراكش[٣]. كما خاض حربًا مع بني زيان حُكام تلمسان في المغرب الأوسط وهزمهم سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م[٤]، ثم كانت المعركة الأخيرة بين الموحدين والمرينيين في شهر المحرم سنة (٦٦٨هـ/ يناير ١٢٦٩م) عند وادي غفو، أسفرت عن هزيمة الموحدين، ومقتل خليفة الموحدين أبي دبوس، دخل الأمير أبو يوسف يعقوب على أعقابها العاصمة مراكش وتلقب بأمير المسلمين معلنًا سقوط دولة الموحدين، وقيام دولة بني مرين (٦٦٨ ـ ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩ ـ ١٤٦٥م)[٥]. وبحلول سنة ٦٧٣هـ كان المرينيون قد بسطوا سيطرتهم على سجلماسة المدينة التجارية في الجنوب، وعلى سبتة الواقعة على مضيق جبل طارق شمالًا[٦]. وبذلك سيطروا على الطريق التجاري الواصل بين أوربا والصحراء

(١) -العيني (بدر الدين محمود): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠، ج٢، ص١١٧. - عامر أحمد حسن، دولة بني مرين، تاريخها وسياستها تجاه مملكة غرناطة الأندلسية والممالك النصرانية، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ٢٠٠٣، ص٧٦.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٩٩٩، ص٣٨٠ - ٣٨٦. - حميد تيتاو: الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص٣٢.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص٧٨٤.

(٤) مصطفى اللسطي: ملوك المغرب وعلاقتهم بشبه الجزيرة الأيبيرية، مطبعة بنجلون، فاس، ط١، ٢٠١٠، ص٧٦. شارل أندريه جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣، ج٢، ص٢١٩.

(٥) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر وتاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج٧، ص٢٤١.

(٦) انظر: ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (السفر الرابع. ممالك اليمن والغرب الإسلامي) تحقيق حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢، السفر الرابع، ص١٦٩ ٢٠٦.

الإفريقية حيث تجارة الذهب، وخضع كامل المغرب الأقصى لحكمهم[١].

ظلت دولة بنى مرين في اتساعها ودعم استقرارها مدة خمس وسبعين سنة، في الفترة من سنة ٦٨٥/١٢٨٦م إلى سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٩م، وحكمها خلال هذه الفترة مجموعة من السلاطين الأقوياء، عملوا على تقوية الدولة وتطورها. فقد قام السلطان أبو يعقوب يوسف بن يعقوب (٦٨٥ - ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦- ١٣٠٦م) بتدعيم الوجود المريني بالأندلس، والتدخل لصالح مسلمي مملكة غرناطة الإسلامية، وتأسيس ما يسمى الثغر المريني أو مشيخة الغزاة[٢]؛ لتكون قاعدة عسكرية دائمة هناك، مهمتها صد عدوان الممالك الإسبانية وردعها[٣].

اتسمت فترة حكم السلطان أبي الحسن علي بن عثمان (٧٣٢ - ٧٤٩هـ/ ١٣٣٢ -١٣٤٨م) أعظم سلاطين بني مرين اعتناءً بالعلم و الجهاد[٤]، وابنه السلطان أبي عنان فارس (٧٤٩ - ٧٥٩ هـ/ ١٣٤٨ـ ١٣٥٨م)، و هي فترة التواصل الدبلوماسي مع مالي، بتوسُّع نفوذ بني مرين بالمغرب والأندلس وسيطرة المرينيين على البلاد من طرابلس الغرب حتى المحيط [٥]. وفي عهدهما تطور الجيش المغربي، وتمّ تحصين الثغور، وبناء الأساطيل، واهتما بالعمران فبنيا المساجد الضخمة بفاس، والمدارس العلمية، كالمدرسة الفارسية، وخِزانات الكتب[٦]، تشجيعًا

---

(١) عامر: دولة بني مرين، ص٩٧.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص٤٦٩.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٣، ص٢٩٢. الحريري: تاريخ المغرب، ص٨٤.

(٤) أبو القاسم الزياني: الترجمان المعرب عن أخبار دول المشرق والمغرب، مخطوط مصوَّر بمعهد المخطوطات العربية، ميكروفيلم رقم١٤٩١ تاريخ، ورقة ٣١٥.

(٥) زاهر رياض: شمال أفريقيا في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص١٦٥ - ١٧٠. رابح عبد الله المغراوي: التواصل الدبلوماسي بين الأندلس النصرية والمغرب المريني، مجلة التاريخ العربي، الرباط، العدد ٦، ١٩٩٨، ص٦٤.

(٦) ابن بطوطة: الرحلة (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، تعليق محمد السعيد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ص٥٩٧. الجزنائي: زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١، ص١١٢. كمال أبو مصطفى: جوانب من حضارة المغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص٩٩٧، ص١٢٠.

للعلماء، ورعايةً للعلم، وكان عهدُهما العصر الذهبي لبني مرين[1]، حيث ظهر المرينيون كقوة سياسية واقتصادية كبرى في الغرب الإسلامي[2].

كانت الدولة المرينية أقوى دول المغرب وأكثرها تطورًا وحيوية على الصعيد الخارجي بكونها الداعم الأهم للمسلمين بالأندلس والقوة التي تولت صدَّ الإسبان، فقد تمتعت الدولة المرينية بقوة اقتصادية وعسكرية مُهابة، تكونت من جيش ضخم متنوع ومتطور تسليحًا[3]، كذلك امتلك المرينيون أسطولًا حربيًا قويًا، كان فعالًا في مضيق جبل طارق، وأسهم في فرض توازنات سياسية وعسكرية مع الممالك الإسبانية، وتصدَّى بنجاح لكل الهجمات الإسبانية على سواحل المغرب و الأندلس على حد سواء[4].

أمَّا مملكة مالي الإسلامية فتقع في منطقة السودان الغربي الممتد من نهر النيجر شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وشغلت حوض نهر السنغال، و تبدأ من جنوب بلاد المغرب بمحاذاة البحر المحيط إلى جهة الجنوب حيث بلاد الهمج حيث الغابات الاستوائية، ويحدها من الشرق بلاد البرنو أو التكرور[5]. و يشير ابن فضل الله العمري إلى اتساع مملكة مالي بأنه يتطلب أربعة أشهر وأزيد للسفر من شمال المملكة إلى جنوبها، وأنها تشمل أربعة عشر إقليما

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٢، ص٥٣٩. محمد المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٩٦، ص٥١ ٥٣.

(٢) الزياني: الترجمان، ورقة ٣١٥ ٣١٧. حسن خضيري أحمد: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ٢٠١٠، ص٢٠٥ ٢٠٩.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢٤٦.

(٤) المقري: نفح الطيب، ج ٦، ص ٢١٤، السلاوي: الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥، ج٣، ص١٣٧.

(٥) تشمل مملكة مالي عدة دول الآن، فتشمل أجزاء من مالي والنيجر والسنغال. انظر: العمري: مسالك الأبصار، ص١٠٧- ١١١. السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران): تاريخ السودان، تحقيق هوداس وشاركه تلميذه بنوة، المدرسة الباريزية لتدريس الألسن الشرقية، مطبعة بردين باريس، ١٩٨١، ص٩ - ١٠. محمد مزين: المغرب وبلاد السودان خلال القرنين (١٦ ١٧م)، مجلة المؤرخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، العدد ٣١، ١٩٨٧، ص٢١٢ ٢١٣.

ضخما[١]، وعرفت تلك البلاد بغناها بالذهب واحتياجها للملح والبضائع والمنسوجات، ما دفع إلى ارتباطها بعلاقات تجارية مع دول الشمال الإفريقي ومصر. فرحل تجار مالي لتلك البلاد، وكذلك قصدتها قوافل تجارية كبيرة من بلاد المغرب[٢].

هذه السلطنة أسسها شعب زنجي أصيل هو شعب الماندنجو، وقد اعتنقوا الإسلام في القرن الخامس الهجري/ آخر القرن الحادي عشر الميلادي في أثناء الاندفاع الكبير الذي صحب قيام دولة المرابطين وعكوفهم على الجهاد في منطقة السودان الغربي، وأسهمت قبائل الفولاني والهوسا والتكرور في نشر الإسلام في تلك الربوع، حتى صار دين غالبية السكان[٣]، وشكّل هؤلاء دولة قوية اتسعت على حساب الممالك المجاورة التي قضوا عليها وخاصة مملكة غانة وصونغي، فاتسعت حدودها وترامت من المحيط غربًا حتى الحافة الغربية لنهر النيجر شرقًا[٤].

كان (برمندان) أول أمير مسلم يحكم إقليم مالي كله حسب ابن خلدون[٥]، ثم حكمها ماري جاطة الذي استطاع تحرير كل إقليم مالي، ومدَّ سلطانه على بلاد غانة، وأسس لدولة مالي الإسلامية، وعمل على توفير مستلزماتها، وتأمين طرق التجارة فيها[٦].

ثم خلفه منسا ولي (٦٥٢- ٦٦٩هـ/ ١٢٥٥ ١٢٧٠م) الذي رحل لأداء فريضة الحج أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس[٧].

ثم حكمها ملوك ضعفاء إلى أن استبد بحكمها رجل قوي يسمى «سيكرة» الذي اتسعت

---

(١) مسالك الأبصار، ص١٠٧ ١٠٩.

(٢) عبد الواحد أقمير: مملكة مالي في القرن الرابع عشر وفقا لابن خلدون ومعاصريه. ترجمة إبراهيم سعد فهيم، ندوة ابن خلدون البحر المتوسط في القرن الرابع عشر، ص١٢٥ – ١٢٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٢٦٦؛ أحمد فتوح عابدين: الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين (١٦ ١٧م)، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، ١٩٨٩، ص١٩ ٢٧.

(٤) دونالد ويدنز: تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الوعي العربي، القاهرة، ص٤٥ ٤٧.

(٥) العبر، ج٦، ص٢٦٦.

(٦) نبيلة حسن محمد: في تاريخ أفريقيا الإسلامية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٩، ص٢٢١- ٢٢٣.

(٧) ومعنى منسا بلسانهم: السلطان، وولي تعني بلغتهم علي. انظر: ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٦٧؛ أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني (إمبراطورية مالي)، المجمع الثقافي، أبو ظبي، دولة الإمارات، ط١، ١٩٩٩، ص١٧١ ١٧٣.

مملكة مالي في عهده لتشمل مملكة غانة وكوكو حتى بلاد التكرور شرقا، فقويت دولته، وعظم شأنها[١]، خاصة بعد أن قصد السلطان الأخير بلاد مصر والحجاز لأداء فريضة الحج في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون[٢].

وبلغت المملكة غاية قوتها وازدهارها في عهد ملكها منسا موسى (٧١٢- ٧٣٧هـ/ ١٣١٢-١٣٣٧م) الذي وصفته المصادر بالصلاح والعدل وعظمة ملكه[٣] ، حيث أصبح مسيطرا على بلاد واسعة امتدت من المحيط غربا وحتى تشاد شرقا[٤]. واشتهر هذا السلطان بكثرة بنائه المساجد و رعاية العلماء والفقهاء العرب ببلاده، وبرحلته إلى مصر والحجاز للحج سنة ٧٢٤هـ/ ١٣٢٤م[٥] . وتحدثت المصادر عن عظمة مالي في عهده وثرائها المادي[٦].

وفي عهده فتحت عاصمة سنغي جاو، ومدينة تمبكتو التي كانت أكبر مركز إسلامي انطلق منه مؤثرات الثقافة والحضارة الإسلامية لبلاد السودان. وعرفت بكثرة ارتياد التجار والعلماء العرب لها[٧].

تسلم الحكم منسا مغا، بعد وفاة منسا موسى وظل فيه لمدة أربع سنوات لم ينعم فيها

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٦٧. الشكري: إمبراطورية مالي، ص١٨٣.

(٢) المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٤١.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص ٢٦٧. السعدي: تاريخ السودان، ١٩٨١، ص٥- ٧.

(٤) بوفيل: تجارة الذهب، ص١٦٠ ١٦١. حسن أحمد محمود: دور العرب في نشر الحضارة في غرب أفريقيا، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١٤، ١٩٦٨، ص٥٩ ٦٠.

(٥) القلقشندي: (أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف الطويل، دار الفكر، دمشق، ج٥، ص٢٨٣. ابن أيبك الدواداري: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت، القاهرة، ١٩٦٠، ص٣١٧.

(٦) مسالك الأبصار، ص١٠٩ ١٢٦.

(٧) السعدي: تاريخ السودان، ص٧. إبراهيم طرخان: دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ص٧١ – ٧٣.

بالاستقرار؛ لسوء تدبيره وفساد إدارته، وتنازع الأمراء على الحكم[١]، استقر بعدها الحكم لمنسا سليمان (٧٤١- ٧٦١هـ/ ١٣٤١ ١٣٦٠م)، وبقيت مالي في عهده في اتساع وتمدد، وتخضع القبائل والمدن المجاورة لحدودها، وحافظت على الاستقرار بفضل جيش ضخم وصل قوامه حسب العمري إلى مئة ألف عنصر[٢]، وحافظت على غناها المالي وسعة تجارتها، وارتبطت بعلاقات سياسية وتجارية مع دول المغرب ومصر[٣].

بعد ذلك دخلت مملكة مالي في مرحلة طويلة من الضعف والتشرذم، في عهد ماري جاطة الثاني (٧٦١- ٧٧٥ هـ/ ١٣٦٠ ١٣٧٤م)، نتيجة سوء إدراته، وظلمه لرعيته، وطموح القبائل المنطوية تحت سلطانها كالطوارق وسنغي للاستقلال[٤].

من المفيد، قبل أن نستعرض وقائع الدبلوماسية المرينية المالية، والسفارات المتبادلة بين فاس ومالي، أن نعرج لحالة العلاقات التجارية والثقافية بين مجال المغرب والسودان الغربي، ومدى تأثيرها على الاتصال الرسمي بين الطرفين، حيث كانت تلك العلاقات دافعا كبيرا من دون شك لإقامة علاقات رسمية بينهما.

كان للعامل الجغرافي دوره في ارتباط المجالين بعلاقات اقتصادية عادت بالنفع المادي على الشعبين بمالي والمغرب، إذ إن بلاد السودان الغربي « **ليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك بينها وبين سائر الأمم** »[٥]. هذا التقارب الطبيعي نتج عنه ارتباط حتمي في علاقات تجارية مزدهرة. فقد كانت قوافل التجارة الكبرى بين مصر وبلاد المغرب ترحل نحو بلاد السودان بشكل مستمر، ومنذ بدايات العصر الإسلامي

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٦٨. طرخان: دولة مالي، ص٩٣ ٩٤.

(٢) مسالك الأبصار، ص١١٦.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦١٤ ٦٢١. زاهر رياض: الممالك الإسلامية في غرب أفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨، ص١٢٠ ١٢٤.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٦٩. السعدي: تاريخ السودان، ص٢٢ ٢٥.

(٥) الإصطخري: المسالك والممالك، ص١٦. الحريري: تاريخ المغرب، ص٢٢٢.

تشير المصادر الجغرافية إلى عمليات تجارية مزدهرة بين المجالين، وتحدثت عن الذهب والملح كأساس في عمليات التبادل التجاري، رافقها انتشار الإسلام تدريجيًا بين السودانيين[١].

سافرت قوافل التجارة للسودان محملة بالبضائع بقصد جلب المادة الرئيسية من هناك وهي الذهب الموجود بوفرة في بلاد السودان، حيث كانت مملكة مالي أهم دولة في إنتاج الذهب وتجميعه وتصديره في عالم العصر الوسيط، وتمتلك أكبر احتياطي للذهب في ذلك الوقت[٢]. وهي المادة الرئيسية التي قامت عليها المبادلات التجارية بين المغرب وكل من إسبانيا وجنوة والبندقية، وحققت من ورائها الأرباح الضخمة[٣]. إضافة لذلك جلبت قوافل التجارة المغاربية من مالي كذلك النحاس والعاج والجلود والعبيد السود[٤].

ومن هذا الواقع استفادت الدولة المرينية فائدة كبيرة من تلك العلاقات التجارية مع السودان الغربي، فحاولت مع سلطة مالي تأمين خط سير القوافل، وإزالة كل ما يعترض طريقها من عوائق، وتذكر المصادر أنّ بني مرين عظمت مواردهم من الذهب، وضربوه عملة نقدية من العيار الممتاز، في كل من سجلماسة وفاس ومراكش[٥].

---

(١) انظر: ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص٩٦-٩٧. ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج١، ص٢٧٧-٢٧٨، ج٢، ص١٢. الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ص٦٤ ، ١٣٤، ٤٢٥. محمد زنيبر: المغرب في العصر الوسيط، ص٤٠٠ ٤٠١.

(٢) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، ص١١١ ١١٩. حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٨٤، ص١٠٢ ١٠٣.

(٣) ج. ت نياني: تاريخ أفريقيا العام: المجلد الرابع، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٨، ص١٢٥ ١٣٢. عبد العزيز العلوي: العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني ومالي، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد بن عبد الله، العدد الخامس خاص، ١٩٨٩، ص٦١- ٦٤.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦٠٧ ٦٢٩.

(٥) ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، ص٣٦. العمري: مسالك الممالك، ص١٧١ ١٨٨. المنوني: ورقات، ص١٤٥. فيج جي دي: تاريخ غرب أفريقيا، ترجمة يوسف نصر، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٨٢، ص٥٦ ٥٨. زاهر رياض: الممالك الإسلامية، ص١٢٥ ١٣١.

هذا المناخ التجاري المزدهر بين الطرفين، خلق ـ حسب « موريس لومبارد » ـ ارتباطًا بين السياسة والذهب، فقد كان للدولة المرينية مصلحة قصوى في إنماء عمليات التجارة تلك، فحاولوا ربط طرق القوافل بالمدن المرينية لتنظيم إيصاله نحو الأسواق المغربية ومن ثمَّ ضربه وتصنيعه، وتوزيعه في الغرب الأوربي والشرق الإسلامي[١].

حملت القوافل التجارية المغاربية معها تأثيرات حضارية وثقافية، وأسهمت في نشر العقيدة الإسلامية بين أبناء السودان، إضافة إلى تعزيز الروابط الاجتماعية نتيجة الاختلاط المستمر بين شعوب المجال المغربي والسوداني[٢] ، هذا ما يعطينا انطباعا واضحا عن مدى تواصل العرب والسودانيين في مالي، وسهولة التنقل والإقامة في بلادهم، وكيف كان المغرب ممرًّا رئيسيًّا للتجارة والعلوم والفنون إلى مالي[٣] ، ما أدى في نهاية المطاف إلى أسلمة السودان الغربي، وصار متوحدًا في العقيدة مع بلاد المغرب، وكان التأثير المذهبي للمغاربة واضحا عندما اتخذ السودانيون المذهب المالكي مذهبا رسميا وشعبيا لهم[٤]. حتى وصفت الثقافة في السودان الغربي بأنها ثقافة مغربية في أرض سودانية[٥] ، لدرجة أن يرجح أحد الباحثين أن ترسيخ العقيدة الإسلامية ببلاد السودان كانت الدافع لمنسا موسى للاتصال الدبلوماسي مع المرينيين كما سنرى[٦].

ومن هنا يمكننا القول: إن علاقات المرينيين وسلاطين مالي التي سنعرضها، جاءت استمرارًا ومتابعة وتتويجًا لعلاقات تجارية وعلمية قديمة ومتقدمة بين المجالين. وهذا ما يفسر حفاوة الطرفين لإقامة صِلات دبلوماسية رسمية بينهما.

---

(١) LOMBARD (MAURICE) : *Etudes d'économie médiévale II. Les métaux dans l'Ancien Monde du Ve au XIe siècle* , Mouton , paris, 1974 , P 256- 284

(٢) مطير سعد غيث أحمد: الثقافة العربيــة الإسلامية وأثرها فــي مجتمع الســودان الغربي. دار المدار الإسلامي. بيروت. ط١، ٢٠٠٤، ص١٥٦ ١٥٨.

(٣) السعدي: تاريخ السودان. ص١٦ ٢٢. عبد العزيز العلوي: العلاقات التجارية والثقافية. ص٦١ ٦٦.

(٤) العمري: مسالك الأبصار. ص١١٩. السعدي: تاريخ السودان. ص١٢ ٢٨.

(٥) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا. دار الفكر العربي. القاهرة. ١٩٨٦. ص٢٤٤.

(٦) الشكري: إمبراطورية مالي. ص٢٧٩.

٢ – السفارات الدبلوماسية بين الدولة المرينية ومملكة مالي وآثارها الحضارية:

غالبًا ما ركزت الدراسات التي اهتمت بعلاقات المغرب وبلاد السودان على الحركة التجارية والعلمية بين المجالين، وأغفلت العلاقات السياسية من واقع تأثيرها الثانوي على الاتصال الحضاري بينهما؛ لذا يأتي هذا البحث في محاولة لإلقاء الضوء على اتصالهما الدبلوماسي، والكشف عن حقائق وحل عدة إشكاليات عند تناولنا السفارات المتبادلة من حيث تأثيرها وأبعادها التاريخية.

إن أول إشارة لحركة دبلوماسية بين الدولة المرينية ومالي أوردها ابن خلدون ـ الذي يعتبر المصدر الأهم، ويكاد يكون الوحيد عن السفارات بين البلدين ومضامينها ـ وذلك في عهد السلطان أبي الحسن المريني، الذي استقبل بعد فتح تلمسان سنة ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٦م،

سفارةً من الملك منسا موسى مؤلفةً من أعيان أهل مملكته برئاسة شخص يدعى فرافقيس، ومعهم ترجمان من الملثمين من قبيلة صنهاجة المجاورين لمالي، وصلت هذه السفارة مدينة فاس لتهنئة السطان أبي الحسن باستيلائه على المغرب الأوسط وانتصاره على بني عبد الواد بتلمسان. فأكرمهم السلطان واحتفى بهم. و يذكر ابن خلدون أنه خلال وفادة السفارة المالية بفاس وصل خبر وفاة منسا موسى سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، وأن السلطان أبا الحسن المريني أمر بتجهيز سفارة مرينية وهدايا فاخرة «فأتحف طرفا من متاع المغرب وماعونه من ذخيرة داره وأسناها»[١]، وأرسلها ردًا على السفارة المالية، إلى السلطان منسا سليمان، الذي تسلم الحكم سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، وكان من أعضاء الوفد الدبلوماسي المريني كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين ومولاه عنبر الخصي[٢] .

---

(١) العبر، ج٧، ص٣٥٣. ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، ص٤٥٤.

(٢) العبر، ج ٧، ص٣٥٢- ٣٥٣. نبيلة حسن محمد: تاريخ أفريقيا الإسلامية، ص٢٤١.

وأوعز السلطان إلى زعيم عرب المعقل الأمير علي بن غانم بمرافقة السفارة في ذهابها وإيابها[١].

وصلت السفارة المرينية مالي، واستقبلها منسا سليمان، فأكرم وفادتهم وأحسن لأعضاء الوفد المغربي، وعادت السفارة المرينية إلى فاس بصحبة سفارة منسا سليمان من كبار رجال دولته إلى السلطان أبي الحسن، وكان غرضها ـ وَفْقًا لابن خلدون ـ تقديم الولاء للسلطان أبي الحسن: « **يعظمون سلطانه ويوجبون حقه ويؤدون طاعته من خضوع مرسلهم، وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به، فأدوا رسالتهم وبلغ السلطان أرَبًا من اعتزازه على الملوك وخضوعهم لسلطانه** »[٢].

هذا ما عرضته المصادر عن بداية الاتصال الرسمي بين فاس ومالي، لكن نلاحظ أنَّ أخبار السفارات والوفود بين فاس ومالي جاءت مقتضبة عند ابن خلدون ومضطربة المحتوى، فتعترضنا إشكالية عدم تحديد المصدر لتواريخ دقيقة لتلك السفارات، ما يجعلنا في ريبة حول سفارة مالي الأولى التي بعثها منسا موسى بعد فتح أبي الحسن لتلمسان سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، وهي السنة التي توفي فيها منسا موسى، فحينما يصرُّ ابنُ خلدون أن سفارة أبي الحسن المريني الأولى إلى مالي كانت ردًّا على سفارة منسا موسى وفدت على منسا سليمان الذي تسلم الحكم سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، ونعلم أن منسا مغا حكم لمدة أربع سنوات بين السلطانين السالفين، لكن فترة حكمه كانت مضطربة حسب ابن خلدون نفسه، هذا يعني أن تجهيز السفارة المرينية بفاس

---

(١) كانت توجيهات السلطان أبي الحسن لعرب المعقل لمرافقة رسل السلطان، ذلك لحماية السفارة وما تحمله من تحف وهدايا من النهب والاعتداء على طول طريقها الطويل المحاط بمخاطر قطاع الطرق من القبائل، خاصة إذا ما علمنا أن عرب المعقل كانوا آنذاك يتحكمون في الطريق التجاري الواصل من المغرب عبر درعة وسجلماسة إلى حدود مملكة مالي جنوبًا حتى المحيط الأطلسي. انظر: ابن خلدون: ج٦، ص٨٧. حسن حافظ علوي: علاقات المغرب الأقصى بمالي من خلال رحلة ابن بطوطة، ندوة ملتقيات ابن بطوطة الدولية للتواصل بين الثقافات، جامعة عبد المالك السعدي، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، طنجة، ١٩٩٣، ص٢٠٠-٢٠٤.

(٢) العبر، ج٧، ص٣٥٣.

استغرق مدة أربع سنوات، ولم ترحل مباشرة كما يفهم من نص ابن خلدون « **وأوفدهم بها على ملك مالي منسا سليمان بن منسا موسى لمهلك أبيه قبل مرجع وفده** »[1].

وفي هذه المدة تكون السلطة بفاس قد أحاطت بأخبار منسا مغا، وانتظرت إلى أن استقرت أمور الحكم لعمه منسا سليمان، فبادرت بإرسال السفارة إلى مالي. وعليه يكون هذا التفسير المنطقي الوحيد لاستقبال منسا سليمان للسفارة المرينية في حدود سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م. هذا إذا كان ابن خلدون واثقًا من روايته تلك، وإلا يكون منسا مغا هو الذي استقبل سفارة أبي الحسن وردً عليها بسفارة قدمت الولاء له؛ لأن ابن بطوطة يذكر لنا سفارة وحيدة أرسلها منسا سليمان إلى فاس كان على رأسها الحاج موسى الونجراتي سفيرًا عنه إلى السلطان أبي الحسن[2].

فهل كانت هذه السفارة نفسها التي حكى عنها ابن خلدون؟ وبأنها كانت من كبار رجال دولة مالي، والتي قدمت ولاء وخضوع منسا سليمان للسلطان أبي الحسن كما يقول. ولماذا لم يذكر ابن بطوطة ذلك الولاء على أهميته؟ ثمَّ لماذا يقدم منسا سليمان الملك العظيم الغني الذائع الصيت، التبعية لفاس؟ وهو الملك الذي لديه مئات الألوف من الجنود، ما يضاهي الجيش المريني، وموارده من الذهب ليست موجودة عند كل سلاطين عصره، وإنفاقه للذهب يدل على ازدهار دولته. فقد ذكر ابن بطوطة عندما كان في ضيافة ذلك السلطان، أنه حصل منه ـ بعد تدخل بعض حاشيته ـ على ما يقرب من مئة وثلاثة وثلاثين مثقالًا من الذهب، إضافة لما منحه لرجال الدولة عنده من مئات المثاقيل، وذلك في يوم واحد[3]. كل تلك الاعتبارات والدلائل تجعلنا لا نستبعد رأي بعض المتخصصين[4] ، بأنَّ سفارة أبي الحسن التي جهزت

---

(١) العبر، ج٧، ص٣٥٣.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦١٦. نبيلة حسن: تاريخ أفريقيا، ص٤٤٢. الهادي مبروك الدالي: مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها مع أهم المراكز بالشمال الأفريقي، الزاوية، مطابع الوحدة، ليبيا، ط٢، ١٩٩٩، ص١٤٨.

(٣) الرحلة، ص٦١٤.

(٤) طرخان: دولة مالي، ص٩٤. حسن حافظ علوي: علاقات المغرب الأقصى بمالي، ص١٨٧ ـ ١٩٠.

وأرسلت عقب وفاة منسا موسى استقبلها خلفه الضعيف منسا مغا، الذي لم يتوانَ عن إرسال سفارة لأبي الحسن تقدم له التبعية والخضوع، في محاولة لكسب مزيد من القوة السياسية لحكمه المضطرب من الداخل، كما أسلفنا.

على أية حال، تتابعت سفارات منسا سليمان إلى السلطان أبي الحسن، فقد وصلت سفارة من منسا سليمان على مدينة قسنطينة بالمغرب الأوسط لتقديم التهاني بفتح المرينيين لتونس، لكنها لم تستطع مقابلة السلطان المريني الذي كانت حلت عليه الهزيمة أمام عرب القيروان، واضطربت أوضاع دولته، ولا تذكر لنا المصادر مصير تلك السفارة، ولكن يبدو أنها عادت أدراجها إلى مالي[١].

كذلك نجد عند ابن خلدون خبر سفارة أخرى عظيمة ـ كانت آخر السفارات بين الطرفين ـ بعثها منسا سليمان إلى السلطان أبي الحسن المريني، محملة بالهدايا العظيمة من « طرف بلاده وغرائبها »[٢]، وفي أثناء رحلة السفارة نحو المغرب، وصلها نبأ وفاة السلطان أبي الحسن بجبال المغرب سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، واستلام ابنه أبي عنان للسلطة رسميا بعد نزاع مع والده استمر ثلاث سنوات[٣]. فتوقفت السفارة في مدينة إيوالاتن السودانية، على حدود بلاد المغرب، ولم تتابع سفرها نحو فاس[٤].

وبعد وفاة منسا سليمان ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م استقرت السلطة لماري جاطة الثاني (٧٦١- ٧٧٥هـ/ ١٣٦٠ ١٣٧٤م)، الذي أضاف للسفارة السابقة حيوان الزرافة مع الهدايا السابقة، وأمر الوفد بالمسير؛ بعد طول انتظار في إيوالاتن، رحلت السفارة المالية إلى فاس، فوصلوا سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، واستقبلها السلطان أبي سالم المريني، في حفل كبير واستعراض جماهيري ورسمي

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٣٦٧.

(٢) العبر، ج٧، ص٤١١، السلاوي: الأستقصا، ج٤، ص٣٤.

(٣) السلاوي: الاستقصا، ج٣، ص١٨٣.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦٠٨.

مهيب، وصفه ابن خلدون بدقة[١]. وكانت هذه السفارة آخر ما ذكرته المصادر المتوفرة لدينا، عن العلاقات الدبلوماسية والسفارات بين فاس ومالي.

لكن لا بد لنا أن نتوقف عند هذه السفارة الأخيرة، لنتبين أسباب توقف الدبلوماسية بين الطرفين في فترة حكم السلطان أبي عنان، بعد فترة شهدت رغبة عميقة لدى حكام الطرفين لتوطيد علاقاتهم وتطويرها، ونطرح بعض التساؤلات والاستفهامات الملحة المنطقية؛ لماذا لم تتابع سفارة منسا سليمان الأخيرة عقب وفاة أبي الحسن المريني طريقها إلى السلطان أبي عنان، وتوقفت على حدود المغرب؟ هل تلقت أمرًا من منسا سليمان بالتوقف في إيوالاتن؟ هل تأسف الأخير على نهاية السلطان أبي الحسن الذي أصبح صديقًا له وتبادل معه الهدايا والسفارات الودية، وحزن على موته وأقام مجالس العزاء بمالي على وفاته[٢]، واستوحش من أبي عنان ونقم عليه بسبب مقاتلته لوالده، فاعتبر منسا سليمان ذلك عملًا إجراميًّا فاستاء من تصرفاته وأفعاله، فلم يرغب في إقامة علاقات معه؟ وعليه أعطى أمرًا للسفارة المالية بالتوقف في ايولاتن، ولم يقم باستدعائها للرجوع إلى مالي، حتى تستبين وتنجلي الأمور بفاس ويُعرف مصير أبي عنان، فربما كان منسا سليمان يأمل أن تنجح مساعي أخ السلطان المريني أبي الفضل الانقلابية واستلام الحكم. وأمام عدم إفصاح المصادر لأسباب انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين السلطان أبي عنان ومنسا سليمان، تبقى جميع التساؤلات والاستنتاجات

---

(١) يبدو أنّ السلطان أبا سالم أراد أن يتخذ فرصة وصول السفارة المالية، في تدعيم موقفه السياسي أمام الخاصة والعامة، ويُبدي هيبة سلطانية أمام الاحتفال الشعبي والرسمي الذي حشده بحضور العلماء والشعراء، وهذا ما وصفه ابن خلدون بالفعل: « وكان يوم وفادتهم يوما مشهودا جلس لهم السلطان ببرج الذهب مجلس العرض، ونودي في الناس بالبروز إلى الصحراء فبرزوا ينسلون من كل حدب حتى غص بهم الفضاء، وركب بعضهم بعضا في الازدحام على الزرافة الحيوان الغريب الشكل، إعجابا بخلقتها، وأنشد الشعراء في معرض المدح والتهنئة ووصف الحال، وحضر الوفد بين يدي السلطان وأدوا رسالتهم بتأكيد الود والمخالصة والعذر عن إبطاء الهدية بما كان من اختلاف أهل مالي وتواثبهم على الأمر.. والترجمان يترجم عنهم وهم يصدقونه بالنزع في أوتار قسيهم عادة معروفة لهم، وحيوا السلطان يحثون التراب على رؤوسهم على سنة ملوك العجم. ثم ركب السلطان وانفض ذلك الجمع وقد طار به الذكر » . انظر: العبر، ج٧، ص٤١١. الأمين محمد عوض الله: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي وسنغي، المجمع العلمي بجدة، ١٩٧٩، ص٥٦ – ٥٨.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ص٦١٣.

مطروحة وقابلة للنقاش.

وفي هذا المضمار؛ يميل كثير من الباحثين[١] إلى تفسير انقطاع السفارات بين أبي عنان ومنسا سليمان، إلى توتر علاقات البلدين إثر رحلة ابن بطوطة في مملكة مالي، باعتبارها رحلة رسمية تكلف بها الرحالة من قبل أبي عنان للتجسس على مملكة مالي، وأنَّ غرضها هو معرفة إمكانياتها الاقتصادية، ومقادير الذهب الموجود بأراضيها ومخازنه، ومعرفة طرق التجارة بها، ودراستها ميدانيًا، ويقررون على ذلك؛ أنَّ السلطات بمالي كشفت تلك المهمة، فاسترابت من الرحالة، واعتبر ذلك اعتداءً على كيانها، فقطعت كل وسائل الاتصال الرسمية مع أبي عنان[٢]؟

فهل كان تجوال الرحالة ابن بطوطة في مالي سفارة دبلوماسية رسمية، وما هو موقع تلك الرحلة في علاقات البلدين السياسية، وما هي تداعياتها الرسمية؟ هذا ما نحاول معرفته وكشف تفاصيله في السطور التالية[٣].

نستطيع من خلال دراستنا لتقرير ابن بطوطة عن مملكة مالي ومشاهداته هناك، أن نتبين أن رحلته كانت فعلًا رحلة استكشافية، فخلال رحلته لمالي التي دامت حوالي سنتين نلاحظ تسجيله معلومات قيمة ووثائقية عن أحوالها العامة والخاصة، وتركيزه فيها على طرق التجارة، والمحاصيل الزراعية، والعملة، ومناجم الذهب، وحرصه على استقاء معلومات عن مقادير خزانة الدولة من هذا المعدن الثمين، واهتمامه البالغ بكل شاردة وواردة في بلاط

---

(١) أحمد شكري: الإسلام والمجتمع السوداني (إمبراطورية مالي)، ص٢٧٧. طرخان: دولة مالي ص٩٦. الحريري: تاريخ المغرب، ص٢٢٣.

(٢) أحمد الفاسي: موقع رحلة ابن بطوطة في المشاريع السياسية والاقتصادية للسلطان المريني أبي عنان، ندوة ملتقيات ابن بطوطة، طنجة، مدرسة الملك فهد للترجمة، ١٩٩٦، ص١٥١-١٥٣. حسن علوي: علاقات المغرب الأقصى بمالي، ص١٨٥ ،١٩٠.

(٣) لا يشير ابن خلدون مصدر تلك السفارات بين البلدين ـ والذي كان موجودًا في بلاط فاس عند عودة الرحالة من مالي ـ إلى أن رحلة ابن بطوطة تلك كانت سفارة سياسية، بل يحاول التقليل من أهمية رحلات ابن بطوطة وتكذيب رواياته الغريبة؛ وفقا لما شاع بين الناس آنذاك، على أن البلاط المريني ممثلا في أحد الوزراء (فارس بن وردار) أبلغ ابن خلدون بصحة رواياته تلك، وأن لا يتسرع بإنكار ما فيها من معلومات وأخبار، وهذا دليل على أن ابن بطوطة ورواياته كانا محل ثقة في بلاط السلطان أبي عنان، وتوحي برسمية تحركاته. انظر: المقدمة، ص١٨٢.

منسا سليمان من حيث الإنفاق العام ورسوم الإدارة المتبعة، إضافة إلى تدوينه خصائص كل إقليم فيها، من حيث الزراعة والطعام وسلع التجارة[١]، هذا ما يجعلنا نتفق مع الباحثين على أن رحلته كانت بإيعاز رسمي من السلطان أبي عنان، يعزز ذلك بعض النصوص الواردة بتقريره، فقد صرح ابن بطوطة بأنه قبل سفره إلى بلاد السودان التقى بأبي عنان للسلام على حضرته وتوديعه، وعندما أنهى رحلته وجولته الاستكشافية تلقى أمرًا من أبي عنان بالعودة إلى فاس، وكان في مدينة تكدا من بلاد السودان: « **و أنا في تكدا وصل غلام... بأمر مولانا أمير المؤمنين المتوكل على ربِّ العالمين آمرًا لي بالوصول إلى حضرته العلية. فقبلته.. وامتثلته على الفور.. وبعد سجلماسة.. خرجت فوصلت فاس حضرة مولانا فقبلت يده الكريمة** »[٢]. هذا ما يدل بجلاء على أن مهمته الرسمية، التي كانت بغرض إجراء دراسة ميدانية لمالي، واستطلاعية لطرق التجارة عبر الصحراء، وأحجام التبادلات التجارية بين مملكة مالي والبلاد التي تتعامل معها كمصر وبلاد المغرب.

لكننا نخالف الباحثين بأن رحلة ابن بطوطة تلك، كانت سببًا في توتر علاقات منسا سليمان والسلطان أبي عنان، لاكتشاف أمرها وغرضها من قِبل سلطات مالي، فنصوص ابن بطوطة لا توحي بذلك أبدًا، بل إنَّ رحالتنا يصرح بأنه عومل معاملة طبيعية من قبل منسا سليمان الذي منحه أعطيات تقدر بمئة مثقال ذهبي عند انصرافه من البلاط المالي[٣]. ومما يفند ذلك الرأي أيضا مجريات الأحداث التاريخية هذه وتواريخها، فالسفارة المالية توقفت بمدينة إيوالاتن سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، ومرَّ ابن بطوطة بتلك المدينة وهو في طريقه إلى مالي، ولم يذكر لنا شيئًا عن تلك السفارة، ونعلم أن رحلة ابن بطوطة انتهت سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، وكان بمقدور منسا سليمان في أثناء ذلك أن يقرر متابعة إرسال السفارة إلى أبي عنان، لكنه لم يفعل شيئا حيال ذلك، ما يدل على توتر علاقات البلاطين قبل تلك الرحلة.

---

(١) الرحلة، ص٦١٢ ٦٢٢.

(٢) - الرحلة، ص٦٢٨ ٦٢٩.

(٣) - الرحلة، ص٦١٤.

وحسب رأي القائلين[١] ؛ إنَّ رحلة ابن بطوطة كانت بغرض استكشاف ممالك السودان، بهدف تعزيز العلاقات السياسية والاقتصادية معها، وإنها كانت جزءا من مشروع كبير لدى السلطان أبي عنان، فقد عاد الرحالة وقدَّم معلومات شاملة وعميقة عن مملكة مالي ومواردها وحالة التجارة فيها، وكان من المفروض أن ينفذ أبو عنان بعد ذلك خطته نحو تعزيز العلاقات مع مالي، لكننا نلاحظ أنه لم يفعل، وظلت العلاقات الدبلوماسية منقطعة بينهما حتى وفاته.

وبالعودة إلى موقع رحلة ابن بطوطة في علاقات فاس ومالي السياسية، فقد كان من الممكن لرحلة ابن بطوطة أن تعزز التواصل الدبلوماسي بين الطرفين، وتفتح آفاقا أرحب وتخط مسارات جديدة لعلاقات متطورة بين فاس ومالي، فقد كان بمقدور منسا سليمان وأبي عنان تبادل السفارات عقب تلك الرحلة، فالرجلان عظيمان، كعظمة منسا موسى والسلطان أبي الحسن، وكانا يتحكمان في دول عظيمة مزدهرة، رغم ذلك تجاهل الجانبان العلاقات السالفة، وصارت الريبة الشخصية متحكمة في علاقاتهما، وعليه يبقى السؤال مُلِحًّا: لماذا إذن لم تتابع السفارة المالية إلى فاس، وانقطع الاتصال الدبلوماسي بين أبي عنان ومنسا سليمان؟

هذا ما يجعلنا نُدْلي باستنتاجاتنا المنطقية، فنؤكد على ما ذهبنا إليه؛ أن انقطاع علاقات السلطانين كان قبل قيام ابن بطوطة برحلته، وأن لابن بطوطة دورًا في تعزيز التنافر والتباعد بين السلطانين. وهو ما نستنتجه من خلال بعض نصوصه الواردة في تقريره عن مالي، التي ساقها للدلالة على تخلفهم الحضاري وعاداتهم المستقبحة عند المغاربة، وبداثية نظام الحكم عندهم، فتوضحت لدى السلطات المرينية الصورة عن مملكة مالي حكومة وشعبًا، فمالت لعدم إرساء علاقات رسمية مع بلاط مالي، من ذلك مثلا؛ المعلومات التي قدمها عن منسا سليمان بأنه: « رجل بخيل لا يرجى منه كبير عطاء.. »[٢] ، ثم الصورة المتخلفة التي قدمها عن بلاطه: « وإذا كلم أحدهم السلطان، فرد عليه جوابه، كشف ثيابه عن ظهره، ورمى بالتراب

---

(١) - طرخان: إمبراطورية مالي، ص٩٦. حافظ علوي: علاقات المغرب الأقصى بمالي، ص١٨٥-١٩٢. الفاسي: موقع رحلة ابن بطوطة، ص١٥١ – ١٥٥.

(٢) - الرحلة، ص٦١٣.

على رأسه وظهره، كما يفعل المغتسل بالماء، وكنت أعجب منهم، كيف لا تعمى أعينهم. وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام، وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم »[١] . والعادات المستقبحة التي أوردها كانتشار العري بينهم، وأكلهم للكلاب والجيف، وأنَّ بعضهم يأكل لحوم الآدميين، وغير تلك القصص والتي جعلت ابن بطوطة يكره الإقامة في تلك البلاد، وينفر من شعوبها الفقيرة الثقافة والطعام[٢]، ورغم اعتراف رحالتنا ببعض عاداتهم الحسنة كسيادة العدل وقلة الظلم بينهم، فإنه ركّز على الصور السيئة عن قصد؛ ليبرهن على ما قرّره من ضعف عقولهم وتخلفهم عن الأمم، لدرجة أنه كان نادرًا ما يخالط شعب السودان في رحلته، ويبحث عن البيض من المغاربة والمصريين أينما حل وفي أي بلد، ما يعني ترفع ابن بطوطة عن مخالطة السودان[٣].

بناءً على ذلك نميل إلى الاعتقاد، بأنَّ ابن بطوطة أسهم بدور كبير في عدم تعزيز العلاقات الدبلوماسية مع مالي، بعد أن شرح للسلطان أبي عنان واقع تلك البلاد، وأقنعه بعدم فعالية التواصل الدبلوماسي أو إنشاء علاقات ندّية معهم، ما جعل المرينيين يترفعون عن صداقتهم إلى آخر دولتهم، خاصة أن العلاقات التجارية والثقافية بين الطرفين ظلت على وتيرة جيدة، ولم تتأثر بالعلاقات السياسية، واستمرت المنافع المالية للدولة المرينية من تلك العلاقات ولم تتأثر بانقطاع السفارات بينهما[٤].

إضافة إلى عامل لا يقل أهمية عن ما سُقْناه، وهو سيادة الفوضى وانعدام الأمن بعد تلك الفترة على طريق المغرب والسودان الغربي، فلربما كان سببًا في انقطاع السفارات الدبلوماسية بينهما، نتيجة تمرُّد قبائل العرب (المعقل) المستقرة في تلك البقاع، وقد وصف ابن خلدون حالة انعدام الأمن على طريق السودان وضعف هيمنة الدولة عليه: « فجاز عرب المعقل

---

(١) - الرحلة، ص٦١٦.

(٢) - حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠، ص٢٢٨ ٢٢٩.

(٣) - الرحلة، ص٦١٤ ٦٣٥.

(٤) - محمد زنيبر: المغرب في العصر الوسيط، ص٤١٨ ٤١٩.

هؤلاء الأوطان في مجالاتهم ووضعوا عليها الإتاوات والضرائب، وصارت لهم جباية يعتدون فيها ملكا، وكانوا من تلك السالفة يعطون الصدقات لملوك زناتة... ولم يكن هؤلاء العرب يستبيحون من أطراف المغرب وحلوله حمى ولا يعرضون لسابلة سجلماسة ولا غيرها من بلاد السودان بأذية ولا مكروه، لما كان بالمغرب من اعتزاز الدين وسد الثغور وكثرة الحامية أيام الموحدين وزناتة بعدهم »[1]. هذا ما يدل بوضوح على غياب سلطة قوية بفاس تستطيع السيطرة على الطريق التجاري وإخضاع القبائل، مما يعيق تبادل السفارات مع مالي. خاصة إذا ما أخذنا بالاعتبار ما حصل للسفارة المملوكية سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٧م ونهبها من قبل العربان في المغرب الأوسط، وما سببته من فتور في علاقات فاس والقاهرة.

وكيفما كان الأمر؛ كانت السفارة المالية التي استقبلها السلطان أبو سالم آخر حلقات التواصل السياسي بين البلدين تطلعنا عليها المصادر، ومع دخول الدولتين فترة اضطرابات داخلية وانشغالهم بصراعات أهلية على الحكم، واستبداد الوزراء بالسلطة[2] ، لم يعد هناك سلطة مستقرة في كلا البلدين تبادر لإعادة التواصل بين البلاطين، أو سلطان يطمح في سياسة خارجية قوية لتحقيق مصالح عامة ذات فعالية[3].

على أية حال؛ كان التواصل الدبلوماسي بين مالي وفاس، وتبادل الطرفان الهدايا والسفارات على الصعيد الرسمي يمثل انفتاحًا في السياسة الخارجية للبلدين المسلمين، ويعكس الرغبة في تعميق الاتصال السياسي والحضاري بينهما، ورغم أنه أتى لاحقًا لعلاقات متطورة بين التجار والعلماء المتنقلين بين المجالين بكثافة وسهولة كما رأينا، فإنه كانت للعلاقات الدبلوماسية تلك وتبادل السفارات بين فاس ومالي بعض الانعكاسات العامة، كتعزيز الانفتاح الحضاري بين الشعوب، وتبادل الخبرات والمعارف، فمثلًا عندما جاءت سفارة مالي للسلطان أبي سالم المريني برفقتها الزرافة، احتشد المغاربة لرؤية هذا الحيوان الغريب على بلادهم، وشاهدوا

---

(١) - العبر، ج٦، ص٧٨.

(٢) - الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان، ص٥٨.

(٣) - الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني (إمبراطورية مالي)، ص٢٧٨.

أعضاء السفارة وملابسهم وأفعالهم وطريقة مثولهم أمام السلطان المريني[١]. وربما كان احتفال الشعب المالي وحكومته بعيد المولد النبوي من ضمن التأثيرات التي انتقلت من المغرب إلى بلاد السودان الغربي جراء التواصل السياسي بينهما، حيث كان سلاطين فاس مشهورين بعنايتهم بالاحتفال الرسمي لهذه المناسبة[٢].

كذلك ظهر التأثر المغربي واضحا على العمران بمالي، حيث بُنيت القصور الملكية بمالي على النمط المغربي، وذلك عندما جلب الملك منسا موسى في أثناء رحلته للحج شخصا مغربيًا يدعى (الشاعر الأندلسي إبراهيم أبا إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن) من مصر، وأخذه معه إلى مالي، فبنى لمنسا موسى الدور والقصور و المساجد مشابهة لبناء فاس[٣].

إضافة لانعكاس اجتماعي نتج عن هذا التواصل الرسمي والشعبي، ظهر في لباس أهل مالي الشبيه بالزي المغربي، كما ذكره القلقشندي بأن: « **لباسهم عمائم تحبك مثل المغرب... ولبسهم شبيه بلبس المغاربة جباب ودراريع بلا تفريج** »[٤].

وعن تأثير المغرب دبلوماسيًا على بلاط مالي، يظهر ذلك واضحًا في استخدام السلطان المالي الخط المغربي في رسائله إلى الملوك، واعتماد اللغة العربية لغةً للرسائل السلطانية الرسمية[٥].

•••

---

(١) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٤١١.

(٢) ابن مرزوق: المسند ، ص١٥٢ - ١٥٣. السعدي: تاريخ السودان، ص٥٩. مطير سعد: الثقافة العربية، ص٣٨٠ ٣٨٢.

(٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٦٨. السعدي: تاريخ السودان، ص٨-٩. محمد مزين: المغرب وبلاد السودان خلال القرنين ١٦ و ١٧ الميلاديين، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد ٣١، السنة الثالثة عشر، ١٩٨٧، ص٢١٦.

(٤) صبح الأعشى، ج٥، ص٢٩٩.

(٥) العمري: المسالك، ص١٢٣- ١٢٥. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٩٨.

ازدهار صناعة النسيج في مصر في العصر المملوكي
(٦٤٨_٩٢٣هـ)

بندر محمد علي آل عباس

ملخص البحث:

لقد ارتقت صناعة النسيج في العصر المملوكي الذي يعد من أزهى العصور في هذه الصناعة؛ ففي خلال فترة حكم المماليك تجمعت عدة عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية دفعت إلى التقدم والرقي بصناعة النسيج في مصر، كان منها وفرة المواد الخام الخاصة بهذه الصناعة وأحد مقوماتها الأساسية، إضافة إلى التشجيع والعناية التي لاقته هذه الصناعة من قِبل سلاطين الدولة المملوكية، وعادة منح الخلع والتشاريف من قِبل السلاطين إلى أمرائهم، وكبار رجال دولتهم، ومن هؤلاء إلى من دُونهم في المرتبة. كذلك تعهدت مصر في عصر المماليك بكسوة الكعبة المشرفة. وكان سلاطين المماليك يميلون إلى اقتناء الملابس الفاخرة اعتقادًا بأنها تُضفي على لابسها الوجاهة والاحترام، كما كان سلاطين المماليك يؤمنون بأن ارتداء أولي الأمر للملابس الملفتة للنظر بهدف التباهي واستعراض السلطنة، جزءٌ لا يتجزأ من إثبات مكانتهم الاجتماعية المرموقة. كذلك الإشراف من قبل الدولة على دور الطراز؛ وتزويدها بما يلزمها من أدوات ومعدات وصُنَّاع مَهَرة، ولا نغفل الدور الإشرافي للحسبة على الأسواق ورعايتها.وقد ذكر أحدهم أن اهتمام المماليك بلبس أفخم الثياب وأغلاها ثمنًا؛ جاء من اعتقادهم بأنها سوف ترفع من مكانتهم الاجتماعية بحسبان أنهم مماليك.

وعلاوة على ذلك فقد كان اهتمامهم بتقديم الهدايا والإنعامات والتقدمات والكساوي قد دفع إلى ازدهار هذه الصناعة، وكانت المنسوجات المصرية من ضمن المواد الأساسية المصدرة في عصر المماليك البحرية. وكذلك تَوافُدُ الصناع ذوي المهارة العالية من الدول المجاورة وغيرها

فرارًا من الخطر الذي كان يهددهم، وهو خطر المغول الذي اجتاح العالم الإسلامي، ولجوءُهم إلى مصر لكونها أكثر أمانًا، ولا نغفل أيضا كثرة الثروات التي كان يمتلكها المماليك، وانتشار الأسواق سواء المتخصصة في الأنسجة، أو التي كانت تحتوي على محلات لبيع هذه الأنسجة.

وسيستعرض الباحث هذه العوامل بالتفصيل:

١-المواد الخام:

تتكون المنسوجات عموما من أجزاء رفيعة جدًّا تدعى شُعيرات أو ألياف تلتف معًا بطرق عدة مكونة الخيط الذي يتم معالجته بطرق معينة تحوّله إلى قماش[١]، وهذه الألياف أو الشعيرات تؤخذ مواد معينة تسمى المواد الخام التي لا يتوقع قيام صناعة بدونها، ومن هذه المواد ما هو ذو أصل نباتي مثل القطن، والكتان أو ذو أصل حيواني مثل الصوف والحرير الذي تنتجه دودة القز. والمنسوجات المتكونة من عدة خيوط هي جسم مسطح رقيق يتكون إما من خيط واحد متشابك بعضه ببعض على هيئة أنصاف دوائر متداخلة ومتماسكة، كما هو الحال في أقمشة التريكو[٢].

ويتكون التريكو من مجموعة خيوط طولية يُطلق عليها اسم السدى[٣]، تتقاطع مع خيوط عرضية تعرف باسم اللُّحْمة تقاطعًا منتظمًا[٤].ويختلف المنسوج من مظهره ونوعه تبعا

---

(١) سعاد عساكرية الناعوري وليلى حجازين نشيوان، المنسوجات، الأردن، (عمان: دار الشروق، ٢٠٠٢م)، ص١٥.

(٢) التريكو: يتكون من فتلة واحدة تكوّن غرزا متتالية ومتداخلة مع بعضها مكونة نسيجًا مطاطيًّا، ولهذا النسيج أشكال متعددة أشهرها الجرسية والأنترلوك والدربي. علية عابدين وزينب الدباغ، دراسات في النسيج وأسس تنفيذ الملابس، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٣هـ /٢٠٠٢م، ٨٨. أحد أنواع المنسوجات المعروفة لنا منذ زمن بعيد، وانتشر هذا النوع من التركيب النسجي في العصر الحديث انتشارا سريعا في صناعة الأقمشة الخاصة بالملابس الخارجية والداخلية، وامتد إلى الأقمشة المستخدمة في التنجيد والمفروشات لرخص سعره بالمقارنة مع الأقمشة الأخرى. إنصاف نصر وكوثر الزغبي، دراسات في النسيج، (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص٣٢٩.

(٣) السدى (السداء): وهي التي تتم عملية النسيج بتدخل خيوط اللحمة العرضية مع خيوطها التي تكون طولية الاتجاه بزاويا قائمة. عصام ظاظا، وآخرون، مرجع سابق، ٣. السداة: عدد الخيوط المتوازية والمتساوية في الطول التي تمثل الاتجاه الطولي للنسيج. سعاد الناعوري وليلى نشيوان، مرجع سابق، ١٧.

(٤) سعاد ماهر، الفنون الإسلامية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م)، ص٦٣.

لاختلاف تقاطع الخيوط وتركيبها (التركيب النسجي) حيث تؤدي عملية التقاطع إلى اختفاء فريق من خيوط السدى تحت إحدى اللُحْمات وظهور الفريق الآخر في الوقت ذاته فوقها وبالعكس في اللحمة التي تليها[١].

ولقد قامت صناعة النسيج في مصر على مر العصور نتيجة لتوفر المواد الخام بها[٢]، وخاصة الكتان الذي كان يزرع فيها وهي التي اشتهرت به[٣]، وكذلك الصوف الذي يؤخذ من الأغنام حيث صعيد مصر الذي تربى فيه الكثير منها. وأما الحرير والقطن فكانا يستوردان من الخارج رغم أن الأخير اختلفت الآراء حول وجود زراعته في مصر[٤].

و خلال الصفحات التالية سوف أعرض للجوانب المهمة الخاصة بكل مادة من المواد الخام السالفة الذكر في مصر في العصر المملوكي، ومدى توفر استخدامها في صناعة النسيج.

(أ) الكتان:

يعتبر الكتان من أهم المواد الخام التي استعملت في نسيج مصر الإسلامية بصفة عامة والعصر المملوكي بصفة خاصة، ويقع في المرتبة الأولى بالنسبة لصناعة النسيج في مصر منذ العصر الفرعوني[٥].

ويعتبر نبات الكتان هو النبات الوحيد الذي استخدمت أليافه منذ أقدم العصور كمادة خام في صناعة الغزل والنسيج في مصر خاصة[٦].

(١) المرجع السابق، ص٣.

(٢) أمينة الشوربجي، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ /٩٦٩-١١٧١م)، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م)، ٢١٣.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢٥.

(٤) المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٣٦.

(٥) المرجع السابق، ص٦٣.

(٦) سعاد ماهر، مرجع سابق، ٦٤.

وهو محصول زراعي شتوي، وكان الفدان ينتج حوالي ٤٣٢ حزمة وحوالي ٣,٥ أردب من البذرة، وكان جزء كبير من الكتان المنتج يستعمل في صناعة المنسوجات محليا ويصدر الجزء الباقي إلى الخارج[١].

ويعتبر الكتان من الحاصلات المهمة التي ازدهرت في العصر المملوكي والعصور السابقة لهذا العصر، واهتمت به الدولة نتيجة للتقدم الصناعي، حيث أولت هذا المحصول عناية خاصة لاحتياجها له في الحصول على المنتجات الكتانية من ناحية، وكسلعة مهمة من السلع التي يتم تصديره للخارج من ناحية أخرى؛ ولذلك أنشأت المصانع الكبرى للنسيج في مناطق زراعته[٢].

وكان الكتان من بين المزروعات التي عُني بها السلطان برقوق، وليس أدل على ذلك مما كانت تزخر به الأسواق الداخلية من المنسوجات الكتانية في ذلك العهد[٣]، وفوق ذلك كانت تصدر كميات كبيرة من المنسوجات الكتانية إلى الدول المجاورة[٤].

ومن أشهر مناطق زراعة الكتان في مصر: بنها[٥]،بوصير[٦]، سقا[٧]، القيس[٨]،

(١) سعد هجرس، الزراعة المصرية: الماضي- الحاضر- المستقبل، (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٦م)، ٧٩.

(٢) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ١٧٣.

(٣) المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٢، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ)، ص١٠١.

(٤) علي عمر، دولة الظاهر برقوق وابنه في مصر، (القاهرة: شركة نوابغ الفكر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م)، ١٣٨. سعيد عاشور، العصر المماليكي،ص ٢٧٦.

(٥) بنها: مدينة بشمال مصر على الجانب الشرقي لفرع دمياط. عاصم محمد عبد الرحمن، مراكز الصناعة في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م)، ص١٢٩.

(٦) بوصير: قرية من قرى الفيوم بصعيد مصر. عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٧٥م)، ص١١٧.

(٧) سقا: بليدة قرب الإسكندرية تقع بين دمياط والإسكندرية. الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي)، معجم البلدان، ج٣، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٥م)، ص٢٦٩.

(٨) القيس: قرية بصعيد مصر تقع غربي النيل بمركز بنى مزار محافظة المنيا، وردت في كتب القبط (). محمد رمزي، مرجع سابق ، ق٢، ج٣، ٢١٤.

أهناس[١] سنهور[٢]، الفيوم، تنيس[٣]، شطا[٤]، ديبق[٥]، البهنسا[٦]، والأشمونين[٧] دلاص[٨]، بوش[٩]، أسيوط[١٠]، ولقد زُرع في هذه المناطق؛ لأنه يزرع عادة في المناطق

(١) أهناس: مدينة في صعيد مصر كانت قاعدة إقليم يشتمل على خمس وتسعين قرية، والظاهر أنها هي المدينة التي سماها اليونان هرقليوبوليس، وكانت قديما ذات أسقفية على الشاطئ الغربي لبحر يوسف. علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ومدنها القديمة والشهيرة، ج٨، (بولاق:١٣٠٥هـ)، ١٠٢.

(٢) سنهور: بليدة قرب الإسكندرية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ٢٦٩. وقيل إنها قريبة من المحلة على بعد ٤٥ ميلا منها في البرية. الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، (بيروت، عالم الكتاب، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ١٥٨.

(٣) تنيس: مدينة كانت تقع على جزيرة تحمل اسمها في الشمال الشرقي من بحيرة تنيس (المنزلة حاليا) بين مدينتي الفرما في شرقيها ودمياط في غربيها. جمال الدين الشيال، مدينة تنيس، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج١٤، (العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)، ١٥١.

(٤) شطا: بلدة يسكنها القبط تبعد ثلاثة أميال عن دمياط على البحر الملح، وكانت من توابع غيط النصارى ثم أصبحت قائمة بذاتها. محمد رمزي، مرجع سابق، ق٢، ج١، ٢٤٣.

(٥) ديبق: بلدة من أعمال دمياط واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس، وقد اندثرت وصار مكانها يعرف بتل دبقو بمركز فاقوس بمحافظة الغربية . المسبحي، أخبار مصر في سنتين(٤١٤-٤١٥هـ)، تحقيق: وليم ج، ميلورد، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م)، حاشية ٢ للمحقق، ص٢٥.

(٦) البهنسا: مدينة واقعة على الضفة الغربية من خليج البنها (بحر يوسف)، كان ينسج بها للخاصة الستور المعروفة بالهنسية، والمقاطع السلطانية، والمضارب الكبار. محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة١٩٤٥، (القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م)، ق٢، ج٣، ٢١١-٢١٢). وقد خربت واندثرت آثارها وغطتها الرمال، خلفها القرية الموجودة الآن والمسماة باسمها على الشاطئ الغربي من بحر يوسف، محافظة المنيا. علي باشا مبارك، مرجع سابق، ج١٠، ٣.

(٧) الأشمونين: مدينة قديمة، وكانت قاعدة للوجه القبلي بين البحر اليوسفي والنيل يقال إنها من بناء الملكة كليوبترا، وكانت تسمى هرموبوليس أو مدينة إدريس عليه السلام. علي باشا مبارك، مرجع سابق ، ج٨، ٨٤.

(٨) دلاص: كورة بصعيد مصر غربي النيل أخذت من البر تشتمل على قرى وولايات واسعة، وهي من توابع البهنسا. عاصم عبد الرحمن، مرجع سابق، ٢١١.

(٩) بوش: مدينة بنصر من نواحي الصعيد الأدنى في غرب النيل بعيدة عن الشاطئ، ثم صارت قرية من قرى بني سويف. عاصم محمد عبد الرحمن، مراكز الصناعة في مصر الإسلامية منذ الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م)، ٢٠٨.

(١٠) أسيوط: مدينة في غربي النيل من نواحي صعيد مصر، يوجد بها خمسة وسبعون كنيسة دلالة على وجود النصارى، وبها مناسج الأرمني والدبيقي. الحموي، معجم البلدان، ج١، ١٩٣.

المنخفضة التي تظل مغمورة بالمياه مدة طويلة، وجميع هذه المناطق تتمتع بهذه الصفات[١].

وكانت هناك أنواع عديدة للكتان كانت تزرع في مصر في ذلك العصر، ولم يذكر المؤرخون أسماءها، ولكنهم أشاروا إلى أن أجودها كان يزرع في منطقة بوصير، حيث الأنواع الرفيعة والجيدة منه، وفي الفيوم أقل جودة مما يزرع في بوصير، ولكنها أوفر إنتاجًا[٢].

ويقول ابن حوقل: إن الكتان كان من الحاصلات المهمة في الأشمونين، وكتان أخميم أجودها[٣]. وكان الكتان الملون الجيد يصنع في القاهرة[٤].

واستطاع المصريون القدماء تحويل ألياف الكتان إلى خيوط معدة للنسيج، أي تمكنوا من غزله وقبل ذلك يتم استخراج هذه الخيوط عن طريق معالجته بطرق متعددة اعتمد عليها قدماء المصريين و هي: التعطين[٥]، والدق[٦] ، والتمشيط[٧] ،

---

(١) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ١٧٣.

(٢) المرجع السابق، ١٧٣.

(٣) ابن حوقل (محمد بن حوقل البغدادي الموصلي)، صورة الأرض، بيروت: دار صادر، ١٩٣٨م، ٧٢.

(٤) أكرم حسن العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م): دراسة تاريخية اجتماعية وثقافية واقتصادية، (دمشق: الشركة المتحدة للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م)، ٢٣٨.

(٥) التعطين: هو فصل ألياف الكتان عن الساق ، وذلك بوضع حزم الكتان بعد فرزها في أحواض بها كمية كافية من المياه. أنصاف نصر وكوثر الزغبي، مرجع سابق، ٤٤-٤٥. سامي محمد سليمان، زراعة الكتان: تجهيز المحصول عقب الحصاد، نشرة رقم ٧١٣، سنة ٢٠٠١م.

(٦) الدق: فصل البذور عن القش وذلك باستخدام الأحجار أو زحافة خشبية ويتم ضرب القش يدويا من ناحية الكبسولة، وأحيانا تستخدم قطعة خشبية مثبت عليها أسنان من الحديد تمرر من بينها نباتات الكتان فتفصل البذور عن الكبسولة. أنصاف نصر وكوثر الزغبي، مرجع سابق، ٤٤.

(٧) التمشيط: هو تمشيط الألياف على مشط خاص، وذلك بهدف فصل الألياف القصيرة وغير المنتظمة لتتجانس الألياف. أنصاف نصر وكوثر الزغبي، مرجع سابق، ٤٧.

والغزل[١]، والنسيج[٢].

والوسيلة المتبعة في غزل خيوط الكتان، استخدام قرص من الخشب أو الجص، يتراوح قطره ما بين ٥-٧ سنتمترات، ويعرف بـ(فلكة) المغزل، مثبت به إصبع من الخشب مخروط الشكل (مسلوب) يتراوح بين٣٠-٢٩سنتمترًا، ويعرف بالسرسور، وهو نفس المغزل اليدوي الذي لا يزال يُستعمل حتى الآن في بعض القرى بمصر[٣]. وكانت طريقة الغزل (البرم) للخيوط الكتانية أو الصوفية في مصر يتم من جهة اليسار إلى اليمين، ويرمز له بالحرف(S)، وكانت الخيوط في غير مصر تبرم من اليسار إلى اليمين ويرمز لها بالحرف(Z)[٤].

ب) القطن:

هو محصول صيفي، ومن أهم خامات النسيج وقد استخدمت خيوطه في صناعة النسيج منذ القدم، ولا تزال حتى اليوم. فالملابس القطنية يفضلها الكثيرون نسبة لما تمتاز به من المزايا الصحية، حيث هي باردة في الصيف خلافا للملابس المصنوعة من الخامات الأخرى. وقد تضاربت الأقوال حول زراعة القطن في مصر، وكذلك استعماله كخام في صناعة النسيج، ومعرفة المصريين له، بالرغم من أن الإنسان قد تعلم زراعة القطن بعد استقراره في المدينة، وبخاصة في جعل أليافه خيوطا استعملها في نسج ملابسه، فإن القطن لم يعرف في مصر الفرعونية[٥].

بينما يرى آخر قولا مغايرا فيقول : « عرفت مصر زراعة القطن قبل ميلاد المسيح

---

(١) الغزل: تحويل الشعيرات أو الألياف النسيجية إلى خيوط صالحة للعمليات النسيجية المختلفة. سعاد الناعوري، وليلى نشيوان، مرجع سابق، ١٧.

(٢) النسيج: تداخل الخيوط مع بعضها بطريقة مختلفة لتحويل الخيوط إلى قماش. سعاد الناعوري، وليلى نشيوان، مرجع سابق، ١٧.

(٣) سعاد ماهر، مرجع سابق، ٦٤.

(٤) المرجع السابق، ٦٥.

(٥) سليم حسن، مصر القديمة، ج٢، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت)، ٨٧. سعد هجرس، مرجع سابق، ٧٩.

بحوالي أحد عشر قرنًا »[١]. وكان يزرع في الجهات التي يتوافر فيها الري كالفيوم أو على جانبي النيل[٢]، وتوافق القطن الأرض (التربة) السوداء والحمراء، ولا بد أن تكون خالية من الملوحة[٣]، ويزرع في برمودة (٩ أبريل -٨ مايو) ويدرك توت (١١سبتمبر- ١٠ أكتوبر)[٤] وزراعته أربع ويبات[٥] حسب الفدان[٦]، ومتحصله من قنطار[٧] إلى ثمانية قناطير، وخراجه دينار واحد للفدان[٨].

كما يعتبر القطن من الزراعات الصناعية المهمة في مصر إلى جانب كونه من المواد الخام المهمة التي كانت تصدر إلى أوربا[٩]. ومنذ القدم كانت البهنسا والواحات من أهم مراكز زراعته وتصنيعه، وكان قطن الواحات يستهلك محليًّا، أما قطن البهنسا فكان يعد للتصدير[١٠].

---

(١) كامل غالي، الزراعة بمصر، (د.م: د.ن، د.ت)، ١٩٦-٢٠٢.

(٢) راشد البراوي، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م)، ٧٠.

(٣) ابن وحشية (أبو بكر أحمد بن علي)، الفلاحة النبطية، ج٢، تحقيق: توفيق فهد، (القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار، ١٩٩٣م)، ٢١٣.

(٤) برمودة و توت: من الشهور القبطية التي كان يعرف بها مواسم زراعة المحاصيل في مصر. المقريزي، القول الإبريزي، ٢٥٧.

(٥) ويبات: مفردها ويب وهو مكيال معروف. ابن منظور، لسان العرب، ج١، ٨٠٦. مقداره ٢٢-٢٤مدا. والويبة كل ستة عشر قدحا تسمى ويبة والويبة اثنان وعشرون أو أربعة وعشرون مدا، والويبة وحدة للمكاييل المصرية. أحمد الشرباصي، المعجم الاقتصادي، (بيروت، دار الجيل، ١٩٨١م)، ٤٨٧. إبراهيم أيوب، مرجع سابق، ٢٨٩.

(٦) الفدان: هو مقياس المساحة المصري المفضل يساوي ٤٠٠ قصبة مربعة ومساحة القصبة ٣٩٩ سم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ٤٤٦. وتقدر مساحة الفدان في العصور الوسطى بـ٦٣٦٨متر مربع. فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، (الأردن: منشورات الجامعة الأردنية، د.ت)، ٩٧-٩٨.

(٧) قنطار: القنطار الواحد يساوي من حيث الأساس ١٠٠ رطل. ويساوي ٤٣٧٥٠غ، وكانت تستعمل في الأقطار الإسلامية أنواع مختلفة. فالترهنتس، مرجع سابق، ٤٠. إبراهيم أيوب، مرجع سابق، ٢٨٩.

(٨) أحمد محمد عدوان، التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك (٦٤٨-٧٨٣هـ /١٢٥٠-١٣٨١م)، (الرياض: دار العلوم، ١٤١٨هـ -١٩٩٨م)، ٧٣.

(٩) أحمد عدوان، مرجع سابق، ١٧٢.

(١٠) المرجع السابق، ١٧٢.

ويري فريق آخر أن إنتاج القطن في مصر كان ضئيلا بحيث لا يمكن أن يعمل منه نسيج من القطن الخالص، بل كانوا يمزجونه بالكتان أو الصوف أو بمواد أخرى ليفية[١] ، وأنه لم يكن يزرع على نطاق واسع، وكانت أشجار القطن في الوجه القبلي تمكث نحو عشر سنوات، وكان إنتاج الفدان يصل إلى حوالي قنطار، وكان يستخدم الإنتاج في صناعة المنسوجات التي لم تكن تكفي حاجة المناسج المحلية، الأمر الذي جعلهم يستوردون بعض القطن الخام من بلاد الشام[٢].

ويذكر الفريد لوكاسل أن أقدم أقمشة قطنية عُثر عليها في مصر وجدت في بلاد النوبة[٣]، وهذه الأقمشة من العصر الروماني، وقيل إنها من الكتان، ولكنها قد فُحصت بعد ذلك بواسطة بعض الخبراء فقرروا أنها دون شك من القطن، وهناك وثيقتان قديمتان تشيران إلى استعمال القطن في بلاد النوبة، ويرجع تاريخ إحدى هاتين الوثيقتين إلى سنة ٢٥٠م.

أما الأخرى فتاريخها متأخر عن الأولى بحوالي ثمانية قرون تقريبًا، أي في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي[٤]. ويروي لوكاسل عن (المسيو فيستر)، الذي قام بدراسة مفصلة أن القطن لم يعرف في مصر إلا بعد الفتح العربي (٦٤٠م) ببضعة قرون[٥]، وهذا يشير إلى أن القطن كان موجودًا في العصر المملوكي؛ لأن الدولة المملوكية حكمت مصر في القرن السابع الهجري.

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، وسعد زغلول عبد الحميد،وأحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، (الإسكندرية: دار المعارف الجامعية، ٢٠٠٤م)، ٣٣٣.

(٢) سعد هجرس، مرجع سابق، ٧٩.

(٣) النوبة: هي منطقة جنوب مصر وشمال السودان، ممتدة على شاطئ النيل جنوب أسوان حتى دنقلة بالسودان، ويسمى الجزء الواقع في إقليم مصر بين أسوان ووادي حلفا النوبة السفلى، والجزء الواقع في السودان النوبة العليا. الموسوعة العربية الميسرة، مج٢، ١٨٥١.

(٤) الفريد لوكاسل، الموارد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة: زكي اسكندر، ومحمد زكريا غنيم، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ/١٩٩١م)، ٢٣٩.

(٥) المرجع السابق، ٢٣٩.

ويشير ول ديورانت إلى أن المصريين كانوا يعرفون زراعة القطن منذ العصور القديمة[١]، ولم تشر المصادر القديمة إلى زراعته بمصر في القرنين الأول والثاني الهجريين، حيث يذكر الأستاذ Lamm (لام): أن القطن حينذاك كان ينمو في كل البلاد الإسلامية تقريبًا، ولا بد أنه كان ينمو في مصر إن لم تكن هناك إشارات صريحة لإنتاجه في مصر في ذلك الوقت[٢]، وأن هناك بعض أوراق البردي المؤرخة في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) ذكرت من خلالها وجود زراعة للقطن في مصر، حيث هناك قطعة من كشف حسابات خاصة بمُزارعي القطن، ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري، بالإضافة إلى إشارة أُخرى إلى زراعته، ويتضح أنه كان غالي الثمن[٣].

ويذكر متز: « أنه بالرغم من أن القطن كان يزرع بمصر العليا منذ زمن طويل، فإنه لم يذكر بين حاصلات مصر في القرن الرابع الهجري، ويبدو أنه لم يكن له شأن في ذلك الوقت »[٤]، وتذكر صفي محمد عبد الله أنه ورد في إحدى البرديات من القرن الرابع الهجري ما نصه: 'إن سعر القطن عندنا سبعة أرطال بدينار[٥]، ويذكر ابن مماتي (ت٦٠٦هـ) أن الفدان كان ينتج من قنطارين إلى ثمانية قناطير من القطن[٦]. وتذكر سعاد ماهر ' أن هناك تضاربًا في الأقوال في وجود القطن في مصر في العصر الإسلامي، رغم أن بعض المصادر ذكرت أنه موجود بمصر منذ العصر الفرعوني، ولكن لم يكتشف دليل مادي يؤكد ذلك، رغم أن العرب كانوا يزرعونه

(١) موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، (د.م: د.ن، د.ت)، ٢٠٢، ٢٨٠.

(٢) صفي علي محمد عبد الله، مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية عصر الفاطميين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م)، ١٢٥-١٢٦.

(٣) جروهمان، أوراق البردي العربية، ج٦، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٤م)، ١٤٠، ٢٨٠.

(٤) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، (بيروت: د.ن، ١٩٦٧م)، ٣٥١.

(٥) مدن مصر، ١٢٦.

(٦) ابن مماتي (أبو المكارم الأسعد بن مهذب الخطير أبو سعيد)، قوانين الدواوين، (القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٣م)، ٢٦٥-٢٦٦.

في اليمن والعراق"[١].

ويبدو أن القطن لم يكن له شأن في فترة الحكم الإسلامي، وكان يزرع بكميات قليلة[٢] "فلم يعمل في مصر نسيج من القطن الخالص، بل كانوا يمزجونه بالكتان أو الصوف أو بمواد أخرى ليفية"[٣]. وكان القطن ينسج ببعض المدن التي اشتهرت بصناعة المنسوجات الكتانية، مثل تنيس والإسكندرية[٤]. ولكن يبدو أن ما كانت تنتجه مصر من نسيج القطن لم يكن يكفي حاجتها، وكانت تستورد المنسوجات القطنية من الخارج، وخاصة من الهند[٥].

وعلى الرغم من إغفال الرحالة في العصر المملوكي وما سبقه لذكر القطن كمحصول زراعي ضمن المحاصيل الزراعية الصيفية فإن أوراق البردي العربية أوردت هذا المحصول كأحد المحاصيل الصيفية الموجودة بمصر[٦]، وتقول أمينة الشوربجي: " إننا نعتقد أن هذا المحصول لم يكن منتشرا بصورة كبيرة في القطر المصري، وكانت مساحته محدودة، حيث اعتماده على الري الدائم، وعلى هذا فمن المحتمل زراعته بمنطقة الفيوم حيث وفرة المياه طوال العام مما ساعد على ري الأرض المنزرعة بهذا المحصول أو يتم زراعته أيضا بالمناطق القريبة من مجرى النهر فيسهل حمل الماء إلى الأرض المنزوعة قطنا بانتظام"[٧].

وأن المساحة المنزرعة قطنًا كانت محدودة، وهذا يفسر عدم ذكر الرحالة لهذا المحصول، بيد أن ابن مماتي المتوفى سنة (٦٠٦هـ) ذكر هذا المحصول عند ذكره للحاصلات الزراعية

---

(١) الفنون الإسلامية، ٦٨-٦٩.

(٢) صفي علي محمد عبد الله، مدن مصر، ١٢٦.

(٣) زكي حسن، كنوز الفاطميين، ١١٦.

(٤) المرجع السابق، ١١٦، كاشف، مصر في عهد الإخشيديين، ٣١١.

(٥) صفي عبد الله، مرجع سابق، ١٢٦.

(٦) سيدة كاشف، مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، (القاهرة: د.ن، د.ت)، ١١٣. أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ١٧٧.

(٧) رؤية الرحالة، ١٧٧-١٧٨.

الشتوية[١]. وذكر المقريزي (ت٨٤٥هـ) أنه كان يوجد فندق للقطن تأخذ عليه الدولة رسومًا معينة كل عام[٢]، وتعتقد أمينة الشوربجي أن سبب وجود فندق القطن هو هذه الكميات من القطن الخام التي كانت تستوردها الدولة لسد حاجة البلاد من القطن الخام[٣].

وكان القطن والكتان من بين المحاصيل الشتوية التي تزرع[٤].ولذا نجد أن المصادر التاريخية تحفل بإشارات كثيرة تفيد بزراعة القطن في مصر وتؤكد بعض المصادر أن القطن كان يدخل في صناعة النسيج بدور الخاصة والعامة بمدينة البهنسا[٥].

ج) الحرير:

هو ثالث خامات النسيج الطبيعية أهمية بعد الكتان والقطن، وقد استخدمه الإنسان منذ زمن بعيد في الملبس. فقد عرف الصينيون طرق غزل ونسج الخيوط المستخرجة من شرانق دودة القز منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد أو يزيد، واحتفظوا بسره فترة طويلة[٦]. ورغم كراهية الإسلام لاستخدام المنسوجات الحريرية؛ وتحريم لبس الرجال للحرير في الإسلام[٧]، فإن غالبية الحكام المسلمين لم يقفوا موقفا معارضا في سبيل تقدم صناعة الحرير بمصر، بل عملوا على تنظيم استخدامه للرجال، وقد ساهم هذا التحديد في ظهور أنواع من الأقمشة الجميلة التي تزينها أشرطة الحرير[٨]، وكان صاحب الطراز يشرف بنفسه على الصناعة حتى

---

(١) قوانين الدواوين، ٢٦٥.

(٢) المقريزي، الخطط، ج١، ١٠٤.

(٣) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ١٧٨.

(٤) محمد الحافظ النقر، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي في العصر الوسيط، (الأردن، المفرق: دار المسار للنشر والتوزيع، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م)، ٧٣.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج١، (بيروت، عالم الكتاب، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ١٣٠.

(٦) سعاد ماهر، مرجع سابق، ٦٧.

(٧) عن حذيفة، رضي الله تعالى عنه، قال: نهى رسول الله، ﷺ، أن نشرب في آنية الذهب والفضة، وأن نأكل فيها، وعن لبس الحرير والديباج، وأن نجلس عليها. رواه البخاري، حديث (٥٨٣٧). العسقلاني (الإمام الحافظ ابن حجر)، بلوغ المرام من أدلّة الأحكام، خرَّج أحاديثه وضبطه: محمد عبد القادر الفاضلي، ط٢ (بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ١٠٢.

(٨) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ٢٣٦-٢٣٧.

لا يتجاوز قدر الحرير في الثوب أربع أصابع، ولهذا كان الصانع يبدع في التطريز؛ لأن التطريز لا يتعدى عدة أشرطة من الحرير، ولكن سرعان ما تغير الوضع، وتنازل صاحب الطراز عن الصرامة في تنفيذ الشروط، فأخذت الزخرفة تزداد مع تزايد أشرطة الحرير المزخرفة[١].

ويبدو أن صناعة الأنسجة الحريرية قد بدأتْ في مصر خلال العصور الإسلامية حيث يؤكد ذلك وجود صناعته في بعض البلاد التي خضعت لهم مثل جزيرة صقلية[٢] وقاعدتها بالرمو[٣] التي اشتهرت بصناعة الحرير الموشى بالذهب[٤].

وفيما يختص بالمنسوجات الحريرية فقد بولغ من قبل كثيرا في نصيب صقلية من الموجودات المحفوظة التي ترجع إلى العصر الوسيط. ولا يوجد ما يدعو للشك في صحة ما يقال من أن الصناعة لم تبدأ فيها إلا في عام ١١٤٧م بعد الحملة التي سيرها النورمانديون[٥] على بيزنطة[٦]، وبمعونة صُنَّاع كانوا من بين الغنائم. ولا بد أنها سرعان ما انتقلت بعد ذلك

---

(١) المرجع السابق، ٢٣٦.

(٢) جزيرة صقلية: فتحها الأغالبة سنة ٢١٢هـ وهي أكبر جزر البحر المتوسط وأكثرها سكانا، عاصمتها بالرمو، تقع بين ساحل إيطاليا الجنوبي وساحل أفريقية، وتقسم البحر المتوسط إلى قسمين شرقي وغربي، ويفصلها عن إيطاليا مضيق مسيني، وقريبة من السواحل الأفريقية. أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ج٢، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د.ت)، ٦٥.

(٣) بالرمو: هي عاصمة جزيرة صقلية تقع على ساحلها الشمالي الغربي. الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ١١٢٦.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون، مرجع سابق، ٣٣٥-٣٣٦.

(٥) النورمانديون أو النورمان: اسمٌ أطلقه الهولنديون والفرنسيون والألمان على شعب من أقدم الشعوب التي استوطنت الأراضي الأسكندنافية ، وعرف سكان الجزر البريطانية باسم آخر هو الدانسويعني اسم النورمان رجال الشمال، وربما كانت اختصارا قديما متطورًا للكلمة الإنجليزية. الموسوعة العربية، مج٢١، ١٢٩.

(٦) بيزنطة: ترجع تسميتها إلى موقعها الذي أقيمت عليه عاصمتها، وكان يسمى بيزنطة وتقع عاصمتها القسطنطينية عند التقاء البسفور ببحر مرمرة، وسميت كذلك نسبة إلى مؤسسها قسطنطين الكبير (٣٠٧-٣٣٧م). جوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-٤٥٣م)، (القاهرة: دار المعرفة، ١٩٨٨م)،٥. وتعرف هذه الدولة باسم الدولة البيزنطية، وأصل هذه الصفة يرجع إلى بيزاس قائد الجماعة اليونانية التي هاجرت من مدينة ميجارا ، وأسست في القرن ٧م تلك المدينة التي عرفت باسم بيزنطة نسبة إلى قائدها، وكان موقعها هو المكان الذي اختاره الإمبراطور قسطنطين لبناء عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية، وفي الواقع أن لفظ (بيزنطي) مصطلح حديث لم يكن معروفا عند شعوب هذه الدولة وحكامها. محمود سعيد عمران، تاريخ الدولة البيزنطية، (القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م)، ١١.

مباشرة إلى أيدي الفنانين المسلمين[١].

وقد شهد العصر المملوكي (والعصور السابقة له) إنتاج أنواع من المنسوجات الحريرية العالمية تتفوق على مثيلتها في موطنها الأصلي ، فقد ظهرت المنسوجات الحريرية المعروفة بالعتابية، وهي نوع من الأقمشة الحريرية التي كانت تنتشر في بغداد نقلها الصانع المصري وقلدها حتى أصبحت مصر تصدرها إلى بغداد[٢].

د) الصوف:

الصوف من المواد الخام المهمة الذي استخدم في صناعة النسيج بمصر في العصر المملوكي وما سبقه، وقد كان من غلات الصعيد لكثرة تربية الأغنام على أيدي السكان العرب الذين استوطنوا أخميم، والفيوم ، وأسيوط وغيرها. وكان للمصريين مهارة فائقة في صناعة الأصواف[٣]. وكانت أسيوط تنتج ثياب الصوف الرفيعة.

ويؤكد الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار مصر في القرن الخامس الهجري على وجود الصوف واستخدامه كمادة خام بقوله: 'وينسجون في أسيوط عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها في العالم، والصوف الدقيق الذي يُصدر إلى بلاد العجم والمسمى الصوف المصري، كله من الصعيد الأعلى؛ لأنهم لا ينسجون الصوف بمدينة مصر(الفسطاط) نفسها، وقد رأيت في أسيوط فوطة[٤] من صوف الغنم لم أر مثلها في لهاور[٥] أو مُلْتان[٦]، وهي من الرقة

---

(١) أرنست كولن، مرجع سابق، ٥٦.

(٢) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ٢٣٨.

(٣) راشد البراوي، مرجع سابق، ١٣٥.

(٤) فوطة: ثوب غليظ من الصوف يكون مئزرا. ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ٣٧٣. مرادف البقجة، وهي قطعة من القماش من الحرير السكندري تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة حضرة السلطان. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٤٥. رينهارت بيتر آن دوزي، تكملة المعجم العربي، ج٨، ترجمة: محمد سليم النعيمي و جمال خياط، (العراق: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٧٩-٢٠٠٠م)، ١٣٧.

(٥) لهاور (لاهور): مدينة مهمة في باكستان الغربية، ازدهرت تحت حكم المغول المسلمين في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي، وهي مركز صناعي ومالي مهم. الموسوعة الميسرة، ج٢، ١٥٤٦.

(٦) ملتان: أكبر مدن الهند وأهم موانيها التجارية أسسها البريطانيون عام ١٦٩٠م، وهي مركز صناعي، بها مصانع القطن والجوت. وهي مدينة باكستانية تقع في الجزء الجنوبي من محافظة البنجاب، تبعد عن كراتشي حوالي ٩٦٦كم. الموسوعة الميسرة، ج٢، ١٤٧٣.

بحيث تحسبها حريرًا"[١].

ه) النيلة:

هي محصول صيفي، وتعتبر من المواد المحسنة للمنسوجات ونسبة لتوفرها في مصر فقد اهتمت الحكومة بزراعتها، وذلك لاحتياج مصانع النسيج الكبرى لها لاستخدامها في صباغة الثياب الفاخرة، ولذا نجدهم يشجعون زراعتها ويوفرون البذور المنتقاة منها، بل إنهم غالبًا ما كانوا يقدمون بعض المساعدات للفلاحين لزراعة هذا المحصول؛ وذلك لأنه من الحاصلات التي لا يقدم على زراعتها غير ملاك الأراضي الأغنياء، حيث يبقى في الأرض ثلاث سنوات.

وقد انتشرت زراعة النيلة في منطقة الصعيد الأعلى[٢]، والمناطق الجنوبية من مصر العليا، وكانت زراعتها تحتاج إلى نفقات كبيرة؛ لذا اقتصرت على مزارع الأمراء والمماليك وغيرهم من أغنياء الزراع، وكانت تُدِرُّ ربحًا وفيرًا؛ لأن مادة الصباغة الزرقاء تصدر للخارج[٣]، وربما يكون السبب طول الفترة الزمنية التي تستغرقه زراعة هذه النبتة، إضافة إلى التكلفة الكبيرة التي تحتاج لزراعتها، فعندما تمتد إلى ثلاث سنوات، لا يستطيع الشخص التي تكون حالته المادية غير جيدة أن يستغرق فترة طويلة في منتج زراعي متعِب، ولا يعود عليه بالنفع إلا بعد فترة زمنية طويلة، فيفضِّل زراعة المنتجات الأقل تكلفة، والأوفر في الجهد والوقت، والتي يكون له عائد اقتصادي مربح.

غ) القرطم:

هو نوع من النبات ينتمي إلى الفصيلة النجمية. ويحتوي على بضع عشرات من الأنواع، أهمها القرطم الصباغي الذي يؤخذ منه العصفر، وهو من المحاصيل الشتوية المربحة، وكانت تستخرج من زهوره صبغة صفراء تصدر للخارج كلها، وزراعة القرطم توجد في المناطق الممتدة من إسنا إلى القاهرة[٤].

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه، ١١٥-١١٦.

(٢) أمينة الشوربجي، مرجع سابق، ١٧٩.

(٣) سعد هجرس، مرجع سابق، ٧٩-٨٠.

(٤) مجهول، مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، تحقيق: محمد عيسى صالحية وإحسان صدقي العمد، (الكويت: التراث العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ٧٨-٧٩.

٢- تشجيع سلاطين المماليك وأمرائهم:

كان لسلاطين المماليك في مصر النصيب الأوفر في تطور صناعة النسيج، وكان لهم الدور الأوفر في تطور هذه الصناعة ورواجها، ووصول منتجات مصر إلى دول متعددة واكتسابها شهرة بين تلك الدول. فكان اهتمام السلاطين والأمراء بدور الطراز جعلها تنتشر في مناطق مصر، وعينوا لها ناظرا يتولى الإشراف عليها ويديرها، ويكون مسؤولا أمام السلطان. وقد احتفظ ناظر الطراز بمهامه والاختصاص الموكل له في عصر المماليك ومن سبقهم. وفي العصر المملوكي اهتم السلاطين بدار الطراز، وخصصوا لها زيارة من قِبل السلطان، لما لها من أهمية اقتصادية وسياسية ودينية، فقد زار الأشرف شعبان إحدى كُبريات دور الطراز في مصر في العصر المملوكي وهي دار الطراز بالإسكندرية[١].

وكان صناع النسيج يتمتعون بتشجيع من قِبل السلاطين لهم إذا أتقنوا صناعتهم وبرعوا فيها، حيث يقدمون لهم الحوافز المادية والمعنوية، فتوفرت أعدادٌ من العمال المهرة برعت في فنون صناعة النسيج، وكان لهم دورٌ في تطوير هذه الصناعة على مر العصور التاريخية، وجعلوا شهرة دور الطراز تصل لدول العالم[٢].

ويتبين تشجيع سلاطين المماليك في الزيارة التي قام بها الأشرف شعبان لدار الطراز بالإسكندرية، واهتمامه بأدق التفاصيل، وتواضعه في الإشراف بنفسه على الاطلاع على محتويات دار الطراز، فصعد السلطان السُلَّم إلى مكان الأنوال واستعمالات دار الطراز، وطاف بالأنوال وشاهدها وتعرف على أدق التفاصيل، والتقى الصناع وتحدث معهم[٣].

وأثناء مشاهدة السلطان الأشرف شعبان اختار من تلك المنتجات التي أُعجب بها،

---

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ٤٢٥.

(٢) زكي حسن، كنوز الفاطميين، ١١٠-١١٢.

(٣) النويري الإسكندري (محمد بن القاسم بن محمد)، الإلمام أو مرآة العجائب، ج٦، تحقيق: أتيين كونب وعزيز سوريال عطية، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠م)، ١٠.

وأخذها معه، بينما طلب منهم أشياء أخرى يحضرونها له بعد تكملة نسجها[١].

وليس هناك أكثر دلالة على تشجيع سلاطين المماليك للصناع، من تواضع السلطان الأشرف شعبان، عندما شرب من الزير الذي يشرب منه صناع النسيج، وذلك في أثناء زيارته لدار طراز الإسكندرية[٢]، فهذا يعتبر تشجيعا معنويا؛ لكون سلاطين المماليك في العادة يجعلون بينهم وبين من هم أقل مكانة فوارق حتى في الملبس.

ومن تشجيع السلاطين ما كان يقوم به السلطان صالح بن الناصر محمد سنة ٧٥٥هـ عندما يركب النيل في الليل ويستدعي أرباب الصنائع، ومن بينهم القزازون، وينصب له نول قزازة، ويقوم بعمل ما يصنعونه بيده[٣].

٣- الهدايا:

اللافت للنظر في العصر المملوكي في مصر أن الهدايا كانت من ضمن العوامل المهمة التي ساعدت على ازدهار صناعة النسيج في مصر خلال العصر المملوكي؛ بسبب ما أوردته المصادر عن العديد من الهدايا التي تم تبادلها بين المماليك مع الملوك والسلاطين للدول الخارجية المسلمة منها وغير المسلمة. علاوةً على الهدايا الأخرى التي يقدمها سلاطين المماليك لرجال دولتهم أو في المناسبات العديدة. وقد دفع ذلك بالسلاطين للاهتمام بصناعة الملابس والثياب أو الأزياء التي تعد في شكل هدية على أساس أن تكون في أرقى الحالات وأعلى الجودة والجمال حتى يبهروا بها الحكام في تلك الدول؛ لذا وفروا لدور الطراز ما يستلزمها من ذلك؛ لأن السلاطين كانوا يعطون مكونات الهدية أهمية خاصة.

وتنبع أهميةِ الهدايا في العصر المملوكي من خلال ما تضمنته من دلالات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ودينية. وكانت معظم مكونات الهدايا من الملابس والأزياء والثياب.

---

(١) المصدر السابق، ج٦، ١٠.

(٢) المصدر السابق ، ج٦، ١٠.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ٩٢٩.

وقد قُسّمت الهدايا في العصر المملوكي إلى قسمين: الهدايا الخارجية والهدايا الداخلية، ويتفرع من هذين القسمين أنواع متعددة. فالخارجية ما أرسلها سلاطين المماليك إلى الملوك والأمراء في الدول الأخرى التي تربطهم بها علاقات مثل الحبشة، والأندلس، والنوبة، واليمن، والهند، والدولة البيزنطية، وغيرها من الدول. أما الهدايا الداخلية فهي التي يقدمها السلطان إلى الأمراء أو العلماء أو القضاة أو لنواب السلطنة خارج مصر في الشام وغيرها، أو إلى أفراد الشعب في بعض المهرجانات والمواكب، والأعياد، والمناسبات الاجتماعية وغيرها.

وتلعب هذه الهدايا دورًا مهمًّا في تمتين العلاقات الخارجية بين الدولة المملوكية والدول الأخرى. وهي مكافأة للهدايا التي كانت تأتي لسلاطين المماليك، فقد وصلت في ٧ رمضان سنة ٦٨٤هـ هدية للسلطان المنصور قلاوون من أحد ملوك الفرنجة مكونة من خمسة سقلاط، وثلاثة عشر أطلس وبندقي [١][٢]. وفي نفس العام وصلت إليه هدية من صاحب اليمن، وكان ذلك في غُرَّة ذي القَعْدة، وهي مكونة من قماش حُمل على مئة قفص[٣]. وحضر في سنة ٨٧٤هـ قاصد نائب جزيرة قبرص ومعه هدايا من ثياب صوفية لسلطان المماليك[٤].

وعندما قدم رسل ملك التتار بركة خان إلى السلطان الملك الظاهر بالقاهرة، جهز مع الرسل القادمين من بركة خان عند عودتهم هدايا؛ من ضمنها سجادات للصلاة متنوعة الألوان وخرق بندقي، وأكسية لواتية[٥].

وبعث السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي مع مرسول حسن بك بخلع وهدايا هائلة،

---

(١) (*) البُندقي: ثوب كتان رفيع، منسوب إلى البندقية، وهو نسيج كتاني أبيض جميل مصنوع في ريمس، إحدى مدن البندقية. الزَّبيدي، تاج العروس، ج٢٥، ١٠٠-١٠١. رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، ٧٩.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ١٢٦.

(٣) المصدر السابق، ج٣١، ١٢٧.

(٤) الصيرفي (علي بن داود الجوهري الصيرفي)، إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق: حسن حبشي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م)، ١٣٧.

(٥) العيني، عقد الجمان، ج١، ٣٦٢.

بعد أن جهزه وجمع له أشياء ثمينة، كما أرسل الأمير يشبك بن مهدي[١] له بهدية عظيمة، ومن ضمن مكوناتها القماش[٢].

وكانوا يقدمون الهدايا للأفراد في الأعياد؛ ففي عيد الشهيد[٣] سنة ٧٣٨هـ قدَّم السلطان الناصر أنواعا كثيرة من الأقمشة هدايا لرعاياه[٤]. وفي الاحتفال بمولد الرسول محمد، ﷺ، سنة ٧٩٠هـ؛ أهدى لعشرين أميرًا كل واحد شقة (قطعة) حرير[٥].

وكان سلاطين المماليك يهتمون بتقديم الهدايا لزوجاتهم عند قدوم مولود جديد؛ ويقدمون في مثل هذه الأفراح كميات كثيرة من الأنسجة.

فعندما وُلد لأحد السلاطين ولدٌ وأقام لذلك فرحا حضره نساء الأمراء، وما منهنَّ إلا أهدى لها السلطان تعبية قماش على قدر رتبة زوجها. وتم تقديم تفاصيل الحرير والمقانع[٦] والخلع. كما

---

(١) يشبك الدواداري: هو يشبك بن مهدي الظاهري جقمق، ويعرف بالصغير. أرسله الظاهر خشقدم كاشفا للصعيد بأسره ونائب الوجه القبلي بكماله إلى أسوان بعد أن كانت هذه النيابة متروكة مدة، وكان ممن قام مع الأشرف قايتباي في السلطنة وشد عزمه لقبولها وهو الرسول منه إلى الظاهر تمربغا يأمره بالتوجه من القصر إلى البحرة، ومن توجه إلى مسك الظاهر تمربغا لما خرج والتوجه به إلى الإسكندرية، ولم يزل على عظمته إلى أن سافر باشا لعسكر هائل إلى حلب، ثم سار للبلاد العراقية فقطع الفرات وتوجه إلى الرها فكانت نهايته القتل في الرها سنة ٨٨٥هـ السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ١٦٠-١٦١.

(٢) الصيرفي، إنباء الهصر، ٥٢.

(٣) عيد الشهيد (فيضان النيل): من الأعياد التي يحتفل بها أقباط مصر في السابع عشر من شهر مايو، ويرتبط الاحتفال بنهر النيل والنصارى يعتقدون أن النيل لا يبلغ زيادته وتمام فيضانه في كل عام إلا إذا ألقوا فيه تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى، ويحتشد أهل البلاد على ضفتي نهر النيل وينصبون أعدادا من الخيام ويكثرون من اللهو وشرب الخمر، والاستمتاع بالغناء والطرب، ولم يكن هذا العيد يخص ديانة أو عقيدة معينة رغم ارتباطه بإلقاء التابوت كما سبق، وإنما كان احتفالا شعبيا لجميع طبقات الشعب المصري، واستمر الحال في بعض العصور الإسلامية، وكانت تلقى فيه آيات قرآنية. المقريزي، الخطط، ج١، ١١٠.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٥٢.

(٥) ابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م)، ج١، ٢٧٩.

(٦) المقانع: مفردها مقنع- ويقال مقنعة أيضا، وهي ما تغطي به المرأة رأسها. وتكون أضيق من القناع. أو هو منديل يضعه الرجال والنساء فوق الرأس. أو هو النصيف الذي تضعه النساء فوق وجوههن. ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ٣٧٥٥. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٥٩.

قدَّم الأمير تنكز[١] والد زوجة السلطان في هذه المناسبة، مقنعة وطرحة بسبعة آلاف دينار. وقام السلطان بتزيين البيت الخشبي المصنوع للزوجة للوقاية من البرد بثوب من حرير أطلس ورديّ[٢].

وفي جمادى الأولى سنة ٧٣٩هـ لما قَرُب وضع حمل ابنة الأمير تنكز نائب الشام والتي هي زوجة السلطان الناصر محمد، أمر السلطان بعمل بيت خشبي، وتزيينه بالحرير المخمل وزركشته بمئة ألف دينار، وأمر بتجهيز خمسين تشريفًا للأمراء، منها ثلاثة وعشرون تشريفًا أطلس بحوائص[٣] ذهب كاملة[٤].

حتى المغنيات كانت تُقدَّم لهنَّ الهدايا من السلاطين. فقد قدَّم السلطان الناصر هدية إلى إحدى المغنيات التي قدمت معه من دمشق، ثلاث بدلات زركش، وثلاثين تعبية قماش، وأربع بدلات مقانع[٥].

وحظيت نساء الأمراء، وأرباب الوظائف، وأكابر الأمراء من الهدايا التي كان يقدمها لهنَّ سلاطين المماليك، فقد تم تقديم هدايا مكونة من تعبية قماش لكل واحدة من أحد السلاطين، وذلك كلٌّ على حسب منزلة زوجها في الدولة[٦].

ومن ضمن الهدايا التي قدمت إلى الحرَّة بنت السلطان أبي الحسن عليّ بن عثمان بن

---

(١) تنكز: هو الأمير سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي الناصري نائب الشام، كان أصله من مماليك المنصور حسام الدين لاجين، فلما قتل صار من خاصكية الناصر، ولما تولى الناصر للمرة الثالثة رقاه حتى ولاه نيابة الشام، وكانت نهايته القتل سنة ٧٤١هـ على يد السلطان الناصر. المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٣٢. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ١٣٩.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٣٢-٤٣٣.

(٣) حوائص: مفردها الحياصة، ولها سوق يعرف بسوق الحوائصيين، وكان يعلق عليها من جهة اليمين خنجر وحقيبة من الجلد(صولق) لوضع المال بداخلها، كما يثبت في المنطق منديل، وفي جهة اليسار يشد عليها السيف. عبد المنعم ماجد، نظم المماليك، ج٢، ٧٤.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ق٢، ٤٦٠.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٦٢.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٣٤٦.

يعقوب المريني صاحب فاس، عندما قدمت للحج مرورًا بمصر، أهدى لها السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ١٢ رمضان سنة ٧٣٨هـ ست مئة كساء، وغير ذلك من القماش الغالي، وحُمل إليها من الكسوة ما يجلُّ قدره، كما أُعطي الذين معها هدايا من القماش[١].

وكان المماليك يتبادلون الهدايا مع ملوك اليمن، وهذه الهدايا معظمها قماش وثياب؛ ففي سنة ٨١٩هـ وصلت هدية من ملك اليمن[٢] إلى السلطان الظاهر برقوق، وهي شاشات، وأزر، وتفاصيل حرير[٣].

كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون يتبادل الهدايا مع ملك مالي، وهو منسا موسى. فقد كان الأخير قد قدَّم هدية إلى الناصر محمد في سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م، قُدِّرت بحوالي خمسين ألف دينار[٤]، ولا غرو في ذلك؛ لأن مالي كانت غنية بالذهب. وقد ألبس محمد بن قلاوون ملك مالي خلعة وقلَّده تقليدًا من قِبله[٥].

ومن الهدايا المتبادلة بين المماليك والدول الأخرى؛ أنه في سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م أرسل صاحب تونس إلى السلطان هدية فأكرم السلطان وفادتهم[٦]. وفي سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م وصلت هدية من أبي يعقوب المريني[٧] صاحب مراكش، وفيها الخيول العربية والجمال والقماش، وجملة كبيرة

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ق٢، ٤٤٨.

(٢) ملك اليمن: هو الملك الناصر أحمد بن إسماعيل بن العباس بن علي بن داود بن يحيى بن عمر بن رسول، حكم سنة ٨٠٣هـ بعد وفاة والده الملك الأشرف، وكان من شِرار ملوك اليمن، وتوفي سنة ٨٢٧هـ وهو السلطان الثامن من دولة بني رسول. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ٢٤٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ٣٤٤.

(٤) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ٣٧٥.

(٥) ابن أيبك، كنز الدرر، ج٩، ٣١٧.

(٦) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ١٧٤-١٧٥.

(٧) أبو يعقوب المريني: هو عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، السلطان أبو سعيد المريني المغربي، صاحب مراكش وفاس وغير ذلك. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ٤٣٠.

من الذهب على سبيل الأمداد والهدايا[١]، وتكررت هدية المريني في سنة ٧٠٤هـ[٢].

ففي العشر الأول من شعبان سنة ٧٠٥هـ أرسل الملك الناصر محمد هدية إلى الملك الريدارغون[٣] صاحب برجلونة (برشلونة)[٤].

وفي سنة ٨٠٤هـ أرسل السلطان فرج بن برقوق هدية إلى تيمور[٥] الملك المغولي، وكانت غالية الثمن، وأرسل تيمور هدية مقابل ذلك للسلطان فرج بن برقوق[٦].

ومن ضمن الهدايا والعطايا أن السلطان قانصوة الغوري أهدى إلى الشريف بركات[٧] في يوم الجمعة ثاني رجب سنة ٩٢١هـ ست بقج ضمنها صوف وسمور[٨] ووشق وسنجاب وبعلبكي وتفاصيل حرير سكندري وأبراد منزلاوي وشقق ذهب وأثواب مخمل ملوَّن وأثواب برصاوي مذهَّب بقصب، فأرسل إليه من كل صنف من هذه الأصناف عشر قطع، وأرسل إليه

---

(١) بيبرس الدوادار، زبدة الفكر، ٤٣٠.

(٢) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج٢، ٢٥٣. ابن خلدون، العبر، ج٥، ٤٢١. أبو الفداء، المختصر، ج٤، ٥٣.

(٣) الريدارغون: لقب يلقب به الملوك غير المسلمين، وهو حاكم برشلونة من بلاد الأندلس. النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ٤٢١. محاسن الوقاد، مصر في العصر المملوكي دراسة حضارية، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م)، ٨٢.

(٤) محاسن الوقاد، مصر في العصر المملوكي، ٨١-٨٢.

(٥) تيمور: هو تمرلنك وقيل تيمور؛ كلاهما بمعنى واحد، بن أيتمش قلنغ بن زلكي بن سنيا طارم طربن طغريل بن قليج ابن سنقور بن كنجك المغولي الأصل التركي، ولد سنة ٧٢٨هـ بقرية خواجا، إحدى مدائن ما وراء النهر، وكان والده إسكافا، وقيل كان أميرا عند السلطان حسين صاحب مدينة بلخ. وسمي تمرلنك؛ لأنه كان أعرج وهي كلمة أعجمية، مات سنة ٨٠٧هـ. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ٢٥٤-٢٥٧، ٢٧٠.

(٦) أنور زقلمة، المماليك في مصر، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ٦٣.

(٧) الشريف بركات: هو بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي محمد بن أبي حسن بن علي بن أبي عزيز بن قتادة الحسني الهاشمي، ولد سنة ٨٦١هـ في مكة، وتوفي فيها سنة ٩٣٠هـ وعمره إحدى وسبعون سنة. أيمن سعد النفجان، صحيفة الرياض الإلكترونية، ع١٤١٣٧٦، (تاريخ وحضارة)، الجمعة ١٩ صفر ١٤٢٨هـ/ ٩ مارس ٢٠٠٧م.

(٨) سمور: ضرب من الفراء يتخذ من حيوان بري يشبه السِّنَّوْر، يُتخذ من جلده فراء ثمين، يتميز بلينه وخفته، وإدفائه، وحسنه. رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، (القاهرة: دار الآفاق، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م)، ٢٤٠-٢٤١.

صنجقين(سنجقين)[١] سلطاني بطلعتين فولاذ، أحدهما حرير أصفر مرقوم بالذهب وآخر حرير أصفر برسم الأسفار، وأرسل إليه محفة[٢] بغشي جوخ أصفر[٣].

وكانت الدولة تخصص ميزانية خاصة للهدايا ضمن المصاريف العامة للدولة، وقد صرفت كافة الأموال التي جمعتها الدولة في قطاعات متنوعة، كما خرجت منها الهدايا والمنح لمختلف الجهات والشخصيات[٤].

٤- التقدمات والإنعامات:

كانت التقدمات والإنعامات تتكون من ثياب حرير، وثياب صوف، وثياب بعلبكي[٥]، وفرو سمور[٦]. وقد أنعم السلطان الناصر محمد على الأمير بيدمر[٧] مجموعة أشياء فاخرة من ضمنها خمسون بقجة فيها الثياب الصوف، والفوط والثياب القطنية من النصافي والبعلبكي وغير ذلك[٨].

---

(١) السنجق: جمعها سناجق، وذكرها ابن إياس بالصاد (صناجق)، وهي كلمة تركية تعني اللواء، وهو علم صغير يوضع في رأس الرمح، وكان يسير معه السناجق، الذين يحملون راياتٍ صغارًا. عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ٥١.

(٢) المحفة: هي محمل على أعلاه قبة، وله أربعة سواعد أمامية وخلفية، تكون مغطاة بالصوف (الجوخ) أو الحرير، وتحمل على بغلين أو بعيرين. عبد المنعم ماجد، نظم المماليك، ٩٦.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ١٣٤٣-١٣٤٤.

(٤) أحمد عدوان، مرجع سابق، ٤٢٦.

(٥) بعلبكي: نوع من الأقمشة القطنية البيضاء المشهور بالجودة والحسن، يُنسب إلى مدينة بعلبك. رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، ٧١.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٤، ق٣، ١١٥٧.

(٧) بيدمر: هو الأمير بيدمر البدري أحد المماليك الناصرية، وتنقل حتى صار من الأمراء في آخر دولة الناصر، وولي نيابة طرابلس مدة يسيرة في عهد الكامل شعبان، ثم ولي نيابة حلب في عهد المظفر حاجي، وقتل سنة ٧٤٨هـ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ٥٦.

(٨) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٣٧٩.

وفي سنة ٦٨٩هـ أنعم الملك الأشرف على القاضي تاج الدين بالكثير من الأقمشة والأموال[١].

وفي سنة ٧٨٧هـ ألبس السلطان برقوق المقدم عُبيد البازدار زيّ الأجناد من الكلفتاه[٢] والقباء[٣]. وأنعم السلطان فرج بن برقوق سنة ٨٠٨هـ على الأمير بن غراب[٤]، بتقدمة ألف ولبس الكلفتة، وترك زي الكتاب[٥].

وذكر ابن إياس أنه قد صحبت الخليفة المستمسك بالله يعقوب والد المتوكل على الله محمد في سنة ٩١٧هـ، تقدمة إلى السلطان قانصوة الغوري في مصر، ومن جملتها خيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون صفة أشجار مزهرة وعليها أطيار، ومن جملة التقدمة خركاه[٦] خشب لها غشي جوخ أزرق مقصص، ولها أطناب وعراوي حرير أحمر، وقد أمر السلطان بنصبهما في الحوش للفرجة[٧].

ويذكر المقريزي أن أحد سلاطين المماليك قد فرّق أيام دولته الأقبية الحرير بالطرز والزركش[٨]. 'وفي سنة ٦٦٣هـ قدّم السلطان الظاهر للأمير قلاوون تقدمة من خيل وتعابي قماش، وقدّم لثلاثة من أمراء السلطان ثلاث بقج قماش'[٩].

---

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١، ٢١٧.

(٢) الكلفتاة أو الكلفة أو الكلفتة: هي كلوتة، وهي غطاء الرأس على شكل طاقية صغيرة، تلبس وحدها أو بعمامة. المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، حاشية٢، ٥٣٥. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٥١.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ٥٣٥.

(٤) ابن غراب: هو سعد الدين بن غراب، رقاه السلطان الناصر فرج بن برقوق رأس مشورة، وامرة مئة وتقدمة ألف، وقد مرض ومات ولم يركب بعدها إلى القلعة. المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ٩.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ٩.

(٦) خركاه: جمعها خركاوات وهي لفظ فارسي بمعنى الخيمة الكبيرة، أو البيت من الخشب، يصنع على هيئة مخصوصة ويغشى بالجوخ وغيره، ويحمل في السفر للمبيت. محمد دهمان، مرجع سابق، ٦٧.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ١١٧٧.

(٨) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ٢٧٩.

(٩) العيني، عقد الجمان، ج١، ٤٢٧.

٥-الكساوي:

عُني سلاطين المماليك بالكساوي التي توزع على أصناف عديدة من الناس الذين يعدُّون من ذوي الأهمية بالنسبة لسلاطين المماليك.

والكسوة على أنواع كالثياب المذهبة والنخ[١] المنقوش، والنخ المعتبة، والمعتب الساذج، والمناديل المذهبة، والأطلس المذهب، والأطلس الساذج، والمناديل المقصبة، والمخمل المذهب والساذج والملون، والثياب البندقي بالحواشي العراض ودون ذلك، والسذج والثياب المموش، والثياب الصيني، والثياب المنقوش، والثياب السابوري، والثياب المجرح، والأطلس المقرن، والثياب المحررة، والطروحات المحررة، والسذج والثياب الأصفهاني، والبغدادي[٢]، والبعلبكي، والبطاين وصنف الفراء من السمور والوشق والقاقم[٣] والسنجاب[٤] وغيرها[٥].

وكانت الكسوة توزع من ديوان الخاص لمستحقيها، فقد كانت كساوي المماليك السلطانية والأعيان منهم ومن له اسم كسوة بديوان الخاص فهم طبقات ولكل واحد منهم شيء متعين من صوف وسنجاب وبعلبكي[٦].

والكسوة شيء أساسي عند المماليك، فعندما تتأخر يشتكي المماليك إلى السلطان تأخرها،

---

(١) النخ: جمعها نخاخ، وهو البساط الطويل. المعجم الوسيط، ج٢، ٩٠٨. يكون طوله أكثر من عرضه. محمد دهمان، مرجع سابق، ١٥١. وهو نوع من النسيج الثمين كان يصنع في تبريز، ويمتاز بالرقة. إبراهيم علي محمد عمر، ديوان الخاص السلطاني زمن الناصر محمد بن قلاوون، مجلة العصور، مج٤، ج٢، ١٩٨٩م، ٣١٣.

(٢) البغدادي: قماش حرير غالي الثمن، ينسب إلى بغداد، مزيَّن عادةً بالصور، وموشى غالبا بالذهب، ويكون كذلك مزخرفا بأشكال وصور حيوانات وطيور وبخيوط من الفضة والذهب. رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، ٧١.

(٣) قاقم: حيوان رقيق ومرن، ويشبه الفأرة، والقاقم له فروٌ بُنيٌّ محمر أعلاه، وأبيض أدناه. وكذلك له فروة تكون ناصعة البياض في الشتاء، ولذا يكثر صيده في ذلك الفصل لفروته التي تستعمل للزينة عند الأغنياء. إبراهيم علي محمد عمر، مرجع سابق، ٣١٩.

(٤) السنجاب: حيوان شعره في غاية النعومة، ويتخذ من جلوده الفراء يلبسها المتنعمون صيفا؛ لأنه يبرد بخلاف سائر الفراء. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، في الحيوان والنبات والمعادن، ط٢، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٦م)، ٧٠.

(٥) إبراهيم علي محمد عمر، ديوان الخاص السلطاني زمن الناصر محمد بن قلاوون، مجلة العصور، مج٤، ج٢، ١٩٨٩م، ٣١٩.

(٦) المرجع السابق، ٣١٩.

ففي عهد الناصر محمد بن قلاوون، شكا المماليك السلطانية من تأخُّر كسوتهم، فطلب السلطان النشوَ[١] ناظرَ الخاصة وألزمه بحمل كسوتهم من الغد، فأمر التجار بفتح حوانيتهم، وأخذ الكسوة إلى المماليك[٢]. وهذا دلالة على أن الكسوة في عصر المماليك من الأمور الأساسية التي لا يجب تأخيرها عن موعدها.

ومن جهات النفقة التي كان يهتم بها سلاطين المماليك الكسوات؛ حيث لها ميزانية من ديوان الخاص ويتم توزيعها. وقد كانوا يأخذون مصروفات الكسوة الخاصة بالسلطان من ديوان الخاص[٣]، وكانت تشمل في كثير من الأحيان ملابسهم[٤]، وكان الجند في ذلك العصر يلبسون على رؤوسهم الكلوتات[٥] الصفر بغير عمائم، وفي عهد السلطان خليل ابن قلاوون[٦] تغير لونها من الصفرة إلى الحمرة[٧]، كذلك كانوا يرتدون البيضاء المصنوعة من

(١) النشو: هو شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله المعروف بالنشو. ناظر الخاص السلطاني في زمن الناصر محمد بن قلاوون، وكان ظالما، صادر وقتل كثيرا من الناس، قبض عليه الناصر وعاقبه، وتوفي تحت العقوبة سنة ٧٤٠هـ المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٥٠٥. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ١٣١، ٣٢٣.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤١٣.

(٣) ابن شاهين، المختصر، ورقة ١٤٢. انظر: إبراهيم علي محمد عمر، ديوان الخاص، ٣١٧.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤١٣.

(٥) الكلوتات: مفردها كلوتة، وتجمع أحيانا على كلاوت، وهي نوع من الطواقي يرتديها البحارة، وكلوتة الخليفة على درجة عالية من الصنعة والقيمة غير التي يرتديها البحارة وغيرهم من الطبقة الوسطى. المقريزي، الخطط، ج١، ٤٧٢. عبد المنعم سلطان، المجتمع المصري، ٢٩٠. وهي غطاء للرأس والجمع كلوتات، وهي طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة. وتسمى أيضا كلفة وكلفتاة وكلفتة، وكان من الرسم في الدولة التركية أن السلطان والأمراء وسائر العسكر يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريبا عريضًا، ولها كلاليب بغير عمامة فوقها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٣٩. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٥١.

(٦) خليل بن قلاوون: هو السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، تولى بعد والده سنة ٦٨٩هـ وكانت نهايته القتل سنة ٦٩٣هـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ٢٨٨.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٣٩-٤٠.

القطن البعلبكي وهي زرقاء أو حمراء[١].

وكان سلاطين المماليك في المواكب يوزعون الكساوي والقمصان على أفراد الشعب بالمناطق التي يمرون بها، ومن ذلك أن أحد السلاطين مرَّ على بعض المناطق في ٢٣ محرم سنة ٨٧٥هـ ووزع كثيرا من الشقق والكسوات والقمصان والشقادف[٢]. وفي ١٢ رمضان سنة ٨٧٥هـ تم توزيع الكسوة على المماليك السلطانية[٣].

٦- كثرة الثروة وترف السلاطين:

كانت الثروة المتدفقة في عصر المماليك من أهم العوامل التي أسهمت في رقي وازدهار صناعة النسيج في العصر المملوكي، والمعروف أن الصانع يحاول دائمًا أن يرقى بإنتاجه إذا اطمأن إلى أنه سيجني في النهاية ثمن أتعابه ويتقاضى أجرًا يناسب ما يبذله من وقت وجهد. ومن ناحية أخرى فإن المستهلك إذا عظمت ثروته وفاضت عن مطالبه الأساسية؛ فإنه يفكر في اقتناء الكماليات ولا يهتم بالمال فيبذله في شراء التحف والحصول على النفائس والمقتنيات[٤]. وهذا أسهم في جعل صناعة النسيج في العصر المملوكي تبلغ شأنا عظيما من الدقة والإتقان. وازدادت صناعة النسيج ازدهارا في عصر السلطان قلاوون وبنيه بسبب الرخاء الاقتصادي الذي تمتعت به مصر خلال ذلك العهد[٥].

ويعد الترف الذي شمل غالبية سلاطين المماليك، واهتمامهم وولعهم بالأنسجة والملبوسات، من العوامل التي ساعدت على ازدهار هذه الصناعة ورواجها، وبدا واضحًا في ملبوساتهم المختلفة سواء في المناسبات المتنوعة، أو ما خلَّفوه من تركات.

(١) المقريزي، الخطط، ج٣، ٩٨.

(٢) الصيرفي، إنباء الهصر، ١٦٩.

(٣) المصدر السابق، ٢٥٤-٢٥٥.

(٤) سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٢٨٨.

(٥) محمد حمزة إسماعيل الحداد، السلطان المنصور قلاوون، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ٧٤.

ولقد أسرف المماليك إسرافًا كبيرًا في استخدام الفرش في قصورهم، وإعداد الثياب الغالية من أجود الأنواع صيفًا وشتاءً[١]، وقد اتصلت فصول السنة بتغيير الزيّ السلطاني رسميًّا. ففي أول الصيف يرتدي السلطان ملابسه البيضاء، ويفتتح موسم لعبة الكرة[٢] والصولجان[٣]. وابتداءً من فصل الشتاء يرتدي السلطان ملابسه الصوفية[٤] وعمامة بيضاء في فصل الشتاء، تعبيرًا عن قوّته وشدة بأسه[٥].

وكانت هناك مظاهر عديدة لترف المماليك في الملابس، والتفنن في صناعتها، فلقد أبدل السلاطين ملابسهم ثلاث مرات في اليوم الواحد، وكان الرداء الذي يخلعه السلطان لا يلبسه مرة ثانية مطلقًا، وإنما توضع الملابس المخلوعة في مكان خاص، حتى ينعم بها على أمرائه وخاصته، هذا بالنسبة لملابسه الشخصية[٦]. وكانت لكل طائفة من الناس ثيابها التي اختصت بلبسها حتى أصبحت هذه الثياب من المعالم المميزة لها.

مما جعل سلاطين المماليك يخصصون ميزانية من ديوان الخاص للإنفاق على الملابس والثياب وكل ما يختص بالأنسجة بكافة أنواعها. فقد ظهرت مصروفات ديوان الخاص

---

(١) محمد المنسي عاصي، إسراف سلاطين المماليك، دراسة في المظاهر والنتائج، (الإسكندرية: دار الكتاب الجامعي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ٣٧.

(٢) لعب الكرة: كان سلاطين المماليك يحرصون على هذه الرياضة، ويخرجون لقضاء الوقت فيها، ثم الإنعام على من معهم بعد الانتهاء منها. نبيل محمد عبد العزيز أحمد، الملاعيب في عصر سلاطين المماليك، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية،٢٠٠٢م)، ١٠.

(٣) الصولجان: الجوكان أو المحجن الذي تضرب به الكرة، وهو لفظ فارسي معرب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ٤٥٨. نبيل محمد عبد العزيز، مرجع سابق، ١٠.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٢، ٢٤٠.

(٥) قصي الحسين، في الحضارة العربية حتى العصرين المملوكي والعثماني، (طرابلس: لبنان: المؤسسة الحديثة للكتابة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ، ٢٢٨.

(٦) محمد المنسي عاصي، مرجع سابق، ٣٧.

السلطاني في إقامة برق(البرك)[١] المتزوجين من الأدر[٢]، وفي كثير من الأحيان بلغت تكاليف إعداد الشّوّار[٣] بضعة الآف من الدنانير، فقد كانت تكاليف البشخاناة[٤] فقط ثمان مئة ألف دينار[٥].

وقد أمعن سلاطين المماليك في لبس الفاخر من الثياب، وكان الرداء الذي يخلعه السلطان لا يلبسه مرة ثانية مطلقًا، وإنما توضع الملابس المخلوعة في مكان خاص حتى ينعم بها على أمرائه وخاصته، وقد وجد في تركة النشو؛ أربع مئة بدلة قماش جدد، وثمانون بدلة مستعملة، وزراكش ومفرّجات كثيرة، وستون بغلطاق[٦] نسائي مزركش، ومناديل زركش كثيرة. وعدة صناديق بها قماش سكندري وكثير من قماش الأمراء الذين ماتوا والذين قبض عليهم، وكان ذلك في يوم الاثنين شهر صفر سنة ٧٤٠هـ[٧]، وقد خرج مع السلطان إلى الحجاز، وكان يضاهي السلطان في التجمل في اللبس، وكان ثقله وجماله نظير ما للسلطان، ولكن السلطان يزيد عليه بالزركش وآلات الذهب، وقد وجد في خزينته بعد موته مئة تشريفة، منها ما هو أطلس

---

(١) البرق أو البرك: المتاع الخاص من الثياب والقماش. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، حاشية٢، ج١١، ٥٤.

(٢) الأدر: الحريم السلطاني. ابن شاهين، المختصر، ورقة ٤٣؛ انظر: إبراهيم علي محمد عمر، ديوان الخاص السلطاني زمن الناصر محمد بن قلاوون، مجلة العصور، مج٤، ج٢، ١٩٨٩م، ٣١٢.

(٣) الشوار: متاع البيت، ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ٢٣٥٧. جهاز العروس، كل ما يخص العروس من أثاث كامل للمنزل بالإضافة إلى الحلي والملابس وأدوات التجميل. فايزة الوكيل، مرجع سابق، ٤٣.

(٤) البشخانة: كلمة فارسية معربة ومركبة من بشه ومعناها البعوض، وخانه وتعني البيت، وهي ما يطلق عليه اليوم بالناموسية المزركشة أو داير السرير، أي الحلية التي توضع فوق السرير؛ وقد تكون حول الغرفة كلها. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٣٩٦.رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، ٦٦.

(٥) إبراهيم محمد عمر، ديوان الخاص، ٣١٢.

(٦) بغلطاق: أو البغلوطاق: كلمة فارسية معربة، مركبة من بغل بمعنى إبط أو صدر، وطاق بمعنى ثياب، ومعناها قباء بلا أكمام أو بأكمام قصيرة جدا يلبس تحت الفرجية. وكان يصنع من القطن البعلبكي الأبيض أو من السنجاب. سعيد عاشور، العصر المماليكي، رجب عبد الجواد إبراهيم، مرجع سابق، ٤٠٥. ٧٢.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤٨٢.

بطرز زركش ومنها ما هو دون ذلك من خلع أرباب السيوف والأقلام[١].

وفي يوم الجمعة سنة ٨٧٦هـ قَدَّم المقر الأشرف الزيني أبو بكر ابن المقر الزيني عبد الباسط للسلطان؛ مئة ثوب بعلبكي، ومن الشقق الحريرية مئة شقة، ومن المخمل الكفوي والصوف والسنجاب والوشق والشواشي شيئا كثيرا[٢].

وكانت الخوند[٣] فاطمة بنت السلطان الظاهر ططر، وهي زوج السلطان الأشرف برسباي تملك كثيرا من أجمل وأفخر الثياب والقماش[٤].

كما كانت نساء سلاطين المماليك، ورجال الدولة يكثرون ويسرفون في لبس ثياب الحرير[٥]. وكان من القضاة من يهتم بالقماش والثياب، فقد كان القاضي عبد الرحيم البارزي[٦] يلبس أحسن الثياب الفاخرة الزاهرة، وينعم بها على من يقصده، وكانت له عمامة مصفوفة بالذهب[٧].

وقد أسرف سلاطين المماليك وكبار الأمراء إسرافًا يسترعي الانتباه على النساء، ولم يبخلوا عليهن بارتداء أفخم الملابس[٨].

---

(١) المقريزي،الخطط، ج٤، ٢٩٧.

(٢) الصيرفي، انباء الهصر، ٣٣٥.

(٣) الخوند: استعملت في العربية بمعنى السيد أو السيدة، وأصلها كلمة فارسية بمعنى السيد العظيم أو الأمير. محمد دهمان، مرجع سابق، ٧٠.

(٤) الصيرفي، إنباء الهصر، ١٦٨-١٦٩.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ٧٨٥.

(٦) عبد الرحيم البارزي: هو عبد الرحيم بن الأمير شهاب الدين أحمد بن القاضي ناصر الدين محمد بن كمال الدين محمد المشهور بابن البارزي الجهني الشافعي، الحموي الأصل، ولد في مصر في حياة جدّه، وتولى تربيته عمُّه القاضي كمال الدين الذي تزوج والدته بعد وفاة والده، وأصبح من الأكابر والأعيان، وكان هو المتكلم عن عمه في كتابة السر الشريف بالقاهرة وغيرها في جميع الأمور، توفي سنة ٨٧٤هـ وعمره جاوز الخمسين، الصيرفي، إنباء الهصر، ١٧١-١٧٢.

(٧) المصدر السابق، ١٧١.

(٨) محمد المنسي عاصي، مرجع سابق، ٧٣.

وحتى في ذهاب سلاطين المماليك للحج يستخدمون كميات كبيرة من الأقمشة، فعندما طلب السلطان الأشرف شعبان (٧٦٤هـ-٧٧٨هـ) تجهيزات الحج كان من ضمنها عشرون نوبة بقماش زركش، وخمس عشرة نوبة بقماش حرير ملوّن[١].

ومن ضمن الترف في الملابس والزي أنه في سنة ٧٤٦هـ صنع السلطان الكامل شعبان داير (بيت حرير) به من الزركش نحوٌ من أربعين ألف مثقال[٢] من الذهب[٣]. وفي سنة ٧٣٧هـ فتحت قيسارية جهاركس[٤] وأخذ منها مقاطع الشرب برسم الكسوة بكميات عديدة[٥]. وفي نفس العام ألزم حُرَّاس الحمامات بعمل فوط سابغة طويلة[٦].

ومما يدل على ترف سلاطين المماليك في الملابس والزي؛ أنه قد بيعت ملوطتان[٧] قطن قد لبستا وغسلتا بألفين ومئتين وأربعين درهما[٨]. وفي سنة ٧٧٨هـ وعندما عزم السلطان المنصور علي بن شعبان السفر للحج طلب طلبية كبيرة جاء فيها؛ الحرير الذهب ما لا يقدر وصفه،

---

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٢٨٩.

(٢) مثقال: الجمع مثاقيل: من وحدات الوزن، يُستخدم للذهب والأحجار الكريمة، ويختلف المثقال لوزن الذهب فيُساوي ٧٢ حبة أي ٤,٢٤جرام، ومثقال الأشياء الأخرى يساوي٨٠ حبة أي ٤,٥ جرام. زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، (القاهرة: دار الكتاب الحديث، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)، ٤٧١.

(٣) ابن شاهين (زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري الحنفي)، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، صيدا- بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ق١، ج١، ١١٧.

(٤) قيسارية جهاركس: بناها الأمير فخر الدين جهاركس سنة ٥٩٢هـ، وكان يعرف مكانها من قبل بفندق الفراخ، واشتُريت لشجرة الدر سنة ٦٤٥هـ، ثم ارتجعت للديوان سنة ٦٥٥هـ ابن عبد الظاهر (أبو الفضل عبد الله)، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد السيد، القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٦م، ٢٣-٢٤.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ٤١٤.

(٦) المصدر السابق ، ج٢، ق٢، ٤١٥.

(٧) ملوطة: جمعها ملاليط، وهي قباء واسع الكمين طويلهما يلبس فوق الفرجية، وكانت تصنع أحيانا من الحرير الخالص أو الكتان الرقيق، وكانت لباسا قوميا في عصر المماليك. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٦٠.

(٨) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٣، ١١٧٠.

وعشرون قطارًا من الرواحل بقماش من ذهب أكوارها وعرقياتها وحطمها[1] ومياثرها حرير مزركش. وقطار من الرواحل بعجي حرير، وقطار رواحل قماشها خليفتي أسود، وقطار رواحل قماشها أبيض برسم الإحرام، وهودجان وتسع محفات أغشية، والهودجان مع خمس محفات حرير كله زركش غطس وأربع محفات دون، وستة عشر جملا محاير بأغشية الحرير[2].

ووجد للأمير تنكز سنة ٧٤١هـ مئتا منديل زركش، وثمانية وستون بقجة بها بدلات ثياب زركش، وألفا ثوب أطلس ومئتا تخفيفة زركش، ووجد له من الثياب الصوف النصافي ما لا ينحصر[3]. وقال آخر: اشتملت تركته على خمس مئة بقجة من القماش الصوف، ووجد عنده من الطراز الزركش والحوائص الذهب والخلع الأطلس مئة وخمسون بقجة، ووجد عنده من الفرش وغيرها ما حُمل على مئة وخمسين جملا[4].

ولو كان هناك اختلاف بين المصدرين في الأعداد بزيادة أو نقص، لكنهما يتفقان في كثرة ما احتوت عليه تركة تنكز من قماش وغيره ، وهذا شاهد على ما بلغه عصرُ المماليك من الترف وتعدد أنواع الأقمشة التي كانت تمثل ثروة كغيرها من المقتنيات.

أما تركة الأمير سيف الدين سلار فقد شملت: ثلاث مئة قباء حرير بفرو قاقم، وثلاث مئة قباء حرير سنجاب، وأربع مئة قباء بغير فرو، وألف تفصيلة ما بين طرد وحش[5] وعَمَل

(١) الحطم: يقصد بها العريضة أو الدروع أو الكسوة. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، هامش٣، ٢٧٢. ابن منظور، لسان العرب، ج٢، ٩١٦.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ٢٧٢-٢٧٣.

(٣) المصدر السابق ، ج٢، ق٢، ٥٠٧-٥٠٨.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٢١٥.

(٥) طرد وحش: أقمشة ورداء خاص بالصيد ومطاردة الوحوش. ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار،ج٣، هامش٢، ٤٦٨. نوع من قماش حرير منقوش بمناظر الصيد والطرد، وكانت تصنع منه بعض الخلع السلطانية. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٣٩. دوزي، مرجع سابق، ج٧، ٣٥.

الدار(١). وثلاث مئة خلعة ملوَّنة وخركاه بغشا حرير أحمر معدني مبطن بحرير أزرق مَرَوِيّ(٢)(٣).

وقد خلَّف الأمير بكتمر(٤) عند وفاته من الأموال، والقماش، والأمتعة، والأصناف ما يزيد على العادة، ويستحي معه العاقل أن يذكره، وقد استمر البيع في تركته عدة شهور، ومن بينها الوبر والأطلس وأنواع القماش السكندري، والبغدادي وغير ذلك شيء كثير(٥)، بلغ عددها خمس مئة تشريفة ما بين خلع أطلس ومثمرات وكوامل(٦) وغير ذلك(٧).

وخلف الأمير خاير بك الخازندار بعد وفاته سنة ٩١٨هـ؛ ألف ثوب بعلبكي، ومن الأثواب الصوف والأبدان السمور والوشق والسنجاب والقطع الجوخ وثياب البدن من سلازيات وجنينيات جوخ وغير ذلك ما قُوِّم بخمسين ألف دينار، وظهر عنده بشاخين زركش وأشياء من ثياب النساء ما لا يحصى(٨).

وفي سنة ٩٢١هـأخرج السلطان الغوري من تركت الخوندات والستات(٩)، ما بين قماش وبشاخين زركش، وشاشات وأزر، وأثواب بعلبكي، وأثواب صوف قبرصي فقوَّم ذلك

---

(١) دار: يقصد بها دار الطراز التي شملت عدة مصانع لنسيج الملابس السلطانية بتنيس ودمياط والإسكندرية، أو دار الديباج بالقاهرة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ٧٤٢، ٤٩٠. المقريزي، الخطط، ج١، ١٠٦-١٨١، ٤٦٤. محمد زكي حسن، كنوز الفاطميين، ٣٥، ١١١.

(٢) (*) مَرَوِيّ: هو الحرير المصنوع بمدينة مَرْو عاصمة خراسان، وكان يطلق على جميع الأقمشة الخراسانية. دوزي، مرجع سابق، ج١٠، ٥٠.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ١٧٢.

(٤) بكتمر: هو الأمير سيف الدين بكتمر بن عبد الله الركني الساقي الناصري . مات في طريق الحجاز سنة ٧٣٣هـ. المقريزي، الخطط، ج٤، ٢٧٩. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ٣٠٠. ابن حبيب، تذكرة التنبيه، ج٢، ٢٢١.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٤، ٢٧٩.

(٦) كوامل: مفردها كاملية، وهي نوع من الملابس الخارجية كالعباءة. المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، هامش١، ٦٨. ولعله مما أحدثه الملك الكامل الأيوبي. محمد دهمان، مرجع سابق، ١٢٨. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٤٩.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٢٠٩.

(٨) المصدر السابق، ج٢، ١٣٠٣.

(٩) الخوندات والستات: ويقصد بهم نساء القصر اللاتي مِتْنَ واستولى السلطان على تركاتهنَّ الثمينة المختلفة.

بخمسين ألف دينار(١).

وعندما توفي أبو بكر بن المقر المرحومي الزيني(٢) ترك قماشًا كثيرًا، وهي أقمشة فائقة فاخرة، وقماش صوف مسنجب وسمور، وأربع مئة قطعة من البياض والحرير وغيرها وذلك سنة ٨٨٦هـ(٣).

وشملت موجودات الصاحب علاء الدين بن زنبور(٤)، قماشا ملوّنا ما بين صوف وحرير ألفين وست مئة قطعة، وحواصل فيها شاشات عددها ثلاث مئة ألف شاش، وستة آلاف كلوتات(٥).

٧- اهتمام المماليك بالزي والملابس:

ولاهتمام المماليك بالزي والملابس دور كبير فيما وصلت إليه هذه الصناعة من ازدهار ورقي. فقد تولعوا بالأقمشة الملونة من الديباج والحرير والصوف والسمور، وكان في خدمة السلطان قايتباي سنة ٨٧٦هـشخص يسمى ابن الصناج دواداره(٦) يلبس كل بدلة بمئة

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ١٣٣٣.

(٢) هو المقر المرحوم الزيني أبو بكر ابن المقر المرحومي الزيني عبد الباسط بن خليل الشافعي، مات سنة ٨٨٦هـ الصيرفي، إنباء الهصر، ٥٠٩-٥١٠.

(٣) المصدر السابق، ٥٠٩-٥١٠.

(٤) علم الدين بن زنبور: هو عبد الله بن أحمد بن إبراهيم ، الوزير الصاحب علم الدين بن تاج الدين الشهير بابن زنبور، القبطي المصري.كان وزيرا بالديار المصرية ثم ولي نظر جيشها أيضا والخاص، اجتمعت له هذه الوظائف الثلاث ولم تجتمع لأحد قبله. وكان في عز حتى وقع بينه وبين صرغتمش الناصر صاحب المدرسة الصليبية مشاكل فقبض عليه سنة ٧٥٣هـواعتقله مدة ٩٠ يوما وأجرى عليه أنواع العقوبة وصادر أملاكه، ونفاه إلى قوص. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٧، ٦٩-٧٠.

(٥) (ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٢٤٦-٢٤٧.

(٦) (الداودار: هو ممسك الدواة، والوظيفة اسمها الدوادارية، وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويقوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوي إليه. سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٢٣.

دينار[١]. وفي يوم طلع على السلطان بشيء من عند أستاذه فوجد عليه مفرية بعلبكية لابسها، فقال له: 'قل للقاضي ناظر الخاص يفصّل لنا مثل هذا'[٢]. ومما يدل على ترف المماليك في الزيّ أن السلطان الظاهر خشقدم كان ترِفًا في ملبسه، فقد كان يلبس السمور الأسود، والقباء[٣] الصوف الفاخر ويبطنه بالمخمل الأحمر الكفوري[٤]. كما كان يعقد البركاوات الحرير بيده[٥]. وكانت الدكة التي يجلس عليها السلطان المملوكي تغطى بملاءة من الحرير[٦].

وصف المقريزي المماليك في اهتمامهم البالغ بالزيّ من خلال ما ذكره أنه في يوم الاثنين ٨ ذي الحجة سنة ٨١٤هـركب السلطان فرج بن برقوق من قلعة الجبل، ومعه العساكر وقد لبسوا كلهم السلاح، وتباهوا بزيٍّ لم نر مثله حسنًا وإتقانًا، وكان معهم ثلاث مئة من عتاق الخيل لبدها من حرير مطرَّز بالذهب الموشى، وعلى أكفالها عبي الحرير البديعة الصنعة، وفيها ما هو مطرَّز بالذهب الثقيل، وتحمل العدد في الحوائج الخاناه الخشب، التي غشيت باللباد الأحمر، وخزانة المال في الصناديق المغشاة بالحرير الملون، وتقدم الحريم الألبان في سبع محفات قد غشيت بالحرير، وبعضها مطرز بالذهب. ومن ورائها نحو الثلاثين حملا من المحاير المغشاة بالحرير والجوخ[٧].

ومن اهتمامهم باستخدام الأنسجة بصفة عامة في حفل الزواج، أنه كان في سنة ٨٩٢هـ

---

(١) (الصيرفي، إنباء الهصر، ٣٩٤.

(٢) (المصدر السابق ، ٣٩٥.

(٣) (قباء: جمعها أقبية، وهو ثوب يلبس فوق القميص. إبراهيم أيوب، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٧٧م، ٢٩٢. نوع من القماش يغطي الرأس مصنوع من الحرير للصيف. محمد دهمان، مرجع سابق، ٢١. ملبوس (فرجية-قفطان) ووصفها المقريزي على عصر المماليك بأنها : « إما بيض أو مشهرة أحمر وأزرق، وهي ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الإفرنج اليوم » . سعيد عاشور، العصر المماليكي، ٤٥٥. دوزي، مرجع سابق، ج٢، ٢٤.

(٤)) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٥٤٩.

(٥) (المصدر السابق، ج١، ٥٥٥.

(٦) (المصدر السابق ، ج١، ٧٥٥.

(٧)) المقريزي، السلوك، ج٤، ق١، ١٩٧-١٩٨.

زواج قانصوة خمس مئة على ابنة الأتابك أزبك؛ حيث كان هناك موكب كبير من الأمراء والخاصكية[١]، وجميعهم يلبسون الشاش والقماش، وكان الجهاز حافلا ملوكيًا قعد الناس لرؤيته، بلغت قيمته نحوًا من مئتي ألف دينار، وقيل زيادة[٢].

وفي التاسع من شعبان سنة ٧٨٥هـ كان هناك حفل لأحد نُظّار الخاص، اجتمع عنده أقاربه ورحمه، وأخذوا في التزين بكل ما يمكن من أحسن الملابس وأفخرها[٣].

كان المماليك يستخدمون المفارش المصنوعة من الأنسجة الحريرية وغيرها لاستقبال السلطان عند قدومه في موكب، وقد حدث ذلك في سنة ٧٥٣هـ عندما وصل السلطان الصالح صلاح الدين بن الناصر محمد إلى القاهرة قادمًا من دمشق؛ حيث فُرشت له الشقق الحرير لينمشي عليها بأقدامه، كما فُرش تحت فرسه شقق الأطلس[٤].

وفي ١٨ محرم سنة ٧٣٣هـ قدم السلطان بكتمر فبسط الشقاق الحرير والزَّرْبَفْت[٥] التي أحضرها من الأمراء والمقيمين وأرباب الدولة[٦].

وفي سنة ٦٥٩هـ ركب الخليفة المستعصم بالله وشقَّ المدينة بعد أن زُيِّنتْ وبُسطت أكثر الطرق بالثياب الفاخرة ومشى عليها بفرسه إلى القلعة[٧]، وفي يوم الخميس ١٣ شوال سنة

---

(١) الخاصكية: لفظ مملوكي جمع مفرده خاصكي، وهم نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من المماليك الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارًا ويجعلهم في حرسه الخاص. محمد دهمان، مرجع سابق، ٦٦.

(٢) ابن شاهين، نيل الأمل، ق٨، ج٢، ٧٢.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ق٢، ٧٧.

(٤) ابن شاهين، نيل الأمل، ق١، ج١، ٢٤٢.

(٥) الزربفت: القماش المنسوج معظمه أو بعضه من خيوط الذهب، وهو لفظ فارسي جرى في مصطلح الملابس في الدولة المملوكية وقابله في العربية الديباج والسندس. المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، هامش٣، ٣٥٦.

(٦) المصدر السابق، ج٢، ق٢، ٣٥٦.

(٧) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ٣٦.

٦٦٢هـ تولى السلطنة الملك السعيد؛ فركب بشعار السلطنة[١]، وشق الملك السعيد القاهرة وبسط الأمراء الثياب الأطلس والعتابي وغيرها تحت حوافر فرسه[٢].

وفي ٧ محرم سنة ٧٩٧هـ قدم الأمير محمود الأستادار وكان في موكب عظيم وقد فرشت له الشقق الكمخا[٣] والحرير على الأرض[٤].

ودخل السلطان الملك الأشرف شعبان ثغر الإسكندرية وهو راكب فرسًا أشهبَ تدوس سنابكُه شققَ الحرير المفروش على الأرض[٥].

وكانوا يستخدمون الأقمشة والثياب ويجلس الخليفة الجديد وعليه خلعة خضراء[٦]. ثم يُخلع على السلطان خلعة سوداء، وعمامة مرقومة الطرف بالبياض[٧]، وحين يدخل السلطان عاصمته تفرش الشوارع بشقق الحرير[٨]، ويقوم بعد ذلك الأمراء بفرش الشقق الحريرية كلٌّ في منطقته[٩]. وكان في إحدى حفلات ختان ابن السلطان الناصري محمد الذي تسلطن بعده، خرج السلطان الناصري في موكب وأمامه الأمراء بالشاش والقماش، وسائر الأعيان بالشاش والقماش وفرشت تحت فرسه الشقق الحرير[١٠].

---

(١) شعار السلطنة: هي أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان يظهر بها السلطان في المواكب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ٧-٨.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ١٠١.

(٣) كمخ: قماش من الحرير قد يحلى بالذهب أو الفضة. دوزي، مرجع سابق، ج٩، ١٣٨. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، حاشية٥، ٤٠١.

(٤) الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ٣٩٨.

(٥) النويري، الإلمام، ج١، ٦١.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ٢٨٠.

(٧) المصدر السابق، ج٣، ٢٨١.

(٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ١٩٣.

(٩) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ١٦٥-١٦٧.

(١٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٧٩٣.

وفي ١٥ صفر سنة ٧٩٢هـ اتجه السلطان الملك الظاهر برقوق في موكب نحو القلعة وقد فرشت له الشقق الحرير على الأرض ليمشي. عليها فرسه[١]. وفي سنة ٨٢٠هـ فرشت الشقق الحرير لموكب السلطان المؤيَّد أبو النصر شيخ[٢] من باب النصر إلى القلعة[٣]. وفي سنة ٨٣٧هـ دخل الملك الأشرف برسباي[٤] الديار المصرية وعند دخوله القاهرة فرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير حتى طلع القلعة[٥].

وفي سنة ٩٠٥هـ خرجت أخت السلطان جان بلاط يشبك (٩٠٥-٩٠٦هـ) في موكب وأمامها الأمراء ورجال الدولة وهم بالشاش والقماش وفرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال الموكب[٦].

وكذلك في سنة ٩٠٦هـ خرجت خوند الخاصكية زوجة الملك طومان باي إلى القلعة وفرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال موكبها، وكان حولها الأمراء وهم بالشاش والقماش[٧]. ويُذكر دئمًا في المصادر أن الأمراء خرجوا في موكب السلطان بالشاش والقماش[٨].

---

(١) المصدر السابق، ج١، ٧٩٣.

(٢) المؤيد شيخ: هو المؤيد شيخ المحمودي الظاهري الجركسي الملك المؤيد سيف الدين أبو النصر، تسلطن في مستهل شعبان سنة ٨١٥هـ، ومات في يوم الاثنين ثامن محرم سنة ٨٢٤هـ، وحكم لمدة ثمان سنوات وأربعة أشهر وثلاثة وعشرين يوما. ابن شاهين (عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي)، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين علي، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ١٢٦.

(٣) الصيرفي، نزهة النفوس، ج٢، ٣٩٦.

(٤) برسباي: برسباي الدقماقي الظاهري الجركسي الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر، تسلطن يوم الاثنين ثاني ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ، ومات يوم السبت الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٨٤١هـ، وقد حكم ست عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام. ابن شاهين، نزهة الأساطين، ١٣١-١٣٢.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ٤٦٧.

(٦) المصدر السابق، ج٢، ٩٢٤.

(٧) المصدر السابق ، ج٢، ٩٦١.

(٨) المقريزي، الخطط، ج٢، ٦٠٩، ج٤، ١٠٦٧. ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ١١٥١.

٨- تنمية وتأهيل وتدريب العاملين في صناعة النسيج:

إن من أهم العوامل التي أسهمت في ازدهار ورقي صناعة النسيج في مصر في العصر المملوكي اهتمامهم بتنمية وتطوير مهارة العاملين في مجال صناعة النسيج؛ وذلك لإكسابهم خبرات فنية مرموقة في هذا المجال؛ لأن العنصر البشري هو أهم مقومات الإنتاج الصناعي بالإضافة للمواد الخام والتمويل وغير ذلك. 'ومن أجل تطوير مهارات العاملين على الأنوال والمناسج الرئيسة اشترطت نقابات[١] الصناع إبان العهد المملوكي أن يتم تدريب صغار الصناع على ثلاث مراحل حتى يتمكنوا من إتقان العمل على المناسج والأنوال'[٢].

٩- دور الصناع الذين توافدوا على مصر من الخارج:

يرى بعض المؤرخين أن رواج صناعة النسيج في مصر في العصر المملوكي يرجع إلى فرار آلاف الصناع من البلدان المجاورة كي يستقروا في مصر هربًا من جيوش المغول التي كانت تجتاح مناطقهم آنذاك[٣]، وكذلك الازدهار الاقتصادي والعلمي في مصر في العصر المملوكي، بسبب حركة الصناعة والفنون والآداب مما دعا مؤرخي هذا العصر إلى اعتبار فترة حكم المماليك من ألمع المراحل التاريخية التي شهدتها مصر الإسلامية في العصور الوسطى[٤].

ويؤيد الباحث الرأي الأول بنسبة كبيرة، لما أحدثه الغزو المغولي في تلك الفترة لمناطق العالم الإسلامي المجاورة لمصر، وصد المماليك لهذا الغزو، مما جعل مصر أكثر أمنًا واستقرارًا وأقرب مسافة عن غيرها من الدول، أضف إلى ذلك ما كانت تتمتع به مصر من الخيرات ورغد العيش في معظم فترات ذلك العصر، كل هذا يجعل عامة الناس بمختلف حرفهم، ومن بينهم

---

(١) نقابات: مفردها نقابة وهي قيام النقيب مقام من يمثلهم في رعاية شؤونهم وجماعة يختارون لرعاية شؤون طائفة من الطوائف. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ج٢، ٩٤٣.

(٢) باتريشيا بيكر، مرجع سابق، ١٤١.

(٣) باتريشيا بيكر، المرجع السابق، ١٤٠.

(٤) سحر السيد عبد العزيز، دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٥م)، ٤١١.

صناع النسيج يفرون إلى منطقة تكون أكثر أمانًا ورغدًا، وممارسة هذه الحرفة للكسب منها.

فكان للصنَّاع الذين قدموا من خارج مصر إليها في العصر المملوكي دورٌ مهم في ازدهار صناعة النسيج بسبب خبرتهم في هذه الصناعة وبما حملوه من أفكار فنيَّة غير موجودة لدى الصنَّاع في مصر، وبالتالي أكسبوا هذه الصناعة مزيدًا من الرقيّ والتطور. ويرى بعضُ المؤرخين أن رواج صناعة النسيج في مصر كانت بسبب هروب الصنَّاع من جيوش المغول التي كانت تجتاح مناطقهم آنذاك[١].

ومن بينهم الصناع العراقيون الوافدون إلى مصر والذين أسهموا بلا شك في تطوير صناعاتها، وأدخلوا عليها أساليب فنية جديدة، انصهرت في بوتقة الفنون المحلية، مما أدى إلى تقدم الفنون المصرية وتفوقها على سائر الفنون الإسلامية شرقا وغربا[٢]. وتوافد إلى مصر عدد من الوافدين الأندلسيين، وقد ظهرت آثارهم على مصر في الفنون الزخرفية وغيرها[٣]. وإسهام العمال المغاربة الذين نزحوا إلى مصر وكانوا يعيشون في عصر المماليك، واشتغلوا بصناعة الحرير، فجاءوا ووسعوا هذه الصناعة ونشروها في كل أنحاء مصر[٤].

١٠- دور الدول السابقة للمماليك:

لقد ورثت الدولة المملوكية من سابقيها الدولة الأيوبية والدولة الفاطمية صناعة النسيج، ولا سيما الدولة الفاطمية التي بلغت صناعة النسيج أوجّها في تلك الفترة، وكانت هذه الصناعة على درجة عالية من الرقي والدقة والازدهار[٥].

---

(١) المرجع السابق، ١٤٠.

(٢) المرجع السابق، ٤١٢.

(٣) سحر السيد عبد العزيز، المرجع السابق، ٣٢٢.

(٤) علي أحمد، المغاربة العاملون في مصر منذ نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، بحث منشور في كتاب: بلاد المغرب وعلاقتها بالمشرق، (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب، حصاد ٥، رجب ١٤١٨هـ/نوفمبر ١٩٩٧م)، ٢٩٢.

(٥) فوزية حامد عباس الميموني، الحياة الاقتصادية في مصر العليا خلال العصر المملوكي، (القاهرة: مكتبة الآداب، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)، ١٠١. انظر: بندر محمد علي آل عباس، صناعة النسيج في مصر خلال العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

والمتاحف الإسلامية والعالمية خير شاهد على ما تركته الدول الإسلامية بوجه عام، والدولة الفاطمية على وجه الخصوص، من إرث حضاري في جميع المجالات، وخاصةً في صناعة النسيج.

.وقد حافظ المماليك على صناعة النسيج في مصر، باستثناء أعوام المحن، ولم تفقد مصر أهميتها ومكانتها في هذا السبيل، فقد برزت المنسوجات الكتانية في العصور الوسطى، كما اشتهرت بصناعة نوع معين من الفرش يسمى (فرش القرمز) الذي يشبه الأرمني[١].

***

(١) القزويني، آثار العباد، ١٤٧.

المصادر والمراجع

أولاـ المصادر:

ابن إياس، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٥م، وطبعة بولاق، ١٣١١هـ.

ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي، أبو القاسم (ت ٣٦٧هـ)، صورة الأرض، بيروت: دار صادر، ١٩٣٨م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ١٩٧٢م.

- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د. ت.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن علي بن أحمد (ت ٨٥٢هـ) ، إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي، ج١، القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د. ت.

بلوغ المرام من أدلَّة الأحكام، خرَّج أحاديثه وضبطه: محمد عبد القادر الفاضلي، ط٢ بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

العمري، ابن فضل الله أحمد بن يحيى الكرماني، مسالك الأبصار في مسالك الأمصار، تحقيق: أحمد زكي باشا، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م.

الحموي، عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م)، معجم البلدان، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.

الحميري، عبد المنعم أبو عبد الله محمد بن محمد، الروض المعطار في أخبار الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان،١٩٧٥م.

خسرو، ناصر (٤٨١هـ)، سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، بيروت: دار الكتاب الجديد،١٩٨٣م.

ابن خلدون، وليّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ /١٤٠٦م)، تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، بيروت: دار الفكر، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

الزَّبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د ت.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت٩٠٢هـ/١٤٩٧م، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة: مكتبة القدسي، ١٣٥٣- ١٣٥٥هـ

السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حُسْن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: د. ن، ١٩٦٧م.

ابن شاهين، زين الدين عبد الباسط بن خليل بن شاهين الظاهري الحنفي(ت٩٢٠هـ)، نيل الأمل في ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت: المكتبة العصرية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس: نشر: بول رافيس Paul Ravaissc، ١٨٩٤م.

الصيرفي، عليّ بن داود الجوهري الصيرفي (ت٩٠٠هـ)، إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م

- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: مركز تحقيق التراث، ١٩٧٠-١٩٩٤م.

ابن عبد الظاهر، القاضي محيي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان السعدي المصري (ت٦٩٢هـ/١٩٦١م)، الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، القاهرة: الدار العربية للكتاب، ١٩٩٤م.

العيني، بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م) عِقْد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، ج١، القاهرة: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية،١٤١٣هـ/ ٢٠١٠م.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/٩٣٢م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م.

القلقشندي، أحمد بن علي (ت٨٩١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت.

مجهول، مفتاح الراحة لأهل الفلاحة، تحقيق: محمد عيسى صالحية وإحسان صدقي العمد، الكويت: التراث العربي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

المسَبِّحي، الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد (ت ٤٢٠هـ /١٠٢٩م)، أخبار مصر في سنتين (٤١٤-٤١٥هـ)، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، وتياري بيانكي، القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار

الشرقية، ١٩٧٨م. وتحقيق: وليم مليورد، القاهرة: هيئة الكتاب، ١٩٨٠م.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، ط٣، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ وتحقيق: أيمن فؤاد سيد، طبعة لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

القول الإبريزي للعلامة المقريزي' تاريخ الأقباط '، تحقيق: عبد المجيد دياب، القاهرة: دار الفضيلة، د.ت.

- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الأفريقي (ت٧١١هـ/١٣١١م)، لسان العرب، بيروت: دار صادر، د. ت.

ابن مماتي، الأسعد شرف الدين أبو المكارم (٦٠٦هـ/١٢٥٨م)، قوانين الدواوين، جمعه وحققه: عزيز سوريال عطية، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١م.

-النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: محمد ضياء الدين الريس، القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٩٢م.

النويري، محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندري (ت٧٧٥هـ)، الإلمام أو مرآة العجائب، ج٦، تحقيق: أتيين كوئب وعزيز سوريال عطية، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٠م.

-ابن وحشية، أبو بكر أحمد بن علي (ق٤هـ/١٠م)، الفلاحة النبطية، تحقيق: توفيق فهد، القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار، ١٩٩٣م.

المراجع:

إبراهيم، رجب عبد الجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، القاهرة: الآفاق العربية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

أحمد، نبيل محمد عبد العزيز، الملاعيب في عصر سلاطين المماليك، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٢م.

أيوب، إبراهيم، التاريخ الفاطمي الاجتماعي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٧٧م.

البراوي، راشد، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٨م.

بيكر، باتريشيا، المنسوجات الإسلامية، ترجمة:صديق محمد جوهر، د.م: د.ن، ٢٠١٢م.

جروهمان، أودلف، أوراق البردي العربية، القاهرة: دار الكتب المصرية،١٩٣٤-١٩٧٤م.

الحسين، قصي، موسوعة الحضارة العربية العصر الفاطمي والأيوبي، بيروت: مكتبة الهلال، ٢٠٠٥م.

دهمان، محمد أحمد ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دمشق، سوريا : دار الفكر؛ بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصر، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

دوزي، رينهارت بيتر آن، تكملة المعجم العربي، ج٨، ترجمة: محمد سليم النعيمي وجمال خياط، العراق: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٧٩-٢٠٠٠م.

رمزي، محمد، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

زكي، حسن، كنوز الفاطميين، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م.

فنون الإسلام، بيروت: دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

سلطان، عبد المنعم، المجتمع المصري في العصر الفاطمي دراسة تاريخية وثائقية، القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

الشرباصي، أحمد، المعجم الاقتصادي، بيروت، دار الجيل: ١٩٨١م.

الشوربجي، أمينة، رؤية الرحالة المسلمين للأحوال الاقتصادية والمالية لمصر في العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ)، القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م.

عابدين، علية، وزينب الدبَّاغ، دراسات في النسيج وأسس تنفيذ الملابس، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٢م.

العصر المماليكي، القاهرة: النهضة العربية، ١٩٦٥م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح، وعبد الحميد، سعد زغلول، والعبادي، أحمد مختار، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٤م.

عاصي، محمد المنسي، إسراف سلاطين المماليك، دراسة في المظاهر والنتائج، الإسكندرية: دار الكتاب الجامعي، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

العبادي، أحمد مختار، والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د ت.

عبد الرحمن، عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة في مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى مجيء الحملة الفرنسية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

عبد الله، صفي علي محمد، مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي إلى نهاية عصر الفاطميين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

عبد العزيز، سحر السيد، دراسات في تاريخ مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠٠٥م.

عدوان، أحمد محمد، التاريخ الاقتصادي لدولة المماليك (٦٤٨- ٧٨٣هـ/١٢٥٠-١٣٨١م)، الرياض: دار العلوم، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م): دراسة تاريخية اجتماعية وثقافية واقتصادية، دمشق: الشركة المتحدة للطباعة، ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م.

عمران، محمود سعيد، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.

غالي، كامل، الزراعة بمصر، د.م: د.ن، د.ت.

كاشف، سيدة إسماعيل، مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة: د.ن، د.ت.

مصر في عهد الإخشيديين، ط٢، القاهرة:دار النهضة العربية، ١٩٧١م.

كولن، آرنست، الفن الإسلامي، ترجمة: أحمد موسى، بيروت: دار صادر، د.ت.

لوكاسل، الفريد، الموارد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة: زكي اسكندر، ومحمد زكريا غنيم، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

ماجد، عبد المنعم، نُظُم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر دارسة شاملة لنظم البلاط ورسومه، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٢م.

ماهر، سعاد محمد، الفنون الإسلامية، القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر ومدنها القديمة والشهيرة، ج١٠، القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت: د.ن، ١٩٦٧م.

مصطفى، إبراهيم، والزيات، أحمد. وعبد القادر، حامد. والنجار، محمد، المعجم الوسيط، القاهرة:

دار الدعوة، د.ت.

الناعوري، سعاد عساكريه، ونشيوان، ليلى حجازين، المنسوجات، الأردن، عمان: دار الشروق، ٢٠٠٢م.

نجم، زين العابدين شمس الدين، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، القاهرة: دار الكتاب الحديث، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦.

نصر، إنصاف وكوثر الزغبي، دراسات في النسيج، القاهرة: دار الفكر العربي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، الأردن: منشورات الجامعة الأردنية، د.ت.

هجرس، سعد، الزراعة المصرية الماضي- الحاضر- المستقبل، القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٦٩م.

ول، ديورانت، موسوعة قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، د.م: د.ن، د.ت.

الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة: د.ن، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الدوريات والرسائل العلمية:

ال عباس، بندر محمد علي، صناعة النسيج في مصر خلال العصر الفاطمي(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

سليمان، سامي محمد، زراعة الكتان: تجهيز المحصول عقب الحصاد، نشرة رقم ٧١٣، سنة ٢٠٠١م.

الشيال، جمال الدين، مدينة تنيس، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج١٤، العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٨٧هـ /١٩٦٧م.

***

الرِّحْلَةُ العِلْمِيَّة بين الحِجَاز وَاليَمَن

من (٨٠٠- ٨٥٠هـ/١٣٩٧-١٤٤٦م)

د. عامر جاد الله أبو جبلة*

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى التعرف على الرحلة العلمية بين الحجاز واليمن في فترة النصف الأول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مع التركيز على التبادل العلمي والثقافي بين هذين الإقليمين، من حيث حركة العلماء والمتعلمين وإقامة العلماء، وجلاء بعض ظروفهم المعيشية وأحوالهم، وإبراز العلوم التي برعوا فيها، ونشاطهم العلمي في التعليم والتدريس والتأليف، في مجال إقراء القرآن وعلومه، وعلوم الحديث، وعلوم اللغة وغيرها من العلوم الأخرى، التي كانت متداولة في ذلك العصر، فيما من شأنه إبراز هذا الجانب من الحياة العلمية ما بين الحجاز واليمن خلال فترة الدراسة.

***

(*) أستاذ مشارك قسم التاريخ كلية العلوم الاجتماعية ،جامعة مؤتة - الأردن

تقع الفترة التي يعالجها البحث ضمن فترة الدولة الرسولية من (٦٢٦ ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩ ١٤٥٤م)، وكان لحكام اليمن في هذه الفترة صلاتٌ قوية بمكة المكرمة، فأنشأوا المدارس والربط وغيرها من المؤسسات الخيرية ومرافقها وأوقافها في كل من مكة واليمن، فنشطت الحركة العلمية، وكذلك التجارية بين الإقليمين في ظل الاستقرار الأمني والسياسي.

و لم تتوقف الرحلة العلمية بين الحجاز واليمن، بسبب القرب الجغرافي وتشابُك المصالح بين الإقليمين، فضلا عن رحلة الحج إلى الديار المقدسة في الحجاز في موسم الحج فيما من شأنه التواصلُ بين العلماء وطلبة العلم من شتى بلدان العالم العربي والإسلامي، وانسياب العلماء كذلك من الحجاز إلى مراكز اليمن العلمية؛ مما أغنى وأثرى الحركة العلمية في كل من الحجاز واليمن في هذه الفترة، وهو ما سيستعرضه البحثُ من خلال رصد حركة العلماء بين الحجاز واليمن.

فمن هؤلاء العلماء اللغويين اليمنيين : عبدُ اللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن عمر الشرجي (ت٨٠٢هـ/١٤٠٠م)، نزيل زبيد، كان عارفًا بالعربية مشاركا في الفقه، حنفي المذهب، قدم مكة، ثم دخل اليمن، واجتمع في زبيد بابن حجر، فسمع منه شيئا من الحديث، وكان الملك الأشرف الرسولي اشتغل عليه في العربية، ومن مؤلفاته: نظمُ مقدمة ابن بابشاذ في ألف بيت، وله تأليف في النجوم، ومشاركة في عدة علوم[١].

وفي سنة (٨٠٣هـ/١٤٠١م) كانت وفاة الملك الأشرف إسماعيل ابن الأفضل عباس ابن المجاهد علي ابن المؤيد، صاحب اليمن، دام في السلطة خمسًا وعشرين سنة، وكان قد أقبل على العلم والعلماء ومحبة الفضلاء، واقتناء الكتب، وابتنى بتعزّ مدرسة ودفن فيها، ويذكر أنه

---

(١) ابن حجر، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، ذيل الدرر الكامنة، تحقيق: عدنان درويش، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٩١، وابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج٧، ص١٧، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن في العصر الإسلامي (عصر دولتي بني أيوب وبني رسول)، ط١، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤ م، ص٥٨١.

أكرم ابن حجر العسقلاني عندما ورد عليه في اليمن[١].

ومن العلماء: محمد بن إسماعيل بن محمود الركن الخوافي (ت٨٠٣هـ/١٤٠١م)، ويذكر أن ممن أخذ عنه بمكة وزبيد الجلال عبد الواحد المرشدي، أخذ عنه النحو والأصول والمعاني والبيان، وكتب للمرشدي إجازة بليغة بخط حسن[٢].

ومن مكة: علي بن يوسف بن سالم بن عطية بن صالح بن عبد النبي الجهني، المعروف بابن أبي إصبع (ت٨٠٤هـ/١٤٠١م)، سمع من القاضي عز الدين بن جماعة، والفخر النويري بعض سنن النسائي، سنة ٧٥٣هـ، وكان يتردد إلى اليمن للتجارة، فأدركه الأجل بعدن[٣].

ومن فقهاء مكة: الفقيه يحي بن محمد بن أحمد بن ظهير بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المخزومي، أبو الطيب المكي الشافعي، (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م).

سمع من الشيخ ابن صديق، وغيره، وحفظ كتبًا في فنون العلم، منها «التنبيه» و«المنهاج» و«الحاوي» في الفقه، وعجب الناس منه في حفظه لهذه الكتب الثلاثة، فإنها لم تجتمع لغيره، وكان حضر دروس ابن عمه القاضي جمال الدين بن ظهيرة، وكانت وفاته ببلاد اليمن في مدينة زبيد[٤].

ومن النساخ اليمنيين: عثمان الشحري (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م) نزيل مكة، جاور بها بضعًا وعشرين سنة أو أزيد، وكتب بها كتبًا كثيرة للناس بالأجرة، وكان يلتقي كثيرًا الشيخَ عبدَ

---

(١) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن، (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد وآخرون، ٣ج، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م،ج١، ص٣٥٩، وانظر: ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة (د.ت)، ج١٣، ص٢٥، وخير الدين الزركلي،الأعلام، ط١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م، م١، ص٣١٦-٣١٧.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج٧، ص١٤٣.

(٣) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني، (ت٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ٨ج، ط٢، مؤسسةالرسالة، ١٩٨٦م، ج٦، ص٢٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٤٥.

الوهاب اليافعيّ اليمنيّ في مكة[١].

وكان الفقيه عبدُ الحي القيوم بن أبي بكر بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المكي الأصل، اليماني، كان يتردد بين بلد أمه حلي بن يعقوب * في اليمن وبين مكة للحج، بحيث سمع في مكة على عمه الجمال بن ظهيرة، وابن الجزري، وأجاز له في سنة ٨٠٥هـ جماعة كابن صديق وعائشة ابنة ابن عبد الهادي، والزين المراغي، والعراقي، والهيثمي[٢].

ورحل من مكة إلى اليمن المحدث أبو بكر بن قاسم بن طراد المصري المالكي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، قدم مكة حاجًّا، فسمع بها علماء الحديث، ثم دخل اليمن، فسمع على محدثها إبراهيم بن عمر العلوي، ثم رجع إلى مصر، حيث التقى الفاسي صاحب العقد الثمين، وأجاز له، وكانت وفاته بمصر[٣].

وفي سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) تم وقف رباط الجهة في مكة، جهة السلطان الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل صاحب اليمن، وأم أولاده، المعروف برباط الشيخ علي السعداني لتوليته لأمره، وهو وقف على الفقراء المستحقين للسكنى[٤].

ومن فقهاء مكة: الفقيه عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن عبد العزيز بهاء الدين النويري المالكي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، إمام المقام المالكي بالمسجد الحرام لمدة سبع سنين، كما تولى القضاء، وكان قد سمع في مكة على مشايخها مثل العفيف عبد الله النشاوري، وإبراهيم بن صديق،

---

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٧.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٤٠.

* حلي بن يعقوب : بلد من تهامة في شمالها على جنوبي القنفذة على مسافة سبع مراحل إلى مكة، انظر: محمد الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوع، ط١، وزارة الإعلام والثقافة،صنعاء، ١٩٨٤، م١، ص٢٨٠.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص١٩-٢٠، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٢.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ٢ج، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥، ج١، ص٥٣٧، والعقد الثمين، ج١، ص١٢٣.

وابن سكر وغيرهم، ذهب إلى اليمن وأقام بها أشهرًا، وكانت وفاته بزبيد من اليمن[١].

ومن أئمة الحنابلة بمكة: الفقيه علي بن عبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن نور الدين الحسني الفاسي المكي الحنبلي، إمام مقام الحنابلة بمكة (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، كان قد سمع في مكة من مشائخها وعلمائها، مثل: النشاوري، وابن صديق، ودخل بلاد اليمن وكانت وفاته بمدينة زبيد[٢].

ومن فقهاء مكة: الفقيه سليمان بن يحيى المكي المعروف بالطوير (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، كان قد سمع في مكة من القاضي عز الدين بن جماعة، وفخر الدين النويري بعض سنن النسائي في سنة ٧٥٣هـ، ذهب إلى اليمن، وتوفي بحمضة قرب حلي، وهو متوجِّه من اليمن إلى مكة[٣].

ومن فقهاء المدينة المنورة: الفقيه محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن خليف الأنصاري الخزرجي المدني، الملقب بالشمس ابن التقي بن الجمال المطري (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، كان قد سمع بالمدينة من القاضي عز الدين، جزءه الكبير الذي خرَّجه لنفسه، ومن القاضي بدر الدين إبراهيم بن الخشاب: صحيح البخاري، وغير ذلك بالمدينة، وكان له اشتغالٌ بالعلم، ويذكر أنه كان من العلماء الذين ارتحلوا إلى ديار اليمن في إطار التواصل العلمي بين الحجاز واليمن، وكانت وفاته بمكة[٤].

ومن قضاة عدن: القاضي رضيُّ الدين أبو بكر بن محمد بن عيسى الحبيشي (ت٨٠٦هـ/١٤٠٣م)، كان إماما بارعا عالما عاملا، وولي قضاء عدن، وحج سنة ٧٧١هـ، واجتمع بمكة بالشيخ برهان الدين إبراهيم بن موسى الأبناسي، واستجاز منه، كما أن تلميذ الحبيشي،

---

(١) انظر: السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٩٤، و الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٣٩٠، ويوسف الصبحي، وسام الكرم في تراجم أئمة وخطباء الحرم، ص٢٤١-٢٤٢.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص١٨٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٤٤، ويوسف بن محمد بن داخل الصبحي، وسام الكرم في تراجم أئمة وخطباء الحرم، (تراجم أئمة وخطباء المسجد الحرام عبر العصور)، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٢٩٩ -٣٠٠.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٦١٣.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٥.

القاضي محمد بن سعيد ابن كبن، قد حج في حياة شيخه الحبيشي سنة ٨٠١هـ واجتمع بالشيخ برهان الدين الأبناسي بمكة، فسمع ابن كبن عليه طرفًا صالحا من مناسك النووي، وأجازه إجازة عامة، وكانت وفاة القاضي الحبيشي بعدن[(١)].

ومن اليمن: المحدِّث أبو الطيب محمد بن عمر بن علي السحولي اليمني ثم المكي (ت٨٠٧هـ/١٤٠٤م)، ويذكر أنه سمع على الزبير بن علي الأسواني «الشفاء» وهو آخر من حدَّث عنه، وأجاز له عيسى الحجي وآخرون، وسمع منه ابن حجر العسقلاني، وكان حسن الخط جيد الشعر، وكانت وفاته بمكة[(٢)].

ومن مكة: الفقيه الشافعي محمد بن علي بن أحمد بن عبد العزيز بن القاسم العقيلي النويري المكي، دخل ثغر عدن وأجاز للقاضي ابن كبن، في جميع ما يجوز له روايته، وذلك في سنة ٨٠٧هـ[(٣)].

ويبدو أن بعض المؤذِّنين كان لهم نشاطٌ علميٌّ كسماع الحديث وقراءة القرآن وتحصيل بعض الفقه من خلال وجودِهم في الجوامع والمساجد وحضور حلقات العلم، فهم منخرطون بشكل أو بآخر في الحركة العلمية، فمن مكة: المؤذِّن عبد الله بن علي بن عبد الله بن أبي المعالي البهاء الكازروني الأصل المكي، رئيس المؤذنين (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، يُذكر أنه ارتحل إلى اليمن في إطار التواصل والرحلة العلمية بين الحجاز واليمن، فضلا عن الاعتماد على النفس وتحصيل الرزق عن طريق العمل بالتجارة[(٤)].

ومن حُجَّاب الحرم المكي: الحاجبُ أحمد بن علي بن أبي راجح العبدري الشيبي، يكنى أبا المكارم (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، كان من أعيان الحجبة، ويذكر أنه توفي غريقًا بالبحر، وهو متوجِّه

---

(١) بامخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م)،تاريخ ثغر عدن، ٢ج في م١، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م. ج٢، ص٣٠.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢٢٨ ٢٢٩، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٧٢.

(٣) بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص٢٢.

(٤) الفاسي العقد الثمين، ج٥، ص٢١٢ ، السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٣٤.

إلى بلاد اليمن[١].

ومن اليمن الفقيه علي بن أبي بكر الأزرق بن خليفة بن نوب أبو الحسن الهمذاني الأصل الحسيني اليماني الشافعي، ويُعرف بابن الأزرق (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، ويُذكر أنه تفقه ببلده أبيات حسين باليمن على الفقيه يحيى العامري وغيره، وقرأ في الفرائض على خاله أبي بكر بن عمران، ثم ارتحل إلى زبيد فسمع بها الحاوي على الفقيه أبي بكر الزبيدي، وقرأ الجبر والمقابلة على ابن الجلاد، إمامِ أهل الفن في وقته، ثم حجَّ إلى مكة فأخذ بها عن العفيف اليافعي، ثم عاد إلى بلده، ومهر في الفقه والحساب، ودرَّس وأفتى نحو خمسين سنة، وصار المرحولَ إليه والمعوَّلَ في الفتوى عليه في تلك الجهات، قريبها وبعيدها من الجبال والتهائم كزبيد وعدن وصنعاء وغيرها، وتفقه به كثيرون من أهل بلده وغيرها، وألَّف كتبًا كثيرة، مثل: «نفائس الأحكام».

وممن أخذ عنه من الشيوخ: البدرُ حسين بن عبد الرحمن الأهدل، وأبو الفتح المراغي، وكانت وفاة الفقيه ابن الأزرق في بلده أبيات حسين باليمن[٢].

ومن قراء مكة: يعقوب بن أحمد الأبياري المكي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، قرأ القرآن العظيم بمكة على الشيخ سراج الدين الدمنهوري، وكان يسافر من مكة طلبًا للرزق إلى اليمن وغيره، وكانت وفاته بمكة[٣].

ورحل من مكة إلى اليمن الصوفيُّ إسماعيل بن محمد المقدسي (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م) نزيل مكة، قدم إلى مكة في موسم حج سنة ٨٠٥هـ، وأقام بها مجاورًا حتى حج سنة ٨٠٦هـ، وذهب إلى المدينة وجاور بها، ثم عاد إلى مكة، وذهب إلى اليمن في أول سنة ٨٠٩هـ، ثم قدم مكة سنة ٨١٠هـ،

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص١٠٤-١٠٥.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٠٠، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٠ ٧٥، وفضل محمد صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي (عصر الدولة الرسولية)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عدن، ٢٠٠٦م، ص١٣١.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤٧١.

وأقام بها إلى أن توفى[١].

ومن العُبَّاد التجار اليمنيين: قاسم بن أبي المغيث بن أحمد بن عثمان العبسي اليمني الزبيدي (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م)، ولد بزبيد ونشأ بها، وتردد إلى عدن وإلى غيرها من بلاد اليمن والهند ومصر للتجارة، وخسر في تجارة له سافر بها إلى مصر سنة ٨٠٥هـ، ولكنه عاد إلى مكة، وأقام بها حتى مات، قال عنه الفاسي: «وكان حسن الطريقة خيِّرًا»[٢].

ومن اليمن: محمد بن عبد الله بن زكريا اليمني البعداني (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م) الشافعي نزيل الحرمين المكي والمدني، له إلمام بالفقه والتصوف، جاور بالحرمين نحو ثلاثين سنة على طريقة حسنة من العبادة وسماع الحديث، والاشتغال بالعلم، وتمشيخ على الفقراء برباط دكالة بالمدينة المنورة، وكانت وفاته بالمدينة[٣].

وكان المحدِّث شمسُ الدين بن محمد الحسني القادري إمامًا محدثا فقيهًا، قرأ على علماء مكة والشام ومصر، فأجازوا له، ثم دخل اليمن بعد سنة ٨١٠هـ، فاجتمع بكبار شيوخها، فأخذوا عنه، وأخذ عنهم، وكانت له عناية بالشعر فضلًا عن الحديث[٤].

ومن عدن: العابدُ ريحان بن عبدالله المعروف بالرميدي العدني (ت٨١٠هـ/١٤٠٧م)، كان ذا غنًى وعبادة، وفيه خيرٌ وديانة، تردد إلى مكة غير مرة، وجاور بها ثلاث سنين، وكانت وفاته بمكة[٥].

ومن تعز: الفقيهُ المقرئُ أبو بكر بن محمد بن صالح بن محمد الرضي أبو محمد الجبلي

---

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٧.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص٨٨، والبريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن، (من علماء القرن التاسع الهجري، طبقات صلحاء اليمن، المسمى (تاريخ البريهي)، تحقيق: عبد الله الحبشي، ط٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٤م، طبقات صلحاء اليمن، ص٤١، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٧.

(٤) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٤٠.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٤٢٥، وبامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص٧٨.

ثم التعزي اليماني الشافعي، المعروف بابن الخياط (ت٨١١هـ/١٤٠٨م)، حفظ القرآن وتلا بالقراءات، وتفقَّه على جماعة من علماء تعز، ثم رحل للحج عدة مرات، فأخذ بمكة في الأولى عن الحرازي وغيره، وفي الثانية عن العفيف اليافعي، كما أخذ بتعزّ عن الفقيه الجمال الريمي، ولازم النفيسَ العلويَّ حتى قرأ عليه الكتب الستة وغيرها، ويذكر من شيوخه بمكة في العلم الجمال الأسنوي والأبناسي، ودرَّس بمدارس في تعزّ؛ إذ عيَّنه الأفضلُ للمدرسة الشمسية، والأشرفُ للمدرسة المعينية، وظل يتصدَّى لنشر العلم في بلده «حتى أخذ عنه الجم الغفير وصار علماء اليمن تلامذته»، ويذكر أن ابن حجر العسقلاني كان قد اجتمع به وسمع من فوائده في تعزّ، وكانت وفاة الفقيه ابن الخياط باليمن[1].

وكان الفقيه محمد بن إبراهيم بن عبد الله الشمس الكردي الأصل ثم المقدسي ثم القاهري ثم المكي الشافعي، وسمي المقري (ت٨١١هـ/١٤٠٨م)، كان ببيت المقدس قد تفقه ومال إلى التصوف بكُلِّيته، وصحب الصالحين ولازم* الشيخ محمد القرمي ببيت المقدس، وتلمذ له، وعندما قدم القاهرة أقبل على الزهد، ويذكر أنه «دخل اليمن والعراق والشام وجاور بمكة سنة»، وكانت وفاته بمكة[2].

ومن علماء اليمن المشهورين المشتغلين بالأدب: عليُّ بن محمد بن إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله بن عمر بن عبد الرحمن نور الدين أبو الحسن الناشري الزبيدي اليماني الشافعي (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م) شاعر اليمن، إذْ كان شاعرًا لبيبًا، حسن المحاضرة، كثير المحفوظات

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص٧٨-٧٩، وعبد العزيز بن راشد السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية، (٦٢٦هـ- ٨٥٨هـ/١٢٢٩م- ١٤٥٤م)، ط١، الرياض، ٢٠٠٣م، ص٣١٥، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٧٥٠.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٥٦-٢٥٧.

* لازم: أي ملازمة المتعلم لأستاذه في علم ما، وعدم مفارقته لتحصيل العلم من العالم أو الشيخ والدوام عليه، وهذا ما تشير إليه التفسيرات اللغوية في مادة «لزم» في لسان العرب، مثل عبارة: «يلزم الشيء فلا يفارقه». ولقد وردت إشارات عديدة في المصادر العربية تشير إلى هذا النظام، فعلى سبيل المثال: «قال غندر البصري (ت١٩٣هـ/٨٠٨م): لزمت شعبة بن الحجاج عشرين سنة». انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج١، ص٣٠٠.

بالأخبار، والتواريخ والسير وآداب الملوك، مشاركًا في كثير من العلوم، وحصَّل الفقه والنحو وسمع الحديث[١]، ومدح الملوك والأعيان، وكان ملوك اليمن مثل الأفضل ثم الأشرف يقدمانه[٢]، وله مدائح للسلطان الأشرف اشتهر بها[٣]،ويذكر ابن حجر العسقلاني أنه لقي هذا الأديب بزبيد، وذكر أنه حج سنة ٨١١هـ وعاد إلى بلاده اليمن حيث توفي بعد ذلك بسنة[٤].

ومن المؤرخين اليمنيين: المؤرِّخُ عليٌّ بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي بن وهاس، موفق الدين أبو الحسن الخزرجي الزبيدي اليمني (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، مؤرِّخُ اليمن، كان قد اشتغل بالأدب والعربية، واعتنى بأخبار اليمن فجمع لها تاريخًا على السنين، وآخَرَ على الأسماء المسمى «طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن»، وسمَّاه أيضًا: العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن، وله كتابٌ آخَرُ على الدول، ذكر ابن حجر العسقلاني أنه لقيه باليمن وسمع من فوائده، وكانت وفاة المؤرخ الخزرجي بزبيد من اليمن[٥].

ومن مكة: النحويُّ أحمد بن عبد اللطيف بن أبي بكر بن عمر الشرجي نسبة إلى موضع بنواحي مكة (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)، كان أبوه من أفاضل أهل اليمن، له يدٌ طولى في العربية، انتفع به جماعة من العلماء، وكان أحمد الشرجي هذا قد انتقل إلى زبيد ودرَّس بالمدرسة الصلاحية بها، وذُكر عنه بأنه مهر في العربية، كما ذكر ابن حجر العسقلاني أنه اجتمع به في زبيد، وسمع من فوائده، وأسمعه منه شيئًا من الحديث، وكانت وفاة الشرجي بحرض من اليمن[٦].

ومن ردما - قرية بمشارق اليمن -: الفقيهُ واللغويُّ عليٌّ بن زيد بن علوان بن صبرة بن

---

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٩٠-٢٩١.

(٢) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٠٣-٢٠٤.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢٩١.

(٤) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٠٤.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠٣، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٢١٠.

(٦) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٠٣، والسخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٣٥٤، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٩٦.

مهدي بن عبد الله الزبيدي (ت٨١٣هـ/١٤١٠م)، حضر إلى مكة فترعرع وحج وجاور بها، وأخذ فيها عن اليافعي عبد الله بن أسعد والشيخ خليل المالكي، ارتحل إلى الشام، فلقي هناك الشيخ عماد الدين بن كثير، والشيخ شمس الدين بن خطيب يبرود، وكان قد اعتنى بالفقه والحديث والأدب، وكان يُذكر بكتاب سيبويه، ويستحضر كثيرا من الحديث، وأقام في ديار آل فضل عند أمير العربان حيار بن مهنا، مدة عشرين سنة، ثم قدم القاهرة حيث توفي بها[١].

ومن دمشق إلى مكة ثم إلى زبيد: محمد بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الدمشقي، المعروف بابن الشماع (ت٨١٣هـ/١٤١٠م)، سكن مكة مدة سنين، ثم سكن اليمن بزبيد، وكان يتردد منها لمكة إلى أن أدركه أجله بها[٢].

وقدم من حلب إلى مكة إلى اليمن: المقرئ محمد بن إسماعيل بن يوسف بن عثمان، شمس الدين الشهير بالحلبي (ت٨١٤هـ/١٤١١م)، نزيل مكة المشرفة، قرأ القرآن العظيم بالقراءات السبع، وقرأ بالقراءات العشر، ووجد بخطه أنه كتب مئة وأربعة وثمانين مصحفًا، جميعها مكتوبة ومضبوطة على الرسم العثماني، وقد جاور المقرئ الحلبي بالحرمين عدة سنين، وسافر منها إلى اليمن، ثم عاد إلى مكة في سنة ٨٠٥هـ، ولم يزل بمكة حتى توفي بها[٣].

ومن المحدِّثين بمكة: أبو الفضل بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد المعطي الكمال الأنصاري الخزرجي المكي المعروف بابن الصفي (ت٨١٤هـ/١٤١١م). سمع من والده والعِزِّ بن جماعة، والحسن بن عبد العزيز الأنصاري، وأجاز له جماعةٌ وحدَّث، ويُذكر أنه كان يعمل «العمر ويبيعها»، ويتردد من مكة إلى اليمن حتى أدركه الأجل في زبيد من اليمن[٤].

ومن قرية القرشية بالقرب من زبيد من اليمن: المقريء أبو بكر بن عمر بن علي القرشي

---

(١) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٠٩، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٧-٥٦٨.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢٧٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص٢٩٨.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤١٦، ٤١٧، ٤١٨، وابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢١٩، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٤٤.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص١٢٩ -١٣٠.

اليمني (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، نزيل مكة، جاور بالحرمين ثلاثين سنة متوالية، كان غالبها مقيما في مكة، وتولى فيها مشيخة القراء برباط ربيع، وأدَّبَ الأطفالَ بالحرمين مدة، وذكر الفاسي: «وكنت ممن قرأ عليه القرآن وغيره، وانتفعتُ ببركة تعليمه، وكان له إلمام بمسائل كثيرة من العبادات وغيرها، وله حظ وافر من العبادة والدين، وكانت وفاته بمكة»[١].

ومن حلي من تهامة اليمن: الشاعر محمد بن حسن بن عيسى بن محمد بن أحمد الحلوي، المعروف بابن العليف (ت٨١٥هـ/١٤١٢م)، كانت له عناية بالأدب والنظم، فكان شاعرًا ماهرًا، نزيل مكة، وكان كثيرَ الشعر، حتى إنه عِيب عليه أنه كان يفضل نفسَه في أشعاره على المتنبِّي وأبي تمام، مع أشعار له تدل على غُلُوِّه في التشيُّع، وله مدائح كثيرة في جماعة من الأعيان، منهم الأشرف صاحب اليمن، والإمام صلاح بن علي الزيدي صاحب صنعاء، وأمراء مكة مثل الشريف ابن عجلان ابن رميثة وأولاده الأمراء، وابن عمهم عنان بن مغامس، ويُذكر أنه كان يتردد إلى مكة، وسمع بها في بعض قدماته من القاضي عز الدين ابن جماعة، وكانت وفاته بمكة[٢].

ومن مكة إلى عدن باليمن: المحدِّث محمد بن عبد الرحيم بن عبد الكريم بن نصر الله بن سعد بن أبي حامد عبد الله بن عبيد الله، العلامة عفيف الدين أبو محمد وأبو السعادات بن الشرف القرشي البكري الشيرازي، الشافعي (كان حيًّا سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م)، كان مولده بشيراز سنة ٧٧٧هـ وكان أبوه قد استجاز له جماعة من شيوخ الآفاق، ثم طلب الشيرازي العلمَ بنفسه، فقرأ على أبيه ، وعلى غيره بمكة، فممن أخذ عنه بمكة إمام المالكية، النور أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد العزيز العقيلي النويري وطائفة، أما من أخذ عنه بعدن باليمن عبد الرحمن بن حيدر الدهقلي، وابن حجر العسقلاني، وكان ذلك سنة ٨٠٦هـ فقرأ عليه

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص١٧، والسخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص٦٤، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٨.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤٧١، وابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٢٤-٢٢٥، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج ٧، ص١١٢، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٨.

مسند الشافعي والبردة، وسمع عليه الأربعين النووية، ولازم مجلسه ما يقارب الثلاثة أشهر، ثم لقيه بمكة مرة أخرى سنة ٨١٥هـ، فقرأ عليه المناسك، وراسله بأسئلة أجاب عنها، وكان المحدث الشيرازي له عناية بالحديث ولقاء الشيوخ[١].

وقدم من مكة إلى زبيد ثم إلى تعزّ باليمن: الفقيه حسام الدين الحسن بن علي الأبيوردي (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، وهو من خُراسان، ارتحل إلى بغداد، فأخذ عن بعض فقهائها، ثم حج إلى مكة، فدرس بها صحيح مسلم، ثم رجع إلى خراسان وما حولها، فقرأ الحديث هناك، ودرس علوم الرياضيات، فتقدم على غيره من أقرانه، وصنف فيها مصنفات مفيدة، وفي سنة ٨١٤هـ عاد إلى مكة حاجًّا، وبعدها في سنة ٨١٥هـسافر إلى اليمن، إلى زبيد، ومنها إلى تعزّ، حتى بلغتْ شهرتُه إلى الناصر الرسولي، فقرَّبه، وجعله مدرسًا للعلوم العقلية في مدارس تعزّ، ومن كتبه: «ربيع الجنان في المعاني والبيان». ذكره السخاوي فقال: «العالم بالمعقولات مع الدين والخير والزهد»[٢].

ومِنْ عدن: الأديب المقرئ رضيُّ الدين أبو بكر بن يوسف بن أبي الفتح العدني بن المستأذن (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، شافعي، حج إلى مكة كثيرًا، كما ارتحل إلى القاهرة، وكان معنيًّا بالأدب، ومهر في القراءات، كما ولي خطابة الجامع الكبير بعدن، وسمع من ابن حجر العسقلاني بعدن كثيرًا، وأدخل إلى اليمن «شرح البخاري» لابن الملقن[٣].

ومن بعض قُرَى اليمن: جابر بن عبد الله الحراشي (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، طلب العلم ومهر في مذهب الزيدية، وقدم الحجاز تاجرًا، وكان اتصاله بالسيد حسن بن عجلان، الذي قرَّبه وجعله متصرفًا في جهاته بجدة[٤].

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص٥٠ ٥١.

(٢) السخاوي، وجيز الكلام، ج٢، ص٤٢٨، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٠٠، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٢٠، أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٢.

(٣) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٢٧، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٢٠.

(٤) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٢٧.

وتردد بين مكة واليمن: الفقيه النحوي أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف الفخر بن جمال الذروي الأصل المكي الشافعي المعروف بابن الجمال المصري (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، ولد ونشأ بمكة، ثم انتقل إلى اليمن، واشتغل بالفقه والنحو وغيرهما، وصار يتردد إلى مكة، فأخذ بها الفقه عن الجمال بن ظهيرة، والأصول عن الشهاب الغزي الدمشقي وغيره، كما سمع في مكة من جماعة، وأجاز له غير واحد من الشاميين، وكتب بخطه الكثير، ونظم الشعر وكان يعمل بالبيع والشراء في زمن الموسم، وذكر الفاسي أنه كان قد تولى الحسبة بعدن، ثم عُزل عنها، وكانت وفاته بمكة[١].

ومن مكة: المحدّث هاشم بن علي بن مسعود بن أبي سعد بن غزوان بن حسين القرشي الهاشمي، أبو علي المكي، المعروف بابن غزوان (ت٨١٦هـ/١٤١٣م). سمع في كبره من محمد بن أحمد بن عبد المعطي وغيره «صحيح البخاري»، وكان يُعاني التجارة، ويسافر لأجلها إلى اليمن، ثم ترك ذلك، وكانت مدة إقامته بمكة أربعين سنة، إلى أن توفي بها[٢].

ومن اليمن: علي بن أبي القاسم بن محمد بن حسين اليمني، المعروف بابن الشقيف الزيدي، (ت٨١٦هـ/١٤١٣م)، كان من أعيان الزيدية بمكة، ممن يُفتيهم ويعقد لهم الأنكحة، وكانت وفاته بمكة[٣].

ورحل من مكة إلى اليمن: المحدّث الأديب محمد بن إبراهيم بن عبد الحميد بن علي، الموغاني الأصل، تقي الدين، المعروف بابن عبد الحميد المدني (ت٨١٦هـ/١٤١٣م). كان قد سمع في مصر من جويرية بنت الهكاري، وعبد الله بن الإمام علاء الدين الباجي وغيرهما، له اشتغال بالعلم، ونباهة في الأدب وغيره، وكانت له مكانة عند أمير المدينة المنورة، ثابت بن نعير بن منصور بن جماز بن شيحة، ثم نال مكانة عند صاحب مكة الشريف حسن بن عجلان،

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢١، والسخاوي، الضوء اللامع، ج١١، ص٧٤.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٣٦١.

(٣) المصدر نفسه، ج٦، ص٢٢٣.

وأعيان جماعته، ويُذكر أنه دخل اليمن، فنال فيه خيرًا، وكانت وفاته بمكة[١].

وقدم من مكة إلى اليمن: الكاتب والشاعر والمجوهراتي أحمد بن الجوبان الدمشقي، شهاب الدين المعروف بالذهبي (ت٨١٦هـ/١٤١٣م). وُلد ونشأ بدمشق، وعُني بصناعة الذهب، وبالكتابة فجوَّد بها، وجلس في بعض القياسر بدمشق للتجارة في البزِّ، وكان يحضر مجالس العلم والحديث، وينظر في بعض كتب الفقه والحديث والأدب، ونظم الشعر، وتردد إلى مكة للحج والتجارة مرَّات، ودخل اليمن في سنة ٨١٦هـ للتجارة، وعاد إلى مكة حيث توفي بها[٢].

ورحل من مكة إلى زبيد: اللغوي محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر بن أبي بكر بن محمود بن إدريس الفيروزابادي الشيرازي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م). شافعي، كان حفظ القرآن، وجوَّد الخط، ونقل كتابين من كتب اللغة وهو ببلده كازرون من أعمال شيراز، ثم انتقل إلى شيراز، وأخذ اللغة والأدب عن والده، ثم عن قوم من علماء شيراز، ثم ارتحل إلى العراق، وقرأ بها القراءات العشر، ثم قدم مكة سنة ٧٦٠هـ ثم سنة ٧٧٠هـ فأقام بها خمس سنين أو ستًّا متوالية، وتكرَّر قدومُه لها، وفي مكة قرأ البخاري، وسمع الجمال أبا عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المعطي بالمسجد الحرام، وكان دخوله زبيد سنة ٧٩٦هـ قادمًا من الهند، فاحتفى به الملك الأشرف صاحب اليمن، وبالغ في إكرامه، وصرف له ألف دينار سوى ألف كان أمر ناظرَ عدن بتجهيزه بها، واستمرَّ مقيمًا في كنفه على نشر العلم فكثر الانتفاع به، كما عين قاضيًا لليمن كله، واستقر بزبيد، وقصده الطلبة وقرؤوا عليه الحديث، وفي أثناء هذه المدة قدم مكة مرارًا فجاور بها وبالمدينة النبوية والطائف، التي يُذكر أنه كان له فيها بُسْتانٌ، كما أنشأ بمكة دارًا على الصفا عملها مدرسةً للأشرف صاحب اليمن، وقرر بها مدرِّسين وطلبة، وفعل بالمدينة كذلك، ثم توقف عن ذلك بعد موت الأشرف، كما حدَّث الفيروزابادي بكثير من تصانيفه ومروياته، إذ سمع منه الجمال بن ظهيرة وروى عنه في حياته بمكة، ويقول المقريزيُّ: إنه اجتمع به في مكة سنة ٧٩٠هـ وقرأ عليه بعض مصنفاته، وناوله قاموسه

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٤٠٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٠.

في اللغة وأجازه وأفاده، كما كان الفيروزابادي كثير الشراء للكتب واقتنائها بمبالغ طائلة، وكانت وفاته بزبيد[١].

ومن الإسكندرية إلى مكة، ثم إلى زبيد: محمد بن محمد بن محمد المخزومي فتح الدين الإسكندراني (ت٨١٧هـ/١٤١٤م). سمع من العلامة جمال الدين ابن نباته «السيرة الهشامية»، وحدَّث بها عنه بمكة، سافر إلى اليمن، وأقام بزبيد، يعمل بالنسخ لصاحبها، ثم انتقل إلى مكة وجاور بها مدة، ثم قصد القاهرة عن طريق البحر فمات في الطور[٢].

ومن علماء مكة: الفقيه محمد بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة بن مرزوق بن محمد بن سليمان، الجمال أبو حامد بن العفيف القرشي المخزومي المكي الشافعي المعروف كأبيه بابن ظهيرة (ت٨١٧هـ/١٤١٤م). وُلد بمكة ونشأ بها، ويُعَدُّ قاضيَ مكة وخطيبَها، وفقيهَ الحجازِ ومُفْتِيَه. سمع في مكة على جملة من العلماء مثل الشيخ خليل المالكي، وعلى الشيخ عبد الله اليافعي اليمني، فضلا عن الجمال محمد بن عبد الله الريمي، شيخ الشافعية باليمن في الإفتاء والتدريس، وكان ابن ظهيرة هذا كثير الاستحضار للفقه مع التميز في الحديث، ومعرفة حسنة باللغة العربية، وله مذاكرة مستحسنة في التاريخ والشعر، وانتهت إليه رياسة الشافعية في مكة، كما درَّس وأفتى، وقُصِد بالفتوى من بلاد اليمن، ويُذكر أن له أجوبة عن مسائل

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٣٩٢ ٣٩٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٧٩-٨٦، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٢٧، و ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٣٨-٢٤٠، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٩٤-٢٩٨، وابن قاضي شهبة ، أبو بكر بن أحمد، (ت٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)، طبقات الفقهاء الشافعية تحقيق: علي محمد عمر، ٢ج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة. ج٢، ص٢٩٧، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٣٣-١٣٤، والسيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢ج، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج١، ص٢٧٣-٢٧٥، وانظر: إسماعيل بن علي الأكوع، الدولة الرسولية في اليمن «٦٢٦- ٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م، جامعة عدن، ٢٠٠٣م، ص١٦، وفضل محمد صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن، ص١٠٠، ومحمد بن يحيى الفيفي الدولة الرسولية في اليمن «دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية»، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٨٣، ٩٢.

(٢) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٣٧ ٢٣٨.

جاءته من عدن، وكانت وفاته بمكة[١].

ومن زبيد: الفقيه علي بن أحمد بن محمد بن سالم (ت٨١٨هـ/١٤١٥م)، شافعي، ولد بزبيد ونشأ بها معتنيًا بالعلم، وتفقه بها، ثم رحل إلى مكة، فأقام بها نحو ثلاثين سنة، وسمع بها وتفقه على علمائها، ثم ارتحل إلى دمشق، ثم مصر، وسمع بهما، فكان معتنيًا بالفقه والنحو والفرائض والحساب والعروض، كما ناب في مكة في نظر المدارس الرسولية عن عمه في أثناء غيبته باليمن، كما درّس بها، ثم رحل إلى اليمن، فأصبح معيدًا في المدرسة المجاهدية بزبيد، حيث اعتنى - إضافة لذلك - بالزراعة ليستعين بذلك على أحواله ومعاشه، وكانت وفاته بزبيد[٢].

ورحل من مكة إلى اليمن: المحدِّث والأديب علي بن محمد بن عمر المصري الأصل، المكي المولد والدار، نور الدين، المعروف بالفاكهاني (ت٨١٨هـ/١٤١٥م). سافر إلى مصر من مكة، وكذلك إلى الشام طلبًا للرزق، وسمع بمصر الحديث على بعض علمائها، ومال للأدب وعُني بتعليقاته من العروض والنحو وغير ذلك، فتنبَّه فيه ونظم كثيرًا قصائدَ وغيرَها، وكان له إقبالٌ على الفقه، وعندما دخل اليمن صحب الصوفية بزبيد، خصوصًا الشيخ إسماعيل الجبرتي وجماعته، ويُذكر أنه دخل اليمن غير مرة، ونال البر عند الملك الأشرف وابنه الملك الناصر، وكانت وفاته بمكة[٣].

ومن الشعراء اليمنيين: أحمد بن علي بن أبي القاسم بن محمد بن حسين اليمني، المعروف بابن الشقيف المكي الزيدي (ت٨١٩هـ/١٤١٦م). عُني قليلا بالعربية والشعر، ونظم الشعر، فمدح السيد حسن عجلان صاحب مكة وغيره، وهجا صاحب ينبع، وكانت وفاته بمكة[٤].

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص٩٤٩٣، ووجيز الكلام، ج٢، ص٤٣٠، وابن قاضي شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية، ج٢، ص٢٩٠، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٣٢، وانظر: عبد الرحمن صالح الله، تاريخ التعليم في مكة المكرمة، دار البشير، مؤسسة الرسالة، عمان، بيروت، ٢٠٠١م، ص٦٥.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص١٣٤، السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص١٨٢، والسيوطي، بغية الوعاة، ج٢، ص١٤٤، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٣، وفضل محمد صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن، ص١٠٤.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص٢٥١، السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص؟.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص١٠٤.

ومن مكة: الفقيه أحمد بن علي بن محمد أبو عبيد الله الفاسي المكي المالكي (ت٨١٩هـ/١٤١٦م)، والد الفاسي مؤلف العقد الثمين، سمع في مكة على علمائها وشيوخها، وسمع بالقاهرة، وبحلب، واشتغل في الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والأدب وغير ذلك، وكان ذا معرفة تامة بالأحكام والوثائق، وله نظم كثير ونثر، ودرّس وأفتى كثيرًا، وحدّث، ويقول عنه الفاسي ابنه: «ودخل ديار مصر مرّات، والشام مرّتين، واليمن مرّتين، وزار المدينة المنوّرة مرّاتٍ كثيرة» وكانت وفاته بمكة[1].

وكان أحمد بن يوسف بن عبد الرحمن ابن الشيخ إسماعيل بن محمد الحضرمي المعروف بالأهدل اليمني (ت٨١٩هـ/١٤١٦م)، نزيل مكة، ويُذكر بالصلاح والخير والإيثار، كان يتردد إلى مكة من بلاده اليمن للحج والزيارة، ثم انقطع بمكة نحو اثنتي عشرة سنة متصلة، وكان في أثناء إقامته بمكة يزور المدينة المنورة، وكانت وفاته بمنزله برباط الشرابي بمكة[2].

ورحل إلى اليمن ثم إلى مكة: المحدّث شهابُ الدين أحمد بن عمر الأنصاري الشاذلي المصري (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م)، وعندما وفد من مصر إلى اليمن قام واعظا ومفسرا للقرآن الكريم بجامع الأشاعر بمدينة زبيد، وأجاز لعددٍ ممن سمع عليه فيها في قراءاته ومروياته، وصحب أكابر الصوفية باليمن، مثل الشيخ أحمد الرداد، ولشهرته جعله الأشرف الرسولي خطيبًا بجامع زبيد، وبقي كذلك مدة، ثم تنقل في مدن اليمن: زبيد وتعزّ وإب، ثم ارتحل من اليمن إلى مكة المشرفة، فأقام في مكة مجلسه للوعظ والتفسير، ومن مكة ارتحل إلى مصر، ثم إلى دمشق حيث توفي بها[3].

ورحل من مكة إلى اليمن: الفقيه موسى بن علي بن محمد المناوي الحجازي المالكي (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م)، نشأ بالقاهرة واعتنى بالفقه فحفظ الموطأ، وكُتُب ابن الحاجب الثلاثة في

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٠٩-١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩٣.

(٣) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٤١-٣٤٢، و بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص١٠-١٢، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٤.

النحو والفروع والأصول، ثم توجه إلى الحجاز سنة ٧٩٩هـ، وتردد في سكنه بين مكة والمدينة، كما دخل اليمن، والتقى به ابن حجر العسقلاني في مكة سنة ٨١٥هـ وسمع كلامه[١].

ومِنْ عُبَّادِ مكة: أبو بكر بن محمد بن موسى بن عمر الجبرتي، المعروف بالمعتمر (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م)، نزيل مكة، وكان كثير العمرة، ومن المجتهدين في العبادة وحُبِّ الخير، ولديه معرفة بعلم الحرف، وعلى ذهنه أحاديث وفوائد، جاور بمكة نحو ثلاثين سنة، وعرفه بها قاضيها محب الدين النويري، واغتبط به، ودخل اليمن قبل موته بنحو خمس سنين، فأُكرِمَ مورده، ونال بها دنيا ورفعة، ثم عاد إلى مكة، فأقام بها إلى أن توفي[٢].

وقدم من مكة إلى اليمن: الفقيه محمد بن أبي بكر بن علي المكي ثم الزبيدي جمال الدين المعروف بالجمال المصري (ت٨٢٠هـ/١٤١٧م). ولد بالذروة من صعيد مصر، ونشأ بها ثم تحول إلى مكة، وسمع من عز الدين بن جماعة، واشتغل بعلمه قليلا، ثم توجه إلى اليمن رسولا من القاضي أبي الفضل النويري، فكان له اتصال بالملك الأشرف صاحب اليمن، فقربه واستظرفه وولاه حسبة زبيد، وصار في اليمن ملجأ للغرباء، ولا سيما أهل الحجاز[٣].(٦٠) كما ولي إمرة زبيد أيام الناصر بن الأشرف في بعض السنين، ثم صرف عنها، وولاه نظر أوقاف المدارس التي بمكة عدة سنين، وكان يحدِّث فسمع منه الطلبة، ويذكر أنه كان كثير التلاوة شجيَّ الصوت، ويشير ابن حجر العسقلاني إلى أنه كان قد لقيه مرارًا زمن الملك الأشرف وابنه الملك الناصر مادحًا له، وكانت وفاته بزبيد[٤].

ومن مكة: الفقيه والخبير بالهندسة والفلك حسين بن علي بن محمد بن داود البيضاوي المكي الزمزمي الفرضي الحاسب (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) سمع بمكة من شيوخ الحرم، وطلب العلم، وعُني كثيرًا بالفرائض والحساب، وله خبرة بالهندسة والفلك وعمل التقاويم، وله تأليف في

(١) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٦٠ ٢٦١.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٧.

(٣) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٦٠.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤٢٨، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٨١١٨٢.

الفرائض والحساب، ويُذكر أنه قدم مصر غير مرّة، ثم دخل اليمن في تجارة، واستدعاه الملك الناصر، صاحب اليمن للحضور إليه، فحضر مجلسه، وسأله عن أشياء، وعن حاسبين عنده، فناله منه برٌّ قليل، وكان ذلك في سنة ٨١٩هـ ثم عاد إلى مكة، وكانت وفاته بها(١).

ومن قُرَّاء اليمن: المقرئ عبد الرحمن بن هبة الله الملحاني اليماني (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، نزيل مكة، كان ديِّنًا عابدًا، مشاركًا في عدة علوم، وكان يتعانى القرآن ويكثر التلاوة، وجاور بمكة،وكان بصيرًا بالقراءات، ومن شيوخه في القراءات محمد بن يحيي الشارفي الهمداني(٢).

وقدم من مكة إلى اليمن الصوفي أحمد بن أبي بكر بن محمد الرداد المكي، شهاب الدين أبو العباس (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)دخل زبيد وله اشتغال بالتصوف، فصحب الشيخ إسماعيل الجبرتي، الداعي إلى فكر ابن العربي، فلزمه، ونظم القصائد الكثيرة في ذلك، ويذكر أنه أصبح من خاصة وندماء الملك الأشرف إسماعيل الرسولي، ثم الملك الناصر من بعده، وتولى قضاء اليمن في آخر عمره، قال ابن حجر العسقلاني: «سمعت من نظمه ومن فوائده»، وذلك عندما وفد ابنُ حجر إلى اليمن(٣).

ومن اليمن: المحدّث سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي بن عمر العدناني التعزي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، المعروف بالعلوي نسبة لعلي بن راشد بن بولان، تفقه على مشايخ أهل بلده والواردين إليها، ومن مكة ومن غيرها، بقراءته وقراءة غيره، فأجاز له البلقيني وابن الملقن من مكة، وغيرهم، كما أُسنِد إليه تدريس الحديث في المدرسة الصلاحية بزبيد، ثم بالمدرستين الأفضلية والمجاهدية بتعز، وارتحل طلبة العلم إليه من الأماكن البعيدة للتفقه والإسماع، قال عنه ابن حجر العسقلاني: إنه عُني بالحديث وأحبَّ الرواية، واستجيز له جماعة

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٢٠٥، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص١٥٢١٥١.

(٢) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٦٧، السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٥٨١٥٧. وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٨.

(٣) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٦٥، السخاوي الضوء اللامع، ج١، ص٢٦١، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ٢٩٩-٣٠١، و أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٤ -٥٨٥.

من المكيين، كما ذكر ابن حجر أنه لقيه أكثر من مرّة، فأسمعه الحديث وسمع منه[١].

ومن اليمن: الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عمر (ت٨٢٢هـ/١٤١٩م). تفقَّه على أبيه وأخيه وعلى المحدِّث برهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي بتعزّ، وسافر إلى مكة المشرفة، فحج وزار، وقرأ على الأئمة هنالك، فأجازوا له، وكان مقرئا فقيهًا نحويًّا لغويًّا، صنف كتبًا كثيرة، منها كتاب «تحفة الطالبين وتذكرة السالكين»، وله ديوان شعر في مجلد ضخم[٢].

وقدم مكة حاجًّا، وجاور بها ثم دخل اليمن الفقيه المحدّث محمد بن محمد بن محمد النحريري (ت٨٢٢هـ/١٤١٩م)، المعروف بابن أمين الحكم، عُني بالحديث من حيث قراءة الصحيح، كما شارك في الفقه والعربية، وأكثر المجاورة بالحرمين، ثم دخل اليمن، فكان يحدّث، فقرأ الحديث بصنعاء، ثم رجع إلى القاهرة حيث توفي[٣].

ورحل من مكة إلى اليمن: المقرئ أحمد بن محمد بن محمد بن يوسف، أبو العباس الجوخي الدمشقي (ت٨٢٢هـ/١٤١٩م). شافعي، نزيل تعزّ، كانت له عناية ببيع الجوخ، فرُزِقَ فيه حظًّا وحصَّل منه ثروةً، واعتنى بعلم القراءات، فقرأ على بعض علماء الشام، ثم في مكة تصدَّى للقراءات فانتفع به جمع من أهل الحجاز واليمن، كما حدّث وهو مجاور بمكة، ودخل اليمن فأقام بها عدة سنين، وكانت وفاته بتعزّ[٤].

ومن صنعاء: الهادي بن إبراهيم بن علي بن المرتضى الحسيني، جمال الدين ابن الوزير (ت٨٢٢هـ/١٤١٩م). وهو من علماء الزيدية باليمن، أقام بصنعاء ورحل إلى صعدة، ومكة، فحج ولقي العلماء، وعُني بالعلم ونظم الشعر الفائق، ومدح المنصور صاحب صعدة وصنعاء، وكانت

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٢٥٩، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٧٣٨.

(٢) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٠.

(٣) السخاوي،الضوء اللامع، ج١٠، ص١٣، ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٧٣، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٥.

(٤) السخاوي،الضوء اللامع، ج٢، ص٢٠٣، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٥٤.

وفاته بذمار[١].

ومن مكة: الفقيه عبد اللطيف بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي المكي (ت٨٢٢هـ/١٤١٩م)، شقيق الفاسي صاحب العقد الثمين، شافعي، ولد بمكة ونشأ بها، وجوّد بها القرآن، وكان ملازمًا في مكة للجمال بن ظهيرة في الفقه، وسمع كذلك فيها على ابن صديق وآخرين، ودخل اليمن مرارًا، وأخذ بزبيد عن مفتيها الشهاب أحمد بن أبي بكر الناشري، وأذِن له بالإفتاء والتدريس، كما سمع من عدد كبير من علماء مكة والواردين إليها، فضلًا عن تنقُّله في التدريس في بلاد أخرى كالقاهرة والإسكندرية، و كانت وفاته بالقاهرة[٢].

ومن مكة كان محمد بن عبد الكريم بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المخزومي، الملقب بالجمال وبأبي سمنطح (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م). ولد بمكة ونشأ بها، وله إجازة من متأخري أصحاب الفخر بن أميلة ومن عاصره، كان يتردد إلى اليمن، إلى زبيد في غالب السنين، وكانت وفاته بمكة[٣].

وقدم من مكة إلى اليمن: المحدِّث الحافظ جمال الدين محمد بن موسى بن علي بن عبد الصمد المراكشي الأصل ثم المكي (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م). نشأ بمكة، وحفظ القرآن وتفقه به، واعتنى بالحديث سماعًا وقراءة ورحل فيه إلى الآفاق، إلى مصر والشام وحلب واليمن وغيرها، ويذكر أنه جمع شيئا كثيرا من ذلك، تحوَّل إلى اليمن، ونقل لليمن تعاليقه وأجزاءه وكتبه، فصار أكثرها بأيدي أهل اليمن، وناله بِرٌّ من الملك الناصر صاحب اليمن، وتولى تدريس بعض المدارس بزبيد، وكان يحج كل سنة ويرجع، وكانت وفاته بمكة[٤].

---

(١) انظر: ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٧٤، البريهي، طبقات صلحاء اليمن،ص١٨-١٩، وانظر: الزركلي، الأعلام، ج٨، ص٥٨.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٤٨٢ ٤٨٦، و السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٣٢٢، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٥ ٥٨٦.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص١٢٣ -١٢٤.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٣٦٤ ٣٦٩، ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٨٢، السخاوي، وجيز الكلام، ج٢، ص٤٦٢ ٤٦٣، والضوء اللامع، ج١٠، ص٥٦، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٦٢.

ومن مكة: محمد بن يعقوب الجمال الجاناتي المكي سبط العفيف اليافعي (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م). ولد بمكة ونشأ بها، واشتغل بالفقه والعربية، وتميز فيهما، وانتفع في العربية وغيرها بزوج أمه خليل بن هرون الجزائري، وأسمعه أخوه الجمال بن موسى على جماعة أيضا، وسافر صحبته في سنة ٨٢٢هـ إلى اليمن، وكان كثير الإقبال على العلم ومطالعة كتبه، وكانت وفاته بزبيد[1].

ومن مكة: الفقيه عمر بن حسين بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشي المخزومي، الملقب بالسراج (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م). ولد بمكة ونشأ بها، وسمع بها على القاضي عز الدين بن جماعة وعلى غيره، وأجاز له من دمشق جماعة من العلماء، ودخل ديار مصر والشام لطلب الرزق، كما دخل اليمن، وكانت وفاته بمكة[2].

ومن مكة: الفقيه أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف الذروي الأصل، المكي المولد والدار، المعروف بابن المرشدي المصري، الملقب بالشهاب بن الجمال (ت٨٢٣هـ/١٤٢٠م)، ولد بمكة ونشأ بها، وسمع بها على القاضي زين الدين أبي بكر بن الحسن المراغي وغيره، وحضر دروس الفقه وغيره عند غير واحد من الفضلاء بمكة، وزار المدينة المنورة في بعض السنين، ودخل اليمن غير مرّة، وفي آخر مرّة في أثناء عودته إلى مكة من اليمن أدركه الأجلُ في البحر فمات غريقًا[3].

ومن مكة: الفقيه علي بن أحمد بن علي بن محمد بن داود البيضاوي، نور الدين أبو الحسن المكي المعروف بالزمزمي (ت٨٢٤هـ/١٤٢١م). ولد ببلاد الهند، وحُمِل لمكة طفلًا، فنشأ بها، وحفظ القرآن العظيم، وكتبًا علمية في فقه الحنفية، وغير ذلك، وأخذ الفرائض والحساب عن عمه الشيخ بدر الدين حسين بن علي الزمزمي، وكان نبيهًا في ذلك وفي الفقه، ورحل لأجل الرزق إلى شيراز، ثم إلى اليمن والهند غيرَ مرّة، ونال في بعضها ثروة من بلاد الهند، وأدركه الأجلُ وهو

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص٤٠٢-٤٠١، السخاوي،الضوء اللامع، ج١٠، ص٨٧.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص٢٨٨- ٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه ، ج٣، ص١٣٠، و السخاوي،الضوء اللامع،ج٢، ص١٠٥،١٠٤.

مسافر لصوبِ الهند من عدن غريقًا[١].

ومن مكة: المحدّث حسين بن أحمد بن محمد بن ناصر الهندي الأصل، المكي المولد والدار، الشيخ بدر الدين الحنفي (ت٨٢٤هـ/١٤٢١م). ولد بمكة ونشأ بها، وسمع فيها من جماعة من الشيوخ، وحدّث عن بعض محدِّثيها، وولي تدريس مدرسة عثمان الزنجيلي بالجانب الغربي من المسجد الحرام، ونظر وقفها في عدن، ثم إنه كان يسافر بين ديار مصر والشام واليمن مرّات لطلب الرزق، ومع ذلك كان يسمع من علماء هذه البلدان[٢].

ومن مكة: المقرئ عيسى بن موسى بن علي بن قريش بن داود القرشي الهاشمي المكي الملقب بالعماد (ت٨٢٥هـ/١٤٢٢م). عُني بحفظ القرآن فجوّده، وكان كثير التلاوة، كما اعتنى بالتجارة، واستفاد عقارًا بمكة وفي بعض أعمالها، وكان له وجودٌ بشد زبيد مع القاضي سراج الدين عبد اللطيف بن سالم، وكانت وفاة المقرئ ابن العماد بمكة[٣].

ومن مكة: الفقيه عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد العزيز، عز الدين أبو المعالي النويري (ت٨٢٥هـ/١٤٢٢م). شافعي، ولد بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن الكريم، والتنبيه للشيرازي، وألفية ابن مالك وغيرها، وقرأ الفقه والنحو، وسمع الحديث على مشايخ مكة ثم رحل إلى القاهرة فقرأ الفقه على علمائها، ثم رجع إلى مكة، حيث تصدر للتدريس بالمسجد الحرام، بعد أن أجازه العلماءُ بالرواية والإفتاء والتدريس، وعقد حلقته العلمية في الحديث بالمدرسة المنصورية بمكة، ثم ارتحل إلى اليمن حيث عين قاضيًا بتعزّ، وجمع له القضاء والتدريس في مدارسها، ثم عاد إلى مكة حيث توفي بها[٤].

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص١٣٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٤، ص١٨٧، والسخاوي،الضوء اللامع، ج٤، ص١٣٧.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص٤٧١.

(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٥٢- ٤٥٤، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص٢٢١-٢٢٢، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٤٣، وعبد العزيز السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية، ص٢٨٧، ويوسف الصبحي، وسام الكرم في تراجم أئمة وخطباء الحرم، ص٢٥٤، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٧.

وكان الفقيه أحمد بن أبي بكر البريهي، الإمام صفي الدين أبو العباس (ت٨٢٥هـ/١٤٢٢م)، يذكر أنه تفقه على مشايخ عصره في اليمن ومكة، كما يشار إلى أنه كان يتكسب من نسخ الكتب، وله مصنفات في الفقه، كما عمل في التدريس والإقراء للطلبة في المسجد الحرام(١).

ومن اليمن: المحدِّث أبو الربيع سليمان بن إبراهيم بن عمر بن علي العلوي (ت٨٢٥هـ/١٤٢٢م)، الحنفي مذهبًا، شيخ مشايخ المحدثين في عصره وأحد الفقهاء المجتهدين في اليمن، وتفقه ببلده بأئمة الحنفية، وأجاز له أبوه في الحديث سنة ٧٥٢هـ ثم حج سنة ٧٨٢هـ فأخذ بمكة عن مشايخها، كالقاضي مجد الدين الشيرازي، والقاضي شهاب الدين أبي الفضل النويري، وعن الزين العراقي، وتقي الدين الهيثمي، وغيرهم، وعمل بتدريس الحديث في المدرسة الصلاحية بزبيد، ثم درَّس الحديث بالمدرستين المجاهدية والأفضلية بتعزّ، التي سكنها، وقصده الطلبةُ إلى هناك، وأفاد واستفاد وتفقه به جمع كثير، وله إجازات من مشايخ الحديث بمصر والشام والمدينة المنورة، وكانت وفاته بتعزّ(٢).

وقدم من مكة إلى اليمن: العابد محمد بن سعيد المغربي (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، المعروف بالمجرد، نزيل مكة كان متعبدًا، تردد إلى اليمن مرَّات، وصحب بها جماعةً من الصالحين، ونال بها برًّا طائلًا، وكانت وفاته بتعزّ(٣).

ومن مكة: الفقيه أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن علي، الذروي الأصل، المكي فخر الدين (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، أجاز له سنة ٧٩٨هـ جملة من العلماء في مكة، وسمع في الفقه، واشتغل به، إضافة إلى النحو، وكثرت عنايته بالأدب، وكان ذا معرفة به وبغيره، ودخل إلى اليمن مرَّات طلبًا

---

(١) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٩٨٩٦.

(٢) بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص٩٤، ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٢٩١، والشرجي، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي، (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م)، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ط١،الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م ، ص٥٥، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٠٧-٢٠٩، وعبد العزيز السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية، ص٣٣٠ ٣٣٣، وفضل محمد صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن، ص١٠٤- ١٠٥.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٢، ص٢١، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص٢٥٣.

للرزق، وقد أدركه الأجل بمدينة زبيد باليمن[١].

ومن اليمن: الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عمر أبو الفرج الناشري (ت٨٢٦هـ/١٤٢٣م)، أخذ عن أبيه وأخيه القاضي عبد الله وغيرهما، ثم عكف على جامع المختصرات للنسائي، بحيث انفرد في اليمن بمعرفته، حج إلى مكة سنة ٨٠٠هـ ثم رجع إلى اليمن فأخذ عنه العلم جماعة، وكان متضلعًا في علوم الفقه والحديث والحساب والتفسير والفرائض والنحو واللغة والعروض[٢].

ومن اليمن: الشيخ عمر بن مسعود بن إبراهيم النشاوري اليمني المعروف بالعرابي (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، نزيل مكة سنة ٨١١هـ، وقد جاور الشيخ العرابي بمكة سنين كثيرة، لعلها تقارب العشرين، ومضى منها للمدينة النبوية زائرًا غير مرّة، وسافر في سنة ٨١٩هـ إلى اليمن وعاد فيها إلى مكة، وأخذ باليمن عن جماعة من الصالحين، منهم الشيخ أحمد الحرضي، المقيم بأبيات حسين ونواحيها، وكانت وفاته بمكة[٣].

ومن مكة إلى اليمن: الشيخ عبد الله بن محمد بن علي بن عثمان العفيف أبو محمد بن الجمال الأصبهاني الأصل، المكي المعروف بالعجمي (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، ولد ونشأ بمكة، وسمع بها من الجمال بن عبد المعطي بعض ابن حبان، وصحب بمكة واليمن جمعًا من الصالحين كأحمد الحرضي وأصحابه بأبيات حسين باليمن، وكان يذاكر بكثير من حكايات الصالحين، وبمسائل من الفقه، وعلى صعيد ظروفه المعيشية كان يُعاني التجارة، ولم يرزق حظًّا فيها، وكانت وفاته بمكة[٤].

ومن مكة: شيخ الحجبة الشيخ حسين بن أبي المكارم أحمد بن علي بن أبي راجح محمد بن إدريس العبدري الشيبي الحجبي المكي، الملقب بدر الدين (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، وهو شيخ الحجبة

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٨، ص٢٢.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٣٥.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٦، ص٣٦٠، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص١٣١.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج٥، ص٢٧٨ -٢٧٩، السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص ٥٩.

وفاتح الكعبة، وتولى هذه الوظيفة سنة ٨١٧هـ حتى مات، وكان قد عُني بالاشتغال بالعربية والشعر وله نظم، وله حفظ لبعض كتب الفقه، وكان قد جوّد الكتابة، وسكن زبيد عدة سنين مع تردد منها إلى مكة، ويقول الفاسي: «ودخل إلى اليمن ومصر طلبًا للرزق، وأدركه الأجل بالقاهرة»[١].

وكان الفقيه محمد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمد البدر القرشي المخزومي الإسكندري (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، المعروف بالدماميني، سمع بالإسكندرية، وبالقاهرة إذ لازم ابن خلدون فيها، وتصدَّر لإقراء العربية بالأزهر، ثم تحول إلى دمشق، ثم حج إلى مكة وسمع بها، ثم عاد إلى مصر فتولى قضاء المالكية بها، ثم ترك القضاء، ورحل إلى اليمن سنة ٨٢٠هـ، فدرّس بجامع زبيد نحو سنة، ثم انتقل إلى الهند، وله جملة من المصنفات، وكانت وفاته بالهند[٢].

ومن مكة: الفقيه محمد الجمال أو البهاء أبو عبد الله (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م). ولد ونشأ بمكة، سمع من الجمال ابن عبد المعطي بعضَ ابنِ حِبَّان، كما سمع من الأميوطي وغيره، ودخل القاهرة غير مرّة فسمع من التنوخي وغيره، ودخل دمشق، وتكرر دخوله لبلاد اليمن طلبًا للرِّزْق، حتى توفي[٣].

ومن مكة: الفقيه محمد النجم الأنصاري الذروي الأصل المكي (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م) المعروف بالمرجاني، ولد بمكة ونشأ بها، فسمع العز بن جماعة وغيره، ورَحل إلى دمشق فقرأ بها على محمد بن أحمد المنبجي وغيره، وتميز في علوم الفقه ومهر في العربية ومتعلقاتها، بحيث لم يبق في الحجاز من يدانيه فيها مع معرفة بالأدب ونظم ونثر، دخل اليمن غير مرّة، وولي تدريس المنصورية بمكة سنة ٨٠١هـ، مع نظر المدارس الرسولية بمكة، واستمر كذلك إلى أن توفي بمكة[٤].

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص ١٨٧، وانظر: ج٢، ص ١٩٩، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص١٨٢.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٥-١٨٦، وانظر: الزركلي، الأعلام، ج٦، ص٥٧.

(٣) السخاوي،الضوء اللامع، ج٩، ص١٣٥١٣٤.

(٤) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٤٣١٤٣٠، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٢-١٨٣.

ورحل من مكة إلى اليمن المحدّث عبد الرحمن بن محمد العدناني التونسي، وجيه الدين البرشكي المالكي، حج إلى مكة، ثم رحل إلى اليمن في سنة (ت٨٢٨هـ/١٤٢٥م)، وكانت إقامته في مدينة زبيد بداية، وأجاز لأهلها، ثم انتقل لمدينة تعزّ، فاستفاد منه أهلها، حيث قرؤوا عليه موطأ مالك، كما درّس بالمدرسة الأشرفية حتى ضاقت المدرسة بالمتعلمين، وأجاز لهم بخطه، وله أشعار عديده في الوعظ وغيره(١).

وقدم من مكة الشاعر واللغوي شعبان بن داود المصري الشاعر (ت٨٢٨هـ/١٤٢٥م)، الذي تعلم في مصر الخط المنسوب، عند الشيخ أبي علي الزفتاوي، ومهر فيه حتى فاق أقرانه، كما اشتغل في العربية والعروض، وأولع بالشعر فنظم الكثير حتى جاد شعره، وتعين في حسبة مصر، ثم خرج من مصر سنة ٨٠٠هـ ودخل اليمن ثم الهند وتكسب بالشعر، وتنقل في البلاد يمدح ويهجو، وسكن اليمن ثم مكة، ثم الشام، ثم رجع إلى مصر، ثم إلى الشام، ثم عاد لمصر، وكانت وفاته بالقاهرة(٢).

ومن مكة: ياقوت بن عبد الله الحبشي، افتخار الدين (ت٨٢٩هـ/١٤٢٦م). عتيق العماد يحيى بن القاضي جمال الدين محمد بن فهد الهاشمي، سمع من بعض الشيوخ بمكة، من أمثال: الجمال الأميوطي، والبرهان الأبناسي، والشريف البنزرتي وغيرهم، ودخل بلاد اليمن طلبًا للرزق، وكان معتبرًا عند كافة الناس، خصوصًا القاضي جمال الدين بن ظهيرة في مكة، وكانت وفاة ياقوت الحبشي في مكة(٣).

ومن مكة: الفقيه محمد الجمال أبو عبد الله الأنصاري المعروف بالمرشدي (ت٨٢٩هـ/١٤٢٦م). ولد بمكة ونشأ بها، وسمع من العز بن جماعة، وأجاز له ابن أميلة وغيره،

---

(١) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٤٨-٣٤٩، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٣٢-١٣٣، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٩١، وعبد العزيز السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية، ص٢٨٧، ورياض علي سعيد المشرقي، التعليم في اليمن في عصر الدولة الطاهرية، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٨٢.

(٢) ابن حجر، ذيل الدرر الكامنة، ص٣٠٣، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٤٤-٣٤٥ .

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤٢٦.

والتقى بالصوفي محمد بن علي بن محمد الخطيب، فألبسه الخرقة، ويذكر أنه حدّث فسمع منه الطلبة، وذكر أنه دخل القاهرة وبلاد اليمن، وذكره ابن حجر العسقلاني فقال: «سمعت منه قليلا ببعض بلاد اليمن»[١].

ومن مكة: الفقيه يحي بن يوسف بن يحي الحمامي المكي (ت٨٣٠هـ/١٤٢٧م). اشتغل بالفقه، وعمل بالتجارة، وسافر لأجلها إلى اليمن وإلى ظفار، ثم عاد إلى مكة، حيث كانت وفاته بها[٢].

ورحل من اليمن إلى مكة: الشيخ علي بن محمد بن يحي نور الدين البعداني اليمني المكي (ت٨٣١هـ/١٤٢٨م)، سكن مكة أكثر من أربعين سنة، وأجاز له في سنة ٨٠٠هـ إبراهيم بن أحمد بن عبد الهادي وجماعة، زار القدس واعتمر منها، وهو القائم بعمارة الرباط المشهور به لجهة فرجان امرأة الأشرف ابن الأفضل صاحب اليمن، ويُذكر أنه حظي باحترام سلاطين اليمن، وشرفاء صنعاء ومكة، وأمراء مصر، وكان صاحب مكة، حسن بن عجلان يجله ويعظمه، حتى قال: ما رأيت في المشايخ أعرف بأحوال الطوائف على اختلاف طبقاتهم منه، وكانت وفاته بمكة[٣].

ومن مكة: الفقيه وشيخ الحرم محمد بن أحمد بن علي الحسني المكي، المعروف بالتقي الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م)، ولد بمكة ونشأ بها وبالمدينة، حفظ القرآن، وغيره، وعرض على جماعة بالمدينة ومكة، وسمع بالمدينة على فاطمة ابنة الشهاب الحرازي وغيرها، ثم ارتحل إلى القاهرة سنة ٧٩٧هـ فقرأ على البلقيني وغيره، وكذلك دخل دمشق، وقرأ على مشائخها، ودخل بيت المقدس، وأماكن كثيرة، ودخل اليمن مرارًا، أولها سنة ٧٨٥هـ وسمع بها من الوجيه عبد الرحمن بن حيدر الدهقلي، والشهاب أحمد بن محمد بن عياش الدمشقي وطائفة، واعتنى بعلم الحديث، وأفاد وانتفع الناس به، وأخذوا عنه، ودرّس وأفتى وحدّث بالحرمين الشريفين والقاهرة ودمشق وبلاد اليمن، بجملة من مروياته ومؤلفاته، وكان ذا يد طولى في الحديث

(١) السخاوي،الضوء اللامع، ج٧، ص١٨٣ ١٨٤.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص٤٥٨.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٦.

والتاريخ والسير، ومن أهم مؤلفاته عن مكة كتاب «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»، وكتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»، وكانت وفاته بمكة[1].

ومن مكة: الفقيه محمد بن علي بن أحمد بن عبد العزيز، المدعو بالخضر الهاشمي العقيلي النويري ثم المكي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م)، ولد بمكة ونشأ بها، وسمع على جدته فاطمة ابنة أحمد بن قاسم الحرازي، والعز بن جماعة وغيرهم، وأجاز له اليافعي وغيره، وحدَّث، وسمع منه النجم ابن فهد وغيره، وقد حفظ «التنبيه» وعرض على جماعة، وتفقه بالأبناسي وأذن له بالإفتاء والتدريس، كما ناب بالقضاء والخطابة بمكة، ودخل اليمن مرارًا للاسترزاق، وكانت وفاته بمكة[2].

ورحل من الحجاز إلى اليمن، المقرئ المحدِّث الشيخ شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد بن الجزري (ت٨٣٣هـ/١٤٣٠م)، شافعي، برع في الحديث والقراءات وغيرها من العلوم، وله فيها التصانيف المفيدة منها «طيبة النشر في القراءات العشر»، و«الحصن الحصين»، وكان كثير التنقل في البلاد، إذ رحل إلى مصر وشيراز والشام والحجاز والروم، ورحل إلى اليمن، فدخل زبيد أيام المنصور بن ناصر، فأكرمه، وعقد مجلس الحديث النبوي بمسجد الأشاعر بزبيد، وقُرئ عليه مسند الإمام الشافعي، وسُنن النسائي وابن ماجه، وحضره فقهاء عصره وأعيانهم، كما دخل تعزّ وعدن، فأخذ عنه جملةٌ من العلماء، وذلك سنة ٨٢٨هـ، وحج في هذه السنة، ثم رجع إلى القاهرة[3].

ومن الذين سمعوا على الجزري من اليمن ، الفقيه حسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن أبي بكر المعروف بابن الأهدل، ولد بالقحزية غربي الحقة من بلاد اليمن، ونشأ بها فحفظ

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٣٣٧- ٣٣٨، ٣٤٠-٣٤١، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٨، وجيز الكلام، ج٢، ص٥٠٥، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص١٩٩، وبامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص١٩٩-٢٠٠، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٨٩، والزركلي، الأعلام، ج٥، ص٣٣١.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٨، ص١٦١-١٦٢.

(٣) بامخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج٢، ص٢٢٩، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٩، ص٢٥٦- ٢٥٧.

القرآن، ورغب في الفقه، فاشتغل في الفقه، وسمع من علماء بلاده، وطالع كثيرًا من كتب الفقه، وارتحل إلى أبيات حسين من اليمن سنة ٧٩٨هـ فتفقه على شيوخها، فأذنوا له بالإفتاء، حج مرارًا وجاور في بعضها، وسمع بمكة من الجمال بن ظهيرة والتقي الفاسي، وسمع بالمدينة من الزين المراغي وأبي حامد المطري، وباليمن من المجد الشيرازي، وابن الجزري لما قدمها عليهم سنة ٨٢٨هـ كما نظر في كتب الحديث والتفسير واللغة والدواوين وكتب الصوفية، وعرف عقائد الأئمة، ومصطلحات العلماء، وله جملة من المصنفات تصل إلى بضعة عشر مصنفًا، وسكن مكة مدة حتى أخذ عنه غيرُ واحدٍ من أهلها والقادمين عليها كالبرهان بن ظهيرة، وابن عمه، وابن فهد، وفي اليمن حدّث وأفتى، حتى أصبح مفتيًا بأبيات حسين وباديتها، بل صار شيخ اليمن دون مدافع[١].

ومن مكة: الفقيه محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو السعادات، المعروف بالمحب الطبري، ولد بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن والأربعين النووية، وسمع على طائفة من أهل مكة والواردين عليها، دخل تعزّ وعدن وزبيد وأبيات حسين وغيرها من بلاد اليمن في سنة ٨٣٣هـ، واجتمع بتعزّ بالجمال بن الخياط الحافظ، وفي زبيد بالشرف بن المقرئ، والناشري، وفي عدن بالقاضي ابن كبن، وفي أبيات حسين بالبدر حسين الأهدل[٢].

ومن مكة: المحدّث عبد الغني بن عبد الواحد بن إبراهيم الفوي الأصل المكي (ت٨٣٣هـ/١٤٣٠م). حنفي المذهب، ولد ونشأ بمكة، فحفظ القرآن، وكتب واشتغل وتبصر في النحو والفقه وغيرها، وأقبل على الحديث، وطلب العلم بنفسه على شيوخ بلده الكثير، وتدرّب فيه بالتقي الفاسي، والجمال بن موسى، كما رحل إلى القاهرة والخليل ودمشق، وكان قبل ذلك قد دخل بلاد اليمن، فصحب هناك ابن الجزريّ، وقرأ عليه معجم الطبراني الصغير في أثناء السفر بحرًا من جدة إلى زبيد في تسعة مجالس، كما كتب عن ابن حجر العسقلاني في أثناء

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص١٤٥- ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٩٠، ١٩٣.

وجوده باليمن الكثيرَ، وكانت وفاته بالقاهرة[١].

ومن اليمن: الفقيه حسن بن محمد بن سعيد الشظبي الحارثي، المحرزي (ت٨٣٤هـ/١٤٣١م)، رحل من بلده إلى صنعاء، فأخذ النحو واللغة والحديث على الأئمة فيها، ثم انتقل إلى تعزّ لطلب العلم، ثم انتقل إلى الحجاز، فدرس على أئمة الحرمين الشريفين في الحديث، ثم رجع إلى صنعاء، فقام بتدريس النحو، وألّف فيه كتاب «تبصرة أولي الألباب في ضوابط الإعراب»[٢].

ومن مكة: الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن أبي بن علي الأنصاري الذروي ثم المكي (ت٨٣٤هـ/١٤٣١م)، شافعي يعرف بابن الجمال المصري، ولد بمكة ونشأ بها، وتفقه بالجمال بن ظهيرة وغيره، وسمع على جماعة من شيوخ مكة والواردين إليها كابن صديق، وأبي الطيب السحولي وغيرهم، وسكن مكة، وأفاد الناس بها بالفقه، ودرّس وانتفع به جماعةٌ، ودخل اليمن غير مرَّة للاسترزاق، وكانت وفاته بمكة[٣].

ومن نساء اليمن: أم الملوك، جهة الطواشي فرحان، وهي والدة السلطان الظاهر بن إسماعيل الرسولي (ت٨٣٦هـ/١٤٣٣م). لها مآثر خيرية كثيرة في اليمن ومكة، منها مدرسة أنشأها ولدها باسمها ورتب فيها إمامًا وخطيبًا، وعشرين قارئًا يقرؤون القرآن، ولها غيرُ هذه المدرسة في زبيد وتعزّ ولَحْج[٤].

ومن اليمن: الفقيه موفق الدين علي بن عطية الدملوي من بلدة الدملوة (ت٨٣٦هـ/١٤٣٣م)، اشتغل بمدينة «إب» بتلاوة القرآن الكريم وتعليمه، ثم طلب علم الحديث فقرأ بتعزّ على مجد الدين الفيروزابادي وغيره، ثم اشتغل بالتجارة، ولازم السفر إلى مكة نحو ١٧سنة، وحصَّل كتبًا

(١) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٥١-٢٥٢، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٠٣، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٩٠.

(٢) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٢١-٢٢٣، عبد الله الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ ص٢١، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٧٦٤.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٣، ص١٢٦، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٠٨.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٢، ص١٥٥، وعبد الله الحبشي، معجم النساء اليمنيات، ط١، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ١٩٨٨م، ص٢١.

جليلة من كتب الحديث والفقه وغيرها، فضبطها أحسن ضبط، ثم انتقل إلى إب فأخذ عنه العلم جماعةٌ من الطلبة[١].

ومن مكة: الفقيه محمد بن علي بن محمد بن أبي بكر القاضي العالم جمال الدين الشيبي المكي (ت٨٣٧هـ/١٤٣٤م)، ولد بمكة ونشأ بها، رحل إلى مصر والشام وغيرها، مشتغلًا بالعلم، وأخذ عنه مشايخ ذلك الوقت، ورجع إلى مكة إمامًا للبيت سنة ٨٢٨هـ وولي قضاء مكة سنة ٨٣٠هـ ورحل إلى اليمن، وكان له اتصال بالسلطان الناصر، إذ صنف له كتاب «الأمثال»[٢].

وممن قدموا من الهند إلى الحجاز، ثم إلى اليمن في سبيل العلم، الواعظ عبد الرحمن بن علي الهندي (ت٨٣٧هـ/١٤٣٤م)، أخذ عن علماء مكة الحديث، وجاور بها، بعد أن قدم اليمن وأخذ عن علمائها، ثم انتقل إلى بيت المقدس، فكان له به مجلس وعظ، وكانت وفاته في طريق عودته لبلاده غرقًا[٣].

ومن مكة: المحدّث محمد بن علي بن محمد الجمال البيضاوي المكي، المعروف بالزمزمي (ت٨٣٧هـ/١٤٣٤م)، وبمكة ونشأ بها، فسمع من ابن القاري جزء ابن الطلابة، ومن الضياء الهندي وآخرين، ودخل بلاد اليمن، وانقطع بها وصار يحج في بعض السنين، وحدّث، وسمع منه النجم بن فهد وغيره، وكانت وفاته بزبيد[٤].

ومن زبيد باليمن: الفقيه إسماعيل بن أبي بكر بن عبد الله المعروف بابن المقرئ (ت٨٣٧هـ/١٤٣٤م). ولد بأبيات حسين ونشأ بها باليمن ثم انتقل إلى زبيد، وتفقه بجمال الريمي، وغيره، كما أخذ العربية عن علماء وقته، وتعانى النظم، ولاه الأشرف صاحب اليمن تدريس المجاهدية بتعز، والنظامية بزبيد، فأفاد واستفاد، حج سنة ٨٠٧هـ، وحدّث بها،

---

(١) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص١٠٣-١٠٤.

(٢) ابن قاضي شهبة، طبقات الفقهاء الشافعية، ج٢، ص٣٣٢، والسخاوي، الضوء اللامع، ج٩، ص١٣-١٤، وانظر: محمد بن يحيى الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن، ص٩٤.

(٣) السخاوي،الضوء اللامع، ج٤، ص١٠٣، وانظر: أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٩٠.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج٩، ص١٥-١٦.

ولقي فيها الولي العراقي بمكة، وشهد بفضله ابن حجر العسقلاني الذي لقيه بمكة، وكانت وفاة ابن المقرئ بزبيد[١].

ومن حضرموت: الفقيه عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن سالم بن محمد بن بريك الحضرمي، ذكر المقريزيُّ أنه قدم في مجاورته بمكة سنة (ت٨٣٩هـ/١٤٣٥م)، فسمع عليه قطعة من صحيح مسلم وأشياء، بل قرأ عليه شيئًا من كتب التصوف وغيره[٢].

ومن جبلة وبلاد تعزّ من اليمن: الفقيه محمد بن أبي بكر بن محمد بن صالح، المعروف بابن الخياط (ت٨٣٩هـ/١٤٣٥م). شافعي، ولد بجبلة من بلاد اليمن ونشأ بها فتفقه بأبيه وغيره، وحصل علومًا أُجيز بعدها للإفتاء والتدريس، وتخرج على عدد من العلماء مثل ابن الجزري لما ورد عليهم باليمن سنة ٨٢٨هـ، وقرأ عليه صحيح مسلم وغيره، ويذكر أنه حج مرّتين، وزار المدينة، وقرأ بمكة على الزين أبي بكر المراغي، والجمال بن ظهيرة، وابن سلامة، وأجاز له جماعة من الحرمين وبيبت المقدس والإسكندرية والقاهرة والشام وغيرها، وذكر أنه درّس بتعزّ وأفتى، وانتهت إليه رئاسة العلم بالحديث هناك، وكانت وفاته بتعزّ[٣].

ومن بلاد تعزّ من اليمن: الفقيه اللغوي عبد المولى بن محمد بن الحسن الخولاني (ت٨٣٩هـ/١٤٣٥م). شافعي، ولد بقرب تعزّ، ولازم بها في الفقه الإمام رضي الدين بن الخياط، والإمام جمال الدين محمد بن عمر العوادي وغيرهما، كما لازم الفيروزابادي وأخذ عنه النحو واللغة، وجاور معه بمكة والطائف، فمهر في علومه، حتى صار مفتي تعزّ مع ابن الخياط[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٢، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٢٠- ٢٢١، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٧٥٣، والزركلي، الأعلام، ج١، ص٣١٠-٣١١.

(٢) السخاوي الضوء اللامع، ج٥، ص٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص١٩٤- ١٩٥، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٢٩-٢٣١، وعبد العزيز السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية، ص٣٣٣، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٧٥٥.

(٤) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٢٩، ابن العماذ الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٣١، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٨-٥٦٩.

ويذكر أنه تفرّغ للتدريس بالمدرسة المؤيدية بتعزّ، وكانت وفاته بها[١].

ومن إب: الفقيه محمد بن عبد الله الكاهلي (ت٨٣٩هـ/١٤٣٥م). أخذ الفقه عن والده وخالِه صفي الدين البريهي، ثم سافر إلى مكة المشرفة، فأقام بها وبالمدينة الشريفة سنة فقرأ على الأئمة هناك، فمن شيوخه المراغي والكازروني وغيرهما، ثم عاد إلى بلده، وتصدَّى للتدريس والفتوى مدة أربعين سنة، وكان يحضر مجلس تدريسه نيفٌ وأربعون رجلًا من الفقهاء والقضاة المنتفعين[٢].

ومن اليمن: محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن الهادي الحسني اليماني (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م). سمع الحديث على جماعة منهم شيخ الحرم جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة، تعانى النظم، وصنف في الرد على الزيدية كتبًا، ذكره التقي بن فهد - من أهل مكة في معجمه، وكان لقيه بمنزله في صنعاء سنة ٨١٠هـ[٣].

ومن الشوائط بلدة بقرب تعزّ: الفقيه والمقرئ محمد بن أحمد بن علي بن عمر الكلاعي الحميري اليماني المكي (توفي سنة بضع و٨٤٠هـ/١٤٣٦م). ولد بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن وتلا به بالسبع والعشر على والده وغيره في الحديث واللغة، كما سمع من غير والده بمكة والمدينة من الجمال الكازروني، كما تفقه بمكة بالشهاب الضراسي اليماني، الذي كان مجاورًا بمكة، كما أخذ عنه مجموعةٌ من العلماء، وتوجَّه إلى مصر سنة ٨٤٥هـ، فأخذ عن جماعة من علمائها كالتقيِّ الشُّمُنِّي، وقرأ على ابن حجر العسقلاني، وكانت وفاته بالقاهرة[٤].

ومن زبيد من بلاد اليمن: الفقيه واللغوي والمحدّث محمد بن محمد بن علي بن إدريس الزبيدي التعزي اليماني (ت٨٤٠هـ/١٤٣٦م). شافعي، كانت نشأته بلحج، حيث قرأ القرآن، واشتغل على والده في الفقه وغيره، ودخل تعزّ وزبيد وصنعاء وصعدة، وتحصل على شيء من

---

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٩٦.

(٢) البريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٩٤، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٩٥.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٧٢، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٢٠-٢٢.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص١٥.

العربية، ونظم الشعر، وأحب طلب الحديث، فأخذ عن الجمال بن الخياط بتعزّ، وحضر عند الفيروزابادي اللغوي فأجاز له، وحج سنة ٨٣٩هـ فسمع بمكة، ثم قدم القاهرة فأكثر عن ابن حجر العسقلاني ولازمه حتى توفي[١].

ومن القراء اليمنيين: المقرئ عبد الله بن محمد بن علي بن أبي بكر أبو محمد بن القاضي جمال الدين الناشري اليماني (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م). أخذ علوم القراءات والفقه والعربية والفرائض والحديث عن مشائخها في اليمن، كما ولي تدريس القراءات بالمؤيدية بتعزّ، والفقه بالبدرية اللطيفية بزبيد، كما ناب في تدريس الصلاحية بزبيد عن خاله، وحج غير مرّة، فأخذ بمكة القراءات عن الزين بن عياش والنجم بن السكاكيني، وتصدّر فيها وفي الفروع، فانتفع به الفضلاء[٢].

وقدم من مكة: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن علي ابن الجمال الأنصاري الذروي المكي، المعروف بابن الجمال المصري (ت٨٤١هـ/١٤٣٧م)، ولد بمكة ونشأ بها، وسمع بمكة من العفيف النشاوري التعقيبات وغيرها، ومن الجمال الأميوطي، وأجاز له العراقي وآخرون، ودخل مع أبيه اليمن، فانقطع بها وتزوج، وصار يتردد لمكة، ثم انقطع بها وحدّث وسمع منه الفضلاء، وكانت وفاته في طريق رجوعه من القاهرة إلى مكة[٣].

ومن مكة: الفقيه المقرئ علي بن داود بن علي بن بهاء الدين نور الدين بن الشرف الكيلاني المكي (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م)، نشأ بمكة، تفقه بابن سلامة والشمس الكفيري، فأجيز بالإفتاء والتدريس، وتلا بالقراءات العشر على ابن الجزري، ودخل اليمن بصحبته سنة ٨٢٨هـ كما ناب في قضاء مكة، واستقل بقضاء جدة سنة ٨٣٥هـ، وكان ينظم الشعر، وكانت

---

(١) المصدر نفسه، ج٩، ص١٤٥-١٤٦،والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٢٤، وابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٣٦، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٩.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٥، ص٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٤.

وفاته بالإسكندرية[١].

ومن مكة: الفقيه محمد ولي الدين أبو عبد الله المالكي (٨٤٢هـ/١٤٣٨م)، ولد بمكة ونشأ بها، وسمع من مشايخها مثل النشاوري وغيره، ودخل الإسكندرية والقاهرة ودمشق والروم واليمن لطلب الرزق، كما أنه ولي إمامة المالكية بمكة وكذلك قضاءها، وكانت وفاته بمكة[٢].

ومن عدن باليمن: الفقيه محمد بن سعيد بن علي بن محمد بن كبن، الجمال القرشي الطبري الأصل اليماني العدني (ت٨٤٢هـ/١٤٣٨م). شافعي، المعروف بابن كبن، ولد بعدن ونشأ بها، وقرأ على قاضيها أبي بكر بن محمد الحبشي، حج سنة ٨٠١هـ واستمع دروس الفقه للأبناسي فأجازه وغيره من العلماء، ومهر في الفقه، وتصدى للتدريس والإفتاء، وولي قضاء عدن نحو أربعين سنة، وكانت وفاته بعدن[٣].

ومن مكة: الفقيه يحيى بن عبد الرحمن بن أبي الخير محمد بن محمد، المعروف بابن فهد (ت٨٤٣هـ/١٤٣٩م). شافعي، ولد بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن، والأربعين النووية، وعمدة الأحكام، والشاطبيتين والحاوي الصغير والتنبيه وألفية النحو. وعرض على جماعة، وسمع الأبناسي، وأبا اليُمْن وغيرهما، ودخل للاسترزاق مصر والشام وحلب والروم وغالب بلاد اليمن، وبلاد الهند، وكانت وفاته في كلبرجة من الهند[٤].

ومن اليمن: الفقيه الطيب بن محمد بن عبد الله بن عمر بن أبي بكر الناشري اليماني، (ت٨٤٤هـ/١٤٤٠م). أخذ عن أبيه في الفقه والتفسير وغيرهما، وعن الشهاب أحمد بن أبي بكر الناشري، حج غير مرّة، وزار، ولقي البرهان بن فرحون والزين المراغي فسمع منهما، وأجازه جماعة، وقد أخذ عنه جماعةٌ من أولاده وأقربائه، وقدم زبيد سنة ٨٢٩هـ فقرأ عليه قريبه

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٢١٩.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص١٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٥٠-٢٥١، ووجيز الكلام، ج٢، ص٥٦٤، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص٣٣١.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج١٠، ص٢٣٣.

العفيف عثمان مؤلف الناشريين[١].

ومن اليمن: الفقيه علي بن أبي بكر بن علي بن محمد بن الموفق بن الجمال اليماني الزبيدي (ت٨٤٤هـ/١٤٤٠م). شافعي، ويُعرف بالناشري، ولد بزبيد ونشأ بها، وحفظ الحاوي، وتفقه بأبيه وعمه القاضي أحمد وبغيرهم من الفقهاء من أهل زبيد، كان قد أكثر من الحج والزيارة في شبيبته، وولي في اليمن قضاء الخيس ثم قضاء زبيد، ثم ولي تدريس الأشرفية بزبيد، كما ولاه الأشرف تدريس مدرسته بتعزّ، وكانت وفاته بتعزّ[٢].

ومن مكة: الفقيه والمقرئ أحمد بن حسين بن محمد بن عثمان الشهاب الخوارزمي المكي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م). شافعي، ممن حفظ القرآن، وأخذ القراءات عن الزين بن عياش، كما أخذ الفقه عن القاضي أبي السعادات بن ظهيرة وغيره، وأخذ النحو عن الجلال المرشدي، وتميّز ودرّس بالمسجد الحرام، ودخل اليمن، وصحب جماعة من الشاميين، وكان ثقة، وكانت وفاته بمكة[٣].

ومن مكة: الفقيه علي بن موسى بن علي بن قريش بن داود الهاشمي الحارثي المكي (ت٨٤٦هـ/١٤٤٢م). ولد بمكة ونشأ بها، وأخذ عن مشايخها، وأجازوه كابن صديق والعراقي والهيثمي، ورحل إلى مصر والصعيد، ثم إلى اليمن فأقام بها دهرًا عند الرضي أبي بكر بن محمد بن عبد اللطيف بن سالم، ثم رجع إلى مكة[٤].

ومن حلي باليمن: الشاعر علي بن محمد بن الحسن بن عيسى اليمني ثم المكي (ت٨٤٧ هـ/١٤٤٣م)، المعروف بابن العليف، قدم مع أبيه إلى مكة، فسكنها، وامتدح أهلها وأمراءها، وكان قد عرّض بابن عجلان، فتوعده، فخاف ورحل إلى فاس، ثم إلى بغداد وخراسان ثم إلى

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص١٤.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٠٥، وانظر: عبد العزيز السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية، ص٣٢٢، ومحمد بن يحيى الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن، ص٩٤-٩٥.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٩١.

(٤) المصدر نفسه، ج٦، ص٤٤.

الهند، وكانت وفاته بها[١].

ومن اليمن: الفقيه المقرئ عثمان بن عمر بن أبي بكر بن علي الناشري (ت ٨٤٨هـ/١٤٤٤م). شافعي، أخذ القراءات في اليمن عن ابن الجزري، وله تصنيف في الناشريين سماه: «البستان الزاهر في طبقات علماء بني ناشر»، ذكر السخاوي أنه طالعه، وقال عنه: «هو مفيد». ويُذكر أن المقرئ عثمان الناشري هذا كان قد حج وجاور، وكان فقيها مقرئا عالما محققا في مجال الفقه والقراءات والفرائض وغيرها مع مشاركة في الأدب والشعر، ودرَّس بمدارس زبيد، ورتبه الظاهر في تدريس مدرسته، فانتفع به جماعة، وولي أيضًا إمامة الظاهرية ثم انتقل إلى إب في سنة ٨٤٨هـ باستدعاء حاكمها أسد الدين أحمد بن الليث السيري الهمداني، فرتبه بمدرسة الأسدية، وأضاف إليه إمامتها وتدريس القراءات بها، وكذلك تدريس المدرسة الجلالية، كما تصدى للفتوى والإقراء، وكانت وفاته في إب[٢].

ومن اليمن: عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية، وجيه الدين القرشي اليماني (ت ٨٤٩هـ/١٤٤٥م). ولد باليمن ونشأ بها، وتردد إلى مكة مرارًا للحج، فسمع من عمه الجمال بن ظهيرة، وابن الجزري، والمقريزي وغيرهم كأبي الفتح المراغي، وأجاز له في سنة ٨٠٥هـ جماعة كابن صديق وعائشة ابنة ابن عبد الهادي والزين المراغي، وقرأ عليه ابن فهد شيئًا بإجازته من ابن صديق، ويقال: إنه كان يتكسب بالتجارة، وكانت وفاته بمكة[٣].

ومن مكة: الفقيه أحمد بن محمد بن محمود الخوارزمي ثم المكي (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م). حنفي، إمام مقام الحنفية بمكة، والمعروف بابن المعيد، ولد بمكة ونشأ بها، وأجاز له في مكة مشائخها مثل النشاوري والجمال الأميوطي والعراقي وغيرهم، وكان شيخًا لرباط رامست، وتدريس الحنفية بدرس أيتمش، والإعادة بدرس يلبغا، ثم ترك التدريس والإعادة، ورحل في طلب العلم إلى ديار مصر والشام وبلاد اليمن والعجم، وكانت وفاته بمكة[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص١٣٤، والبريهي، طبقات صلحاء اليمن، ص١١٤-١١٧.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٧، ووجيز الكلام، ص٦١٠، ويوسف الصبحي، وسام الكرم في تراجم أئمة وخطباء الحرم، ص١٣٩.

ومن اليمن: الفقيه أحمد بن حسين بن محمد الشاوري اليماني (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م). شافعي، قدم مكة في حدود سنة ٨٤٠هـ فحفظ فيها الشاطبية، والبهجة، وجمع الجوامع، والألفية، والتلخيص، ولازم الشهاب الشوابطي حتى جوّد عليه القرآن، بل تلاه عليه جمعًا وإفرادًا، وسكن رباط البدر الطاهر، حتى وافته المنية بمكة[١].

ومن اليمن: عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الله بن ظهيرة القرشي (ت٨٥٠هـ/١٤٤٦م). حنبلي ولد بزبيد من اليمن ونشأ بها، ثم قدم مع أبيه لمكة، وسمع من المقريزي وأبي الفتح المراغي وغيرهم، وأجاز له جماعة في مكة في سنة ٨٣٦هـ، وكانت وفاته بمكة[٢].

• • •

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج١، ص٢٩١، وأسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن، ص٥٦٩.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج٤، ص٣٢٨.

الخلاصة

في فترة الدولة الرسولية: كان لحكام بني رسول في اليمن صلاتٌ قوية بمكة المكرمة، فقد أسس الملك المنصور عمر بن رسول في النصف الأوَّل من القرن السابع الهجري مدرسة المنصورية بمكة، ومدارس أخرى في اليمن، خاصة في زبيد، ورتب في كل مدرسة بناها مدرسًا ومعيدًا وإمامًا ومؤذِّنًا ومعلمًا وأيتامًا يتعلمون القرآن منذ عام ٦٤١هـ بحيث تدرِّس الحديث والفقه (فقه الإمام الشافعي)، وظلت تمارس دورها في التعليم حتى منتصف القرن العاشر الهجري.

وتبين أن هذه الحركة للطلبة والعلماء ما بين الحجاز واليمن خلال مدَّة الدراسة كانت حركة دءوبة ومستمرة، ويلاحظ حرص طلبة العلم من أهل اليمن في أثناء إقامتهم في مكة على الاستفادة من علوم العلماء المقيمين في مكة، ثم يعودون إلى اليمن، ليتولوا مَهامَّ التدريس والإفتاء وغيرها من الوظائف.

وظهر أن من أهم أسباب ودوافع الرحلة بين الحجاز واليمن خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي الحجَّ، ثم التجارةَ بين الإقليمين ، والمجاورةَ عند الحرمين، وتشجيعَ حكام اليمن لكل من العلماء وطلبة العلم للتحرك بين اليمن والحجاز، ورعاية الحرمين الشريفين والمؤسسات التعليمية والخيرية الأخرى.

أما البلدان التي قدم منها العلماء العابرون من مكة إلى اليمن فمنها على سبيل المثال: أصبهان، وشيراز، والهند، وخراسان، مصر (القاهرة، والإسكندرية، وذروة)، وكذلك بغداد، والقدس، ودمشق، وحلب، وحمص، ومراكش، وفاس،وقسنطينة، وتونس.

أما بلدان اليمن التي رحل منها العلماء والطلبة متوجهين إلى مكة فمنها: زبيد، وتعزّ، وصعدة، ولحج، وزيلع، وحراز، وعدن، والقرشية، وأبيات حسين، وحرض، وردماء، وحلي، والقزحية، وحضرموت، وجبلة، وصنعاء، وشوايط، والحديدة، وحمضة قرب حلي، وإب، وبعدان، وتريم، وبيت الفقيه ابن عجيل،والجبزية، وعقيب (من أعمال تعزّ)، وقرية عريش من

(جازان). وهذا يُعطينا فكرة واضحة عن أن العلماء وطلبة العلم الذين تحركوا باتجاه الحجاز وبخاصة مكة، لم يكونوا من منطقة واحدة في اليمن، بل شمل ذلك اليمن كله.

أما أبرز العلوم التي أشير إليها خلال مدَّة الدراسة من خلال نشاط العلماء بين الحجاز واليمن فيمكن الإشارة إلى علوم الفقه والحديث، والقراءات والتفسير، والنحو واللغة والأدب والشعر والخطابة والعروض، والمنطق،والنجوم، والتاريخ، والخط والكتابة، وهناك إشاراتٌ قليلة للعلوم العقلية كالهندسة والرياضيات والفلك وعمل التقاويم والمساحة، والجبر والمقابلة.

ومن أبرز الألقاب التي استُخدمت لمن أسهموا في الحركة العلمية ما بين الحجاز واليمن: مفتي، مدرِّس، محتسِب، ناظِر، قاضي، خطيب، حاجب، إمام، معلم، مؤذِّن، قيِّم، مُعِيد، ناسخ، مؤدِّب، مقرئ، محدِّث، فقيه، أديب، شاعر، شيخ، عابد، واعظ، صوفي. وهذه الألقاب تبين لنا الوظائف والمهام التي شغلها هؤلاء العلماء ودورهم في تلك الحركة العلمية.

وهناك إشارات كثيرة إلى بعض الأعمال التي زاولها بعض العلماء لينفقوا منها على أنفسهم، فبعضهم عمل بنساخة المصاحف أو نساخة الكتب، ومنهم من عمل بالزراعة، ومنهم من عمل بالتجارة. وهناك إشارات عديدة تشير لدخول علماء لليمن في فنون علمية مختلفة ويشار إليهم بعبارة: «ودخل اليمن للاسترزاق»، أو «دخل اليمن طلبًا للرزق». أو «كان يُعاني التجارة ويسافر من أجلها إلى اليمن». كما أشير إلى أوقاف في اليمن على مدارس ومؤسسات في مكة.

أما النساء: فمن نساء مكة اللواتي سُمِع عليهنَّ أو أَجَزْنَ بعضَ العلماء اليمنيين وغير اليمنيين: عائشة ابنة عبد الهادي، أما من نساء المدينة المنورة فهناك: فاطمة ابنة الشهاب الحرازي، ومن نساء اليمن: أم الملوك (جهة الطواشي فرحان)، والدة السلطان الظاهر بن إسماعيل الرسولي (٨٣٦هـ/١٤٣٣م)، ذُكِر أن لها مآثر خيرية كثيرة في اليمن ومكة، منها مدرسة أنشأها ولدُها باسمها في مكة، ورتب فيها إمامًا وخطيبًا، وعشرين قارئًا يقرؤون القرآن، ولها

غيرُ هذه المدرسة في زبيد وتعزّ ولحج.

أما أهم المدارس التي ورد ذكرها في هذه الدراسة فيمكن الإشارة إلى مدارس: مدرسة جهة الطواشي فرحان (أم الملوك) في مكة، ولها مدارس في زبيد وتعزّ ولحج، والمدرسة الأشرفية بمكة،والمدرسة المنصورية بمكة، والمدرسة الباسطية في مكة، ومدرسة عثمان الزنجيلي في مكة.

كما يُشار إلى عدد من مدارس تعزّ مثل: المدرسة الأشرفية، والمدرسة الشمسية، والمدرسة المعينية، والمدرسة الظاهرية، والمدرسة السيفية، والمدرسة الأفضلية، والمدرسة المجاهدية، والمدرسة المؤيدية. أما زبيد فمن مدارسها: المدرسة الظاهرية، ومدرسة مريم، والمدرسة المجاهدية، والمدرسة النظامية، والمدرسة الفرحانية، والمدرسة الهكارية. ومن مدارس مدينة إب: المدرسة الأسدية، المدرسة الجلالية، ومدرسة شنين. ومن المدارس الصوفية: الزمامية، والجمالية، والكلبرجية في مكة.

أما الربط الوارد ذكرها خلال فترة الدراسة، والتي تم تخصيصها لسكنى الفقراء وتعليم الأطفال، فمن أهم هذه الربط بمكة: رباط الجهة، ورباط ربيع، ورباط الشرابي، ورباط رامست، ورباط البدر الطاهر، ورباط الشيخ علي السعداني. كما ذُكِر رباط دكالة بالمدينة المنورة.

كما لوحظ من خلال هذه الحركة العلمية بين الحجاز واليمن كثرة الحاصلين على الإجازات العلمية، وأهم مثال يمكن الإشارة إليه في هذا المجال ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، فقد كان يمنح الإجازات في أثناء تردده بين الحجاز واليمن.

***

Abstract

Scientific and Scholarly Expeditions between Hijaz and yemen »

In the years (800-850 Hijri/1397-1446 AD).

This paper attempts to explore scientific and scholary expeditions

Between Hijaz and yemen in the years (800-850 Hijri/1397-1446 A.D) in the light of the general scientific life in the Arabian peninsula

Scientific and cultural exchange between these denominated areas is given pride of place and prominence. The living condition and versatile lifestyles of scientists and seekers of knowledge and the sciences thy excelled in is also highlighted. Sciences pertinent to the Holy Quran and prophet Mohammads (peace be upon him) traditions (Hadiiths) and aspects related to language were among the most pervasive areas of research common in this period.

Dr. Amer J. Au jabaleh

Dept :History

Faculty of Social Sciences

Mutah University Jordan

***

المصادر والمراجع

أولا: المصادر:

البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن، (من علماء القرن التاسع الهجري)،

طبقات صلحاء اليمن، المسمى (تاريخ البريهي)، تحقيق: عبد الله الحبشي، ط٢، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٤م.

ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن، (ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م)،

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: إبراهيم علي طرخان، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت.

ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)،

ذيل الدرر الكامنة، تحقيق: عدنان درويش، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمد (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)

تذكرة الحفاظ، ٤ج، ط٣، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ١٩٥٧م.

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)،

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ٦مج: ١٢ج، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

المؤلف نفسه، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، ٣ج، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)،

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢ج، المكتبة العصرية، بيروت. د.ت.

الشرجي، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي، (ت٨٩٣هـ/١٤٨٧م)،

طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ط١، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٦م.

ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي، (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)،

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت. د.ت.

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الحسيني، (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)،
العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ٨ج، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.
المؤلف نفسه، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ٢ج، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م.
ابن قاضي شهبة، أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة، (ت٨٥١هـ/١٤٤٨م) ،
طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق: علي محمد عمر، ٢ج، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
بامخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد، (ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م)،
تاريخ ثغر عدن، ٢ج في م١، ط٢، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.

ثانيا: المراجع:

أسامة حماد، مظاهر الحضارة في اليمن في العصر الإسلامي «عصر دولتي بني
أيوب وبني رسول»، ط١، مركز الإسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤م.
إسماعيل بن علي الأكوع، الدولة الرسولية في اليمن «٦٢٦- ٨٥٨هـ/١٢٢٨-١٤٥٤م»، جامعة عدن، ٢٠٠٣م.
رياض علي سعيد المشرقي، التعليم في اليمن في عصر الدولة الطاهرية، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
خير الدين الزركلي، الأعلام، ٨ج، ط١٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩م.
عبد الرحمن صالح عبد الله، تاريخ التعليم في مكة المكرمة، دار البشير، مؤسسة الرسالة، عمان، بيروت، ٢٠٠١م.
عبد العزيز بن راشد السنيدي، المدارس اليمنية في عصر الدولة الرسولية،
«٦٢٦-٨٥٨هـ/١٢٢٩-١٤٥٤م»، ط١، الرياض، ٢٠٠٣م.
عبد الله بن محمد الحبشي، معجم النساء اليمنيات، ط١، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ١٩٨٨م.
المؤلف نفسه: مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٨هـ
فضل محمد صالح محمد، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري الرابع
عشر الميلادي (عصر الدولة الرسولية)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عدن، ٢٠٠٦م.
محمد الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، تحقيق: إسماعيل الأكوع، ط١، وزارة

الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨٤م.

محمد بن يحيى الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن «دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية»، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م.

يوسف بن محمد بن داخل الصبحي، وسام الكرم في تراجم أئمة وخطباء الحرم، (تراجم أئمة وخطباء المسجد الحرام عبر العصور)، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٥م.

* * *

عُلَمَاءُ بِلادِ الرُّوم
(الأَتْرَاكُ العُثْمَانِيون) فِي مِصْر فِي عَصْر دَوْلَةِ المَمَالِيك الجَرَاكِسَة
(٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)

د. إيمان مصطفى عبد العظيم(*)

لَكَ اللهُ مُحْيِي الدِّينِ بَحْرَ مَكَارِمٍ　　وَبَحْرَ عُلُومٍ لَا يُحَاطُ عَمِيقُهُ
فَيَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قَدْ فُقْتَ حَاتِمًا　　وَفِي الْفَضْلِ لِلنُّعْمَانِ أَنْتَ شَقِيقُهُ(١)

المُقَـدِّمَـةُ

تتناول هذه الدراسة موضوعا مهما من موضوعات التاريخ الحضاري، حيث تتعرض لموضوع الاتصال العلمي بين الشعوب، وأثر هذا الاتصال العلمي في تقدم الشعوب، وبيان حضارتها، فعلى الرغم من أهمية دراسة التاريخ الحضاري للدول والمدن على حد سواء، فإنه لم يلق اهتماما كبيرا من جانب الباحثين "وبخاصة في العصر المملوكي"، حيث تم التركيز على النواحي السياسية دون الحضارية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، هذا من المنظور الخاص، أما من المنظور العام فإن العصر المملوكي في مصر والشام، (بصفة عامة) من أكثر العصور التاريخية حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل في هذا الجانب، حيث عانى كثيرا من الإهمال، وقلة الدراسات البحثية، والكتابات التاريخية التي تتناول أحداثه، لسنوات طويلة مضت، ولا يعود ذلك إلى ندرة مصادره الأصلية، فما هو موجود منها يفوق الحصر، بيد أنه كان من أكثر

(*) مدرس التاريخ الإسلامي بكلية التربية عين شمس.

(١) أبيات شعر من قول الشاعر "الشهاب المنصوري"، ت٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، قالها في مدح الشيخ محيي الدين الكافيَجي، أحد أعلام علماء بلاد الروم في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، والذي سترد له ترجمة وافية في صفحات الدراسة، وللمزيد عن الشهاب المنصوري راجع: شعر الشهاب المنصوري، جمع وتحقيق د/ قرشي عباس دندراوي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٦م.

العصور التاريخية التي تعرضت للظلم الكثير- على الرغم من حيويته وأحداثه المهمة-، فلا يمكن أن نتجاهل أن عصر المماليك هو عصر الثروة والرخاء، ورواج التجارة بعد أن غدت دولة المماليك قبلة التجارة العالمية، والمعبر الرئيسي لتجارة الشرق والغرب، وأيضا هو عصر النهضة العلمية، والموسوعات الضخمة، والنشاط الديني والعلمي المزدهر الخصب في كل من المدارس والجوامع والمكتبات.

. وأمام هذا الظلم، جاءت أعمال الجيل الحالي من الأساتذة المصريين والعرب استمرارًا وتأكيدًا على ما أنجزه بعضُ المؤرخين السابقين في سبيل رد الظلم عن هذا العصر المتميز الذي تمت فيه إنجازات ضخمة سواء كانت سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو فكرية أو عمرانية.

وإسهاما في هذه المشاركة؛ لرفع الظلم، وإزالة الغموض الذي يكتنف هذا العصر (بصفة عامة) والجانب الحضاري (بوجه خاص)، وقع اختياري على هذه الأطروحة العلمية، وقد أسميتها "علماء بلاد الروم (الأتراك العثمانيون) في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)".

وأسعى من خلال هذه الأطروحة إلى معالجة أمر الاتصال الحضاري، وبخاصة "العلمي" بين مصر وبلاد الأتراك العثمانيين، التي عُرفت في العصر المملوكي باسم "بلاد الروم"[١] وبخاصة "في عصر دولة المماليك الجراكسة"، فقد غَدت القاهرة - وبحق - في ذلك العصر "قبلة العلم والعلماء"، ووَفد إليها طلابُ العلم من كل صوب، ينهلون من علومها ومعارفها الكثير والكثير، مع توضيح لسمات هذا الاتصال العلمي، وآثاره على هذين القطرين، من خلال عدة عناصر مهمة أساسية هي:

- الحركة العلمية في مصر قبل عصر دولة سلاطين المماليك.
- الحركة العلمية في مصر في عصر سلاطين المماليك.
- القاهرة "قبلة العلم والعلماء" في عصر سلاطين الجراكسة.

---

(١) سوف يرد تعريف جغرافي لهذا المصطلح، ولماذا سميت بهذه الاسم، في الصفحات الآتية من الدراسة.

- المؤسسات التعليمية في مصر في عصر دولة سلاطين الجراكسة.

- الأزهر الشريف وأروقته والإسهام العلمي.

- بلاد الروم بين المصطلح التاريخي والمفهوم الجغرافي.

- الدولة العثمانية: "لمحة تاريخية" بين النشأة والتكوين.

- الاتصال العلمي بين مصر وبلاد الروم في عصر سلاطين الجراكسة.

- نماذج لأبرز علماء بلاد الروم "دراسةً وتدريسًا" في مصر في عصر دولة سلاطين المماليك الجراكسة.

وقد ذيلت هذه الدراسة بخاتمة، ذكرتُ فيها ما وصلتُ إليه من نتائج مهمة خاصة بالعصر المملوكي (بوجه عام) والمماليك الجراكسة (بوجه خاص).

وبعدُ،

فهذه الأطروحةُ ما هي إلا محاولة للتعبير عن رؤية ذاتية لموضوع علمي ثقافي يشكل أهمية خاصة في مجال التاريخ الحضاري لدولة سلاطين المماليك (وبخاصة المماليك الجراكسة)، راجية أن تكون ذات فائدة للقارئ، وحافزًا لي ولغيري من الباحثين على إضافة المزيد من الجهد في مجال الدراسات التاريخية.

والله من وراء القصد.

تمهيد : الحركة العلمية في مصر قبل عصر دولة سلاطين المماليك

أولًا: مصر في عصر الولاة:

فتح العرب المسلمون مصر، فغدت ولاية عربية إسلامية، ضمن ولايات الدولة الناهضة، غير أن مصر في عهد التبعية للخلافة الإسلامية أو ما يسمى بـ"عصر الولاة" لم تكن مجرد إمارة ككل الإمارات الإسلامية الأخرى، بل برزت شخصيتُها المتميزة منذ اللحظة الأولى، ولعبتْ دورًا مهمًّا في أحداث الدولة الإسلامية، نذكر منها الفتنة الكبرى(١)، والنزاع بين الأمين والمأمون في عهد الخلافة العباسية(٢) ، ومسألة المحنة بخلق القرآن الكريم(٣) ، فبعد تمام الفتح، بدأت الثقافة العربية الإسلامية تدخل مصر، فما كاد العرب يستقرُّون، ويقضون على المقاومة البيزنطية، وتصبح مصر ولاية عربية حتى وجدنا صحابة رسول الله ﷺ يتفرقون في كافة البلاد التي فتحتها الجيوشُ الإسلامية، فحضر فريق منهم يعلمون الناس أصول الدين، وينشرون علوم القرآن والحديث النبوي والفقه، واضعين بذلك الأساسَ الأولَ للمدرسة

---

(١) ونقصد بها مقتل الخليفة الراشدي عثمان بن عفان «٢٣-٣٥هـ/ ٦٤٤-٦٥٦م»، والخلاف بين علي بن أبي طالب «الخليفة الراشدي الرابع» «٣٥-٤٠هـ/٦٥٦-٦٦١م»، ومعاوية بن أبي سفيان، الذي انتهى بقيام الدولة الأموية، للمزيد راجع: يوسف العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداءً من فتنة عثمان، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، ١٩٦٥م، ص ص ٢٤-٦٨.

(٢) وتفاصيل هذا النزاع تعود إلى الخليفة العباسي «هارون الرشيد» (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م) الذي جعل ابنه «الأكبر» الأمين وليًا للعهد وأميرًا على الشام، وعهد بالولايات الشرقية إلى ولده «الثاني» المأمون، ثم حدث الخلاف بين «الأمين» وبين شقيقه «المأمون»، وكان من أثره خلع المأمون لأخيه الأمين سنة ١٩٦هـ/٨١١م، ووقفت مصر بجانب «المأمون»، حيث أجابه الكثير من المصريين، وطردت واليها من قِبل «الأمين» المدعو «جابر بن الأشعث».

(٣) مسألة دينية أثارت جدلاً طويلاً بين الفقهاء المسلمين، دارت حول «القرآن الكريم» وهل هو مخلوق أم لا؟، حيث نادت فرقة «المتصوفة» بأن «القرآن» صفة من صفات الله عز وجل؛ لأن الله - ذاته وصفاته - وحدة لا تقبل التجزئة، وقد علق البعض على هذا الكلام قائلا: «إن القرآن يضم حقائق وخصائص متباينة فيها الأمر والنهي، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يكون القرآن كلاما أزليًا، وإنما هو «كلام خلقه الله» عز وجل، ووصل إلى النبي ﷺ عن طريق الوحي؛ (محمد الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية»، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٣٠م، ص ص ٢٨٦-٢٩٦.

الدينية[1] في مصر الإسلامية.

وإلى جانب هذه الحياة الدينية، نشأت حياة علمية خالصة كانت في الواقع استمرارًا للحياة العلمية التي كانت قائمة في مصر في العصور القديمة "الفرعونية وما تلاها من العصور اليونانية والرومانية"، وكانت هذه الحركة العلمية أنشط ما تكون في مدينة الإسكندرية أولا، حيث عُنيت الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك، وغيره، ونقلت الكتب القديمة من القبطية واليونانية والسريانية، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود، ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا في هذه العلوم[2].

ومن الإسكندرية إلى الفسطاط "أُولى عواصم مصر الإسلامية"، التي غدت بعد اكتمال نموها، مركزًا لنشاط حضاري مزدهر في مختلف نواحي الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، حيث نشط الأعلام والنوابغ من المصريين ليشيدوا صروح العلم بها حتى جعلوا من "الفسطاط" مركزا مهما من أهم المراكز العلمية في العالم الإسلامي، يتوافد عليها العلماء والأدباء وطلاب العلم والمعرفة من مختلف الأقطار العربية والإسلامية الأخرى.

ثانيًا: في عصر الدولة الأموية "٤٠-١٣٢هـ/٦٦٠-٧٤٩م":

قام "بنو أمية" في ميدان المدنية والحضارة بخدمات عظيمة[3]، ففي عهدهم بلغت الترجمة أَوْجَهَا، وكثرت التآليف العربية الخالصة، وقطعت مصر شوطا بعيدا في طريق التطور؛ لكثرة

---

(١) اشتد أزر هذه المدرسة المصرية الدينية الناشئة بالتدريج بإقبال الناس على هذه الثقافة الجديدة، وشغفهم بها وارتياحهم إليها؛ وللمزيد راجع أحمد أمين: فجر الإسلام، ج١، دون مكان، دون تاريخ، ص٢٣٣.

(٢) الكندي؛أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري؛: الولاة والقضاة، صححه فن جست، مطابع الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص٤٦.

(٣) إذا عرف الناس مدى التقدم والأوج الذي بلغه بنو أمية في مجال الحضارة لعدوه معجزة بحق، كما أن تاريخ الفن والبناء في عصرهم يُبرهن بما لا يحتمل الشك على أنهم في أمد يسير تذوقوا من الفن ما لم يتذوقه غيرهم في قرون عدة، وللمزيد راجع:

DREYER:*A history of astronomy*,*Dovier Publications*,1953, pp245-246.

عدد الوافدين إليها من الصحابة والتابعين وحملة العلم، وبقدر إقبال القبائل العربية النازحة إلى مصر على هذه الثقافة العربية بقدر دخولهم في الإسلام، وإتقانهم للغة العربية ثم تلقيهم العلم على يد أساتذتهم الجدد وضمهم لهذه الثقافات الجديدة[١].

وعناية "الأمويين" بالعلم، تظهر من أول أيـام خلافتهم مع معاوية بن أبي سفيان [٢]، فهو الذي أنشأ بيت الحكمة[٣] ، كما أنشأ المدارس الابتدائية "على صورة كتاتيب"، ومن بعده، استمر "الأمويون" من "الفرع المرواني"[٤] يعتنون بالعلم وبمؤسساته، ومنها هذا البيت "بيت الحكمة" حتى في أسفارهم وحروبهم يسألون عنه ويهتمون به اهتماما كبيراً[٥].

وفي أواخر العصر الأموي، بدت باكورة الإنتاج العلمي لمدرسة مصر الإسلامية، حث نبغ بعضُ المصريين في هذه العلوم الدينية الجديدة، وبلغ نبوغهم حدًّا جعل أولي الأمر في الدولة الأموية يعهدون إليهم بالفتيا على قدم المساواة مع العرب دون تمييز بين جنس أو لون[٦]، وتحققت الحلقةُ الأولى من حلقات تطور الثقافة الإسلامية في مصر الإسلامية في أواخر العصر الأموي، فبرزت مصرُ في ميدان الحياة الثقافية الإسلامية بطائفة من أعلام أساتذتها، وبنخبة من إنتاجها الديني والثقافي، وبرزتْ في ميدان الفقه والحديث، وبدأ يظهر في أفق "مصر" قومٌ ذاع صيتُهم في مصر وغيرها من البلاد العربية الإسلامية[٧].

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص٤٦.

(٢) مؤسس الدولة الأموية، وقد حكم الدولة الإسلامية في الفترة من «٤٠-٦٠هـ/ ٦٦٠-٦٧٩م ».

(٣) مركز للبحث ومكتبة.

(٤) نسبة إلى مروان بن الحكم، الرابع من حكام الدولة الأموية، وقد حكم في الفترة من «٦٤-٦٥هـ/ ٧٠٤-٧٠٥م».

(٥) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٩٢.

(٦) السيوطي «جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)»: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دون تاريخ، ص ص ١١٩-١٢٠؛ سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في فجر الإسلام «من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية»، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٧٩.

(٧) مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٧٠.

ثالثًا: في عصر الخلافة العباسية:

وبالتحديد في العصر العباسي الأول "١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٦م"، كان قيام الخلافة العباسية إعلانًا بتفوُّق الموالي "المسلمين من غير العرب" في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية أيضا، حيث أثرت هذه العناصر في الثقافة العربية، واشتدت حركة الترجمة، وازدهرت.

وما إن جاء القرن الثالث الهجري حتى نمت مدرسة مصر الإسلامية، نموًّا غريبًا، وبدت شخصيةُ مصر في الناحية الثقافية، وأصبحت مدرسة مصر في مضمار الثقافة العربية الإسلامية تساوي المدارس الأخرى في البلاد الإسلامية الأخرى مثل بغداد وقرطبة وغيرها[١].

وفي النصف الأخير من القرن الثالث الهجري، شهد العالم الإسلامي تطورات مهمَّة، كان أهمها الخروج على الحكم المركزي للخلافة العباسية، فرأينا عمالًا أو "ولاة" يورثون الحكم، ويظفرون باستقلال محلي للبلاد التي يظهرون فيها[٢]، ومن هؤلاء كانت الدول المستقلة في مصر كالطولونية والإخشيدية، والفاطمية، والأيوبية ثم دولة المماليك، وهو ما سنعرض له فيما يلي...

في عصر الدولة الطولونية "٢٥٤-٣٢٣هـ/٨٦٨-٩٣٤م":

ازدهرت الحركة العلمية بمصر لتشجيع "ابن طولون"[٣] للعلماء، وعنايته هو نفسه بالعلم والثقافة، والحالة الصحية في مصر، فقد كان أول من أنشأ أول بيمارستان لعلاج المرضى، في مصر الإسلامية، ونبغ في عهده عدد كبير من الأطباء المسيحيين والمسلمين على حد سواء[٤].

وتُثبت المنشآت العمرانية الكثيرة التي أقامها ابن طولون وابنه خمارويه مدى ما وصل إليه

---

(١) حسن أحمد محمود: مصر الإسلامية «منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٨٥.

(٢) نفسه، ص١١٣.

(٣) مؤسس الدولة الطولونية، وقد حكم في الفترة من «٢٥٤-٢٧٠هـ/ ٨٦٨-٨٨٣م».

(٤) البلوي «أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني»: سيرة أحمد بن طولون، تحقيق محمد كرد علي، دمشق، ١٩٤٠م، ص ص٣١٩-٣٢٥؛ جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج١، ص٩٢.

المهندسون في الفسطاط والقطائع من تقدم علمي(١).

وهكذا، أسهمت مصر في عهد "بني طولون" بنصيب وافر في الحركة الثقافية التي شهدتها الدولة الإسلامية طوال القرن الثالث الهجري، وأصبح المسلمون وقتها وبفضل هذه الحركة العلمية - النشطة - سادة التراث الإنساني سواء عن طريق الترجمة أو التأليف(٢).

وفي عصر الدولة الإخشيدية "٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٤-٩٦٨م":

تميزت مصر بنشاط علمي كبير من جانب الفقهاء والعلماء والأدباء(٣)، فكانت غنية بهذه الطوائف جميعها، حيث اشتهر بلاط "بني الإخشيد" بطائفة كبيرة من العلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين، وكان جامع عمرو بن العاص "الجامع العتيق" وجامع ابن طولون من أهم مراكز الثقافة في ذلك العصر، مما أعاد لمدينة الفسطاط رونقها وبهاءها بعد تخريب مدينة القطائع(٤).

ونبغ في عهد بني الإخشيد كثير من الفقهاء والأدباء والمؤرخين والشعراء، حيث كان للعلم دولة ذات بال في البلاط الإخشيدي، فبرز من العلماء عدد كبير في هذه الحقبة، فكان العلماء من "كافة الطوائف" يلتقون في مجالس الأمراء وعلية القوم، ويحظون بتقدير الأمراء ورعايتهم، كما يلتقون في المساجد للمناظرة، وبحث المسائل الفقهية والأدبية(٥).

---

(١) علي إبراهيم حسن: مصر في العصور الوسطى، الطبعة الثانية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م، ص٨٤، وللمزيد راجع في ذلك: أحمد تيمور: أعلام المهندسين في الإسلام، القاهرة، ص٢٤.

(٢) إبراهيم أحمد العدوي: مصر الإسلامية «مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص٢٧٢.

(٣) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٥، الطبعة الثانية عشر، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٠١٤.

(٤) سيدة إسماعيل الكاشف: مصر في عصر الإخشيديين، الطبعة الثانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٣١٧.

(٥) نفسه، ص ص٣١٨-٣٢٥.

وفي عصر الدولة الفاطمية «٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٨-١١٧١م»:

بلغت مصر الذروة من الناحية السياسية، وبخاصة في عهد «العزيز بالله بن المعز»[١] وأضحت دولة كبرى واسعة تضم دولا كثيرة هي: المغرب ومصر واليمن وشبه الجزيرة العربية والشام وصقلية، غير أنها اتجهت بأنظارها إلى مصر، وبذلت من الجهد «الكثير» في تنظيم شؤونها الداخلية، ونشر الأمن في ربوعها، ووضع النظم الإدارية الدقيقة، والعناية بالجيش والأسطول، وتنمية الزراعة، والنهوض بالتجارة الداخلية، كل ذلك، إلى جانب تدعيم الحركة العلمية في مصر، وتشجيع العلماء والأدباء في مختلف العلوم والفنون[٢].

وبوجه عام، تميزت مصر في هذه الفترة بنشاط فكري في مجال العلم والأدب؛ لأنها فترة خصبة بطوائف العلماء في جميع المجالات، وغدت مدارس مصر من حيث علمائها وإنتاجها الثقافي لا تقل عن مدارس الشام والعراق[٣].

والجدير بالذكر، أن «المسلمين في مصر» حُكَّامًا وشعبًا، في العصر الفاطمي قد بالغوا بشدة في اهتمامهم بإنشاء المكتبات، ومن أشهر مكتبات هذا العصر: مكتبة خِزانة الخلفاء الفاطميين بمصر بالقصر الفاطمي الشرقي الكبير[٤]، التي عُدَّتْ من عجائب الدنيا، ولم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها، حيث كانت تجمع مئتي ألف مجلد «٢٠٠ ألف» من أندر المؤلفات في مختلِف العلوم والفنون، منها ستة آلاف وخمس مئة «٦٥٠٠» مجلد في الفلك والطب، كان يأتي إليها العلماء والطلاب لاستعارتها ومطالعتها والاستفادة منها، كما ذكر المقريزي في كتابه

---

(١) ثاني خلفاء الفاطميين بمصر، تولى مقاليد الحكم في مصر بعد وفاة والده «المعز» في الفترة من «٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٦-٩٩٦م».

(٢) جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج١، ص١٥٢.

(٣) خضر أحمد عطا الله: الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ، ص٣١.

(٤) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر وسياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ص١٥٤-١٦٠.

«المواعظ والاعتبار» المعروف باسم الخطط المقريزية[١].

وقصارى القول، إن الحركة العلمية في العصر الفاطمي سارت بخُطى واسعة نحو التقدم والارتقاء، فتفوقت على مثيلتها في العهد الطولوني والإخشيدي، كما تميزت بنشاطها الواسع فكان في مصر طائفة من علماء الدعوة الفاطمية والمؤرخين والفلاسفة والأدباء، أسهموا في النهضة الثقافية التي تجلت في ذلك العصر.

وفي عصر الدولة الأيوبية «٥٦٧-٦٤٨هـ/١١٧١-١٢٥٠م»:

واصلت مصر عنايتها بالحياة العلمية، فانتعشت وأثمرت، وأصبحت مدينة الفسطاط مركزًا لحركة علمية واسعة النطاق، وظهر فيها كثيرون من العلماء المصريين، كما وفد على مصر علماء وأطباء من مختلف أنحاء العالم الإسلامي مشرقه ومغربه[٢].

فقد كان صلاح الدين «مؤسس الدولة»[٣] يدرك تمامًا أهمية العلم ودوره في بناء الدولة، فسعى يؤسس مدارس عدة، في كافة أنحاء البلاد، ويُلحق بكل مدرسة مكتبة صغيرة، وهذه المدارس مدارس جامعة يدرس بها مختلف العلوم والفنون، كما ألحق بها مساكن للطلبة وحمامًا يستحمون به، وبيمارستان للعلاج لمن يمرض منهم.[٤] ومن بعده في عهد خلفائه، انتشرت المدارس بطريقة رسمية للقضاء على بقايا المذهب الشيعي في مصر حتى بلغ عدد المدارس في القاهرة والفسطاط «خلال العصر الأيوبي» نحو أربع وعشرين» مدرسة[٥].

(١) المقريزي« تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)»: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، ج١، تحقيق د/محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٥٧؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر «تفسير جديد»، الدر المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ص٥٩٤-٦٠٩ .

(٢) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ج٢، ص٤١.

(٣) مؤسس الدولة الأيوبية، وقد حكم مصر في الفترة من «٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٨-١١٩٣م».

(٤) جمال الدين الشيال: المرجع السابق، ج٢، ص٤٤.

(٥) محمد عبد المنعم الجمل: معالم تاريخ مصر الإسلامية «من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي»، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، دون تاريخ، ص ص١٥٧-١٥٩.

ومن بعد الأيوبيين، وانقضاء عصرهم، جاء السلاطين المماليك، فكيف كان حال الحركة العلمية في مصر في عصرهم؟! هل استمرت؟ هل شهدت رواجًا وازدهارًا؟ أم حدث لها توقفٌ ولم تستمرَّ مسيرتُها؟؟

تساؤلات عدَّة، نجيب عليها فيما يلي من سطور...

الحركة العلمية في مصر في عصر دولة سلاطين المماليك

«٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م»:

أولى السلاطين المماليك جل اهتمامهم بالعلم والحركة العلمية، فالمماليك رعاة للعلم والفنون - التي لم تشهد لها مثيلًا - منذ عهد البطالمة، وتمتعوا بذوق راق وحب للفنون، فملأوا سماء القاهرة بالتحف الهندسية الرائعة[١]، ووصلت الفنون - في عهدهم - حد الروعة والإتقان والرقي، ويشهد على ذلك ازدهار فن النحت على الخشب، وصناعة التحف المعدنية.

كما ازدهرت الحياة الأدبية في مصر المملوكية ازدهارا واسعا وبصورة لم تشهدها من قبل في تاريخها الوسيط[٢]، وظهرت فئة من الشعراء عُرفت باسم شعراء المديح النبوي في مدح النبي ﷺ.

وحظي النتاج اللغوي بعناية كبيرة، حيث انفرد العصر المملوكي بنوع خاص من الأدب تبلور فيه هو "الأدب الشعبي"[٣].

ونتيجة لهذا الاهتمام وتلك العناية البالغة أصبحت مصر مركزا للعلوم والآداب

---

(١) لا تزال القاهرة - حتى يومنا هذا - تزخر بالمساجد والمدارس والقباب والخوانق والأضرحة والقصور والأسبلة والحمامات والبيمارستانات... وغيرها من التحف المعمارية، فقد عُني السلاطين وأمراؤهم عناية تامة - منذ قيام الدولة - بتشييد المنشآت العامة حتى يكاد يخطئها العد.

(٢) وإن كان يؤخذ - على الأدب «شعرًا ونثرًا» ضعف اللغة العربية الفصحى، ودخول ألفاظ دارجة عليه، وخلوه من الابتكار والتجديد.

(٣) محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ص٢٩٦-٢٩٧.

الإسلامية والعربية، وانتقل إليها النشاط العلمي بعد العراق، وقرطبة، وحلت القاهرة محل بغداد وقرطبة، وأخذت من ثم زمام الأمور، واقتعدت مقعد الزعامة، وهيأ لها أهلها وسلاطينها ما عاونها على بلوغ هذه الغاية.

واحتلت مدينة القاهرة مكانة عظيمة، في التاريخ الحضاري لمصر خلال العصر المملوكي، فقد كانت منافسة قوية لمدينة بغداد "عاصمة الخلافة العباسية" و"قبلة العلم والعلماء" لقرون طويلة[١]، بل وغدت وريثة لها "بغداد" - فيما بعد - أيام حكم الدولة الفاطمية سياسيًّا ومذهبيًّا، فكانت القاهرة عاصمة الإسلام بالمشرق الإسلامي، في القرن الرابع الهجري، ثم أصبحت العاصمة الأولى في العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري، مع قيام دولة المماليك في مصر على يد "الظاهر بيبرس" المؤسس الحقيقي لدولة المماليك، وإحياء "الخلافة العباسية"، وبقيت على هذا الحال إلى أوائل القرن العاشر الهجري، ولم تنزل عن هذه المرتبة إلا يوم أن استولى عليها الأتراك العثمانيون سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، حيث صارت مصر بكل مدنها مجرد ولاية من ولايات الدولة العثمانية.

والسؤال الآن: كيف وصلت القاهرة لهذه المكانة المهمَّة في المجال الحضاري؟

ونجيب على ذلك، فنقول:

سقطت بغداد تحت أقدام المغول سنة "٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م"، فاجتاح المغول الجانب الشرقي للعالم الإسلامي، ودمروا حضارته، وهدموا في سنين قليلة مدنية بل حضارة بناها المسلمون في قرون عديدة، وقتلوا خليفة المسلمين ومعه الكثير من المسلمين حتى كانت الدماء تجري كالأنهار، وزادوا على ذلك، فانقض هؤلاء البرابرة على الكتب في المكتبات المتعددة يحرقونها، والمؤسسات العلمية يزيلونها لا يلوون على شيء[٢].

وبسقوط بغداد، وزوال دولة الخلافة الإسلامية، ضاق ميدان العلم والأدب بها، فقد أباد

---

(١) للمزيد من التفاصيل عن الحياة العلمية في بغداد، وتألقها الثقافي والحضاري زمن الخلافة العباسية راجع: جي لي سترانج: بغداد زمن الخلافة العباسية، ترجمة بشير يوسف فرنسيس، المطبعة العربية، بغداد، ١٩٣٦م.

(٢) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٤، ص١١٥٠وما بعدها.

المغول عددًا لا يحصى من علماء بغداد وأدبائها، وفر من وجههم آخرون، وأتلف المغول آلافًا مؤلفة من ذخائر العلم والأدب ونتاج الفكر العربي الإسلامي، مما بذل فيه أبناء هذه الدولة والحضارةِ العظيمة - من جهد علمي متواصل - خلال خمسة قرون.

وعلى الجانب الغربي، كان هناك هجوم مماثل حدث في الأندلس وشمالي أفريقية، حيث كان مسلمو الأندلس آنذاك في تقهقر مستمر، وكان سلطانهم يضعف أمام ضربات الفرنجة، ورقعة ملكهم تضمر وتنكمش، في الطريق إلى النهاية التي تمت في سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م، فقد كان طغيان الفرنجة مدمرا عاتيا، وامتد عدوانهم إلى الشمال الأفريقي، فأسقطوا بعض مدنه وهددوا ساحله[١].

ونتيجة لهذا الدمار في الشرق والغرب، تلفت المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، يبحثون لهم عن ملجأ يلجئون إليه، ودارة رحبة الصدر حانية تحتضن علومهم وآدابهم، وتكون مركزًا لها، ومحورًا لأمصارها المختلفة، القاصية منها والدانية، فلم يجدوا غير مصر، وسلطنتها المملوكية، وشعبها البر الكريم.

وهكذا، وقفت مصر في منتصف الطريق تستقبل النازحين من هنا ومن هناك، وتستخلص الكتب التي نجت من هول الحريق والدمار، وتفسح صدرها للعلماء الذين فروا من العسف والعدوان، وتركزت آمال المسلمين في مصر، وآمال الفكر الإسلامي في معاهد القاهرة، وبخاصة الأزهر الشريف.

وجاهدت مصر "بقوة السلاطين المماليك" حتى أوقعت بالمغول، وفرقت شملهم في موقعة "عين جالوت" سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وأنقذت منهم العالم الإسلامي.

وقامت سلطنة المماليك في مصر والشام، وسعى سلاطينها بجد ومثابرة على إحياء وازدهار الحياة العلمية للمسلمين من جديد.

واكتسبت مصرُ بما فعلت، مكانا جديدا في الحياة الإسلامية، وفي المجال العربي، وأصبحت

---

(١) اللجنة العليا للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر: الأزهر تاريخه وتطوره، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١١٠.

عاصمتها مركزًا تطوف به قلوب المسلمين قاطبة، وصارت أبوابها الحصن الحصين، والركن الركين الذي يلوذ بأكنافه ذوو الحاجات العليا من أبناء البلاد الإسلامية، ملوكًا وأمراء، وعلماء وأدباء،... وغيرهم.

وهكذا، غدت القاهرة عاصمة النور و"قبلة العلم والعلماء" في ذلك العصر المتميز. وسوف نتحدث عن دورها في إثراء الحركة العلمية فيما يلي من سطور.

الحركة العلمية في قاهرة المماليك الجراكسة

وقاهرة المماليك من الناحية الثقافية أعظم أثرًا وأبقى ذكرًا، وهي دون نزاع أكثر العواصم الإسلامية ازدهارًا بالدرس والبحث في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، فقد حلت محل بغداد وقرطبة، واستقبلت العلماء والباحثين الذين لم يجدوا سبيلًا للعيش في العراق والأندلس، وعمرت بمدارسها المتعددة، التي تنافس المماليك في تشييدها سلاطين وأمراء.

والحديث عن الحركة العلمية في القاهرة زمن دولة سلاطين المماليك، يقتضي منا الحديث ولو في عجالة عن دور العلم ومؤسساته في العصر المملوكي، وهو ما سنعرض له فيما يلي:

دُور العلم في مصر في عصر دولة سلاطين المماليك:

شهدت مصر في عصر سلاطين المماليك نهضة علمية ورواجًا ثقافيًا، لم تر مثيله من قبل، حيث كان إنشاء دُور العلم وسيلة أساسية لتنشيط الحركة العلمية، ونشر العلم والثقافة العربية الإسلامية، وذلك لما تضمه "هذه الـدور" من مدرسين وطلاب، ولما يقرر فيها من مناهج ودروس وعلوم، إلى جانب كونها بيئات طبيعية ينمو فيها العلم ويزدهر.

وتتمثل دُور العلم حينذاك، فيما أنشئ من المكاتب والمدارس والمساجد، وما شيد من الخوانق والأربطة والزوايا، سواء أكانت في القاهرة أم غيرها من البلاد لتدريس علوم الدين، ومذاهب فقه أهل السنة، وما يتصل بها، فكانت المدارس بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن[١]، فقد تسابق سلاطين المماليك وأمراؤهم على إنشاء المدارس بصورة لم نعهدها من

---

(١) أحمد عبد الرازق أحمد: الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ص٢١-٣٦.

قبل، وربما كان الدافع وراء ذلك أسباب عدة[١]، حتى بلغت من الكثرة ما جعل الرحالة المغربي "ابن بطوطة" يشيد بها حيث قال: "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"[٢].

كذلك اهتم منشئو هذه الـدُّور العلمية بأن تبقى مفتحة الأبواب، عامرة بطلاب العلم ورواد المعرفة، فأوقفوا عليها أوقافًا طائلة من دور ورباع وأسواق وغيرها، وجعلوا نظرها إلى ذريتهم من بعدهم، وربما لكي تنتفع هذه الذرية[٣].

وما يهمنا هنا أن نلقي الضوء، على أهم هذه الـدور العلمية التي تبوأت مركز الصدارة في الحركة العلمية خلال العصر المملوكي، ألا وهو الأزهر الشريف:

الأزهر الشريف وأروقته والإسهام العلمي:

الأزهر أقدم جامعة إسلامية كبرى، من أقدم جامعات الدنيا، إن لم يكن أقدمها، فقد بُـني منذ أكثر من ألف عام، فالعصر المملوكي من أزهى فترات الدراسات التاريخية في العصور الوسطى، لما اشتمل عليه من مظاهر التفوق السياسي والاقتصادي لمصر بين شتى بلاد العالم بفضل إنجازات سلاطين المماليك والشعب معًا.

وفي عهد المماليك الجراكسة "على وجه الخصوص" كان عصر الأزهر الذهبي سواء من حيث المكانة العلمية أو النتاج الفكري؛ ذلك أنه لم يجتمع في عصر سابق من تاريخ مصر الإسلامية جمهرةٌ من العلماء الأعلام في كل فن وعلم مثلما اجتمع في ذلك العصر، ولم تصدر مثل هذه الثروة الفكرية الضخمة التي تمتاز كذلك بتنوُّعها، وكان بين أقطابها كثير من علماء الأزهر أساتذة وطلابًا[٤].

---

(١) من بين هذه الأسباب دافع التقوى والزلفى، وربما كان دافع محاربة المذهب الشيعي، وربما كان الدافع أن يصبح الإنشاء أداة لبقاء الحكم في أيدي سلاطين المماليك وتدعيم مركزهم في أعين الناس.

(٢) ابن بطوطة «محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)»: رحلة ابن بطوطة» تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، ج١، طبعة باريس، ١٩٦٩م، ص٧٠.

(٣) محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك، ج٣، القاهرة، دون تاريخ، ص٢٣٥.

(٤) عبد الوهاب حمودة: صفحات من تاريخ مصر، دون مكان، دون تاريخ، ص ص٨٦-٨٧.

وفيه، استعاد الأزهر نشاطه العلمي، وأضحى مركز البحث الأول في العالم الإسلامي جميعه، يؤمه الطلاب من كل جانب من الصين والهند وفارس والعراق والشام والمغرب، للتعمُّق في دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقينه وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو، فالعصر المملوكي بالنسبة للأزهر الشريف هو العصر الذهبي إنتاجًا وزعامةً، نعِم فيه بعدد غير قليل من كبار الشيوخ والعلماء، وحظي بقدر كبير من القداسة والاحترام، فكان السلاطين المماليك أنفسهم يقربون العلماء ويحتفون بهم، وكثيرًا ما استشاروهم في مهام الأمور[1].

وهكذا، نهض الأزهر بالمهمة التي ألقتها عليه الأقدارُ خيرَ قيامٍ، أما سلاطين المماليك فقد غذوه بالمال والتأييد.

وفي مستهل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، اتخذ فريق من الطلاب من العجم والمغاربة وأهل ريف مصر الأزهر مسكنًا لهم، وقد أقام كل فريق من هؤلاء الطلاب في مكان خاص أطلق عليه "رواق"[2].

وأصبح الأزهر في ذلك الوقت عامرًا بالقرآن وأساتذة الفقه والحديث والتفسير زاخرًا بمجالس الوعظ وحلقات الذكر، وظل هذا المعهد الإسلامي على هذا النحو حتى أسند المؤيد شيخ سنة "٨١٨هـ/ ١٤١٥م" ولاية النظر على الأزهر الشريف إلى الأمير سودون حاجب الحجاب[3].

وأما العلماء المصريون والوافدون فقد سجلوا به أزهى عصوره، نذكر منهم: القلقشندي، ابن خلدون، ابن بطوطة، الأصفهاني،... وغيرهم كثيرون.

---

(١) محمود الحويري: المرجع السابق، ص٢٩٣.

(٢) رواق، والجمع «أروقة» لفظ أطلق على المساكن التي خصصت لطلاب العلم الوافدين على الأزهر الشريف سواء من مصر أو من خارجها، ويرى البعض أن هذه التسمية ربما نشأت بسبب شغل الطلبة لأروقة المسجد المحيطة بالصحن وتوطنها، كما هو موجود إلى الآن في الأروقة الجنوبية للصحن، والتي تشغلها أروقة الجبرت، والأتراك، والمغاربة، وبها دواليب أمتعتهم المصنوعة على الطراز العربي؛ (اللجنة العلمية: الأزهر، ص٨٦).

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ص٢٧٦-٢٧٧.

وقد ابتدأت هذه الفترة الزاهرة في القرن الثامن الهجري، وبلغت ذروة مجدها في القرن التاسع.

وفي رحابة أروقته تحققت الوحدة الإسلامية الكبرى، تحقق الإخاء الإسلامي بأوسع معانيه، وتحت لواء الإخاء وشعار الوحدة ذابت فوارق الألوان واللغات والأجناس، فكلهم ينضوون تحت جامعة واحدة هي جامعة الإسلام، ويَلْهَجُونَ بلغة واحدة هي لغة القرآن.

وقبل الختام لنا كلمة أخيرة: فالواقع أن المجال لا يتسع لذكر جميع جوانب الحياة العلمية والأدبية والدينية في مصر في العصر المملوكي، فضلًا عن كل الشخصيات التي أسهمتْ بجهودها في بناء حضارتها الزاهرة، وكل ما نستطيع قوله هو أن القاهرة غدت مركز الإشعاع العلمي والثقافي في العالم الإسلامي كله، ومقصد العلماء المسلمين من كل حدب وصوب.

وننتقل الآن إلى الجزء الثاني من هذه الدراسة، ونتناول فيه الحديث عن "بلاد الروم" أو الدولة العثمانية، من خلال التعريف بهذا المصطلح الجغرافي، وبيان المفهوم التاريخي المرتبط به، ثم نقدم لمحة تاريخية موجزة عن نشأتها، وظروف تكوين دولتها الواسعة مترامية الأطراف.

فلا شك أن الأتراك "العثمانيين" شعب من الشعوب الإسلامية الذين لعبوا دورًا مهمًّا في التاريخ الإسلامي، وملأوه بالأحداث المهمَّة، فقد مرت بهم الغالبية العظمى من مظاهر الحضارة " طيبها" و"شرها"، من البداوة إلى الإمبراطورية، من أدنى مستويات الحكم القبلي إلى الدولة الإسلامية العامة، حيث امتد عمرُها إلى ستة قرون، منها ثلاثة في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، وثلاثةٌ في العصر الحديث.

بلاد الروم بين "المصطلح التاريخي" و"المفهوم الجغرافي"

أطلق الجغرافيون العرب المسلمون "بوجه عام" في العصور الوسطى، و"بوجه خاص" في العصر المملوكي" اسم أو مصطلح "بلاد الروم" على ذلك الجزء من الأرض الآسيوية الذي كان معروفًا باسم "آسيا الصغرى"، هذا الجزء من الأرض التي شكلت جزءًا من ممتلكات الإمبراطورية

الرومانية الشرقية "البيزنطية"، وصارت بعد قيام المملكة الإسلامية المسماة "السلاجقة" أو"سلاجقة آسيا الصغرى" ضمن ممتلكاتها، بيدَ أن هذه المملكة ظلت تدعى: الروم، أو أرض الروم، أو بلاد الروم، بوصفها أرضًا بيزنطية قديمة، فمن أين جاءت هذه التسمية؟

آسيا الصغرى أو" الأناضول":

كلمة الأناضول (أناطولي) في التركية تعني: شبه الجزيرة الجبلية الآسيوية أي (القسم الشمالي الغربي من قارة آسيا، المتجهة نحو أوربا أي نحو شبه جزيرة البلقان)، وهو الجزء الذي عُرِف قديمًا باسم" آسيا الصغرى"، أي الجسر الذي يربط آسيا الغربية بأوربا الوسطى على مدار التاريخ.

والأناضول جغرافيًا عبارة عن هضبة فسيحة مرتفعة، تحيط بها سلسلة من الجبال، وترتفع عنها في الشمال والجنوب مكونة في الوسط ما سمى بـ"الأناضول الأوسط".

والآن، تمثل الأناضول القسم الآسيوي من دولة تركيا المعاصرة، ويشمل أرض الجزيرة العليا من ديار بكر، وكردستان، وأرمينية[١].

وقد استخدم المؤرخون المعاصرون هذا المصطلح " بلاد الروم"، و" أرض الروم"، وبعض مترادفاته مثل: "ملك بلاد الروم" و"متملك بلاد الروم" و"أرض ابن عثمان" و"ابن عثمان" كثيرا في كتاباتهم المعاصرة، ومن هؤلاء: المقريزي، وابن حجر العسقلاني، والعيني، وابن إياس، ونستدل على ذلك بذكر عدة أخبار وردت في مصادرنا العربية، خلال سنوات مختلفة - طوال العصر المملوكي الجركسي وحتى قرب نهايته -، نذكر منها:

في المحرم " سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م":

فيه، قدم رسول ملك الروم- أبو يزيد بن عثمان، وأخبر أن تمرلنك رحل عن أذربيجان ورجع إلى سمرقند، وأنه وقع في عسكره الفناء والغلاء[٢].

---

(١) للمزيد راجع: د. عبد الله جمال الدين: من تاريخ الشرق الإسلامي في العصر الحديث.

(٢) ابن إياس" محمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)": بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق٢، تحقيق محمد مصطفى، مطبعة فرانز ستاينر، فيسبادن، ١٩٧٥م، ص٣٩٠.

في ذي القعدة "سنة٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م":

جاءت الأخبار بوصول قاصد ملك الروم أبو يزيد بن عثمان، وعلى يده تقادم للسلطان (برقوق)[١]، وكان سبب مجيئه أن أرسل قاصده يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره منه، وأن يكون منه على يقظة، ثم إنه أرسل يطلب من السلطان طبيبا حاذقا وأدوية توافق مرضه، فإنه كان يشكو بضربان المفاصل[٢].

ويضيف ابن إياس فيقول: "... فلما وقف السلطان على مطالعة أبي يزيد بن عثمان، وعلم ما فيها عين له الريس شمس الدين بن صغير، وأرسل صحبته حملين من الأدوية التي توافق مرضه، وأرسل له هدية حافلة على يد قاصده"[٣].

في ذي القعدة سنة "٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م":

فيه جاءت الأخبار بوفاة السلطان مراد الأول ملك الروم، وهو مراد بن أورخان بن علي يلدرم بن عثمان بن سليمان بن عثمان التركماني، مات شهيدًا في بعض الغزوات[٤].

في جمادى الآخرة سنة "٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م":

وفيه قدم قاصد بن عثمان ملك الروم، جاء من جهة البحر، وأخبر أن تمرلنك وصل إلى أذربيجان، فاضطرب السلطان لهذا الخبر[٥].

في شوال سنة "٨٠١هـ/ ١٣٩٨م":

---

(١) السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين الجراكسة بمصر، والخامس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بمصر، حكم في الفترة من "٧٨٤-٧٩١هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٨م"؛ كليفورد. أ.بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي "دراسة في التاريخ والأنساب"، ترجمة: حسين علي اللبودي، د.سليمان إبراهيم العسكري، مؤسسة الشراع العربي بالاشتراك مع عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية، ص١٠٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٦٢.

(٣) نفسه، ص٤٦٢.

(٤) نفسه، ص٤٧١.

(٥) نفسه، ص٤٩٠.

فيه ورد الخبر بأن بايزيد بن عثمان ملك الروم، تحرك للمشي على بلاد الشام، وأن تمرلنك القائم ببلاد العجم أخذ ممالك الهند[١].

في ذي الحجة"ثالث عشره" سنة "٨٠١هـ/١٣٩٨م":

ورد الخبر بأن "ابن عثمان ملك الروم"، قد زحف بعساكره على بلاد السلطان، وقد وصل إلى الأبلستين وملكها[٢].

وفيه أيضا "ذي الحجة":

جاءت الأخبار بأن ابن عثمان وصل إلى ملطية وملكها، ثم رجع إلى بلاده، ولم يشوش على أحد من الرعية، وأمر عسكره أن لا ينهبوا من الناس شيئا ما قيمته الدرهم الفرد[٣].

في المحرم سنة "٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م":

وفيه كانت وقعة الطاغية تيمور كركان، ملك الشرق مع خوندكار أبي يزيد بن مراد بن عثمان ملك الروم[٤].

في ربيع الأول سنة "٨١٤هـ/ ١٤١١م":

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين أولاد أبي يزيد بن عثمان ملك الروم، وأن موسى قتل أخاه سلمان، وأخذ جميع بلاده، واستولى عليها[٥].

في صفر سنة "٨١٦هـ/ ١٤١٣م":

وردت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين محمد كرشجي بن عثمان ملك الروم، وبين محمد بن قرمان، فاستطال محمد على ابن قرمان، وأخذ غالب بلاده"[٦].

---

(١) نفسه، ص٥٤٢.

(٢) نفسه، ص٥٤٩.

(٣) نفسه، ص٥٤٢.

(٤) نفسه، ص٦٥٩.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١،ق٢، ص٨١٢.

(٦) ابن إياس: المرجع السابق، ج٢، ص ص٢٠-٢١.

في رجب سنة "٨١٩هـ/ ١٤١٦م":

وصل قاصد محمد بن كرشجي بن عثمان ملك الروم، وعلى يده تقدمة حافلة.. قبلها السلطان، وأكرم القاصد[١].

في سنة "٨٥٥هـ/١٤٥١م":

يذكر ابن إياس خبر وفاة السلطان العثماني "مراد الأول" فيقول:

" ورد خبر بوفاة ملك الروم مراد خان بن محمد بن أبي يزيد أورخان عثمان، من أجل ملوك الروم قَدْرًا، أفنى عمره في جهاد مع الإفرنج"[٢].

في شوال "٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م":

وصل قاصد ملك الرْوم محمد بن عثمان يخبر السلطان "إينال" بفتح القسطنطينية العظمى، وقد صنع المكائد في فتحها..."[٣].

ويضيف إبن إياس:"...فلما بلغ السلطان، عين يرشباي أمير أخور ثاني رسولًا إلى "ابن عثمان" يهنئه بهذا الفتح، فخرج يرشباي، وتوجه إلى بلاد ابن عثمان"[٤].

في سنة "٩١٨هـ/ ١٥١٢م":

يذكر ابن إياس خبر وفاة عن واحد من سلاطين العثمانيين فيقول:

"توفي ملك الروم وصاحب مدينة الروم القسطنطينية العظمى، وما مع ذلك، أبو يزيد بن محمد بن مراد خان..."[٥].

وهكذا، ومن خلال كل هذه الأخبار السابقة - التي عمدنا إلى ذكرها -، اتضح لنا وتأكد

(١) نفسه، ص٢٨.

(٢) نفسه، ص٢٨٨.

(٣) محمد مصطفى: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور "من سنة ٨٥٧ إلى ٨٧٢هـ"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٥.

(٤) نفسه، ص١٥.

(٥) ابن إياس: المرجع السابق، ج٤، ص ص٢٦٩-٢٧٠.

لدينا أن "بلاد الروم" في ذلك العصر الجركسي هي ذاتها الدولة العثمانية فيما بعد.

وقبل أن نعرض لنماذج العلماء الأروام "الأتراك العثمانيين" في مصر في العصر الجركسي: نعرض للمحة تاريخية عن العثمانيين، ونشأتهم وتكوين دولتهم فيما يلي من صفحات.

لمحة تاريخية

الأتراك العثمانيون "النشأة والتكوين"

دخل الأتراك العثمانيون "آسيا الصغرى" في الثلث الأول من القرن " السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، "٧هـ/ ١٣م"، كقبيلة من القبائل التركية التي كانت تنزح من مناطق الإستبس في وسط آسيا متجهة نحو آسيا الصغرى أو الأناضول[١].

وكان هذا النزوح " التركي" أيام الفتوحات السلجوقية[٢]، فسكنوا في أماكن مختلفة في

---

(١) حيث نزل الأتراك غربي آسيا الصغرى، وأقاموا دويلات مستقلة في مختلف المقاطعات على أيدي الأمراء الأتراك، منها: القرمانيون في ليقاؤنية القديمة وإيسوريا، والكرمانيون في كوتاهية، الحميديون في ميسيه، الصاروخان في مغنيسية، ولم يقض على هذه الإمارات نهائيًا إلا عند ظهور العثمانيين، الذين أقاموا دولةً قُدِّرَ لها أن تعمر أطول من سائر الدول التركية، وأن تنتهي إلى أن تتولى قيادة العالم الإسلامي نحوًا من خمس مئة عام.

(٢) نسبة إلى دولة السلاجقة العظام «٤٢٩-٤٧٥هـ/١٠٣٧-١٠٩٢م»، والسلاجقة إحدى قبائل الغز الأتراك، أقاموا في شرق الدولة العباسية ثم اعتنقوا الإسلام على المذهب السني «الحنفي».ولظروف وعوامل داخلية تركوا موطنهم الأصلي واستقروا يبسطون نفوذهم في بلاد ما وراء النهر، حتى كان عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م فأقاموا دولتهم بقيادة «طغرلبك» في عهد السلطان مسعود الغزنوي، واستقروا في إقليم خراسان، وبعد ذلك خاض السلاجقة معارك كثيرة ضد الدولة البيزنطية أو «دولة الروم»، وألحقوا بها هزائم متعددة، حتى كان النصر في موقعة ملاذكرد ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، واستولوا في أثرها على معظم آسيا الصغرى، وجعلوها مقرًا لنزول الأتراك فيها، وفي عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، بعث «ملكشاه بن ألب أرسلان» إلى « آسيا الصغرى» سليمان بن قتلمش الذي انتزع الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى من أيدي البيزنطيين واتخذ «نيقية» مقرًا له سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م، ومن ورائه ابنه «قلج أرسلان» الذي أنشأ قاعدة جديدة في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، ومن بعده «سليمان» الذي استولى ابنه «مسعود» على قونية، وهكذا قامت دولة السلاجقة وتوسعت وظلت تدعى «بلاد الروم» بوصفها أرضًا بيزنطية قديمة؛ (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله للعربية: نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٤٨م، ص ص٩-١١).

وللمزيد راجع: محمد عبد اللطيف وسيف أبو النصر: السلاجقة «تاريخهم السياسي والعسكري»، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

الأناضول، على الحدود التركية - البيزنطية، وكانوا من بين هؤلاء الأتراك الذين حملوا راية القتال ضد البيزنطيين، فحظوا بنجاح خاص.

ومؤسس هذه الدولة هو (أرطغرل) بن سليمان شاه التركماني، قائد قبيلة "قايي" الذي نزح من سهول آسيا الغربي إلى بلاد آسيا الصغرى، وتحرك بقسمه الأصغر من قبيلته على الأقل ويضم نحو مئة أسرة "١٠٠" ليلتحق وإياهم بخدمة علاء الدين الثاني السلجوقي "٦١٦-٦٣٤هـ/١٢١٩-١٢٣٦م" سلطان دولة الأتراك السلاجقة في قونية[1] في حروبه ضد الدولة البيزنطية أو "الرومانية الشرقية"، ولما تم له النصر، كافأه بمنحه إقطاع عدة أقاليم من دولته، حيث أقطعه "السلطان علاء" المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية عند سكود في وادي "قره صو" الفرات الغربي، وترك إليه توسيع ممتلكاته على حساب جيرانه "الروم البيزنطيين"، وقد أثبتت القبيلة "العثمانية" أنها على حظ موفور من الشجاعة والخبرة العسكرية والكفاءة القتالية.

ولأن " أرطغرل" رئيس القبيلة كان ذا أطماع سياسية بعيدة، فلم يقنع بهذه المنطقة التي أقطعها إياه السلطان علاء الدين الأول "٦١٦-٦٣٤هـ/١٢١٩-١٢٣٧م"، ولم يقنع باللقب الذي ظفر به، ولم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود، بل شرع يهاجم باسم السلطان علاء الدين السلجوقي، ممتلكات - الدولة البيزنطية - أو "الدولة الرومانية الشرقية" في الأناضول، ونجح في سياسة التوسع الإقليمي، فضم إلى المنطقة التي يحكمها مدينة "إسكي شهر". وقد مات "أرطغرل" عن ثلاثة وتسعين عامًا، وخلفه ابنه عثمان الذي سميت باسمه الأمة والدولة، وسرعان ما نمت هذه الإمارة العثمانية حتى أصبحت إمبراطورية مترامية الأطراف على أنقاض الدولة السلجوقية وحساب الولايات البيزنطية، وامتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا الصغرى وأوربا وأفريقيا، وغدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ، ومن أشدِّها بأسًا وأعزِّها جندًا[2].

---

(١) إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان (ملكشاه) في سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م، فبموته انفرط عقد الدولة السلجوقية وتمزقت وحدتها وقوتها، وانتهى عصر السلاطين العظام إلى عهد الإمارات.

(٢) صبحي عبد المنعم: المماليك والعثمانيون في التاريخ، دون مكان، دون تاريخ، ص٢٥.

وفي عهد السلطان محمد الثاني "الفاتح"، "٨٦١-٨٨٦هـ/١٤٥٦-١٤٨١م"، سقطت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في يد الأتراك العثمانيين، واتخذت عاصمة للدولة العثمانية.

وورث العثمانيون الخلافة الإسلامية، وأخذوا عنها الإسلام والأبجدية، فكانت حروفهم السريانية، وألوف المصطلحات الدينية والشرعية والعلمية والأدبية.

وتميزت الدولة العثمانية بكونها دولة دينية، أقصد الطابع الديني الإسلامي الذي اتسمت به تشريعاتها ومعظم تصرفاتها، ونستدل على ذلك بعدة أمور هي[١]:

أولًا: إنشاء المساجد الكبرى:

فقد اهتم «السلاطين العثمانيون» اهتماما كبيرا بإنشاء العديد من المساجد الكبرى التي غدت رمزا مجسدًا للفنِّ المعماري العثماني، وما بلغه من تطور حيث ظهر أثر الفن البيزنطي فيه.

ثانيًا: حرصت الدولة العثمانية على تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقا صارما من ناحية، وعلى المحافظة على التقاليد الإسلامية من ناحية أخرى.

ثالثًا: تولت الدولة العثمانية بنفسها، تنظيم شؤون الحج، وأشرفت عليه إشرافًا فعليًّا، واعتبرت هذا العمل واجبًا يقع على عاتقها، رغم كل أعبائها ومسؤولياتها الأخرى.

رابعًا: تشجيع التصوف بين العثمانيين حيث تركت الدولة مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والأتباع، وانتشرت الطرق الصوفية انتشارًا واسعًا أول الأمر في «آسيا الصغرى»، ثم انتقلت إلى معظم أقاليم الدولة العثمانية فيما بعد.

وما نريد قوله هو أن دولة بهذه السمات والخصائص، لا بد وأن تهتم بالعلم، وتسعى إليه، وتشجع أبناءها على الرحلة في طلبه، وهو ما حدث خلال عصورها المختلفة، منذ بداية التكوين والنشأة، وحتى ذروة التقدم والارتقاء، فكان الاتصال العلمي والحضاري بينها وبين غيرها من الدول المجاورة «المتقدمة علميا وثقافيا وحضاريا»، وكان في مقدمتهم مصر المملوكية «وبخاصة الجركسية» التي فتحت ذراعيها للمسلمين جميعًا، من كل صوب، بوجه عام، ومن بين

---

[١] عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية «دولة إسلامية مفترى عليها»، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ص٥٤-٥٩.

هذه الشعوب الكثيرة، الأتراك، ومنهم «العثمانيون» على وجه التحديد.

فالاتصال العلمي بين شعبي مصر والأتراك قديم، وموجود في مؤسسات مصر العلمية المختلفة من مدارس وخوانق وزوايا وغيرها، حتى كانت نشأة الجامع الأزهر الشريف، الذي جمع المصريين وإخوانهم من الشعوب العربية وغير العربية، وخصص لهم أماكن للسكنى والراحة «الأَرْوِقَة»، وحرص على توفير وتلبية احتياجات معيشتهم المتنوعة من مأكل ومشرب وغيره.

والأتراك «بوجه خاص» خُصِّصَ لهم رواقٌ خاصٌ بهم «رواق الأروام = الأتراك»، يضم كل فئات الأتراك المتنوعة، ومنهم «العثمانيون»، وكان يقع غربي رواق المغاربة، وبابه من صحن الجامع.

وفي الأزهر الشريف، تلقى الطلاب الأتراك العلم، وحرصوا على تحصيله، وتميزوا، وبعد إجازاتهم من كبار الشيوخ المصريين وغيرهم من علماء الأزهر في ذلك الوقت، منهم من عاد إلى وطنه الأم يشارك في تعليم أبناء وطنه، ومنهم من فضل البقاء في القاهرة «عاصمة النور»، يشارك في إثراء الحركة العلمية بمصر حيث يعلم أبناءها وينير لهم الطريق نحو مجتمع حضاري راق.

فالاتصال العلمي بين البلدين، ظل قائما ومستمرًا طوال العصر المملوكي، ولم يتأثر بالظروف السياسية بينهما، خاصة في حالة الاختلاف، أو الحرب، وأقصد بها تلك الحرب التي نشبت في عهد قايتباي[1] وبايزيد الثاني[2]، في الفترة من «٨٩٤-٨٩٧هـ/ ١٤٨٨-١٤٩١م».

وسوف نركز في دراستنا هذه على عصر المماليك الجراكسة، حيث نتعرض لنماذج العلماء الأتراك «العثمانيين» الذين وفدوا إلى مصر، طلباً للعلم، فنهلوا من علومها ومعارفها، وتتلمذوا على يد علمائها، ثم عادوا إلى وطنهم، بل وجدنا منهم من استقر في القاهرة، وظل بها يعمل بالتدريس في مؤسساتها المختلفة من مدارس وجوامع وغيرها، كل هذا سنعرض له الآن فيما يلي من صفحات.

---

(١) قايتباي، الثامن عشر من سلاطين المماليك الجراكسة بمصر، والذي حكم مصر لما يقرب من ثلاثين عاما في الفترة من « ٨٧٣-٩٠٢هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م»(كليفورد: الأسرات الحاكمة، ص١٠١).

(٢) بايزيد الثاني، الثامن من سلاطين العثمانيين، حكم في الفترة من «٨٨٦-٩١٨هـ/ ١٤٨١-١٥١٢م»، ولد في سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م، كان محبا للعلم والعلماء؛ (يوسف آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان، تقديم د/ محمد زينهم عز العرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ص٥٣-٥٥).

نماذج علماء بلاد الروم «الأتراك العثمانيين»

«الأول»

حبيب بن يوسف بن عبد الرحمن، الرومي العجمي، الحنفي، عالم وإمام فاضل، أَمَّ بالمدرسة الأشرفية برسباي[١]، واستقر في مشيخة الإقراء[٢] بالخانقاة الشيخونية[٣] وبالمدرسة المؤيدية[٤]، أخذ العلم على يد نخبة من أساتذة عصره، روى عنه بالإجازة[٥] كثيرون[٦].

«الثاني»

حسن شلبي[٧]، ابن ملا شمس الدين محمد شاه بن العلامة المولى شمس الدين محمد بن حمزة، الرومي، الحنفي، ويعرف بالفناري[٨]، ولد في سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م

---

(١) الأشرفية برسباي: نسبة إلى السلطان «برسباي» التاسع من سلاطين المماليك الجراكسة، «٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م»، وهي مدرسة وتربة معًا، وكانت بجوار سوق الوراقين بمدينة القاهرة؛ (ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٨٦).

(٢) الإقراء: ويُقصد به قراءة القرآن الكريم، من حيث التعلم والتحفيظ.

(٣) الشيخونية: أو خانقاة شيخو، نسبة إلى الأمير شيخو العمري، الذي بناها في سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، وكانت تقع في خط الصليبية، خارج مدينة القاهرة، تجاه جامع شيخو؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ص٥٨٤-٥٨٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ص٢٦٦-٢٦٧).

(٤) المدرسة المؤيدية: أو الجامع المؤيدي، نسبة إلى السلطان المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي، الظاهري «٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م»، وتقع بجوار باب زويلة، وبها درس للطلاب الشافعية والمالكية والحنابلة؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ص٣٥٢-٣٥٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص ص٢٧٢-٢٧٣).

(٥) الإجازة: ويقصد بها الإذن أو السماح بالقيام بعمل التدريس، وتعادل في عصرنا الحديث «شهادة التخرج».

(٦) السخاوي «شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)»: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مج ٢، ج٣، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص ص٨٨-٨٩، ترجمة رقم ٣٥٢.

(٧) ومعناه في اللغة التركية «سيدي».

(٨) لقب لجد أبيه، فقد قيل إنه لما قدم على ملك الروم أهدى له فنيارًا، فكان إذا سأل عنه يقول: «أين الفنري فعرف بذلك»؛ (السخاوي: المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص ص١٢٧-١٢٨).

ببلاد الروم، ونشأ بها واشتغل بالعلم، فبرع في علوم عدة من بينها: علم الكلام[١] والمعاني[٢] والعربية[٣] والمعقولات[٤] وأصول الفقه[٥]، عمل حواشي في مجلدات ضخمة على شرح عدة كتب مهمّة منها: المواقف[٦]، المطول[٧]، التلويح[٨]، زار عدة مدن وبلاد إسلامية منها: الشام في سنة ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م، ودخل القاهرة في سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م،

---

(١) علم الكلام: علم يتضمن الاستدلال على العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على من خالف طريقة السلف الصالح ومذهب أهل السنة في تلك العقائد؛ (ابن خلدون «ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)»: المقدمة، ج٣، تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ص١٠٣٥-١٠٤٩؛ وهبة الزحيلي: العلوم الشرعية بين الوحدة والاستقلال، مجلة الحضارة الإسلامية، دون مكان، دون تاريخ، ص١١، ٢٤).

(٢) المعاني: علم يقصد به تتبع خواص تراكيب الكلام ومعرفة تفاوت المقامات حتى يتمكن من الاحتراز من الخطأ في تطبيق الأول على الثاني، وذلك لأن للتراكيب خواص مناسبة لها يعرفها البلغاء إما بسليقتهم أو بممارسة علم البلاغة؛ (طاش كبرى زاده «أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده»: موسوعة المصطلحات «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم»، تحقيق د/ علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ١٩٩٨م، ص٧٩٤).

(٣) علوم العربية أو «علوم اللسان العربي» متعددة وهي: علم النحو والصرف، علم اللغة، الأدب، والبلاغة بفروعها.

(٤) المعقولات: علم يبحث فيه عما اختص العقل بإدراكه من المدركات؛ (لويس معلوف اليسوعي: المنجد في اللغة، الطبعة الخامسة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧م، ص٥٢).

(٥) أصول الفقه: وسمي علم الدراية، من العلوم النقلية «الشرعية»، وهو يعني معرفة النفس ما لها وما عليها؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ص١٠٢٧-١٠٣٤؛ محمد علي التهانوي؛ الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي (ت ١١٥٨هـ)»: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ج٢، تحقيق د/ علي دحروج، مكتبة لبنان، لبنان، ص ص٤١-٤٤).

(٦) المواقف: من أهم الكتب المصنفة في علم «العقيدة»، وهو للقاضي والعالم عضد الدين عبد الرحمن الإيجي، «٧٠٨-٧٥٦هـ/١٣٠٨-١٣٥٥م»، عالم شهير في النحو والفقه والمعاني والبيان والعلوم العقلية.

(٧) المطول: بضم الميم، أو «شرح تلخيص مفتاح العلوم»، من أهم الكتب المصنفة في علم «المعاني»، للعلامة سعد الدين مسعود عمر التفتازاني «ت ٧٩٢هـ/١٣٨٩م»، نشره وحققه د/ عبد الحميد هنداوي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠١م.

(٨) التلويح: وهو «التلويح في كشف الحقائق والتنقيح»، من أهم الكتب المصنفة في علم أصول الفقه، للعلامة سعد الدين مسعود عمر التفتازاني «ت ٧٩٢هـ/١٣٨٩م».

والتقي بأعظم علمائها، ومنهم: السيوطي[١] الذي استعار منه حاشيته على المطول، تُوفي ببلاده في جمادى الآخرة سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م[٢].

« الثالث »

حسين بن محمد بن أحمد، الرومي الأصل، القاهري، الوزيري[٣]، القرافي[٤]، كان مولده بالقاهرة، عرف بالجدية في طلب العلم والتحصيل، فحصل كتبا كثيرة في علوم عدة، تُوفي في ليلة الاثنين سابع ربيع الآخِر سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م، وقد قارب الثمانين من العمر[٥].

« الرابع »

حيدر بن أحمد بن إبراهيم، أبو الحسن، الرفاعي، الرومي الأصل، العجمي، الحنفي، المعروف بشيخ التاج والسبع وجوه، نزيل القاهرة، ولد في سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، بشيراز[٦]، ارتحل كأبيه وغيره طلبًا للعلم، فقدم القاهرة في سنة ٨١٤ هـ/١٤١١م، في سلطنة الأشرف

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، «ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م»، أشهر علماء ومؤرخي العصر المملوكي، صاحب كتاب «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» وغيره؛ (خير الدين الزركلي: الأعلام «قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»، ج٤، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م، ص ص٧١-٧٢؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون «دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام، ج٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م، ص ص١٨٢-١٩٥).

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٣، ص ص١٢٧-١٢٨، ترجمة رقم ٤٩٢.

(٣) نسبة إلى باب الوزير بمدينة القاهرة، حيث ولد.

(٤) القرافي:سمي بهذا اللقب لكونه من خُدَّام ضريح الإمام الشافعي، رضي الله عنه، الكائن بقرافة مصر الصغرى، والتي تعرف حاليًا باسم جبانة الإمام الشافعي؛ (حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، دار أوراق شرقية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ص١٠٦-١١٣).

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٣، ص١٥٤، ترجمة رقم ٥٨٨.

(٦) شيراز: مدينة قديمة، ذكرها ياقوت الحموي في معجم البلدان حيث قال: «بلد عظيم مشهور معروف مذكور، قصبة بلاد فارس «وبلاد فارس حاليًا هي دولة إيران؛ (ياقوت الحموي «شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م»): معجم البلدان، ج٣، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ص ص٤٣١-٤٣٢؛ البغدادي «صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)»: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ص ص٨٢٤-٨٢٥.

برسباي، الذي أكرمه، وأنعم عليه، ومن بعده، في سلطنة جقمق[١]، تولى مشيخة زاوية قبة النصر[٢]، كان فصيحًا باللغة التركية والأعجمية، ولـه فيهما نظم جيد، حلو اللفظ والمحاضرة، تُـوفي في ليلة الاثنين الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م، ودفـن بإحدى مقابر باب الوزير بالقاهرة[٣].

« الخامس »

عبد الرحمن بن عثمان بن أمير، الشرواني الأصل، المحمود آبادي ثم الرومي، الحنفي، عالم فاضل من رحالة العلم، له تصانيف عدة في العقليات[٤]، وحواشي على كثير من الكتب المشكلات[٥]، تردد على مكة، وأخذ عنه بعض الطلاب هناك، سمع المسلسل [٦]على السخاوي[٧]، رحل إلى بلاده عالما ليشارك في تعليم أبناء بلاده[٨].

---

(١) جقمق: الظاهر، سيف الدين، الحادي عشر من سلاطين المماليك الجراكسة، وقد حكم مصر في الفترة من «٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م»؛ (كليفورد: الأسرات الحاكمة، ص١٠١).

(٢) زاوية قبة النصر: قبة وزاوية خصصت لسكنى فقراء العجم، وكانت تقع خارج القاهرة بالصحراء، تحت الجبل الأحمر، من تجديد الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٦١٧).

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٣، ص ص١٦٨-١٦٩، ترجمة رقم ٦٤٩.

(٤) العقليات: ويقصد بها العلوم العقلية «غير الشرعية»، وتسمى أيضا علوم الفلسفة والحكمة، وتشتمل على أربعة علوم هي المنطق والأرتماطيقي وعلم الموسيقى وعلم الهيئة؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ص١٠٨٥-١١٠٧).

(٥) الكتب المشكلات«بضم الميم»، أي الكتب المختلَف عليها أو التي تعددت حولها الآراء، فيقال مثلاً: الآيات القرآنية المشكلات أي التي اختلفت حولها الآراء.

(٦) المسلسل: لعل المقصود المسلسل لأبي الفتح الميدوي «محمد بن محمد المصري»، «ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م»؛ (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، وكالة المعارف، القاهرة، ١٩٤١م، ص١٦٧٧).

(٧) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، «ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م»، من أهم علماء ومؤرخي العصر المملوكي، صاحب موسوعة «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»، والتبر المسبوك، وغيرهما من كتب التاريخ؛ (الزركلي: الأعلام، ج٧، ص ص٦٧-٦٨؛ شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص ص١٧٧-١٨٢).

(٨) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٤، ص٩٢، ترجمة رقم ٢٧١.

« السادس»

عبد الله بن عبد الله الجمال، الرومي، الحنفي، نزيل الصرغتمشية[١] بالقاهرة، قرأ على نخبة من علماء عصره، ومنهم: الأمين الأقصرائي[٢]، فقرأ عليه كتاب المجمع لابن الساعاتي، وقد أذن له الأمين بالإقراء، وذكره مادحًا حيث قال: «عالم فاضل علامة حبر فهامة مدقق متقن»، تُوفي في ربيع الآخِر سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م[٣].

« السابع»

عبد الله بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن داود الجمال، أبو محمد بن الشمس بن الشهاب بن المجد، أبو الفِداء، القاهري، الحسيني، الحنفي، المعروف بابن الرومي، ولد قبيل سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م، بمدينة القاهرة، فنشأ بها، وحفظ القرآن، وعدة كتب أخرى، واشتغل بعلوم عدة منها: الفقه[٤] والعربية والفرائض[٥]، على نخبة من علماء عصره، ناب في القضاء فترة،

---

(١) المدرسة الصرغتمشية: نسبة إلى الأمير سيف الدين صرغتمش رأس نوبة النوب، وكانت تقع بجوار جامع أحمد بن طولون، فيما بينه وبين قلعة الجبل، تم بناؤها في سنة «٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م»، كان مقررًا بها دروس في الفقه والحديث النبوي؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص ص٥٤٠-٥٤٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٨).

(٢) الأقصرائي: نسبة إلى أقصرا إحدى مدن بلاد الروم، وهو أمين الدين الأقصرائي، يحيى بن محمد شيخ الحنفية في زمانه، ولد في سنة «٧٩٧هـ/١٣٩٤م»، وانتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه، تُوفي في أواخر المحرم سنة «٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م»؛ (السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٠٩).

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٥، ص٢٨، ترجمة رقم ١٠١.

(٤) الفقه: علم يقصد به معرفة أحكام الله في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر، والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب «القرآن» والسنة النبوية الشريفة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ص١٠١١-١٠٢٥).

(٥) الفرائض: واحد من فروع علم الفقه الأساسية، علم بقواعد وجزئيات تعرف بها كيفية صرف التركة إلى الوارث بعد معرفته، وموضوعها التركة والوارث؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ص١٠٢٦-١٠٢٧؛ حاجي خليفة: كشف الظنون،ج٢، ص ص١٢٤٤-١٢٤٥؛ وهبة الزحيلي: العلوم الشرعية بين الوحدة والاستقلال، ص٢٢).

وعمل بالتدريس في أماكن عدة، من بينها: جامع الظاهر[١]، سمع منه الفضلاء، ومن أشهر تلاميذه السخاوي، الذي قال عنه: «كان أصيلًا قديم الفضيلة، من أعيان مذهبه ومتقدمي نوابهم»، تُوفي في سنة ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م، وقد قارب من العمر نحو المئة سنة[٢].

« الثامن »

علي بن عبد الرحمن بن عبد الرازق بن عبد الكريم بن عبد الله العلاء البارزي، الرومي، الحنفي، نزيل مكة، عالم فاضل، ولد ببلاد الروم، بين سنتي ٨٢٢هـ- ٨٢٣هـ، فنشأ بها واشتغل بالعلم، دخل القاهرة سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، فأخذ عن نوابغ علمائها مثل الأمين الأقصرائي، ولازم الشيخ ابن حجر العسقلاني[٣]، تُوفي في الطاعون الذي أصاب القاهرة سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م[٤].

« التاسع »

علي بن موسي بن إبراهيم، علاء الدين، أبو الحسن بن مصلح الدين الرومي، الحنفي، نزيل القاهرة، ولد سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، تلقى العلم إلى أن برع وتصدَّر للإقراء، واشتغل بها ببلده، وتفنن في العلوم، دخل بلاد العجم فأدرك الكبار فيها بكل من مدينة سمرقند[٥]، وشيراز،

(١) جامع الظاهر: نسبة إلى السلطان الظاهر بيبرس البندقداري، «ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م» الذي قام ببنائه في سنة «٦٦٧هـ/١٢٦٩م»، خارج القاهرة، وكان موضعه ميدانا في العصر المملوكي، وحاليًا بحي الظاهر بالقاهرة؛ (شحاتة عيسى إبراهيم: القاهرة، سلسلة الألف كتاب «١٨٤»، دار الهلال، القاهرة، دون تاريخ، ص ص١٦٧-١٦٨).

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٥، ص ص٤٤-٤٥، ترجمة رقم ١٦٥.

(٣) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الحافظ، شيخ الإسلام، والمؤرخ الشهير، صاحب مؤلفات عدة في التاريخ منها: إنباء الغمر بأبناء العمر، وغيرها، تُوفي سنة «٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م»؛ (شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص ص١٥٢-١٦٦).

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٥، ص٢٣٦، ترجمة رقم ٨٠٠.

(٥) سمرقند: بفتح أوله وثانيه، يقال لها بالعربية «سمران»، مدينة كبيرة، ذكرها الحموي فقال: «بلد مشهور، فيما وراء النهر، وقيل أيضا: من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر؛ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص ص٢٧٩-٢٨٣؛ الإدريسي «أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، الحموي الحسيني، (من علماء القرن السادس الهجري)»: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة لدينية، القاهرة، دون تاريخ، ص ص٤٩٧-٥٠٠؛ البغدادي: مراصد الإطلاع، ج٢، ص٧٣٦).

وهَراة[١] وغيرها، ثم قدم القاهرة في سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٣م، فأكرم وفادته السلطان برسباي، واستقر به في مشيخة مدرسته، والتدريس بها، أدى فريضة الحج في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م، ومن بلاد الحجاز، سافر إلى بلاد الروم لفترة، ثم عاد إلى القاهرة في سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م، ظهرت كفاءته فأقبل عليه الفضلاء، ذكره المقريزي[٢] وابن حجر والعيني[٣] فاتفقوا وأجمعوا على أنه «كان عالما محققا، عارفا بالجدل، إماما في المعقول، بارعا في علوم كثيرة»، تُوفي بالقاهرة في سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م[٤].

«العاشر»

محمد بن أحمد بن علي بن إدريس البدر، أبو الفضل بن البدر العلائي، الروي الأصل، القاهري الحنفي، ولد في رابع عشر ذي الحجة سنة ٨٥٦هـ/١٤٥٢م، حفظ القرآن، وبعض الكتب في علوم الدين، منها: المنار[٥] والكافية[٦]، أخذ عن علماء عصره مثل: الشيخ الأمين الأقصرائي،

---

(١) هَراة: بالفتح، مدينة عظيمة مشهورة، ذكرها الحموي فقال: «من أمهات مدن خراسان، وقيل إنها أيضا مدينة بفارس قرب اصطخر؛ (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج٣، ص ص٤٥٦-٤٥٧؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص ص٤٧٠-٤٧١).

(٢) المقريزي: وهو« تقي الدين علي بن المقريزي «ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م»، عالم ومؤرخ شهير، صاحب مؤلفات عديدة في التاريخ منها: المواعظ والاعتبار المسمى «الخطط المقريزية»، السلوك لمعرفة أخبار الملوك، إغاثة الأمة بكشف الغمة... وغيرها؛ (شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص ص١٤٠-١٥٢).

(٣) العيني: بدر الدين، أبو محمد محمود بن أحمد العينتابي العيني «ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، محدث وفقيه، ومن أهم مؤرخي العصر المملوكي، صاحب مؤلفات عدة في التاريخ، نذكر منها: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان؛ (الزركلي: الأعلام، ج٨، ص ص٣٨-٣٩).

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٢، ج٦، ص ص٤١-٤٢، ترجمة رقم ١١٨؛ ابن العماد «شهاب الدين، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ)»: شذرات الذهب، ج٧، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دون تاريخ، ص٢٤١.

(٥) المنار: من الكتب المصنفة في علم التفسير، «تفسير القرآن الكريم».

(٦) الكافية: من الكتب المصنفة في علم النحو، للإمام العلامة المعروف بابن الحاجب، «جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر المالكي النحوي، ٥٧٠-٦٤٦هـ/ ١١٧٤-١٢٤٨م»، نشرته دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م، في جزأين، وله طبعات أخرى كثيرة.

كما لازم في علوم أخرى منها: علم اللغة[١] والصرف[٢] والمنطق[٣] والمعاني، والحديث[٤]، استقر بالقاهرة زمنًا طويلًا[٥].

« الحادي عشر»

محمد بن سليمان بن سعيد بن مسعود المحيوي، أبو عبد الله، الرومي، الحنفي، والمعروف بالكافِيَجي[٦]، عالم وإمام فاضل، ولد ببلد تُسمىَّ ككجة كي من ديار ابن عثمان من بلاد الروم، قَبْل سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، أخذ عن علماء بلاده كالشمس الفناري[٧]، قدم القاهرة بعد سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، فأقام بها سنين، وبالتحديد في «البرقوقية»[٨] واجتمع بأفاضل العلماء مثل الشيخ ابن حجر العسقلاني، وظهرت كفاءته، فأقبل عليه الفضلاء، تصدَّى للإفتاء والتأليف، فذاع

---

(١) علم اللغة: علم باحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية التي وضعت تلك الجواهر معها لتلك المدلولات بالوضع الشخصي وعما حصل من تركيب كل جوهر، وهيئاتها الجزئية على وجه جزئي وعن معانيها الموضوع لها بالوضع الشخصي، وعلم اللغة فرعان هما: «علم النحو وعلم المعاجم»؛ (طاش كبري زاده: موسوعة مصطلحات، ص ص٧٥٨-٧٧٣؛ آدم متـز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٣١٣).

(٢) الصرف: علم ملازم لعلم النحو «الذي يهتم بضبط أواخر الكلمة»، أما الصرف فيهتم ببنية الكلمة.

(٣) المنطق: من فروع علم الفقه، ويسمى «علم النظر»، وهو مجموعة من القوانين يُعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعروفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٣، ص ص١١٠٢-١١٠٧).

(٤) الحديث: علم يعرف به أقوال النبي (ص)، وهو قسمان علم رواية الحديث، وعلم دراية الحديث؛ (حاجي خليفة: كشف الظنون، ج٢، ص ص٦٣٥-٦٤١).

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، مج ٤، ج٧، ص ص١٠-١١، ترجمة رقم ١٥.

(٦) أكثر الرجل من قراءة كتاب الكافية في علم النحو، حتى نُسِب إليها بزيادة جيم كما هي عادة الترك في النسب في ذلك العصر فسمي الكافِيَجي.

(٧) جد صاحب الترجمة المذكور.

(٨) البرقوقية: أو تربة برقوق بمقابر المماليك، نسبة إلى السلطان الظاهر برقوق «٧٨٤-٧٩١هـ/ ١٣٨٢-١٣٨٨م» الذي أنشأها في سنة «٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م»، وكانت بخط بين القصرين، وهي في الواقع مدرسة لتدريس العلوم الشرعية ومسجد للصلاة وخانقاة فخمة للصوفية؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٧٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٥٠، ٣٧٣، ٣٧٧؛ شحاتة عيسى: القاهرة، ص ص١٨١-١٨٢).

ذكرُه، وصار له صيت عظيم في البلاد، وعمل بالتدريس، فاستقر في مشيخة زاوية الأشرف شعبان [١]سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، ومدرسة تربة الظاهر جقمق[٢]، وفي مشيخة الشيخونية[٣] في عهد السلطان الأشرف إينال[٤]، ومشيخة مدرسة السلطان قايتباي[٥] في عهده، تصدى للتدريس والإفتاء والتأليف، تقدمت طلابه في حياته وصاروا أعيان الوقت، وتزاحموا عليه من سائر المذاهب والفنون، وتعاظم أمره، حتى صارت إليه رئاسة المذهب الحنفي بمصر، ذكره الشاعر الشهاب المنصوري مادحًا فقال:

لَكَ اللهُ مُحْيِي الدِّينِ بَحْرَ مَكَارِمٍ وَبَحْرَ عُلُومٍ لَا يُحَاطُ عَمِيقُهُ
فَيَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ قَدْ فُقْتَ حَاتِمًا وَفِي الْفَضْلِ لِلنُّعْمَانِ أَنْتَ شَقِيقُهُ

تُوفي في سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م، وشهد السلطان جنازته هو وكبار القوم[٦]، وفي رثائه قال الشهاب المنصوري[٧]:

بَكَتْ عَلَى الشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ كَافِيَجِي عُيُونُنَا بِدَمْعٍ مِنْ دَمِ الْمُهَجِ
كَانَتْ أَسَارِيرُ هَذَا الدَّهْرِ مِنْ دُرَرٍ تَزْهَى فَبُدِّلَ ذَاكَ الدُّرُّ بِالسَّبَجِ[٣]
فَكَمْ غَنِيٍّ بِسَمَاحٍ مِنْ مَكَارِمِهِ فَقْرًا وَقَوَّمَ بِالْإِعْطَاءِ مِنْ عِوَجِ
يَا نُورَ عِلْمٍ أَرَاهُ الْيَوْمَ مُنْطَفِئًا وَكَانَتِ النَّاسُ تَمْشِي مِنْهُ فِي سُرُجِ[٤]

(١) الأشرف شعبان: وهو الأشرف، زين الدين شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، الثالث والعشرون من سلاطين المماليك البحرية، حكم في الفترة من «٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٧-١٣٨١م»؛ (كليفورد: الأسرات الحاكمة، ص١٠٠).

(٢) تربة الظاهر جقمق: وكانت تقع بمقابر المماليك، بالقرافة الشرقية، بالصحراء.

(٣) تم له ذلك في ربيع الأول من سنة «٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م».

(٤) إينال: الأشرف، سيف الدين، إينال العلائي، الثالث عشر من سلاطين المماليك الجراكسة بمصر، حكم في الفترة من «٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م»؛ (كليفورد: الأسرات الحاكمة، ص١٠١).

(٥) مدرسة قايتباي: نسبة إلى السلطان الأشرف سيف الدين، قايتباي، وهي في الواقع مدرسة وجامع بمقابر المماليك الواقعة في الصحراء إلى الشرق من طريق «صلاح سالم» الحالي؛ (سنية قراعة: مساجد ودول، مكتب الصحافة الدولي للصحافة والنشر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص ص٢٦٢-٢٦٣).

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، مج٤، ج٧، ص ص٢٥٩-٢٦١، ترجمة رقم ٦٥٥.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣، ص ص٩٨-٩٩.

فَلَوْ رَأَيْـتَ الْفَتَاوَى وَهْيَ بَـاكِيَةٌ رَأَيْتَـهَا مِنْ نَجِيعِ الدَّمْعِ فِي لَـجَـجٍ(٥)

«الثاني عشر»

محمد بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن داود، الصدر بن الشمس بن الشهاب، الرومي القاهري، الحنفي، من أشهر نُوَّاب الحكم(٤) في مصر في عصره، ذكره ابن حجر في إنبائه فقال:«ناب في الحكم، وكان حسن التودد»، تُوفي في سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م(٥).

«الثالث عشر»

محمد شاه بن الشيخ شمس الدين محمد حمزة، الرومي، الفناري الحنفي، دخل القاهرة، امتدحه ابن حجر العسقلاني حين قال عنه: «وكان ذكيًا»، حج في سنة بضع وثلاثين، ودخل القاهرة، تُوفي ببلاده بلاد ابن قرمان في سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م(٦).

«الرابع عشر»

محمد بن محمد بن لاجين ناصر الدين، أبو عبد الله، بن ناصر الدين بن حسام الدين الرومي الأصل، القاهري، الشافعي القادري، المعروف بابن الحسام، وبيرم(٧)، ولد سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م،

---

(١) السبج: السواد الشديد.

(٢) السرج: بضم السين، جمع سراج وهو الضياء أو النور.

(٣) من بحر البسيط.

(٤) نواب الحكم: وهم نواب قاضي القضاة في أي مذهب من المذاهب الأربعة على حد سواء «الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي، ويعدون بالعشرات» (عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر «دراسة شاملة للنظم السياسية»، ج١، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٩٩؛ محمد قنديل البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص٣٥٣).

(٥) السخاوي: المرجع السابق، مج٥، ج٩، ص ٣، ترجمة رقم ١٤.

(٦) نفسه، ص ٧٩، ترجمة رقم ٢١٥.

(٧) اسم بيرم في اللغة التركية هو العيد.

فقرأ القرآن الكريم، وجَوَّدَ فيه، وبعض المنهاج[١]، وكذلك في النحو[٢] والصرف وأصول الدين، وجَوَّدَ الخَطَّ العربيَّ، تعلم علي يد الكثيرين في مدينتي القاهرة وحلب[٣].

«الخامس عشر»

محمد بن محمد بن محمود بن أحمد بن الرومي، البابرتي»[٤] بفتح الباء، أكمل الدين، ولد سنة بضع عشرة وسبع مئة، اشتغل بالعلم، قدم القاهرة بعد سنة ٧٤٠هـ فأخذ من علمائها الكثير، استقر بمشيخة خانقاة شيخو[٥]، حيث فوض إليه أمورها فباشرها مباشرة حسنة، كما عرض عليه تولي القضاء مرارًا فامتنع، حسن المعرفة بالفقه والعربية والأصول، صنف شروحًا على عدة كتب منها: شرح مشارق الأنوار[٦]، والهداية[٧]، وشرح مختصر ابن الحاجب[٨]، وشرح

---

(١) المنهاج: أو «منهاج الطالبين وعمدة المفتين»، من الكتب المصنفة في الفقه، وبالتحديد في فقه الشافعية، للحافظ الفقيه شيخ الإسلام الإمام النووي، «أبو زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي»، «٦٣١-٦٧٦هـ/ ١٢٣٣-١٢٧٧م»، قامت بنشره وطباعته دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.

(٢) النحو: أحد فروع علم اللغة، علم باحث عن أحوال المركبات الموضوعة وضعًا نوعيًا لنوع من المعاني التركيبية النسبية من حيث دلالتها عليها؛ (طاش كبري زاده: موسوعة مصطلحات، ص ص٩٤٤-٩٧١).

(٣) السخاوي: المرجع السابق، مج٥، ج٩، ص١٨٩-١٩٠، ترجمة رقم ٤٧٢.

(٤) نسبة إلى بابرت، التي ذكرها الحموي فقال: «قرية كبيرة ومدينة حسنة، من نواحي أرزن الروم، من نواحي أرمينية، وأكثر أهلها أرمن»؛ (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٦٥).

(٥) خانقاة شيخو: وهي ذاتها الشيخونية التي سبق التعريف بها، راجع هامش رقم ٧٥.

(٦) مشارق الأنوار: ويسمى مشارق الأنوار على صحاح الآثار، من الكتب المصنفة في علم اللغة، للإمام الحافظ القاضي عِيَاض، «أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحْصُبي السَّبْتي المالكي»، «ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م»، قامت بنشره مكتبة دار التراث، في عدة أجزاء.

(٧) الهداية: من الكتب المصنفة في فروع الفقه الحنفي، لشيخ الإسلام برهان الدين المرغيناني، علي بن أبي بكر الحنفي، «ت ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م»، وسمي شرح البابرتي له «العناية شرح الهداية»، وقامت بنشره دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م.

(٨) مختصر ابن الحاجب: من الكتب المصنفة في علم «الفقه»، وهو للإمام الدويني، أبي عمرو عثمان بن أبي بكر بن يونس الكردي الدويني الأصل، الإسنائي المولد، المالكي، «٥٧٠-٦٤٦هـ/ ١١٧٤-١٢٤٨م».

المنار، وشرح التلخيص[١]، شرح الألفية لابن معطي[٢]، شرح البرماوي[٣] في المعاني والبيان، تُـوفي في التاسع عشر من شهر رمضان من سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م، وحضر السلطان برقوق، ومن دونه جنازته،[٤] ودفن داخل القبة بجوار قبر الأتابكي شيخو بالخانقاة الشيخونية، وقد رثاه بعض الشعراء، فقال فيه الشهاب بن العطار[٥] : [٦]

رُمْ شَيْخَ الإِسْلَامِ الَّذِي فَضْلُهُ قَدْ عَمَّنَا تَشْرِيفُهُ الْكُمَّلُ
وَكَيْفَ لَا يُعْطِي [الْفَتَى] وَالَّذِي بَدَا بِهِ سَعْدُ الْوَرَى الأَكْمَلُ.

ورثاه شهابُ الدين بن أبي حَجْلَة [٧] فقال [٨]:

شَيْخٌ إِلَى سَبِيلِ الرَّشَادِ مَسْلَكٌ وَسَبِيلُهُ فِي الْعِلْمِ مَا لَا يُجْهَلُ
شَيْخٌ تَبَحَّرَ فِي الْعُلُومِ فَمَنْ رَأَى بَحْرًا يَسُوغُ لِوَارِدِيهِ الْمَنْهَلُ
شَيْخٌ عَلَيْهِ مِنَ الْمَهَابَةِ رَوْنَقٌ كَالْبَدْرِ لَكِنْ وَجْهُهُ مُتَهَلِّلُ
شَيْخٌ تَقَدَّمَ فِي الْعُلُومِ لِأَنَّهُ إِنْ عُدَّ أَرْبَابُ الْفَضَائِلِ أَوَّلُ
شَيْخٌ بِحُسْنِ بَيَانِهِ وَشُرُوطِهِ مَا بَاتَ بِالْمِفْتَاحِ بَابٌ مُقْفَلُ

(١) التلخيص: أو « مختصر المفتاح للسكاكي»، من الكتب المصنفة في علم « المعاني»، لجلال الدين القزويني، « ٦٦٦-٧٣٩هـ/ ١٢٦٧-١٣٣٨م».

(٢) الألفية لابن معطي: من الكتب المصنفة في علم النحو، للشيخ العالم الكبير «يحي بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي المغربي، الحنفي، زين الدين»، المشهور باسم« ابن معطي»، «٥٦٤-٦٢٨هـ/ ١١٦٨-١٢٣٠م».

(٣) لم تسعفنا المصادر بشيء عن هذا الكتاب.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ص١٧٩-١٨٠؛ الصيرفي «الخطيب الجوهري، نور الدين علي بن داوود (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)»: نزهة النفوس في تواريخ الزمان، ج١، تحقيق: د/ حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة،١٩٧٠م، ص١٠٩.

(٥) وهو الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي العطار، «ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م»، من كبار الشعراء في العصر المملوكي، وله تصانيف جيدة؛ (ابن إياس: بدائع، ج١، ق٢، ص٣٥٢).

(٦) من بحر السريع. وقد وُصِلَتْ همزة (الإسلام) لضرورة الوزن. وزِيدَتْ كلمة (الفتى) ليستقيم الوزن.

(٧) ابن إياس: المرجع السابق، ص٣٥٢.

(٨) من بحر الكامل. والبيت الأول مكسورٌ عروضيًّا، ويستقيمُ الوزنُ بقولنا: "شيخٌ إلى سُبُلِ الهداية مَسْلَكٌ". وزِيدَت "الواو" في البيت الأخير ليستقيم الوزن.

مَا قِيلَ هَذَا كَامِلٌ فِي ذَاتِـهِ إِلَّا [وَ] قُلْتُ الشَّيْخُ عِنْدِي أَكْمَل

«السادس عشر»

محمد الشمس الرومي، القاهري، الحنفي، المعروف بالكاتب، قدم القاهرة فاختص بالسلطان المملوكي الظاهر ططر[1]، ثم السلطان جقمق، حتى حظي بمكانة مرموقة لديه، كان ملمًّا بالأدب[2] والتاريخ وبعض العلوم الأخرى، وحصَّل من الكتب نفائسَها، قال عنه السخاوي: «كان عفيفا عاقلا دينا، قليل الطمع، دَرِبًا بصحبة الملوك»، تُوفي في سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م، رحمه الله[3].

«السابع عشر»

محمود بن نور الدين علي، جمال الدين، أبو الثنا، القيصري، الشهير بالعجمي الرومي، قاضي القضاة الحنفي، وناظر الجيوش بالقاهرة، قدم القاهرة، وأقام في مدرسة صرغتمش من جملة الطلبة، «وكان على فقر عظيم»، وبعد إتمام تعليمه وإجازته، باشر وظيفة التدريس في الصرغتمشية، كما باشر عدة وظائف أخرى منها: الخطابة في مدرسة السلطان برقوق، ونظر الأوقاف والمارستان المنصوري[4].

ذكره الصيرفي[5] فقال: «.. رجلا عالما صادقا، ذا أدب وحشمة، سخي الكف على الطعام

---

(١) ططر: الظاهر، سيف الدين، ططر، السابع من سلاطين المماليك الجراكسة بمصر، حكم في الفترة من «٨٢٤هـ/١٤٢١م»؛ (كليفورد: الأسرات الحاكمة، ص١٠١).

(٢) الأدب: عرفه ابن خلدون فقال: «هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفْيها، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان العربي ثمرتُه، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم»؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٤، ص١٢٦٨).

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص١١٢، ترجمة رقم ١١٢.

(٤) المارستان المنصوري: أو المارستان العتيق، نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون الألفي، ويقع بخط بين القصرين من القاهرة، بني في سنة «٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م»؛ (السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٤؛ عبد العزيز محمود عبد الدايم: الرعاية الطبية في عصر المماليك، مجلة كلية الآثار، العدد ٢، ١٩٧٧م، ص١٦٨).

(٥) الصيرفي الخطيب الجوهري، «نور الدين علي بن داوود»، «ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م»، من أشهر مؤرخي العصر المملوكي، له مؤلفات عديدة في التاريخ من أشهرها: نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، إنباء الهصر بأبناء العصر؛ (شاكر مصطفى: التاريخ العربي، ج٣، ص ص١٧٤-١٧٧).

والعطاء لمن يعتني به... تُـوفي في الثاني من شهر ربيع الأول من سنة ٧٩٩هـ/١٣٩٦م، وحضر جنازته أمراءُ القاهرة وأعيانُها والقضاةُ، ودفن بترب القرافة بالقاهرة[١].

«الثامن عشر»

مقبل الرومي، الشافعي، عتيق السلطان الناصر حسن بن قلاوون[٢]، طلب العلم، واشتغل في الفقه على مذهب الشافعية، تُوفي في أوائل الكهولية سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، وقد قارب الستين من العمر[٣].

«التاسع عشر»

نصر الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن إسماعيل الأنصاري، البخاري، الرومي، الكجوري، الشافعي، ولد سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م، اشتغل في العلم على يد كبار المشايخ، فتميز في الفلسفة، وبرع في الحكمة، قدم القاهرة بعد سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م، فسكن المدرسة المنصورية[٤]، وحكم في البيمارستان المنصوري، له عدة مؤلفات في علم الصرف والتصوف مع معرفة جيدة للغات التركية والعربية والفارسية، تُوفي في رجب سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٣٠م[٥].

«العشرون»

همام الدين، الرومي، الحنفي، واسمه عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود، عالم فاضل خيِّر، تولى قضاء الإسكندرية، ذكره ابن حجر فقال: «.. وكان خيِّرًا»[٦]، تُوفي بالإسكندرية في

---

(١) الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص ص٤٥٠-٤٥١.

(٢) الناصر حسن بن قلاوون: الناصر، بدر الدين حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، العشرين من سلاطين المماليك البحرية، حكم في الفترة من «٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م».

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص١٦٨، ترجمة رقم ٧٠٠.

(٤) المدرسة المنصورية: نسبة إلى المنصور قلاوون الألفي، الذي رتب بها دروسًا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة، مع الطب والحديث النبوي، والتفسير والقرآن الكريم، كانت تقع من داخل باب المارستان الكبير المنصوري، بخط بين القصرين؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٤٨٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٤).

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص ص١٩٨-١٩٩، ترجمة رقم ٨٥٠.

(٦) ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٤، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٩٥.

سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م[١].

«الحادي والعشرون»

وليُّ الدين الرومي، الأزهري، الحنفي، من أشهر شيوخ الجامع الأزهر الشريف، ذكره السخاوي فقال: «.. له اشتمالٌ على المحاسن، ويكتب الخط المنسوب[٢]، قطن الجامع الأزهر، حيث يتعبد ويتبتل، ويُذكر ضمن المعتقدين به، تُوفي في أوائل الكهولة سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م[٣].

« الثاني والعشرون»

يحي بن محمد بن إبراهيم بن أحمد الأمين، أبو زكريا، ابن الشمس أبو محمد الأقصرائي الأصل، القاهري الحنفي، ولد سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م، بالقاهرة، فنشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وكتبًا أخرى منها: المنظومة[٤]، والكنز[٥]، والمنار، والحاجبية[٦]، حيث أخذ في الفقه والأصول[٧] والنحو والصرف، وتفسير القرآن، والمعاني والبيان والمنطق، حجَّ مرارًا، وزار مدنًا عديدة منها: بيت المقدس، والخليل، والإسكندرية أكثر من مرة، اشتهر بحسن التعليم والإرشاد، عمل بالتدريس، فدرس التفسير بالمدرسة المؤيدية، والفقه مع الحديث بالمدرسة الصرغتمشية، والفقه بالمدرسة الجمالية[٨]، خرجت له من مروياته أربعين حديثًا عن أربعين شيخًا، تُوفي في

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص٢٠٩، ترجمة رقم ٨٩٩.

(٢) المنسوب، نوع من أنواع الخط العربي، كالمكي والمدني، والبصري والكوفي، والثلث والمدور، وغيرها، للمزيد راجع: النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدُد، طهران، ١٩٧١م.

(٣) السخاوي: نفسه، مج٥، ج١٠، ص٢١٠، ترجمة رقم ٩١٣.

(٤) المنظومة: من الكتب المصنفة في الفقه، وبخاصة الفقه الحنفي وأصوله، للشيخ الإمام فخر الدين الزيلعي.

(٥) الكنـز: أو «كنـز الدقائق»، من الكتب المصنفة في الفقه، للإمام النسفي «أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود»، «ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠م».

(٦) الحاجبية: لم تسعفنا المصادر بشيء عنه.

(٧) الأصول، وهي أصول الدين أو علم الكلام، وقد سبق التعريف به، راجع هامش رقم ٨١.

(٨) المدرسة الجمالية: نسبة إلى الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالي، الذي قام ببنائها في سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، وقد جعلها مدرسة للطلاب على المذهب الحنفي، وخانقاة للصوفية، وكانت تقع بجوار درب راشد من القاهرة على باب الزقاق المسمى «درب سيف الدولة نادر»؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥١١).

سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م[١].

« الثالث والعشرون»

يعقوب بن إدريس بن عبد الله بن يعقوب الشرف، الرومي النكدي[٢]، الحنفي، عُرِف بقرا يعقوب، ولد سنة ٧٩٨هـ/ ١٤٩٢م، واشتغل في وطنه الأول على العالم الشمس الفناري، وجَدَّ في طلب العلم، حتى فضل ومهر في علوم عدة منها: الأصول والعربية، والمعاني، والبيان، دخل القاهرة زمن السلطان ططر، فحصَّل فيها كتبًا كثيرة، وكتب على المصابيح[٣] شرحًا، وعلى الهداية حواشيَ، عمل بالتدريس والإفتاء، تُوفي في سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م، في لارندة[٤] عن عمر يناهز نحو أربع وثمانين سنة[٥].

« الرابع والعشرون»

يعقوب بن جلال بن أحمد بن يوسف الشرف، شرف الدين، ويُسمَّى أيضا: أحمد بن إجلال الدين، ويُسمَّى أيضا: رسولًا، الرومي، القاهري، التباني[٦]، ولد سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م، وتفقه على أبيه، وغيره من أساتذة العلم، فمهر في العربية والمعاني والبيان[٧] والعقليات، درس وأفتى، وكان تدريسه

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص ص٢٤٠ -٢٤١، ترجمة رقم ١٠٠٨.

(٢) نسبة إلى نكدة من بلاد ابن قرمان.

(٣) المصابيح: وهو «مصابيح المغاني في حروف المعاني»، من الكتب المصنفة في علم النحو، للخطيب الموزعي، المعروف بابن نور الدين، «ت ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م».

(٤) لارندة: إحدى مدن الأناضول، في شمال «بحر الروم» وهو حاليًا «البحر الأبيض المتوسط».

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص٢٨٢، ترجمة رقم ١١٠٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٧، ص٢٠٧.

(٦) نسبة إلى حي التبانة التي سكن بها، الذي كان من متنـزهات مدينة القاهرة في العصر المملوكي.

(٧) البيان: علم يراد به إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة في وضوح الدلالة على المقصود بأن تكون دلالة بعضها أجلى من بعض، وموضوعه اللفظ العربي من حيث وضوح الدلالة على المعنى المراد؛ (ابن خلدون: المقدمة، ج٤، ص١٢٦٨؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٢٥٩).

في عدة أماكن منها: مدرسة ألجاي[1]، ومشيخة قوصون[2]، والشيخونية زمن الأشرف برسباي، وفي عهد المؤيد شيخ[3] حظي بمكانة رفيعة مرموقة، وكانت له كلمة مسموعة[4].

«الخامس والعشرون»

يوسف بن أحمد الأرزنجاني، الرومي، القاهري، الحنفي، نزيل الصحراء، المعروف بسنان، قدم القاهرة سعيًا وراء الوظائف الكبار، فأقبل عليه محيي الدين الكافِيَجي، ونزل تحت نظره، ودرس بالتربة الأشرفية[5]، ثم الخانقاة الشيخونية، تُوفي في سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، رحمه الله[6].

* * *

(١) مدرسة ألجاي: بسوق السلاح، خارج باب زويلة، نسبة إلى الأمير الكبير سيف الدين ألجاي، الذي أنشأها في سنة «٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م»، وجعل بها دروسًا للفقهاء الشافعية والحنفية، وخزانة كتب؛ (المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣، ص٥٢٨).

(٢) قوصون: لعل المقصود خانقاة قوصون بالقرافة، نسبة إلى الأمير الكبير «قوصون» من كبار أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وقد تم بناؤها في سنة «٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م»؛ (المقريزي: المصدر السابق، ص ص٥٩٤-٥٩٥؛ السيوطي:حسن المحاضرة، ج٢، ص٢٦٤).

(٣) المؤيد شيخ: أبو النصر، شيخ المحمودي، الخامس من سلاطين المماليك الجراكسة بمصر، حكم في الفترة من «٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢١م»؛ (كليفورد: الأسرات الحاكمة، ص١٠٠).

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، مج٥، ج١٠، ص٢٨٢-٢٨٣، ترجمة رقم ١١٠٩؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج١، ص ص٥٧-٥٨.

(٥) التربة الأشرفية: هي ذاتها المدرسة الأشرفية برسباي، التي سبق التعريف بها، راجع الهامش رقم ٧٣.

(٦) السخاوي: المصدر السابق، ص٣٠٢، ترجمة رقم ١١٦٩.

نتائج الدراسة

خلصت الدراسة إلى عدة نتائج مهمَّة هي:

- اتسم عصر المماليك بوجه عام، والجراكسة بوجه خاص، بالإشعاع العلمي الكبير، فهو بحق عصر الموسوعات العلمية والتاريخية على وجه الخصوص.

- تبوأت مصر الصدارة، بفضل تشجيع السلاطين المماليك "في العصرين" على وجه العموم، حيث اعتلت عرش الزعامة السياسية بين بلدان العالم الإسلامي في ذلك العصر.

- غدت القاهرة " قاهرة المماليك" خلال " عصري المماليك" منارة العلم والإشعاع الثقافي في العالم الإسلامي.

- تعددت مؤسسات التعليم في العصر المملوكي ما بين جوامع ومدارس وخانقاوات وزوايا وربط.. إلى آخره، مما ساعد على إثراء الحركة العلمية في مصر في تلك الحقبة.

- كان النشاط العلمي للأزهر في العصر المملوكي متسعًا متشعبًا، واتسم بكل سمات الدراسات الجامعية العليا، ندلل على ذلك بعدة أمور:

١-اهتمام الدولة بشؤون الأزهر وإقامة المساكن للطلبة والعلماء.

٢-تنوع الدراسات حيث الجمع بين العلوم العربية والشرعية والعقلية.

٣-وفود العلماء إلى الأزهر من المغرب والمشرق الإسلامي بسبب ما أصابهما من نكبات، حيث أصبحت مصر والأزهر ملجأً لعلماء الإسلام ومحطًّا لرحال طلاب العلم.

٤-الإنتاج العلمي الذي قدمه علماء الأزهر في تلك الحقبة حيث أفرزت تلك الفترة عددا عظيما من المؤلفات، لا تزال تفرض نفسها في كثير من المجالات العلمية.

- تنوعت العلوم الدراسية خلال عهد دولة سلاطين المماليك "في العصرين"، ما بين علوم نقلية " الشرعية" لها الغلبة، وعلوم عقلية "غير شرعية".

- تميز الاتصال العلمي بين البلدين "مصر وبلاد الروم" في العصر المملوكي الجركسي

بالحيادية، والبعد التام عن التأثر بالظروف السياسية داخل البلدين، سواء في حالة الحرب أو في حالة سوء العلاقات بين البلدين.

- تميزت الدولة العثمانية "منذ النشأة وعبر عصورها المختلفة" بطابع ديني إسلامي، ظهر واضحًا جليًّا في تشريعاتها ومعظم تصرفاتها.

- قدمت الدراسة لنحو خمسة وعشرين عالما من علماء بلاد الروم (العثمانيين) الذين زاروا مصر، وأقاموا بها طلبًا للعلم، وعملوا بالتدريس في مؤسساتها العلمية المختلفة.

***

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر العربية:

ابن إياس: محمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)

بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، عدة أجزاء.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)

رحلة ابن بطوطة «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، ج١، طبعة باريس، ١٩٦٩م، عدة أجزاء.

ابن حجر: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)

إنباء الغمر بأبناء العمر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م.

ابن خلدون: ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)

المقدمة، تحقيق د/ علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ١٩٦٢م، عدة أجزاء.

ابن العماد: شهاب الدين، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي (ت ١٠٨٩هـ)

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥١هـ، عدة أجزاء.

الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس، الحموي الحسيني، (من علماء القرن السادس الهجري)

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، دون تاريخ.

البغدادي: صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

البلوي: أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمير بن محفوظ المديني.

سيرة أحمد بن طولون، تحقيق: محمد كرد علي، دمشق، ١٩٤٠م.

التهانوي: الشيخ المولوي محمد أعلى بن علي (ت ١١٥٨هـ)

كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: د/ علي دحروج، مكتبة لبنان، لبنان، دون تاريخ، عدة أجزاء.

حاجي خليفة:

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وكالة المعارف، القاهرة، ١٩٤١م، جزءان.

السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دون تاريخ، عدة أجزاء.

السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دون تاريخ، عدة أجزاء.

الصيرفي: الخطيب الجوهري، نور الدين علي بن داوود (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: د/ حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.

الكندي: أبو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري.

الولاة والقضاة، صححه: فن جست، مطابع الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، ج٢، تحقيق: د/محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٨م.

طاش كبري زاده: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبري زاده.

موسوعة المصطلحات «مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم»، تحقيق: د/ علي دحروج، لبنان ناشرون، لبنان، ١٩٩٨م.

ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)

معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، عدة أجزاء.

يوسف آصاف:

تاريخ سلاطين بني عثمان، تقديم: د/محمد زينهم عز العرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م.

ثانيًا: المراجع العربية:

إبراهيم العدوي:

مصر الإسلامية "مقوماتها العربية ورسالتها الحضارية"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٥م.

أحمد شلبي:

التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية عشر، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، عدة أجزاء.

جمال الدين الشيال:

تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٠م، جزآن.

حسن أحمد محمود و منى حسن أحمد محمود:

مصر الإسلامية "منذ الفتح العربي حتى قيام الدولة الفاطمية"، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠م.

خير الدين الزركلي:

الأعلام «قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين»، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م.

سيدة إسماعيل الكاشف:

- مصر في فجر الإسلام «من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية»، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م.

- مصر في عصر الإخشيديين، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

شاكر مصطفى:

التاريخ العربي والمؤرخون «دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م، عدة أجزاء.

شحاتة عيسى إبراهيم:

القاهرة، سلسلة الألف كتاب «١٨٤»، دار الهلال، القاهرة، دون تاريخ.

صبحي عبد المنعم:

المماليك والعثمانيون في التاريخ، دون مكان، دون تاريخ.

عبد العزيز محمود عبد الدايم:

الرعاية الطبية في عصر المماليك، مجلة كلية الآثار، العدد ٢، ١٩٧٧م.

عبد الوهاب حمودة:

صفحات من تاريخ مصر، دون مكان، دون تاريخ.

كليفورد. أ.بوزورث:

الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي «دراسة في التاريخ والأنساب»، ترجمة: حسين علي اللبودي، د.سليمان إبراهيم العسكري، مؤسسة الشراع العربي بالاشتراك مع عين للدراسات والبحوث الإنسانية

والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.

محمد عبد اللطيف:

السلاجقة «تاريخهم السياسي والعسكري»، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

وهبة الزحيلي:

العلوم الشرعية بين الوحدة والاستقلال، مجلة الحضارة الإسلامية.

***

تَصْدِيرُ الغِلَال مِن الإِسْكَنْدَرِيَّة وَأَثَرُهُ عَلَى الأَوْضَاع دَاخِل المَدِينَة

١٧٧٠ - ١٨٠٥

د. حُسَام مُحَمَّد عَبْد المُعْطِي (*)

تهدف هذه الورقة إلى دراسة حركة تصدير الغلال من الإسكندرية إلى بلدان البحر المتوسط، وأثر ذلك على توفر الغذاء للأهالي داخل المدينة، وكيف أدت الأزمات الغذائية وعدم قدرة الإدارة على مواجهتها أو تواطئها مع المنتفعين من وراء تصدير الحبوب، إلى قيام أزمات غذائية داخل المدينة؟، وكيف أثر ذلك على الوجود الأجنبي داخلها؟ وكيف تعامل أعيان المدينة مع ملف الغذاء اليومي للأهالي داخل الثغر؟ وكيف ساعد ذلك على بروز دور قيادات أهلية أصبحت تلعب دورًا بارزًا في إدارة المدينة، وبالتالي إبراز العلاقة المتناقضة في المصالح بين نخبة تجار المدينة وأعيانها، وبين النخبة المملوكية القابضة على السلطة في القاهرة، والأمر الذي يساعدنا على فهم الانقسام بين أعيان المدينة ويعيننا على التعرف على العوامل التي أدت إلى بروز محمد كريم والعلاقة التي ربطته بمراد بك وإبراهيم بك قبل وصول الفرنسيين إلى مصر، وبالتالي يمكننا من فهم كيف أمكن لجماعة جد صغيرة، متسلطة فوضوية كالمماليك أن تسيطر على مجتمع ضخم مثل المجتمع المصري.

كما تهدف الورقة إلى دراسة التناقض بين أهداف السلطة المحلية المملوكية والسلطة المركزية العثمانية في إسطنبول، فقد كانت القيادة المملوكية في مصر ترى ضرورة تسخير الموارد المالية لتكريس مشروعها للانفصال بمصر عن الدولة العثمانية، وبالتالي كان استخدامها الغلال لزيادة مواردها المالية من أجل أن تؤهل قواها العسكرية استعدادا لمعركة كانت في نظرها وشيكة ضد العثمانيين للسيطرة على مصر؛ بيد أن السلطة المركزية العثمانية كانت ترى

(*) كلية الآداب - جامعة بني سويف

ضرورة تأمين الاحتياجات الغذائية الرئيسة للعاصمة (إسطنبول) من مصر، وكذلك ضرورة تأمين الاحتياجات الغذائية للحرمين الشريفين والحجيج من أجل المحافظة على سيادتها على العديد من البلدان الإسلامية وعلى سمعتها في العالم الإسلامي. فقد كانت طلبات السوق العثمانية على الغلال المصرية وبخاصة في إسطنبول تتزايد يومًا بعد آخر، وقد نتج عن ذلك تزايد أهمية مصر التجارية للدولة العثمانية؛ لذا راحت تستحث القيادات المملوكية القابضة على أزمَّة الأمور في مصر على عدم تصدير الغلال إلى أوربا، وراحت تسعى لإعادة سيادتها الفعلية على الولاية المصرية، ومن أجل ذلك كانت حملتها بقيادة حسن باشا قبودان على مصر في العام ١٢٠١هـ/١٧٨٦م.

وخلال تلك الفترة الذي أخذت ضغوط الرأسمالية الأوربية تتزايد على مصر من أجل فتح أسواقها، سعيًا للحصول على الغلال التي تزايد الطلب عليها، وتمثل ذلك في مظهرين أساسيين أولهما: محاولة ربط مصر بالسوق الأوربية من أجل إنتاج احتياجاتها من الغلال، وثانيهما: محاولة إحياء طريق السويس البري، ووصول السفن الأوربية إلى السويس، وتُعد الحملة الفرنسية امتدادًا لتلك الضغوط الأوربية، فمنذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر أصبحت مصر تشكل أهمية خاصة لدى الأوربيين الذين كانوا يبحثون عن الغلال التي ارتفعت أسعارها في أوربا، وخاصة في فرنسا بسبب الأزمات الاقتصادية التي كانت تمر بها بعد فقدها مستعمراتها في العالم الجديد، وهكذا تمثل هذه الفترة منعطفًا حادًّا في التنافس من أجل السيطرة على الحبوب المصرية بين التجار من أهالي المدينة، والقيادات المملوكية المحلية من جهة، والإدارة المركزية العثمانية، والقوى الغربية من جهة أخرى مما جعلها مرحلة جديرة بالبحث.

وتستقي هذه الدراسة مادتها العلمية بصورة رئيسة من أرشيف محكمة الإسكندرية الشرعية، حيث يوجد ثمانية عشر سجلًا تختص بالفترة موضع الدراسة، كما سوف ترتكز أيضًا على خمس عشرة مضبطة من المضابط الموجودة لمحكمة الإسكندرية الشرعية أيضًا، والمودعة جميعًا في دار الوثائق القومية بالقاهرة، بالإضافة إلى الاستعانة ببعض سجلات

الديوان العالي، والعديد من المصادر المعاصرة للفترة موضع الدراسة.

دور الإسكندرية التجاري:

في البداية يجب علننا وضع بعض الملاحظات حول وضع الإسكندرية الاقتصادي خلال هذه الفترة، وهي أن أغلب الدراسات التاريخية ركزت على أن الإسكندرية قد أصبحت مدينة غير ذات قيمة في تجارة البحر المتوسط إبَّان هذه الفترة، وقد نتج ذلك التصور في الواقع عن تصور عدد كبير من المؤرخين بأن رشيد ودمياط قد سحبتا النشاط التجاري الرئيس منها[١]، بمعنًى آخر أن رشيد ودمياط أصبحتا الميناءين الرئيسين لمصر على البحر المتوسط، ويرجع هؤلاء المؤرخون هذا - في رأيهم - لثلاثة أسباب رئيسة هي، أولا: قرب رشيد من إسطنبول[٢] بمعنى أن رشيد أصبحت الميناء الأساس للتجارة مع تركيا، ثانيا: تراجع حجم تجارة الإسكندرية مع الموانئ الأوربية، ثالثا: تزايد عدد سكان رشيد ودمياط إبان القرن الثامن عشر مقارنة بعدد سكان الإسكندرية، مما أكد في رأيهم أن المدينة قد أصابها تراجع كبير[٣].

وفي الواقع أن هذا التصور تُعْوِزُه الدقة إلى حد بعيد، فمن خلال المصادر الأساسية، سواء في ذلك سجلات محكمة الإسكندرية، أو سجلات محكمة رشيد، يمكننا التأكيد على أن الوضع كان مختلفا عما ذهب إلىه هؤلاء المؤرخون، فمنذ العصر المملوكي كانت هناك مدينة على النيل تلعب دور المساعد الأول للإسكندرية، حيث كانت السفن تتوقف عندها لتنقل البضائع عبر الخليج الناصري، وكانت تلك المدينة (المساعدة) هي «فوة» في العصر المملوكي، تلك التي

---

(١) جمال الدين الشيال، الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، الإسكندرية ١٩٥٢، ص٩٢.

(٢) نيفين مصطفى حسن، رشيد في العصر العثماني، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، صـ٣٥.

(٣) جليلة جمال القاضي، وآخرون، رشيد، النشأة الازدهار الانحسار، المعهد الفرنسي لأبحاث التنمية والتعاون، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩، صـ٤٦.

تحولت إلى مركز مساعد للإسكندرية[١]، ومع دخول العثمانيين مصر كانت عمليات حفر الخليج الناصري بعمق كبير يسمح بمرور السفن الكبيرة مسألة يصعب تحقيقها، كما أن عوامل جغرافية عديدة ساعدت على أن تصبح رشيد المساعد الأول للإسكندرية، حيث تراجع المد البحري بصورة كبيرة عن الشواطئ المصرية، مما جعل الممر بين رشيد والإسكندرية (الدرب الرشيدي) أفضل من طريق الرحمانية الإسكندرية وأقصر، كل ذلك أهَّل رشيد لتلعب دور المساعد الأول للإسكندرية، وساعد على ذلك وجود أسطول بحري كبير من السفن الصغيرة التي أصبحت تعمل في عمليات النقل البحري بين الإسكندرية ورشيد، وتلك التي كانت تسمَّى النقاير[٢]، والسؤال: لماذا إذًا لم يتم تحميل السفن مباشرةً بالبضائع من رشيد؟

الإجابة تكمن في أن رشيد كانت تبعد عن البحر المتوسط أربعة كيلومترات، ولم يكن لها ميناء مباشر على البحر؛ لأن إقامة مثل هذا الميناء كانت صعبة للغاية بسبب ترسيبات طمي النيل في كل عام، حيث كان التيار المائي في فرع رشيد شديدًا، نتيجة لانخفاضه عن فرع دمياط. فمن المعروف علميًّا وجغرافيًّا أن فرع رشيد أعمق من فرع دمياط بمترين، وأن الكميات التي يتلقاها فرع رشيد من المياه كانت ضعف الكميات التي يتلقاها فرع دمياط، كما أن فرع دمياط كان سرعان ما يفقد كميات كبيرة من مياهه في أعقاب الفيضان، بسبب اتصاله بفرع رشيد عن طريق الترعة الفرعونية في منتصف الدلتا، حيث كانت الترعة الفرعونية تصرف جزءًا كبيرًا من مياهه في فرع رشيد ذاته، وكل ذلك جعل الملاحة في فرع

(١) يشير الرحالة إلى أنه في القرن الخامس عشر الميلادي لم تكن هناك مدينة أكبر من فوة في القطر المصري سوى القاهرة، حيث كانت فوة مرفأ نهريًا وسطًا بين القاهرة ومدن الدلتا من جانب والإسكندرية من جانب آخر، السيد محمد أحمد عطا، تاريخ الغربية وأعمالها في العصر الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢، صـ٢١٩، صـ٢٢٠.

(٢) محكمة رشيد الشرعية، س٤٠، ص٢٥٠، دون رقم، بتاريخ ١٠٢٩هـ/١٦١٩م.

رشيد صالحة طوال أغلب فترات العام[١]، على العكس من فرع دمياط، وقد انعكس ذلك على حركة الملاحة التجارية بين بولاق ورشد بصورة إيجابية[٢]؛ كما أن ذلك جعل المناطق الواقعة على الترعة الفرعونية وفرع رشيد هي المناطق الأكثر أهمية في زراعة الأرز[٣].

إذن فواقع الحال أنه لم يكن هناك تنافس بين رشيد والإسكندرية بقدر ما كان هناك تناغم في أداء المهام لكلتيهما[٤]، وقد رأت الإدارة العثمانية أن أبسط وسيلة لضبط الأداء الجمركي بين رشيد والإسكندرية هي وضعهما تحت إدارة جمركية واحدة، لذلك ضُمتا تحت قيادة قبودان الإسكندرية[٥]، إضافة لكونهما خضعتا معًا منذ وقت مبكر (منتصف القرن السادس عشر) لقيادة جمركية واحدة، فغالبًا ما كان التزام الإسكندرية يعني ضمنيًّا التزام رشيد حيث كانت ضمن مقاطعتها[٦] وقد عمل الباشاوات في مصر منذ منتصف القرن

---

(١) بذل مراد بك في العام ١٢٠٧هـ/١٧٩٣م محاولات كبيرة من أجل سد فم الترعة الفرعونية بهدف زيادة الكميات التي يحتفظ بها فرع دمياط من المياه خلال موسم الصيف، وبالتالي تتمكن مناطق الدقهلية ودمياط من زرع مساحات أكبر من الأرز، بيد أن هذه المحاولة انتهت بالفشل بسبب تواطؤ أيوب بك وسَعْيه في فشل ذلك، نظرًا لوقوع قرى التزامه على جانبي الترعة الفرعونية، وكان سد فم الفرعونية أول مشروعات الري التي قام بها محمد علي، راجع: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، ٢٠٠٣، جـ٢، صـ٣٦٣.

(٢) هلين آن ريفلين، الاقتصاد والإدارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة: أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، صـ٣٢٤.

(٣) إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العام للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢، صـ١٧٤.

(٤) كانت كل المواد المرسلة إلى الإدارة المركزية في إسطنبول يتم نقلها من بولاق بالنيل إلى رشيد، ثم تنقل عبر الدرب الرشيدي برًّا أو بالنقاير حسب الوثائق (وبالجرمة حسب الرحالة) إلى الإسكندرية. إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص١١٦؛ محكمة الإسكندرية الشرعية، س٥٢، ص٣٩، ص٤٠، ص٤١، م٧٦ إلى ٨٠، بتاريخ ١٠٨٢هـ/١٦٧١م.

(٥) محكمة إسكندرية الشرعية، س٢٨، ص٢٢، م٧٧، بتاريخ ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م.

(٦) فمثلاً في العام ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م، كانت إيرادات جمرك الإسكندرية وتوابعها بما فيها رشيد بالطبع ٩٦ كيسة و١١٥٠١ بارة، وكان جمرك رشيد يمثل منها ٢١١٣٨٢ بارة، أي حوالي ٨٪ من إجمالي دخل الجمرك، محكمة إسكندرية الشرعية، س٢٨، ص٢٢، م٧٧، بتاريخ ١٠٠٣هـ. راجع: عبد الحميد حامد سليمان، تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين، العدد ٨٩، القاهرة، ١٩٩٥، صـ١٩٢.

السادس عشر، وبخاصة سنان باشا[١] على ربط بولاق ورشيد والإسكندرية بمجموعة واحدة من المنشآت التي تخدم الحركة التجارية بينها، فقام سنان باشا بإنشاء مجموعات ضخمة من الوكالات والمساجد والأسواق في الموانئ الثلاثة، مما دعَّم من دورها في الحركة التجارية، وهنا يجب علينا فهم لماذا استخدمت الإدارة في مصر ميناء الإسكندرية الشرقية بدلًا من الميناء الغربية الأكثر أمنًا، حيث كانت الميناء الشرقية هي الأكثر قربًا للسفن القادمة من رشيد، أما عن قرب رشيد من إسطنبول فإن وثائق (محكمة) الإسكندرية تطلعنا على أن جُلَّ المواد المرسلة إلى الموانئ التركية كانت ترسل عبر ميناء الإسكندرية وليس رشيد، فمثلا كميات البارود والسكر والمشاق (أحبال التيل والكتان) المرسلة من مصر إلى تركيا في كل عام مدونة في سجلات محكمة الإسكندرية، وكذلك السفن المحملة بالبضائع إلى سالونيك وأزمير[٢] ، ويؤكد استيف على ذلك فيقول: «ولم يكن الغرض من إنشاء جمرك رشيد تقرير رسوم جديدة، بقدر ما كان الهدف منه هو التحقق مما إذا كانت لم ترتكب أية عمليات خداع أو تدليس في جمركي بولاق والإسكندرية»[٣]، فمثلا في العام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م حضر إلى الإسكندرية اثنان من التجار الأتراك واشتركا معًا في شركة رأسمالها ٦١١٧ قرشًا[٤]، حيث تسوَّقا بالمبلغ المذكور أرزًا وبُنًّا وقاما بإرسال ذلك إلى الإسكندرية حيث شحنوها بمركب عمر قبودان أرناؤوط إلى تركيا[٥] ، وهكذا كان يحدث غالبًا، حيث يتزود بعض التجار الأتراك والأوربيين بالبضائع من رشيد، رغبة في زيادة هامش أرباحهم.

---

(١) تولى سنان باشا حكم مصر خلال الفترة من ٩٧٥ــ ٩٧٦هـ/١٥٦٧ــ١٥٦٨م، ثم رحل على رأس حملة عسكرية لليمن، ثم عاد لحكم مصر خلال الفترة ٩٧٩ــ٩٨١هـ/١٥٧١ــ١٥٧٣م.

(٢) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٣، ص٤٩، م١١٩، بتاريخ ١١٩٣هـ/١٧٧٩م.

(٣) استيف، النظام المالي والإداري في مصر العثمانية، الجزء الخامس من كتاب وصف مصر، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٩، ص١٧١.

(٤) كان القرش يساوي أربعين نصف فضة.

(٥) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٣، ص٣٢٩، م٩٦٩، بتاريخ ١١٩٥هـ/١٧٨٠م.

كما أن رشيد كانت تقع في نطاق الولاية القضائية التابعة لقاضي الإسكندرية، حيث كان قاضي الإسكندرية يُعين نائبا عنه في رشيد، مما سهل الربط بين المدينتين. فمثلا في العام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م كان محمد أفندي قاضي الإسكندرية هو الذي عين عبد الرحمن أفندي كنائب عنه في قضاء رشيد، ورغم شكوى الأهالي في رشيد إلى علي بك الكبير، وطلبهم عزله وإرساله بالعزل فعلا، فإن محمد أفندي تدخل لدى علي بك، وأكد له براءة نائبه مما نسبه إليه الأهالي، مما أبقاه في منصبه[١].

وقد لاحظ بعض الرحالة أن بعض القناصل كانوا ينتقلون إلى رشيد ليقيموا بها إما بصورة مؤقتة أو دائمة، حتى يحصلوا على البضائع القادمة من بولاق ومدن الدلتا بأسعار أقل من تلك التي كانت في الإسكندرية، وحتى السلع التي كان أولئك القناصل يشترونها في رشيد كان يتم شحنها أولا إلى الإسكندرية ثم بعد ذلك إلى موانئ بلدانهم[٢]. أما بخصوص عوامل الضعف السكاني في الإسكندرية، فالواقع أن ذلك يرجع إلى عاملين الأول: أن عددا ليس بالقليل من سكان الإسكندرية آثر الإقامة في رشيد لاعتدال مناخها ووفرة المياه العذبة بها في أثناء الفيضانات المنخفضة. كما أنها ظلت المحطة الرئيسة لتجارة الإسكندرية، ومن أجل ذلك فقد احتفظ العديد من العائلات السكندرية بمنازل لها في رشيد أيضا، فكانت تنتقل إليها عند وصول بضائعها أو عند الفيضانات المنخفضة، أما العامل الثاني: فقد كان يعود إلى تعرض المدينة للعديد من الأمراض الوبائية التي كانت تفتك بعدد كبير من السكان، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المدينة تحتفظ بثرائها التجاري، ففي أثناء الوجود الفرنسي في مصر فرض بونابرت في العام ١٢١٣هـ/١٧٩٨م على كبار تجار الإسكندرية تسديد مبلغ بلغ ٣٠٠,٠٠٠ فرنك، على حين ألزم تجار رشيد بدفع مبلغ ١٠٠,٠٠٠ فرنك لا غير، وكذلك تجار دمياط كلفهم بمبلغ

---

(١) مضابط الإسكندرية الشرعية، س١٠، ص٨٣، م بدون، بتاريخ ١١٨٤هـ/١٧٧٠م

(٢) إلهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، صـ١٧٤.

مماثل لذلك[١] ، وهو ما يعكس الثقل النوعي الحقيقي لثراء تجار الموانئ الثلاث، ولكن كيف كانت تتم عمليات تزويد الإسكندرية بالغلال؟

تزويد الإسكندرية بالغلال:

في البداية علينا الإشارة إلى أن كلمة الغلال تعني كل الحبوب الغذائية مثل القمح والشعير والفول والأرز والذرة الشامية، وإن كانت الذرة الشامية لم تظهر في قوائم الاستيراد أو التصدير طوال فترة الدراسة، كما يجب أن نضع أمامنا حقيقة مؤكدة هي أن هذه التجارة كانت متقلبة للغاية؛ لأنها كانت ترتبط بالفيضان الذي كان متقلبًا للغاية أيضًا، وبالتالي كانت هذه التجارة جيدة للتصدير في السنوات التي بها فيضانات معتدلة، بيد أنها كانت تتحول للاستيراد في حالة الفيضانات السيئة، وفي كلتا الحالتين لعبت الإسكندرية دورًا مهمًّا، سواء كميناء تصدير أو ميناء استيراد لها.

وككل المدن عملت مدينة الإسكندرية على تأمين تموينها من القمح من أقرب المناطق الزراعية القريبة إليها، فقد كان ضروريًّا تأمين تموين وصول القمح من دائرة ضيقة لا تبعد أكثر من ٢٠ إلى ٣٠ كيلو مترًا، وذلك لتحاشي عمليات النقل مرتفعة القيمة؛ لذلك فقد سيطرت المدينة على الريف المحيط بها في دمنهور، وإدكو، وحول الخليج الناصري من أجل إمدادها بالغلال وبخاصة القمح، حيث قام الأهالي داخل الثغر بتمويل عمليات زراعة القمح فمولوا الفلاحين بالحبوب والأموال شريطة تقديم القمح لهم في أعقاب الحصاد[٢] ، كما حرص عدد كبير من الفلاحين في قرى البحيرة والغربية على جلب كميات كبيرة من إنتاج أراضيهم من القمح من أجل بيعه في الإسكندرية نقدًا لتسديد الضرائب المفروضة عليهم، تلك الضرائب التي كان يجب تسديدها نقدًا وليس عينًا، وغالبًا ما كان هؤلاء الفلاحون يأتون برًّا عبر الباب

---

(١) ناصر أحمد إبراهيم، فردة الفرنسيس قراءة تحليلية لقوائم الفردة بمدينة الإسكندرية ١٧٩٨-١٨٠١، مجلة الروزنامة، العدد الثالث، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٤١١.

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١٠٠، م١٩٢، بتاريخ ١٢١٣هـ/١٧٩٨م.

الجنوبي للمدينة والمعروف بباب سدرة، ولذلك فقد كانت تقام عنده السوق الرئيسة لتمويل الأهالي القاطنين في جنوب المدينة بالغلال.

والحق أنه كان بالمدينة أكثر من مكان لبيع الغلال، كانت تعرف برقع الغلال أو ساحات الغلال أو رحب الغلال، فكانت رقعة الغلال بسوق العطارين إلى جوار وكالة مصطفى باشا الغزي المركز الرئيس لبيع الغلال للأهالي القاطنين في شمال المدينة، بينما كانت رقعة الغلال عند باب (شرق) رشيد (خط سوق الغلال) أهم منطقة لإمداد الأهالي في شرق المدينة بالحبوب، فيما ظلت رقعة الغلال عند باب سدرة تمد الأهالي في جنوب المدينة بالغلال، وكانت لرقع الغلال في المدينة وظيفتان: الأولى تزويد الأهالي باحتياجاتهم الغذائية من القمح والفول والشعير وغيرها. والثانية: تزويد بعض التجار الراغبين في التصدير بالكميات التي يرغبون في تصديرها إلى الخارج، بيد أن عددا كبيرا من التجار الكريتيين (الجرتليين) والأتراك والأوربيين أصبحوا يفضلون التوجه إلى رشيد للتزود بالغلال، بخاصة بعد أن تحولت رشيد لأكبر معقل لإنتاج الأرز في مصر.

وغالبًا ما كان التجار الكبار بالثغر السكندري يأبون التدخل في تجارة القمح التي كانت تتعلق بأقوات الفقراء، على النقيض مع الأرز الذي كان منتجًا أكثر رفاهية. فكان كبار التجار في الثغر هم الذين يسيطرون على تجارته ومراكز إنتاجه في رشيد والمناطق المجاورة لها، فلدينا قائمة توضح أسماء التجار العاملين في تجارة القمح والشعير في العام ١٢١٧هـ/١٨٠٢م لا يظهر بها أسماء كبار التجار بالثغر السكندري، بل يظهر التجار المتوسطون وأصحاب الأفران والطواحين بصورة واضحة[١].

وقد لعب تجار الغلال العاملون في ساحات الغلال بالمدينة دورا مهما في تمويل زراعة القمح وشرائه من المناطق المجاورة للمدينة، ومن الملتزمين، فمثلا توضح الوثائق أن الحاج علي بن يوسف الشهير بالكيال الذي كان ملتزمًا لساحة الغلال بالثغر كان يمتلك حِصَصًا

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١٥١، م٢٤٨، بتاريخ١٢١٧هـ/١٨٠٢م.

في ثلاث شركات لتسويق القمح، وأن رأس مال إحدى تلك الشركات كان يبلغ ٣٠٠٠ ريال (٢٧٠,٠٠٠بارة)، مما يعكس الدور الكبير الذي لعبه تجار ساحة الغلال في توفير الغلال لاستهلاك المدينة والتصدير[١].

وكانت طائفة العلافين هي الطائفة المسؤولة عن توفير الحبوب للمدينة، وكانت عائلة شرف تسيطر لفترات طويلة على رئاسة هذه الطائفة، كما كان عدد من أفرادها يعملون كجوربجية في قلاع المدينة، فمثلا في العام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م كان الحاج أحمد بن محمد شرف شيخا لطائفة العلافين، كما كان جوربجيًّا في قلعة الركن[٢]، وكان قد خلف والده في منصب شيخ العلافين بالمدينة، كما خلفه ابنه علي في نفس المنصب أيضًا[٣]، كما يجب أن نشير إلى وجود علاقة نسب مهمة لتلك العائلة بواحد من كبار تجار الثغر العاملين في تصدير الحبوب وهو الحاج إبراهيم بن محمد الشهير بعربية، حيث تزوجت ابنته حنيفة من أحمد بن محمد شرف شيخ طائفة العلافين بالثغر، مما يفسر لنا ذلك الدور الكبير الذي لعبه إبراهيم عربية في تصدير الحبوب، حيث توجد باسمه مئات الفرمانات لشحن السفن بالحبوب. وعند وفاة إبراهيم عربية في العام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م بلغت تركته ٦٩٤,٦٢٠ نصفًا (تعدلها ٧٧١٨ ريالًا)، كان الجزء الأكبر منها ثمن أرز، وهي بلا شك ثروة كبيرة حققها من خلال عمله في هذه التجارة المربحة[٤].

والواقع أن صعيد مصر كان المنطقة الوحيدة التي بها فائض غلال كبير؛ لذلك فقد كان المصدر لمعظم المحاصيل التي تحتاجها الدولة، ويمكن للإدارة تصديرها، فكانت الضرائب تجبى عينا «محاصيل» وترسل بعد ذلك في النيل إلى مخازن الدولة في مصر القديمة، وكان إجمالي الغلال الميري المحصلة في مصر يبلغ ٣٦٠,٠٠٠ إردبًّا. وكانت هذه الغلال تُحصد في الربيع خلال

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س٩٧، ص٣٠٦، م ٣٨٥، بتاريخ ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م.

(٢) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٠، ص١١٦، م بدون، بتاريخ ١١٨٤هـ/١٧٧٠م.

(٣) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٣، ص١٥٤، م٤٠٦، بتاريخ ١١٩٤هـ/١٧٨٠م.

(٤) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٠، ص١١٦، بتاريخ ١١٨٤هـ/١٧٧٠م.

شهر مايو قبل فيضان النيل ثم تحمل على السفن عبر الطريق النهري إلى مصر القديمة حيث شون الميري، أو بولاق حيث شون الأوقاف الخاصة[١] بالحرمين، وكانت هذه الغلال تحت سيطرة البك أمين العنابر الشريفة، ونظار أوقاف الحرمين، وكان جزء من هذه الغلال يسلم كرواتب عينية، ويرسل منه جزء إلى أهالي المدن المقدسة في الحجاز، كما كان يتم بيع جزء منها للتجار الراغبين في شرائها، حيث كان عدد من تجار رشيد والإسكندرية يقومون بشراء هذه الغلال لحسابهم لبيعها في رشيد أو الإسكندرية. فقد كوَّن تجار الإسكندرية شبكات تجارية ممتدة عبر بولاق ورشيد والإسكندرية، لنقل الواردات الواصلة إلى الإسكندرية من إسطنبول وبلاد الشام وشمال أفريقيا وأوربا، والعكس أيضا، حيث قاموا بنقل البضائع المصرية والعابرة من البحر الأحمر إلى الإسكندرية، وبالتالي فقد كان عدد من هؤلاء التجار يحرصون على شراء القمح لتصديره ضمن العديد من السلع المحلية الأخرى، وخاصة في السنوات التي يتزايد فيها الطلب على القمح في البحر المتوسط، مثل الكتان، والحناء والسكر وغيرها. فمثلا في شهر ذي القعدة من العام ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م وصل إلى ساحة الغلال بالإسكندرية من رشيد ٢،٠٨٦ إردبًّا من القمح و٥٨٥إردبًّا من الفول، و١٩إردبًّا من الحمص، وفي شهر محرم من العام ١٢٠٥/١٧٩٠م وصل من رشيد ١٢٣٣إردبًّا من القمح، و١١٣إردبًّا من الفول. وتوضح القوائم التي قدمها محمد سكر ملتزم ساحة الغلال إلى المحكمة أسماء الموردين لهذه الغلال والتي توضح استغلال العائلات الكبيرة في الثغر موسم الفيضان الجيد من أجل توريد الغلال، ومن تلك الأسماء أبو هيف وأبو شال وشرارة وغيرها، مستغلين بالطبع الاحتياجات الأوربية الكبيرة إبان هذا العام لتحقيق أرباح كبيرة[٢].

وخلال فترة الدراسة نشط التجار السكندريون والأتراك والكريتيون في عمليات تمويل الفلاحين بالنقود من أجل زراعة الأرز في مناطق رشيد ودمياط والمنصورة، وقد قدر الرحالة

---

(١) - ... .،١٦٧٠... ٥ , ١٩٩٥، ٨٠ ..

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٥٤، ص ٢٥٧، م٦٦٤، وما بعدها حتى ٧٥٧، بتاريخ ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م.

الفرنسي (أوليفيه) إنتاج رشيد من الأرز بـ١٥٠ألف إردب، كان يتم إرسال معظمه إلى إسطنبول وأزمير وبلاد الشام والروميلي وشمال أفريقيا وأوروبا[١]، وقدَّر علي مبارك إنتاج مصر من الأرز في العام ١٢١٥هـ/١٨٠٠م بـ ٢٧٥,٠٧٩إردبًا من الأرز[٢]. ومعنى ذلك أن رشيد كانت تنتج وحدها أكثر من نصف الإنتاج المصري من الأرز، وكانت تركيا تستأثر وحدها بما لا يقل عن ٥٠٪ من حجم صادرات الأرز المصرية، وكانت الولايات العثمانية في أوربا الشرقية (الروميلي) تطلب كميات كبيرة منه أيضا، ومنذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر كان الطلب في أوربا يتزايد على الأرز المصري وخاصة في فرنسا، حيث كان تصديره إلى أوربا ممنوعًا في أغلب فترات القرن الثامن عشر[٣]، وطالما ظلت رشيد مصدر إنتاج الأرز الرئيس فقد ظلت الإسكندرية ميناء التصدير الرئيس له أيضًا.

دور الإسكندرية في تجارة الغلال:

ظلت الإسكندرية إذن أهم مراكز تجارة مصر في البحر المتوسط، ونتج عن ذلك تكون نخبة تجارية من العائلات التي مارست العمل التجاري، حيث كونت هذه العائلات شبكات تجارية داخلية كانت تمتد من عواصم الأقالم وحول الموانئ النيلية من أجل جلب السلع المنتجة محليًّا، والواردة من البجر الأحمر ووسط أفريقيا، وإعادة تصديرها إلى خارج مصر، كما كونت بعض هذه العائلات شبكات تجارية في موانئ شرق البحر المتوسط العثمانية من أجل تسويق هذه المنتجات، واستيراد الاحتياجات المصرية، ومع التراجع النوعي في صادرات البن خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، برزت الغلال - وبخاصة الأرز - كأهم منتج

---

(١) نقلاً عن: إلهام ذهني، المرجع السابق، صـ١٧٤.

(٢) قدَّر علي مبارك المساحة المنزرعة في مصر من الأرز بـ٣٩,٢٩٧ فدانا في العام ١٢١٤هـ/١٨٠٠م، وقدَّر أن كل فدان كان ينتج خمسة أرادب من الأرز. علي مبارك: نخبة الفكر في تدبير نيل مصر، تحقيق: د. لطيفة سالم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٤، صـ٣١٩.

(٣) رضا أسعد السيد، محصول الأرز وتجارته في القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة المنصورة، ٢٠٠٥، صـ٢٢.

تصديري محلي في الموانئ المصرية، إضافة إلى القمح في أوقات الفيضانات الجيدة، كما كان للكتان والجلود والحناء والسكر والنشادر دور مهم في هذه التجارة[١].

وكانت الإدارة المركزية العثمانية قد حرمت تصدير الحبوب والبن خارج نطاق الدولة العثمانية، ومنعته منذ الربع الأخير من القرن السابع عشر[٢] ، وانهالت الفرمانات من إسطنبول بذلك التحريم، ولكن دون جدوى، فقد دفع الطلب الموانئ الأوربية إلى البحث عن الحبوب بأي سعر، إذ أدّى تزايد الطلب بصورة كبيرة على الحبوب المصرية في بلدان البحر المتوسط، وخاصة في فرنسا خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر إلى فشل تلك المخططات العثمانية، فقد تزايدت احتياجات فرنسا إبان هذه الفترة للغلال بصورة كبيرة جراء فقدها للكثير من مستعمراتها في أعقاب حرب السنوات السبع (١٧٥٦ـــ١٧٦٣م)، حيث كانت تعتمد على الكثير منها في إمدادها باحتياجاتها الغذائية من الحبوب، كما تعرضت فرنسا إلى موجات جفاف متتالية خلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى الحروب التي أعقبت الثورة الفرنسية، واقتضت توفير كميات كبيرة من الغلال للجيش في جنوب فرنسا، كل ذلك مع تزايد ملحوظ في أعداد سكان المدن بشكل مستمر، مما نتج عنه مشكلة متنامية نتيجة عدم وفرة الغلال للفرنسيين، فيشير بروديل مثلا إلى أن السنوات من ١٧٨٨إلى ١٧٩٢كانت سنوات عجافًا بالنسبة لفرنسا التي شهدت مواسم حصاد سيئة[٣] ، وقد انعكست أوضاع فرنسا الداخلية على السوق السكندرية في الغلال، حيث أخذ الفرنسيون يبحثون في موانئ البحر المتوسط عن الغلال وبأسعار مرتفعة، وكان الأرز المصري قد أصبح مطلبا ملحًا

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١١٤، م٦٧، بتاريخ ١٢١٠هـ/١٧٩٥م.

(٢) أحمد شلبي عبد الغني، أوضح الإشارات في من تولى حكم مصر القاهرة من الوزراء والباشات (الملقب بالتاريخ العيني)، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٨، صـ٢٦١.

(٣) بروديل، هوية فرنسا، الناس والأشياء، المجلد الثالث، ترجمة: بشير السباعي، المجلس الأعلى للثقافة، المركز الفرنسي للثقافة والتعاون، القاهرة، ٢٠٠٠، صـ١٧٠.

للطبقات الثرية في العديد من مجتمعات البحر المتوسط منذ بداية القرن الثامن عشر[١]، وقد نتج عن تزايد الطلب الأوربي على الغلال المصرية نشوء تجارة موازية لتهريب الحبوب من الإسكندرية، لعب فيها تجار الإسكندرية والتجار الكريتيين (الجريتليون)، والأتراك الدور الأول، فقد كانت إحدى الحيل للتغلب على تهريب الحبوب، أن يكون صاحب الفرمان تركيا أو كريتيا، مما يؤكد أمام الإدارة في القاهرة كون المركب سوف تتوجه إلى إسطنبول، وكان عدد من تجار الإسكندرية يعملون كفلاء لهم[٢]، وقد نجح بعض هؤلاء الكريتيين في اختراق المؤسسات العسكرية للموانئ أيضا، فقد تولى العديد منهم المناصب سواء في رشيد أو الإسكندرية، فكان الأمير عمر بن مصطفي الشهير بالكتنجي الكريدلي يعمل كسردار طائفة مستحفظان في رشيد[٣]، وقد أشار الجبرتي بصورة واضحة إلى دور الكريتيين في هذه التجارة عندما أشار إلى دور صالح أغا وكيل دار السعادة وعثمان خوجة[٤] الكريدلي اللذين استمالهما مراد بك[٥]، وكانت عمليات التهريب لهذه البضائع تتم عبر طريقتين:

الطريقة الأولى: أن تشحن السفن (غالبا ما كانت تلك السفن أوربية) التي يستأجرها التجار[٦] من ميناء الإسكندرية، بهدف التوجه إلى إحدى الموانئ العثمانية، ثم تغير وجهتها

---

(١) رضا أسعد السيد، المرجع السابق، صـ٢٢.

(٢) هكذا في النص، والمقصود: ضامن يضمن وصول هذه البضائع للمكان المحدد له.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س٨٥، ص١٠٣، م٣٧٣، بتاريخ ١١٦٩هـ/١٧٥٥م.

(٤) كلمة خوجة أطلقت على التجار العاملين في تجارة الثغر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وكانت تحريفا لكلمة الخواجا وهو اللقب الذي أطلق على كبار تجار القاهرة طوال العصر العثماني، وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، ومع سيطرة الأجانب من الكريتيين واليونانيين ثم الأوربيين على التجارة فقد أطلق عليهم لقب خواجة (خوجة)، وفيما بعد أصبحت تعني في العرف المحلي الأجنبي أو الأوربي.

(٥) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، تحقيق: موريه، ليدن، صـ٤٢.

(٦) منذ وقت مبكر في تاريخ الدولة العثمانية، قامت سفن مدن البندقية وراجوزة وجنوة بدور مهم في عمليات النقل البحري بين موانئ الدولة العثمانية وأقالسمها، وكان نجاح الأوربيين نتيجة لعمليات الضمانات «التأمينات» التي كان يقدمها أصحاب السفن والقناصل الأوربيون للتجار. فمثلا في سنة ١٠٩٦هـ/١٦٨٤م قدّم قائد سفينة فرنسية هذا الضمان «أنه متى -

إلى أي ميناء أوربية، فقد استغل الأوربيون تفوقهم البحري في البحر المتوسط وقاموا بشحن سفنهم بهدف التوجه إلى إحدى الموانئ العثمانية والتوجه بها إلى إحدى الموانئ الأوربية. ومن أجل التصدي لتلك العمليات عملت الإدارة العثمانية على تسجيل عدد السفن التي تخرج من الإسكندرية، ووجهتها، والكميات التي تحملها من الحبوب، وأن يحمل ربان السفينة «كارت» بالكميات التي يحملها على أن يختم من ميناء الوصول عند تفريغه للحمولة؛ ولأن السفن كانت في الغالب أوربية، فكثيرا ما كان يتم التحايل على ذلك، بالتوجه إلى أي ميناء عثمانية دون تفريغ الحمولة والحصول على ختم التفريغ مقابل مبلغ من المال[1]، أو بتغيير اسم ربان السفينة، فغيرت الإدارة العثمانية من ذلك الأسلوب، وعملت على منح ترخيص بتحميل السفينة إلى «كاتب على أرزاق التجار»[2] يتحمل هو تبعة عدم وصول الغلال، بدلا من ربان السفينة الذي لم تكن الدولة تمتلك محاسبته[3]، ورغم نجاح ذلك النظام في البداية، فقد كون ذلك القرار نخبة من الأعيان السكندريين من كبار العائلات التي كانت تنجح في الحصول على هذه الفرمانات، والتي غالبا ما كانت وحدها تستطيع تحميل السفن بالحبوب، وبالتالي جني

- قام أحد عليه وهو مسافر بغليونه المذكور من النصارى الحربيين الفرنسيين أو غيرهم من النصارى وغزا عليه وأخذ الغليون وما فيه من البضائع، كان عليه القيام بما يضيع ويأخذ له من ماله وصلب حاله». وصدقه القنصل الفرنسي على ذلك، وقد كانت هذه الضمانات أحد العوامل التي شجعت التجار على ارتياد السفن الأوربية، هذا إلى جانب الحالة الفنية الجيدة لمعظم السفن الأوربية، ومنذ الربع الثاني من القرن الثامن عشر، سيطر الأوربيون بصورة أكثر إحكامًا على عمليات النقل البحري في شرق البحر المتوسط بين الموانئ العثمانية، لمزيد حول ذلك يمكن الرجوع إلى: حسام محمد عبد المعطي، البيوت التجارية المغربية في العصر العثماني، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة المنصورة، صـ١٨٩؛ محكمة الإسكندرية الشرعية، س٦٥، ص٨، م١٨، بتاريخ ١١٢٩هـ/١٧١٦م.

(١) كانت هذه السفن تدفع ما بين ١٣ إلى ١٥ ألف بارة كرسوم للشحن فقط، استيف، النظام المالي والإداري في مصر العثمانية، وصف مصر، الجزء الخامس، ترجمة: زهير الشايب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، صـ١٦٦.

(٢) تطلق عليه الكتابات التركية والغربية «بازرجي»، في حين يعرف في أوراق المحاكم بالكاتب على أرزاق التجار، والمقصود أنه المسؤول عن عمليات الشحن والتفريغ والتخليص الجمركي، مضابط الإسكندرية الشرعية، س١٣، ص١٩٥، م٥٢٢، بتاريخ ١١٩٤هـ/١٧٨٠م.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص١٩٠، م٤١٠، ٤١١ بتاريخ ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م.

الأرباح من هذه التجارة، ولأنها غالبا ما كانت تحصل على « الفرمان» البيورلدي من القلعة أو من أغا مستحفظان أو البكوات المماليك مقابل الدفع النقدي[1]، ولأنه لم يكن هناك من يحاسبهم على وصول هذه السفن إلى الموانئ العثمانية، مع تراخي قبضة الدولة المركزية، فقد كان هؤلاء الكتبة (البازرجية)، يحملون السفن الأوربية بالغلال ويسجلون أن وجهتها إحدى الموانئ العثمانية، وطالما سوف يدفع الأوربيون أكثر، فلم يكن لديهم أي مانع في أن تتوجه هذه السفن إلى أي ميناء[2].

أما الطريقة الثانية: فقد كانت عن طريق انتظار النقاير (السفن الصغيرة) التي تحمل الغلال من رشيد إلى الإسكندرية في عرض البحر، وتفريغ حمولاتها في السفن الأوربية التي تنتظرها في عرض البحر في مواجهة أبي قير.

وبالطبع كان سعر القمح في رشيد منخفضا عنه في الإسكندرية، كما أن الحصول على الفرمانات التي تبيح تصدير الغلال من الإسكندرية كان مكلفا للغاية، مما يفسر لنا لماذا حاول الأوربيون نقل قنصليتهم إلى رشيد، كما يبرر المحاولات المستميتة من جانب الأرستقراطية السكندرية من أجل التصدي للوصول الأوربي إلى رشيد، كما يوضح كيف تصدت الإدارة المصرية لعمليات تهريب الغلال حيث لجأت إلى تسجيل السفن (النقاير) التي تحمل الغلال من رشيد عند خروجها، وعند وصولها إلى الإسكندرية، والكميات التي تحملها[3] واشترطت

---

(١) حدث صراع داخل النخبة الحاكمة في القاهرة حول من يمنح هذه الفرمانات، فقد كان الباشا يرى أنه أحق بمنح ذلك، وكان أغا مستحفظان يرى أنه أحق بذلك بوصفه ملتزم الجمرك من الباشا، ومع سيطرة البكوات المماليك على الجمارك أصبحوا أصحاب الحق في منح هذا الفرمان، وبالتالي جني الأرباح المالية الكبيرة، محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص١٣٥، م٢٤٤، بتاريخ ١٢٠٣هـ/١٧٨٨م.

(٢) جومار، النظام المالي والإداري في مصر العثمانية، وصف مصر، الجزء الثاني، ترجمة: زهير الشايب، القاهرة، ١٩٧٩، صـ١٦٦.

(٣) تحتوي هذه الصفحات والمواد على أسماء قباطنة المراكب (النقاير) التي كانت تحمل القمح والشعير بين رشيد والإسكندرية، وأصحاب الحمولات، في محاولة من الإدارة لوقف تصدير الغلال إلى الخارج عن طريق التهريب من أبي قير، محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٥٤ إلى ص٢٥٦، م٧٠٨ إلى م٧٣٨.

ضرورة ختم أمين الجمرك لوصول هذه الحبوب إلى الإسكندرية، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت عمليات التهريب، فوَفْقًا للطلب وارتفاع الأسعار كان القمح ينساب من بين مخالب القبضة العثمانية في اتجاه الموانئ الأوربية!!

هكذا تكوَّن في داخل الإسكندرية عددٌ من التجار المستفيدين من تجارة تصدير الغلال وتهريبها، وكوَّنوا من ذلك الجزءَ الأكبرَ من ثرواتهم، وقد أصبح عدد كبير منهم قادة في القلاع العسكرية المحيطة بالمدينة؛ ولأن من يملك المال يسعى إلى أن يملك السلطة أيضا، فقد سعى هؤلاء التجار إلى السيطرة على الأجهزة العسكرية في المدينة ثم زحفوا تدريجيًّا للسيطرة على الجهاز الإداري داخل الثغر السكندري، وتمثل حياة عائلات الشرنوبي (زقواقح)، وشلتوت، وجميعي، وشرارة، وخطاب، وأبو هيف، وزكيكوت، وأبو شال، والغرياني وغيرها ذلك بوضوح، فقد عمل عدد كبير من أفراد تلك العائلات كجنود في قلاع الثغر ثم أصبحوا جوربجية في القلاع مما مكنهم من أن يصبحوا سرادرة للأوجاقات العسكرية في المدينة، فمثلا في العام ١٢١٠هـ/١٧٩٥م، كان أحمد أبو شهبة الذي يتحدث عنه الجبرتي[١] يشغل منصب قائم مقام نقابة الأشراف في الثغر السكندري، كما كان يعمل جوربجيًّا في قلعة الركن، كما كان محمد كريم يعمل أيضا جوربجيًّا في الحصار الأشرفي الكبير (قلعة قايتباي)، كما كان حسين بن إبراهيم دويب جوربجيًّا بالقلعة نفسها، وكان علي خوجة بن عبد الفتاح بن علي الزواري جوربجيًّا بنفس القلعة وأمين الاحتساب بالثغر، كل ذلك توضحه وثيقة واحدة مما يبين مدى تغلغل الأهالي في البناء العسكري للقلاع المحيطة بالثغر[٢].

ومنذ بداية المدة محل الدراسة كانت عائلة أبو هيف تحتل مراكز عسكرية مهمة داخل القلاع العسكرية. فمثلا كان إبراهيم بن يوسف بن سالم الشهير بأبي هيف يشغل منصب أغا قلعة الركن ببرج مصطفى باشا، كما كان شمس الدين أبو هيف وولده محمد جوربجيين

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، تحقيق: موريه، صـ٤٣.

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٦، ص٤٧٤، م٨١٨، بتاريخ ١٢١٠هـ/١٧٩٥م.

في نفس القلعة، كما أصبح جلُّ سرادرة الأوجاقات العسكرية في الثغر من العائلات السكندرية؛ لذلك شغل محمد جوربجي بن أحمد الغرياني منصب سردار عزبان حتى وفاته في العام ١١٧٩هـ/١٧٦٥م[1]، ثم خلفه سليمان تربانة كسردار لعزبان إلى أن استطاع ابنه أحمد الغرياني الذي كان يشغل منصب سردار لأوجاق الجمليان في حياة والده أن يستعيد منصب والده كسردار لأوجاق عزبان في العام ١١٨٠هـ/١٧٦٦م ثم أصبح أحمد الغرياني متسلمًا للثغر أيضا (حكمدار عام للأمن) منذ العام ١١٩٥هـ/١٧٨٠م، وخلال هذه المدة تعرَّف أحمد الغرياني على مدي حاجة الأوربيين للغلال، وبالتالي أخذ يسعى للسيطرة عليها، فنجده مثلا في العام ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م ينجح في الحصول على فرمان من إبراهيم بك بتصدير ٥٠٠ إردب من الشعير للفرنسيين[2] ، كما سعى للسيطرة على رقع بيع الغلال داخل الثغر بشراء التزامها، وفي العام ١١٩٦هـ/١٧٨١م، استطاع أن يصبح سردارا لأوجاق مستحفظان، مما مكنه من أن يصبح سردارًا عامًّا للثغر، وبالتالي أمينًا للجمرك أيضا وأهم شخصية حاكمة في الثغر حتى العام ١١٩٩هـ/١٧٨٤م[3] . وكان قد عقد قران ابنه محمد على ابنة قاسم أبي هيف من أجل تدعيم علاقته بأكبر عائلات الثغر السكندري حينذاك[4] .

ونتج عن ذلك تمكُّن هذه العائلات من أن تلعب دورا بارزا في تجارة تهريب الحبوب بعيدا عن أعين رجال الدولة العثمانية، مما سمح لتلك العائلات بتكوين ثروات كبيرة تعكسها بدقه تركاتهم في محكمة الإسكندرية، كما تعكسها الفردة التي فردها الفرنسيون عليهم، فمثلا في العام ١١٧٤هـ/١٧٦٠م توضح الوثائق المحلية المتاحة شحن ٣١ سفينة أوربية بـ ٨,٣٩٦ قنطارًا من البن، و١٤,٦٤٩ إردبًا من الأرز بالإضافة لكميات كبيرة من الأقمشة

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س٨٥، ص٢٦٦، م٣٢٦، بتاريخ ١١٧٩هـ/١٧٦٥م.

(٢) مضابط إسكندرية الشرعية، س ١٢، ص٩، م ٧، بتاريخ ١١٩٥هـ/١٧٨٠م.

(٣) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٢، ص١٠، م٨، بتاريخ ١١٩٦هـ/ ١٧٨١م.

(٤) مضابط إسكندرية الشرعية، س١١، ص٢٤٠، م٨٢٠، بتاريخ ١١٩٥هـ/١٧٨٠م.

والغزل، والسكر والجلود، وهنا توضح الوثائق بروز دور العائلات الكريتلية والسكندرية في شحن هذه السلع عبر الأوربيين، فمثلا شحن محمد كريدلي في مركب إنجليزي بموجب فرمان من أحمد باشا ٦٠٠ ضريبة أرز، وأربعة أقفاص من النشادر، و٢٣ فردة من البن، وأربعة بالات (شديد) من الأقمشة، وخمسة بالات (نفيضة) من الكتان، وأخيرا قفص من البلح، وكفل وصول هذه البضائع إلى إسطنبول الحاج قاسم الفاوي، وكان من التجار بالثغر السكندري، كما كان جوربجيًا في قلعة الركن بالثغر السكندري([1])، وتمتلئ سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية بمئات الفرمانات التي تحمل أسماء أفراد عائلات سكندرية أو كريتية[2].

فمثلًا شحن أحمد جميعي (كان يعمل جوربجيًا في الحصار الكبير الأشرفي)، وأخوه محمد في العام ١١٧٥هـ/١٧٦١م ثلاثة مراكب بندقية بـ ١٣٤٢ إردبًا من الأرز، ٩٧٠ قنطارًا من البن[3]، والعديد من السلع الأخرى. وفي العام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠ قام علي جميعي بشحن ٥٥٢ إردبًا من القمح، و٣٨ إردبًا من الأرز بمركب فرنسي، وكان يفترض أنها سوف تتوجه إلى إسطنبول[4]، ولكن الوجهة الحقيقية لها كانت فرنسا التي كانت تمر بمجاعة شديدة[5]. والحق أن هذه العائلات كانت معنية بالاتجار في تجارة الأرز بصورة أكبر من القمح، بيد أن الطلب الكبير في حالات الأزمات التي يتزايد فيها الطلب على القمح، كان يدفعها إلى التورط في هذه التجارة المربحة[6]. فمع كل فيضان جيد كانت هذه العائلات تسعى لتحقيق ربح كبير من خلال تصدير الحبوب حيث كان يتزايد عليها الطلب في العديد من مناطق البحر المتوسط، فمثلا في العام ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م، شحن رجب حجاج الدرناوي والشيخ مصطفى بن مصطفى السعران

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س٨٨، ص٣٤٤، م٤٢٩، بتاريخ ١١٧٤هـ/١٧٦٠م.

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س٩٦، ص٢٣، م٣٦ إلى م٥٨، بتاريخ ١١٨٩هـ/١٧٧٥م.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س٨٥، ص١٥٦، م١٨٠، بتاريخ ١١٧٦هـ/١٧٦٢م.

(٤) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٠٦، م٤٥٠، بتاريخ ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

(٥) بروديل، هوية فرنسا، المرجع السابق، صـ ١٧٠.

(٦) محكمة إسكندرية الشرعية، س٨٥، ص١٤٢، م١٥٨، بتاريخ١١٧٦/١٧٦٢م.

ريس السادة العلماء والفقهاء بالثغر والحاج مصطفي المنياوي (عرف بأبو ديدي) في مركبهم ٤٣٧ إردبًا من القمح بهدف إرسالها إلى أدرنة، غير أن المركب تعرض للغرق أمام سواحل الإسكندرية، مما يظهر ضلوع عائلة السعران أكبر العائلات الدينية في الثغر في هذه التجارة(١).

الأزمة والغذاء والتصدير:

كانت الأوضاع عمومًا في مصر هي الإطار الذي يتعين علنا البحثُ فيه عن السبب الأكثر تواترًا وراء حدوث أزمات غذائية كبيرة كتلك التي شهدتها الإسكندرية إبان الربع الأخير من القرن الثامن عشر، حيث جاءت تلك الأزمات نتيجة لفيضانات سيئة ولتوالي سلسلة من هذه الفيضانات المنخفضة مرات أخرى في وقت كانت البلاد تعاني فيه من نقص المحاصيل ونفاد المخزون منها، لتواجه عاما جديدا من وقوع المجاعة «البقرات العجاف»، ورغم أن الفيضان هو الذي كان يحدد حجم الكميات التي يمكن إنتاجها وبالتالي تصديرها إلى خارج مصر، فلم يكن الاستناد إلى منسوب الفيضان السنوي كافيًا وحده في تحديد خطوط فاصلة بين حدوث الغلاء والقحط والمجاعة، فرغم أن الفيضان كان من أهم الأسباب الرئيسية في حدوثها، فقد كانت أسباب أخرى تُسهِم في بعض الأحيان بالشكل الذي يحوِّل الأزمة من مجرد حالة غلاء إلى مجاعة شديدة، فمع فساد الإدارة وتواطئها مع التجار خلال فترة الدراسة كانت بعض الأزمات تتحول إلى مجاعة، فخلال سنوات هذه الدراسة لم تسهم الإدارة بصورة فاعلة في الحد من ظاهرة الغلاء، بل على العكس أسهمت في تزايدها. فقد لاحظ ريمون أن الأعوام بين عامي ١٧٨١ـ ١٧٩٨م شهدت تضاعف الأسعار بالنسبة للقمح والأرز مثلين ونصفًا عن مستواها السعري، ويعزو ريمون ذلك إلى انخفاض منسوب الفيضان(٢).

ورغم أهمية ذلك التفسير، فقد كانت الأعوام التي شهدت انخفاض منسوب الفيضان

---

(١) إسكندرية الشرعية، س١٠٦، ص٢١٣، م٣٥٢، بتاريخ ١٢٠٩/١٧٩٤م.

(٢) آندريه ريمون، الحرفيون والتجار في القاهرة في القرن الثامن عشر، ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم وباتسي جمال الدين، مراجعة: رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، جا، صـ١٦٢.

خلال هذه الفترة هي:

أعوام١١٨٦ـ١١٩٦ـ١١٩٧ـ١١٩٨ـ١١٩٩ـ١٢٠٥ـ١٢٠٦ـ١٢٠٧ـ١٢١٨هـ/١٧٧٢ـ١٧٨١ـ١٧٨٢ـ١٧٨٤ـ١٧ـ٩٠ـ١٧٩١ـ١٨٠٣م، فخلال هذه السنوات كان منسوب ارتفاع الفيضان يتراوح بين ١٦و١٨ذراعًا[١]، وبالتالي فقد شهدت هذه السنوات أزمات غذائية، غير أن السنوات العديدة غير هذه السنوات شهدت أيضا ارتفاعا في أسعار الغلال، على الرغم من أنها شهدت فيضانات معتدلة، والواقع أن استمرار ارتفاع الأسعار كان يرجع إلى تزايد الطلب على الغلال المصرية في أغلب موانئ البحر المتوسط، فقد أسهم هذا الطلب في زيادة الكميات المصدرة من مصر، مما أثر بالسلب على أسعار الغلال في السوق المصرية، وعلى المخزون من الغلال داخل البلاد، فعندما شهدت مصر جفاف النيل في العام ١٢٠٥ـــ ١٢٠٦هـ/١٧٩٠ـ١٧٩١م لم يكن المخزون من الغلال كبيرا، إذ تم تصدير كميات كبيرة من الغلال في العام السابق، وطوال النصف الأول من العام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م[٢]، مما أسهم في التدهور الحاد الذي حدث في البلاد نتيجة لهذه الأزمة[٣].

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الإسكندرية أقل المدن المصرية تعرضا للمجاعات الحادة التي تؤدي إلى الموت جوعا نتيجة لعدم توفر الغلال، وحدث ذلك في الأساس نتيجة لموقع المدينة، ففي حالات فيضان النيل الجيد ووفرة الغلال لم يكن يُسمح بتصدير الغلال للخارج إلا بعد التأكد مرارا من أن كميات الحبوب الموجودة في ساحة الغلال والمراكز الرئيسة (غير الموجودة في المنازل) تكفي لشهور تالية لاستهلاك المدينة[٤]، وأن لا يتسبب هذا التصدير في ارتفاع كبير في أسعار القمح، فلا يتجاوز إردب القمح ستة ريالات (٥٤٠ بارة) ولا يتجاوز إردب الأرز خمسة عشر ريالا (١٣٥٠ بارة). فمثلا في العام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م، كان القنصل البندقي يريد تصدير ٦,٠٠٠إردب من القمح والفول، ولم يكن يستطيع ذلك بالطرق المباشرة إلا بعد أن يتأكد لدى الإدارة وأعيان

(١) علي مبارك، المرجع السابق، ص٤٨٣.

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١،ص٢٠٥، م٤٤٨، بتاريخ ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، المصدر السابق، ج٢، ص٣٦١.

(٤) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١٥١، م٢٤٨، بتاريخ ١٢١٧هـ/١٨٠٢م.

المدينة أن الكميات الموجودة من الحبوب تكفي لاستهلاك السكان فترة كافية، فتم حصر الموجود في الشون والساحات لدى التجار فكان ٣,٠٧٢ إردبًا، ولما كان استهلاك المدينة اليومي لا يتجاوز مئة إردب، فلم يكن ثمة قلق مباشر من تصدير هذه الغلال[١].

ويبدو أن أعيان المدينة[٢] أقروا عرفا بأن مئة إردب من القمح والشعير تكفي المدينة يوميًا[٣]، وأقروا بضرورة توفير كميات مناسبة من القمح تكفي لفترة لا تقل عن شهر من أجل السماح بتصدير القمح والشعير إلى الخارج[٤]، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت المدينة تتعرض لموجات غلاء كبيرة عند انخفاض النيل، وكان الحد الأدنى للرخاء الغذائي داخل المدينة بلوغ إردب القمح سعر ٢٧٠ بارة، بيد أن الغلاء كان يصل بسعر الإردب إلى ٦٠٠ بارة[٥]، ولم يكن ذلك يعني حدوث مجاعة داخل الثغر السكندري، بقدر ما كان يعني أعباء ثقيلة على الفقراء داخل المدينة، فقد كانت الطبقات الدنيا تحيا داخل إطار متماسك من الطوائف القوية، أو الأحياء السكنية المتماسكة، وكانت تستشيط غضبا جراء المؤثرات الاقتصادية،

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١٥٢، م٢٤٩، بتاريخ ١٢١٧هـ/١٨٠٢م.

(٢) تكونت بالمدينة نخبة علمية من رجال الدين والفقهاء من عائلات زيتون، والبرجي، والمسيري، والسعران، وقنيد، وقد حازت هذه النخبة العلمية الدينية أهميتها في المدينة من التدخل كمجلس عرفي لحل المشكلات العالقة بين الأهالي والتجار وفئات المجتمع المختلفة، مضابط إسكندرية الشرعية، س١٥، ص٤٠، م١٨٦، بتاريخ ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م.

(٣) إذا تم توزيع ذلك المقدار على العدد التقريبي لسكان الثغر الوارد في وصف مصر والبالغ ٨٠٠٠ نسمة، فسوف يكون نصيب الفرد السنوي ٤,٥ إدرب من القمح تقريبًا، ومن المؤكد أنه سوف يهبط عن ذلك (بين ٤ ـ ٣ أرادب سنويا) إذا وضعنا في الاعتبار الوجود الأجنبي وتزويد البحارة الأجانب بكميات كبيرة من البقسماط المصنّع في المدينة، حيث كانت الإسكندرية مركزا مهما لإمداد السفن العاملة في البحر المتوسط بالبقسماط، ويجب أن نؤكد على أن متوسط الاستهلاك إنما ينطوي على استثناءات وتنوعات كبيرة، وأن الأشخاص الذين يتغذون على اللحوم والأسماك والأغذية الأخرى سوف يتراجع استهلاكهم من الخبز إلى ما دون ذلك، محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١٥١، م ٢٤٨، بتاريخ ١٢١٧هـ/١٨٠٢م.

(٤) علما أن نؤكد أن نقل القمح ظل دائما أسهل وأرخص من نقل الدقيق، فيمكن شحن القمح ونقله بطرق أسهل، وتكالف أقل، كما أن مصاريف تخزين القمح أرخص بكثير من الدقيق، ولذلك فقد ظلت حتى اليوم عمليات نقل القمح تتم بين الأسواق دون طحن، حيث تطحن غالبا في مناطق الاستهلاك.

(٥) مضابط إسكندرية الشرعية، س ١٥، ص١٦٣، م٧٣١، بتاريخ ١٢١٢هـ/١٧٩٧م.

وبخاصة جراء ارتفاع أسعار القمح.

هكذا كان تزايد الطلب الأوربي أو حتى العثماني على الغلال، يزيد من فرص التهريب أو التصدير على حساب استقرار الأوضاع الغذائية داخل المدينة، فمثلا في العام ١١٨٥هـ/١٧٧١م كانت فرنسا تمر بأزمة غذائية حادة، وكانت الحبوب جد نادرة، والأسعار جد مرتفعة[١] ، ونتج عن ذلك تزايد الطلب على الحبوب في الإسكندرية التي استجابت على الفور لنداء الأرباح الكبيرة، فتم شحن ٣٦,٩٠٤ أرادب من الأرز والقمح على ٤٤ مركبًا أوربيًّا([٢]). وفي العام ١١٩٣ـــ١١٩٤هـ/١٧٧٩ــ١٧٨٠م تزايد الطلب الأوربي بصورة مفاجئة على الغلال المصرية، وتزودت السفن البندقية والفرنسية بالفعل بكميات كبيرة من الغلال بصورة رسمية بحسبانها سوف تنقل هذه الغلال إلى أزمير أو إسطنبول، بيد أنها كانت ستتوجه إلى أوربا، وعلى الفور جأر الأهالي داخل المدينة بالشكوى إلى الإدارة في القاهرة من أجل وقف تصدير الغلال إلى أوربا[٣] ، وأصدر الديوان في القاهرة قرارًا «فرمان» بضرورة جمع القناصل الأوربيين وإفهامهم بأن يبلغوا البحارة العاملين في الميناء أن تسليم البضائع إلى أية موانئ غير المحددة سيؤدي إلى معاقبتهم[٤] ، كما أصدرت أوامرها بعدم شحن السفن المتوجهة لبلدان الشمال الأفريقي بالغلال[٥] ، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر شحن الغلال مما رفع سعر القمح داخل الثغر من ١٩٠ بارة إلى ٥٤٠ بارة نتيجة تزايد الطلب على التصدير[٦] ، ونتج عن ذلك تعرض القنصل البندقي لمحاولة اغتيال كبيرة، حيث أطلق عليه أحد الأهالي النار، وكاد أن يفقد

---

(١) برودل، هوية فرنسا، المجلد الثاني، ص١٨٨.

(٢) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٠، من صـ١٠١، إلى صـ١٠٤، دون مادة، بتاريخ ١١٨٥هـ/١٧٧١م.

(٣) مضابط محكمة إسكندرية الشرعية، س١٣، ص١١٨، م٢٨٩، بتاريخ ١١٩٣هـ/١٧٧٩م.

(٤) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٣، ص٢٣٣، م٦٤٤، بتاريخ ١١٩٤هـ/١٧٨٠م.

(٥) مضابط إسكندرية الشرعية، س١٣، ص٢٦٢، م٧٥٢، بتاريخ ١١٩٤هـ/١٧٨٠م.

(٦) مضابط محكمة إسكندرية الشرعية، س ١٣، ص٧٢، م١٦٦، بتاريخ ١١٩٣هـ/١٧٧٩م.

حياته ثمنا لذلك[١] .

وفي العامين ١٢٠٤ـ ١٢٠٥هـ/١٧٨٩ـ ١٧٩٠م تعرضت فرنسا لمجاعة كبيرة أيضًا[٢] ، ونتج عن ذلك تزايد الطلب على الغلال المصرية، فقد وصلت إلى الإسكندرية خمسة مراكب كبار تحمل الأخشاب في محاولة للعودة بالقمح الذي كان مطلبا ضروريا، وفور تفريغ الأخشاب توجهت المراكب إلى أبو قير بهدف التزود بالقمح بطرق غير مباشرة من النقاير الواردة من رشيد وبعيدا عن الرقابة الرسمية في الإسكندرية، وصدرت أوامر إسماعيل بك بمنع هذه السفن من التزود بالغلال، ويرجع ذلك في الواقع لسببين، الأول: رغبة إسماعيل بك في الاستفادة من إصدار الفرمانات بالنقد المباشر، والثاني: إضفاء الشرعية على قراراته بمعنى أنه المدافع أمام الجماهير عن عدم تصدير القمح «للكفار»[٣] ، وقد استغل إسماعيل بك الموقف فشحن لحسابه (كان إسماعيل بك في حاجة شديدة للأموال من أجل مواجهة مراد وإبراهيم المتحفزين في الصعيد للاستيلاء على القاهرة) العديد من السفن الفرنسية بدعوى أنها سوف تتوجه إلى إسطنبول، حيث تمكن من شحن حوالي عشرة آلاف إردب من القمح، بالإضافة إلى كميات أقل من الأرز والبقسماط[٤] ، كما منح العديد من التجار أوامر بشحن كميات من الأرز والقمح لموانئ البحر المتوسط، فقد أصدر أوامره إلى سردار المدينة بأن تابعه مصطفى الديدي لديه سفينة في الميناء الغربية ويريد شحنها بالغلال، ويجب مساعدته في ذلك وعدم منعه من ذلك[٥] .

وهكذا استمر شحن السفن الأوربية بالغلال، على الرغم من المنع الظاهر أمام الجماهير في المدينة، فتوضح الوثائق زيادة أعداد السفن الفرنسية المحملة بالغلال بصورة كبيرة، تلك

---

(١) مضابط محكمة إسكندرية الشرعية، س١٣، ص٤١، م١٠٣، بتاريخ ١١٩٣هـ/١٧٧٩م.

(٢) فرنان برودل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، جـ١، ترجمة: مصطفى ماهر، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣، صـ١٥٢.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص١٨٣، م٣٧٤، بتاريخ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م.

(٤) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص١٩١، م٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، بتاريخ ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م.

(٥) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص١٩٠، م٤١٢، بتاريخ ١٢٠٤هـ/١٧٨٩م.

السفن التي كان يفترض أنها سوف تتوجه إلى إسطنبول أو أزمير طبقا للفرمانات، بيد أنها كانت ستتوجه إلى مرسيليا، حيث تمكنت العديد من السفن الفرنسية، وبمساعدة تجار الإسكندرية من شحن الغلال[١] ، فمثلا في العام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠ شحن محمد أغا الحوالة (ثاني أهم شخصية إدارية في الثغر) مركبًا فرنسيًا بـ٢٥٠ إردبًا من القمح، و٧٠ إردبًا من الشعير، و٨٥ فردة من البن، و٩٦ جوالًا من الحنا، وثلاث بالات من الأقمشة، وصندوقين من النشادر، مما يعكس تورط العائلات السكندرية التي كانت تعمل في المناصب السياسية والعسكرية داخل المدينة في هذه التجارة. كما شحن علي جميعي ٩٣٢ إردبًا من الشعير بمركب فرنسي، وشحن عباس أبو نوارج مئة إردب أخرى من الشعير بمركب فرنسي آخر[٢] ، ونتج عن ذلك ارتفاع كبير في أسعار الغلال، فوصل سعر إردب القمح في نهاية هذا العام ٣٦٠ نصف فضة[٣] ، وبالطبع فقد كان ذلك يثير حفيظة الأهالي داخل المدينة ضد الوجود الأجنبي، وخاصة الفرنسي بسبب تصديرهم للغلال التي كانت تتعلق بأقوات الفقراء وطعامهم، وقد انعكس ذلك في حوادث الاعتداء على الفرنسيين، ففي نفس العام قتل أحد الفرنسيين في المدينة، ولم تثبت تهمة قتله على أحد، وأكد الجميع أن أحد رفقائه من الفرنسيين قد قتله، وفي النهاية لم تثبت تهمة القتل على أحد[٤] .

وعلى الرغم من تورط أعيان الثغر في هذه التجارة التي كانت تثير حنق ونقمة الفقراء والمعدمين داخل الثغر، فقد حاول أولئك الأعيان الحفاظ إلى حدٍّ كبير على مصالح جموع الأهالي، بتوفير الحد الأدنى من الغذاء للجميع داخل الثغر، ومن أجل ذلك لم تحدث ضدهم ثورات عنيفة بصورة دورية من قبل الأهالي بالثغر، بل حدث العكس فقد تعاون الجميع

---

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٠٦، م ٤٤٩ ـــــ ٤٥٢، بتاريخ ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

(٢) تحملت خلال هذه الفترة حوالي ثلاث عشرة سفينة فرنسية بمواد مماثلة لذلك، محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٠٦، م ٤٤٩ إلى ٤٥١، بتاريخ ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٥، ص٢٩٨، م٤٩٤، بتاريخ١٢٠٦هـ/١٧٩١.

(٤) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٢٧، م ٥٧٩، بتاريخ ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

داخل الثغر مع هذه الشريحة، للتصدي لتوغُّل النفوذ المملوكي الذي كان يستهدف النفاذ للسيطرة على الأمور داخل المدينة، وفي ذلك يقول الجبرتي: «فإن الثغر السكندري محترم، وأهله مؤتلفون، وكلمتهم متفقة، فلذلك لا تنفذ أوامر الأمراء بمصر فيهم، ولا يتحكمون به كتحكمهم في غيره، ولا يتمكنون من مصادرة أحد منهم في ماله أو متاعه، وليس للسردار المتولي من طرفهم ومعلم الديوان إلا القوانين المعلومة»([1]). هكذا كان المجتمع السكندري يقاوم عمليات النهب التي كان يقوم بها المماليك في أغلب المدن المصرية.

ويجب أن نلاحظ أنه، حتى السردار الحاكم الفعلي للمدينة الذي كان يفترض أنه ينتمي للعنصر المملوكي، كان ينتمي لعائلات النخبة السكندرية أيضا، حيث تولت عائلات سكندرية عديدة هذا المنصب طوال أغلب فترات الربع الأخير من القرن الثامن عشر[2]، وقد نتج عن ذلك قدرة أكبر للنخبة السكندرية على كبح جماح السلطة داخل المجتمع السكندري، وقد تمثل ذلك في الواقع في العديد من الحوادث، فمثلا في العام ١١٩٩هـ/١٧٨٤م قام أهالي الثغر بالثورة على السردار، وكان أحمد الغرياني، وقاموا بتجريسه. وفي ذلك يقول الجبرتي: «فثار العامة وقبضوا على السردار وأهانوه وجرسوه على حمار وحلقوا نصف لحيته، وطافوا به البلد وهو مكشوف الرأس، وهم يضربونه ويصفعونه بالنعالات»[3]. وبالتالي يمكننا فَهْم ذلك من خلال أن تورط أحد أعيان الثغر مع القيادة المملوكية كان يواجه بثورة ضده، تفضي به في النهاية إلى التراجع عن موقفه، وفي هذا السياق يمكننا فهم لماذا اضطر محمد كريم فيما بعد إلى مطالبة مراد بك بإرسال أحد أتباعه من البكوات ليكون سردارًا بالثغر في أثناء الأزمة مع أبي شهبة.

والحق أنه في حالات انخفاض النيل وضعف الفيضان، كانت الإسكندرية أفضل المدن المصرية حظًّا، حيث كانت الميناء الرئيس لوصول الغلال من الخارج سواء من بلاد الشام،

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، ص٤٢.

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س٥٨، صـ٢٦٦، م٣٢٦، بتاريخ ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، المصدر السابق، جـ٢، ص١٣٤.

أو الروميلي، أو بلاد المغرب[١]، فمثلا في العام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، وفي أعقاب انخفاض الفيضان عانت مصر من مجاعة شديدة، وصل على أثرها إردب القمح في القاهرة إلى ثمانية عشر ريالا (١٦٢٠ بارة) وفقًا لشهادة الجبرتي[٢]، وذلك في الوقت الذي وصلت فيه إلى الإسكندرية من الخارج خمسة آلاف إردب من الحبوب خلال شهر واحد فقط، تم استبقاء ثلثها في الإسكندرية، وأرسل الثلثان إلى رشيد من أجل نقلهما إلى بولاق من أجل إطعام القاهرة الجائعة، بعد توسلات الإدارة في مصر بسرعة إرسالها[٣]، وفي الوقت الذي كان عدد كبير من أهالي القاهرة قد فتك بهم الجوع وأرداهم صرعى، فإن سعر إردب القمح في ذروة هذه الأزمة لم يتعد في الإسكندرية ثمانية ريالات (٧٢٠ بارة)، ويتجلى دور الأعيان خلال هذه الأزمات ماثلا للعيان، فقد اجتمعت النخبة السكندرية في المحكمة، وأقرت أسعار السلع الأساسية، وبخاصة القمح حيث أقرت بأن كل ربع من إردب القمح يجب أن ينتج ١٣١رغيف من الخبز، ويعكس كل ذلك فكرة نمو الإدارة المحلية للمدينة، بيد أنه من المفارقات الكبيرة والغريبة، أن المراكب التي كانت تأتي للإسكندرية بمدد الحياة (القمح)، كانت تحمل في بطونها أيضا الموت (الطاعون)[٤]!!

---

(١) استفادت الدولة العثمانية بشكل كبير من روسيا القيصرية في عمليات تصدير الغلال لمصر في أوقات الأزمات الغذائية، حيث كانت مناطق شرق البحر الأسود الروسية تنتج كميات كبيرة من القمح الأبيض، وكانت الوثائق تطلق على هذا القمح «روي»، برودل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية، جا، صـ١٥٦.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، المصدر السابق، ج٢، ص٣٦١.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٢٢، م٦٢، بتاريخ ١٢٠٦هـ/١٧٩١م؛ ص٦٣، م١٠٥، بتاريخ ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م.

(٤) كانت «البراغيث» وسيطا نشطا في نقل ميكروب الطاعون، حيث كانت براغيث الفئران هي الناقلة لميكروب الطاعون الدملي أو الغددي، وهو أشهر أنواع الطواعين انتشارًا، وكانت السفن التي تحمل الغلال تحمل معها الفئران في بطونها، وعلى إثر قفزة فأر للمدينة أو بعضة برغوث لأحد الشيالـن عند نقل الغلال من السفن، سرعان ما كان يستشري فيروس الطاعون في المدينة، ومن أجل ذلك فقد كانت الإسكندرية الموطن الأول لاستقبال العدوى الوبائية، مما فتك بسكانها الذين أضحوا بعد سلسلة طويلة من تلك النكبات لا يتجاوزون ٨٠٠٠ نسمة عند وصول الفرنسيين. ناصر أحمد إبراهيم، الأزمات الاجتماعية في مصر في القرن السابع عشر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٨، ص٧٨، ص٢٦٠.

مراد بك والسيطرة على حركة تصدير الغلال:

مع عودة مراد بك وإبراهيم بك للسلطة في القاهرة في العام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م عملًا على فرض سيطرتهما على الإسكندرية، التي لم يكن لهما بها حامية عسكرية قوية، بعد أن أصبحت الحامية في جلها من أهالي المدينة، ومع تراجع أرباح السلطة المملوكية من تجارة العبور بعد أن تراجعت أرباح البن المعاد تصديره عبر مصر[١]، وتراجعت أرباحها من إصدار الفرمانات التي تبيح تصدير الغلال، بعد أن ظهرت الفرمانات البراني (المضروبة)، كما أصبحت السفن الأوربية تغادر الميناء ليلًا[٢].

دفع كل ذلك مراد بك إلى محاولة وضع يده على تجارة الغلال المربحة، ولم يكن ذلك ليتم إلا بوضع يده على رشيد، والإسكندرية، ودمياط، وكانت الغلال قد أصبحت أهم الموارد التصديرية المصرية، فقد أصبح الأرز والقمح مطلبين مُلِحَّيْنِ في بلدان البحر المتوسط، ورغم أن العامين التالين كانا عامي جفاف للنيل[٣]، فقد أدرك مراد ضرورة التحرك للسيطرة على هذه التجارة من منابعها الأولى. فقد كلَّف خلال العام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م عثمان بك الشرقاوي أحد أكبر أمرائه بالسفر إلى الإسكندرية بهدف إخضاع المدينة لسيادته، والمطالبة بـ ٥٤٠,٠٠٠ بارة، مما دفع جميع أهالي المدينة تحت زعامة النخبة التجارية والدينية (الأعيان)، إلى عقد «اجتماع عام» يطالبون من خلاله برحيل الكاشف ومعلم الجمارك، ويتأهبون في الوقت ذاته للمقاومة عن طريق ترميم أسوار المدينة، وجمع الأسلحة والذخيرة، وشكلوا ما يشبه فرق الحراسة الحضرية، حيث كان لزامًا على كل حي من أحياء المدينة، تقديم عدد من الأفراد يخضعون لعدد من القادة الذين يتعهدون بمباشرة مهام الأمن وحفظ المدينة، وخوفا من تفاقم الأوضاع، آثر مراد التراجع عن موقفه بشأن

---

(١) آندريه ريمون، الحرفيون، المرجع السابق، جا، ص٢٨٨.

(٢) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠١، ص٩٤، م١٤٥، بتاريخ ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص٣٤٤، ص٣٦٦.

بقاء عثمان بك في المدينة[١]، وفي العام التالي قام مراد بزيارة لدمياط، كل ذلك من أجل محاولة إحكام قبضته على موانئ مصر الشمالية التي تعيد تصدير الغلال[٢]، وبخاصة بعد تزايد الطلب على الأرز في كل بلدان حوض البحر المتوسط.

غير أن النخبة من الأعيان في الثغر تكاتفت، تلك التي لم ترد زيادة النفوذ المملوكي خوفا من سلب امتيازاتها، وتعرُّضِها للنهب والمصادرة، كما كان يحدث لأمثالهم في أغلب المدن المصرية الأخرى([٣])؛ ولذلك فقد تصدوا لأي تزايد للنفوذ المملوكي داخل الإسكندرية، وفي ذلك يقول الجبرتي: «فكان الأمراء بمصر يكمنون الحقد على أهل الثغر، ويتوقعون فرصة ينالون بها غرضهم، ويفرقون ألفة قلوبهم، إلى أن ظهر السيد محمد المذكور واتصل بصالح بيك، ومراد بيك، وحواشيهم، وتقرب إليهم، ورفعوا شأنه على أقرانه، وقلدوه أمر الديوان، والجمارك بالثغر فعلا شأنه، ونفذت كلمته وتصدر لغالب الأمور وزاد في المكوسات، وتحيل في المصادرات خصوصًا مع تجار الفرنج»[٤].

وتأكيدًا لهذا الاتجاه، أوعز مراد بك إلى الباشا بأن جمرك الإسكندرية الذي يجري في التزامه لن يستطيع سداد ما عليه من الأموال الميري المقررة، نتيجة تهريب البضائع وعدم سداد الرسوم المقررة بدقة، مما دفع الباشا إلى إرسال فرمان لأهالي الثغر يقول فيه: «وقد تحققنا أن أغلب هذا العجز الحاصل من ديوان الثغر طرفكم بسبب تهريب البضايع من الكمرك وتتمين البضايع بربع قيمتها»[٥].

---

(١) آندريه ريمون، الحرفيون، المرجع السابق، جـ٢، ص١٠٧٣.

(٢) إسماعيل بن سعد الخشاب، خلاصة ما يُراد من أخبار الأمير مراد، تحقيق: حمزة عبد العزيز بدر، ودانيال كريسيليوس، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢، ص٤٢؛ عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار، جـ٢، ص٣٩٠.

(٣) حول الابتزازات المملوكية التي تعرض لها تجار القاهرة وحرفيوها خلال سيطرة مراد وإبراهيم يمكن مراجعة: آندريه ريمون، الحرفيون، جـ٢، ص١٠٥٦.

(٤) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، المصدر السابق، صـ٤٢.

(٥) محكمة الإسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١١، م٣٢، بتاريخ ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م.

وكانت أفضل طريقة في نظر الإدارة السياسية المملوكية للسيطرة على الشؤون التجارية والسياسية في الإسكندرية تتمثل في:

أولا: السيطرة على رشيد ووضعها تحت يدي أحد أعوانهم، ومن أجل ذلك أسند مراد بك مهمة رشيد إلى أحد أتباعه الذين استطاع استمالتهم وهو صالح أغا وكيل دار السعادة[١]، ويقول الجبرتي عن مراد بك: «واتصل بصالح بك حين كان وكيلا لدار السعادة، وله الكلمة النافذة في ثغر رشيد دون سكندرية، حتى صير رشيد وضواحيها كالالتزام له، ويحكم فيها بما أراد وأقام بها رجلا روميًّا كرتلي، يقال له عثمان خوجة، فتحكَّم بها وتنوع في مصادرة أهلها واستجلب لمخدومه الأموال بكل حيلة»[٢]، والواقع أن نجاح مراد بك في السيطرة على رشيد من خلال صالح أغا، وعثمان خوجة كان المقدمة للسيطرة على الإسكندرية.

ثانيًا: اختيار أحد أهالي الثغر ليكون عونًا لهم في اختراق التماسك بين أهالي الإسكندرية، فعلى الرغم من فشل مراد بك في البداية في اختراق هذه النخبة العسكرية التجارية التي تكونت في الإسكندرية، وكانت تقتضي مصالحها مقاومة النفوذ المملوكي الذي أخذ يتمدد في اتجاه الثغر السكندري، فسرعان ما جاءته الفرصة عندما عرض عليه محمد كريم خدماته في ضبط هذه التجارة والسيطرة عليها من خلال عثمان خوجة وصالح بك، وقد أدرك مراد ضرورة استخدام هذه الفرصة، وفي ذلك يقول الجبرتي: «فاتحد به (عثمان خوجة) السيد محمد المذكور، وتوصل به وبغيره إلى صالح بك، ثم به لمراد بك، فتقرب له بأمور تتعلق بالثغر، فوقع من مراد بك موقعًا، ووافق من الغرض الذي كان يرومه»[٣].

---

(١) كانت الإدارة السلطانية في إسطنبول ترسل العديد من أغوات دار السعادة المعزولين إلى مصر سواء بهدف تعيينهم كنظار على أوقاف الحرمين الشريفين، أو كوكلاء عن دار السعادة في شحن وإرسال احتياجات ولوازم القصر السلطاني من مصر وإرسالها، وقد شغل صالح أغا منصب ناظر للعديد من أوقاف الحرمين، كما شغل منصب وكيل دار السعادة، سجلات الديوان العالي، س٢، ص٣٠٤، م٤٩١، بتاريخ ١٢١١هـ/١٧٩٦م.

(٢) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس، ص٤٢.

(٣) نفس المصدر، ص٤٢.

فخلال الربع الأخير من القرن الثامن عشر، سعت السلطة في القاهرة إلى تصفية النخبة التجارية وامتصاص ثرواتها تدريجيًّا عن طريق امتصاص تركات هؤلاء التجار، ثم خلق مرتكزات تجارية أو نخبوية محدودة العدد تدين بوجودها لهؤلاء البكوات وبالتالي ترتبط بهم وبالامتيازات التي يمنحونها لهم مع تلبية هذه النخبة لطلبات واحتياجات هذه السلطة، ويوضح ذلك صعود أحمد المحروقي، ثم صالح أغا وعثمان خوجة في رشيد، وهذا هو نفس التفسير الذي يمكننا من فهم ظهور محمد كريم كأداة من أدوات السلطة للسيطرة المالية على الثغر السكندري. (مع الفارق في فشل الإدارة في القاهرة في تصفية النخبة التجارية في الثغر، نتيجة لتكاثف الأهالي داخل المدينة).

والواقع أن مراد بك قد وافق على اختيار محمد كريم (عبد الكريم) لسببين: الأول: أنه هو الأعلم بطرق وأساليب تجارة التهريب التي تتم بعيدًا عن الجمرك، خاصةً أنه وعائلته كانوا يعملون قبانية في الثغر منذ أمد بعيد، وقد برز دور القبانية [1] مهما للغاية في عمل الإدارة لضبط الرسوم المقررة على السلع والبضائع التي كانوا يقومون بوزنها، وطالما مارس هؤلاء القبانية عمليات الوزن في الخفاء بعيدًا عن أعين رجال الجمارك، فكان يتم تهريب تلك البضائع، وبخاصة الحبوب؛ ولذلك فقد كان محمد كريم يعرف طرق التهريب جيدا. والثاني: لأنه بذلك يكون قد قسم أهالي الثغر فريقين، وبذلك ينجح في كسر شوكة الأهالي في المدينة، وفي ذلك يقول الجبرتي: «وافترق الناس فرقتين وثلاثة، فرقة مع السيد محمد كريم، والأخرى مع المسيري وأبو شهبة منتصرين للحق! وفرقة متنحية عن الفئتين خوف العاقبة، ولكن

---

(١) مهدت هذه الظروف التجارية النشطة لدور أكبر للقبانية، وهم الوسطاء الطبيعيون في النشاط التجاري، فقد كان وجودهم ضروريا في إنجاز الأعمال المتصلة بوزن الحبوب الواردة إلى الثغر والمصدرة إلى الخارج، وكانت عمليات الوزن هذه تحتاج إلى معرفة جيدة بالقراءة والكتابة والعمليات الحسابية، وكان على القبانية أن يلتزموا قواعد آداب هذه المهنة من المحتسب، الذي كان يقسم المدينة لمجموعة من المناطق، وكان على كل قباني أن يلتزم منطقة معينة، وقد برز دور القبانية مهما للغاية في عمل إدارة لضبط الرسوم المقررة على السلع والبضائع التي كانوا يقومون بوزنها، وطالما مارس أولئك القبانية عمليات الوزن في الخفاء وبعيدا عن أعين رجال الجمارك، وكان يتم تهريب تلك البضائع وبخاصة الحبوب، ولذلك فقد كان محمد كريم يعرف طرق التهريب .عيدا عن الجمارك جيدا.

المعظم مع السيد محمد. فأرسل إلى مخدومه يشكو من أهل الثغر ويستدعيه في إرسال كاشف يشتد به عضده ويقوي به ساعده»[١] ، وكانت المدينة قد خلت من القيادات المملوكية منذ فترة طويلة حيث شغل الأهالي داخل الثغر مناصب سردارية الأوجاقات العسكرية في المدينة.

وكان محمد كريم أحد الذين عملوا بصورة واسعة في تجارة تهريب الحبوب[٢] ، كما توجد باسمه العديد من الفرمانات التي تؤكد تورطه في هذه التجارة بصورة واسعة[٣] ، ولذلك وبدلاً من أن تتم تجارة تهريب الحبوب بعيدا عن سيطرته، فقد أصبح يقوم بهذه التجارة لحساب القيادات المملوكية الحاكمة ولمصلحته هو بالطبع. فحتى سنة ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م ظلت أوامر مراد وإبراهيم الواضحة تحرِّم تصدير الغلال إلى أوربا بصورة واضحة، ولا تعطي حق تصدير الغلال إلا لحاملي الفرمانات الموقعة منهما، تلك التي يدفع أصحابها الأموال لمراد وإبراهيم[٤] .

وفي أعقاب العام ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م أصبح محمد كريم (عبد الكريم) هو يد الإدارة المملوكية في الثغر[٥] ، وأخذ مراد بك يعمل للسيطرة المباشرة على تجارة الغلال ووضعها تحت تصرف وكيله، حيث قرر مراد بك فرض ١٨٠ بارة على كل إردب من القمح والأرز كرسم خروج يحصل لصالحه عند خروج السفن الأوربية التي تحمل الغلال[٦] ، متغاضيًا بالتالي عن القرارات العثمانية بمنع تصدير الغلال إلى أوربا، مما جعل هذه التجارة تقع في قبضة السلطة المملوكية

---

(١) عبد الرحمن الجبرتي، تاريخ مدة الفرنسيس، ص٤٢.

(٢) عن دور محمد كريم في هذه التجارة يمكن مراجعة السفن المحملة خلال هذا العام والفرمانات الصادرة بشحن السفن في العام ١٢١٠هـ/١٧٩٥ حيث يوجد باسمه ستة فرمانات (محمد عبد الكريم) لشحن السفن، محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص٢٩٢، م٣٩٢، م٣٩٣، ٣٩٤، بتاريخ ١٢١٠هـ/١٧٩٥م.

(٣) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص٦٦، م١١٤، بتاريخ ١٢١٠هـ/١٧٩٥م.

(٤) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص١٦، م٣٠، بتاريخ ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م.

(٥) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٦، ص٧٠، م١١٨، بتاريخ ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م.

(٦) تشير الوثائق إلى أن الرسوم المحصلة على الأرز المصدر إلى أوربا كانت تدفع كرسوم في العادة عند خروجه بواقع ٦٠ نصف فضة عن كل إردب. جيرار، المصدر السابق، صـ ٣٤٥، محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، صـ١٤٦، م٣٤٣، بتاريخ ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م.

في القاهرة في النهاية.

وأصبحت أوامر مراد بك إلى محمد كريم كما بنص خطابه:

«المحترم المكرم السيد محمد جوربجي عبد الكريم بعد مزيد السلام عله، لا يخفاه، بلغنا خبر من قبل التعرض الذي حاصل إلى مراكب القياق، والشمالة الذي يحضروا إلى ثغر إسكندرية وأبو قير وأن واقع علهم تحريج أنهم لم يوسقوا إلا للميري، والحال أن عندنا تحقيق أخبار صحيحة أن كامل غلال الميري لها مراكب كفايتها من مراكب الميري، وأما التعرض الذي تسمعوه فإنه بلص المراكب فحال حضور الجواب لكم لم أحد يتعرض إلى مراكب التجار وتوسقوا ويتوجهوا إلى المحل الذي يريدوه، وإن كان يحصل تعرض أرسلنا نحرج على كامل الغلال ولم يخرج قدح واحد، ويبقا إذا حضر جواب من الدولة إحنا نعطوا جوابه ونعرفهم عن السبب في ذلك، والفرمانات الذي بتحضر فإنها تحضر لنا وجوابها علنا»[١] .

وهكذا، وبعد أن كانت أوامر السلطات المملوكية في القاهرة، تأتي لتؤكد على ضرورة احترام الفرمانات العثمانية، بعدم تصدير الحبوب إلى أوربا، ومراقبة السفن عند شحنها، ومراقبة النقاير الواردة بالغلال من رشيد، تحول الأمر للنقيض تماما، فمنذ العام ١٢٠٩هـ/١٧٩٤ أصبحت الأوامر القادمة تمنع أي شخص يتعرض للسفن الأوربية، عند تحميلها بالغلال، أما فرمانات الباب العالي، فقد أكدت السلطات المملوكية المسيطرة أنها تأتي إلىها وأنها المسؤولة عن الرد علىها، وعندما تجمهر الأهالي ضد شحن السفن بالغلال، بعد تحريض النخبة السكندرية التجارية التي تم تقويض أحد مصادر دخلها، كان جواب مراد بك بأن تعرض أي شخص لهذه السفن يوجب قتله، وخلال الأعوام الثلاثة التالية تمكنت السفن الفرنسية من نقل ٨٠,٠٠٠ إردب من القمح إلى مارسليا وفقًا لجيرار، إضافة إلى خمسة آلاف إردب من الأرز في كل عام تقريبًا، وكانت حوالي عشرين سفينة من ليفورنو تتحمل بالقمح والأرز والفول في كل عام من الإسكندرية، وكان المتوسط السنوي لليفورنو من الأرز المصري يصل إلى حوالي ٣٠٠٠

(١) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ص٥٥، م٩٣، بتاريخ ١٢٠٩هـ/١٧٩٤م.

إردب أرز في كل عام[١]، والحق أن الإسكندرية كانت تصدر في كل عام جيد الفيضان ما لا يقل عن خمسين ألف إردب من الأرز، فيما كانت دمياط تصدر ما لا يزيد عن ٢٨,٣٥٧ إردبًا في كل عام[٢]. وتوضح محكمة الإسكندرية الكميات الكبيرة التي كانت تصدرها الإسكندرية من الأرز، فمثلا في العام ١١٨٩هـ/١٧٧٥ تحملت ٢١ مركبًا بـ٢٢,٤٧٣ إردبًا من الأرز([٣])، ويرجع تفوق الإسكندرية على دمياط في الواقع إبان هذه الحقبة إلى صلاحية فرع رشيد للملاحة طوال أغلب فترات العام، وكذلك إلى ضخامة الكميات المنزرعة بالأرز في مناطق الغربية التي تطل على فرع رشيد، حتى إن بعض فلاحي المنصورة وبلبيس كانوا يذهبون للعمل في حصاد الأرز في رشيد والغربية[٤].

وفي العام ١٢١١هـ/١٧٩٦م وعند سفر محمد كريم للحج أكد كريم إلى مراد بك أن الفرنسيين هم الذين كانوا السبب وراء الأرباح الكبيرة التي نجح في جَنْيها له، نتيجة لبيع الغلال لهم بالطبع، ومن أجل ذلك فقد أرسل مراد بك إلى القنصل الفرنسي في الإسكندرية «ماجلان» يشكره على جهوده ويشير إليه بأنه في حالة احتياجه لأي طلب يستطيع الاعتماد على الحاج أحمد أبو شهبة، الذي عيَّنه محمد كريم نائبًا عنه[٥]، وكان أبو شهبة يشغل منصب جوربجي في قلعة الركن ونقيب الأشراف بالثغر السكندري[٦].

والسؤال الآن: كيف وفَّر مراد وإبراهيم هذه الكميات الكبيرة من القمح لتصديرها إلى فرنسا وغيرها من البلدان الأوربية؟ ولفهم ذلك يجب أن ندرك أن فائض القمح الكبير الذي

(١) جيرار، المصدر السابق، صـ٣٣٤.

(٢) نفس المصدر، صـ٣٨٠.

(٣) كانت ستة من هذه المراكب بندقية، فيما كانت باقي المراكب جميعها فرنسية، محكمة الإسكندرية الشرعية، س٩٦، ص٢٣ إلى صـ٢٥، م ٣٦ إلى ٥٨ بتاريخ ١١٨٩هـ/١٧٧٥م.

(٤) جيرار، نفس المصدر، صـ٦١.

(٥) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٧، ٨٥، م١٧٤، بتاريخ ١٢١١هـ/١٧٩٦م.

(٦) محكمة إسكندرية الشرعية، س١٠٦، ص٩٢، م١٥٥، بتاريخ ١٢٠٨هـ/١٧٩٣م.

يمكن التحكم فيه من قبل القيادات المملوكية الحاكمة كان يتوفر في أوقاف الحرمين الشريفين، وكان يبلغ ٣٣ ألف إردب، بالإضافة إلى ٤٢ ألف إردب أخرى، كان على الميري إرسالها إلى أهالي الحرمين في كل عام، وكانت الدولة غالبًا ما تسند نظارة هذه الأوقاف إلى أحد أغوات دار السعادة[١]، بينما سعى المماليك المسيطرون على الإدارة المصرية منذ بداية القرن الثامن عشر إلى الاستحواذ على نظارة هذه الأوقاف لما تُدِرُّه من عوائد وأرباح كبيرة، وحدث صراع كبير بين القيادات المملوكية لتولي النظر على هذه الأوقاف[٢].

ومع عودة مراد وإبراهيم للسلطة مرة أخرى في العام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م؛ ولأنهما لم يكونا راغبين في إثارة الدولة العثمانية، فلم يستبعدا وكيل أغا دار السعادة من نظارة هذه الأوقاف، غير أنهما استطاعا استمالة صالح أغا وكيل أغا دار السعادة[٣] في مصر الذي أصبح أحد رجالهما المهمين؛ ومن ثم فقد تم استبقاؤه في نظارة العديد من أوقاف الحرمين، كما تنظَّر إبراهيم بك ومراد بك على عدد آخر من هذه الأوقاف، وبالتالي فقد أصبحت هذه الأوقاف تحت سيادتهما، وبالتالي امتنعا عن تسديد المستحقات العينية لهذه الأوقاف، وكان مراد وإبراهيم قد أدركا حجم الأرباح الكبيرة التي يمكن جَنْيُها من خلال تسديد أثمان هذه

---

(١) أحمد عبد الرحيم نصر، الأغوات دراسة تاريخية مقارنة لأغوات المسجد الحرام بمكة والمسجد النبوي بالمدينة، سلسلة الكراسات غير الدورية، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ١٩٨٦، ص٣٦؛ محمد علي فهيم بيومي، مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني (٩٢٣-١٢٢٠هـ/١٥١٧-١٨٠٥م)، دار القاهرة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص١٣٩.

(٢) حسام محمد عبد المعطي، العلاقات المصرية الحجازية في القرن الثامن عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨، ص٢٩٢.

(٣) شغل صالح أغا منصب وكيل دار السعادة في مصر منذ نهاية العام ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، إذ حل محل مصطفى أغا كوكيل لدار السعادة، فأصبح ناظرا لأوقاف المحمدية، والمرادية والأحمدية، ووقف السلطان مصطفى، الديوان العالي، س٢، ص٢٩١، م٤٤٧، بتاريخ ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م.

الغلال إلى أهالي الحرمين نقدًا[١] ، وبيع هذه الغلال في رشيد والإسكندرية. فمثلا في العام ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، كان صالح أغا وكيل دار السعادة ناظرًا على وقف الدشيشة المحمدية، وقد قام بدفع مبالغ ٥٣٥,٦٨٠ نصف فضة كثمن٨,٣٧٠ إردبًا من القمح[٢] ، وفي العام ١٢١١هـ/١٧٩٦ قام بإرسال٥٣٣,٧٦٠ بارة كثمن لـ ٨,٣٤٠ إردبًا من الغلال كان مفترضًا إرسالها للحرمين[٣] ؛ كما كان صالح أغا ناظرًا للعديد من أوقاف الحرمين الأخرى، فقد كان ناظرًا لوقف المرادية الذي كان له تكية في المدينة، وكان عليه إرسال ٣٠٣٠ إردبًا من الغلال في كل عام لهذه التكية، وخلال نفس الأعوام السابقة قام صالح أغا بإرسال ثمن هذه الغلال نقدًا[٤] ، وهو الثمن الذي كان يجب على الوقف إرساله إلى المدن المقدسة، وقام صالح أغا بإرسال هذه الغلال إلى عثمان خوجة في رشيد حيث شحنها محمد كريم من الإسكندرية في السفن الفرنسية التي كانت تتوجه بها إلى مرسيليا، التي أصبحت أسيرة هوى الحبوب المصرية، وبخاصة الأرز.

والواقع أنه خلال السنوات التي تلت عام ١١٩٣هـ/١٧٧٩م احتجز الجزء الأكبر من الغلال والنقد الذي كان يفترض إرساله للحرمين، وبحلول عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م كان المتأخر على هذه الأوقاف كالتالي[٥] :

اسم الوقف	النقد بالبارة	الغلال بالإردب
الدشيشة الكبرى	٤٨١,٥٦٦	٩٦,٢٤٨

(١) كانت مستحقات أوقاف الحرمين تتحول لنقدية في بعض السنوات التي كان الفيضان فيها منخفضا، ولكن منذ الآن أصبحت سياسة البكوات واضحة رغم ارتفاع الفيضان ووفرة الغلال، بيد أنهما حرصا على دفع بدل نقدي منخفض لهذه الغلال، حيث كان يتم حساب الإردب بسعر ٦٠ نصفا في الوقت الذي كان الإردب يصل لما بين ٩٠ و١٢٠ نصفا، سجلات الديوان العالي، س ٢، ص ٣٠٤، م ٤٩٠، بتاريخ ١٢١١ هـ/ ١٧٩٦.

(٢) كان البكوات يحاسبون أهالي الحرمين بثمن ٥٠ نصفا للإردب، و١٤نصفا ثمن نقل هذه الغلال، الديوان العالي، س٢، ص٣٠٢، م٤٨٢، بتاريخ ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م.

(٣) الديوان العالي، س٢، ٣٠٤، م٤٩١، بتاريخ ١٢١١هـ/١٧٩٦م.

(٤) الديوان العالي، س٢، ص٣٠٤، م٤٨٩، بتاريخ ١٢١١هـ/١٧٩٦م.

(٥) - [illegible] ١٥١٧-١٧٩٨، [illegible] ١٩٦٢، ٢٧١.

المحمدية	٢,٥٢٨,٧٤٤	٢٦,٣٢٤
المرادية	٣٤١,٧٨٧	٥٠,٠١١

وانهالت الفرمانات والأوامر على البكوات إبراهيم ومراد وصالح أغا بضرورة شحن غلال الأوقاف دون جدوى، فقد أخذت متراكمات الغلال تتزايد عامًا بعد آخر، وبناء على ذلك فقد عزلت الدولة العثمانية صالح أغا من نظارة أوقاف الحرمين في العام ١٢١٢هـ/١٧٩٧م، مما يفسر لنا لماذا توقفت الغلال المصرية عن الوصول إلى مرسيليا في ذلك العام.

هكذا غير قمح مصر اتجاهه من الحجاز إلى أوربا، من أجل خدمة أهداف النخبة المملوكية الحاكمة في القاهرة، وبعيدًا عن أهداف الدولة العثمانية، وكان ذلك نفس النهج الذي سار عليه محمد علي فيما بعدُ عندما عمد إلى تصدير الغلال المصرية إلى الأسواق الأوربية على نفس نهج القيادات المملوكية مستغلا توقف إرسال الغلال إلى الحرمين الشريفين بعد سيطرة آل سعود عليه[١] ، كما يمكننا القول: إن فرنسا أدركت أهمية مصر الغذائية لها بعد ضياع أغلب مستعمراتها في العالم الجديد، فرأت في إنشاء مستعمرة لها في مصر ضرورة لاحتياجاتها الغذائية، وبذلك يمكننا القول: إن أحد أهداف بونابرت (بالطبع ليست كل الأهداف) من حملته على مصر، كان توفير مصدر آمن ورخيص من الغلال للجيوش الفرنسية، التي كانت قد أدركت بالفعل أهمية الغلال المصرية خلال السنوات الثلاث التي سبقت الحملة، كما يمكننا القول: إن ممارسة السلطة المملوكية ومعاونيها داخل مدينة الإسكندرية إبان نهاية القرن الثامن عشر بعض أعمال الاحتكار والتجارة، كانت تضر بمصالح جموع الشعب السكندري،

(١) استغل محمد علي الحصار القاري الذي فرضه نابليون على بريطانيا، وقام بشحن كميات كبيرة من الغلال المصرية إلى بريطانيا، وقد استغل قيام الوهابيين بالاستيلاء على الحجاز وتوقف إرسال الغلال إلى المدن المقدسة، وشحن هذه الغلال إلى الإسكندرية ومنها إلى الموانئ الأوربية، راجع: ناصر أحمد إبراهيم، حركة صادرات الحبوب بين الإسكندرية ومالطة إبان أزمة الحصار القاري ١٨٠٧-١٨١٥، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلد ٤٧، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠-٢٠١١، ص٣١٥.

التي راحت تبحث عن قيادة محلية لها للدفاع عن مصالحها وحياتها، وقد كانت هذه التأثيرات سببًا في اشتداد روح الجماعة التي أخذت في التزايد داخل المدينة، من أجل الدفاع عن المصالح المشتركة لجموع الأهالي داخل الثغر، فقد تصدى الأهالي لكل المحاولات التي كانت تعمل على تهديد حياتهم داخل مدينتهم، وظهرت الروح الجماعية بينهم من أجل التصدي للقيادات المملوكية الحاكمة، وقد انعكست هذه الروح الجماعية في نهاية القرن الثامن عشر، وبداية التاسع عشر من خلال العديد من الحركات الشعبية داخل المدينة.

* * *

الخَـلِيــج العَـرَبِــي

البينيون التَّخْبَويون وَالكِتَابة التَّاريخيَّة الجَدِيدة

دِرَاسَةٌ نَقْديَّةٌ لِتَطور النَّظَرِيَّة

د. فتحي العفيفي(*)

مُقَــدِّمَة

منذ بداية الربع الأخير من القرن العشرين كان قد اتضح تمامًا أن الدراسات الإنسانية قد شقت لنفسها طريق «العلم» بالمعنى الدقيق، وقطعت منه شوطا كبيرا واستقام عودها، وهذا النضج اللافت قد جعلها في منزلة تؤهلها للمقارنة بالعلوم الطبيعية من حيث القوة المنطقية لأنساق القوانين التفسيرية، وإذا كان الوصف هو محك وجود العلم أو عدم وجوده، فإن التحليل هو محك التقدم العلمي، ويمكن أن تقاس درجة تقدم العلم بمدى توغله في المرحلة التفسيرية ونجاحه فيها، أو درجة دقة هذا النجاح، وفي هذا نلاحظ أن التاريخ المعاصر- على نحو خاص- قد تنامى تناميًا ناجحًا في المرحلة الوصفية بعيدًا عن المرحلة النقدية التفسيرية فضلا عن البحتة(١)، وإذا كنا بإزاء أي ظاهرة تاريخية فمن الممكن أن نتوقع وصفا دقيقا لها، أما عن التفسير والتحليل والنقد لظاهرة مثل التطرف الديني فمن الصعب أن يتفق باحثوا الإنسانيات على إجابة السؤال: لماذا يحدث التطرف الديني مثلا؟

(*) المتخصص في التفكير الإستراتيجي -جامعة الزقازيق .

(١) يمنى طريف الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين، الأصول- الحصاد- الآفاق المستقبلية، (الكويت ٢٠٠، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٦٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب) ص٣٨١، أحمد محمود بدر: تفسير التاريخ، من الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، دراسة منشورة في مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٩، عدد ٤، إبريل- يونيو ٢٠٠١م، حتى ٢٠٠٧م وانظر كذلك: ثريا التركي: التكوين العلمي في العلوم الاجتماعية، حالة دول الخليج العربي، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، العدد ٤٠٠، حزيران/ يونيو، بيروت٢٠١٢م، ص ١٥٤.

ويمكن أن نتوقع إجابات متعددة وأيضًا متناقضة؛ لأن الفروع المختلفة كانت تعمل في جزر منعزلة ردحًا من الزمن، من هنا، ومع الثورة التكنولوجية الهائلة، والعولمة الاتصالية، صارت الحاجة إلى تكامل العلوم وتقاربها والتهجين فيما بينها في حكم الضرورة والواجب[١]، لينتج مركب هذه الظاهرة الوليدة مدرسة جديدة في علم التاريخ المعاصر هي «المدرسة البينية والتاريخ الجديد [٢]» والتي تتحدد مساراتها في المحاور التالية:

(١) عن وحدة المعرفة (ست رسائل حول الإنسانيات العلمية) انظر:

- BRUNOLATOUR: *Cogitamus : six letters sur les humanite's scientifiques* (Paris: La Découverte, .2010)

(٢) في التاريخ البيني كانت المدرسة الغربية وبلا ريب أسبق بكثير جدًا من المدرسة العربية، بل إن الكتاب الأجانب كانت كتاباتهم في الغالب الأعم تعتمد على الفكر الموسوعي، أي معالجة الموضوعات من كافة زواياها وجوانبها المختلفة، ومن ثم كانت إسهاماتهم في هذا النوع من الكتابة التاريخية المعاصرة متعددة ومتنوعة وعميقة كذلك. انظر على سبيل المثال:

- *Central Intelligence Agency, Center for The Study of Intelligence* «CIA Analysis of The Iran Craisis» Cambridge M; New Yorks Cambridge University Press, 2006.
- CHARLES LIPSON: *Reliable partners*: «How Democracies Have Made a separate peace?» Princeton, NJ: Princeton University press, 2003.
- CHELKOWSKI, PETER J. and ROBERT J. PRANGER (EDS.). *Ideology and Power in the Middle East*: «Studies in Honor of George Lenczowski» . Durham, NC: Duke University Press, 1988.
- CHUBIN, SHAHRAM, ROBERT LITWAK and AVI PLASCOV. *Security in the Gulf Aldershot, Hants, England*: Published for the International Institute for Strategic Studies by Gower, 1982 (Adelphi Library; 7).
- CLEMENT M. HENERY and ROBER T SPRING BORGE: *Globalization and the politics of Development in the Middle East*, Cambridge, UK. New York; Cambridge university press, 2001.
- CORDESMAN, ANTHONY H. *The Gulf and Search for Strategic Stability: Saudi Arabia*, «the Military Balance in the Gulf and Trends in the Arab-Isreali Military Balance». Boulder, CO: Westview Press; London, England: Mansell, 1984. (Westview Special Studies on the Middle East).
- JONATHAN SCHANZER: *Al-Qaeda's Armies: Middle East Affiliate Groups*; «Ungoverned Territories and The Next Generation of Terror»; Washington, DC: Washington Instuitute for Near East Policy, 2004, P. 86.

- فقه التناول وتحرير البيئة المنهجية.
- المستحدث في المصادر والوسائط المعلوماتية.
- البينية المعولمة للتاريخ الآني والمتخيَّل.

فقه التناول وتحرير البيئة المنهجية

لقد تضافرت جهود المؤرخين الجدد الراغبين في تطوير أدواتهم البحثية، وتحديث قناعاتهم، مع اندفاع النخبويين من مفكري التخصصات الأخرى الذين اقتحموا مجاهل التاريخ المعاصر دون استئذان، تدفعهم رغبة ملحة في إحداث ثورة حقيقية في مجال الدراسات التاريخية، وارتياد المناطق المسكوت عنها[١]، بما يتطلبه ذلك من ضرورة إحداث نقلة نوعية جديدة في منهجية البحث التاريخي، بحيث يتم الاحتفاظ بالأسس المتعارف عليها مع إضافة مفاهيم من أدوات البحث في العلوم الأخرى، وذلك من حيث الأطر النظرية والتطبيقات العملية على نحو ما يلي:

الأطر النظرية للمنهجية الجديدة: لقد صار على الباحث في التاريخ المعاصر أن يكون ملمًّا إلماما واسعا بطرق البحث ومناهجه في مجالات الاقتصاد، والسياسة، والجغرافية، والقانون، وغيرها، ليس فقط لأنها تقع ضمن موضوعات التاريخ. وإنما يكون الهدف صقل مهارات الباحث في التعامل منهجيًّا مع الموضوعات البينية المشتركة وفق أسس المنهج المتبعة بين تخصصين أو أكثر، ولأن التاريخ المعاصر وثيق الصلة -مثلا بعلم السياسة- فقد أصبح من اللزوميات أن يتقن الباحث معرفة: صياغة الفروض، والمشكلة البحثية، والتساؤلات

- Lawrence G. Potter and Gary G. Sick (eds): *Security in The Persian Gulf*; Origins, Obstacles, and The Search For Consensus., New York; Palgrave 2002.
- Kenne H.M. Pollack: *The Persian Puzzle*:«The Conflict between Iran and American», New York, Randaom House, 2004.

(١) عبد المالك خلف التميمي: الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية المعاصرة، دراسة منشورة بمجلة عالم الفكر، العدد٤، المجلد٢٩، أبريل/يونيو ٢٠٠١م، ص٧١.

البحثية، والمداخل، والاقترابات، وأسس التحليل السياسي (التاريخي)[١].

يمكن رصد الأطر النظرية في العملية التاريخية الجديدة علي صعيد تطوير المنهج في المداخل الآتية:

١- تحديد المفاهيم والمتغيرات والعلاقة الجدلية بينهما، والمفهوم هو فكرة أو تجريد أو صورة ذهنية تتمثل بها شتى حالات الظاهرة المبحوثة، وكلما تقدمت صياغة المفاهيم أمكن للباحثين تطوير تصورات جديدة في العلم، والمتغيرات هي: متغير تابع، وآخر مستقل، وثالث وسيط، والعلاقة بينهم جميعا يحددها الفرض التاريخي، الذي هو تعبير عن علاقة سببية أو ارتباطية بين المتغيرات[٢].

٢- خضوع التاريخ المعاصر إلى متطلبات وقواعد المنهج العلمي الأربعة وهي:

اليقين: فلا يدخل الباحث في اعتقاده إلا ما يتمثل أمام عقله جليًّا دون شك، ليتحرر من

---

(١) قليلة هي المجهودات التي يبذلها أبناء التخصص في سبيل تطوير قناعاتهم المنهجية حيال تحديث الدراسات التاريخية، على الرغم من انشغالهم الدائم بالسؤال القديم الجديد: متى يبدأ التاريخ المعاصر وإلى أين ينتهي؟ بمعنى متى ينبغي علي الباحث في التاريخ المعاصر أن يتوقف بكتاباته، وما بين مؤيد ومعارض لاستمرار عمل المؤرخ وكتابة شهادته في الأحداث أو ضرورة الانتظار فترة زمنية تقدر بثلاثين عاما لاستجلاء الحقائق. كانت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م قد شقت الصف العلمي نصفين بين هذا وذاك على صعيد المدرسة المصرية للدراسات التاريخية المعاصرة، حيث كان الحل التوفيقي بين المتنازعين أن يقتصر عمل المؤرخ علي جمع الوثائق، وتوثيق ما لم يتمكن من جمع أصول له، ولكن في الحقيقة بدا الأمر لديَّ أن الدراسة البينية التي سبرت أغوارها منذ بداياتي البحثية في عام ١٩٩٢م وارتضيتها منهجاً لكتاباتي- كالذي ألقى حجرا ثقيلا في الماء الراكد الآسن، وحيال هذه الرغبة أذكر بالعرفان والفضل أني قد لقيت تشجيعا من رموز التخصص وأعلامه مثل أ.د/ رؤوف عباس، وأ.د/ جمال زكريا قاسم (رحمه الله عليهما)، وأ.د/جمال حجر، وأ.د/ السيد فليفل (أطال الله في عمرهما)، رأيت أن هذه المدرسة تحل المشكلة فكانت مساهمتي في الثورة بهذه الدراسة. انظر:

- فتحي العفيفي: الحرب على الفوضى الخلاقة: النزعة المركزية في الثورات العربية المعولمة، دراسة في صناعة المستقبل، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٠، آب/ أغسطس ٢٠١١م، ص١٥١.

(٢) سعد الدين إبراهيم، المرجعيات الغربية للعلوم الاجتماعية في الوطن العربي، مقاربة تأليفية، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، العدد ٤٠٠، حزيران/يونيو ٢٠١٢م، ص ٩٥.

كل الأحكام المسبقة.

التحليل: حيث يتم تفكيك الظاهرة إلى عناصرها الأولية، والقضايا المركبة إلى قضايا أبسط.

التركيب: فيتم تسيير أفكار الباحث بنظام يبدأ من الأبسط والأسهل إلى ما هو أكثر تركيبًا.

الاستقراء: ويعني الإمبيريقية المعتمدة على التحليل الكمي، أي أن ندع الوقائع تتحدث عن نفسها[١].

- تؤكد المدرسة البينية على ضرورة تفعيل وظائف المنهج الثلاث المتكاملة والمترابطة وهي:

الوصف **Description**، التفسير **Scientific Explanation**، التنبؤ **Prediction**، وجميعها يهتم على نحو خاص بمسألة الاستشراف، وتوظيف التاريخ في خدمة المستقبل، والانتقال به من مجرد حكايات مسرودة للعظة والتسلية، إلي قيمة علمية تخدم الأمم والشعوب في رحلة تطورها ورقيها الحضاري[٢].

٣- الفرض في التاريخ المعاصر (ضرورة بعد أن كان مهملا بالمطلق)، وهو عبارة عن اقتراح مؤقت لتفسير ظاهرة واقعة يتبناه الباحث للاسترشاد به في بحثه، وصحتُه أو خطأه يحتاج إلى تحقيق وإثبات، والنتيجة في الحالتين إيجابية ومقبولة؛ لأنها تدرأ عن الباحث شبهة التحيز والميل والهوى تجاه الفرض المقترح، ومن الأمثلة على ذلك:

- أن أغلب تفاعلات النظام الإقليمي الخليجي في مرحلة النظام الدولي الثنائي القطبية كانت ترجع إلى تأثير محددات البيئة الداخلية.

---

(١) Gcorge Bea & Dick simpson: Political Action- the key to understanding politics (Athens .chio:ohio univ. press. 1984) P.26

- ودودة بدران، اقترابات البحث في العلوم الاجتماعية (القاهرة: مذكر البحوث والدراسات السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٢م)، ص٣٩.

(٢) حامد ربيع: نظرية التحليل السياسي (القاهرة، ١٩٧١م، مكتبة القاهرة الحديثة)، ص١٥.

- أنه على الرغم من أن النظام الإقليمي الخليجي يعتبر نظاما فرعيا من النظام الإقليمي العربي، فإنه قد امتلك قدرة أكبر على التأثير في تفاعلاته ابتداءً من عقد السبعينيات بدرجة تفوق قدرة النظام العربي على التأثير في النظام الخليجي بسبب الثروة النفطية، وتحولات موازين القوى[١].

٥- أن الباحث البيني صار ملتزمًا بمستويات التحليل المقارن عبر الزمان والمكان، والمستندة إلى: المعلومات والبيانات التي تم تجميعها، والقدرة على الإبداع والتخيل، والتدقيق ونفاذ البصيرة، وأن الواقع أكثر تعقيدًا مما تبرزه المرجعيات العلمية، ومعرفة الدوافع والأغراض والمعاني التي تؤدلج الفعل التاريخي، والوقوف على خلفية الباحث المرجعي وانتمائه ومدرسته الفكرية[٢].

الجوانب التطبيقية للمداخل العلمية:

التاريخ البيني المعاصر على صعيد تطوير بنيته المنهجية أصبح مهتما بدراسة السياسات،

---

(١) من الدراسات البينية المهمة هي أطروحة- محمد السعيد إدريس للدكتوراه في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية عن: النظام الإقليمي للخليج العربي، والذى تحدث فيها عن: هيكلية النظام الإقليمي الخليجي وخصائصه البنائية، ومستوى القوة، وتوزيعها، وعن بيئة الإقليمية الخليجية، والبيئة الدولية، والتفاعلات الصراعية، والتعاونية في حقب تاريخية مختلفة، وقد برع الكاتب في توظيف الوقائع التاريخية في قولبة سياسية واضحة، وتأصيل الوقائع السياسية في بعدها التاريخي، وجمع بين الفكر الاستراتيجي والعلاقات الدولية، والموارد الاقتصادية، كما عكس هذا التنوع طبيعة المراجع التي اعتمد عليها فقد جمعت بين هذه التخصصات جميعها، وهذا هو ديدن البينيين النخبويين في كتابة التاريخ الجديد للمزيد التفاصيل. انظر: محمد السعيد إدريس: النظام الإقليمي للخليج العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه رقم (٣٤)، (بيروت ٢٠٠٠م، مركز دراسات الوحدة العربية)، وإذا كانت دراسة محمد السعيد إدريس قد انطلقت من أرضية سياسية لترتد إلى البعد التاريخي في الوصف والتفسير والتحليل، فإن هناك دراسة أخرى قد انطلقت على عكس ذلك من أرضية تاريخية لتمتد إلى البعد السياسي عندما تتحدث عن أمن الخليج العربي، تطوره وإشكالياته، من منظور العلاقات الإقليمية والدولية، والدراسة أشبه بعرض بانورامي للعديد من الأحداث التاريخية التي مر بها الإقليم في محاولة جادة لتفسير هذا الكم الهائل من المعلومات وفق نسق عام يعرف بـ (التاريخانية)، بمعنى أن الحاضر هو ابن الماضي وأب المستقبل، للمزيد من التفاصيل انظر: ظافر محمد العجمي: أمن الخليج، تطوره وإشكالياته من منظور العلاقات الإقليمية والدولية، سلسلة أطروحات الدكتوراه، رقم ٢٥٦، (بيروت ٢٠٠٦، مركز دراسات الوحدة العربية).

(٢) ودودة بدران (محرر): البحوث الإمبيريقية في الدراسات السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩١م، مركز الدراسات السياسية، ص٢٥٢.

والنظريات، والنظم"[١]، معتمدًا على مجموعة هائلة من المناهج الفرعية التي تتحول عند الكتابة التاريخية إلى مداخل ومقتربات، وعلى سبيل المثال إذا حاولنا دراسة السياسة الخارجية الأميركية تجاه منطقة الخليج العربي ١٩٤٥ ١٩٧١م، فلا بد من الاعتماد على المناهج التالية:

- منهج صنع القرار الرشيد (Rational Decision Making)، والذي يهتم بدراسة كيف أن القرارات التاريخية قد صنعت بطريقة رشيدة أم لا؟ من خلال: وضوح أهداف صانع القرار، وإدراك القرار لبيئته المحيطة، وتحديد البدائل والخيارات الرئيسية المتاحة، وتقديم المنافع والخسائر الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، واختيار البديل المناسب[٢].

---

(١) • لا بد من التوضيح أن ما تطرحه هذه الدراسة عن (التاريخ الجديد) يختلف كثيرا عن ذلك الذي تبناه كلا من: هاري إلمر بارنز في كتابه عن تاريخ الكتابة التاريخية، وجاك لوغوف "التاريخ الجديد" في منتصف القرن العشرين، وإذا كان ما دعا إليه المؤرخان الكبيران يتبنى طرحًا يهدف إلى تحرير التاريخ من ربقة الوثيقة والأنماط الاستاتيكية الجامدة، فإن التاريخ البيني الذي نتبناه هو ذروة ما يمكن أن يقدمه التاريخ الجديد في ضوء المتغيرات والمحفزات المتطورة باضطراد، وكثيرا ما التقى كتاب التاريخ والسياسة في أعمال مشتركة لحاجتهم الدائمة إلى التكامل في المشروع البيني. انظر في ذلك: جمال زكريا قاسم وآخرون: العلاقات العربية الإيرانية، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩٣م)، محمد السيد سعيد وآخرون: الخليج والمسألة العراقية، من غزو الكويت إلى احتلال العراق ١٩٩٠ ٢٠٠٣م، (القاهرة : مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، ٢٠٠٣م)، ومن الكتابات البينية المهمة كذلك: رضا أحمد شحاتة: تطور السياسة الأمريكية نحو مصر بين حربين (القاهرة، ١٩٩٣م)، وكان علي الدين هلال قد طبق نوعا من كتابات المدرسة البينية حيث كتب في السياسة بخلفية تاريخية في كتابه المهم عن: أميركا والوحدة العربية ١٩٤٥ ١٩٨٢م، حيث طبق في هذه الدراسة مجموعة من المناهج والمداخل الفكرية على رصد وتحليل اتجاهات السياسة الخارجية الأمريكية تجاه موضوع البحث. للمزيد من التفاصيل والمقارنة انظر: هاري إلمربارنز: تاريخ الكتابة التاريخية، مرجع سبق ذكره، ص٢٣٧، وجاك لوغوف: التاريخ الجديد، مرجع سبق ذكره، ص٧٥، وقارن ذلك بـ : علي الدين هلال: أميركا والوحدة العربية ١٩٤٥ ١٩٨٢م، (بيروت، ١٩٨٩: مركز دراسات الوحدة العربية) ص٢٦، وأيضا كتابه بالاشتراك مع نيفين مسعد: النظم السياسية العربية، قضايا الاستمرار والتغيير (بيروت، ٢٠٠٢، مركز دراسات الوحدة العربية).

(٢) في عرض هذه المناهج وعلاقتها بالسياسة الخارجية الأمريكية انظر:

- Charles W. Kegley (Jr) and Eugene R. Wilkopf, «American foreign policy»: Pattern and process (New York: St. Martin;s Press, 1979); Thomas L. Brewer, «American Foregin Policy»: *A contemporary introduction* (Englewood Cliffs, N.J.; Prentice Hall, 1980); Pobert C. John-

- منهج الإدراك (Perception Approach): ويركز على مجموعة البشر القائمين علي صنع القرار، وخلفياتهم، والتفضيلات، والخبرات الفردية، ودرجة المخاطرة في عملية صنع القرار، ومعقولية التبريرات المصاغة[١].

- المنهج التنظيمي: أن صنع السياسة والاقتصاد في التاريخ تتم في سياق مؤسسي وتنظيمي عبر دوائر متخصصة في مجال الظاهرة التاريخية يشغل مناصبها كوادر مهنية محترفة، لها طابعها التصاعدي الرئاسي (الهيراركي)، فالباحث البيني لا بد وأن يكون مزخومًا بالمنهج التنظيمي (Organizational Approach)[٢] حتى يتمكن من تقديم تحليلات وتفسيرات مقنعة للحدث التاريخي.

- منهج جماعات المصالح (Interest Group Approach): إن دور الرأي العام يتشكل ويتم من خلال جماعات المصالح المنظمة التي تسعى لتعبئة المواطنين من أجل قضاياها، يلاحظ في ذلك تأثير جماعة الإخوان المسلمين الكاسح في أعقاب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م، وكيف وصلت إلى الحكم "والأخونة" لقطاعات الدولة اعتمادا على المصالح المنطلقة من قواعدها

SON, *the National interest and the Human Interest; An Analysis of United states foreign policy* (Princeton, N.J.; Princeton University press, 1980), and WILLIAM BAUR QUANDT, «Decade of Decisions»: *Amreican Policy toward the Arab-israeli conflict*, 1967-1976 (Berkeley, Calif.: University of California press, 1977), PP. 1-36.

(١) من المقالات الرئيسية في هذا المنهج، انظر:

- OLE HOLSTI, *The Belief System and National Images: A Case Stydy* «Journal of conflict Resolution», Vol. 6 (September 1962), pp.252, and M. G. Bonham, «Cognitive Processes and foreign policy Decision- Maaking» *International studies Quarterly*, Vol. 17 (1973), pp. 147-174.

(٢) انظر عَرْضًا لهذا المنهج في:

- M. HALPERN, *Bureaurcratic politics and foreign policy* (Washington, D. C.: Brookings Institution, 1974); R. Art, Bureaurcratic Politics and American Foregin Policy A Critique, Policy Science, vol.4 (December 1972), pp. 468-474, and S. Krasner, Are Bureaucracies Important? (or Alice in Wonderland), *Foreign Policy*, no. 7 (Summer 1979), pp. 159-179.

الشعبية[١].

- منهج نخبة القوة (Power Elite): إن التاريخ في منطقة الخليج العربي على صعيد الأسر الحاكمة، والنظم العسكرية في العراق والثوريين الراديكاليين في إيران، تسيّره سلطة تتركز في أيدي عدد محدود من النخبة السياسية ذات المصالح المشتركة، والتفضيلات السياسية المتشابهة، مدعومة بجهاز بيروقراطي مستزلم أي تابع تحت ضغط هاجسي الرشا السياسي أو العنف بالإقصاء والملاحقة[٢].

- منهج النظام الدولي (International system): إن التاريخ المعاصر البيني هو استجابة للمشاكل التي يطرحها النظام الدولي، وهذا المنهج أوضح ما يكون في الحقبة البريطانية، كما يلاحظ في ذلك طغيان الدور الأميركي وتركز القوة النسبي بيد الولايات المتحدة، بما جعل تاريخ الخليج المعاصر انعكاسا طبيعيا لأهمية هذا المنهج [٣].

(١) WILLIAM H. FLANIGAN AND NANCY H. ZINGALE, *political Behavior of the American Electorate* (Boston, Mass.: Allyn, Bacon,1975), pp.91-145, and Ralph B.Loverins, the public and American .(Foreign policy, 1918-1978 (New York: William Morrow and Co., 1978

- E.WEISBAND, *the ideology of American foreign policy*: «A paradigm of Lockian Liberalism» (Beverly Hills, Calif: Sage Publications, 1973), pp.2-14, and Robert H. Trice, *Interest groups and the foreign policy process*: U.S. policy in the Middle East (Beverly Hills, Calif: sage publications, 1976).

(٢) انظر الأطروحة الأساسية لهذا المنهج في:

- CHARLES WRIGHT MILLS, *the power Elite* (New York: Oxford University Press, 1956), and G. W. Domhoff, who Rules America (Englewood Cliffs, N. J.; Prentice Hall, 1967).

(3) ROBERT A. BAUER, ed., *the united states in world affairs*: «leadership partnership or Disengagement?» (Charlottesville: university of Virginia press, 1975), pp. 1-12 and 96-111.

- WALT W.ROSTOW, *the diffusion of power*, 1957-1972 (New York: Macmillan press, 1972).

- STANLEY HOFFMANN, *the primacy of world order* (New York: McGraw Hill Book Co., 1978), pp. 5-32, and ADAM BRUNO ULAM, *the rivals America and Russia since world war ll* (New York: Viking press, 1971).

- منهج الهيمنة الأيديولوجية (Ideological Hegemony): إن التاريخ البيني المعاصر ينطلق تحليله الأكاديمي من تفسير أنماط العلاقات القبلية، وأشكال التنظيم الاجتماعي: وتوضيح مدى تغلغل نظام كامل للمعتقدات والقيم والاتجاهات في الممارسات الاجتماعية الصانعة للتاريخ "الدولة القبلية"، "الدولة العسكرية"، "الدولة الثيوقراطية"[١].

ظهرت تطبيقات المنهج البيني على استحياء في بعض الكتابات التاريخية المعاصرة عن منطقة الخليج، والتي تناولت (القوى الكبرى في الشرق الأوسط)، وفي (الصراع على الخليج العربي)، و(السياسة الخارجية الإيرانية)، و(العلاقات العربية الإيرانية)، و(مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج العربي)، وجميعها كتابات سياسية بخلفية تاريخية تم الحديث فيها عن الاقتصاد السياسي، والتمرد على كل ما سبق من قيم ومسلمات (المابعدي)، وأن المجتمع عبارة عن مجموعة من الكليات المنتظمة (ما بعد البنيوية)، وضرورة إخضاع السلوك الإنساني للتجربة والتعميم (ما بعد السلوكية) بحيث تم نظم كل هذه الأفكار في مداخل ومناهج تؤسس للتاريخ البيني الجديد[٢].

المستحدث في المصادر والوسائط المعلوماتية

ظلت الوثائق تمثل حجر الزاوية في مصادر البحث التاريخي، ينشدها الباحثون في دور

---

(١) .C. Boggs, *Gramsci's Prison Notebooks*, «Socialist Revolution», vol. 2, no. 2 (1972), pp. 98-100
Zbigniwe Brezinski, *the united states in changing world*, «economic impact», no. 17 (1977), p. 10.

(٢) انظر على سبيل المثال: جمال حجر: القوى الكبرى والشرق الأوسط (في القرنين التاسع عشر والعشرين)، (القاهرة، ١٩٨٩، دار المعرفة الجامعية)، عبد الرحمن محمد النعيمي: الصراع علي الخليج العربي (بيروت ١٩٩٤: دار الكنوز الأدبية)، روح الله رمضاني: سياسة إيران الخارجية (١٩٤٥- ١٩٧٢م، البصرة ١٩٨٤: مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة)، محمد السيد سعيد: مستقبل النظام العربي بعد أزمة الخليج، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥٨ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب)، محمد حسن العيدروس: العلاقات العربية الإيرانية ١٩٢١-١٩٧١م، (الكويت ١٩٨٥: ذات السلاسل)، وعن عرض نقدي للمفاهيم الجديدة: انظر: كمال المنوفي: أصول النظم السياسية المقارنة (الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، ١٩٨٧م)، نيفين عبد المنعم مسعد: الاتجاهات الحديثة في دراسة النظم السياسية، ورقة قدمت إلى اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة (جامعة القاهرة، ١٩٩٧م، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية).

الوثائق الأجنبية وفي بلدانهم، إضافة إلى المذكرات السياسية المحدودة، والدوريات، وتوجس المؤرخون خيفة من هجر هذا التراث وذلك التقليد العتيق، وبقيت محاولاتهم تراوح مكانها، ووحدهم البينيون النخبويون هم من كسر هذا الجدار الصلب في ظل الهجمة الشرسة للمعلوماتية وتكنولوجيا الاتصال، والتي تطورت بدورها بحيث لم يعد من الممكن أو المقبول الاستمرار في تجاهلها، ومن ثم يمكن صياغة المستحدث في المرجعيات الأساسية لكتابة التاريخ البيني من خلال المحاور التالية:

- المصادر السمعية والبصرية، التي جاءت ثمرة التطور العلمي الكبير في مجال الإعلام المسموع والمرئي، وفي مجال المعلوماتية، ومن هذه المصادر: الأفلام الإخبارية السينمائية والتليفزيونية التي تسجل أحداثا مهمة، وتوفر مادة حية لتلك الأحداث(١).
- تقدم أشرطة التسجيل و"السيديهات" بمختلف أنواعها مادة غنية لدارس التاريخ البيني المعاصر كالخطب السياسية، والتصريحات الرسمية، ووقائع الاجتماعات العامة، وخاصة أن أشرطة التسجيل أصبحت من أدوات العمل السياسي المعارض في ظل الأنظمة التي تقوم على الاستبداد وكَبْت الحريات.
- إن المصادر السمعية والبصرية تضع المؤرخ في مواجهة الحدث حال صناعته، وتجعله يقف وجهًا لوجه أمام صُنَّاعه، يتفرس في ملامحهم ويَزِنُ شخصياتهم، ويحلل كلماتهم بالموازين المنهجية، وتتيح له فرصة ذهبية لمقارنة المادة المكتوبة بالمادة المرئية والمسموعة وصولًا إلى الصورة التركيبية للحدث ودقة التحليل والتفسير، أي تكوين عقيدة المؤرخ ليكون حكمه على الأشياء أكثر منطقية وموضوعية.
- الصحافة الورقية والإليكترونية مصدر جديد من مصادر كتابة التاريخ البيني، بعد أن كانت من المحرمات في الكتابات الأكاديمية (ماجستير، ودكتوراه)، وذلك بفضل التطوير

---

(١) رؤوف عباس حامد: دراسة التاريخ المعاصر، باستخدام المصادر والمناهج الحديثة، بحث مقدم إلى ندوة: «تحديث الدراسات التاريخية» (القاهرة ١١-١٣ أبريل ١٩٩٢م: لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة).

الذي استحدث على آليات ومضامين عمل الصحافة ذاتها، فقد أصبحت تتناول تقارير اقتصادية، واجتماعية، وسياسية مهمة، وتحقيقات مع صناع القرار السابقين، وعرض للندوات والمؤتمرات المتخصصة، وإيقاع الحياة اليومية، وتقارير الهيئات الدولية[١].

- إن الباحث في التاريخ البيني المعاصر يجد نفسه أمام مصدر من نوع آخر محفوف بالمخاطر والمحاذير، ونعني به كتابات بعض الساسة التي تتخذ طابع المذكرات أو الذكريات، والتي تتجه في الغالب نحو تبرير الأدوار والمواقف، بما يتطلب ضرورة أن يقوم المؤرخ بمجموعة من العمليات النقدية النوعية وفق المعايير العلمية لاستبعاد الزائف منها والمنحاز.
- أصبح لزامًا على المؤرخ أن يكتسب مهارة استخدام الحاسبات الآلية بوصفه علما مساعدًا لا غنى عنه، وأن مهمته كعلم جديد تتحدد في وظيفتين، الأولى: تخزين المعلومات، والثانية: استرجاعها وفرزها في زمن قياسي، وبواسطة شبكة الإنترنت يمكن ممارسة المؤرخ للتحليل الكمي والكيفي لدراسة ميادين جديدة مثل النظم الدستورية، وتاريخ الفكر بما يوفر دراسات في العمق، كما أن التاريخ قد انفتح بفعل ذلك على مجالات كالرياضيات، والإحصاء والتحليل الإحصائي[٢]، ومهما كان مقدار العمل الذي ينجزه المجهود المعلوماتي المطور فإن المؤرخ يبقى صاحب القول الفصل في كل ما يقدمه من مادة تاريخية يعتقد صحَّتَها وجدواها.
- لم يحسم العلميون في المجال التاريخي رأيهم بعد في مسألة الاعتداد بـ "الشبكة العنكبوتية" كمصدر أو مرجع للتوثيق التاريخي، ومبعث حيرتهم أن هذه المواقع التي يتم

---

(١) أحمد سيد محمد: الدليل إلى منهج البحث العلمي، (القاهرة، ١٩٨٥م، دار المعارف).

- آرثر آسابيرغر: وسائل الإعلام والمجتمع، وجهة نظر نقدية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٨٦، مارس ٢٠١٢م، ترجمة: صالح خليل أبو إصبع (الكويت، ٢٠١٢م: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، ص١١٧.
- أنطوان زحلان: العلم والسيادة: الآفاق والتوقعات في البلدان العربية، بناء المؤسسات، التعلم والتكيف والمراكمة والاندماج، بحث منشور بمجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٢، تشرين الأول أكتوبر ٢٠١١، (بيروت ٢٠١١: مركز دراسات الوحدة العربية) ص٦٠.

(٢) جمال محمد غيطاس: العرب والقمة العالمية لمجتمع المعلومات، تعقيدات التعامل مع الفجوة الرقمية، سلسلة كراسات استراتيجية، العدد ١٥٩، يناير ٢٠٠٦م، الأهرام.

الرجوع إليها غير ثابتة أو نهائية، وإنما هي عرضة للحذف أو الإضافة، أو الانتهاك والسطو (القرصنة)، وربما التدمير، وبالتالي كانت الوثائق الموسومة بمجموعة "ويكليكس" غير مقنعة بالمطلق، لحداثتها والشك في صدقيتها، وإنما يستخدم كل ذلك في المعرفة العلمية وتكوين مجتمع الديمقراطية الرقمية بوصفه أداة التعبير عن الرأي في حرية مطلقة عن طريق البريد الإليكتروني والمشاركة في الندوات الإليكترونية، دون رقابة، وفي أسوأ الأحوال النضال بوسائل متغيرة للتخفي[1]، وفيما عدا نسخ المؤلفات والمراجع المحفوظة كاملة بنظام (P.D.F) والتي يقدم فيها الإنترنت وظيفة المكتبة بمعناها التقليدي وشكلها المطور، لا يمكن الاطمئنان بالمطلق إلى معلومات المواقع، فالإنترنت بهذا المعنى جزء من التاريخ وليس مصدرًا له.

- من مستحدثات الوثائق وتكنولوجيا المعلومات للمؤرخ البيني المعاصر، ما صار يعرف بـ "شركات الوثائق"، حيث راجت في تسعينيات القرن الماضي تجارة الوثائق عندما وجدت دول الخليج العربية نفسها أمام تحديات جديدة تتعلق بتجدد نزاعات الحدود، وأن المشكلة العراقية- الكويتية التي تم تجميدها لأكثر من أربعين عامًا قد عادت من جديد في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م، ليس في شكل ادعاءات، وإنما في مشهد غزو واجتياح عراقي كامل للكويت بدعوى أن الأخيرة جزء من تاريخ العراق، فضلًا عن التحكيم القديم الجديد في محكمة العدل الدولية، وكل ذلك يحتاج إلى وثائق ومستندات، فظهرت مجموعات من المتخصصين العرب والأجانب ليتحدوا في تكوين شركات للوثائق بعد أن يكونوا قد عكفوا على تصنيفها وتحليلها والتقديم العلمي لها، وبدلًا من ذهاب الباحثين إلى مظانّ

(١) أحمد أبو زيد: الإنترنت، الساحة الأخيرة للديمقراطية الرقمية، في كتاب بعنوان: المعرفة وصناعة المستقبل، (الكويت ٢٠٠٥، سلسلة كتاب العربي، يولية ٢٠٠٥م)، ص١٠٦.

- السيد يسين: شبكة الحضارة المعرفية، من المجتمع الواقعي إلى العالم الافتراضي، (القاهرة، ٢٠٠٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص٢٤.

- عمار علي حسن: المدونون ومسيرة النضال الإليكتروني، جريدة (المصري اليوم) القاهرية، عدد الثلاثاء، ٢٠٠٧/٥/١م، ص١٣.

الوثائق، قدمت لهم هذه الشركات تلك الخدمة العلمية التي عابها تناقض الوثائق وتعارضها، وعلاوة على المجموعات العامة الخاصة بالخليج العربي، كانت هذه الشركات تقدم لكل دولة أرشيفا كاملا عن وثائقها اجتماعيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، وقد أسهمت عمليات التوثيق والبيع الإليكتروني في إسعاف المؤرخين الجدد وتحفيزهم نحو تبني قضايا أكثر جرأة، كانت حتى وقت قريب مسكوتا عنها، ومن المحظورات[١].

---

(١) من هذه المجموعات الوثائقية على سبيل المثال نظر:

-*Archive Editians*: Arabian Boundaries Disputes; Bahrain- Qatar, 1818-1991-London 1982.

-*Archive Editions*: Iraq Administration Reports 1914-1938, This Comprehensive series of British administration reports for Mesopotamia (Iraq) form the outset of world war 2 up to the independence of Iraq and relation with Kuwait, Archive editions-London 1988, Volume 9.

-*Archive Editians*: Kuwait political agency, Arabic Documents 1899-1949, volume 12, Archive Editians, London 1990.

-*Archive Editions*: The Bahrain Government Annual Reports 1924 - 1970, 8 Volumes two Volumes each for: Bahrain, Kuwait, Muscat, Bushire, Archive Editions, Londone 1992.

-*Archive Editions*: The Bahrain Government Annual Reports 1924 - 1970, 8 Volumes, Archive Editions, Londone 1992, Volume 4 , The Reports Cover Five decades of Unprecedented social , All these Changes Were reported on detail by The Bahrain Government's Advisor, Sir Charles Belerave In the Reports Up to 1956.

-*Archive Editions*: The Bahrain Government Annual Reports 1924-1970, Archive Editions; London 1990, Valumes VI- VIII; for the Years Following the Blegrave, and Relarions between Bahraia and Qatar.

-*Archive Editions Document Collections;* Iran- Iraq Border (1639-1909) Key Documents, Volume I, London 1996.

-*Archive Editions Document Collections*; Iraq - Kuwait 11, 1941 - 1992, Key Documents 1947-1992, key documents,1947-1992, Umm Qasr , Warba and Bubian , Land Border 1939 1991 ' Archiv Editions. London 1996 , Volume 2.

البينية المعولمة للتاريخ الآني و المتخيل

منذ العام ٢٠٠١م بدأت مشروعا علميا ذاتيا على مستويات ثلاث (الكتب- الأبحاث- المقالات) بهدف تحرير الكتابة التاريخية عن منطقة الخليج العربي من الأنماط التقليدية العتيقة، فضلا عن محاولة تطبيق العديد من النظريات، والأفكار، والقيم العليا على واقع وأحداث هذه المنطقة المزخومة بالنزاعات والخلافات لكونها محط أنظار العالم، وقد أدركتُ منذ الوهلة الأولى أن العولمة التي أشبعت الدنيا صخبا وضجيجا سيكون لها تأثيرها الفاعل على تطور الخليج العربي، فشرعت على الفور في نقض التركيبة المخزنية لمنظومتها، وتفكيك بناها بهدف نقد وتحطيم الثنائية الزائفة التي ملأت الفضاء الفكري للقرن العشرين، والتي درجت على إجبار الدول والمجتمعات على الاختيار الحتمي ما بين أحد خيارين: الفردية أو الجماعية، وما بين القطاع الخاص أو القطاع العام، وما بين العلمانية أو الدين، وما بين الاستقلال الوطني أو الاعتماد المتبادل، وما بين الأنا أو الآخر على الصعيد الحضاري، وقدمت فرضًا يقوم على أساس أنه لا مفر من التوفيقية البينية التي ستكون لغة الأجندة البحثية الذاتية على مدى عقد من الزمان بحيث كان المشهد العولمي في منطقة الخليج العربي على النحو التالي:

المشروع الذاتي للبينية المعولمة:

- أفرزت المواجهة بين الفردية والجماعية على الصعيد الأيديولوجي الاقتصادي السياسي ما يمكن أن نطلق عليه (الاشتراكية الجديدة والعولمة البديلة)[١] بعدما أظهرت خبرة التطبيق السوفيتي للماركسية فساد فرض الجماعية فرضًا على المجتمع، ومصادرة كل النوازع الفردية، مما أدى عملا إلى قتل المبادرات الشخصية، والوقوع في أسر البيروقراطية واستشراء الفساد، وقد أدى كل ذلك إلى فتح حوار موسع حول العقد الاجتماعي الجديد في

(١) فتحي العفيفي: الاشتراكية الجديدة والعولمة البديلة، دراسة في المستقبل التاريخي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٤٠، يوليو ٢٠٠٧م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٧م.

- وقارن ذلك: غسان سلامة: نحو عقد اجتماعي عربي جديد: بحث في الشرعية الدستورية، (بيروت ١٩٨٧: مركز دراسات الوحدة العربية).

الخليج العربي لتتسع معه مفردات الأجندة حول هذا الجانب.

- النزاع الطويل المرير بين العلمانية والدين، قد أنتج ما أسميناه "الشيوقراطية العلمانية والتمكين السياسي للدين"[١] بعد بروز شطط العلمانية المتطرفة، وجمود الفكر الديني فيما يتعلق بمبدأ الفصل بين الدين والدولة، ومع اندلاع ثورات الربيع العربي منذ العام ٢٠١٠م، ووصول الإسلاميين إلى الحكم في ٢٠١٢/٦/٣٠م أصبحت الأجندة بحاجة إلى التعرف على الأصولية الدينية بوصفها حجر العثرة الوحيد أمام الأمريكيين والنظم الحاكمة (الإسلامية) على حد سواء[٢]، كما تم ملاحظة أن التنافس الإقليمي في الربع قرن الأخير قد أخذ بعدا ومسوحا دينية، وفق "التفسير التاريخي للتدين السياسي الإقليمي"[٣].

- الخلاف الموسع بين عمومية مقولة الديمقراطية، وخصوصية التطبيق في ضوء التاريخ البيني الفريد لكل دولة، قد استوعبناه في "التعددية السياسية ومشكلة البيروقراطية السلطوية" وتحرير احتكار الفكرتين في آنٍ معًا، بمعنى رفض النموذج الغربي في الدول غير الغربية، وكذا وضع حدود لفكرة الخصوصية الثقافية المغلقة التي ترفع كشعار لمقاومة تطبيق الديمقراطية[٤]، وتكشف تجربة قطر التي تبدو في الظاهر كأنها منفتحة على الديمقراطية

---

(١) فتحي العفيفي: الشيوقراطية العلمانية في الخليج العربي، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، العدد ٣٥٠، أبريل ٢٠٠٨م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨م.

(٢) فتحي العفيفي: الأصولية الدينية، المتغير التاريخي في النزاعات الخليجية- الأمريكية منذ العام ١٩٢٩م، دراسة تحت النشر، بمجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية.

- عبد الله فهد النفيسي: «الفكر الحركي للتيارات الإسلامية، محاولة تقويمية المستقبل العربي، ولسنة ١٧، العدد ١٨٦ آب/ أغسطس ١٩٩٤م.

(٣) فتحي العفيفي: التدين السياسي في مصر والشرق الأوسط، تفسير تاريخي لظاهرة عالمية (١٩٢٣-٢٠٠٣م) بحث منشور بمجلة مصر والعالم المعاصر، العدد الرابع، يوليو ٢٠١٢م (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية). وقارن ذلك بما يلي: باقر سلمان النجار : الحركات الدينية في الخليج العربي، (بيروت، لندن : دار الساقي، ٢٠٠٧م).

(٤) فتحى العفيفي: التعددية السياسية ومشكلة البيروقراطية السلطوية، دراسة في تحرير الاحتكار، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، العدد ٣٥٣، تموز/ يوليو ٢٠٠٨م.

والليبرالية من خلال تبنّيها لمشروع إعلامي (قناة الجزيرة الفضائية) يحاول محاكاة النموذج الغربي، عن تناقض صارخ في ظل غياب الشفافية والحكم الصالح، والحد الأدنى من آليات الديمقراطية[١].

- الحداثة والمجتمع الصناعي الذي احتكم إلى الحرب الضروس بين القطاعين العام والخاص، والذي تم تتويجه بالانفجار الكبير في سبتمبر ٢٠٠٨م في أعقاب انهيار البنك الأميركي "ليمان برازرس"، فقد شكلت تجلياتها العصب الحساس للأجندة البحثية الذاتية في "الرأسمالية الاستبدادية والقرصنة الممنهجة"[٢]، وذلك بعدما ثبت أن فساد صيغة تعميم نموذج القطاع العام أقل خطورة من إطلاق العنان بالمطلق للقطاع الخاص، وأن المخاطر المستبدة تكمن في غلبة أحدهما على الآخر، بينما يقدم المشروع الذاتي للبينية المعولمة نموذجا تفسيريا لتطور منهجية التناول البيني للتاريخ الاقتصادي وفق منظومته العولمية الجديدة[٣].

- بدأت شكوك المشروع البيني تحوم حول تخوم المؤامرة بهدف حتمية الوصول إلى دقائقها،

- - وانظر أيضًا: رياض نجيب الريس: الخليج العربي ورياح التغيير مستقبل القومية العربية والوحدة والديمقراطية، المستقبل العربي، السنة ٩، العدد ٩٨، نسيان/ أبريل ١٩٨٧م.

(١) فتحي العفيفي: الديمقراطية والليبرالية في الممارسة السياسية لدولة قطر، مجلة المستقبل العربي، العدد ٢٩٨، ديسمبر ٢٠٠٣م مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، وقارن ذلك بما يلي:

- Simon Henderson and Mattew Levitt,: «Qatar challenges Washington on Hamas», Policy watch (Washington Institute for New East Policy" No.1468, February, 2009).

- ندوة قضايا التغير في المجتمع القطري خلال القرن العشرين (٢٥- ٢٨/٢/١٩٨٩م) الدوحة، جامعة قطر ١٩٩١م. ٢ج.

(٢) فتحي العفيفي: القرصنة في الخليج العربي، الغزو الأمريكي للعولمة، (الدوحة ٢٠٠٧م، مركز العربي للدراسات والبحوث)، الكتاب حاصل علي جائزة الدولة التشجيعية في مجال العولمة والهويات الثقافية لعام ٢٠٠٩م.

- فتحي العفيفي: الأزمة المالية العالمية مشروع تأديب إمبراطوري، السياسة الدولية، عدد يوليو٩، الأهرام ٢٠٠٨م.

(٣) عبد المحسن مصطفى: منهج البحث في الاقتصاد، (القاهرة ٢٠١٣م)، وانظر: نموذج تفسيري توضيحي لتطور المنهجية البينية لدراسات الاقتصاد السياسي التاريخي في ملحق رقم (٣).

وضرورة التمييز بين الاستقلال الوطني والاعتماد المتبادل على الغرب والولايات المتحدة، وأن ممارستهم جميعًا لآلية "التفكيك الكولونيالي الممنهج بالفدرلة والدسترة تاريخيًا"[١] والقوة الصلبة والإدارة المركزية لأمن الخليج عسكريًّا[٢] وفخ العولمة سياسيًّا واقتصاديًّا قد بدد أي رصيد من حسن النوايا ليتساءل العرب في بلاهة: الفوضى التي نظموها ثورات أم مؤامرات؟[٣].

- التنازع التاريخي في الخليج العربي بين حدود المصلحة القطرية، والمصلحة الإقليمية أفضت محاولات التعاون فيه إلى صيغ صراعية وفق ما عبرت عنه مساهمة "الكونفيدرالية الخليجية وهيكلة السياسات الراديكالية"[٤]، وعلى الرغم من أنه لا يوجد ثمة تعارض فإن نزاع الدور والقيادة والهيمنة قد شكلت مداخل لحروب تاريخية مريرة[٥].

---

(١) فتحي العفيفي: الفدرلة والدسترة في الخليج العربي، دراسة في عقيدة التفكيك، في مجلد بعنوان الدستور في الوطن العربي (بيروت، ٢٠٠٦، مركز دراسات الوحدة العربية).

- وانظر أيضا: محمد جواد رضا: «الخليج العربي: المخاض الطويل من القبيلة إلى الدولة، المستقبل العربي، الخليج العربي، السنة ١٤، العدد ١٥٤، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١م.

(٢) فتحي العفيفي: الخليج العربي، الأصول التاريخية للقيادة المركزية الوسطى، دراسة في الاستعمار الجديد (١٩٤٥-٢٠٠٣م)، منشورة في المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ٤ خريف ٢٠٠٩م (بيروت، ٢٠٠٩م، مركز دراسات الوحدة العربية، والجمعية العربية للعلوم السياسية).

- فتحي العفيفي: أميركا في الخليج، سقوط الإقليمية والمستقبلات البديلة، (القاهرة ٢٠٠٥: مركز الأهرام للترجمة والنشر، مؤسسة الأهرام).

(٣) فتحي العفيفي: الحرب على الفوضى الخلاقة: النزعة المركزية في الثورات العربية المعولمة (دراسة في صناعة المستقبل، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٠، آب/ أغسطس ٢٠١١م، وعن الفوضى كصناعة غربية/ أميركية انظر: سمير أمين: إمبراطورية الفوضى، ترجمة سناء أبو شقرا (بيروت: دار الفارابي، ١٩٩١م).

(٤)) فتحي العفيفي: الكونفيدرالية وهيكلة السياسات الراديكالية، دراسة منشورة بالمجلة العربية للعلوم السياسية، عدد ١٥، صيف ٢٠٠٧م، الجمعية العربية للعلوم السياسية، بيروت، ٢٠٠٧م.

(٥) فتحي العفيفي: الخليج العربي، النزاعات السياسية وحروب التغيير الإستراتيجي، (القاهرة، ٢٠٠٣، مركز الأهرام للترجمة والنشر).

- أما إشكالية الخصوصي والعالمي وحدود التصالح بينهما فقد عبرت عن نفسها في الاستعصاء الليبرالي والأصول المانعة في ضوء سقوط خرافة حوار الحضارات، وسيادة فكرة التنافس الثقافي لتعاني المنطقة الخليجية من أزمة تطور حضارى حقيقية[1].

لم يتوقف المشروع البيني الذاتي عند حد ما تم عرضه وفق المنهجية المصاغة آنفًا، وإنما قد تخللتها محاولات دؤوبة نحو ضرورة الانتصار لفكرة تكامل المناهج وتداخل التخصصات في إطار التعلم والتكيف والمراكمة والاندماج بمضامينها التاريخية (الزمانية) والموضوعية (الموضوعات)، في ظل استيعاب كامل للرؤى والاتجاهات والمدارس والتطورات الحاكمة للتكوين العلمي للخريطة الكلية في التاريخ الحديث والمعاصر، ومن ثم تأتي هذه الدراسة التي نحن بصددها كتتويج لكل هذه المجهودات، وللتأكيد على الاستمرار والمواصلة في هذا الاتجاه الجديد.

- الأوعية الفكرية للتاريخ المتخيل:

لا يقف رصد الاتجاهات وتحليل التوجهات عند حد ما يتم إنتاجه في الجامعات الحكومية المحكومة حكمًا بضوابط وانضباط وظيفي لا يسمح بالحريات الأكاديمية المرجوة، فضلا عن العصف الإداري الذي يحول بين كتابات المؤرخين وبين ما يعتقدون صحته في ظل إنتاج معرفي، وُلِد، ونَما، وترعرع في بيئة سلطوية مستبدة، ولذلك تقدم المؤسسات شبه المستقلة تاريخًا من نوع خاص أدق ما يمكن أن نطلق عليه هو التاريخ المتخيل (المأمول) سواء كان ذلك على صعيد الماضي أو المستقبل، بمعنى: كيف كانت هي رؤية النخبة البينية لما كان ينبغي أن يكون عليه التاريخ المعاصر في الخليج وفق تخيلاتهم، وما هو متوقع ومأمول ومتخيل

---

(١) فتحي العفيفي: الدولة المدنية وتحولات الحداثة في الخليج العربي، دراسة منشورة بمجلة السياسة الدولية، عدد أبريل ٢٠٠٨م، الأهرام، القاهرة ٢٠٠٨م، وكذلك: فتحي العفيفي: الاستعصاء الليبرالي في الخليج العربي ، المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ١٢، خريف ٢٠٠٦م، بيروت ٢٠٠٦، ص٣٧.

- وانظر أيضًا: ذلك المشروع الهام في: شاكر مصطفى وآخرون: أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي، ندوة جامعة الكويت وجمعية الخريجين، صيف ١٩٧٤م، الكويت، ١٩٧٥م.

مستقبلا في ظل الواقع والتطورات المحيطة وفق مفردات الأجندة التالية:

- ضرب البينيون المتخيلون الجدد بقوة ومباشرة في قضايا السلطة، وما يتعلق بها من تسلط واستبداد وديكتاتورية، وعدم مشروعية، والاستحواذ المتراكم للثروة، والتناقض والتناشز الاجتماعي ما بين دول معاصرة بأنظمة قبلية تقليدية لا تساير التطور فأصبحت أشبه بالدول البريزماتية المثقوبة التي انحشرت ما بين قديم لا يريد أن يرحل، وجديد غير قادر على الاقتحام، فأصبحت السلطة غنيمة تفتقد إلى الأساس التعاقدي لحيازتها، وأضحى المجتمع أقل من عاجز في ظل سلطة أكثر من مطلقة[1].

- انتقل النخبويون بعد ذلك إلى محنة الدساتير في الدولة الخليجية المعاصرة، وأنه على الرغم من محدودية التجارب الدستورية في المنطقة المعنية فإن المحاولات التي بُذلت لإسقاط ما كان يسمى بـ "النظام الأساسي للحكم" كان بفعل كفاح النخبة من الداخل وضغوط المنظمات والهيئات الخارجية المعنية بالديمقراطية، بيدَ أن مشاريع الدساتير الجديدة قد خرجت مشوهة ومبتورة وتحتوي على النص ونقيضه، فالحريات الممنوحة في مادة هي ذاتها مسلوبة في مادة أخرى. بحيث بدا أن النخبة أمامها شوط بحثي ومنهجي أطول مما كانت

---

(١) خلدون النقيب: الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة، (بيروت، ١٩٩١م، مركز دراسات الوحدة العربية)، ص٨٣.

- محمد عبيد غباش: الدولة الخليجية: سلطة أكثر من مطلقة، مجتمع أقل من عاجز، في مجلد بعنوان: السيادة والسلطة، الآفاق الوطنية والحدود العالمية (بيروت، ٢٠٠٦: مركز دراسات الوحدة العربية)، ص١٥٣.

- يوسف خليفة اليوسف: عندما تصبح السلطة غنيمة، حالة دول مجلس التعاون، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، العدد ٣٥١ آيار/ مايو ٢٠٠٨، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٧٠.

- محمد أمزيان: الأساس التعاقدي لحيازة السلطة، مدخل فقهي، مجلة المستقبل العربي، السنة ٢٩، العدد ٣٣١ (أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦)، ص٦٢.

- صلاح سالم زرنوقة: نمط انتقال السلطة في النظم الوراثية العربية (١٩٥٠-١٩٨٥م)، المستقبل العربي، السنة ١٣، العدد ١٤٠، تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٠م.

راينركوردس وفريدشولز: البدو والثروة والتغيير، دراسة في التربية الريفية للإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان، ترجمة عبد الإله أبو عياش (الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨٣م).

تعتقد في سبيل إعادة إنتاج دساتير حقيقية تلبي طموحات شعوب المنطقة[1].

-القضية الثالثة التي احتلت أولويات الكتابة والبحث التاريخي كانت مسألة أمن الخليج، وهاجس الخوف الذي تملك شعوب المنطقة بفعل الأطماع الداخلية والخارجية والضغوط من كل اتجاه، وقد ساهم مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة بنصيب وافر في تصدير انطباع الخطر الإيراني ورغبات التوسع لدى الشيعة في طهران ليستدعي الطغاة الغزاة في حرب تحرير الكويت ١٩٩١م. ثم حرب إسقاط الطاغية في العراق، أبريل عام ٢٠٠٣م، وكانت وجهات النظر المتعددة قد اختلفت في تحديد مصادر الخطر وأولوياته[2].

-مسألة النفط والتنمية الاقتصادية كانت قضية المراجعة الاستراتيجية المستمرة لدى النخبة البينية ومجالات عمل مراكز التفكير والنقاش في ظل مفاتيح لفهم حرب معلنة من الدول المستهلكة والشركات بهدف الحفاظ على تدني الأسعار وزيادة الإنتاج، وتدوير رأس المال النفطي في صفقات سلاح، وعدم إعطاء المجال أو الفرصة أمام الدول النفطية لأن تشهد

---

(١) عبد الرضا علي الأسيري: الإسلام في دساتير دول مجلس التعاون الخليجي، بحث منشور بمجلة (المجلة العربية للعلوم السياسية، العدد ١٣، شتاء ٢٠٠٧م، بيروت ٢٠٠٧م).

- خلدون حسن النقيب: محنة الدستور في الوطن العربي، العلمانية والأصولية وأزمة الحرية، دراسة منشورة بمجلد عنوانه: الدستور في الوطن العربي، عوامل الثبات وأسس التغيير، (بيروت، ٢٠٠٦، سلسلة كتب المستقبل العربي (٤٧)، مركز دراسات الوحدة العربية)، ص٢٧.

- متروك الفالح: العنف والإصلاح الدستوري في السعودية، دراسة منشورة بمجلة المستقبل العربي، السنة ٢٧، العدد ٣٠٨ (تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤م)، ص٦.

- محمد الرميحي: حركة ١٩٣٨ الإصلاحية في الكويت والبحرين ودبي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، السنة ١، العدد ٤، تشرين الأولى/ أكتوبر ١٩٧٥.

(٢) نزار عبد اللطيف الحديثي وآخرون: الحدود الشرقية للوطن العربي، دراسة تاريخية، (البصرة ١٩٨١م، مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة، ودار الحرية للطباعة).

- جمال سند السويدي: إيران والخليج، البحث عن الاستقرار (أبو ظبي ١٩٩٦م، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية).

- وديفيد لونج وآخرون: أمن الخليج في القرن الحادي والعشرين (أبو ظبي، ١٩٩٨م، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية).

تنمية حقيقية حتى يبقى الاعتماد الدائم على دول الغرب، فضلا عما يثيره موضوع النفط من حساسية النظر إلى شعوب هذه المنطقة على أنها غير منتجة وغير مبدعة فصرخ أحدهم بأن الخليج ليس نفطًا[١].

- تحدث البينيون عن مشكلة الانقسام الحاد والعنيف بين ثلاث قوى رئيسية متصارعة في الإقليم، الخطر الإيراني وما يحمله من نوايا وأطماع لا يحد من غلوائها إلا المواقف الدولية، وأن البرنامج النووي ينظر إليه في التحليل الأخير على أنه يستهدف فرض الوصاية والسيطرة الكاملة على الإقليم وردع أية محاولات لمنع بلوغ هذه الغاية، والعراق الذي اختفى من التأثير الإقليمي منذ العام ١٩٩١م، ثم السعودية التي تصر على التجميع الخليجي الجزروي في منظومة مجلس التعاون، وكل هذه الأوضاع مداخل لتنافس بحثي محموم له سمة البينية في المعنى والمبنى[٢].

-تحدث النخبويون كذلك في مسائل تُعد بمثابة العصب الحساس للمجتمعات الخليجية، وهي تلك المرتبطة بالمخصصات المالية للأسر الحاكمة، واستحواذها على نسب كبيرة من عوائد النفط، فضلا عن شؤون التجارة، والتوكيلات الخاصة بالشركات الكبرى، والوظائف السيادية في الدولة، وكيف أنها لا تحظى بالتمثيل البيروقراطي المتكافئ، وأن المجالس النيابية المعينة لا تجرؤ على مناقشة مثل هذه التابوهات التي دامت لأكثر من قرن من الزمان، وأن عدم استقلال القضاء، والمالية لا يُنبئان بأي مستقبل للعدالة الاجتماعية[٣].

---

(١) محمد الرميحي: الخليج ليس نفطًا: دراسة في إشكالية التنمية والوحدة (الكويت ١٩٨٣م، شركة كاظمة للنشر والترجمة)، صلاح العقاد: الاستعمار والبترول في الخليج العربي، السياسة الدولية، السنة١٣، العدد٨، أبريل، ١٩٨١م.

(٢) جمال سند السويدي وآخرون: مجلس التعاون لدول الخليج العربية على مشارف القرن الحادي والعشرين، (أبو ظبي، ١٩٩٩م، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية)، وكذلك: أحمد إبراهيم محمود: الأزمة النووية الإيرانية تحليل استراتيجيات إدارة الصراع، كراسات استراتيجية، السنة ١٥، العدد ١٤٩، الأهرام، ٢٠٠٥.

(٣) عبد الله الحامد: استقلال القضاء السعودي، عوائقه وكيفية تعزيزه (باريس ٢٠٠٥، منشورات آراب، دمشق، الأهالي: اللجنة العربية لحقوق الإنسان).

- حمد الوردي: البيروقراطية والتمثيل البيروقراطي والتكافؤ في المملكة العربية السعودية، دراسات تحليلية للمخصصات=

في عصر التدوين الإلكتروني (المدونات التويتات) راجت بشكل لافت الكتابات الساخرة عن الأوضاع الاجتماعية والسياسية، والتفاوتات الاقتصادية، وهي مواد يجد منها المؤرخ البيني ضالته في التبصر والتنبه لقضايا المجتمع من خلال الإحصاء الرقمي لأكثر المشكلات إلحاحًا، وكذلك من حيث إضفاء طابع الطرافة على الكتابة التاريخية الجادة، فعلى سبيل المثال: كانت المجموعة القصصية والأدبية عن "بنات الرياض" وما أثارته من جدل عبر شبكات التواصل الاجتماعي سببا مباشرا في مراجعة أوضاع المرأة السعودية وحصولها على المزيد من حقوقها المدنية. وكان المصريون على نحو خاص قد برعوا في هذا اللون وصدروه للكتابة العربية، وكانت من إبداعاتهم في هذا المجال عندما تم تعيين محافظ لمدينة الأقصر ينتمي للجماعة الإسلامية التي هي ضد التماثيل الفرعونية والأثرية، وقد هاجمت السياح في عام ١٩٩٧م، وفي سخرية لاذعة لاختيارات جماعة الإخوان المسلمين للقيادات، أن استقبله الأهالي بلافتة مكتوب عليها "أهلًا بك في مدينة الأصنام"[(١)].

على هذا النحو مضت المدرسة البينية في كتابة التاريخ المعاصر للنخبة الجديدة، يحدوها الأمل في تناول الموضوعات المسكوت عنها، والحديث عن الفاعلين غير الرسميين والمهمشين، ودورهم في صناعة التاريخ والتأثير في مجرياته، والتنبيه إلى سقوط خرافة الحياد وعدم الانحياز

- المالية، سلسلة أطروحات الدكتوراه (٥٥)، (بيروت، ٢٠٠٦، مركز دراسات الوحدة العربية).

- محمد بن صنيتان: النخب السعودية، التحولات والإخفاقات (بيروت، ٢٠٠٥، مركز دراسات الوحدة العربية).

- وعن حياة الهامشيين والفاعلين غير الرسميين في التاريخ انظر هذا اللون من الكتابة في: "المسح الاستطلاعي يكشف: رداءة السكن في القنفذة، وسرقات بالليث ومخدرات في حقل وصناديق للمعيشة في قرى الباحة وعشش في جيزان، وثقافة اللامبالاة في الإحساء والقطيف، جريدة الوطن السعودية: ٢١/٢/٢٠٠٥م.

(١) عن هذا اللون من الكتابات انظر: محمد جابر الأنصاري: لمحات من الخليج العربي، دراسات في تاريخ الخليج وثقافته ورجاله وفولكلوره الشعبي، (المنامة: الشركة العربية للوكالات والتوزيع، أسرة الأدباء والكتاب، ١٩٧٠م. وكذلك: جيمس سكوت: المقاومة بالحيلة، والنكتة والحكاية، كيف يهمس المحكومون من وراء ظهر الحاكم، ترجمة إبراهيم العرين، وخايل فوزي (بيروت، لندن: دار الساقي ١٩٩٥م)، محمد عبد اللطيف الصعير: الأقصريون يستقبلون المحافظ الجديد بجرافيتي: «أهلا بك في مدينة الأصنام»، جريدة الوطن المصرية عدد يوم ١٩/٦/٢٠١٣م، ص١٨.

في الكتابة التي جعلت من التاريخ علما جامدا وثابتًا لا يتحرك بل وعقيما، وأن الثورة المعرفية الهائلة على صعيد المناهج، وتكنولوجيا المعلومات والتوثيق، وآليات العولمة قد جعلت من التاريخ علمًا يوتوبيًّا يتخيله البشر وصُنَّاعُه، وكُتَّابُه، فلم تعد موضوعاته ماضوية كما كانت، وإنما التاريخ الحق هو "علم صناعة المستقبل"؛ بناءً على الخبرات المتراكمة والجهد الذهني والعقلي المبذول في الحاضر، هذه النقلة الهائلة هي التي جعلت من التاريخ المعاصر علما قابلا لأنْ يخضع للتخطيط، شأنه في ذلك شأن كافة العلوم التطبيقية، بعدما أثبتت الوقائع والأحداث أن العالم كله قد وقع في فخ الخداع الاستراتيجي الكبير.

* * *

مَوْقِفُ الوِلَايَات المُتَّحِدَةُ الأَمْرِيكِيَّة

إِزَاء ثَوْرة بُوليفيا ١٩٥٢م

محمد عبد الباسط محمد العناني

كانت تعمل سياسة الولايات المتحدة على أن تدور أمريكا اللاتينية في فلكها - خاصة في فترة الخمسينيات من القرن العشرين - التي شهدت عدة ثورات في دول أمريكا اللاتينية، كان من أولها وأهمها ثورة بوليفيا (١٩٥٢م)؛ إذ كان صُنَّاع القرار في واشنطن يعتمدون على الخبرات المتراكمة عبر تاريخ العلاقات الأمريكية- البوليفية فيما قبل الثورة، من أجل تقرير سياسة الولايات المتحدة إزاء ثورة بوليفيا.

مثلت الفترة الممتدة من حرب شاكو (١٩٣٢- ١٩٣٥م) بين بوليفيا وباراجواي وانتخابات ١٩٥١م، مرحلة من أهم مراحل العلاقات الأمريكية البوليفية؛ إذ إنه تم تهديد مصالح الولايات المتحدة بشكل كبير بعد تأميم بوليفيا لممتلكات شركة "ستاندرد أويل" Standard Oil عام ١٩٣٧م، وكان حزب الحركة القومية الثورية من أقوى وأهم المدافعين عن قرار التأميم؛ لذلك عارضت الولايات المتحدة بشدة وصولها للحكم، بعد توليها بعض الحقائب الوزارية في حكومة بيارويل عام ١٩٤٣م مقابل دعمها له في الانقلاب في العام نفسه، ولم تعترف بحكومته إلا بعد استبعاد وزراء الحركة القومية الثورية، وعملت كثيرًا من أجل إسقاط حكومة "بيارويل" بأكملها ونجحت في ذلك في عام ١٩٤٦م. بدأت بوليفيا في هذا العام ما يُطلق عليه في تاريخها فترة السنوات الست (١٩٤٦- ١٩٥٢م)، التي ازداد فيها السخط الشعبي، حتى وجدت متنفسًا في انتخابات مايو ١٩٥١م، ومن ثم الثورة في العام التالي.

وكانت قد أجريت الانتخابات البوليفية في مايو ١٩٥١م، والتي حصل فيها "باس

استنسورو" [١] مرشح الحركة القومية الثورية على المركز الأول بأكبر عدد من الأصوات، بنسبة ٤٣٪ على الرغم من أنه كان لا يزال في منفاه بالأرجنتين[٢]، كما فاز "سيلس سواسو" مرشح الحركة القومية الثورية بمنصب نائب الرئيس بالنسبة نفسها[٣]، بذلك حصلت قائمة الحركة القومية الثورية على منصبي الرئيس ونائبه على المركز الأول.

لكن ظهرت مشكلة دستورية، إذ إن قائمة استنسورو- سواسو لم تحصل على الأغلبية المطلقة بنسبة ٥٠٪ بالإضافة إلى صوت واحد من مجموع الأصوات، وطبقًا للدستور البوليفي آنذاك ترجع الأمور إلى الكونجرس البوليفي لكي يختار الرئيس من بين المرشحين اللذين حصلا على أعلى نسبة أصوات[٤]. وقد شكل هذا الموقف مأزقًا بالنسبة لحكومة "يولاجواتيا" (١٩٤٩-١٩٥١م)، خاصة وأن الحركة القومية الثورية حاولت في عام ١٩٤٩م الاستيلاء على الحكم بالقوة، لذلك كان من الصعب أن تتنازل عن سلطة اكتسبتها بآلية ديمقراطية في حالة استبعاد

---

(١) كان استنسورو و سواسو من مؤسسي الحركة القومية الثورية، وقد خاضا الانتخابات على قائمة واحدة ليكون استنسورو الرئيس وسواسو النائب. تولى استنسورو حكم بوليفيا مرتين (١٩٥٢- ١٩٥٦م) و (١٩٦٠- ١٩٦٤م)، أما سواسو فتولى حكم بوليفيا في الفترة (١٩٥٦- ١٩٦٠م)، انظر:

-Whitehead, Laurence: *The Emergence of Democracy in Bolivia; in Crabtree, John andWhitehead,Laurence* (eds.):Towardsdemocraticviability: the Bolivianexperience (New York: Palgrave, 2001),p. 544.

(٢) *Foreign Relations of the United States* (FRUS). 1951. Vol. II. The United Nations. Memorandum by the Secretary of State to the President. Secret. Washington. May 30, 1951. (Washington: United StatesGovernmentPrinting Office. 1979). p. 1150.

(٣) *Foreign Office* (F.O.). 497/18730. Confidential.Part5.Further Correspondence Respecting Other South American Countries (Bolivia. Chile. Colombia. Ecuador. Peruand Venezuela). Mr. Blackhamto Mr. Morrison. Political Situation in Bolivia: Assumption of Power by a Military Junta. La Paz. 17th May. 1951. AX 1015/12.

(٤) F.O. 497/18730. Confidential.Part5. Mr. Blackham to Mr. Morrison. Political Situation in Bolivia: Assumption of Power by a Military Junta. La Paz. 17th May. 1951. AX 1015/12.

الكونجرس لاستنسورو من منصب الرئيس واختيار مرشح الحكومة الرسمي والذي حصل على المركز الثاني.

تغلب يولاجواتيا على تلك المعضلة، بقراره التخلي طواعية عن منصبه كرئيس وتسليم السلطة التنفيذية للجيش[١]، وقام بتسليم السلطة بالفعل في السادس عشر من مايو ١٩٥١م رسميًّا إلى الجنرال "باليبيان" رئيس مجلس القيادة العسكري[٢] واستقل بعدها طائرته ليذهب إلى شيلي[٣]. وكان أول قرارات المجلس العسكري بعد استلام السلطة هو إلغاء انتخابات ٦ مايو ١٩٥١م وإلغاء تفويض كل أعضاء الكونجرس[٤]، بالإضافة إلى حل الحركة القومية الثورية على أساس أنها تشكل تحالفًا خطيرًا بين النازيين والشيوعيين[٥].

العصيان المدني المسلح (٩- ١٤ أبريل ١٩٥٢م)[٦]

تولى المجلس العسكري حكم بوليفيا في وقت كانت تعاني فيه من أزمة اقتصادية هددت

---

(١) FRUS, 1951, Vol. II, Memorandum by the Secretary of State to the President. Secret. Washington. May 30, 1951, p. 1151.

(٢) تولى مجلس القيادة العسكري البوليفي السلطة بعد تنازل يولاجواتيا، وكان يتكون من عشر قيادات من الجيش البوليفي، وعلى رأسهم الجنرال «هوجو باليبيان» كرئيس للمجلس ووزير للدفاع، لمزيد من التفاصيل حول قيادات المجلس العسكري البوليفي وسيرهم الذاتية؛ انظر:

F.O. 497/18730, Confidential,Part5, Mr. Blackham to Mr. Morrison, Political Situation in Bolivia: Assumption of Power by a Military Junta, La Paz, 17th May, 1951, AX 1015/12.

(٣) F.O. 497/18730, Confidential,Part5, Mr. Blackham to Mr. Morrison, Political Situation in Bolivia: Assumption of Power by a Military Junta, La Paz, 17th May, 1951, AX 1015/12.

(٤) FRUS, 1951, Vol. II, Policy StatementPrepared in the Department of State, Secret, Washington, Dec. 19, 1951, p. 1170.

(٥) فرجسُون، ج. هالكرو: المرجع السابق، ص ١٢٢.

(٦) جاء استخدام مصطلح «عصيان مدني مسلح» في هذا الموضع؛ لأن ما شهدته بوليفيا في تلك الفترة كان عبارة عن قتال ما بين العمال المسلحين والجيش، والذي أصبح بعد ذلك بداية رسمية لانطلاق ثاني ثورة اجتماعية بعد الثورة المكسيكية ١٩١٠م- في أمريكا اللاتينية في القرن العشرين.

مركزه السياسي الجديد؛ إذ انخفض الإنتاج المعدني من القصدير، بالإضافة إلى أن مناجم القصدير البولفية واجهت منافسة كبيرة من جانب مناجم أندونيسيا، وازداد الأمر سوءًا بانخفاض سعر القصدير، وأدت كل هذه العوامل إلى حدوث انهيار في قيمة القصدير التي انخفضت من حوالي ٧٨ مليون دولار في عام ١٩٥٠م إلى ٥٩.٣ مليون دولار في عام ١٩٥١م[١]، وكانت الأزمة الاقتصادية قد وصلت إلى مداها، في بداية عام ١٩٥٢م، إذ عجزت الأسواق البوليفية عن إيجاد اللحم أو الخبز، ولم يتحسن الموقف إلا قليلًا عندما استطاع المجلس العسكري الحصول على قروض قصيرة الأمد من بنوك الولايات المتحدة من أجل توفير بعض المخزون الغذائي في البلاد[٢]، لكن لم تعالج تلك القروض أزمة بوليفيا الاقتصادية ولم تعالج أزمة المجلس العسكري السياسية؛ حيث مثل القصدير المصدر الرئيس للنقد الأجنبي والذي من خلاله كانت بوليفيا تستورد ما يقرب من نصف الغذاء الذي كان يحتاجه شعبها، ومن ثم تبعت الأزمة الاقتصادية أزمة أخرى سياسية كانت بمثابة عائق أمام محاولات المجلس العسكري لترسيخ سلطته الجديدة.

عمل المجلس العسكري في اتجاهين من أجل التغلب على تلك الأزمة: الأول، أن "توريس أورتيس" Torres Ortiz - أحد قيادات المجلس العسكري - طلب في أواخر فبراير ١٩٥٢م من الحركة القومية الثورية عقد هدنة مع وعد بانتخابات مبكرة بقواعد دستورية صارمة مقابل وقف المظاهرات وتأييد الحزب للحكومة من أجل إيجاد حلول هادئة للمشكلات البوليفية. والاتجاه الثاني، أنه قام بالتفاوض مع الولايات المتحدة على عقد لشراء القصدير بسعر محدد[٣]، من أجل حل أزمتيه الاقتصادية والسياسية.

(١) PIKE, FREDRICK B: *The United States and The Andean Republics: Peru, Bolivia, and Ecuador* (London, England: Harvard University Press, Cambridge, and Massachusetts,1977), p. 282.

(٢) DORN, GLENN J: *the Truman Administration and Bolivia: Making the World Safe Liberal Constitutional Oligarchy*,(Pennsylvania: the Pennsylvania State University Press, 2011), p. 164.

(٣) BLASIER, COLE: *the Hovering Giant*: «U.S. Responses to Revolutionary Change in Latin America 1910-1985», Revised Edition, (Pittsburgh : University of Pittsburgh Press, 1989), p. 30.

فشلت محاولات توريس من أجل عقد هدنة مع الحركة القومية الثورية بعد أن رد المجلس العسكري على جولة من المظاهرات ضد نقص الغذاء بالقبض على قادة الحزب[١]، بالإضافة إلى أن مفاوضاته مع الولايات المتحدة لم تجر على ما يُرام، واختلف الطرفان على سعر القصدير؛ حيث كان السعر العالمي للقصدير ١,١٨ دولار للرطل، وكانت قد وقعت "مؤسسة تمويل إعادة الإعمار" Reconstruction Finance Corporation (RFC) بالولايات المتحدة الأمريكية عقود قصدير مع بريطانيا وأندونيسيا وبلجيكا على نفس السعر العالمي آنذاك، واتفق معها الأطراف الثلاثة على أنه إذا أخذت بوليفيا سعرًا أفضل سيسري ذلك على الجميع، في حين أن المفاوض البوليفي كان يُصِرُّ على سعر ١,٢٥ دولار مستشهدًا بأن تكلفة إنتاج القصدير البوليفي هي الأعلى بين الدول المنتجة للقصدير، لكن لم توافق واشنطن على هذا السعر، وكان موقفها هو الأقوى، إذ إن بوليفيا ليس لديها سوقٌ آخر تبيع فيه القصدير[٢]، ومن ثم فشلت بذلك مساعي المجلس العسكري لحل أزماته سواء الاقتصادية أو السياسية.

كان فشل المفاوضات مع الولايات المتحدة حول عقد القصدير، وكذلك السخط الشعبي الناتج عن الأزمة الاقتصادية سببًا في إضعاف قوة المجلس العسكري وزيادة قوة الحركة القومية الثورية[٣]، ومن ثم وصل السخط الشعبي إلى مداه، ولم يكن هذا السخط الشعبي نتيجة للأزمة الاقتصادية فقط المصاحبة لفشل المجلس العسكري في مفاوضاته مع الولايات المتحدة لتوقيع عقد لشراء القصدير، ولكنه كان نتيجة لسياسات اقتصادية غير ناجحة وظلم اجتماعي كان يعاني منه الشعب البوليفي.

---

(١) Loc. Cit.

(٢) FRUS, *1952-1954, Vol. IV, the American Republics*, Memorandum by the Assistant Secretary of State for Economic Affairs (Thorp) and the Assistant Secretary of State for Inter- American Affairs (Miller) to the Secretary of State, Confidential, Washington, April 2, 1952,pp. 486, 487.

(٣) BLASIER, COLE: *the United States and the Revelution, In Malloy*, James M & Thorn, RICH- - ARD S. (EDS.): *Beyond the Revolution: Bolivia Since 952*, (United States: University of Pittsburgh 1971), p. 63.

سلك المجلس العسكري طريقا آخر مع الولايات المتحدة، بعد ازدياد خطر الأزمة الاقتصادية ومن ثم السخط الشعبي، إذ كتب "باليبيان" Ballivian - رئيس المجلس العسكري ورئيس بوليفيا- إلى الرئيس الأمريكي "ترومان" Truman (١٩٤٥-١٩٥٣م) يطلب منه التوسط من أجل إبرام عقد لشراء القصدير بسعر مربح لبوليفيا، فاستدعت وزارة الخارجية الأمريكية السفير البوليفي للرد على خطاب باليبيان وأخبرته بأنه ليس هناك أمل على الإطلاق في زيادة سعر القصدير، وأن الولايات المتحدة تخطط لتقديم قروض بقيمة ٥,٥ مليون دولار لبوليفيا لمساعدتها في التغلب على مشكلاتها الداخلية[١]، ولكن الأوضاع في بوليفيا تدهورت قبل اعتماد تلك القروض.

حدثت خلافات داخل المجلس العسكري، نتيجة للموقف الاقتصادي والسياسي البوليفي المتأزم، وصلت إلى اتهام بعضهم البعض بمحاولات الانقلاب[٢]، ولم تكن تلك مجرد اتهامات، حيث كانت الحركة القومية الثورية تُعِد لعمل انقلاب على الحكم في يوم الجمعة العظيمة الموافق الحادي عشر من أبريل ١٩٥٢م بالاشتراك مع "الجنرال سليم" General Seleme[٣] وقائد عمال المناجم، "لاشين" Lechin[٤]. وبدأ الجنرال سليم تنفيذ خطته مع

---

(١) Ibid, pp. 485, 486.

(٢) Wagner, Maria Luise: *Reformism in the BolivianArmed Forces*: Juan Jose Torres: A Case Study, Dissertation, the Faculty of GraduateSchool, Georgetown University, Washinghton, D.C., 1986, p. 14.

(٣) كان أحد أعضاء المجلس العسكري ووزيرًا للشرطة القومية البوليفية، كما كان من أصل عربي، انظر: F.O. 497/18730, Confidential,Part5, Mr. Blackham to Mr. Morrison, Political Situation - in Bolivia: Assumption of Power by a Military Junta, La Paz, 17th May, 1951, AX 1015/12.

(٤) كان لاشين من أصل عربي، كما أنه كان يُعد من أكثر قواد العمال نفوذًا؛ إذ إنه أسس اتحاد عمال المناجم في ١٩٤٤م، ثم أسس اتحاد عمال بوليفيا في عام ١٩٥٢م، بعد نجاح الثورة مباشرة، واكتسب نفوذه من دوره في قتال العمال مع الجيش في أحداث أبريل ١٩٥٢، انظر: مورينو، خوسى ألبيرتو وآخرون: الجاليات العربية في أمريكا اللاتينية، دراسة حالات (المكسيك- شيلي- البرازيل- بيرو- باراجواي- الأرجنتين)، ط١، ترجمة وإشراف: عبد الواحد أكمير، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦م)، ص ص ٥٤- ٥٥.

الحركة القومية الثورية، حيث طالب بعقد انتخابات مبكرة، ، في اجتماع مجلس الوزراء يوم الثلاثاء الموافق الثامن من أبريل ١٩٥٢م، ومن ثم نشأ نزاع حول هذا المطلب، ووجَّه الوزراءُ الباقون الاتهامات له، فطلب بالبيان من الجنرال سليم تقديم استقالته ولكنه رفض، فما كان من باقي الوزراء إلا أنهم قاموا بتقديم استقالاتهم اعتراضًا على موقف الجنرال سليم، مما حدا بسليم إلى ترك الاجتماع[١].

لم يكن موقف سليم هذا دعمًا للحركة القومية الثورية، بل إنه كان نابعًا من مصلحته الشخصية فقط، والدليل على ذلك أنه كان من ألد المعارضين للجنرال توريس أورتيس عندما سعى للمفاوضات مع الحركة القومية الثورية من أجل عقد هدنة، وكان بعيدًا عن أية حلول توافقية، ولكنه تعاون معها بعد ذلك من أجل عمل انقلاب؛ لأنه كان على وشك أن يُطاح به من منصبه كوزير للشرطة في الخطة الحكومية لإعادة الهيكلة، ولذلك قام بعقد صفقة مع سواسو نصت على دعم قوات الشرطة للثوار في مقابل القيادة العسكرية للثورة والرئاسة حتى يتم إجراء انتخابات في أكتوبر ١٩٥٢م[٢]. أما الحركة القومية الثورية، فكانت ترى أن نجاحها في الوصول إلى الحكم يعتمد على دعم أحد قيادات الجيش لها، وكان اعتقادها هذا نابعًا من تجربتها السابقة للوصول إلى الحكم عام ١٩٤٣م بالتعاون مع مجموعة من الضباط ذوي الرتب العسكرية الصغيرة من الشباب.

دفع خبر الإطاحة بسليم من المجلس العسكري، الحركة القومية الثورية إلى تقديم موعد الثورة يومين لتتحرك في التاسع من أبريل ١٩٥٢م[٣] ، أما سليم فرد على خبر الإطاحة به بتوجيه التعليمات لقوات الشرطة التابعة له، في وقت متأخر من يوم الثامن من أبريل،

---

(١) F.O. 497/18990, Confidential, Further Correspondence Respecting Other South American Countries (Bolivia, Chile, Colombia, Ecuador, Peru and Venezuela), Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Coup D'etat in Bolivia, La Paz, 17th April,1952, AX 1015/25.

(٢) DORN, GLENN J: op. cit, p. 164.

(٣) Loc. Cit.

بمحاصرة قصر الرئاسة، ولكن كان قد تم تحذير الرئيس والوزراء الآخرين فهربوا من القصر؛ إذ ذهب باليبيان إلى الكلية العسكرية، وذهب توريس أورتيس ليقود الحاميات العسكرية في العاصمة البوليفية "لاباس" La Paz، بينما فر الوزراء الباقون إلى عدة سفارات أجنبية طالبين اللجوء السياسي، وفشلت خطة سليم في الإمساك بالمجلس بأكمله(١)، فقام بفتح مخازن الأسلحة التي كانت تحت سيطرته، وسلم كل محتوياتها لعمال المناجم من أجل معركتهم مع الجيش البوليفي(٢).

روى السفير البريطاني، في تقريره إلى رئيس الوزراء، تفاصيل القتال بين العمال المسلحين من جانب، والجيش البوليفي من جانب آخر، ، إذ ذكر أنه في الساعات الأولى من صباح يوم الأربعاء التاسع من أبريل ١٩٥٢م بدأ العمال في أخذ أماكنهم تدريجيًّا للسيطرة على المخارج الرئيسة للعاصمة لاباس، وهذه المخارج كانت عبارة عن ممرات يسهل السيطرة عليها، وكانت أغلب أعمال القتال في الأيام الثلاثة التالية من أجل السيطرة على هذه الطرق، حتى اتضح ضعف الجيش وبدأ الجنود في التراجع من كل أماكن القتال، ولم يبق حتى يوم الجمعة الحادي عشر من أبريل ١٩٥٢م أية مراكز مقاومة إلا الكلية العسكرية، وفي صباح يوم السبت الثاني عشر من أبريل كانت قد سقطت لاباس في أيدي الحركة القومية الثورية وتوقفت المقاومة لتستمر فقط بعض الصحفي العمل منادية بحكومة مؤقتة برئاسة سواسو(٣)، استنادًا على نتيجة انتخابات مايو ١٩٥١م التي فازت فيها قائمة استنسورو سواسو؛ ولأن استنسورو كان ما زال

---

(١) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Coup D'etat in Bolivia, La Paz, 17th April, 1952, AX 1015/25.

(٢) F.O. 497/19413, Secret, Correspondence Respecting Other South American Countries (Bolivia, Chile, Colombia, Ecuador, Peru and Venezuela), Part 7, January to December 1953, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Bolivia: *Annual Review for 1952*, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1.

(٣) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax to Mr.Eden, Coup D'etat in Bolivia, La Paz, 17th April, 1952, AX 1015/25.

بمنفاه، لم تقتصر أعمال القتال على العاصمة فقط، بل امتدت إلى عواصم مقاطعات بوليفيا المختلفة(١)، واستطاع عمال المناجم، وعمال المصانع، والسكك الحديدية، وسكان المدن، وبعض قوات الشرطة، بالتعاون مع بعض ضباط الجيش الساخطين، على قوات الجيش في كل هذه المقاطعات، لكن كانت معركة العاصمة هي الأهم بالنسبة لقادة الحركة القومية الثورية؛ ذلك لأنهم تعلموا درس الماضي عندما هزمتهم قوات الجيش في أثناء عصيان ١٩٤٩م بسبب عدم سيطرتهم على العاصمة على الرغم من سيطرتهم على باقي المقاطعات(٢).

أدت الأيام الثلاثة من القتال إلى انهيار الجيش، نتيجة لفتح مخازن الأسلحة أمام العمال وتوزيع السلاح عليهم بشكل واسع، ومن ثم تنظيم الميليشيات الحضرية والقروية لقتال الجيش، وكذلك محايدة الشرطة ودعم بعض عناصرها للحركة القومية الثورية(٣)، إلى جانب انضمام بعض الضباط ذوي الرتب الصغيرة من الشباب إلى جانب العمال ليقاتلوا معهم أو يقدموا إليهم الدعم(٤)، في حين أن أغلب القيادات العسكرية التي كانت ضمن المجلس العسكري وقد هربت وتركت مواقعها خالية؛ كل ذلك أدى في النهاية إلى إضعاف الجيش في قتاله أمام العمال ومن ثم هزيمته وسقوطه.

أما بالنسبة للجنرال سليم، فإنه كان قد سحب دعمه للحركة القومية الثورية والعمال

---

(١) كان هناك أعمال قتال في الفترة من ٩-١١ أبريل في مقاطعات الدولة الأخرى مثل «بوتوسي» و "سانتا كروس" و"كونشابامبا" و "أورورا" و "تاريخا"؛ للمزيد انظر:

KOHL, JAMES V: *Peasant and Revolution in Bolivia*, April 9, 1952-August 2, 1953, the Hispanic American HistoricalReview, Vol. 58, No. 2 (May, 1978), p.239.

(٢) Ibid, 239, 240.

(٣) KLEIN, HERBERT S: *A Concise History of Bolivia*, ed. 2, (Cambridge: Cambridge University Press, 2011), p. 212.

(٤) DANGL, BENJAMIN: *the Price of Fire: resourceWars and Social Movements in Bolivia*, (Edinburgh Oakland, West Virginia: AK Press, 2007), p. 20.

بعد أن أظهر الجيش إصرارًا على المقاومة[١]، بالإضافة إلى تصدي الجنرال توريس أورتيس له واستطاعته استعادة التوازن في بداية القتال بعد أن كان سليم قد سيطر على القصر الرئاسي وترسانة أسلحة الجيش والمحطات الإذاعية الرئيسة. أمام مقاومة الجنرال توريس من ناحية ومحاولات الحركة القومية لإبعاده عن الصورة من ناحية أخرى، استسلم سليم وطلب اللجوء السياسي لدى سفارة شيلي[٢]، وقام سواسو القائد الدائم لحزب الحركة القومية الثورية بتولي مسؤولية قيادة الثورة[٣]، وعند تلك اللحظة أذاعت المحطات الإذاعية التابعة للحركة القومية الثورية: "إما اليوم أو غدًا" في إشارة إلى انتصار الحركة القومية واحتياجها للدعم الشعبي؛ واستجاب الكثير من البوليفيين ونزلوا لمساندة ميليشيات الحركة القومية الثورية لتحويل الانقلاب العسكري إلى ثورة شعبية[٤].

هكذا، تحول الانقلاب العسكري المدني، كما رتبت له الحركة القومية الثورية بالتعاون مع الجنرال سليم من أجل الوصول إلى مناصبهم التي حصلوا عليها بالانتخابات؛ إلى عصيان مدني مسلح عندما احتل العمال وسكان المدن المسلحين مكان الصدارة لمواجهة القوات الحكومية، إذ بدأت الأحداث تصطبغ بلون الثورة مساندة معظم طوائف الشعب البوليفي للحركة القومية الثورية.

في الحقيقة، كانت الولايات المتحدة تتوقع حدوث الثورة في بوليفيا، وناقشت كذلك احتمالية أن تأتي حكومة غير متعاونة مع الولايات المتحدة إلا على مضض، وهذا ما جاء نصًا في تقرير السياسات الذي أعدته وزارة الخارجية الأمريكية في ديسمبر ١٩٥١م، أي قبل الثورة بأربعة أشهر، حيث أوضح: "... أن المصاعب المحلية يمكن أن يكون لها تأثير عكسي على إنتاج بوليفيا للمواد الاستراتيجية، كما أن الثورة الناجحة والمتوقعة في ظل الموقف الحالي لهذه

(١) .PIKE, FREDRICK B: op. cit. p. 282

(٢) .DORN, GLENN J: op. cit. pp. 164, 165

(٣) F.O. 497/19413, Secret, Part 7, January to December 1953, Mr. Garnett Lomax to .Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for 1952, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1

(٤) .DORN, GLENN J: op. cit. p. 165

الدولة - بوليفيا يمكن بشكل كبير أن تأتي بحكومة لا تتعاون مع الولايات المتحدة إلا على مضض"[١]، وهذا التصور لدى وزارة الخارجية كان نابعًا من انزعاجها من أهداف الثورة المعلنة في برنامج الحركة القومية الثورية، الذي جاء فيه[٢]:

١- إنهاء السيطرة الاقتصادية والسياسية للإقطاعيين من خلال توزيع الأراضي على الفلاحين.

٢- إنهاء القوة الاقتصادية والسياسية لبارونات القصدير والصفوة المالية الحاكمة من خلال تأميم المناجم الكبرى.

٣- إعلان ملكية الحكومة للقطاعات الاقتصادية المهمة.

٤- السيطرة على الحكومة المركزية عن طريق التحالف مع العمالة المنظمة والطبقة الوسطى والفلاحين.

٥- مناهضة الامبريالية في العلاقات الخارجية، بما في ذلك الموقف المعارض والناقد لامبريالية الولايات المتحدة.

كانت الثورة بالنسبة للولايات المتحدة مرادفة للشيوعية، فقد سيطرت عليها فكرة أن أي تغيير أو ثورة على الأوضاع التي ورثتها أمريكا اللاتينية من مستعمريها الأسبان، سيكون سببًا في تقديم أمريكا اللاتينية إلى الشيوعية دون أي جهد من جانب الأخيرة، إذ كان مخطط الشيوعية، من وجهة نظر صناع القرار في واشنطن، قيادة ثورة ديمقراطية برجوازية قومية تسبق الصعود الشيوعي للسلطة[٣]، وفي حالة بوليفيا، وكان هناك خطر آخر من وجهة نظرهم

---

(١) FRUS, 1951, Vol. II, Policy Statement Prepared in the Department of State, Secret, Washington, Dec. 19, 1951, p. 1182.

(٢) BLASIER, COLE: *the United States and the Revolution*, op. cit, p.54.

(٣) نجلاء سعيد أحمد مكاوي: سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه المد الشيوعي في أمريكا اللاتينية ١٩٥٤-١٩٦٥، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ٢٠١٢م، ص٤٤.

متمثل في انتشار "البيرونية" Peronism التي كانت تنتشر شمال الأرجنتين[١]، بالإضافة إلى خطر هيمنة المزارعين المدججين بالأسلحة وميليشيات العمال ذات التأثر القوي بالماركسية على البلاد خاصة في ظل انهيار الجيش[٢]. كان هناك بذلك عدة أخطار تهدد بوليفيا من وجهة نظر صناع القرار السياسي في واشنطن ومن ثم تهديد المصالح الأمريكية، وكان على واشنطن التعامل مع الوضع الجديد وفق سياسة تهدف إلى القضاء على تلك الأخطار والحفاظ على مصالحها في بوليفيا، ومن ثم في القارة بأكملها.

موقف الولايات المتحدة إزاء وصول الحركة القومية الثورية للحكم في بوليفيا:

أصبحت الحركة القومية الثورية، بعد معركة ثورية دامت ثلاثة أيام، مسيطرة على بوليفيا وبيدها مقاليد الحكم[٣]، حيث تولى سواسو رئاسة بوليفيا - بشكل مؤقت لمدة ثلاثة أيام[٤]، وبمجرد تولّيه الرئاسة اتصل باستنسورو في منفاه في "بوينس آيرس" Buenos Aires، عاصمة الأرجنتين ليعود إلى بوليفيا[٥]، ووصل بالفعل إلى لاباس في الخامس عشر من أبريل ١٩٥٢م، وبمجرد خروجه من الطائرة، قوبل بحشد من الشعب يحملون لافتات مكتوب عليها "تأميم المناجم" و"الإصلاح الزراعي" و"مرحبًا أبو الفقراء"[٦]، وفي اليوم التالي، حلف

(١) SIEKMEIER, JAMES F: *Trailblazer Diplomat*: «Bolivian Ambassador Víctor Andrade - Uzquiano'sEfforts to Influence U.S. Policy 1944–1962», DiplomaticHistory, Vol. 28, No. 3 (June .2004), p. 391

(٢) ZUNES, STEPHEN: *the United States and Bolivia*: «the Taming of a Revolution, 1952-1957, .Latin American Perspectives», Vol. 28, No. 5, Free Trade and Resistance (Sep., 2001), p. 34

(٣) .SEIBIN, ERIC: *Modern Latin American revolutions*, ed.2, (USA: West viewPress, 1999), p.35 -

(٤) PELAEZ, RAUL LEMA: *Memorias Para la Historia del MNR 1952- 1977*, Cartas de Victor Paz-.Estenssoro, (La Paz: R. LemaPeláez, 1992), p. 1

(٥) .DORN, GLENN J: op. cit, p. 165

(٦) .DANGL, BENJAMIN: op. cit, p. 20

استنسورو اليمين الدستورية ليتولى رئاسة بوليفيا[١]، وتولى سواسو منصب نائب الرئيس[٢]. واختار استنسورو لغة "أيمارا" Aymara - التي يتحدثها معظم الشعب البوليفي- ليبدأ بها أولى كلماته في خطابه الرئاسي الأول، ليوعدهم بأنه سيكون هناك المزيد من الخبز[٣].

اهتمت وزارة الخارجية الأمريكية بما يحدث في بوليفيا، ففي اجتماع أعضاء مكتب وزير الخارجية في الحادي عشر من أبريل ١٩٥٢م، في أثناء المعركة الثورية في بوليفيا، سأل وزير الخارجية الأمريكي، «أتشيسون» Acheson (١٩٤٩- ١٩٥٣م) عن الموقف في بوليفيا، فأجابه مساعده، "ميلر" Miller، قائلًا: "من الواضح أن هذا الانقلاب هو حرب داخلية، ولكنه لسوء الحظ يمكن أن يُشكِّل جزءا من الصعوبات التي تواجهنا مع بوليفيا تجاه القصدير، وإن لم يكن هناك تغيير في الحكومة فسنمضي في مفاوضاتنا لشراء القصدير اليوم، وسوف نقدم عرض ١,١٨ دولا ر بالإضافة إلى قرض لبناء مصانع مركزية"[٤]، ولكنه عاد، بعد الإطاحة بحكومة المجلس العسكري ونجاح الثورة وفي اجتماع مكتب وزير الخارجية الأمريكية المنعقد في الثالث عشر من أبريل، وقرر ميلر من جانبه: "نحن لا نستطيع عمل المزيد من المفاوضات مع الشعب البوليفي لتوقيع عقد لشراء القصدير بسبب الإطاحة بالحكومة، وسوف نأخذ وقتنا حتى نتعرف على الحكومة الجديدة"[٥].

امتنعت إدارة الرئيس ترومان، والتي أوشكت ولايتها على الانتهاء، عن الاعتراف بالحكومة البوليفية الجديدة، وأوقفت الدعم المقدم إلى بوليفيا، بعد تأكدها من سيطرة الحركة

---

(١) Morales, Waltraud Q: *A brief history of Bolivia*, ed.2, (New York: Facts on File, - 2010),p.143.

(٢) Zoumaras, Thomas: *the Path to pan Americanism*: «eisenhower's Foreign Economy - PolicyToward Latin America», Dissertation, the University of Connecticut, Connecticut, 1987, p. 84.

(٣) Dangl, Benjamin: op. cit, p. 20.

(٤) Frus, 1952-1954, Vol. IV, Editorial Note, p. 490.

(٥) Loc. Cit.

القومية الثورية على السلطة في بوليفيا[١]، وألغت عقود "التنجستين" Tungsten مع بوليفيا، وأوقفت مفاوضات شراء القصدير، وهذا التصرف الأخير من جانب الولايات المتحدة أزعج حكومة الحركة القومية الثورية كثيرًا[٢]؛ ذلك لأن القصدير من أهم صادرات بوليفيا، وتعتمد عليه بشكل أساسي من أجل الحصول على النقد الأجنبي لشراء المواد الغذائية، خاصة وأنها ورثت الأزمة الاقتصادية من المجلس العسكري.

كانت مسألة اعتراف الولايات المتحدة مهمة بالنسبة للحركة القومية الثورية؛ إذ وعت أنه من دون الاعتراف لن يكون لديهم الفرصة لتلقي المساعدات والمعونات الاقتصادية من الولايات المتحدة[٣]، كما أدرك الجناح البرجماتي داخل الحركة القومية الثورية، منذ البداية، أنه ليس بوسع أية ثورة في بوليفيا أن تتحول بعيدًا عن الولايات المتحدة، وهذا ليس لمجرَّد التهديد بالتدخل المباشر وإنما نظرًا لاحتمالية وقف التعامل الاقتصادي من جانب الولايات المتحدة، خاصة وأن بوليفيا تعتمد عليها لاستيعاب القصدير وتوفير الواردات المطلوبة[٤]. كان من الواضح أهمية عقد شراء القصدير حتى تستطيع بوليفيا التغلب على أزمتها الاقتصادية[٥]، حيث كانت بوليفيا تُعد من أفقر الدول في أمريكا اللاتينية، وعلى الرغم من ثرائها بالموارد المعدنية، ظلت دولة فقيرة بسبب أن الصناعة الاستراتيجية - القصدير - كانت قد ربطت

(١) Keen, Benjamin &Haynes, Keith: *A History of Latin America*, ed.8, (Boston; New York:Houghton Mifflin Harcourt PublishingCompany, 2009), p. 576.

(٢) Bailey, Jennifer Leigh: *Dependent revolution*: «the United States and radical change inBolivia and Cuba», Dissertations, the Faculty of graduate School of International Studies, University of Denver,Denver, 1990, p. 292.

(٣) Siekmeier, James F: *FightingEconomicNationalism: U.S. EconomicAid andDevelopment-Policy toward Latin America 1953–1961*, Dissertation, the Faculty of GraduateSchool,CornellUniversity, New York, January 1993, p. 186.

(٤) Zunes, Stephen: op. cit, 35.

(٥) Bailey, Jennifer Leigh: op. cit, p.292.

نفسها بالسوق العالمي، وقد أدى ذلك، إلى جانب تحكم النخبة، إلى فشلها في استثمار الفائض الكبير الناتج عن صادراتها المعدنية في تكوين احتياطي رأس مال[١]؛ كما كان الطعام هو أكثر الاحتياجات البوليفية إلحاحًا، حيث كانت بوليفيا تتلقى مساعدات غذائية من الولايات المتحدة قبل الثورة[٢]، كما كانت بوليفيا تستخدم نسبة كبيرة من عائدات صادراتها المعدنية من أجل شراء وتوفير حوالي نصف الطعام الذي يحتاجه شعبها.

في الحقيقة، لم تكن ملامح العلاقات بين واشنطن والرجال الجدد في لاباس جيدة في أبريل ١٩٥٢م، وكان قادة الحركة القومية الثورية هم أنفسهم الرجال الذين نعتتهم واشنطن بالنازية خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م)، وتم إبعادهم عن مناصبهم في حكومة بياروبل عام ١٩٤٤م، وعند وصولهم للحكم مرة ثانيّة، كان ترومان لا يزال رئيسًا وكان الحزب الديمقراطي، الذي عارض بقوة، أيضًا، مشاركة الحركة القومية الثورية في مجلس وزراء بياروبل، لا يزال في الحكم[٣]، فكان من الطبيعي، أن تعارض الولايات المتحدة الحركة القومية الثورية بعد ما استطاعت الوصول للسلطة مرة أخرى، وكانت معارضتها هذه نتيجة لتاريخها غير القصير معها ومع قادتها.وباستقراء الوثائق الرسمية للولايات المتحدة يتضح مدى قلقها من الجناح اليساري داخل الحركة القومية الثورية، حيث كان الحزب ينقسم إلى الجناح المعتدل والمكون بشكل كبير من عناصر الطبقة الوسطى بقيادة سواسو، نائب الرئيس، والجناح العمالي المتطرف - حسب وصف المخابرات المركزية الأمريكية له في وثائقها - بقيادة لاشين[٤]، ومما زاد الأمر تعقيدًا، بالنسبة للولايات المتحدة، أنه بمجرد أن جلس استنسورو في القصر الرئاسي قام بتعيين لاشين وزيرًا للتعدين والبترول، وعين حليف لاشين "جرمان بوترون"

---

(١) .Zunes, Stephen: op. cit, 36

(٢) .Ibid, p. 37

(٣) .Blasier, Cole: *the Hovering Giant*, op. cit, pp. 128, 129

(٤) Central Intelligence Agency (CIA). National Intelligence Estimate. NIE-92-54. .Secret,Probable Developments in Bolivia. March 19, 1954

وزيرًا للعمل[١]، إذ كان لاشين رئيسًا لاتحاد عمال المناجم وله الفضل في أن جزءا كبيرا من عمال المناجم تغلب على مقاومة الجيش، ومن ثم نجحت الثورة[٢]، كما أنه في خلال أسبوع بعد الثورة، كان قد تم تشكيل اتحاد العمال البوليفي Central ObreraBoliviana COلتمثيل كل العمال برئاسة لاشين[٣]، فقاد لاشين الجناح اليساري الذي يسيطر على الآلة السياسية والنقابية الخاصة بالاتحادات التجارية، من حيث العدد والنظام والقيادات، والتي هي الأقوى في بوليفيا[٤]، وأصبح لاشين يمتلك قوة سياسية كبيرة وزاد تأثيره في صناعة القرار السياسي البوليفي.

وعلى خط موازي، صنفت وزارة الخارجية الأمريكية أهم مسؤولي بوليفيا من الحركة القومية الثورية لاتجاهين؛ أعضاء ينتمون إلى الجناح المعتدل وآخرين ينتمون إلى الجناح اليساري، حيث صنفهم أتشسون، في مذكراته إلى الرئيس ترومان، قائلًا: "إن نائب الرئيس، سواسو، ووزير خارجيته، والتر أرسا، ووزير ماليته، "فيديريكو جرانيير" Federico Granier، معتدلون، أما لاشين ونائبه - وزير العمل بوترون - على الأقل هما راديكاليّان لأقصى درجة، وهما مَنْ أظهَرَا ميلًا لاستخدام أساليب عنيفة في الماضي، مثل ما حدث في مذبحة "كاتابي" Catavi[٥] منذ ثلاث سنوات"[٦]،واستكمل حديثه قائلًا:

(١) DORN, GLENN J: op. cit, p.167.

(٢) PIKE, FREDRICK: op. cit, p. 492.

(٣) FORAN, JOHN: *Taking Power: on the Origins of Third World Revolutions*, (Cambridge, UK. ; New York: Cambridge UniversityPress, 2005), p. 170.

(٤) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax toMr. Eden, Soviet Ideologies in Bolivia, La Paz, 16th August, 1952, AX 1016/4.

(٥) حدثت مذبحة كاتابي الأولى عام ١٩٤٢م، إذ قام الجيش البوليفي بالتصدي لمظاهرات عمال المناجم غير المسلحين بالقوة وقتل بعض العمال، فأطلق العمال على الحادث مذبحة كاتابي. أما مذبحة كاتابي التي تقصدها وزارة الخارجية الأمريكية فهي عبارة عن حادثة مشابهة حدثت عام ١٩٤٩م، إذ نظم عمال المناجم مظاهرات نتج عنها قتل اثنين من الأمريكيين، فأطلقت وزارة الخارجية على ما حدث نفس الاسم (مذبحة كاتابي) في وثائقها، انظر:

FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, pp. 492, 493; See also, Keen, Benjamin&Haynes, Keith: op. cit, 407.

(٦) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 492.

"وهناك بعض الشك في أنه يوجد صراع على السلطة داخل الحكومة الحالية بين هاتين القوتين المتعارضتين، ولكننا وصلنا لاستنتاج مفاده أن استنسورو هو أقدر فرد في المجموعة - يقصد الحكومة - وأنه سيظل في السلطة"(١)، وكانت وزارة الخارجية الأمريكية تصنف استنسورو مع أصحاب الاتجاه المعتدل(٢)، وخلصت واشنطن إلى أن الحركة القومية الثورية وحكومتها، في ظل انقسامها إلى جناحين، تعاني من صراع داخلي على السلطة لم يظهر بعدُ؛ وأن عليها تحديد موقفها تجاه كل طرف من أطراف الصراع؛ بل إنها ومن خلال الصورة التي رسمتها للحكومة البوليفية، آنذاك، عليها تحديد موقفها إزاء الحكومة بأكملها.

كانت واشنطن قلقة، بشكل كبير، من برنامج لاشين لتأميم صناعة القصدير(٣)، خاصة بعد أن دعا، في أثناء الاحتفال بيوم الولاء البوليفي في ٦ مايو ١٩٥٢م، إلى تأميم مناجم الحديد والسكك الحديدية(٤) إلى جانب مناجم القصدير، وبرَّر ذلك بأن مثل تلك القرارات ليست قرارات شيوعية، ولكنها أساسية للدفاع عن الوطن(٥)؛ وكان الاهتمام الأكبر بالنسبة لها ينصب على مسألة القصدير، وكان السؤال المهم لديها هو هل ستؤمِّم الحركة القومية الثورية صناعة القصدير؟ وإذا حدث ذلك فهل ستقدم التعويض العادل والفوري للمساهمين؟(٦)، إذ كانت مسألة اعتراف الولايات المتحدة بالحكومة الجديدة في بوليفيا معقدة بسبب مطالبة أعضاء

---

(١) Loc. cit.

(٢) DORN, GLENN J: op. cit, p. 167.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret Washington. May 22, 1952, p. 492.

حيشنطن قلقة، بشكل كبير، من برنامج لاشين لتأميم صناعة القصدير نهاصراع داخلي على السلطة لم يظهر بعد

(٤) كانت السكك الحديدية في بوليفيا ضمن الممتلكات البريطانية؛ انظر:

F.O. 497/18990, Confidential, Part 6, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Coup D'etat in Bolivia, La Paz, 17thApril, 1952, AX 1015/25.

(٥) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Points From Cabinet Ministers' Speeches on Loyalty Day, La Paz, 13th May, 1952, AX 1015/59.

(٦) BLASIER, COLE: *the United States and the Revolution*, op. cit, p. 64.

الحركة القومية الثورية بتأميم مناجم القصدير الكبرى الثلاث والمملوكة جميعها للأجانب[١].

كانت واشنطن تبحث مدى قوة احتمالات استمرار حكومة بوليفيا، فأصدر ترومان وأتشيسون تعليماتهما إلى القائم بأعمال السفير الأمريكي في بوليفيا، "توماس ماليدي" Thomas Maleady من أجل تقييم فرص استنسورو في الاستمرار في السلطة، كما أكدا عليه تجنب أية أعمال، في ذلك الوقت، يتم تفسيرها على أنها اعتراف بالنظام الجديد، ورَدَّ ماليدي بأن استنسورو على دراية بالخطر الذي يواجهه، حيث إنه مطوّق بميليشيات عمال المناجم الذين يدين معظمهم إلى لاشين بالولاء، وأكد ماليدي على أنهم يشكلوا خطرًا شديدًا على استنسورو[٢]؛ إذ كانت مسألة العمال المسلحين من أكثر الأمور التي تقلق الولايات المتحدة خاصة وأن الأسلحة، التي استولى عليها العمال بعد اقتحامهم لترسانات الأسلحة في أثناء الثورة، استمرت في حوزتهم، ومما زاد قلقها أن هؤلاء العمال شكلوا ميليشيات منظمة، كانت تزداد كل يوم قوة بسبب هزيمة الجيش والأضرار البالغة التي أُلحقت به[٣].

قام السفير البريطاني في بوليفيا من جانب آخر، بتقييم ذلك الوضع، من حيث انتشار الأسلحة بين العمال وتكوين الميليشيات وازدياد قوة لاشين والجناح اليساري في ظل انهيار الجيش؛ فكتب إلى رئيس الوزراء البريطاني قائلًا: "... بالطبع الموقف الناتج الآن، هو الأفضل لمصالح وأغراض الشيوعية الدولية أكثر من أي وقت مضى في تاريخ بوليفيا، وهذا التقييم، للأسف، هو تقييم صحيح حتى وإن كان لاشين وتابعوه ليسوا مع الفكر السوفيتي نتيجة قناعة ولا أنهم مُنظمين داخله نتيجة ولاء لمساعدة خطط موسكو... ولكن صراعهم - يقصد الصراع بين جناحي الحركة القومية الثورية - ينتج عنه الأجواء التي من خلالها يعرف الشيوعيون كيف يستفيدون... وللأسف أستطيع القول بأن الثورة ساعدت

---

(١) SIEKMEIER, JAMES F: *FightingEconomicNationalism:* op. cit. p. 184.

(٢) DORN, GLENN J: op. cit. p. 172.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret Washington, May 22, 1952, p. 492.

وشجعت أنصار الفكر الشيوعي في أنحاء الجمهورية"[١]، كانت الولايات المتحدة بالطبع تتفق مع التقييم البريطاني بشكل كبير، خاصة وأنه قد تم عمل ميثاق، فيما قبل انتخابات مايو ١٩٥١م، موقَّع من الشخصيات المهمة من الحزب الشيوعي البوليفي[٢] والقيادات النقابية لعمال المناجم وقيادات الحركة القومية الثورية، ونُشر هذا الميثاق في صحف لاباس، وحتى إذا كان هذا الاتفاق مجرد تزييف بيدَ أنه قد بدا أن هناك اتفاقًا ولو ضمنيًا حول دعم الشيوعيين لاستنسورو في الانتخابات في مقابل السماح للشيوعيين بالحرية الكاملة في نشر الصحف والمجلات والأنشطة السياسية الأخرى في حالة كسب استنسورو وسواسو للانتخابات، وقد كان الشيوعيون يريدون ترشيح لاشين على قائمة استنسورو كنائب له، لكنهم في النهاية وافقوا على سواسو[٣]، وهذا ما حدث بالفعل، حيث قدم الشيوعيون دعمهم، بقوة، لقائمة استنسورو وسواسو في انتخابات مايو ١٩٥١م[٤]. وكان هذا الدعم الشيوعي للحركة القومية الثورية من العوامل التي جعلت بعض مسؤولي واشنطن ينعتونها بالشيوعية.

في الوقت نفسه، كان معارضو حزب الحركة القومية الثورية يصفونه لمسؤولي الولايات المتحدة على أنه حزب شيوعي[٥]، وكانت تلك المحاولات لوصفه بالحزب الشيوعي تمثل له تهديدا كبيرا خاصة في أوائل الخمسينيات عندما ازداد التوتر بين الولايات المتحدة والاتحاد

(١) F.O. 497/18990, Confidential. Part6. Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden. Soviet Ideologies in-Bolivia. La Paz. 16th August. 1952. AX 1016/4.

(٢) تأسس الحزب الشيوعي البوليفي في يناير ١٩٥٠م، انظر:
BLASIER, COLE: *the United States and the Revolution,* op. cit, p. 68.

(٣) Loc. Cit..

(٤) F.O. 497/18730, Confidential. Part 5. Mr. Blackham to Mr. Morrison. Elections in Bolivia.La Paz, 8th May. 1951. AX 1015/11 .

(٥) WOOD, BRYCE: *The Dismantling of the Good Neighbor Policy.* (Austin. Texas: University ofTexas Press, 1985), p. 146.

السوفيتي، وحيث إن بوليفيا لم يكن لها علاقات سياسية أو اقتصادية مع الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٢م، فإن حلبة التأثير السوفيتي الوحيدة كانت من خلال الحركة الشيوعية الدولية "الكومنترن"، ولقد اعتمد اتهام الحزب بالشيوعية، بشكل جزئي، على التأثير الثقافي الملتبس الذي مارسته الماركسية على برامجه، وكذلك على تحركات الحكومة الجديدة نحو اليسار[١]، وهذه القضية، كانت من أهم النقاط التي تقلق مسؤولي واشنطن، والتي جعلتهم يترددون في موقفهم من الحركة القومية الثورية[٢]، ويتمهلون حتى يبحثوا مسألة ارتباطها بالشيوعية جيدًا.

كانت واشنطن قلقة أيضًا من خطر عمليات التسلل الأرجنتيني إلى بوليفيا، ومن ثم نشر البيرونية في بوليفيا[٣]، ولقد اتهم بالبيان "بيرون" Pern (١٩٤٦- ١٩٥٥م) بأنه أحد أطراف المؤامرة على حد وصفه التي أطاحت بالمجلس العسكري[٤]، ولكن بيرون نفى أية علاقة له بالثورة البوليفية وقال: "إنه ليس هناك دليل على أن الأرجنتين متورطة وأنها تفاجأت بالثورة"[٥]، وعلى أية حال، فمن المؤكد أن معظم أعضاء الحركة القومية الثورية قد احتموا بقصر بيرون بعد نفيهم[٦]، وبعد نجاح الثورة مباشرة، هبطت طائرة بيرون الشخصية محملة

---

(١) Blasier, Cole: *the Hovering Giant*, op. cit. p. 131.

(٢) Moulton, Aaron: *Through The Lens of Pater-Americanism*: «A Comparative Analysis of the Eisenhower Administration's Perception of Guatemala and Bolivia 1953 and 1954». Thesis, University of Kansas, Kansas, 2009, p. 97.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, - Secret, Washington, May 22, 1952, p. 492.

(٤) F.O. 497/19413, Secret, Part 7, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for - 1952, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1.

(٥) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Points From Cabinet - Ministers' Speeches on Loyalty Day, La Paz, 13th May, 1952, AX 1015/59.

(٦) F.O. 497/19413, Secret, Part 7, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for - 1952, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1.

بالأطباء والممرضين والأدوية في لاباس، وبعد وصول استنسورو لبوليفيا وتولي الرئاسة، وصلت ثلاث طائرات أخريات تحمل الدعاية والمزيد من الممرضات وثماني أطنان من الطعام(١)، وكانت بوليفيا، آنذاك، تعاني من نقص في مخزونها الغذائي؛ وحسب تفسير السفير البريطاني في بوليفيا، كان بيرون يهدف من وراء كل ما سبق إلى تعزيز سيطرته على بوليفيا للحصول على نصيب الأسد من امتيازات البترول البوليفية، والتي كانت تنافسه عليها البرازيل، كما أنه رجح بأن لبيرون أهدافا توسعية في بوليفيا(٢)، وكانت واشنطن تتفق مع هذا التفسير، وهذا ما دفعها إلى دراسة خطر تغلغل البيرونية إلى بوليفيا.

من ناحية أخرى، كانت هناك محاولات من بيرو وشيلي لتعطيل اعتراف الولايات المتحدة بالحكومة البوليفية الجديدة(٣)؛ حيث إنهما لم يرحبا بانتصار الحركة القومية الثورية، ورأوا في ذلك النصر امتدادًا لتأثير بيرون، كما أنهما تخوَّفا من انتشار عدوى الثورة بين هنود جمهوريات الأنديز، وخاصة هنود بيرو(٤)، ومن ثم وجود مطالب شعبية مشابهة، والتي ستؤيدها وتدعمها بوليفيا(٥)، ولقد أيدت كلٌّ منهما عدم اعتراف الولايات المتحدة بحكومة الحركة القومية مبررين ذلك بأنه إذا سقطت ستأتي حكومة أخرى أكثر اعتدالًا(٦)، أما بالنسبة لباقي دول أمريكا اللاتينية، فقد بدا أنها تنتظر قرار الولايات المتحدة، باستثناء جواتيمالا والأرجنتين

---

(١) DORN, GLENN J: op. cit, p. 169

(٢) F.O. 497/19413, Secret, Part 7, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for 1952, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 493.

(٤) F.O. 497/19413, Secret, Part 7, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for 1952, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1.

(٥) CIA, National Intelligence Estimate, NIE-92-54, Secret, Probable Developments in Bolivia, March 19, 1954.

(٦) DORN, GLENN J: op. cit, p. 169

وباراجواي الذين كانوا قد أعلنوا اعترافهم بالحكومة البوليفية الجديدة(١)، وكانت جواتيمالا أولهم في إعلان الاعتراف(٢).

نخلص مما سبق، أن تاريخ إدارة ترومان، وخاصة وزارة الخارجية، مع الحركة القومية الثورية، كان سببًا في عدم ترحيب واشنطن بوصولها لحكم بوليفيا، وبمجرد وصولها إلى القصر الرئاسي في لاباس أوقفت واشنطن كل صور التعاون والدعم الاقتصادي، وراحت تدرس الواقع البوليفي الجديد لتحسم أمرها إزاء قضايا عدة كانت تؤثر على مصالحها هناك، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

- الجناح اليساري الذي يقوده لاشين وما يُشكله من خطر على مصالح الولايات المتحدة في بوليفيا، في حال سيطرته على الحكم.
- برنامج الحركة القومية لتأميم الصناعات المعدنية، وخاصة صناعة القصدير، والذي يدعمه الجناح اليساري بقوة.
- الميليشيات العمالية المسلحة، وما تشكله من خطر على المصالح الاستراتيجية والعسكرية للولايات المتحدة.
- مسألة مدى ارتباط الحركة القومية الثورية بالشيوعية الدولية، وإمكانية سيطرة الشيوعيين على مقاليد السلطة في بوليفيا.
- التأثير الأرجنتيني في بوليفيا، ومدى تأثير ذلك على المصالح الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة.

بذل قادة الحركة القومية الثورية مجهودا عظيما فور وصولهم للحكم، للتخفيف من قلق واشنطن وتمهيد الطريق للاعتراف المبكر، ومن ثم استمرار عمليات شراء الولايات المتحدة

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 493.

(٢) ZUNES, STEPHEN: op. cit, p. 36.

للقصدير البوليفي[١]، فكانت أولى خطواتهم، أنهم لم يقوموا بممارسة أية أعمال عنف ضد المواطنين الأمريكيين في معسكرات التعدين، فلم تبلغ السفارة الأمريكية عن أية أعمال من هذا القبيل منذ بداية الثورة[٢]، إذ أرادت الحركة القومية الثورية أن تبعث برسالة طمأنينة إلى الولايات المتحدة مستفيدة من دروس الماضي في تعاملها مع الولايات المتحدة عندما احتجز عمال المناجم اثنين من الأمريكيين كرهائن في أثناء عصيان ١٩٤٩م.

كما بدأوا في توجيه عدة رسائل مباشرة إلى واشنطن، فوعد سواسو - في أثناء فترة رئاسته المؤقتة - بحكومة سلمية تحترم الاتفاقيات الدولية والملكيات الخاصة، كما قدم وزير الخارجية البوليفي الجديد، "والتر أرسا" Walter Arze في السادس من أبريل مذكرة إلى سفارة الولايات المتحدة في بوليفيا يطلب فيها اعترافها الرسمي بحكومة بوليفيا الجديدة[٣]، بالإضافة إلى أن الخطابات الأولى لاستنسورو كانت معتدلة[٤]، وأكد خلالها أن تأميم صناعات القصدير لن يحدث بشكل سريع وأنه يأمل في الوصول إلى اتفاقية مع بارونات القصدير في هذا الشأن[٥]، وأكد مرة ثانية على نفس الرسالة، في أثناء احتفالات بوليفيا بيوم الولاء، قائلًا: "إن هناك من يحرضونني على تأميم المناجم فورًا عن طريق إصدار قرار بسيط، ولكني أرفض هذا وأُفضل طريقة أكثر حكمة... "[٦]، أما والتر أرسا فكان أكثر وضوحًا في خطابه - في يوم الولاء - قائلاً: "إن الدول الأجنبية تنتظر ثلاثة أمور من الحكومة الجديدة كي تعترف بها، وهي: السيطرة

---

(١) BLASIER, COLE: *the Hovering Giant*, op. cit, p. 130

(٢) .DORN, GLENN J: op. cit, p. 166 -

(٣) BLASIER, COLE:*The United States and the Revolution*, op. cit, p.64

(٤) F.O. 497/18990, Confidential, Further Correspondence Respecting Other South American Countries (Bolivia, Chile, Colombia, Ecuador, Peru and Venezuela), Part6, January to December .1952, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Coup D'etat in Bolivia, La Paz, 17th April,1952, AX 1015/25

(٥) .BLASIER, COLE: *the Hovering Giant*, op. cit, p. 130

(٦) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax toMr. .Eden, Points From Cabinet Ministers' Speeches on Loyalty Day, La Paz, 13th May, 1952, AX 1015/59

الكاملة على أراضي الدولة، والاعتراف بالمعاهدات والاتفاقيات الدولية، والسلام الداخلي كدليل على دعم الشعب؛ وكل هذه الأمور متوفرة، فلماذا إذًا تتأخر عملية الاعتراف؟..."[1]، وكان يوجه حديثه هنا إلى الولايات المتحدة مستنكرًا تأخر اعترافها بالحكومة الجديدة في لاباس، ولكنها لم تكن قد حسمت أمر القضايا التي كانت تقلقها في بوليفيا.

عملت الحركة القومية الثورية، بشكل مكثف، لإزالة أي انطباع بأن خطتهم ذهبت أبعد من الاقتصاد الوطني، فوعدت بتأميم مناجم القصدير المملوكة للأجانب بطريقة منظمة مع إعطاء تعويضات لأصحابها، كما أكدت الحركة القومية الثورية لوزارة الخارجية الأمريكية أن هذا القرار أمر ضروري لبوليفيا من أجل استعادة سيادتها القومية، وأنه ليس ضد الاستثمارات الأجنبية الخاصة التي هي ضرورية لمصلحة بقية الاقتصاد البوليفي[2]. كما صرح استنسورو بأن بوليفيا ليست ضد الحكومة الرأسمالية وأنها ثرية جدًا وفي حاجة لرؤوس الأموال[3].

لا شك أن استنسورو كان يريد، من خلال تصريحاته تلك، أن يبعث برسالة إلى واشنطن مضمونها أنه غير شيوعي وليس بتابع للولايات المتحدة[4]، وأنه يرحب بالاستثمارات الأمريكية، ولكنها كانت رسالة متناقضة بالنسبة لواشنطن لتعارضها مع إصراره على التأميم.

قاومت حكومة الحركة القومية الثورية الاتهامات التي تقول بأنها تعاني تدخلات شيوعية، حيث أعلن نائب الرئيس سواسو - أن الحركة القومية لم تكن مؤيدة للاتحاد السوفيتي[5]، موضحًا العلاقة بين حزبه والشيوعية بقوله: "... علا صوت الشيوعيين مع صوتنا عندما كان

---

(١) Ibid.

(٢) ZOUMARAS, THOMAS: op. cit, p. 84 -

(٣) Arganaras, Fernando Garcia: Bolivia'sTransformistRevolution, Latin American Perspectives, Vol. 19, No. 2, PopularOrganizing and the State (Spring, 1992), p. 54.

(٤) Larosa, Michael J. andMejía, Gerban R.: An atlas and survey of Latin American history (New York and London: M.E. Sharpe, 2007), p. 152.

(٥) ZOUMARAS, THOMAS: op. cit, p. 84

الشعب منشغلا بمعركته الأخيرة مع مالكي مناجم القصدير والإقطاعيين، ولقد أضر ذلك بنا أكثر مما أفادنا، ولكن في معركة الحياة والموت كل شخص يساعد فهو شخص جيد، كما فعلت القوى الغربية في أثناء الحرب العالمية الثانية عندما رحبوا بروسيا الاتحادية كحليف لهم"[١]، وأضاف استنسورو بأنه وصل للسلطة بشكل ديمقراطي من خلال انتخابات مايو ١٩٥١م، وأن الثورة لم يكن لها أي اتصال بالشيوعية الدولية[٢]، وأعلن بوضوح، في بيان آخر، موقفه من الصراع الأمريكي- السوفيتي قائلًا: "في دولة مثل بوليفيا، يجب الأخذُ بالاعتبارات الاقتصادية والجغرافية عند تشكيل السياسات الدولية، وفي حدث مثل نزاع المصالح بين المجموعة الأنجلو- أمريكية وروسيا، أنا أعتقد أن بوليفيا سيكون عليها الانجذاب بالضرورة إلى مدار المجموعة الأنجلو- أمريكية"[٣]، إذ كان استنسورو يحاول إثبات ولائه للولايات المتحدة، ولا سيما أن الحزب نفى، منذ اليوم الأول في السلطة، الاتهامات الموجهة إليه بشأن علاقته بالشيوعية الدولية، وراح يبرهن لواشنطن ذلك بتأكيده على دعم الولايات المتحدة في صراعها مع الاتحاد السوفيتي؛ لأنه كان يعلم جيدًا بأن الولايات المتحدة لن تعطي اعترافها لحكومة تابعة لموسكو.

يتضح من تلك الجهود، مدى حرص الحركة القومية الثورية على اعتراف الولايات المتحدة بها؛ وسعيها لإثبات الولاء لها[١]، حيث لعبت الخبرة التي اكتسبها الحزب في نزاعه مع شركة ستاندرد أويل عند تأميمها عام ١٩٣٧م، بالإضافة إلى معاناتهم من عدم الاعتراف بحكومة بياورويل عام ١٩٤٤م، دورًا كبيرًا في جعلهم أكثر توافقًا مع واشنطن بشأن الاستثمارات

---

(١) BLASIER, COLE: *The Hovering Giant*, op. cit, p. 132 -

(٢) MOULTON, AARON: op. cit, p. 102 -

(٣) *Victor Paz Estenssoro:Discursosparlementarios*, Prólogo de Jose Cuadros Quiroga, (LaPaz: .Editorial Canata, 1955), pp. 220

(٤) .MOULTON, AARON: op. cit, p. 76

الخاصة(١)، وسياسة التأميم، التي كانت تزعج مسؤولي واشنطن.

لم تكن تلك الرسائل كافية لصناع القرار في الولايات المتحدة حتى يصدروا قرارهم بالاعتراف الرسمي بحكومة الحركة القومية الثورية؛ لذلك تقدمت سياستها تجاه بوليفيا خطوة للأمام وراحت تبحث القضايا، التي لم يعط قيادات الحركة القومية الثورية بشأنها أية تفسيرات أو تعهدات من ناحية، ومدى صحة تصريحاتهم بشأن القضايا الأخرى من ناحية ثانية؛ فتأكدت من عدم وجود علاقات للحركة القومية الثورية بالشيوعية الدولية، وأخبر الدبلوماسيون الأمريكيون الشماليون في لاباس نظائرهم البريطانيين، بشكل غير رسمي: "أنهم لم يرو حزبا شيوعيا مدعوما من الاتحاد السوفيتي يصعد للسلطة... وأن الركود الاقتصادي والفوضى السياسية هما التهديد الحقيقي"(٢)، كما وافقت الحكومة البوليفية على شرط واشنطن بعدم إدخال أعضاء الحزب الشيوعي إليها(٣). من جانب آخر، كان بيرون لا يمتلك الإمكانات الاقتصادية التي يستطيع من خلالها مساعدة بوليفيا وإخراجها من أزمتها الاقتصادية(٤)؛ لذلك لم يكن لديه فرص كبيرة للتأثير على بوليفيا، خاصة إذا استخدمت واشنطن المساعدات والمعونات الاقتصادية لمنع بوليفيا من الوقوع تحت التأثير الأرجنتيني.

---

(١) Blasier, Cole: *the Hovering Giant*, op. cit, p. 87.

(٢) Alexander, Robert J: *the Bolivian National Revolution*, (New Brunswick: RutgersUniversity Press, 1958), p. 260.

(٣) Fried, Max Paul: *Relations with Latin America and the Caribbean 1945–1970*; inMcMahon, Robert J. and Zeiler, Thomas W. (eds.): Guide to U.S. foreign policy:Adiplomatic history, Vol.1 (Los Angeles, London, New Delhi, Singapore, and Washington D.C.: Sage Referenceand CQ Press, 2012), p. 328.

(٤) F.O. 497/19413, Secret, Correspondence Respecting Other South American Countries(Bolivia, Chile, Colombia, Ecuador, Peru and Venezuela), Part 7, January to December 1953, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for 1952, La Paz, January 26, 1953, AX 1011/1.

ناقش ماليدي - القائم بأعمال السفير الأمريكي في بوليفيا - بتوجيه من وزير خارجيته، قضية الميليشيات المسلحة وانهيار الجيش البوليفي مع وزير الخارجية البوليفي للوقوف على موقف الحزب إزاءها، فأجابه والتر أرسا: "إن الحكومة البوليفية تتحرك بهدوء لنزع الكثير من الأسلحة، وأن لديها سيطرة كاملة على الشرطة الوطنية، وأنها تُعيد بناء الجيش"[١]، بذلك تكون واشنطن قد استوضحت خطط الحكومة البوليفية إزاء الميليشيات المسلحة، بالإضافة إلى أنها أخذت تعهدات رسمية بإعادة بناء الجيش البوليفي؛ لتحسم موقفها إزاء الجناح اليساري المعتمد على الميليشيات المسلحة، ومن ثم تقرير سياستها إزاء بوليفيا وحكومتها الجديدة.

كانت الولايات المتحدة تريد ضمان تدفق القصدير البوليفي إليها، وكان ذلك واضحًا في دفاع "جونسون"Johnson عن أهمية القصدير في صناعات الدفاع، أمام مجلس الشيوخ، حيث قال: "... القصدير واحد من أكثر الموارد حيوية من أجل دفاعنا؛ فالصفيحة المصنعة من القصدير ينقل فيها المواد الغذائية، كما أنه يُعد جزءا مهما جدًّا في كل آلة وسيارة وطائرة وسفينة"[٢]؛ لذلك وحدت وزارة الخارجية، في عهد الرئيس ترومان، جهودها مع مؤسسة تمويل إعادة الإعمار - المسؤولة عن توقيع عقد القصدير مع بوليفيا - لاستغلال عقد القصدير كبالون اختبار وكأداة ترهيب للحكومة البوليفية الجديدة من أجل تحقيق الاعتدال في خطط الحركة القومية الثورية لتأميم القصدير[٣]، حيث أخبر أتشيسون سفيره في بوليفيا: "إذا كان من الواضح استحالة الحصول على أية التزامات محددة بخصوص التأميم، كشرط سابق على الاعتراف، فمن المرغوب من وجهة نظرنا إبلاغ وزير الخارجية - البوليفي - بالمشكلات التي قد تثور بالنسبة لنا فيما يتعلق بسياستنا لشراء القصدير، وكما أنهم يجب أن يستوعبوا تأثيرات

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 492.

(٢) ZUNES, STEPHEN: op. cit, p. 39.

(٣) DORN, GLENN J: op. cit, p. 164.

قرار التأميم سواء الآنية أو المستقبلية"[١].

وقد تم التأكيد على أهمية هذا الضغط من جانب رئيس مكتب شؤون أمريكا الجنوبية Office of South American Affairs OSA بوزارة الخارجية، حيث أوضح: «من الملائم للولايات المتحدة أن يتخذ التأميم الحتمي لمعظم صناعات الدولة التعدينية شكلًا يُقر بمبادئ التعويض»[٢]، وكان يمثل هذا الشرط ضغطًا كبيرًا على بوليفيا، خاصة وأنها لم يكن لديها القدرة على إنشاء معامل لصهر قصديرها[٣]، وأمام هذا الضغط من جانب واشنطن، قدم استنسورو وسواسو تعهدات بتقديم تعويضات للملاك الأجانب عن المناجم التي ستُؤمَّم[٤]. وبذلك تكون إدارة ترومان حسمت أمر أهم القضايا التي تعرقل اعترافها بالنظام الجديد في بوليفيا.

كتب أتشيسون مذكرة إلى الرئيس ترومان، يقترح فيها الإسراع في عملية الاعتراف بالحكومة الجديدة في بوليفيا، وإعلان استمرار العلاقات الدبلوماسية معها؛ فبدأ مذكرته قائلًا: «سأكون ممتنًا بإذنك للإعلان في الأسبوع القادم عن استمرار العلاقات الدبلوماسية مع بوليفيا»[٥]، وأكد على أن الثورة كانت نتيجة لأوضاع اقتصادية واجتماعية وسياسية قاسية مرت بها بوليفيا، وأنها لم تكن نتيجة تدخل شيوعي بقوله: «... مما لا شك فيه أن انتفاضة ٩ أبريل تشكل إلى حد كبير تعبيرا عفويا عن الرأي العام»[٦]، وبدأ يوضح الأسباب التي جعلت وزارة الخارجية تقترح الإسراع في الإعلان عن الاعتراف: «إن استمرار حجب الاعتراف لن

---

(١) Zunes, Stephen: op. cit, p. 39.

(٢) Loc. Cit.

(٣) Zunes, Stephen: op. cit, p. 39.

(٤) Blasier, Cole: op. cit, p. 131.

(٥) Frus, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 490.

(٦) Frus, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 491.

يمنع التأميم، بل إنه من الممكن أن يتسبب في تأثير عكسي؛ أيْ تقوية العناصر المتطرفة في الحكومة، وكذلك دفعها أكثر في اتجاه بيرون. ولقد شكل استنسورور الأسبوع الماضي لجنة لدراسة الوضع المستقبلي لمناجم القصدير، لكن قد تكون هذه مناورة منه للمماطلة، ومن الممكن أن يقرروا ترتيبات مشابهة لحكومة شيلي فيما يخص النحاس، بحيث تصبح الحكومة هي البائع الوحيد»[١]، ورُفعت مذكرة أتشيسون للرئيس ترومان، الذي رد بأنه يتابع الأمر بعناية وأنه توقع هذا الاقتراح، ولكنه يرغب في المزيد من الوقت للتفكير[٢].

يتضح من مذكرة أتشيسون أن وزارة الخارجية الأمريكية قد أدركت أن استمرار تأخر الاعتراف لن يخدم مصالح الولايات المتحدة في بوليفيا، بل إنه قد يؤدي إلى إضعاف الجناح المعتدل في الحركة القومية الثورية، والذي بيده مقاليد الحكم في بوليفيا، وفي المقابل ستزداد قوة الجناح اليساري؛ ومن ثم دفع بوليفيا بعيدًا عن الولايات المتحدة، حيث الأرجنتين وربما موسكو، وهذا ما سيمثل خطرا أكبر على مصالح الولايات المتحدة، هذا من ناحية. من ناحية أخرى، كان استمرار حجب الاعتراف سيعطي فرصة أكبر للجناح اليساري للتأثير على الحكومة من أجل التأميم الفوري دون تعويضات؛ وهذا الأمر سيضر بمصالح الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية بأكملها عندما تنتقل عدوى التأميم إلى باقي دول القارة، ولكن في حالة الاعتراف سيكون لدى واشنطن فرص أكبر للتأثير على بوليفيا في قرار التأميم مستغلة سلاحها الفعال في بوليفيا - عقد شراء القصدير - من أجل إيقاف التأميم أو ضمان التعويضات.

صدَّق الرئيس الأمريكي ترومان على توصية أتشيسون وزير خارجيته في السابع

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, pp. 492, 493.

(٢) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 493.

والعشرين من مايو عام ١٩٥٢م[١]، وأعلنت وزارة الخارجية اعتراف الولايات المتحدة بحكومة الحركة القومية في لاباس في الثاني من يونيو في عبارة موجزة[٢]، إذ جاء في بيان وزارة الخارجية: «لقد أبلغ القائم بأعمال السفير في لاباس (توماس ماليدي) وزير الخارجية البوليفي اعتراف حكومة الولايات المتحدة بالحكومة الجديدة في بوليفيا في الثاني من يونيو»[٣]، ويعكس هذا البيان موقف وزارة الخارجية الأمريكية غير المؤيد - بشكل كبير - لحكومة الحركة القومية الثورية، وكان موقفها هذا راجعا، في جزء كبير منه، إلى أن إدارة ترومان هي نفسها الإدارة التي حجبت اعترافها عن حكومة بيارويل في ١٩٤٤م؛ بسبب وجود أعضاء من الحركة القومية الثورية بها، ولكنها كانت مضطرة للتعامل مع معطيات الموقف السياسي الجديد في بوليفيا.

كانت الولايات المتحدة تنسق مع حكومات أمريكا اللاتينية في مسألة الاعتراف بالحكومة البوليفية الجديدة، وكانت تلك الدول تنتظر قرار واشنطن، باستثناء جواتيمالا والأرجنتين وباراجواي[٤]، فأعلنت معظم دول أمريكا اللاتينية وكذلك بريطانيا والدول الأخرى الممثلة في بوليفيا اعترافهم بالحكومة البوليفية الجديدة[٥]، ومن خلال هذا الموقف، يتضح الضغط الذي كانت تمارسه واشنطن في القضية البوليفية من خلال التهديد - بشكل ضمني - بعزل بوليفيا داخل القارة.

قررت الولايات المتحدة تعيين «إدوارد سباركس» **Edward Sparks** سفيرًا لها في بوليفيا

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Secretary of State to the President, Secret, Washington, May 22, 1952, p. 493.

(٢) Sanders, G. Earl: the Quiet Experiment in American Diplomacy: An InterpretativeEssay onUnited States Aid to the BolivianRevolution , the Americas, Vol. 33, No. 1 (Jul., 1976), p. 32.

(٣) *the Department of State Bulletin* (*DOSB*), Vol. XXVI. No. 678, June 23, 1952, U.S.RecognizesNewBolivian Government, p. 983.

(٤) Loc. Cit.

(٥) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Anglo-Bolivian Relations, La Paz, 4th June, 1952, AX 1015/69.

في الثامن عشر من يناير ١٩٥٢م خلال حكم المجلس العسكري، ولكنه وصل إلى بوليفيا في الثالث من يونيو، أي بعد اعتراف واشنطن بحكومة بوليفيا الثورية بيوم واحد[١]، ليلعب دورًا مهمًّا في علاقات الولايات المتحدة ببوليفيا[٢]، كما قدم السفير البوليفي، "بيكتور أندراد" Victor Andrade أوراق اعتماده إلى الرئيس ترومان في الحادي عشر من أغسطس ١٩٥٢م[٣]، وقد قدم أندراد من لاباس إلى واشنطن ولديه الكثير من المهام الضرورية بالنسبة للحكومة البوليفية، خاصة وأنه أحد أعضاء الحركة القومية الثورية؛ أهمها توضيح حقيقة الأوضاع في بوليفيا للرئيس الأمريكي الجديد الذي سيتولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية بعد ترومان.

حقيقة، لم يكن اعتراف الولايات المتحدة يحمل معه علاقات حميمة، ولكنه كان موقفا غير واضح المعنى[٤]، فكان الاعتراف عبارة عن موافقة حذرة من جانب واشنطن؛ حيث إن إدارة الرئيس ترومان لم توقع عقدا طويل الأمد لشراء القصدير البوليف[٥]. وكما صرح مساعد وزير الخارجية، ميلر Miller، بأن الاعتراف كان محاولة لتثبيط عملية التأميم[٦]،

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the American Republics, the Secretary of State to the Embassyin- - Bolivia, , Secret, Washington, September 8, 1952, p. 502.

(٢) - BLASIER, COLE: op. cit, p. 131.

(٣) عمل أندراد كسفيرًا لبوليفيا في واشنطن ثلاث مرات في الفترات (١٩٤٤- ١٩٤٦م) في أثناء حكومة بياروبل، وفي الفترة (١٩٥٢- ١٩٥٨م) و (١٩٦٠- ١٩٦٢م)، كما إنه كان أحد أعضاء الحركة القومية الثورية، وترجع جذوره إلى الطبقة الوسطى؛ أنظر:

DOSB, Vol. XXVII, No. 687, 25 August 1952, P.285; See also: Vol. XXXIX, No. 1013, 24 Nov 1958, P.814; Vol. XLII, No. 1080, 7 March 1960, P.353; Vol. XLVIII, No. 1246, 13 May 1963, P.751; and Siekmeier, James F: op. cit, p. 386.

(٤) BAILEY, JENNIFER LEIGH: op. cit, p. 292.

(٥) MURPHY, OLIVER: *the USA'sReaction to the BolivianRevolution of 1952*: «Pragmatism andthe Inter-American System, Studies in Ethnicity and Nationalism»: Vol. 9, No. 2, 2009, p. 256.

(٦) ZOUMARAS, THOMAS: op. cit, p. 86.

بالإضافة إلى أن واشنطن استخدمت عمليات الشراء الضخمة والتهديدات بعدم التفاوض حول عقود شراء القصدير طويلة المدة كسياسة العصا والجزرة لوقف عملية تأميم المناجم وتأجيلها حتى مجيء الإدارة الجديدة[١]، فأصبح موقف الولايات المتحدة إزاء بوليفيا شبه مجمَّد خلال النصف الثاني من عام ١٩٥٢م بسبب الانتخابات الرئاسية الأمريكية[٢]، هكذا، اكتفت إدارة الرئيس ترومان بالاعتراف الحذر بحكومة الحركة القومية الثورية من أجل تأجيل عملية التأميم قدر المستطاع، واستعانت في ذلك بسياسة المماطلة، تاركة مهمة تشكيل السياسة الجديدة إزاء بوليفيا للإدارة التي ستليها بعد شهور قليلة.

موقف الولايات المتحدة إزاء تأميم مناجم القصدير البوليفية:

كان هناك ثلاث شركات تعدينية تسيطر على صناعة القصدير البوليفية وتتحكم في الاقتصاد البوليفي، فيما قبل الثورة، حيث كانت تلك الشركات الثلاث تنتج حوالي ٩٥٪ من صادرات بوليفيا المعدنية، وكان يذهب حوالي ٥٠٪ من النقد الأجنبي إليهم، كما كانوا يتحكمون في البنوك التي تمول الحكومة المركزية[٣]، بالإضافة إلى أن أرباح تلك الشركات كانت تذهب إلى خارج بوليفيا، حيث تأسست مقراتهم، إذ أسس "سيمون باتنيو" SimnPatio شركته في الولايات المتحدة ، واتجه "كارلوس بيكتور أرامايو"Carlos VctorAramayo إلى سويسرا وأسس شركته هناك، أما "هوخشيلد" Hochschild فكان له مكاتب في كلٍّ من شيلي وسويسرا

---

(١) **Lehman, Kenneth:** ***Revolutions and Attributions*****: «Making Sense of EisenhowerAdministration Policies in Bolivia and Guatemala», Diplomatic History, Vol. 21, No. 2, (Spring .1997), p. 199**

(٢) **Wensjoe,Gustavo Adolfo:** ***the Eisenhower Administration and Political Change in LatinAmerica (1953-1961)*****, Dissertation, the Faculty of the Department of Political Sciences,University .of Houston, Texas, August 1997, p. 105**

(٣) **WebberJeffery R:** ***Red October*****: «Left-Indigenous Struggles in Modern Bolivia ,Historical Materialism», Vol. 29, (Leiden& Boston: Brill, 2011) p. 68**

والولايات المتحدة[١]؛ لذلك كان البوليفيون ينظرون إلى تلك الشركات على أنها تأخذ خيرات بلادهم إلى خارجها، وأنهم من ضمن الأسباب الرئيسة فيما يعانونه من ظروف معيشية سيئة، لهذا كله وجد شعار "الأرض للهنود والمناجم للدولة" رواجًا كبيرًا وسطهم.

كان التعدين خاصة تعدين القصدير هو الصناعة الوحيدة المتطورة في بوليفيا، وكان ما يقرب من نصف إنتاجها من القصدير يُصدَّر للولايات المتحدة[٢]، التي عملت على إعاقة البوليفيين أو أي دولة أخرى من أجل بناء مصهر للقصدير واستخدام المواد البوليفية عن طريق بناء مصهر لصهر القصدير البوليفي خصيصًا؛ لأن به شوائب كثيرة، في مدينة تكساس وشرائها للقصدير لعدة سنوات، بالإضافة إلى أنها كانت تتحكم في سعر القصدير عن طريق تخزينه بكميات كبيرة[٣]، وكانت تستطيع بذلك التحكمَ في الاقتصاد البوليفي، ومن ثم في السياسة البوليفية.

قدم لاشين، في أول اجتماع للوزراء بعد الثورة، مشروعًا لتأميم مناجم القصدير بشكل فوري، ولكن وزارة خارجية الولايات المتحدة لجأت إلى الشخصيات الأكثر اعتدالًا من أجل عدم الموافقة على مشروع لاشين ونجحت في ذلك، إذ صوت استنسورو وسواسو واثنين آخرين ضد المشروع فكان هناك أربعة أصوات رافضة مقابل ثلاثة أصوات موافقة عليه[٤]، وللتغلب

---

(١) PELAEZ, RAUL LEMA: op. cit, p. 3.

ومن الجدير بالذكر أن سيمون باتنيو وبيكتور آرامايو كانوا يحملون الجنسية البوليفية، أما هوخشيلد فكان ألمانيًا، وقدم إلى بوليفيا في عام ١٩١١م، ولقد تم تعريب اسم كل منهم بناءً على نطقه بلغته الأصلية؛ للمزيد حولهم انظر:

BLASIER, COLE: *the United States and the Revolution*, op. cit, p. 44.

(٢) CIA, National Intelligence Estimate, NIE–92–54, Secret, Probable Developments i Bolivia, March 19, 1954.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Assistant Secretary of State for Economic Affairs (Thorp) and the Assistant Secretary of State for Inter-American Affairs (Miller) tothe Secretary of State, Confidential, Washington, April 2, 1952, pp. 488, 489.

(٤) DORN, GLENN J: op. cit, p. 167.

على تلك المعضلة، أصدرت بوليفيا مرسوما بتاريخ الثالث عشر من مايو ١٩٥٢م ينص على تشكيل لجنة لدراسة الشروط والإجراءات اللازمة لتأميم المناجم[١]، خاصة مناجم الثلاثة الكبار، على أن تقدم اللجنة تقريرها النهائي خلال ١٢٠ يوم[٢].

بعيدًا عن نتيجة دراسة لجنة التأميم، عمل استنسورو من أجل إحكام الرقابة البوليفية على صادراتها المعدنية[٣]؛ حيث أصدرت الحكومة البوليفية مرسوما في الأول من يونيو ١٩٥٢م، يقضي بأن الحكومة البوليفية هي المسؤول الوحيد عن تصدير منتجاتها المعدنية، معلنةً بذلك احتكار الصادرات المعدنية[٤]، وفي اليوم التالي[٥]، صدر قرار بأن يكون بنك التعدين البوليفي BancoMinero de Bolivia هو المصدر الوحيد لكل المعادن المُنتجة في بوليفيا، وكانت أول قرارات البنك تفويض "السيد ديتشيم" Mr.Ditisheim و"السيد هاندرسون" Mr.Henderson لتمثيله في واشنطن[٦].

عارضت الولايات المتحدة تلك القرارات؛ فمن ناحية وصفت السلطات الممنوحة لبنك التعدين بأنها سلطات واسعة جدًّا وتتعارض مع الاتفاقيات المبرمة بين البلدين[٧]، ومن ناحية ثانية لم تتفاوض مع ممثلي بنك التعدين في واشنطن بشكل جدي، وأوضح ميلر

---

(١) .PELAEZ, RAUL LEMA: op. cit, p. 3

(٢) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, January to December 1952, Mr. Garnett Lomax toMr. .Eden, Points From Cabinet Ministers' Speeches on Loyalty Day, La Paz, 13th May, 1952,AX 1015/59

(٣) .DORN, GLENN J: op. cit, p. 175

(٤) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, Anglo-Bolivian Rela- .tions, La Paz, 4th June, 1952, AX 1015/69

(٥) .DORN, GLENN: op. cit, p. 175

(٦) FRUS, 1952- 1954, Vol. IV, the American Republics, Memorandum of Conversation, byHer- bert H. Liebhafsky of the Metals and Minerals Staff, Confidential, Washington, 17 June,1952, p. .494

(٧) .Loc. Cit

ذلك - فيما بعد - بقوله: "إن وزارة الخارجية كانت لديها شكوك تجاه صحة ترتيبات ديتشيم وهاندرسون"[١]، وقررت واشنطن أنه لا يمكن لمؤسسة تمويل إعادة الإعمار التعاقد، بأي شكل من الأشكال، مع بنك التعدين أو أي من عملائه في أثناء تلك الفترة التي لا يتضح فيها إذا كان سيتم تأميم المناجم أم لا؛ كما قررت أنها لن تعقد أية عمليات شراء فورية[٢] للقصدير حتى تحصل على ردود مرضية من الحكومة البوليفية بشأن الأسئلة المطروحة[٣]:

١. هل يمكن للحكومة البوليفية أن تؤكد أن بنك التعدين سيحترم كلًّا من:

(أ) الاتفاقيات الحالية بين كل من وكالات الولايات المتحدة والمنتجين البوليفيين.

(ب) الاتفاقيات المبرمة بين كل من الولايات المتحدة والمشترين الآخرين.

(ج) العقود الحالية مع الحكومات الأجنبية الأخرى والأفراد؟

٢. هل ستحترم حكومة بوليفيا تلك الاتفاقيات إذا تم تأميم المناجم؟

في الحقيقة، كانت واشنطن تتحرك من مركز قوي، فهي لم تكن مجبرة على شراء القصدير، آنذاك، حيث كان لديها مخزون كافٍ من القصدير لتشغيل مصهر مدينة تكساس[٤]، في حين أن بوليفيا كانت في حاجة ماسَّة لتوقيع عقد لبيع القصدير لمدة عام أو عامين[٥]، بسبب

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation, by William P. Hudson of theOf-fice of South America Affairs, Confidential, Washington, July 31, 1952, p. 497.

(٢) يُقصد بالشراءات الفورية شراء القصدير (اليوم بيومه)، وليس من خلال عقد طويل المدة؛ وفي هذا الوضع يتغير السعر طبقًا للسوق.

(٣) FRUS, 1952- 1954, Vol. IV, the American Republics, Memorandum of Conversation, byHer-bert H.Liebhafsky of the Metals and Minerals Staff, Confidential, Washington ١٧ June,1952, pp. 494, 495.

(٤) Ibid, p. 495.

(٥) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation, by William P. Hudson of theOf-fice of South America Affairs, Confidential, Washington, July 31, 1952, p. 496.

نها،القصدير دة عام أو عامين

الأزمة الاقتصادية التي كانت تمر بها، آنذاك، واحتياجها للنقد الأجنبي من أجل توفير الطعام لشعبها، ولهذا طلب أندراد في لقائه مع ميلر - بعد اعتراف واشنطن بالحكومة البوليفية الجديدة - توقيع عقد طويل المدة، ولكن الأخير رد على الطلب البوليفي بقوله: "إن العقود طويلة المدة سابقة لأوانها حاليا"[١].

في الواقع، اعتمدت واشنطن في سياستها تجاه بوليفيا، آنذاك، على الضغط الاقتصادي وقدرتها على شراء القصدير البوليفي وصهره، واستخدمت عقد القصدير كسلاح فعال لتنفيذ تلك السياسية من أجل الضغط على بوليفيا لإجبارها على عدم تأميم مناجم القصدير، مستغلة احتياجها لعائدات بيع القصدير للتغلب على الأزمة الاقتصادية، التي كانت تهدد نظام الحكم الجديد والثورة البوليفية بأكملها بالفشل.

ومما يدلل على ذلك، استمرار رفض وزارة الخارجية الأمريكية لتوقيع أية عقود مع بوليفيا حتى بعد الاعتراف بالنظام الحاكم الجديد، ففي أغسطس من عام ١٩٥٢م أرسل أتشيسون برقية إلى سباركس في بوليفيا يعلمه فيها: "أن مؤسسة تمويل إعادة الإعمار لن توقع أية عقود مع بوليفيا طالما أنه لا يوجد تأكيد بشأن تأميم المناجم من عدمه"[٢]، وكان موقفها هذا مبررًا، حيث كان هناك عدة أسباب وراء رفض الولايات المتحدة توقيع عقد لشراء القصدير البوليفي، تمثلت في:

أولًا: ستفسر بوليفيا موافقة الولايات المتحدة على توقيع عقد لشراء القصدير على أنه ضوء أخضر للتأميم، وهذا الأمر سيكون له أثر سيء على مصالحها في باقي دول أمريكا اللاتينية، حيث إنه سيضع ممتلكات الولايات المتحدة في خطر، خاصة مناجم النحاس في شيلي[٣]، فكانت

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation, by William P. Hudson of theOffice of South America Affairs, Confidential, Washington, July 31, 1952, p. 497.

(٢) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, Secret, Washington, September 8, 1952, p. 502.

(٣) Loc. Cit.

واشنطن قلقة من انتقال عدوى التأميم من بوليفيا إلى باقي دول أمريكا اللاتينية.

ثانيًا: كانت الولايات المتحدة تدافع عن مستثمريها حتى تضمن لهم تعويضات مناسبة ومنصفة في حالة تأميم بوليفيا لمناجمها[١]، حيث يمتلك مساهموها أسهما في مجموعة مناجم باتنيو، قدَّرها استنسورو بما يقرب من ٢٠ إلى ٢٥٪[٢]، واستخدمت بوليفيا عقد القصدير كسلاح للدفاع عن المستثمرين، والملاحظ هنا أن نسبة ممتلكات مواطنيها، من مجموع ممتلكات الشركات الثلاث، نسبة ليست بالكبيرة، ولكن واشنطن لم تكن تدافع عنهم فقط، بل كانت تدافع عن مصالحها الاقتصادية - الآنية والمستقبلية - في بوليفيا ومن ثم أمريكا اللاتينية بأكملها؛ لأن مصادرة ممتلكاتها في إحدى دول القارة سيُهدد ممتلكاتها في الدول الأخرى، ومن ثم مركزها الاقتصادي والسياسي في القارة بأكملها.أدخلت واشنطن إلى سياستها تجاه بوليفيا أدوات وطرقا جديدة للضغط على الحكومة البوليفية بشأن مسألة تأميم مناجم القصدير؛ حيث استخدمت واشنطن سياسة المساومة والتهديد، فأعطى أتشيسون تعليماته لسباركس بأن يُبلغ الحكومة البوليفية: "... أنه في حالة حسم مسألة مناجم القصدير إما من خلال الاتفاق مع الملاك أو دفع تعويضات مناسبة، فسوف يكون لدى الولايات المتحدة الرغبة في التعاون مع بوليفيا من خلال برنامج اقتصادي أكبر"[٣]، وفي الوقت نفسه هددت الولايات المتحدة بوليفيا بأن عليها الاختيار بين أمرين: الأول: قرار محدد بعدم التأميم. الثاني: تطبيق التأميم بشكل يعطي تعويضات كافية ومناسبة، أما إذا اختارت خيارا ثالثا، أي التأميم دون تعويضات مرضية، فسوف تكون الولايات المتحدة مستعدة للتفكير في

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the American Republics, Memorandum of Conversation, bythe Secretary of State, Restricted, Washington, October 7, 1952, p. 509.

(٢) BLASIER, COLE: op. cit, p. 88; See also, Moulton, Aaron: op. cit, p. 100.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, Secret, Washington, September 8, 1952, pp. 502, 503.5052, p. 502.

مع بوليفيا من خلال برنامج تعاون اقتصادي أكبر نهاالملاك أو دفع تعويضات مناسبة، فسوف يكون لدى الولايات المتحدة رغب

برنامج التعاون الاقتصادي[١]، ولعل واشنطن هنا تقصد برنامج "النقطة الرابعة" [٢]٤ والذي أوقفته عقب الثورة في أبريل ١٩٥٢م.

من ناحية ثانية، قامت بشراء بعض إنتاج بوليفيا من القصدير على أساس يوم بيوم، وليس عن طريق عقد طويل المدة[٣]؛ حيث وافقت على عرض أندراد وقامت بشراء (٦٠٠٠) طن من القصدير في سبتمبر ١٩٥٢م بعد التعاقد على الشراء مع بنك التعدين البوليفي مباشرة دون وسطاء[٤]، إذ كانت وزارة الخارجية الأمريكية ترى أن رفض أية عروض لشراء القصدير بشكل فوري سيكون ضارًّا بمصالح الولايات المتحدة في بوليفيا، ولقد أرجعت هذا لعدة أسباب[٥]:

١. أن عمليات الشراء الفورية لن تؤثر، بشكل ملحوظ، على قدرة واشنطن المستقبلية من أجل مساومة بوليفيا أو التفاوض معها على سعر شراء القصدير.

٢. سيُفسر أي رفض لشراء القصدير البوليفي في باقي دول أمريكا اللاتينية على أنه

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, Secret NIACT, Washington, September 19, 1952, pp. 502-503.

(٢) وَقَّعَتْ بوليفيا على اتفاقية النقطة الرابعة ٤ مع الولايات المتحدة في ١٤ مارس ١٩٥١م، والتي قدمت الولايات المتحدة بموجبها مساعدات إلى بوليفيا في مجالات (الزراعة النقل الصحة التعليم الدعم الفني)، انظر:

- DOSB, Vol. XXIV, No. 612, 26 March 1951, Point 4 Agreements Signed, Bolivia, P.501.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, Secret, Washington, September 8, 1952, pp. 502, 503.

(٤) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation, byMilton Barall of the Office of South America Affairs, Confidential, Washington, August 18, 1952, p. 499; See also, DOSB Vol. XXVIII, No. 706, 5 January 1953, U.S. Attitude toward Purchase of Bolivia Tin Concntrates, p. 14.

(٥) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Deputy Assistant Secretary of State for Inter-AmericanAffairs (Mann) to the Administrator of the Reconstruction Finance Corporation (McDonald)), Confidential, Washington, January 15, 1953, pp. 521-522.

عقاب لبوليفيا وعلى أنه سياسة من جانب واشنطن لفرض عقوبات اقتصادية على بوليفيا لإجبارها على حل مسألة التعويضات.

٣. إذا تركت واشنطن بوليفيا تعاني من أزمتها الاقتصادية، فسيساعد ذلك على إثارة الفوضى الاقتصادية والسياسية، مما يترتب عليه تقوية العناصر السياسية المعادية للولايات المتحدة في هذا البلد، وقد تأتي حكومة أكثر عداءً لواشنطن.

٤. كما أن هناك اعتبارات إنسانية ناتجة عن حقيقة أن بوليفيا لا بد وأن تستورد ٤٠٪ من غذائها ولن يحدث ذلك إلا من خلال بيع القصدير.

هكذا، كانت الولايات المتحدة تطبق سياسة العصا والجزرة في سياستها تجاه بوليفيا من أجل إجبارها على اختيار واحد من البديلين: إما لا تأميم، أو تأميم بتعويضات مناسبة؛ ففي الوقت الذي كانت تضغط فيه على الحكومة البوليفية مستخدمة سلاح عقد شراء القصدير تارة، والتهديد بإيقاف أية أشكال للتعاون الاقتصادي تارة أخرى؛ كانت تستخدم سياسة المساومة، مستغلة الأزمة الاقتصادية في بوليفيا، فكانت توعدها ببرنامج تعاون اقتصادي أكبر، ودللت على قدرتها على إخراج بوليفيا من أزمتها الاقتصادية بشرائها لإنتاج بوليفيا من القصدير من خلال عمليات شراء فورية بنظام اليوم بيوم وتبعًا لسعر السوق المتغير، إذ إنها هدفت بهذه السياسة إلى الحفاظ على الوضع في بوليفيا كما هو، لأنه - حسب تفسيرها - إذا سقطت حكومة استنسورو المعتدلة ستصعد مكانها حكومة أكثر عداءً لواشنطن.

على الجانب الآخر، كان الرئيس البوليفي استنسورو في موقف محير، فإلى جانب ضغط الولايات المتحدة على حكومته لإجبارها على عدم التأميم، كان يتعرض أيضًا لضغوط من الجناح اليساري داخل حزبه وخارجه لدرجة أنه تخلى نتيجة هذا الضغط عن استخدام كلمة إصلاح لصالح كلمة ثورة(١)، بالإضافة إلى الضغوط التي مارسها اتحاد نقابات عمال المناجم

---

(١) L, L: the NationalistRevolution in Bolivia, the World Today, Vol. 8, No. 11 (Nov., 1952), p. 487.

عليه من أجل تأميم المناجم[١]، بالإضافة إلى أن لجنة دراسة تأميم القصدير كانت قد أصدرت توصياتها في تقريرها النهائي، والذي كان يدفع أيضًا في اتجاه تأميم مناجم القصدير، إذ جاء فيه أن بارونات القصدير لم يأخذوا أرباحهم خارج بوليفيا فقط، بل إنهم قاموا بشكل منتظم بإحباط رؤوس الأموال الجديدة في البلاد خشية أن تدعم تلك الاستثمارات الاقتصاد البوليفي وتضعف من قبضتهم، واستمر التقرير في وصف مخططاتهم اللانهائية للتهرب الضريبي والإضرار بالاقتصاد الوطني البوليفي[٢]، يُضاف إلى تلك العواملُ الضاغطة على استنسورو. إن تأميم مناجم القصدير كان عنصرا أساسيا في برنامج الحركة القومية الثورية لخوض انتخابات مايو ١٩٥١م، وكان هذا البرنامج يلبي مطلبا شعبيا تم تأكيده عبر لافتات تطالب بتأميم القصدير، تلك التي استقبل بها البوليفيون استنسورو عقب عودته من منفاه في الأرجنتين لتولي الرئاسة.

أمام تلك الضغوط، صرح استنسورو بأن عملية التأميم حتمية وأكد لواشنطن أنه يجب على الحكومة البوليفية أن تؤمم أو أن تطرد، موضحًا أنها تحتاج إلى عمل نجاحات كبيرة[٣]، وأعاد نائبه سواسو تأكيد ضرورة التأميم، في لقائه مع أتشيسون، وأضاف بأن قرار التأميم نهائي وأن الحكومة البوليفية ستختار أفضل الطرق لتنفيذه[٤]، ومن ثم بدأت الحكومة البوليفية خطواتها التنفيذية لتنفيذ خططها لتأميم مناجم القصدير، فأصدرت مرسومًا أعلى في الثاني من أكتوبر عام ١٩٥٢م ينص على إنشاء شركة التعدين البوليفية CorporacinMinera de

---

(١) NASH, JUNE: *Cultural Resistance and class Consciousness in Bolivian Tin-MiningCommunities*; in Eckstein, Susan (ed.): Power and popularprotest: Latin American social Movements, (Berkeley: University of CaliforniaPress, 2001), p. 183.

(٢) DORN, GLENN J: op. cit, p. 179.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the American Republics, the Ambassador in Bolivia (Sparks) to the Department of State, Secret Priority, La Paz, September 24, 1952, p. 505.

(٤) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the American Republics, Memorandum of Conversation, by the Secretary of State, Restricted, Washington, October 7, 1952, p. 509.

Bolivia COMIBOL لتكون مسؤولة عن بيع المنتجات المعدنية وتصديرها تنفيذًا لمرسوم الثاني من يونيو من العام نفسه، والذي أعلن احتكار بوليفيا لتصدير منتجاتها المعدنية؛ وبذلك حلت شركة التعدين البوليفية محل بنك التعدين؛ لأنه كان يُعتقد آنذاك أن بنك التعدين ليس لديه منظومة قادرة على تسيير صناعة القصدير المحلية وأنه يجب أن يختص فقط بالعمليات البنكية الخاصة بصناعة القصدير[1]، ويُعد قرار ٢ أكتوبر بمثابة تمهيد لإعلان قرار تأميم مناجم القصدير.

وقع استنسورو مرسومًا يقضي بتأميم ممتلكات شركات تعدين القصدير الثلاث في الحادي والثلاثين من أكتوبر من العام نفسه[2]، واعترف فيه بمبدأ التعويضات[3]، وحدد المرسوم ٢٠ مليون دولار تقريبًا كحد أدنى لدفع التعويضات عن المناجم المؤممة[4]، وأصبحت بذلك شركة التعدين البوليفية، بعد تأميم أكبر ثلاثة مناجم في الدولة، تتحكم في حوالي ٧٥٪ من إنتاج القصدير[5]. يتضح من خلال نص المرسوم أن بوليفيا اختارت البديل الثاني - تأميم بتعويضات - من بين البديلين اللذين كانت واشنطن تدفع بوليفيا لاختيار أحدهما بشأن مسألة التأميم؛ بالإضافة إلى أن قرار التأميم شمل أكبر ثلاث شركات تعدينية فقط، ولم يُعمم على جميع شركات تعدين القصدير العاملة في بوليفيا.

أسرع المتحدث الرسمي للحركة القومية الثورية، بعد الإعلان عن التأميم، بتوضيح أن

---

(١) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, the Bolivian Mining Corporation, La Paz, 6th October, 1952, AX 1541/46.

(٢) أعلنت الحكومة البوليفية قرار التأميم على الشعب البوليفي في نفس اليوم في احتفال كبير بميدان «ماريا باسولا» وهو نفس الميدان الذي شهد مذبحة كاتابي الشهيرة عام ١٩٤٩م؛ انظر:

-Dorn, Glenn: op. cit, p. 180.

(٣) Frus, 1952- 1954, Vol. IV, Editorial Note, p. 510.

(٤) Blasier, Cole: *the United States and the Revolution*, op. cit, p. 70.

(٥) Foran, John: op. cit, p. 171.

القرار لن يُطبق على شركات التعدين الصغيرة والمتوسطة، وأنها ستظل مستقلة كما هي[١]، كما أكد استنسورو، خلال لقاء مع جريدة "نيويورك تايمز" New York Times، أن سياسة بوليفيا التأميمية محدودة وأنها لا تمثل نموذجًا للدولة[٢]، وكانت السياسة التأميمية المحدودة تلك، والتي اتبعتها بوليفيا، بمثابة إشارة لواشنطن بأن الحكومة البوليفية لا تريد العداء معها، بالإضافة إلى أنها ترحب باستثمارات القطاع الخاص، لكن كان رد فعل واشنطن غير مؤيد لقرار التأميم على الرغم من اعتراف الحكومة البوليفية فيه بمبدأ التعويضات، ويرجع ذلك إلى أنها كانت تفضل اللا تأميم، وأن التأميم بتعويضات كان هو البديل الأسوأ بالنسبة لها بعد التأميم من دون تعويضات.

لم تناقش واشنطن بجدية العرض الذي قدمه أندراد لتوقيع عقد لمدة عام أو عام ونصف لبيع القصدير البوليفي، في حين أن البوليفيين آنذاك كانوا يقومون بتخزين المواد الغذائية بشكل ضخم بسبب قلقهم من أن الولايات المتحدة قد لا تشتري القصدير بعد قرار التأميم، ومن ثم ستقل واردات المواد الغذائية[٣]؛ إذ إن إدارة ترومان كانت ترى أن توقيع عقد لشراء القصدير سوف يقوي موقف بوليفيا على حساب أصحاب الأسهم، كما أنه سيؤثر على سير عمليات التسوية مع الشركات المؤممة، بالإضافة إلى أن وزارة الخارجية رأت أنه من الممكن أن

---

(١) F.O. 497/18990, Confidential, Part6, Mr. Garnett Lomax to Mr. Eden, the Bolivian Mining Corporation, La Paz, 6th October, 1952, AX 1541/46; See also, Blasier, Cole: the United Statesand .the Revolution, op. cit, p. 70

(٢) .New York Times, 25 November 1954

ومن الجدير بالذكر، أن استنسورو دلل خلال اللقاء مع الجريدة على أن سياسة بوليفيا في التأميم محدودة بتأكيده على أنه رفض مطلب العمال بتأميم السكك الحديدية المملوكة لبريطانيا.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation, by William P. Hudson of theOffice .of South American Affairs, Confidential, Washington, December 9, 1952, p. 511

يُفسر الأمر على أن الولايات المتحدة لا تأخذ موقفا حاسما ضد أية عملية تأميم بصفة عامة[١]؛ ولذلك ربطت الولايات المتحدة - بشكل صريح توقيعها لعقد شراء القصدير بالمفاوضات الخاصة بمسألة التعويضات الناتجة عن التأميم[٢]، إذ كانت سياستها، آنذاك، أن لا يتم توقيع عقد لشراء القصدير من بوليفيا إلا بعد تقديم تسوية مناسبة لدفع تعويضات مناسبة لمساهمي الولايات المتحدة في شركة باتنيو المؤممة. أما بالنسبة إلى باقي المساهمين من الجنسيات الأخرى، فكان رأي وزارة الخارجية أنه عليها أن تستمر في توصية بوليفيا بدفع تعويضات لهم في الحدود التي لا تضر بمصالح الولايات المتحدة وبغض النظر عن نجاحها في تحقيق ذلك أو عدمه[٣]، إذ إن بارونات القصدير الثلاثة كانوا قد تعاقدوا مع شركة للعلاقات العامة في واشنطن من أجل القيام بحملة داخل الولايات المتحدة لدفعها من أجل الضغط على بوليفيا بشأن مسألة التعويضات، وأغرقت تلك الشركة مكاتب أعضاء الكونجرس الأمريكي ووسائل الإعلام بمواد دعائية تنتقد الحكومة البوليفية، وقام أندراد بعمل حملة مضادة للرد على اتهامات بارونات القصدير[٤]، لكن تحرك "أرامايو" و"هوخشيلد" في جانب آخر، وتواصلهما مع السيناتور "ميلر تدنجز" Miller Tydings من أجل الدفاع عن مصالحهما وحقهما في

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Deputy Assistant Secretary of State forInter-American Affairs (Mann) to the Under Secretary of State (Bruce), Confidential,Washington,December 17, 1952, p. 515.

(٢) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Deputy Assistant Secretary of State for Inter-American Affairs (Mann) to the Administrator of the Reconstruction Finance Corporation (McDonald), Confidential, Washington, December 30, 1952, p. 519.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Deputy Assistant Secretary of State for Inter- American Affairs (Mann) to the Under Secretary of State (Bruce), Confidential, Washington, December 17, 1952, p. 515.

(٤) ANDRADE, VICTOR: *My Missions for Revolutionary Bolivia 1944-1962*, Editedwith an Introductory by Cole Blasier, (Pittsburgh: University of Pittsburgh Press, 1976), pp. 135- 140.

التعويض، ومن ثم التأثير على واشنطن، ولقد قام بالفعل بالدفاع عنهما في الكونجرس[١].

لم توافق إدارة ترومان على توقيع عقد لشراء القصدير من بوليفيا على الرغم من نجاحها في جعل مرسوم التأميم البوليفي يتضمن مبدأ إلزام الحكومة بدفع التعويضات، وكان رفضها راجعا لسببين: الأول: أنها أرادت أن تضمن وصول التعويضات إلى مساهميها، ولذلك ربطت بين توقيع العقد وبين الوصول إلى تسوية نهائية بشأن التعويضات، والثاني: أنه سيتم تفسير موافقة واشنطن على توقيع عقد لشراء القصدير على أنه استسلام لسياسة التأميم البوليفية، وستنظر دول أمريكا اللاتينية للأمر على أن الولايات المتحدة لا تأخذ موقفا حاسما تجاه سياسة التأميم، وهذا الأمر بالطبع سيضر بمصالح الولايات المتحدة في تلك الدول، وقد يعرِّض ممتلكاتها لخطر التأميم.

تطورت سياسة الولايات المتحدة بعد ذلك، إذ بدأت في تقديم اقتراحات إلى بوليفيا من أجل الوصول إلى تسوية بشأن التعويضات، فاقترحت على أندراد عمل اتفاقية لعمل لجنة تحكيم تتولى حسم مسألة التعويضات، ووافق أندراد وكتب بنفسه مشروع اتفاق لاستخدامه كورقة عمل وقام بإرسالها إلى حكومته في لاباس[٢]، وتوقعت وزارة الخارجية أن أندراد لن يستطيع إقناع حكومته بفكرة التحكيم، ولذلك كانت تدرس مقترح بأن تُرسل مندوبا لها إلى لاباس للتفاوض حول اتفاقية التعويضات في الوقت نفسه الذي يتم فيه التفاوض بشأن عقد القصدير في واشنطن[٣]، ولكنها غيرت من سياستها ورأت أنه من الأفضل أن تتم التسويات بين حكومة بوليفيا وشركة باتنيو وألا تتم على مستوى الحكومات، حيث كانت مجموعة باتنيو

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum by the Deputy Assistant Secretary of State forInter-American Affairs (Mann) to the Under Secretary of State (Bruce), Confidential, Washington, December 17, 1952, p. 513.

(٢) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, ConfidentialPriority, Washington, December 30, 1952, pp. 516- 517.

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the American Republics, the Secretary of State to the Embassy in - Bolivia, Confidential, Washington, January 9, 1953, p. 520.

بدأت بالفعل مفاوضات مع الحكومة البوليفية لعمل تسوية خاصة بها[١]، وكان هذا التصرف من جانبها بإيعاز من واشنطن، حيث سمحت لها بأن تتقدم بعرض للتسوية إلى استنسورو مثلما فعلت كلٌّ من مجموعة أرامايو ومجموعة هوخشيلد[٢].

نجحت السياسة التي اتبعتها إدارة الرئيس ترومان في تقييد سياسة بوليفيا التأميمية؛ فعلى الرغم من فشلها في الضغط على بوليفيا من أجل عدم تأميم المناجم، فإنها نجحت بشكل نسبي في تقييد سياسة بوليفيا التأميمية، فلم تقم بوليفيا بتأميم جميع الشركات التعدينية العاملة بها، بل قامت بتأميم أكبر ثلاث شركات تعدينية فقط، كما اعترفت بحقهم في الحصول على تعويضات مقابل ممتلكاتهم المؤممة؛ واستمرت إدارة ترومان حتى رحيلها في رفضها توقيع عقد طويل المدة لشراء القصدير البوليفي، على الرغم من اعتراف بوليفيا بمبدأ التعويضات، وربطت توقيعها على العقد بإتمام التسويات الخاصة بالتعويضات خاصة مع مجموعة مناجم باتنيو، حيث كان يمتلك مواطنوها ما يقرب من ربع الأسهم بها، واعتمدت الولايات المتحدة على سياسة المماطلة من أجل تحقيق ذلك.

استمرت إدارة "أيزنهاور" Eisenhower (١٩٥٣- ١٩٦١م) الجديدة على نفس سياسة إدارة ترومان السابقة لها، من حيث ربط توقيعها لعقد شراء القصدير البوليفي بالوصول إلى تسوية واضحة في مسألة التعويضات[٣]، وأبدى أيزنهاور اهتمامًا كبيرًا بقضية المواد الخام ونظر لها على أنها ذات أهمية استراتيجية لأمن الولايات المتحدة، حيث قال: "من الأفضل

---

(١) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the American Republics, the Deputy Assistant Secretary ofState for Inter-American Affairs (Mann) to the Administrator of the Reconstruction Finance Corporat .tion (McDonald), Confidential, Washington, January 15, 1953, p. 521

(٢) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, Secret,Washington .September 25, 1952, p. 508

(٣) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, .Confidential,Washington, March 12, 1953, pp. 522-523

أن يكون لدينا قصدير في Fort Knox[١] بدلاً من الذهب"[٢]، وعلى الرغم من اعتراض وزير ماليته على شراء القصدير من بوليفيا، بسبب خسارة مصهر تكساس الاقتصادية ووجود مخزون كافي من القصدير، فإن أيزنهاور أكد على ضرورة الحصول على المواد الخام وخاصة القصدير[٣]، وأضاف مساعد وزير الخارجية لشؤون البلدان الأمريكية، "جون كابوت John Cabot، أن بوليفيا هي المصدر الآمن الوحيد للقصدير في نصف الكرة الغربي[٤]، وأن رفض شراء القصدير يساوي قطع رقبة بوليفيا[٥]، وقررت بذلك إدارة أيزنهاور الاستمرار في شراء القصدير البوليفي، ولكن بعد إتمام التسويات الخاصة بالتعويضات.

على الجانب الآخر، كانت الأوضاع في بوليفيا تزداد سوءًا مما دفع سباركس إلى أن يوصي في برقيته إلى وزارة الخارجية بالإسراع في إتمام عقد القصدير مع بوليفيا وذكر: "... إنه دون تأكيد الولايات على شراء نصف إنتاج القصدير البوليفي، فسوف تتعاظم احتمالات وصول بوليفيا إلى حالة من الفوضى الاقتصادية، وسيصاحب تلك الفوضى عواقب سياسية"[٦]، وأضاف تقرير للمخابرات المركزية الأمريكية أن الرأي الغالب في الدوائر الحكومية البوليفية هو أن الولايات المتحدة لا تنتوي الوصول لاتفاق ولكنها فقط تنتظر تدهورا اقتصاديا لكي يتبسبب

---

(١) فورت كنوكس هو الاسم المعروف للخزانة الرئيسة لاحتياطي الذهب في الولايات المتحدة الأمريكية.

(٢) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation by the Assistant Secretary ofState - for Inter- American Affairs (Cabot), Secret, Washington, June 22, 1953, p. 532.

(٣) Loc. Cit.

(٤) DOSB, Vol. XXX, No. 759, 11 January 1954, John M. Cabot: Mutual Economic Progress in the Americas, p. 50.

(٥) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Memorandum of Conversation, by William P. Hudson of theOf- - fice of South America Affairs, Confidential, Washington, June 3, 1953, p. 531.

(٦) FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Ambassador in Bolivia (Sparks) to the Department of State, -(Confidential NIACT, La Paz, March 13, 1953, p. 525.

في الإطاحة بالحكومة[١]، وأنه ربما يُفسر ذلك على أنه انتقام بسبب قرار تأميم القصدير في أكتوبر الماضي (١٩٥٢م)[٢]، خاصة وأن بوليفيا مستعدة لعمل تسويات نهائية مع الملاك السابقين لشركات التعدين الثلاثة نتيجة لضغط الولايات المتحدة عليها ورفض توقيع عقد طويل المدة[٣].

أبلغت الحكومة البوليفية سفارة الولايات المتحدة في لاباس في السابع والعشرين من أبريل ١٩٥٣م بأن شركة التعدين البوليفية شرعت في عمل مفاوضات مع شركات التعدين الثلاث كي يتم التوصل إلى اتفاق بشأن مسألة التعويضات، وأعلمتها كذلك بموافقتها على دفع التعويضات لمدة عام عن طريق خصم نسبة معينة من عقود القصدير الموقعة مع المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة، وهذه النسبة تعتمد على زيادة أو نقصان سعر القصدير. استمرت تلك المفاوضات إلى أن وقّعت الحكومة البوليفية اتفاقا مع مجموعة باتنيو، في الثالث عشر من يونيو من العام نفسه، من أجل دفع مبالغ معينة كتعويضات حتى آخر ديسمبر من عام ١٩٥٤م، إلى أن يتم التوقيع على اتفاقية تعويض نهائية[٤].

بمجرد إتمام الاتفاق مع باتنيو، قامت جريدة نيويورك تايمز بالثناء على الحكومة البوليفية لقدرتها على الوصول إلى اتفاقية مع باتنيو وقدرتها على إبقاء الشيوعيين تحت الملاحظة وبعيدًا عن الحكومة، وحثت الجريدة إدارة أيزنهاور على ضرورة توقيع عقد لشراء القصدير البوليفي[٥]، ولم يتأخر رد وزارة الخارجية الأمريكية طويلاً، حيث عرضت على بوليفيا عقد

---

(١) CIA, Office of current Intelligence, Current Intelligence Bulletin, No. 60, 9 May 1953, Top Secret, Bolivia believedready to settle tin problem.

(٢) - CIA, Office of current Intelligence, Current Intelligence Bulletin, No. 60, 17 March 1953,Top Secret, Stability of Bolivia governmentreportedlythreatened by RFC decision.

(٣) CIA, Office of current Intelligence, Current Intelligence Bulletin, No. 60, 9 May 1953, TopSecret, Bolivia believedready to settle tin problem.

(٤) - FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Editorial Note, p. 526.

(٥) New York Times, June 17, 1953.

لمدة عام لشراء خام القصدير بسعر السوق العالمي[١]، وبالفعل قامت الولايات المتحدة بتوقيع عقد لشراء حوالي (١٠,٠٠٠) طن من القصدير، والذي سيستمر تسليمه لمدة عام[٢].

هكذا، استطاعت الولايات المتحدة تحقيق هدفها الأساسي، وهو كما ذكر أتشيسون في برقية لسباركس في لاباس: "إعطاء الفرصة لاستنسورو باللحاق بخطة منتصف الطريق"[٣]، وهو ما حققته من خلال الضغط على بوليفيا بشكل مستمر ومتزايد تدريجيًا خلال فترة إدارة ترومان وبداية إدارة أيزنهاور.

في النهاية، استجابت بوليفيا للضغط الأمريكي وتوصلت إلى تسوية مع باتنيو كذلك مع هوخشيلد وأرمايو بشأن التعويضات عن ممتلكاته المؤممة، وكان الاتفاق مع مجموعة باتنيو هو الأهم بالنسبة للولايات المتحدة لامتلاك مواطنيها ربع أسهم الشركة، وبمجرد إتمام بوليفيا الاتفاق مع الشركة أعلنت الولايات المتحدة عن عرضها لتوقيع عقد لمدة عام لشراء القصدير البوليفي. ولعل اعتماد الولايات المتحدة للعقد لمدة عام واحد كان نابعا من رغبة إدارة أيزنهاور في عدم فقدان سلاحها من أجل الضغط لاستكمال اتفاقيات التعويضات بعد انتهاء مدة الاتفاق المؤقت بين بوليفيا ومجموعة باتنيو من جانب، وإعطاء الفرصة لنفسها حتى تحدد سياسة مستقبلية واضحة المعالم في تعاملها مع بوليفيا من جانب آخر.

نخلص مما سبق، أن الولايات المتحدة لم ترحب بالثورة البوليفية، ولم تؤيد وصول الحركة القومية الثورية للحكم، خاصة وأنه في أبريل ١٩٥٢م كانت إدارة ترومان ما زالت تحكم، وكان لديها تاريخ من العداء تجاه الحركة القومية الثورية، ولكن حاولت الولايات المتحدة الحفاظ على مصالحها في بوليفيا بعيدًا عن أية تهديدات، انطلاقًا من أن السياسة لا تعرف

---

(١) DOSB, Vol. XVIII, No. 720, 17 June 1953, p. 26.

(٢) - FRUS, 1952-1954, Vol. IV, Minutes of a Cabinet Meeting Held at the White House, Confidential, July 3, 1953, p. 534. See also: F.O. 497/19634, Secret, Part8, Sir John Lomaxto Mr. Eden, Bolivia: Annual Review for 1953, La Paz, January 5, 1954, AX 1011/1.

(٣) - FRUS, 1952-1954, Vol. IV, the Secretary of State to the Embassy in Bolivia, Secret NIACT, Washington, September 19, 1952, p. 504.

العداء المطلق، إذ إنها فتحت قنوات الاتصال مع الحكومة البوليفية الجديدة، التي سعت إلى الحصول على الاعتراف الأمريكي المبكر مستفيدة من دروس الماضي، واستطاعت الولايات المتحدة الحصول على تأكيدات وتعهدات من جانب الحكومة البوليفية بشأن عدة قضايا كانت تشكل خطرا على مصالحها في المنطقة، مما دعا واشنطن إلى الاعتراف بها من أجل ألا تزداد الأمور سوءًا وتأتي حكومة بوليفية أخرى أكثر عداءً لها، ومن ثم بدأ صناع القرار في واشنطن في وضع سياسات من أجل التعامل مع الوضع الجديد في بوليفيا.

***

القَوَاعِدُ العَسْكَرِيّة الأَمْرِيكِيّة في شَمَالِ أَفْرِيقيا (١٩٥٠-١٩٧٧)
دِرَاسَةٌ وَثَائِقيّة

د. أحمد عبدالدايم محمد حسين(*)

مقدمة

شهدت بداية الخمسينيات تواتر المعاهدات الأمريكية التي ترتب لإقامة قواعد عسكرية في منطقة شمال أفريقيا، وتعمل على تنفيذ خططهم فيها. فأهمية المنطقة التي برزت خلال الحرب العالمية الثانية، والرفض المصري لمشروع الشرق الأوسط في أواخر الأربعينيات، ثم إعادة عرضه وتكرار رفضها له سنة ١٩٥١، دفع الأمريكان لترتيب استقلال ليبيا، والبحث عن قاعدة عسكرية لهم فيها بجانب القاعدة البريطانية. وبالمثل فعلوا مع المغرب فحازوا من الفرنسيين على عدد من القواعد هناك سنة ١٩٥٠. ولما كنا كعالم عربي جزءًا من السياسة الأمريكية، وكشمال أفريقيا كانت مصر بمواقفها الرافضة للأحلاف جزءًا من الترتيبات التي تمت عبر حدودها الغربية، لذا هَلّت الستينيات فكان الأمريكان هم القوى الرئيسية المهيمنة في شمال أفريقيا. صحيح أن الاتحاد السوفيتي قد حاول النفوذ للمنطقة، مع تصاعد وتيرة الحرب الباردة، غير أن الرغبة الأمريكية في السيطرة عليها، أوجدت لها أسطولًا كبيرًا في البحر المتوسط، الأسطول السادس، وقواعد عسكرية مهمة في ليبيا والمغرب، لتحمي مصالحها الاستراتيجية في البحر المتوسط وشمال أفريقيا، وتؤمن مصالحها الاقتصادية والسياسية في الخليج العربي. فالقواعد لم تكن هدفها الاحتلال بالمعنى التقليدى، بل السيطرة على المنطقة العربية واستبدال الحكم الاستعماري القديم بنفوذ عسكري أمريكي جديد.

ومن المؤكد أن الموقع الاستراتيجى لليبيا والمغرب لم يكن وحده عنصرا جاذبا للولايات المتحدة الأمريكية للنفوذ والسيطرة عليهما. بل لعبت الظروف الدولية، بتصاعد الحركة

(*) أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر- معهد البحوث والدراسات الأفريقية -جامعة القاهرة.

الوطنية في شمال أفريقيا واستقلال دولها، ورغبة الاتحاد السوفيتي في السيطرة على المنطقة، دورًا مهمًا في تسريع خطى الأمريكان في الاستحواذ عليهما. وفي هذا الإطار شارك العديد من ساستهم في صياغة السياسة الأمريكية تجاه تلك الدولتين العربيتين. فقد اهتمت إدارة ترومان ١٩٤٥-١٩٥٣، وإيزنهاور ١٩٥٣ ١٩٦١، بترسيخ قدمها في تلك المنطقة الهامة من العالم وترتيبها. واستمر هذا الوضع قائمًا في الإدارات التالية إلى أن جلت الولايات المتحدة الأمريكية عن بعض قواعدها في المغرب سنة ١٩٦٣ وعن البقية سنة ١٩٧٧، وعن قاعدتها الليبية سنة ١٩٧٠. ولما كانت هناك إشكاليات كثيرة متعلقة بتلك القواعد، أقلها الشائعات التي ترددت حول استخدامها في ضرب مصر في حرب ١٩٥٦ عبر القاعدة الإنجليزية في ليبيا، وفي حرب ١٩٦٧ عبر القاعدة الأمريكية، كان لا بد أن تأتي ورقتنا "القواعد العسكرية الأمريكية في ليبيا والمغرب ١٩٥٠-١٩٧٠"؛ لتتناول تلك الإشكاليات. وتتقصى طبيعة تلك القواعد، ومدى تأثيرها على العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط بصفة عامة، ومنطقة شمال أفريقيا بصفة خاصة.

وفي هذا الإطار تنقسم الدراسة إلى خمسة محاور رئيسية:

المحور الأول- بداية الوجود العسكري الأمريكي في شمال أفريقيا.

المحور الثاني- إنشاء القواعد الأمريكية في شمال أفريقيا.

المحور الثالث- أثر القواعد العسكرية في المساعدات الأمريكية لليبيا والمغرب ١٩٥٠-١٩٧٧.

المحور الرابع- بنية القواعد الأمريكية في ليبيا والمغرب.

المحور الخامس- جلاء الأمريكان عن قواعدهم العسكرية في شمال أفريقيا ١٩٧٠-١٩٧٧.

•••

المحور الأول- بداية الوجود العسكري الأمريكي في شمال أفريقيا.

من المؤكد أن أهمية منطقة شمال أفريقيا الاستراتيجية قد رسخت بشكل قاطع خلال الحربين العالميتين، الأولى والثانية[1]. وعلى هذا استهدفتها كل المشروعات الدفاعية التي قام بها الغرب والشرق للسيطرة عليها؛ لإقامة قواعد عسكرية بها. وبالطبع كانت الولايات المتحدة المحرك الرئيسي لتلك المشروعات منذ سنة ١٩٤٩. حينما أرادت أن تقيم حلفا مختصًا بالبحر المتوسط، على أن يكون فرعًا من حلف الأطلنطى[2]. وبالتالي تزايد نفوذها عن طريق المعونة الحربية والاقتصادية والوساطة السياسية للبلاد الواقعة عليه. وكان نجاح الاتحاد السوفيتي في تفجير القنبلة الذرية الأولى له في سبتمبر ١٩٤٩ لا يعني تحقيق توازن استراتيجى مع الولايات المتحدة التي خرجت أقوى ما يكون بعد الحرب العالمية الثانية فحسب، بل قدرة على استخدام سلاح فتاك والتهديد به أيضًا. وهو الأمر الذى جعل الولايات المتحدة تتبنى خلال الفترة من ١٩٤٧- ١٩٤٩ سياسة واضحة في المساعدات الأوربية، تمثلت في مشروع مارشال، ثم مساعدات لتركيا واليونان وأية دولة تحارب النفوذ الشيوعي عبر مبدأ ترومان، ثم مساعدات لدول العالم الثالث من خلال مشروع النقطة الرابعة لمقاومة تمدُّد الشيوعية سنة ١٩٤٩. بل تم توقيع ميثاق حلف شمال الأطلنطى[3] في ٤ أبريل ١٩٤٩. غير أن قيام الاتحاد السوفيتي بتفجير قنبلته الذرية، واشتعال الحرب الكورية سنة ١٩٥٠ ، قد أدى إلى وضع حلف الأطلنطي كافة الاحتمالات للمواجهة والحرب ضد السوفيت[4]. فعلى سبيل المثال، اهتمت الولايات المتحدة

---

(١) Tate H.R.:- *The French Colonial Empire, Journal of The Royal African Society*, Vol. 35 .No,157,(Oct.1940)PP.324,325.

(٢) مذكرة عن حلف البحر المتوسط فرع من حلف الأطلنطي، في أغسطس ١٩٤٩، ملف ٥ رقم ٢٤/٢٦/٣٨ حلف البحر الأبيض المتوسط، محفظة ٢٤٤ (كود أرشيفي٢٤٣) سري جديد، خارجية، ص١.

(٣) وقعت عليه ١٢ دولة، هي: فرنسا وبلجيكا ولوكسمبورج وإيطاليا والبرتغال والدانمرك والنرويج وأيسلندا وبريطانيا وكندا والولايات المتحدة وهولندا، ثم انضمت تركيا واليونان سنة ١٩٥٢. وألمانيا الاتحادية سنة ١٩٥٥.

(٤) مؤيد محمود حمد: سياسة الأحلاف الغربية وانعكاساتها على الوطن العربي ١٩٤٥- ١٩٥٨، مجلة سر من رأى، المجلد ٦، العدد ٢٣، السنة ٦، أكتوبر ٢٠١٠، العراق ٢٠١٠، ص ص ٩٩، ١٠١-١٠٣، ١٥٥.

بالمغرب منذ سنة ١٩٤٢، منذ أن نزلت جيوشها هناك واتخذت أرضه قاعدة للزحف على جنوب أوربا. فاستأجرت بناء قواعد عسكرية أمريكية على أراضيه من الحكومة الفرنسية، وهو الأمر الذى جعلها توافق على نفي الملك محمد الخامس سنة [(١)]٩٥٣.

وبعد طرد الإيطاليين والألمان من ليبيا سنة ١٩٤٣ خضعت أقاليم برقة وطرابلس للحكم العكسري البريطاني، وخضعت فزان في الجنوب للحكم العسكري الفرنسي. واستقل إقليم برقة عن الإدارة البريطانية في ١ يونيو ١٩٤٩، واستقلت ليبيا ككل في ٢٤ يناير ١٩٥١. فكانت الدولة الجديدة تحت حماية القواعد الأمريكية والبريطانية والفرنسية الموجودة فيها منذ سنة ١٩٤٢[(٢)].غير أن نفوذ الولايات المتحدة كان عاملاً رئيسيًا في تشكيل الدولة الجديدة. حيث ساعد الضغط الأمريكي في الأمم المتحدة على تقسيم المنطقة مرة أخرى. فضلًا عن تقديمها المساعدات لاستئجار قاعدة ويلوس الجوية خارج طرابلس[(٣)].

وفي هذا الإطار لا يمكن فهم هذا المحور فهما جيدًا إلا بالحديث عن خلفية الوجود العسكري في منطقة الملاحة في ليبيا ثم وجودهم في قاعدة ليوتي الفرنسية في المغرب.

أولًا- الوجود العسكري الأمريكي في قاعدة الملاحة الإيطالية في ليبيا:

تقع قاعدة الملاحة الجوية على ساحل البحر المتوسط ، إلى الشرق من طرابلس. بنيت في الأصل من قِبل سلاح الجو الإيطالي عام ١٩٢٣ تحت اسم قاعدة الملاحة Mellaha الجوية، والتي عُرفت فيما بعد باسم مطار معيتقة الدولي. استخدمها الألمان في الحرب العالمية الثانية، ثم استولى عليها الجيش البريطاني في ٨ يناير ١٩٤٣، حتى انتهت إلى قيادة التدريب لسلاح

---

(١) مؤيد محمود المشهداني: تطور الأزمة السياسية الثانية في المغرب، مجلة سر من رأى، المجلد ٧، العدد٣٥، ، السنة ٨، أبريل ٢٠١١، العراق ٢٠١١، ص١١٦ .

(٢) وليد خالد يوسف: نشأة وتطور الجيش الليبي في العهد الملكي ١٩٥١-١٩٦٩، مجلة سُرَّ مَنْ رأى، المجلد ٩، العدد ٣٣، السنة ٩، كانون الثاني ٢٠١٣، العراق ٢٠١٣، ص٣٦٣.

(3) The United States and Libya, http://www.foreignaffairs.com/articles/41701/edward-schumacher/the-united-states-and-libya

الجو الأمريكي في ١٥ أبريل ١٩٤٥[١]؛ غير أنه لم يبدأ فى استخدامها إلا في يناير ١٩٤٣. وجدير بالذكر أنه أعيد تسميتها تحت مسمى قاعدة ويلوس الجوية Wheelus Air Base في ١٧ مايو ١٩٤٥[٢]. وكان يوجد بها حينذاك حوالي ٤,٦٠٠ جندي. وحين تسلمها الأمريكان في ربيع ١٩٤٣، استولت عليها قيادة النقل الجوي في ١٥ أبريل عام ١٩٤٥، إلى أن توقف نشاطها رسميًّا في ١٥ مايو في عام ١٩٤٧، ثم أعيد تنشيطها وتحويلها إلى خدمة النقل الجوي العسكري في ١ يونيو ١٩٤٨[٣]. ويشير البعض بأن تاريخ تسميتها بويلوس، جاء مع بداية تفكير الغرب فى إنشاء حكومة محلية صديقة لهم[٤]. من هنا، جاء إنشاء القوات العسكرية في الشرق الأوسط (USAFIME) من قِبل وزارة الحرب في ١٦ يونيو ١٩٤٢ بعد مناقشة قانون الإعارة والتأجير لقواعد عسكرية لوكالة الجيش الأمريكي في الشرق الأوسط، في الفترة من يونيو ١٩٤٢ إلى نهاية فبراير ١٩٤٥. وبعد اكتشاف أهمية ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية، وانتهاء العمليات، تم نقل مقر تلك الوكالة إلى الدار البيضاء في مارس ١٩٤٥[٥].

وجدير بالذكر، أن قاعدة الملاحة قد بدأت بتأسيس مساكن لـ٦٦٧ عسكريا أمريكيا في ١٥ أبريل ١٩٤٥، عبارة عن هنجرين (مستودعين كبيرين) بطول ١٠٠ متر في ١٢٠ مترا، وأماكن لـ ٤٦ طائرة، و٢٥ ألف Square Tional . وكما عرفنا أنه في ١٧ مايو ١٩٤٥ تحول اسم

---

(١) wheelus-afb-2271/articles-6/http://wheelus.info/index.php/component/content/article

وانظر،

https://translate.google.com.eg/?hl=ar&tab=wT#en/ar/Wheelus%20Air%20Force%

(٢) Wheelus Air Base, http://en.wikipedia.org/wiki/Wheelus_Air_Base

(٣) War Department. Air Transport Command. Wheelus Air Base, Libya. (05/17/1945 - 05/15/1947) Department of Defense. Department of the Air Force. Military Air Transport Service. (Wheelus Air Base, Libya. (06/01/1948 - 01/01/1953

(٤) WALTER J. BOYNE:- *The Years of Wheelus, Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1, January 2008 ,http://www.airforcemag.com/MagazineArchive/Pages/2008/January%202008/0108wheelus.aspx

(٥) (War Department. U.S. Army Forces in the Middle East. (06/16/1942 - 03/01/1945

الملاحة إلى اسم ويلوس، على اسم أول طيار أمريكي، ريتشارد هويلس، قتل خلال تدريب قتالي في منطقة عبدان بإيران في ١٨ فبراير ١٩٤٥. وخلال تلك الفترة تم زيادة مساحتها من ٣١٥ أكر إلى ١٢٦٤ أكر، وظلت كذلك حتى زادت سنة ١٩٥١ لـ ٣٤٠٠ أكر. وكان يسافر منها وإليها سنة ١٩٤٦حوالى ٥٠٠ مسافر كل شهر، ويصلها ١٧ طن بريد[١]. في حين، كانت مساحة القاعدة البريطانية في العدم، في منطقة العمار بالجبل الأخضر في بنغازي، حسب مراسلات سنة ١٩٥١ حوالي ١٢٥٠ هكتار أو ٣١٢٥ أكر. وفي نوفمبر ١٩٥١، أي قبل الاستقلال بشهر، طلبت الحكومة البريطانية من رئيس وزراء برقة الموافقة على تأجير مواقع بطبرق لتكون قاعدة للبحرية البريطانية. غير أن انشغالها بالاستقلال لم ينجز الأمر، فتمت المراسلات حول نفس الموضوع في يناير ١٩٥٢[٢]. وعلى هذا، يمكن القول بأنه خلال معارك الحرب العالمية الثانية اختارت القوات الأمريكية مطار الملاحة الواقع في منطقة تاجوراء على مسافة ١١ كم من مدينة طرابلس، لتستخدمه كقاعدة للسرب ٣٧٣ من القاصفات بعيدة المدى، ب ٢٤، التابع للفرقة التاسعة قاذفات. كما استخدمتها حلقة وصل بين تونس والقاهرة وداكار. ولتصاعد أهميتها خلال الحرب اهتمت الحكومة الأمريكية بتطويرها، وأنفقت عليها مبلغ ١٠٠ مليون دولار من فبراير ١٩٤٣- فبراير ١٩٤٥. وذلك لمواجهة احتياجات قواتها العسكرية في آسيا وأفريقيا وأوربا. ومن أهم الأهداف التي ضربتها قاصفات ب ٢٤، مصافي النفط التابعة لقوات المحور في بلوستي برومانيا في ١ أغسطس ١٩٤٣، باعتبارها أهم مصدر لوقود جيش المحور[٣]. ووفقا للمادة ٢٣، والمرفق الحادي عشر، من معاهدة السلام مع إيطاليا في باريس في ١٠ فبراير ١٩٤٧، وافقت الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا على التصرف النهائي في الممتلكات الإيطالية السابقة في أفريقيا، أي ليبيا وإريتريا والصومال الإيطالي. وانتهى الأمر إلى

---

(١) Base Trase History To WWII Needs, Tripoli Troters , January 30 .1970, p.3

(٢) علي شعيب: أسرار القواعد العسكرية في ليبيا، سلسلة تحقق اشتراكية الثقافة، كتاب الشعب، العدد ٣، مارس ١٩٨٣، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٣، ص ص ٤٨، ٤٩، ٥٧، ٥٩.

(٣) وليد خالد يوسف: مصالح الولايات المتحدة الأمريكية في ليبيا ١٩٥١-١٩٦٩، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، جامعة الدول العربية، ٢٠١١، ص ص ٤٧-٥٠.

ما انتهى إليه قرار ٣١ أغسطس [١]١٩٤٨. ذلك القرار، الذي أتاح للأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ بأن تعلن موقفها النهائي باستقلال ليبيا بأقاليمها الثلاثة لتعرف باسم المملكة المتحدة الليبية[٢].

ثانيًا- الوجود العسكري الأمريكي في قاعدة ليوتي الفرنسية في المغرب:

هناك تاريخ طويل من العلاقات المغربية الأمريكية الودية، باعتبار المغرب من أولى الدول التى سعت لإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية مع الأمريكان منذ عام ١٧٧٧. ووفقا للأعراف الدبلوماسية المغربية في نهاية القرن ١٨، وضعت الولايات المتحدة على قدم المساواة مع جميع الدول الأخرى التي حصلت على امتيازات في أراضى السلطان. بل كانت المغرب واحدة من أولى الدول التى تعترف علنًا باستقلال الجمهورية الأمريكية. وتطورت العلاقات بين الطرفين وتوثقت عبر معاهدة الصداقة بينهما في نهاية القرن [٣]١٨. غير أن الوجود العسكري الأمريكي في المغرب حدث خلال الحرب العالمية الثانية، حينما تم توقيع ميثاق الأطلسي بين الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني، ونستون تشرشل، في أثناء غزو الحلفاء لشمال أفريقيا. حيث توجهت القوات الأمريكية إلى الدار البيضاء لدعم العمليات هناك سنة ١٩٤٣، وقاتلتْ فى البحر المتوسط والمغرب والجزائر[٤]. ولعل الصور التى التقطت لقاعدة ليوتي منذ سنة ١٩٤٢، وصور الجنود الأمريكيين العاملين بها، ومهابط الطائرات وأسرابها والغواصات[٥]، تقطع بهذا الوجود وتؤرخ له.

المدهش أن لدينا معلومات وصور ومادة علمية موثقة لتلك القاعدة الأمريكية في

---

(١) Council of Foreign Ministers. Deputies for the Former Italian Colonies. (10/03/1947 - (09/01/1948

(٢) زكي البحيرى: الاتفاقية الليبية الأمريكية حول القواعد العسكرية ١٩٥٤-١٩٧١، دراسة في جذور الصراع الليبي الأمريكي، بحوث مؤتمر أفريقيا وتحديات القرن الحادي والعشرين ٢٧-٢٩ مايو ١٩٩٧، المجلد الأول، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ١٩٩٨، ص١٨٢.

(٣) U.S. Morocco RelationsThe Beginning, http://morocco.usembassy.gov/early.html

(٤) Department of the Navy. Arkansas (Battleship). (09/17/1912 - 07/29/1946),Dictionary of . American Naval Fighting Vessels

(٥) HistoryofPortLyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey%20History.htm

المغرب منذ إنشاء المركز الفرنسي للطيران البحري في ميناء ليوتي تحت قيادة روبرت مونتاني في ٢٨ يونيو ١٩١٩ وحتى ٨ يناير ١٩٢١. بل يقفز بنا هذا التاريخ لأغسطس ١٩٣٩ حينما أصبحت القاعدة تحت قيادة لويس بلاتير دويسي حتى ٣٠ سبتمبر ١٩٤١. ثم صارت بعدها تحت قيادة هنري نومى Nomy حتى ١٠ أغسطس ١٩٤٢. وفي ٨ نوفمبر ١٩٤٢ شهدت بداية التغيير، بطرد قوات فيشي وحلول القوات الفرنسية الحرة . وتعرضت الدار البيضاء وميناء ليوتي للقصف الأمريكي، وانتهى القتال في ١٠ نوفمبر ١٩٤٢، حيث أغلقت القاعدة البحرية. ولم يبق فيها إلا فرقة تابعة للبحرية الفرنسية[١]. لكن حينما يتحدث كثير من العسكريين الأمريكان عن ذكرياتهم في ميناء ليوتي بعد هذا التاريخ، نتأكد من أن علاقتهم بها قد أصبحت وثيقة. فعلى سبيل المثال، يذكر أحدهم أنه خدم بها منذ سنة ١٩٤٣، باعتبارها مبيتًا للقوات الجوية والبحرية، وأنه ترأس أحد المطارات الحربية. وأنهم غيَّرُوا ميزان القوة الجوية في البحر المتوسط. ناهيك عن عمليات الحرب المضادة للغواصات الألمانية والإيطالية التي تُبْحِر في المتوسط والمحيط الأطلسي. فكانت جميع الأسلحة موجودة داخلها، وكانت زوجاتهم معهم . بل إن امتداد العمليات ما بين ترينيداد وبيليم البرازيل، وناتال جنوب أفريقيا، وداكار السنغال، ثم العودة إلى ميناء ليوتي الفرنسي المغربي، كلها تثبت بأنه منذ أقيمت تلك القاعدة سنة ١٩٤٠، لتناسب الطلعات الجوية والبحرية المعادية لقوات الحلفاء، وهى فاعلة بلا انقطاع. حيث أقيمت بها ممرات للطائرات وأبراج مراقبة وتدريبات ليلية، وثكنات خرسانية ومخيمات للجنود، ومحطة اتصالات ومحطات تموين. ولعل قصص الحرب المتواترة عنها من قبل الأمريكيين، تشي بأهميتها وضرورتها وقيمتها خلال الفترة من ١٩٤٠-١٩٤٥[٢]. فقد خدم الكثيرون فيها منذ سنة ١٩٤٤، منهم مهندسو طيران ومشغلو رادار ورجال استخبارات ورجال

---

(١) Ibid

(٢) Panoramic VB-112 squadron photograph taken in October, 1944 at Craw Field, Port Lyautey, Morocco, http://www.portlyautey.com/VB112.htm

مدفعية واتصالات وغيرهم الكثير(١).

ما يَعْنينا فى هذا المقام، أنه نتج عن الحرب العالمية الثانية اهتمام أمريكي أكبر بشمال أفريقيا. فوضعوا المغرب على خريطة اهتمامهم، واقتربوا منها أكثر عندما احتلتها قوات فيشي الفرنسية المتحالفة مع ألمانيا، سنة ١٩٤٢. وعلى إثر نزول الحلفاء لشمال أفريقيا في نوفمبر ١٩٤٢ نزل حوالي ٥٠,٠٠٠٣ جندي أمريكي في المغرب. ومع أن مقاومة فيشي لم تدم طويلا، فإن الحلفاء اتخذوا من قاعدة ليوتي ميناءً بحريًا لهم، بعدما قدَّم السلطان محمد الخامس ولاءه الشخصي لهم، وأصبح الجنود المغاربة تابعين للقوات الفرنسية الحرة. وفي هذا الإطار أعلن الرئيس الأمريكي روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، والجنرال شارل ديجول قائد قوات فرنسا الحرة، عن خطة استراتيجية لخطوط الدفاع في مؤتمر الدار البيضاء في يناير ١٩٤٣. لكن تبين هذا الاهتمام الأمريكي أكثر وضوحًا، حينما التقى الرئيس روزفلت حينها بالسلطان محمد الخامس دون علم السلطات الفرنسية، على الرغم من أن المغرب كان لا يزال حينها محمية فرنسية وإسبانية. ويبدو أن ساسته كانوا ينتظرون هذا التلاقي في المصالح، حيث استغل السلطان الفرصة للحصول على دعم الولايات المتحدة في استقلال المغرب. وتأكد من أن الأمريكان يقفون إلى جانب مصلحة بلاده» في هذا الأمر. وعلى هامش اللقاء السري بينهما تم عقد معاهدة تبادل طلابي، الأمر الذى قوبل باستياء فرنسي واضح(٢).

لقد تم إنشاء قاعدة عمليات بحرية في الدار البيضاء في ميناء ليوتي بغرض فتح منافذ وتسيير دوريات مضادة للغواصات، وتقديم خدمة الإمداد والصيانة. ناهيك عن إنشاء قوة حدود بحرية في ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ لها أقسام ثلاثة رئيسية: وحدة الحراسة، والدوريات الجوية، وتضم المحطة البحرية والأسطول الجوي والجناح ١٥، والقاعدة. وتم تكوين شبكة تشغيل بحرية في الدار البيضاء، وقاعدة فيدالا Fedala ، وآسفي، إلى أن تغير هذا الأمر في ١٥ أبريل

---

(١) Naval Air Station Port Lyautey, Kenitra, Morocco, http://www.portlyautey.com/Gandsey.htm

(٢) CAROL MIGDALOVITZ :*Maghreb Facing New Global Challenges* ..U.S.-Moroccan Relations ..How Special? Programme Moyen-Orient/Maghreb ,October 2011.P.4.5

١٩٤٥[1]. حيث دعت الخطط التنفيذية الأمريكية إلى ضرورة إنشاء قاعدة عمليات بحرية في الدار البيضاء، وقاعدة جوية بحرية في ميناء ليوتي وفيدالا، لفتح المنافذ في تلك الأماكن، وتسيير دوريات مضادة للغواصات[2]. وتأسست شعبة الهواء ٣١٦ ، كجناح قصف ثقيل فى ٤ أغسطس سنة ١٩٤٤، تلك الشعبة التي تم تفعيلها في ١٤ أغسطس ١٩٤٤. وأعيدت تسميتها بالجناح ٣١٦ مركب، في ٨ يناير عام ١٩٤٦، وتم تعطيلها في ٢١ يونيو ١٩٤٨. وصارت تُدْعَى شعبة الهواء ٣١٦ دفاع في ٢٦ يونيو عام ١٩٥٣، وانتظمت في ١٨ سبتمبر عام ١٩٥٣، وتوقفت عن العمل في ١ أبريل ١٩٦٠. وأعيد تسميتها بشعبة تكنولوجيا المعلومات الهوائية ٣١٦ ، في ١ يونيو عام ١٩٨٥، وتم تفعيلها في ١٤ يونيو عام ١٩٨٥، وعطلت في ١ مايو ١٩٩١[3]. أما شعبة القوات الجوية الثانية، فقد أنشئت في ١٤ أغسطس ١٩٤٤ ؛ فضلًا عن إنشاء خدمة قوات الجيش في ٨ يوليو ١٩٤٥، والقوة الجوية الثامنة فى ٥ سبتمبر ١٩٤٥، وشعبة ١ هواء في ١٣ يونيو ١٩٤٦، والقوات الجوية السابعة في ١٨ سبتمبر ١٩٥٣، والقوات الجوية الأمريكية في أوربا في ١٥ نوفمبر ١٩٥٩؛ وغيرها. أما ما يخصُّنا منها في المغرب، فقد تأسس سنة ١٩٤٨، وترسخ أمره في ١٨ سبتمبر ١٩٥٣[4]. نخلص من ذلك بأن وجود الأمريكان العسكري في المغرب وليبيا هو الذى أتاح لهم اختبار الأهمية الاستراتيجية والعسكرية لمنطقة شمال أفريقيا منذ الأربعينيات. وأن تدخلهم في صياغة استقلال ليبيا سنة ١٩٥١، ثم استقلال المغرب سنة ١٩٥٦، كان بهدف الاحتفاظ بتلك القواعد التى حصلوا عليها، وأقاموا بها منذ فترة الحرب.

(١) Department of the Navy. Sea Frontier Forces, Western Task Force. (11/19/1942 - 02/03/1943), Federal Records of World war II, Vol. II: Military Agencies, Sec. 1180 .

(٢) (Department of the Navy. Sea Frontier Forces, Western Task Force. (11/19/1942 - 02/03/1943)

(٣) War Department. Army Air Forces.~. 316th Bombardment Wing, Very Heavy. (08/04/1944 .(- 01/08/1946) Air Force Historical Research Agency Web Site (2004

(٤) War Department. Army Air Forces.~. 316th Bombardment Wing, Very Heavy. (08/04/1944 .(- 01/08/1946) Air Force Historical Research Agency Web Site (2004

المحور الثاني إنشاء القواعد الأمريكية في شمال أفريقيا:

ربما كان تقرير الأدميرال فيشتلر Fichtlerالمقدم للحكومة الأمريكية عن الدفاع عن البحر المتوسط سنة ١٩٥٢ والذي يقضي بوجوب إعداد أمريكا للبلاد الواقعة على البحر المتوسط إعدادا حربيا وبحريا واقتصاديا وسياسيا لمواجهة الحرب التي يتوقعها قبل١٩٦٠، يدلل على تطور نظرة الولايات المتحدة لهذا البحر. حيث يشير بأن المسيطر على جبل طارق وقناة السويس والدردنيل خلال هذه الحرب، هو صاحب النصر الأخير؛ لأنه لا يمكن لأوربا الصمود طويلا أمام الاتحاد السوفيتي؛ لقدرته على تدمير القاعدة البريطانية في بريطانيا، وضرب المطارات الدانماركية والهولندية والبلجيكية والفرنسية في اليوم الرابع من بدء العمليات الحربية؛ لهذا ظهرت أهمية الشمال الأفريقي بقوة، وبرزت أهمية قواعدها العسكرية في ليبيا والمغرب[١]. بل دخلت كافة المناطق العربية الواقعة على البحر المتوسط في منظومة الدفاع الأمريكية. واستمرت هذه الأهمية قائمة طيلة الخمسينيات، حيث تشير إحدى الوثائق بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٩٥٤، بأن شمال أفريقيا أصبح يشكل أهمية استراتيجية كبيرة بسبب موقعه الجغرافي؛ لأنه لا يوفر الإشراف على غرب البحر المتوسط ويتيح الفرصة للهجوم إذا حدث غزو سوفيتي لأوربا أو الشرق الأوسط فحسب، بل لأنه مقر لأهم القواعد العسكرية الأمريكية الرئيسية ومركزٌ للتدريب[٢].

هذه الأهمية للقواعد الأمريكية صبت في صالح حلف الأطلنطي، وهو الأمر الذى دعا إلى توقيع ميثاق حلف وارسو[٣] Warsaw Pact في ١٤ مايو سنة ١٩٥٥، كرد فعل على معاهدة حلف الأطلنطي وعلى حزام القواعد التى حصل عليها الأمريكان في شمال أفريقيا. وهو

---

(١) تقرير الأميرال فيشتلر عن الدفاع عن منطقة البحر الأبيض المتوسط، في ١٠ يونيو ١٩٥٢، ملف٣ رقم ٢٠١ /٧ /٣ التقارير السياسية المختلفة للسفارة في باريس، محفظة ٥٩٥ (كود ٥٩٤)، سري جديد، خارجية.

(2) Probable Development in North Africa , National Intelligence Estimate ,Number 71-54, 8/31/1954, P.199.

(٣) بين الاتحاد السوفيتي وألبانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية وهنغاريا وبولندا ورومانيا.

الحلف الذي ضم ٦ ملايين مقاتل، وما بين ١٧٥-٢٢٥ فرقة سوفيتية و٨٠ فرقة تابعة[1]. وهو ما دعا إلى بروز مبدأ إيزنهاور Eisenhower Doctrine في يناير ١٩٥٧. حيث تم تخصيص ٢٠٠ مليون دولار للبلدان العربية لمقاومة النفوذ السوفيتي، ولسد الفراغ بعد انسحاب بريطانيا وفرنسا من المنطقة[2]. كل هذه الترتيبات لم تكن لها فاعلية من دون القواعد الأمريكية في شمال أفريقيا. وحتى نتعرف أكثر على تلك الأهمية وجب علينا الحديث عن إنشاء تلك القواعد في كل من ليبيا والمغرب:

أولًا- إنشاء قاعدة ويلوس Wheelus الأمريكية في طرابلس:

عرفنا من قبل بأنه منذ سنة ١٩٤٣ قد حصل الأمريكان على حق استخدام مطار الملاحة لفترة الحرب العالمية الثانية فقط، وخلال وجود الإدارة العسكرية البريطانية لبرقة وطرابلس، لكن حينما تكشفوا أهميتها قرروا الاحتفاظ بها. وكانت الإدارة البريطانية قد أعطتهم الحق في بناء قاعدة عسكرية في منطقة الملاحة سنة ١٩٤٨. وهو ما أثار غضب الأهالى وهياجَهم ضد انتزاع أفضل الأراضي الزراعية لبنائها. ومن يتابع تدخلات الأمريكان خلال فترة تقرير مصير ليبيا، يتأكد تمامًا من أن هدفهم النهائي كان الإبقاء على قاعدتهم العسكرية هناك. وهو الأمر الذي حصلوا عليه من بريطانيا سنة ١٩٤٨، بحيث لم يقتصر الأمر على وجودهم، بل أصبح من حقهم بناء قاعدة جديدة في الملاحة[3]. لكن يبدو أن الأمريكان كان يهمهم توثيق هذا الأمر عبر أطراف محلية؛ لذا جاء حديث البعض بأن توقيع الملك إدريس السنوسي معاهدة مع بريطانيا في مارس ١٩٥٠ لإقامة قاعدة لها على أراضيه، ظلت سرية لم يطلع عليها أحد، حتى ثبتها محمود المنتصر، أول رئيس وزراء لليبيا، عبر مجلس النواب، سنة ١٩٥٣، كان مقدمة لتوقيع معاهدة مماثلة مع الأمريكان. بل ذكروا بأن الرجل ما كان يمكن أن يصبح

---

(١) مؤيد محمود حمد: سياسة الأحلاف الغربية وانعكاساتها على الوطن العربي ١٩٤٥- ١٩٥٨، مجلة سر من رأى، المجلد ٦، العدد ٢٣، السنة ٦، أكتوبر ٢٠١٠، العراق ٢٠١٠، ص١٠٦.

(٢) نفسه، ص١٠٩.

(٣) زكي البحيري: المرجع السابق، ص ص ١٨٧- ١٩١.

ملكًا على ليبيا إلا بعد تأمينه للقواعد العسكرية لبريطانيا في ليبيا. وأن رئيس الحكومة البرقاوية محمد الساقزلي لعب دورًا في ترسيخها. لكن يبدو أن أمرها لم يظل سريًّا فترة طويلة، فسرعان ما ولدت معارضة شعبية في الشهور الأولى لها[١].

وجدير بالذكر أن الملك إدريس بدوره استشفَّ إمكانية الاستفادة من الأمريكان في توحيد بلاده وحكمها. فقد كتب في مفكرته في نهاية مايو ١٩٥٠ بأنهم إذا ما عجلوا بسرعة استقلال ليبيا بشكل اتحادي، فسوف يُعطيهم مطار الملاحة بطرابلس. وبدا بأن الأمر مرتب له مسبقًا، من خلال اجتماع الوزارة المؤقتة في ٢٣ أكتوبر ١٩٥١، حين حضر إدريس بنفسه مناقشة فكرة توقيع اتفاقية القاعدة الأمريكية بالأحرف الأولى، قبل إعلان الاستقلال حسب مقترح الأمريكيين، وخشية من أن يصبح وضعهم غير قانوني بعد الاستقلال. وهو ما دارت بشأنه المفاوضات بين رئيس الوزراء محمود المنتصر عن ليبيا، ولينتش عن الولايات المتحدة، انتهى بوضع اتفاقية ليبية أمريكية مؤقتة يوم إعلان الاستقلال، وهو ما أضفى شرعية على الوجود الأمريكي في ليبيا بعده[٢]. ما يعنينا في هذا المقام، أن البرلمان الليبي وافق في ٣٠ أكتوبر ١٩٥٤ على اتفاقية القواعد العسكرية الأمريكية رغم توصية اللجنة المكلفة بفحصها، برفضها. وجاءت نصوصُها في ٩ سبتمبر من نفس السنة، مطابقة للاتفاقية المؤقتة عند الاستقلال، مقابل تقديم الأمريكان للمساعدات المالية والفنية. تلك التي منحتهم حق المراقبة على الطائرات والسفن والمراكب المائية، وصيانة وسائل الاتصالات السلكية واللاسلكية وإنشاء خطوط الأنابيب، وحق الدخول والتنقل واستعمال المطارات والتسهيلات خارج القاعدة، وأرضًا لتدريب قوات حلف الأطلنطي، والقيام بأي مسح أرضي وجوِّي. تلك الاتفاقية التي لم يناقشها الكونجرس الأمريكي، باعتبارها عملًا تنفيذيًّا وكسبًا استراتيجيًّا للدفاع عن العالم الحر[٣]. لقد تضمنت اتفاقية ٩ سبتمبر ١٩٥٤ انتهاء حق استغلالها في ٢٤

---

(١) علي شعيب: المرجع السـابق، ص ص ١٠، ١٧، ١٨ ، ٢٩، ٣٠.

(٢) زكي البحيري: المرجع السابق، ص ص ١٧٧، ١٨٣-١٨٥.

(٣) نفسـه، ص ص ١٨٧- ١٩١.

ديسمبر ١٩٧٠. واستهدفت خدمة المصالح الأمريكية في المنطقة، والحق في استخدام القاعدة في الحروب العامة والعمليات النوعية، مع مراعاة عدم استخدامها ضد ليبيا أو أي دولة عربية أخرى[١]. وهي القاعدة التي أصبحت من أكبر القواعد الأمريكية سنة ١٩٥٦[٢]. ومن خلالها تمكن الأمريكان من الإشراف على وادى النيل وقناة السويس والخليج العربي[٣]. (انظر الملحق١)

وكما أشرنا في السابق إلى أن موقع قاعدة ويلوس الاستراتيجى على ساحل البحر المتوسط، إلى الشرق من طرابلس، هو الذى جعل القيادة الجوية الأمريكية في الحرب الكورية، كمقر رئيسي لتدريب قوات حلف شمال الأطلسي. حيث بدأت القيادة في نشر مفجر ويلوس SAC في ١٦ نوفمبر ١٩٥٠. ثم تحدد هدفها في انطلاق الهجمات ضد الاتحاد السوفيتي في حالة الغزو منها، بل أصبحت حلقة وصل حيوية في كل خطط الحرب والتزود بالوقود. ومنذ أن وقعت ليبيا اتفاق حقوق مع الولايات المتحدة يوم ٢٤ ديسمبر ١٩٥١، إلى أن تم تكليف القاعدة بأوربا في ١ يناير عام ١٩٥٣، وصولا إلى اتفاقية عام ١٩٥٤ منحت الولايات المتحدة حق استخدامها حتى ديسمبر ١٩٧١. وفي شهر أغسطس عام ١٩٥٦، انتقل الاهتمام من قواعد المغرب إليها حتى ١٥ نوفمبر ١٩٥٩[٤].

ومع أن اتفاق ١٩٥٤ يقطع بعدم استغلالها ضد أى دولة عربية، فإن إحدى الدراسات تقول بدور القاعدة البريطانية في حرب السويس سنة ١٩٥٦. مستشهدة بمذكرة رئاسة المباحث الفيدرالية ببنغازي إلى والي برقة في ١٠ نوفمبر ١٩٥٦، «بأنه علم من مصدر موثوق بأن الطائرات البريطانية الموجودة في مطار «العدم»، هي التي قامت بضرب مصر بالقنابل وبالكيفية التالية... تقوم هذه الطائرات من مطار العدم بعد تزويدها بالوقود إلى قبرص، حيث تزود هناك

(١) Document 339,National Security Council Report,15 March 1960 Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.740-745

(٢) Base Trase History To WWII Needs, Tripoli Troters , January 30 .1970, p.3

(٣) زكي البحيري: المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٤) Wheelus Air Base, Libya, http://www.globalsecurity.org/wmd/facility/wheelus.htm

بالقنابل والذخيرة، وتذهب لشن الغارات الجوية على مصر، وبعد أن تتم العمليات الجوية تعود إلى مطار العدم ثانية، وأن هذه العملية مستمرة في تكتم شديد طيلة الأيام الماضية». مضيفًا «بأنه قد أجرى تحقيقًا من قِبل سلطات المطار، مع أحد العمال الليبيين التابعين لشركة شل، كونه تجاوز المكان المخصص لتحرك العمال داخل القاعدة، فاكتشف وجود طائرات حربية مصابة بثقوب مكتوب عليها: (تنجز للعودة إلى قصف بورسعيد)»[١]. ولا يعقل أن تستخدم القاعدة البريطانية دون استفادة أو تماهي من القاعدة الأمريكية هناك.

ولعل العدد الكبير القادم من بريطانيا من الجنود والطائرات والأسلحة إلى القاعدة البريطانية في بنغازي خلال حرب السويس، وتدريب بعضهم في القاعدة الأمريكية في طرابلس، ثم السفر مع عدد من المرتزقة لبورسعيد، يدلل على الدور الذي لعبته القواعد في هذا الإطار. بل إن قيام شركة شل البترولية في برقة، حسب إحدى الوثائق المؤرخة في ٢٨ نوفمبر ١٩٥٦، بتزويد السفن والغواصات الحربية البريطانية بالوقود في شرقي مدينة طبرق، يقطع بهذا الأمر ويؤكده. ويدلل على أن مساعدة أمريكا في العدوان الثلاثي كانت قائمة وموجودة. وفي الوقت نفسه تُنكِر الدراسة ما ذكره المسؤولون الليبيون بعدم استخدام تلك القواعد، وبأن الملك إدريس كان يشرف بنفسه على الحراسات المشددة على القواعد حتى لا تتحرك القوات البريطانية لممارسة العدوان، خشية الغضب الجماهيرى ضد القواعد، واستخدامها ضد مصر[٢]. وهو الأمر الذى استدعى تدخلا مصريًا، جرى على إثره اتهام الملحق العسكرى المصري في ليبيا، بأنه وراء أعمال التخريب التي جرت هناك. وأن مصر تسببت فى تخريب الممتلكات الليبية، وقتلت المواطنين الليبيين ولم تصب البريطانيين[٣]، كذريعة لطرد الملحق العسكري المصري من هناك.

---

(١) علي شعيب: المرجع السابق، ص ص ١٤٧- ١٤٩.

(٢) نفسه، ص ص١٤٩-١٥٣.

(٣) محفظة ٢٩٠، ملف ٩١، ج٦ تقارير المخابرات الجوية، معركة القناة، تقارير المجموعة الثانية، رقم ٥٩ الخاصة بالسودان، والتقرير رقم ١ في ١٩٥٦/١١/١٥، ص ٢.

وكان التشجيع الأمريكي لإقامة محور في شمال أفريقيا، يضم كلا من تونس والمغرب والجزائر وليبيا، إنما جاء حماية لقواعدها المنتشرة في الشمال الأفريقي، ولمواجهة القوات السوفيتية الموجودة في أوربا في حالة الحرب، وتسرب النفوذ السوفيتي عبر مصر. وقد شجعت الإدارة الأمريكية تونس على ذلك، لمنافسة عبدالناصر في التأثير على المغرب العربي. الأمر الذى ظهر في طرد الملحق العسكري المصري في أكتوبر سنة ١٩٥٧ باعتبار أن نشاطه يهدف إلى التجسس على القواعد الأمريكية في الشمال الأفريقي[١]. وكان اكتشاف النفط في ليبيا عام ١٩٥٩ قد أحدث تحولًا اقتصاديًّا فيها، لكنه فاقم المشاكل السياسية، فزاد العداء ضد القاعدة[٢]. وإذا كانت بريطانيا قد حاولتْ تقليل وجودها العسكري، وقامت بسحب جنودها من طرابلس سنة ١٩٦٦، ومن بنغازي سنة ١٩٦٨، ولم يتبق لها غير قاعدة العدم، بيدَ أن الأمريكان دعموا قاعدتهم، واستغلوا إمكانات الامتداد الليبي الفسيح والجو الصافي، لتدريب الطيران ووضع القواعد النووية[٣].

ثانيًا- إنشاء القواعد الأمريكية في المغرب:

عرفنا من قبل بأنه كان هناك اهتمام أمريكي كبير بإنشاء قواعد بحرية وجوية في المغرب، ظهر بوضوح أكثر مع بداية الخمسينيات[٤]. ففي عام ١٩٥٠ تفاوضت الولايات المتحدة مع فرنسا لبناء خمس قواعد جوية، خفضت إلى أربعة عند تنفيذها في المغرب الفرنسية، ليتم استخدامها من قِبل القوات الجوية الأمريكية. وبالطبع لم تدرج المغرب في المفاوضات لكونها ما والت مستعمرة. ومن ثم أصبح للأمريكان عدد من مرافق الاتصالات العسكرية

(١) مجدي رشاد عبد الغني: العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥-١٩٦٩، تاريخ المصريين، عدد ٢٧١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ص ص ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٩٠.

(٢) The United States and Libya, http://www.foreignaffairs.com/articles/41701/edward-schumacher/the-united-states-and-libya

(٣) زكي البحيري: المرجع السابق، ص ١٩٢.

(٤) Department of Defense. Department of the Navy. Iowa (Battleship). (09/1947 - 02/24/1958) Dictionary of American Naval Fighting Ships

هناك، وخدم فيها أكثر من ١٠٠،٠٠٠ جندي مع عائلاتهم، وبصحبة موظفين مدنيين في الخدمات العسكرية المختلفة، ومعهم عمال بناء مغاربة خلال الفترة من ١٩٥٠- [١]١٩٦٣.

ومن المؤكد أن الأمريكان قد حصلوا في ١٤ يناير ١٩٥١ على قواعد داخل المغرب، في الرباط وسيدي سليمان[٢]. حيث تشير تقارير الحرب الكورية لاستخدامهم لقاعدتي سيدي سليمان وبن جرير في تلك الحرب[٣].

وتحكي إحدى الوثائق عن وجود ١٢ ألف جندي هناك بعد الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي استدعى مراسلات بينها وبين فرنسا، للحصول منها على القاعدة الموجودة في الرباط، في بورت ليوتي ومحطات الردار[٤]. ولعل موافقة فرنسا على هذا الأمر، حيث اعترفت بتحويل حقوقها في القواعد لحلف الأطلنطي، يشير إلى إقرارها بالحاجة لقوة جديدة تخيف الاتحاد السوفيتي. الأمر الذي جعل الأمريكان يؤسسون عددا من القواعد هناك. ولعل الاتفاقيات التي وقعها الطرفان خلال الفترة من ١٩٥٠ -[٥]١٩٥١، تدلّل على بداية الوجود الشرعي للأمريكان في المغرب بالمفهوم الغربي. بل إن ما جرى من مفاوضات بين الولايات المتحدة والسلطان المغربي لعقد اتفاقية تحصل من خلالها على حق تأسيس قاعدة جوية، بملحقاتها الفنية في ميناء بورت ليوتي، مقابل بعض التسهيلات العسكرية والمساعدات المالية للحكومة المغربية

---

(١) Carol Migdalovitz :-*Maghreb Facing New Global Challenges* ..U.S.-Moroccan Relations ..How Special? Programme Moyen-Orient/Maghreb ,October 2011.PP.6-8

(٢) Department of Defense. Department of the Air Force.~. 5th Air Division. (01/25/1952 - . (01/15/1958

(٣) Department of Defense. Department of the Air Force. Strategic Air Command. Eighth Air (Force. 823th Air Division. 19th Bombardment Wing, Heavy. (07/01/1961 - 07/24/1968

(٤) Dispatch from Holmed to Tanger ,United States inerst in development in Morocco : United States Relations with Moroccom, 3 Oct.1955, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, PP.516-518

(٥) Telegram From the embassy in France to the department of State, , 17 dec.1955, Foreign .Relations 1955-1957, Vol XVIII, PP.518,519

سنة [١]١٩٥٦، اتضح أنه كان متفقا عليه بين السلطان والرئيس الأمريكي روزفلت عند زيارته للمغرب سنة ١٩٥٣، أى قبل الاستقلال. وكان التقارب الأمريكي المغربي قد حدث بسبب دعم الشيوعيين الفرنسيين للشيوعيين المغاربة[٢]. وفي هذا الإطار استفادت المغرب من الاتفاقية الأمريكية الليبية لسنة ١٩٥٤ في كل النواحي المادية والمساعدات[٣].

وكان موضوع القواعد الأمريكية في المغرب مجال حديث بين رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والملك محمد الخامس سنة ١٩٥٧، خلال زيارة الأخير لواشنطن. فقد ركز الملك على موضوع المساعدات مقابل تلك القواعد وزيادتها، وبأن يساعده الأمريكان في حل المشكلات العالقة بينه وبين إسبانيا، وعلى احترام سيادة المغرب واستقلال أراضيه. وبأن هذه القواعد قد ورثتها أمريكا من فرنسا، وأن الشعب يضغط عليه من أجل استكمال الاستقلال. في حين تحدث الرئيس الأمريكى بأن الاتفاقية الموقعة بينهما ستستمر لبعض الوقت، وأن الولايات المتحدة تتفهم الاحتياجات المادية للمغرب، وأنهم سيزيدون من المساعدات، مع تفهم القيود التى فرضها الكونجرس على المساعدات الخارجية[٤]. وخلال الزيارة تطرق الحديث لموضوع القواعد الأمريكية والمشكلات التى تثيرها داخل المغرب، من انتقاص للسيادة ورغبة الأمريكان في مراعاة مصلحة الطرفين. وأنها ستعمل على عقد اتفاقية دائمة بدلا من اتفاقيتها السابقة مع فرنسا سنة ١٩٥٠. بعدم السماح برفع الأعلام الفرنسية فوقها، وأن الأمر يتطلب ثلاث سنوات للوصول إلى اتفاق نهائي[٥]. على أن يتم إلغاء الاشتراطات القائمة

---

(١) Document 193, Statues of Moraccan bases,Background of Air Force Base Agrement : 31 May 1956, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.533.

(٢) Document 197, Momrandum 30 July 1956, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, PP.538-540.

(٣) Document 210, Telegram 22 April 1957, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.571.

(٤) Document 219, Momrandum about U.S..Bases and Economic Aid, 26 Nov. 1957, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.590-592.

(٥) Document 220, Momrandum about profissnal agreement on bases and drafting of joint

في الاتفاقية الفرنسية الأمريكية؛ لتكون معاهدة جديدة تؤسس للوجود الأمريكي الخاص في المغرب. فاتفاقية سنة ١٩٥٠ تُذكِّر المغرب بفترة الحماية، فعدلت الشروط بألا يرفع العلم الفرنسي عليها، وحسنت شروط المساعدات، وأن فرنسا وجب عليها أن تدخل في علاقات مباشرة مع المغرب، بدلا من الالتفاف حول شروط القاعدة السابقة. فضلًا عن النقاش حول مراقبة السلطة المغربية للقاعدة، وشروط خاصة لدخول الشخصيات الأمريكية، والتكلفة والضرائب والعملة، واشتراطات قضائية وتحديد الفترة الزمنية[١]. وعلى إثر مناقشات ٢٧ ديسمبر تمت زيادة المساعدات الأمريكية للمغرب لسنة [٢]١٩٥٨. وفي هذا السياق تمثلت مهمة بعثة القوات الجوية الأمريكية إلى المغرب، في دعم وحدات القيادة الجوية الاستراتيجية الأخرى، وفقًا لخطط حرب الطوارئ وأوامر العمليات، وحتى نهاية عام [٣]١٩٥٧.

وفي هذا السياق، جاء تأييد الولايات المتحدة لمشروع حلف غرب البحر المتوسط نهاية ١٩٥٧؛ لأنها رأت أنه يخدم أغراضها الحربية في منطقة شمال أفريقيا، فهو يربط شبكة الدفاع مع حلف الأطلسي. بل إن إعلان دعمها المالي بمبلغ مليون جنيه للمغرب، ومثلها لتونس، قد جاء لتيسير قبول الاندماج فيه[٤].

وهو الأمر الذى يؤكد أهمية القواعد الأمريكية في المغرب. فالتشجيع الأمريكي إنما

---

(١) Document 221, Momrandum about Us and morocco Posstion on Interm Agreement for ..united states morocco statement , 26 Nov. 1957, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.595-597 ..Bases , 27 Nov. 1957, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.598-600

(٢) Document 223, Momrandum Us Assistance to morocco for Fisikal Year 1958 ,24 dec 1957, ..Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.598-600

(٣) Department of Defense. Department of the Air Force.~. 5th Air Division. (01/25/1952) - .(01/15/1958) Air Force Historical Research Agency Web Site (2004

(٤) خطاب سفير مصر بالرباط للسيد وكيل الخارجية، في ١٤/٣/١٩٥٨، ملف ٥ رقم ٢٤/٢٦/٣٨ حلف البحر الأبيض المتوسط، محفظة ٢٤٤ (كود أرشيفى ٢٤٣) سري جديد، خارجية، ص١.

كان جزءًا من سياسة الأحلاف العسكرية الغربية[١]. وربما كان استياء الدوائر الأمريكية في أبريل ١٩٥٨، وتخوفها من انهيار فرنسا بسبب الجزائر، وما يتبعه من انهيار لحلف شمال أفريقيا وتفكك المعسكر الغربي[٢]، هو الذي أوجد الفرصة لإشراك دول شمال أفريقيا في الدفاع عن المتوسط، وضرورة ارتباطه بحلف الأطلنطي[٣].

المحور الثالث أثر القواعد العسكرية في المساعدات الأمريكية لليبيا والمغرب ١٩٥٠-١٩٧٧:

نظرًا للظروف الاقتصادية السيئة لليبيا والمغرب خلال فترة الاستعمار وعقب الاستقلال، قبلت الأطراف المحلية والنظم الحاكمة فيها، بأن تقايض القواعد التى منحتها للأمريكان بمساعدات مادية وعسكرية يقدمونها لكلتا الدولتين. وحتى نفهم هذا المحور فهمًا جيدًا، سنتعرف على تلك المساعدات التى قُدِّمَتْ لليبيا، والأخرى التي قُدِّمَتْ للمغرب.

أولًا- قاعدة ويلوس suleehW والمساعدات الأمريكية لليبيا:

ما بين تحقيق ليبيا استقلالها بقيادة الملك إدريس في ٢٤ ديسمبر ١٩٥١، واكتشاف النفط في ليبيا في عام ١٩٥٩، مثلت القاعدة مصدرًا ماليًا مهمًا للمملكة. فقد كانت ليبيا واحدة من أفقر بلدان العالم خلال تلك الفترة. لكن حينما اكتُشِف البترول فيها، أضيف إغراء جديد للأمريكان جعلهم يستمرون في تقديم المساعدات لها حتى سبتمبر [٤]١٩٦٩. جدير

---

(١)) تقرير سفير مصر بروما (ثروت عكاشة)، ملف ٥رقم ٢٤/٢٦/٣٨ حلف البحر الأبيض المتوسط، محفظة ٢٤٤ (كود أرشيفي ٢٤٣) سري جديد، خارجية، ص ص ٤-٥.

(٢) خطاب من سفارة الجمهورية العربية المتحدة بواشنجتون إلى السيد وكيل وزارة الخارجية، في ٢٨ أبريل ١٩٥٨، ملف٢ رقم ٣٧/١١٠/٣ج١٠ مشاكل شمال أفريقيا، محفظة ٢١٥، سري جديد، خارجية.

(٣) خطاب من القائم بالأعمال بالنيابة (حسن ماهر) إلى السيد السفير وكيل الخارجية، ملف ١٠ رقم ٨٠ /١١ /٧ تبادل الزيارات بين كبار الشخصيات المصرية لإيطاليا، محفظة ٣٦٧ ، سري جديد، خارجية.

(٤) Department of Defense. Department of the Air Force. Military Air Transport Service. Wheelus Air Base, Libya. (06/01/1948 - 01/01/1953), in War Department. Air Transport Command. . Wheelus Air Base, Libya. 05/17/1945 - 05/15/1947

بالذكر أنه حينما أعلن الأمريكان عن استعدادهم لتنفيذ برنامج المعونة منذ يناير ١٩٥١، راح رئيس الوزراء محمود المنتصر يبلغ البعثة الدبلوماسية الأمريكية عن الرغبة فى إعادة النظر فى بنود الاتفاقية، بخصوص الأجر النقدي الذي سيُدفع مقابل بناء القاعدة. وأن هناك ضرورة لفرض القضاء الليبي على العسكريين الأمريكان لكي يمتص الغضب الشعبي. بل إن عبدالرحمن عزام أمين الجامعة العربية أجرى اتصالًا معهم لدفع ١٠٠ مليون دولار كتعويض عن استخدامهم للقاعدة لفترة معينة، تغطي عجز الميزانية الليبية. وفي هذا الإطار راحت وزارة بن حليم تركز مناقشاتها مع الأمريكان حول حجم المعونة المالية ومساحة القاعدة، ووضع الأمريكيين المقيمين فيها[1].

من هنا، تعهدت الولايات المتحدة بموجب اتفاقية ٩ سبتمبر ١٩٥٤ بتقديم ٧ مليون دولار عن السنة الأولى، مع تقديم ٢٤ ألف طن قمح لإنقاذ مناطق الجفاف، وبدفع ٤ مليون دولار سنويًا لمدة ست سنوات تالية، ودفع مليون دولار لمدة ١١ سنة بعدها، مع وعد بتقديم مساعدات اقتصادية ومعدات عسكرية، بمتوسط مليوني دولار سنويا حتى سنة ١٩٥٩. وقد أجرت حكومة عبدالحميد الكعبار مفاوضات مع الأمريكان لزيادة المساعدات، تلك التى أعلنت فيها عن استعدادها لدفع ٤ مليون دولار أخرى، بخلاف إيجار القاعدة. وفي تطور آخر تعهدت بدفع مبلغ ١٠مليون دولار سنويًا، فضلًا عن تأسيس مصلحة التنمية الليبية الأمريكية، وجمعية المعونات الأمريكية، ومجلس الإعمار سنة ١٩٥٥، ناهيك عن استئثارهم بحق التنقيب عن البترول، وزيادة إنتاج شركاتهم العاملة هناك، خلال الفترة من ١٩٦١-١٩٦٩[2].

المدهش في الموضوع، أن تخوفات الأمريكيين من محاولة التدخل المصري في المنطقة، وضغوط الجامعة العربية ودولها القائمة في شمال أفريقيا، قد تضاعفت مع تأسيس السفارة السوفيتية في طرابلس سنة ١٩٥٦، فحدث اهتمام أمريكي أكبر. ظهر هذا، في رفض الحكومة

---

(١) زكي البحيري: المرجع السابق، ص ص ١٨٧- ١٩١.

(٢) نفسه، ص ص ١٩٣- ١٩٥.

الليبية للمساعدات السوفيتية في نفس السنة، بعدما زادت الولايات المتحدة مساعداتها، فلم تقبل ليبيا من السوفيت إلا تجهيز مستشفيين[١].

بل دارت مباحثات بين الجانب الليبي والأمريكي في يونيو ١٩٥٦ بشأن احتياجات الجيش الليبي العسكرية، لتزويده بالسلاح والمعدات والتدريب. وخلال زيارة نائب الرئيسي الأمريكي، ريتشارد نيكسون، لليبيا في ١٥ مارس ١٩٥٧ ولقائه برئيس الوزراء، مصطفى بن حليم، طالب بمساعدة ليبيا عسكريًا. لكن كان تكوين قوة من شعب رافض لقاعدتهم العسكرية، يهدد مصالحهم، قد اضطرهم لضم ليبيا لبرنامج إيزنهاور. وهو البرنامج الذى شمل تقديمهم مساعدات لدول الشرق الأوسط من أجل استقطابها بعيدًا عن نفوذ السوفيت[٢]. وخشية الأمريكان، منذ أبريل ١٩٥٦، من اقتداء ليبيا ومراكش بأيسلندا وقبرص، وتصعيدهما لمشكلة القواعد الجوية[٣]، هو الذي جعلهم يقبلون بزيادة المساعدات لها.

ولعل الدعم العسكري المقدم منهم لدول المنطقة، حيث وصلت في الأسبوع الثاني من يونيو ١٩٥٨ بعثة عسكرية أمريكية لتدريب الجيش الليبي وتسليحه، تنفيذًا للاتفاقية الليبية الأمريكية التي وقعت في أول يونيو [٤]١٩٥٧، يشير بأن القاعدة الأمريكية كانت مفيدة للطرفين، الليبي والأمريكي، على السواء. وهو ما جعل الجارة تونس تسعى للاستفادة أيضًا، وتعلن بأنها لا ترى مانعًا من التصريح بإقامة القواعد العسكرية الأجنبية على أراضيها،

---

(١) Document 339,National Security Council Report,15 March 1960 Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.740-745

(٢) وليد خالد يوسف: نشأة وتطور الجيش الليبي... المرجع السابق، ص٣٦٦.

(٣) خطاب من مفوضية مصر ببوخارست إلى السيد السفير وكيل الخارجية عن اجتماع دول حلف الأطلنطى، ٦ سبتمبر ١٩٥٦، ملف ١ رقم ٢٥/٢٦/٣٨ ج٣ حلف شمال الأطلنطي، محفظة ٢٤٥، سري جديد، خارجية.

(٤) خطاب سفير مصر بليبيا أحمد حسن إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن الاتفاقية العسكرية بين ليبيا وأمريكا، في ١٨ يونيو ١٩٥٨، ملف٣ رقم ٢/٨١/٧٤٦ج٤ التقارير السياسية للسفارة المصرية في طرابلس «عن ليبيا»، فيلم ٣٢ ليبيا، محفظة٥١، أرشيف البلدان، خارجية.

وإعطاء فرنسا أو حلف الأطلسي، قاعدة عسكرية وبحرية في ميناء بنزرت[١].

ولعل عقد اتفاقية عسكرية مع الولايات المتحدة في ٣٠ يونيو ١٩٥٧، أقرت فيها بمطالب ليبيا العسكرية، وإنشائها لبعثة أمريكية في طرابلس، هدفها تحديد مصادر توريد السلاح والمعدات والذخائر الأمريكية، وتحريم استخدامها للقاعدة في غير الأغراض التي رتبت لها الاتفاقية، يشير بمدى استفادة المملكة من القاعدة. فقد كلفت الولايات المتحدة خبراء بتدريب الجيش الليبي، ليبدأ بتدريب كتيبة نموذجية جاهزة لحماية النظام الملكي. وقد وصل فريق الخبراء الأمريكي في ٢ سبتمبر ١٩٥٧، وقُدِّمَتْ مساعدات قيمتها ١٥ مليون دولار. واستمر هذا الأمرُ إلى أن دربت كتيبة ثالثة قوامها ألف مقاتل. لكن خشية الملك من أمريكا، ومن الاستئثار به، جعله يطالب بريطانيا حليفه القديم، بتقديم معونات حصل عليها فى مايو ١٩٥٨. ومع ذلك، أعلن الأمريكان عن تقديمهم لمساعدات مالية بقيمة خمسة مليون ونصف دولار قابلة للزيادة سنة ١٩٥٩. وبناء على مطالب الملك إدريس، أسهموا في تكوين القوات الجوية الليبية في ٣ يونيو ١٩٦١، تحت مسمى السلاح الجوي الملكي. ولعل زيارة ولي العهد الأمير الحسن الرضا لأمريكا في ١١ أكتوبر ١٩٦٢، تلك التي انطلقت من القاعدة الأمريكية، محتفين به هناك، ومعه الوفد الليبي، وفي مقدمته رئيس الوزراء الليبي محمد عثمان الصيد[٢]، يشير إلى الصلات الملكية المباشرة بموضوع القاعدة، واستغلالها في المساعدات.

وفي إطار المساعدات، جعل الأمريكان مقر سلاح الجو الملكي الليبي قاعدة ويلوس، وزادوا عدد الطائرات من طائرتين قبل الزيادة إلى خمس طائرات بعدها، مع تدريب الضباط الليبيين عليها. وتأهيل السلاح ليكون له القدرة على تسلم القاعدة عند نهاية الاتفاقية. ثم

---

(١) خطاب سفير مصر بتونس إلى السيد وكيل الخارجية بشأن مظاهر ضعف الوحدة المغربية في ميدان السياسة الخارجية، في ١٩٥٨/٨/١١، ملف ٣رقم ٣/٨١/٧٤٣ج٢ التقارير السياسية للسفارة المصرية في تونس «مختلف»، محفظة ٦١، فيلم ٣٨ تونس، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ١-٢.

(٢) وليد خالد يوسف: نشأة وتطور الجيش الليبي... المرجع السابق، ص ص٣٦٦-٣٦٨.

أمدوا ليبيا بعشرة طائرات إف ٥، وأربعة طائرات نقل تي ٣٣، وست طائرات شحن سي ٤٧ ، بعد أن سددت الحكومة الليبية أثمانها. واستمروا في تقديم المساعدات حتى سنة ١٩٦٤، حيث قلَّ حجمُها وتم سحب ١٢ من الفنيين العسكريين. لكن استمرت القاعدة كأداة ضغط لاستمرار تلك المساعدات وزيادتها[١]. ولعل البعثة الأمريكية التي اتجهت لليبيا في يونيو ١٩٥٨، والمكونة من ١٤ قائمقامًا و٢ بكباشى و٣ صاغ و٤ يوزباشي و٤ صف ضابط، تقطع بأن القاعدة كانت لها فوائد أخرى على الجيش الليبي وتدريباته ومساعداته العسكرية. حيث قضت اتفاقية ١٩٥٧ بتزويد الأمريكان لألف جندي ليبي بالأسلحة. كما وصلت بطريق البحر كميات من الأسلحة الأمريكية، عبارة عن سيارات نقل جنود، وأسلحة خفيفة بعضها أسلحة قديمة. لكن كل هذا كان على مستوى القيادات العليا والنظام الملكى القائم، فقد كان الشعب الليبي يجهل مثل تلك الأمور[٢].

وكانت علاقة القاعدة الأمريكية بالقاعدة البريطانية في بنغازي جيدة. فالقاعدة البريطانية كان يوجد بها ٤٥٠٠ جندي بريطاني، كلفتها ٩،١ مليون جنيه استرليني سنة ١٩٦٣ مع تدريب ٥ آلاف جندي ليبي. وكانت مهمة لها، خصوصًا بعد خروجها من قاعدة السويس. لكن منذ سنة ١٩٥٩ أعلنت بريطانيا عن تخفيض جنودها، ومساعداتها لليبيا من ١١ مليون إلى ٣,٥ مليون جنيه في بداية ١٩٥٨. لكنهم قبلوا منذ أبريل ١٩٥٨ دفع مبلغ ٩,١ مليون جنيه لمدة ٥ سنوات. غير أن الثورة العراقية، والأزمة الأردنية، بينت لبريطانيا قيمة ليبيا الاستراتيجية. بل تمثلت أهميتها أكثر بعد انسحابها من السويس، لقربها من الشرق الأوسط، والطيران منها لأفريقيا، والقيام بالعمليات العسكرية في الشرق الأوسط[٣]. وإذا كانت بريطانيا قد

---

(١) نفسه، ص ص٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) (٧٤ خطاب سفير مصر بليبيا أحمد حسن إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن الاتفاقية العسكرية بين ليبيا وأمريكا، في ١٨ يونيو ١٩٥٨، ملف٣ رقم ٢/٨١/٧٤٦ج٤ التقارير السياسية للسفارة المصرية في طرابلس «عن ليبيا»، فيلم ٣٢ ليبيا، محفظة ٥١، أرشيف البلدان، خارجية.

(٣) Document 339,National Security Council Report,15 March 1960 Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.740-745

راحت تقوم بتخفيض مساعداتها لليبيا في يناير ١٩٥٨، من ٤،٢٥ مليون جنيه إلى ١،٢٥ مليون جنيه، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تحملت تكلفة تطوير المسائل العسكرية هناك، لمقابلة الاحتياجات المادية والعسكرية لليبيا. وزادت المساعدت الأمريكية وحلف شمال الأطلنطي، حيث أعطاها الحلف لوحده ٣،٢٥ مليون جنيه[١]. وفي هذا الإطار، تشير إحدى الوثائق بأن الولايات المتحدة قدمت مساعدات وتجهيزات للجيش الليبي[٢]. غير أن حدوث ضغوط من قبل ليبيا منذ سنة ١٩٥٨ لزيادة المساعدات مقابل استخدامها للقاعدة[٣]، قد جعل الولايات المتحدة تعبر عن تقديرها للمطالب المادية الليبية، نظير القاعدة في مخصصات سنة ١٩٦٠، ولمواجهة القومية العربية في ليبيا، وتخفيفًا لحدة المطالبات الشعبية بالتخلص من الأمريكان[٤]. وتخوفت الولايات المتحدة من الضغوط المصرية في شؤون ليبيا بخصوص القاعدة، ونظرت لزيادة الفنيين والمدرسين المصريين بقلق، باعتبارها محاولة من قبل عبد الناصر للتدخل في ليبيا[٥]. ومنذ سنة ١٩٦٠ بدأت المطالب الليبية بالمساعدات المادية والعسكرية تزداد بما يوازي عشر مرات ما كانت عليه[٦].

ثانيا- قواعد القنيطرة وبن سلمان والنواصر وسيدي يحي والمساعدات الأمريكية للمغرب:

بالتأكيد لم تستفد المغرب من اتفاقية سنة ١٩٥٠ بشأن القواعد؛ لأنها كانت مع فرنسا؛ لهذا تُعد اتفاقية سنة ١٩٥٦ هي البداية الحقيقية لاستفادة المغرب الرسمية من المساعدات

---

(١) U.S Interset in Retnion of Bases and in Oil Explorations ,Editorial note, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.720,721.

(٢) Document 329, Momrandum 14 Feb.1958, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.720-722.

(٣) Document 333, Momrandum 11 Dec.1959, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, P.727.

(٤) Document 336, Letter fron secartary of state to secretary of defense 22 May1959, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.731,732.

(٥) Document 337, Momrandum 29 Oct..1959, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.733,734

(٦) Document 338, Momrandum 10 Marcht..1960, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, PP.736,737

الأمريكية. حيث كلفت تلك الاتفاقية الولايات المتحدة حوالى ٤٠٠ مليون جنيه استرليني[١]. فقد كان اتفاق سنة ١٩٥٠ بمثابة تفويض لأمريكا في إدارتها تحت قيادة حلف شمال الأطلنطي، وهو ما جعل الأمريكان يدخلون في مفاوضات مباشرة بشأنها مع المغرب بعد الاستقلال[٢]. فقد كانت الحكومة المغربية تحتاج لمساعدات مالية وعسكرية تعينها في بناء جيش وطني، فحصلت على منحة تدريب ٤٠ ألف جندي مغربي لحماية الحدود المغربية. بل أعلن الأمريكان بأنهم سيدربون ٨٠ ألف جندي في سنة [٣]١٩٥٨.

وتطور الأمر بعد أول زيارة لمحمد الخامس للولايات المتحدة عام ١٩٥٧. وربما تعبير عن رغبة المغرب في استعادة سيادته الوطنية وسحب القوات الأجنبية من أراضيه، لا يشي برغبة حقيقية بقدر ما يدفع باتجاه مزيد من المساعدات. وفي هيئة الأركان المشتركة الأمريكية للموظفين والقادة العسكريين، توصلت الولايات المتحدة إلى اتفاق رسمي مع المغرب عام ١٩٦٣ لتوفير التدريب للقوات الجوية المغربية في قاعدة القنيطرة (ميناء ليوتي سابقا)، واحتفظت بالسيطرة الكاملة على اثنتين من محطات الاتصالات البحرية. تلك التي كانتا لا تزالان ضروريتين لأسطول الولايات المتحدة السادس، ولشبكة الاتصالات البحرية في البحر الأبيض المتوسط وشرق المحيط الأطلسي . على أن يتم إغلاق هذه القواعد عام ١٩٧٨. واستجابة المغرب تعني رغبتها في استمرار الحركة التجارية والبحرية بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي والولايات المتحدة الأمريكية. وربما كان قبول محمد الخامس للطائرات المقاتلة والمدربين والفنيين الروس هو الذى غذى مشاعر القلق الأمريكية خلال فترة الحرب الباردة. لكن تعاون الملك مع الأطراف المتعاونة مع السوفيت سنة ١٩٦٥ وحصول المغرب على الدبابات السوفيتية من تشيكوسلوفاكيا، ما هو إلا مغازلة لحركة عدم الانحياز عام

(١) Document 194, Moraccan bases,6 June 1956, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.534.

(٢) Document 196, Moraccan bases,12 July 1956, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, P.537.

(٣) Document 197, Momrandum 30 July 1956, Foreign Relations 1955-1957, Vol XVIII, PP.538-540.

١٩٦٧، ولا يعني ابتعاده عن الأمريكان أبدًا. حيث تشير الوثائق بإقبالهم على شراء الأسلحة الأمريكية والاحتفاظ بالنفوذ الأمريكي. وبالطبع كان هذا يتلاقى مع هدف الأمريكان في إقامة تعاون مع البلاد العربية المعتدلة وتجنب انحيازها للاتحاد السوفيتي. وتحقيق التوازن بين التصورات العربية حول دعم الولايات المتحدة الحصري لإسرائيل، وحماية لاستخدامها لقواعدها الجوية والبحرية ومحطة الاتصالات في المغرب. وفي هذا الإطار دعموا المغرب بـ ١٤ مليون دولار لاستخدامها في شراء طائرات مقاتلة أمريكية من طراز إف ٥ F5[١].

ولعل محاولات الأمريكان للإبقاء على قاعدة القنيطرة وسيدي سليمان بعد رحيلها عن القواعد الأخرى بنهاية سنة ١٩٦٣[٢]، هو الذي يفسر زيادة مساعدتهم العسكرية للمغرب، خصوصا في مجال القوات الجوية خوفا من عرض السوفيت لها بالمساعدة[٣]. ولعبت القواعد الأمريكية هناك دورا مهما في تزويد الطائرات بالوقود الجوي منذ عام ١٩٥٥. ولعل الدور الذي لعبته قاعدة سيدي سليمان الجوية وبن جري طيلة الفترة من ١٩٥٦- ١٩٦٨[٤]، يعد خير دليل على أهميتهما. وإذا كان لا يوجد توازن عسكري في شمال أفريقيا بالمعنى الكلاسيكي للكلمة، بيدَ أن القواعد الأمريكية قد تسببت في تدريب الجيش المغربي وتقديم مساعدات عسكرية له. وهو ما دفع بالطموحات الإقليمية لليبيا والمغرب في جوارهما الإقليمي لأنْ تظهر في السبعينيات والثمانينيات. وبالطبع جرى هذا عقب انسحاب الأمريكان وخروجهم من قواعدهم العسكرية في شمال أفريقيا[٥].

---

(١) Carol Migdalovitz :-Maghreb Facing New Global Challenges ..U.S.-Moroccan Relations ..How Special? Programme Moyen-Orient/Maghreb ,October 2011.PP.6-8

(٢) Document 368,Telegram,13 Oct. 1960 Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, P.811

(٣) .Document 369, Momrandum 6 Dec..1960, Foreign Relations 1958-1960, Vol XIII, P.813

(٤) Department of Defense. Department of the Air Force. Strategic Air Command. Eighth Air (Force. 42nd Air Division. 19th Bombardment Wing, Heavy. (01/01/1975 - 09/30/1983

(٥) Anthony H. Cordesman:- The North African Military Balance:Force Developments in the .Maghreb,Center for Strategic and International Studies,March 28, 2005.p.5

المحور الرابع- بنية القوعد الأمريكية في ليبيا والمغرب:

لم تظل القواعد الأمريكية في شمال أفريقيا على علاتها التي كانت عليها في نهاية الأربعينيات، بل طور الأمريكان من قواعدهم وحدَّثوها، بما يتوافق مع تقنيات العصر، وطبيعة الحرب الباردة المشتعلة خلال مدة بقاء تلك القواعد من ١٩٥٠-١٩٧٧. ولعل استعراض ما جرى من بنية داخل ويلوس ليبيا، والقنيطرة والنواصر وبن سليمان وسيدي يحي المغرب، يدلل على اهتمام الأمريكيين الكبير بقواعدهم وعنايتهم بها.

أولًا- بنية قاعدة ويلوس suleehW وتطوراتها:

لقد لعبت قاعدة ويلوس دورًا مهما خلال الحرب الكورية ١٩٥٠-١٩٥٣، مما أهلها لأن تكون مركزًا تدريبيًا رئيسيًا لقوات حلف شمال الأطلسي. وفي هذا الإطار، دخلت في ١٦ نوفمبر ١٩٥٠ في عملية التناوب التدريبي لمدة ٤٥ يوما، للتدريب على الانطلاق الهجومي ضد الاتحاد السوفيتي. وأصبحت حلقة وصل حيوية في خطط الحرب والقتال، والتزود بالوقود. حيث وقعت ليبيا اتفاقا للحقوق مع الولايات المتحدة في ٢٤ ديسمبر ١٩٥١. وتم تكليفها بخدمة القوات الجوية الأمريكية في أوربا في ١ يناير عام ١٩٥٣ تحت رقم ٧٢٧٢ قاعدة جوية. ثم وقعت الولايات المتحدة وليبيا اتفاقية عام ١٩٥٤، منحت الأمريكان حق استخدامها حتى ديسمبر ١٩٧١. وتم تنشيطها في ٢٥ أبريل ١٩٥٣ مع القواعد الأمريكية في المغرب. حين بدأ سلاح الجو الأمريكي السابع عشر يدعم أنشطة القوات الجوية في جميع أنحاء جنوب أوربا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط . وفي شهر أغسطس عام ١٩٥٦، انتقل المقر إلى قاعدة ويلوس، وظل بها إلى أن انتقل إلى رامشتاين في ١٥ نوفمبر ١٩٥٩. وأنشأت ٢٠ قاذفة قنابل، ومفارز تشغيل AB، في فبراير ١٩٥٨. وتأسست مفرزة التدريب على الأسلحة ومتعلقاتها في يوليو ١٩٥٨. وقد بدأت خطة التنقل الأول في ١ يناير [1]١٩٥٩. وكان قد تم تشغيل مركز تحكم القاعدة حتى عام

(١) War Department. Air Transport Command. Wheelus Air Base, Libya. (05/17/1945 -(90) 05/15/1947) Department of Defense. Department of the Air Force. Military Air Transport Service. (Wheelus Air Base, Libya. (06/01/1948 - 01/01/1953

١٩٥٢ حيث أقيم مقر جديد وأسراب هواء. وتلاقت أهميتها، وتكاملت مع القواعد المغربية في سيدي سليمان. ناهيك عن بناء وحدات للاتصالات خلال الفترة من ١٩٥٣- ١٩٥٨[١]. وتم تفعيل سرب ٤٣١ مقاتل في يونيو ١٩٥٣، وأسراب أخرى في يناير ١٩٥٥. وانتقلت إليها مقاتلات وأفراد عام ١٩٥٨، وواصل USAFE استخدامه لها حتى عام ١٩٧٠. حيث تم انسحاب القوات الجوية الأمريكية من القاعدة، وتحولت ملكيتها إلى ليبيا في ١١ يونيو ١٩٧٠[٢].

من الملاحظ أن القاعدة أصبحت في الخمسينيات محركًا اقتصاديًا قويًا داخل ليبيا، حيث تعاظم عدم المساواة في الثروة حتى عام ١٩٥٩، أى قبل اكتشاف النفط. وتم تأسيس الجناح ٢٠ قاذف مقاتل، ناهيك عن وضعها كمركز للتدريب على أسلحة USAFE . وتمثلت أهميتها فى أن سوء الأحوال الجوية في أوربا كان كثيرًا ما يمنع وصول أسراب السلاح الجوي الأمريكي لعدة أيام، في حين لم تنقطع التدريبات فيها بالمرة وطيلة مدة شهر التدريب التتابعى المقررة. ولعل وجود القاذفات الثقيلة B- 50 وB- 47 ، وكذلك KB- 29 ، وKB- 50 ، وKC -97 ، و KC- 135، يوضح تلك الأهمية الكبيرة للقاعدة. وهناك أسراب 431 وF- 86F ونماذج D تم إقامتها خلال المدة من ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٥٩[٣]. (انظر الرسم التخطيطي الكروكي في الملاحق، ملحق ٢).

وفى هذا السياق، أنشئت ٢٠ قاذفة قنابل ومفرزة مقاتلة في فبراير ١٩٥٨ للتدريب على الأسلحة على مدار السنة مع تناوب سرب كل شهر، فضلا عن إنشاء الجناح الأول في يوليو ١٩٥٨[٤]، وإقامة المقر الرئيسي لكتيبة المهندسين ٦٤ لقاعدة توبو في قاعدة ويلوس الجوية، حتى

---

(١) Wheelus Air Base, http://en.wikipedia.org/wiki/Wheelus_Air_Base(91)

(٢) Ibid

(٣) Walter J. Boyne:- *The Years of Wheelus, Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1, January 2008,http://www.airforcemag.com/MagazineArchive/Pages/2008/January%202008/0108wheelus.aspx

(٤) Wheelus Air Base, Libya, http://www.globalsecurity.org/wmd/facility/wheelus.htm

تم انتقالها إلى معسكر ليفورنو إيطاليا[١]. وظلت التطورات الإنشائية متتابعة في القاعدة حتى أطيح بالملك إدريس في سبتمبر ١٩٦٩. ورغم رغبة الأمريكان في الاحتفاظ بها فإن مطالبة القذافي بإغلاقها جعلهم ينسحبون منها في يونيو [٢]١٩٧٠. وبالتالى يمكن القول بأن الحركة الإنشائية في القاعدة كانت تتناسب مع الأعداد الأمريكية الموجودة بها. وفي هذا الإطار وجدت أندية ليلية للترفيه ومطعم ومستشفى وغيرها. حيث خدم كثير من الأمريكان فيها، وحدثت بينهم وفيات وعلاقات في شتى المجالات[٣]. ولعل ما أشار به بعض الجنود والموظفين بها خلال المدة من ١٩٦٣-[٤]١٩٧٠، يشير إلى أن تطور بنية القاعدة لم يكن لأمور فنية وتقنية بحتة، بل لزيادة الأعداد الأمريكية العاملة هناك .

ثانيًا - بنية القواعد الأمريكية في المغرب:

لقد لعبت القواعد الأمريكية دورًا مهمًّا في تفوق سلاح الجو الأمريكي على غيره من دول العالم[٥]. وبدأ الأمر بكتيبة مدفعية ودبابات (خمس وأربعين دبابة) في الرباط. ونصف كتيبة دبابات إضافية في مكناس. وحوالي ٦،٢٠٠ من الرجال. تشمل نسبة كبيرة من قدامى المحاربين، وأسلحة مضادة للدبابات، ووحدات مدرعة، وأفواج قتالية ومجموعات مهاجمة، وفرق عمل بحرية مكونة من ٥٢٥ ضابطًا و٨،٥٥٤ جنديًّا، و١،٧٥٧ قوات برية و٦٥ دبابة خفيفة و٨٨١ مركبة، حملت على سفينة حربية من تكساس، عليها تسع مدمرات و٢ كاسحات ألغام،

---

(١) 64th ENGINEER BATTALION–Wheelus Air Base—LIBYA, http://ethi-usmappingmission.com/187541

(٢) Wheelus Air Base, Libya, http://www.globalsecurity.org/wmd/facility/wheelus.htm

(٣) WALTER J. BOYNE:- *The Years of Wheelus, Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1, January2008, http://www.airforcemag.com/MagazineArchive/Pages/2008/January%202008/0108wheelus.aspx

(٤) http://www.youtube.com/watch?v=k_TEelPBX8U

(٥) Department of Defense. Department of the Air Force. Air Mobility Command. Twenty-(First Air Force. 19th Air Refueling Wing. (07/01/1993 - 07/01/1996

ومزيتة وطائرة مائية(١). وأنشأ جناح ١٩ قصف في أغسطس ١٩٤٨، وتم تشغيله في مايو ١٩٤٩. وذهب الجناح ٢٨١ طلعة قتالية (بعثة ٢٣) للعمل في كوريا خلال الحرب الكورية. وطبقا لما نشرته قاعدة سيدي سليمان من يناير إلى أبريل ١٩٥٦، وبن جرير في مايو ويوليو ١٩٥٧، فإنهما كانتا تقومان بتزويد القوات الجوية الأمريكية بالوقود، من خلال الجناح ١٩، و٢٠(٢). ويذكر بعض الذين خدموا في القواعد الجوية ومرافق الاتصالات الأمريكية في المغرب أنها كانت جزءًا رئيسيًا في استراتيجية الردع ضد الكتلة السوفيتية. وفي هذا الإطار أسسوا مواقع لتخزين الأسلحة النووية بعد استقلال المغرب عام ١٩٥٦(٣). فقد كانت هناك ثلاث فرق عمل، وزعت على ميناء ليوتي وفيدالا إلى الشمال من الدار البيضاء وآسفي، ناهيك عن الحجم الكبير للأسلحة الأمريكية، وتعزيزات الدبابات والمدافع ذاتية الحركة، فضلًا عن الإمدادات اللازمة(٤). ويشير أحدهم بأنه خدم في قاعدة سيدي يحيي وميناء ليوتي في المدة ١٩٥٨-١٩٦٠. ومنهم من خدم في القواعد الأخرى حتى سنة ١٩٦٧، ومن يخدم بنفسه ومن كان لديهم خدم مغاربة، وأن نساءهم ولدن أطفالهن هناك. وكانت هناك خدمات تعليمية ، ولديهم سيارات خاصة للتنقل والتنزه، ونوادى للسهر والحفلات الليلية(٥).

---

(١) Chapter VIII :Mehdia to Port-Lyautey, http://www.ibiblio.org/hyperwar/USA/USA-MTO-NWA/USA-MTO-NWA-8.html

(٢) Department of Defense. Department of the Air Force. Far East Air Forces. Twentieth Air Force. 19th Bombardment Wing, Medium. (10/17/1949 - 06/10/1954) Public Affairs Releases, 1965.Air Force Historical Research Agency http://www.afhra.af.mil/factsheets/factsheet.asp?id=13350, viewed August 13, 2012: article: 19 Airlift Wing (AMC), Nov. 7, 2008 (The 19th Bombardment Wing, Medium was established on August 10 and activated on August 17, 1948...and Brigadier General Rowayne A. Schatz Jr., October 1, 2008

(٣) Carol Migdalovitz :-*Maghreb Facing New Global Challenges* ..U.S.-Moroccan Relations ..How Special? Programme Moyen-Orient/Maghreb ,October 2011.PP.6-8

(٤) /Port Lyautey Operation,http://www.texasmilitaryforcesmuseum.org

(٥) http://www.portlyautey.com/guestlog.htm

ولنتعرف أكثر على بنية كل قاعدة سنعطي لمحة عن كل واحدة من القواعد الأربع: الأولى، قاعدة القنيطرة (ليوتي سابقا). لما كانت قاعدة ليوتي تقع على نهر سبو بالقرب من المحيط الأطلسي، على الطريق بين العاصمة الرباط ومدينة طنجة الساحلية الشمالية، وتم تأسيسها عام ١٩١٢ عن طريق لويس هوبير ليوتي، أول مقيم عام فرنسي في المغرب، كحصن عسكري يحل محل العرائش، التي أدرجت في المنطقة الإسبانية، فإن استخدام الأمريكان لها خلال الحرب العالمية الثانية، لم يحدث جديدا في إنشاءاتها خلال فترة الحرب.لكن حينما أصبحت تحت سلطة الولايات المتحدة سنة ١٩٤٨، وأصبحت قاعتهم الجوية والبحرية الرئيسية في عام ١٩٥١، تم تجهيزها بما يلزم من مواصفات(١). وفي هذا الإطار عرض بعض العاملين بها وصفا تفصيليا وجغرافيا لها(٢). في حين تحدث آخرون عن القيادات التي تعاقبت على تطويرها منذ الأربعينيات، حتى أضحت تحت قيادة بول مارود Marraud في يناير ١٩٥١ ثم فيليب دي سيستيفاكس Scitivaux ، ثم دي فاسيو Vaisseau في ٢ يونيو ١٩٥٤ ، ثم أندريه منفيل Menvielle في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤، ثم بيير دارتوجيس Dartigues في أكتوبر١٩٥٥، ثم إتيان داروبس D'Arbois في ٢٧ سبتمبر ١٩٥٧، ثم جان نيلي Nielly في ٢ أكتوبر ١٩٥٩، ثم بيير روليت Rouliot في يوليو ١٩٦١، ثم جان دورفيل Durival، إلى أن أغلقت عام (٣)١٩٦٣. وتغير اسم المدينة من ميناء ليوتي إلى القنيطرة في محاولة من قبل المغاربة لتخليص أنفسهم من بقايا الأسماء الفرنسية وتأثيراتها(٤). وتطلب وجودُ الآلاف من الجنود فيها وجودَ أنديةٍ ترفيهية عديدة، في الغطس والسباحة والجولف والتنزه بين الكروم(٥). وهناك من خدم فيها وكان يتعامل مع الشوارع والأسواق الموجودة في المدينة. وخلال سنوات ١٩٥٣-١٩٥٥ كانت تُعد

(١) History of Port Lyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey%20History.htm

(٢) Chapter VIII :Mehdia to Port-Lyautey, http://www.ibiblio.org/hyperwar/USA/USA-MTO-NWA/USA-MTO-NWA-8.html

(٣) %HistoryofPortLyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey

(٤) http://www.portlyautey.com/Newsletter.htm

(٥) HistoryofPortLyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey

قاعدة كبيرة نسبيا في أعداد الموظفين، بها نادٍ للترفيه. حيث كان يتم التعاقد مع فرق الترفيه عبرها، وعبر النوادي الليلية الأوربية وشمال أفريقية الأخرى. وعادة ما كانت هناك فرقة تقدم الموسيقى والرقص كل ليلة. بعضهم عمل بها من أواخر الخمسينيات حتى سنة [١]١٩٧٥.

من المؤكد أن قاعدة القنيطرة تم الحصول عليها باتفاق مع فرنسا خلال انطلاق العديد من عمليات الحلفاء في شمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط خلال الحرب العالمية الثانية. وسواء كان الأسطول الجوي والبحرى قد استخدمها في الأربعينيات، فإنه بانتهاء تلك الحرب تم توسيع المطار إلى قاعدة رئيسية عام ١٩٥١، بهدف مراقبة العمليات البحرية السوفيتية في شرق المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط[٢]. وإذا كان هدف القاعدة هو استهداف جنوب روسيا ومساعدة الأسطول السادس الأمريكي، كان من الطبيعي أن يوجد بها منصة رئيسية مضادة للغواصات، مدعومة بكتائب ومحطتين اتصال في بوقنديل وسيدي يحي. وفي أواخر الخمسينيات أصبحت مركزًا رئيسيًّا لنقل مشاة البحرية الأمريكية إلى لبنان لدعم الحكومة اللبنانية[٣].

وبنظرة واحدة للأسراب الجوية البحرية التي خدمت في قاعدة القنيطرة، تلك التي تتكون من السرب ٢٧ ، - ٢، و -٣-١٠٣ ، و -٤-١٠٤ ، و ٩-١، و -١٥ ، و -١٤ ، و -١١١ ، و - ١١٢ ، و -١١٤ ، و - ٥، و - ٦، و - ٧ ، و - ٨، و -٨٦ ، و - ٣ ، و - ٥ ، و - ٧ ، و - ١٠ ، و - ١٨ ، و - ٢١ ، و - ٢٣ ، و - ٢٦ ، و - ٧٣ ، و - ٩٢ ، و ٨٦١ ، و اف بي -١ ، و -٦٣ ، و -١١٧ ، و ١٢٧ ، و -١٣٢ ، و - ٢ ، و - ٦ ، و -٢٢ ، و - ٢٤ ، و -٢٦ ، و - ٢ ، و - ١٤ ، و - ٢ ، وأصبح لاحقا -٢ ، نتأكد تماما من الإضافات المهمة التي شيدها الأمريكان داخل قاعدتهم. بل الحق بها تجهيزات طائرات، وطواقم مدربين وأسراب ووحدات أخرى، وكان هناك و ، وشعبة المشاريع الخاصة في مكتب رئيس العمليات البحرية ( ) . وهناك - ١١ ، و - ٢٦ ، و - ١، و ، - ٢ وهناك

---

(١) Naval Air Station Port Lyautey, Kenitra, Morocco, http://www.portlyautey.com/Gandsey.htm

(٢) http://en.wikipedia.org/wiki/Kenitra_Air_Base

(٣) HistoryofPortLyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey

، -٣٢، و - ٣٨ . وأسراب الاستطلاع الأول والثاني VQ -1 و VQ -2. وهناك AQ1 وأسراب البحرية الأولى P2V لسلاح الجو، وجناح 5 و HQ 7 مقاتل. وهناك المجموعة 33D مقاتلة، وحاملة الطائرات يو إس إس تشينانجو (ACV -28)، وأسراب 91 و 81 ، 93d مقاتلة، مع P - 39S وسرب 92d، ومجموعة 81 مقاتلة، مع P - 39S، ومجموعة 47 ، وسرب 84 ، مع A- 20S ؛ HQ قصف، ومجموعة 310 متوسطة، و سرب 381 قصف متوسط ومجموعة 12 للاستطلاع، ومجموعة 3D للتصوير الفوتوغرافي[١]. للمزيد عن قاعدة القنيطرة في المغرب يمكن متابعة أرشيفها من سنة ١٩٤٣- ١٩٨٠ خصوصا المحافظ من ١-٣ وملفاتها الـ [٢]28. (انظر صورة لقاعدة القنيطرة في الملاحق، ملحق ٣)

لقد كتب أحد العاملين بالقاعدة مقالا سنة ١٩٥١ تحت عنوان «قاعدة ليوتي مفتاح منطقة البحر المتوسط»، يحكى فيه عن تجربته في الخدمة هناك، في الفترة من فبراير إلى سبتمبر ١٩٥١، ويشير فيه إلى أنها كانت واحدة من أهم القواعد التكتيكية للقوات الأمريكية. استولت عليها البحرية الأمريكية خلال الغزو الأمريكي لشمال أفريقيا، وظلوا بها حتى حصلوا عليها من فرنسا عام ١٩٥٠. وبعد أن انفجرت الحرب الكورية كان بها ما يقرب من ١٠،٠٠٠ شخص، بما يعني أكبر نسبة تركز خارجي بخلاف اليابان[٣]. لا غرابة إذًا، في أن تتوفر بالقاعدة طائرات استطلاعية من نمط خاص، ومن عدة أنواع في فترة الخمسينيات والستينيات والسبعينيات، إلى أن تم نقل القاعدة للقوات الجوية الملكية المغربية عام ١٩٧٧. وفي هذا الإطار تحدث بعض من خدم فيها عن محاولة انقلاب من قبل وزير الدفاع الوطني، محمد أوفقير، ومساعده محمد أمكراني في ١٦ أغسطس ١٩٧٢. حيث خرجت أربع طائرات مقاتلة إف ٥ من القنيطرة، هاجمت فيها طائرة بوينج ٧٢٧ تحمل الملك الحسن الثاني لدى

---

(١) Ibid

(٢) Naval Base Kenitra, Morocco 1943-1980 ,COLL/47 ,include historical files, messages, agree-ments, charts, and photos.

(٣) %HistoryofPortLyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey

دخوله المجال الجوي المغربي، عند عودته من زيارة فرنسا. ورغم أن الطائرة مليئة بطلقات الرصاص، فإنها تمكنت من الهبوط بسلام في مطار سلا بالرباط، دون أن يصاب الملك بأذى. ويذكرون العمليات الانتقامية الوحشية ضد المشاركين في المحاولة[١]. وهناك من خدم بها في عام ١٩٧٠ وتركها سنة ١٩٧٣ ليخدم بين قواعد الدار البيضاء والرباط والقنيطرة ومكناس وفاس. وفي نفس السياق يتذكر أحدهم محاولة أصدقائه من ضباط سلاح الجو المغربي الشباب، لإسقاط طائرة الملك في أثناء عودته من فرنسا. وخدم بعضهم في القنيطرة في الأشغال العامة وفي سلاح التموين. ويذكرون المؤامرة التي تمت ضد طائرة الحسن الثاني في عام ١٩٧٢ والإعدامات اللاحقة للعديد من أصدقائهم المغاربة وسجنهم. ويعرفون الكثير من الضباط المتورطين في تلك المؤامرة الثانية. حيث جرت المحاولة الأولى في عام ١٩٧١ في أثناء احتفالات عيد الميلاد في قصر الشاطئ في Skirat . وقتل أكثر من ١٠٠ ضيف[٢].

الثانية، قاعدة النواصر. تأسست قاعدة النواصر الجوية سنة ١٩٥٠ باتفاق بين فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية. وجرت محاولات سنة ١٩٥٧ لتحويلها من مركز للتموين إلى مركز للعمليات الحربية[٣]. تقع تلك القاعدة قرب الدار البيضاء، وهي تابعة لسلاح الجو الأمريكي، لهذا وضعتها ضمن استراتيجيتها في أوائل الخمسينيات في الربط بين قواعدها وجنوب المغرب. شيدت من قبل قيادة حلف الأطلسي، وقامت ببنائها مجموعة من الشركات أهمها شركة الطيران الجديدة، وشركة مقاولات بيتس وروجرز، وشركة إخوان بليث، ورالف ميلز بمساعدة ٤٩٦ سرب تركيب الهواء (AIS) من قبل القوات الجوية الأمريكية، وذلك في الفترة من أغسطس ١٩٥١ إلى يونيو ١٩٥٢. وتم تفعيل شعبة الهواء SAC 5 في ١٤ يناير

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Kenitra_Air_Base

(٢) An Article written by Craig Phillips who served at Port Lyautey in the early 1970's.,
http://www.portlyautey.com/Gandsey.htm

(٣) خطاب سفير مصر بالمغرب إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن قاعدة النواصر واستخدامها كمركز للعمليات الذرية واحتجاج الحكومة المغربية، في ١/٧/١٩٥٨، ملف ٧ رقم ٢/٨١/٧٤٥ج٣ التقارير السياسية للسفارة المصرية في الرباط عن مراكش، محفظة ٦٤، فيلم ٤٠ المغرب، أرشيف البلدان، خارجية.

١٩٥١، وكذا انتقل AFB و NE قبل انتقال الأفراد والمعدات في مايو ١٩٥١. وتم استيعاب الموارد والمسؤوليات من قبل بعثة القوات الجوية الأمريكية في المغرب. وتم تكليف شعبة مانينج بالتدريب وتجهيز الوحدات المخصصة، وإعداد المنشآت لدعم وحدات SAC ونشرها. وفي ديسمبر ١٩٥١ تم نقل سرب مراقبة الطائرات ١١٨ إليها. فضلًا عن المفارز القائمة في جبال أطلس والصحراء. أيضًا قاموا بتركيب أجهزة الإنذار المبكر والرادار والإذاعة المحلية. وتمثلت أهمية هذه القاعدة في التدريب على الانتشار إلى الأمام، واستضافة أي عدد من طائرات SAC بفضل تأسيسهم لمدرج الأسفلت لمسافة ١٢،٠٠٠ قدم. فضلا عن تشغيل المطار في يونيو ١٩٥٢. وكانت الطائرات التي يقودها SAC تظل في حالة تأهب لعدد محدد من الأيام، ما بين أمريكا والمغرب، ثم تعود إلى قواعدها فى CONUS . ولم يكن لدى شعبة الهواء ٥ أي وحدات قتالية، بل طائرات فردية تم تعيينها عبارة عن وحدات. وكانت شعبة الهواء ٥ تشرف على القاعدة الجوية 3922d ، باعتبارها وحدة تشغيل أساسية. وكان قائد الفرقة يتصرف بوصفه ممثلا لمكتب الاتصال المغربي، وقائدًا لسلاح الجو[١]١٦.

وفيما يختص بهدف قاعدة النواصر الجوية فقد تمثل في تخزين الأسلحة النووية فيها، وفي سيدي سليمان وبن جرير Guerir، وذلك منذ أغسطس ١٩٥٠ وبموجب اتفاق أمريكي فرنسي. وأعيد إنشاء تلك المواقع في مايو ١٩٥١. واستضافت المفجر B-36 ، وتم بناء مدارج معبدة وحظائر وهناجر جديدة. وقد تم بناء ثلاث قواعد في المغرب لهذا الغرض، في النواصر وسيدي سليمان، وبن جرير لكل منها ثلث القوة. فعلى سبيل المثال كانت سيدي سليمان تركز على المدفعية ، والنواصر على القوات الجوية[٢]. وإذا كانت قاعدة النواصر تبعد ١٨ كيلومترا عن الدار البيضاء ، وبدأ بناؤها في ٢٣ أبريل ١٩٥١، وبدأ تشغيلها في ديسمبر من نفس السنة؛ لذا كان الاهتمام ببنيتها التحتية كبيرًا. ففيما يتعلق بوحدات تشغيلها، كانت هناك Air Depot

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Nouasseur_Air_Base

(٢) Nouasseur Air Base, Morocco http://www.globalsecurity.org/wmd/facility/nouasseur.htm

Wg 80 في الفترة من ١٦ يونيو إلى ٨ يوليو ١٩٥١. ومستودع الهواء Air WG 7280 في الفترة من ٨ يونيو ١٩٥٣ إلى ١ مارس ١٩٥٤. وهناك ABGp 7280 في الفترة من ١ مارس ١٩٥٤ إلى ١ يونيو ١٩٥٦. وهناك ABGp (AMC 3153) من ١ يونيو ١٩٥٦ إلى ١ يوليو ١٩٥٨. وهناك ABG (SAC 3922) من ١ يوليو ١٩٥٨ إلى ١ سبتمبر ١٩٦٣. وهناك ABSq (Prov 3922) من ١ سبتمبر ١٩٦٣ إلى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٣. بالطبع هذا غير الوحدات الرئيسية المخصصة من ١ يونيو ١٩٥٣ إلى ٨ مارس ١٩٦٠ ، وغير AC&W Sq 118 من ١٦ يناير ١٩٥٢، وغير 154 AC&W Gp من ٢٥ يونيو ١٩٥٢، وغير Atlantic Air Rescue التي استمرت حتى ١٩٦٣. وهي القاعدة التي أعيد تسميتها في ٢٠ ديسمبر ٦٣ باسم مطار النواصر الدولي، ثم مطار محمد الخامس الدولي. وبنيت القاعدة ووحداتها عن طريق مقاولين أمريكيين وتحت إشراف الكونجرس. وكانت بناياتها قليلة في البداية، إلى أن تطور هذا الأمر فيما بعد. لكن حدث تطوير كبير لها في سبتمبر ٥٢، مع توفير الدعم اللوجستي لجميع أنشطة سلاح الجو في منطقة المغرب الفرنسية. فتم تعيين مستودع لـ AMFE القوة الجوية الأوربية سنة ١٩٥٤، وكذلك إقامة مقر للقوات الجوية AMC بعد الاستقلال عام ١٩٥٦. حيث سعت الولايات المتحدة من وراء الستار لإجبار كل من فرنسا وإسبانيا لإجلاء قواتهما من البلاد، خاصة بعد انشغالها في الصراع بين المغرب وفرنسا[١].(انظر كروكي قاعدة النواصر، ملحق ٤)

وخلال المدة من منتصف الخمسينيات إلى أواخر الخمسينيات تشتت برنامج SAC عن الاتحاد السوفيتي كهدف رئيسي للعمليات، سواء من ناحية وضع طائراتها والأسلحة، أو من ناحية عدد العاملين في القواعد. وكانت القاعدة إحدى القواعد الجوية المهمة في المنطقة ما بين جرينلاند وشمال أفريقيا. بالإضافة لذلك، وضعت SAC برنامجا قصير المدى لنشر B- 47S بالتناوب ٩٠ يوما، لتبقى الطائرة في حالة تأهب لمدة ١٥ دقيقة خلالها. ثم التدريب على نقلها خارج القاعدة من دون التزود بالوقود، فضلا عن بعثات التدريب على القاذفات سنة ١٩٥٤. وحينما تعطلت شعبة الهواء ٥ في ١٥ يناير ١٩٥٨، تم استبدالها بالشعبة الجوية

(١) http://3973cds.com/3973cdsnouasseur.php

٤٣١٠، وظلت كوحدة مضيفة حتى أغلقت القاعدة عام ١٩٦٣. ومع زعزعة استقرار الحكومة الفرنسية في المغرب، واستقلال المغرب عام ١٩٥٦، أرادت حكومة محمد الخامس انسحاب القوات الجوية الأمريكية من القواعد المغربية، خاصة بعد رؤيتها للتدخل الأمريكي في لبنان عام ١٩٥٨. فوافقت الولايات المتحدة على مغادرة البلاد في ديسمبر عام ١٩٥٩، وخرجت تماما من قاعدة النواصر الجوية، وأغلقتها في ١٥ أغسطس [١]١٩٦٣.

وفي عام ١٩٥٨ طلب المغرب من الولايات المتحدة التفاوض على اتفاق إسناد، وذلك لإصرار الفرنسيين على أنهم لا زالوا يمتلكون أرض القاعدة. وحينما تأزم التفاوض وافقت الولايات المتحدة، في سبتمبر ١٩٥٨، على إغلاقها في غضون خمس سنوات. وعلى أرض الواقع استغرق انسحابها أكثر قليلا من ١٨ شهرا. وكانت القوات الأمريكية قد غادرت معظم القواعد بحلول نهاية أبريل ١٩٦٠، فيما عدا النواصر فقد غادرتها في ٢٠ ديسمبر [٢]٦٣.

الثالثة، قاعدة سيدى يحي. ظلت تلك القاعدة في يدي الأمريكان حتى السبعينيات. ففي أكتوبر عام ١٩٧٤، تحدث أحد الذين عملوا بها عنها، بأنها عبارة عن منطقة معزولة تقع على بعد اثني عشر ميلا من قاعدة القنيطرة غرب المغرب. افتتحت في منتصف عام ١٩٥٠، وتقع شرق قرية سيدي يحي غربا على الطريق السريع N4. واستخدمت أيضا لتدريب القوات الأمريكية والمغربية أيضا. في الماضي لعبت المنشآت القوات الجوية في سيدي سليمان والنواصر وبن جرير دورًا مهمًّا. وجاءت قاعدة سيدي يحي عبارة عن مساحة صغيرة بها ثكنات للجنود ومحطة حقل هوائي ضخمة. واستخدمت كمحطة استقبال مع محطة بوقنديل Bouknadel ، للحفاظ على اتصالات آمنة مع الأسطول السادس الأمريكي. وقد استخدمت هذه القواعد لمراقبة حركة المرور البحرية الروسية التى تدخل البحر الأبيض المتوسط وتخرج منه عبر مضيق جبل طارق. بلغت مساحة القواعد الأمريكية في المغرب ٤،٨٠٠ فدان من الأراضي. ولعبت سيدي سليمان والنواصر وبن جرير دورا فى عملية المراقبة

---

(١) http://en.wikipedia.org/wiki/Nouasseur_Air_Base

(٢) http://3973cds.com/3973cdsnouasseur.php

للاتحاد السوفيتي. ودخلت قاعدة سيدي يحي حيز التنفيذ عام ١٩٥٧، حينما اكتملت بها شتى المنشئات الاجتماعية، فكان بها مدرسة ابتدائية مقسمة إلى أربع غرف، ومطعم ومستشفى. عمل بها عدد من الخدم المنزلي المغربي. وتم إخلاء سيدي يحي بحلول نهاية عام [1]١٩٧٧. ولعل حديث عدد من الجنود عن ذكرياتهم عنها فمنهم من قضى فيها ١٥ شهرا ومنهم من خدم أكثر من ذلك[2]، يشير إلى أنها كانت ركيزة مهمة من ركائز الأمريكان في المغرب. (انظر صورة لقاعدة سيدى يحي، ملحق ٥)

الرابعة، قاعدة سيدى سليمان تقع في منطقة حسين غرب شراردة في المغرب. بنيت عام ١٩٥١ من قبل القيادة الجوية الأمريكية، كقاعدة تدريب على الانتشار إلى الأمام. وكانت عبارة عن ثلاث قواعد شيدت بناء على مخاوف منظمة حلف شمال الأطلسي بعد الحرب الكورية من الحرب الباردة .وكان يوجد بها مجموعة دعم قتالي. وتم توسيعها في الخمسينيات لاستيعاب الطائرات النفاثة، فتم بها بناء شعبة الهواء ٥، ووحدات الدعم القتالي وستراتوفورتيس و Stratotankers وعدد كبير من مرافق الطائرات ومدرجاتها وممراتها، وثكنات لقواتها. وقد استخدمت القاعدة من قبل سلاح الجو السابع عشر، وتحتوي على ٤٥ سربا مقاتلا مجهزا. وظلت قائمة إلى أن تم إغلاقها في ٣٠ سبتمبر [3]١٩٦٣.

المحور الخامس- جلاء القوات الأمريكية عن قواعدها في شمال أفريقيا ١٩٧٠-١٩٧٧:

لم يكن خروج الأمريكان وانسحابهم من قواعدهم في شمال أفريقيا ليتم إلا بتضافر جهود إقليمية ودولية ومحلية. وفي هذا المحور سنتعرف على تلك الجهود الخارجية والإقليمية والداخلية ودورها في رفض تلك القواعد، والعمل على انسحاب الأمريكان منها:

---

(١) Naval Communications Station, Sidi Yahia, Morocco, http://jjbales.com/militarymemo-ries_morocco_sidiyahia.html,

(٢) US Naval Communication Station, Sidi Yahia, Morocco, http://www.portlyautey.com/Tay-lor.htm

(٣) http://en.wikipedia.org/wiki/Sidi_Slimane_Air_Base

أولا- الضغط الإقليمي والدولي:

وفي هذا الإطار يمكن القول بأن الرفض المصري والعربي للقواعد العسكرية الأمريكية في شمال أفريقيا كان أهم أشكال الضغط الإقليمي الداعم للرفض المحلي لها. فنظرا لأن منطقة شمال أفريقيا بحكم موقعها قد دخلت في منظومة المشروعات العسكرية حول البحر المتوسط تارة، ومنظومة الدفاع عن الشرق الأوسط تارة أخرى، كان من الطبيعي أن تتأثر بالرفض الإقليمي العربي لها. فعلى سبيل المثال، جاء الرفض المصري لبقاء القوات الأجنبية في ليبيا، ورفضها للقواعد العسكرية التي تم الاتفاق عليها بين ليبيا وانجلترا والولايات المتحدة، متسقًا مع رفضها للمشروعات التي طرحت عليها في نفس الفترة. حيث شنت الصحف المصرية هجوما عنيفا على المعاهدة الإنجليزية الليبية سنة ١٩٥٣، ووقفت ضد رئيس الوزراء الليبي مصطفى بن حليم[١] عندما وقع المعاهدة الليبية الأمريكية في ٩ سبتمبر ١٩٥٤[٢]. وهذا لا يعني اقتصار الأمر على ليبيا فقط، بل تابعت الإدارة المصرية منذ سنة ١٩٥٤ تطور أمر تلك القواعد عبر شمال أفريقيا كله[٣]. حيث سجلت التحركات التي يقوم بها الغرب ودول حلف بغداد منذ سنة ١٩٥٦ لمحاولة ضم المنطقة للحلف، أو دفعها لتكوين حلف مكمل له. ونجحت في دفعها لإصدار بيان بعدم السماح للقوات الغربية باستخدام القواعد

---

(١) رئيس وزراء ليبيا في الفترة من ١٩٥٤ ١٩٥٧، وتولى الوزارة في ١١ أبريل ١٩٥٤، وكانت سياسته تهدف للتعاون مع مصر، بيد أن ميوله الأمريكية أثرت عليها بعد حرب السويس، وهو من أتباع إبراهيم الشلحي، ناظر الخاصة الملكية الليبية وأكبر المؤثرين لدى الملك السنوسي، حيث كان مقتل إبراهيم الشلحي على يد أحد أبناء آل الشريف السنوسي نتيجة عمله على إبعاد أولاد السيد أحمد السنوسي عن تولي المناصب الليبية، فقتل في أكتوبر ١٩٥٤، وهو الذى عمل على تزويج الملك من فتاة مصرية من عائلة لملوم (عائلة عبد القادر لملوم) لدعم مركزه في الوزارة وبتأييد من آل الشلحي الذين يرغبون في الكيد لعائلة الشريف السنوسي أخوة الملكة فاطمة زوجة الملك بسبب قتلهم لأبيهم. للمزيد انظر: مجدي رشاد عبد الغني: العلاقات المصرية الليبية ١٩٤٥-١٩٦٩، تاريخ المصريين، العدد ٢٧١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ص ص ١٢، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٨، ١٨٢، ١٨٦.

(٢) مجدي رشاد عبد الغني: المرجع السابق، ص ص ١٦٦، ١٧١، ١٧٣.

(٣) خطاب من القائم بالأعمال المصري ببريتوريا (محمد سامي) إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن زيارة نائب رئيس وزراء فرنسا لاتحاد جنوب أفريقيا، في ١٢ مارس ١٩٥٤، ملف ٣، فيلم ٥٤ بريتوريا، محفظة ٨٣، أرشيف البلدان، خارجية، ص١.

الموجودة في أراضيها ضد الشعوب العربية[١]. وتابعت ما يجري في تلك القواعد في المغرب وليبيا، ورغبة الولايات المتحدة في دفع منطقة شمال أفريقيا للدخول في الأحلاف الغربية[٢]. وهو الأمر الذي جعلها مستهدفة من قبل الدول الغربية هناك. وجعل السفارات المصرية تحت الحراسة، وجعل هناك مصريون مراقبون في تلك المنطقة. وبالتالي كان لا بد لها من الاقتراب من ليبيا والمغرب واكتساب ثقة ملكيها، والعمل على نشر الثقافة المصرية لاكتساب ثقة شعوبها، وتقوية الروابط الدينية والقومية معهما[٣]. ولعل الدعاية المصرية ضد إقامة حلف شمال أفريقيا باستخدام صوت العرب والصحافة المصرية، قد كان لها تأثير كبير في سقوط الحلف. فضلا عن هداياها من الأسلحة لكليهما سنة [٤]١٩٥٧، ودعوة الوفود الشعبية لحضور مؤتمر التضامن الآسيوي الأفريقي[٥]. ذلك المؤتمر الذي استهدف في أحد قراراته تصفية القواعد العسكرية في شمال أفريقيا[٦].

---

(١) مذكرة إدارة الأبحاث بشأن الإيعاز للهيئات الوطنية اليونانية والقبرصية لإصدار بيان ينص على عدم السماح باستخدام القواعد البريطانية ضد الشعوب العربية، ١٩٥٦/٤/١٤، ملف ٢ رقم ١/٧/٢٠٧ج٤ التقارير السرية للسفارة المصرية في أثينا، محفظة ٦٣١ (كود أرشيفي ٦٣٠) سري جديد، خارجية.

(٢) نفسه، ص ص ٣، ٤.

(٣) مذكرة مدير الإدارة العربية بوزارة الخارجية المصرية في ١٩٥٦/١٢/١٢، ملف١ رقم ٢٤٢ /١/٧ج٥ تقارير بنغازي السياسية، فيلم ٣٢ ليبيا ، محفظة ٥٠، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ١، ٣ ٥.

(٤) مذكرة الإدارة العربية إلى رئاسة الجمهورية بشأن تقديم هدية رمزية من الأسلحة لحكومة تونس، في ٢٨ يوليو ١٩٥٧، ملف ٣ رقم ٢/٨١/٧٤٣ ج٢ التقارير السياسية للسفارة المصرية في تونس «عن تونس»، محفظة ٥٨، فيلم ٣٧ تونس، أرشيف البلدان، خارجية.

(٥) خطاب من القائم بالأعمال المصري بالنيابة (محمد التابعي) إلى السيد وكيل الخارجية، عن حديث مع مصطفى بن حليم رئيس الوزراء السابق ومستشار الملك حاليا، في ١٧ نوفمبر ١٩٥٧، ملف ٣ رقم ٢/٨١/٧٤٦ ج٢ التقارير السياسية للسفارة المصرية في طرابلس «عن ليبيا» ١٩٥٧، فيلم ٣٠ ليبيا ، محفظة ٤٦، أرشيف البلدان، خارجية، ص٢.

(٦) خطاب من القائم بأعمال سفارة الجمهورية العربية المتحدة ببنغازي إلى السيد السفير وكيل الخارجية حول مؤتمر التضامن الآسيوى الأفريقي، ٣٠ ديسمبر ١٩٥٧، ملف ١ رقم ٣ سفارة الجمهورية العربية المتحدة موضوعات مختلفة ١٩٥٧-١٩٥٨، فيلم ٢٩ ليبيا، محفظة ٤٥، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ١-٢.

وفي نفس السياق، تصاعد الرفض في شمال أفريقيا ضد القواعد العسكرية الغربية. وتعد ليبيا في مقدمة دول الشمال الأفريقي التي رفضت استخدام القواعد الموجودة في أراضيها ضد الشعوب العربية منذ الربع الأول من سنة ١٩٥٦[١]. حيث تشير إحدى الوثائق في يوليو ١٩٥٧ بأن ليبيا أصبحت ترغب في صداقة كلا الكتلتين، ولا تود الدخول في الأحلاف. وأنها لا تخل بالتزاماتها الدولية مع الدول التي ترتبط معها بمعاهدات ومواثيق تتفق مع ميثاق هيئة الأمم المتحدة[٢]. وهذا يعني أنها تريد تحييد القواعد العسكرية الموجودة على أراضيها من استخدامها سواء ضد الدول العربية أو الكتلة الشرقية. وتبعها في يوليو ١٩٥٧، رفض مغربي واضح لسوء استخدام تلك القواعد الموجودة على أراضيها. فقد عبرت الأوساط الرسمية والشعبية فيها عن قلقها بما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية من تحويل قاعدة النواصر من مركز للتموين إلى مركز للعمليات الحربية. ومع أن المغرب اعتبرته اعتداء على سيادتها وقدمت احتجاجا رسميا لأمريكا، فإن فرنسا وإسبانيا أصرتا على التمسك بتلك القواعد[٣].

من هنا، شعرت انجلترا وأمريكا بأنه ضمانًا لقواعدهما العسكرية، لا بد من طرد الملحقين العسكريين، المصرى والروسى، من ليبيا. وخطاب الوكيل المساعد للشؤون السياسية لوزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية في ١٦/ ٩/ ١٩٥٧، يؤكد بأن الطرد صدر بناء على ضغط من

---

(١) مذكرة إدارة الأبحاث بشأن الإيعاز للهيئات الوطنية اليونانية والقبرصية لإصدار بيان ينص على عدم السماح باستخدام القواعد البريطانية ضد الشعوب العربية، ١٤/٤/١٩٥٦، ملف ٢ رقم ١/٧/٢٠٧ج٤ التقارير السرية للسفارة المصرية في أثينا، محفظة ٦٣١ (كود أرشيفي ٦٣٠) سري جديد، خارجية.

(٢) تصريحات رئيس الحكومة الليبية عن سياسة الحكومة، في ٢٢ يوليو ١٩٥٧، ملف٣ رقم ٢/٨١/٧٤٦ج١ التقارير السياسية للسفارة المصرية في طرابلس «ليبيا» ١٩٥٧، فيلم ٣١ ليبيا، محفظة ٤٨، أرشيف البلدان، خارجية، ص١.

(٣) خطاب سفير مصر بالمغرب إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن قاعدة النواصر واستخدامها كمركز للعمليات الذرية واحتجاج الحكومة المغربية، في ١/٧/١٩٥٨، ملف ٧ رقم ٢/٨١/٧٤٥ج٣ التقارير السياسية للسفارة المصرية في الرباط عن مراكش، محفظة ٦٤، فيلم ٤٠ المغرب، أرشيف البلدان، خارجية.

قبلهما، لضمان الأمان والسلامة لقواعدهما[١]. وتم طرد الملحق العسكري المصري من تونس في أكتوبر سنة ١٩٥٧ بتهمة التجسس على القواعد الأمريكية في الشمال الأفريقي[٢]. وإذا كان هناك تشابه بين المغرب وليبيا من حيث الارتباط مع الدول الأجنبية والرغبة في الحصول على معونات عسكرية واقتصادية[٣]، فإن الدور المصري، عبر تقديم الأسلحة، وتكوين رفض شعبي داخل ليبيا والمغرب ضد القواعد الأمريكية، يدلل على أنها لعبت الدور الأهم في تكوين هذا الرفض. وربما كانت المشاكل التي خُلقت في ليبيا والمغرب للملحق العسكري المصري[٤]، تقطع بهذا الدور وتوضحه.

وفي السياق ذاته، استنكر مؤتمر الشعوب الأفريقية الآسيوية الذي عقد بالقاهرة في الفترة من ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧ ١ يناير ١٩٥٨ إقامة القواعد العسكرية[٥].وكان مؤتمر الدول الأفريقية المستقلة الأوَّل، الذي عُقد بأكرا (غانا) في الفترة من ١٥ ٢٢ أبريل ١٩٥٨ قد قرر الامتناع عن استعمال أنظمة الدفاع المشترك لخدمة الأغراض الخاصة لإحدى الدول الكبرى[٦]. ولما كانت القواعد العسكرية عمليًّا أداة ضغط ضد الأمم، تعمل على تأخير تحررها وتطورها

---

(١) خطاب من الوكيل المساعد للشئون السياسية إلى السيد حامد محمود مدير مكتب السيد وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية، في ١٦ /٩/١٩٥٧، ملف٣ رقم ٢/٨١/٧٤٦ج٢ التقارير السياسية للسفارة المصرية في طرابلس «عن ليبيا» ١٩٥٧، فيلم ٣٠ ليبيا، محفظة ٤٦، أرشيف البلدان، خارجية.

(٢) مجدي رشاد عبد الغني: المرجع السابق، ص٢٩٠.

(٣) خطاب سفير مصر بليبيا أحمد حسن إلى السيد السفير وكيل الخارجية بشأن اتحاد شمال أفريقيا، في ٢٧ ديسمبر ١٩٥٦، ملف ١ رقم ٢٤٢ /٧/١ج٥ تقارير بنغازي السياسية، فيلم ٣٢ ليبيا، محفظة٥٠، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ١، ٣ ٥.

(٤) أحمد عبد الدايم محمد حسين: مصر ومشروعات الأحلاف الدفاعية في شمال أفريقيا ١٩٥٦-١٩٥٨، دراسة وثائقية، مجلة بحوث الشرق الأوسط، مركز بحوث الشرق الأوسط، العدد ٢٤، مارس ٢٠٠٩، جامعة عين شمس، ص ص ٢٩٨-٣٠٢.

(٥) مؤتمر الشعوب الأفريقية الآسيوية ٢٦ ديسمبر ١٩٥٧ ١ يناير ١٩٥٨، الكتاب الخاص بالكلمات الافتتاحية والقرارات والكلمات الختامية، السكرتارية الدائمة لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، ص ص ٢٨- ٣٤.

(٦) كولين ليجوم: الجامعة الأفريقية دليل سياسى موجز، ترجمة أحمد محمود سليمان، مراجعة عبدالملك عودة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسلة دراسات أفريقية، العدد ٩، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢١٩.

وفقا لمفاهيمها الأيديولوجية السياسية والاقتصادية والثقافية، فإن بيان مؤتمر القاهرة لدول عدم الانحياز أكتوبر ١٩٦٤ جاء معبرًا عن هذا الرفض الواضح لها. بل إن المناقشات التي دارت في محافل الأمم المتحدة هي التي ألقت الأضواء على قضية طالما دعا إليها استقرار الأمن والسلام في العالم، وهي قضية القواعد العسكرية الموزعة في نواح شتى من جهات العالم. حيث تقدم مندوب الاتحاد السوفيتي بمشروع قرار إلى اللجنة السياسية الرئيسية التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة، يقضي بتصفية جميع القواعد العسكرية في أراضي أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وفي أثناء المناقشات التي دارت في اللجنة، قام مندوب الجمهورية العربية المتحدة بتأييد المشروع السوفيتي، معلنًا أن القواعد العسكرية الأجنبية مرادفة للاستعمار، وأن الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها كثير من هذه القواعد إنما انتزعت من المستعمرات انتزاعا، ثمنا لاستقلالها. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد عارضت هذا المشروع، وطلبت من اللجنة السياسية أن ترفضه، بل أكد المندوب الأمريكي أن وجود القواعد العسكرية الأمريكية فيما وراء البحار تبرره التهديدات العدوانية من الاتحاد السوفيتي والصين الشعبية[١]. غير أن حرب ١٩٦٧ والهزيمة شبه الكاملة لمصر وسوريا والأردن، والاستيلاء على سيناء ومرتفعات الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة، أحدثت موجة كبيرة من الاحتجاجات الشعبية ضد القواعد الأمريكية[٢]، فهَبَّتْ موجاتُ الغضب تجاهها إلى أن انسحبت من ليبيا سنة ١٩٧٠، ومن المغرب سنة ١٩٧٧.

ثانيًا- تطور الرفض الليبي للقاعدة حتى إخلائها سنة ١٩٧٠:

لقد ولدت المعارضة الشعبية للقاعدة الأمريكية مع توقيع الملك إدريس السنوسي للمعاهدة المؤقتة بشأنها في مارس ١٩٥٠. فحينما استشعر الليبيون أمر توقيعها سرعان ما ولدت معارضة شعبية في الشهور الأولى لتوقيعها[٣]. لكن جرت في ٤ مارس ١٩٥٤ أول محاولة من

---

(١) بطرس بطرس غالي: تصفية القواعد العسكرية، السياسة الدولة، العدد الأول.

(٢) Walter J. Boyne:- «*The Years of Wheelus*», *Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1,

(٣) علي شعيب: المرجع السابق، ص ص ١٠، ١٧، ١٨، ٢٩، ٣٠.

قبل بعض الشباب لنسف القاعدة البريطانية (العدم) بطبرق. حيث وضعت مواد ناسفة في الركن الغربي منها، غير أن الإنجليز أعلنوا أن الانفجار وقع نتيجة خطأ في تخزين القنابل. وهو نفس الأمر الذى حدث في أغسطس ١٩٥٣ حينما راح بعض المقاومين الليبيين بتفجير الجزء الجنوبي من القاعدة، لكن تم اتهام بعض الشباب حينها وأُدخلوا في السجن. وعلى أثر محاولة مارس ١٩٥٤ تم وضع تقرير بالتعاون مع الشرطة الليبية حول كيفية حماية القاعدة. وفي هذا التقرير عرفنا بأنها من أكبر القواعد البريطانية في البحر المتوسط أو شمال أفريقيا، وبها أنواع مختلفة من الطائرات ومستودعات الوقود الكبيرة والمخازن، فتم الاقتراح بإقامة سلك شائك وإنارتها وتشديد الحراسات حولها[١].

من المؤكد أن الهجوم الليبي قد اشتد ضد القواعد في الأيام الأخيرة من أكتوبر ١٩٥٧ لأسباب داخلية. حيث شنت الصحف الليبية حملة على الإعانة الأمريكية، واعتبرتها غير مجزية إزاء الدمار الذى تتعرض له ليبيا بسبب وجود القاعدة العسكرية الأمريكية على أراضيها. وهاجمت مشروع إيزنهاور وموقف الحكومة الضعيف من الهجوم الفرنسي على فزان. غير أن الحملة كان هدفها توجيه الرأي العام الليبي بأن أمريكا هي السبب في كل ما يصيب البلاد، لتخفي انتقاد الرأي العام الحادّ لحكامه. وأثار هذا الهجوم على سياسة أمريكا في ليبيا والشرق الأوسط المسؤولين الأمريكيين، لكن لأهميتها راحوا يلبون رغبات الحكم الليبي في زيادة المعونة الاقتصادية[٢].

وهذا يعني أن الرفض لتلك القواعد كان رفضًا ظاهريًا، هدفه زيادة المعونة الأمريكية. وكان نشر الصحافة الليبية لقرارت مؤتمر التضامن الآسيوى الأفريقي في يناير ١٩٥٨ واهتمام الرأي العام والمسؤولين بها، خصوصًا مسألة الأحلاف والقواعد العسكرية بوصفها مشكلة الشعب الليبي، ثم مسألة التجارب الذرية وخوف الشعب الليبي من تجارِب الصواريخ الموجهة،

---

(١) نفسه، ص ص١٩٠-١٩٥.

(٢) مذكرة مدير الإدارة العربية تعليقًا على حملة الصحف الليبية على المعونة الأمريكية، في ١٩٥٧/١١/٩، ملف؟ رقم ٣/٨١/٧٤٦ التقارير السياسية للسفارة المصرية في طرابلس «مختلف»، فيلم ٣٢ ليبيا، محفظة ٥١، أرشيف البلدان، خارجية.

التى تجرى في القاعدة الأمريكية في طرابلس[١]، يدلل على أن الرفض الشعبي لمسألة القواعد العسكرية كان جارفا. وبالتالي فإن أي حديث حول مشروع حلف شمال أفريقيا يعني إثارة الرأي العام الشمال أفريقي. وبالتالي كان السكوت على بقاء القواعد بديلًا عن عدم طرحه مرة أخرى.

لقد تم إلقاء الحجارة على مبنى السفارة الأمريكية في طرابلس وإحراق سيارتين، فأجبرها على إخلاء جميع الأمريكيين منها. وكان التدفق المفاجئ على ويلوس ذات ال ٩٠،٠٠٠، جندي قد أجبرها على إجلاء أكثر من ٦،٣٠٠ . من هنا، بدأ البرلمان الليبي في دعم الدعوات الشعبية لإزالة القواعد العسكرية الأجنبية من الأراضي الليبية. وتم تحديد مصير القاعدة في ١ سبتمبر ١٩٦٩، عندما استولت مجموعة صغيرة من ضباط الجيش الليبي على الحكومة المركزية، وأعلنت إلغاء النظام الملكي وقيام الجمهورية العربية الليبية. حيث كان الملك إدريس في اليونان في ذلك الوقت، يخضع لعلاج طويل من المرض. وكان العقيد دانيال شابي Chappie قد وصل لتوه في لويلوس في أغسطس ١٩٦٩ كقائد للجناح ٧٢٧٢ مقاتل. حيث لعب دورا رئيسيا في إغلاق القاعدة بعد تعامل القذافي المستفز في بعض الأحيان[٢]. فقد جرت مفاوضات لإجلاء الجيش البريطاني عن قواعده في ليبيا في ٨ ديسمبر[٣] ١٩٦٩. وبدا واضحا أن العقيد القذافي من أول جلسة من جلسات التفاوض لإجلاء البريطانيين عن قاعدتهم، أنه غير مرغوب بالمرة في بقائها، وأنها تعوق الصداقة بين الطرفين[٤]. ففي الثاني من سبتمبر ١٩٦٩ خرجت الصحف الأمريكية والبريطانية تعبر عن قلقها من التفجيرات الذرية التي حدثت في ليبيا. وأيقن الطرفان أنه لا بقاء لهم ولقواعدهم في ليبيا، وهو الأمر

(١) خطاب من القائم بأعمال سفارة الجمهورية العربية المتحدة ببنغازي إلى السيد السفير وكيل الخارجية حول قرارات مؤتمر التضامن الأسيوى الأفريقي، في ٧ يناير ١٩٥٨، ملف١ رقم ٣ سفارة الجمهورية العربية المتحدة موضوعات مختلفة ١٩٥٧-١٩٥٨، فيلم ٢٩ ليبيا، محفظة ٤٥، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ١، ٢.

(٢) Walter J. Boyne: *The Years of Wheelus, Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1

(٣) علي شعيب: المرجع السابق، ص ص ٦٨.

(٤) نفسه، ص ص ٢١٧- ٢٢١.

الذي جرى بعد ثلاثة أشهر من الثورة. حيث تم افتتاح المفاوضات بشأن الجلاء عنها، وأنه كان يعبر بأنه إذا كان وجود القواعد مستساغا في الماضي، فإنه غير مرغوب فيه الآن. حيث تم التعبير بأن بقاءها سيكون عديم المنفعة من الناحية العسكرية والتدريبية والتموينية، علاوة على انعكاساتها الضارة على جميع المصالح البريطانية في ليبيا والوطن العربي والعالم الثالث بأكمله. وأن الجماهير التي فجرت الثورة، والتي اجتمعت أمام قاعة المفاوضات للتظاهر والاحتجاج، هي التي ستترجم حقيقة النهاية لوجود القواعد الأجنبية في البلاد. وبالفعل لم تمض ستة أيام على بدء المفاوضات، وإنذار العقيد القذافي في ٨ ديسمبر ١٩٦٩، حتى بدأت القوات البريطانية في الرحيل في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٩، حيث جلت الفلول الأولى. ولم يمض سوى شهر إلا وسيطرت القوات الليبية على ميدان التدريب خارج القاعدة البريطانية. وفي ١١ مارس ١٩٧٠ سيطرت القوات الليبية على قاعدة (العدم) البريطانية، وتسلمت بعض المنشآت الحيوية المهمة. وفي ٢٥ مارس رفرف العلم الليبي على قاعدة طبرق، وتم الرحيل النهائي للقوات البريطانية في ٢٨ مارس من نفس العام[١].

ومع أن الولايات المتحدة تمنت الاحتفاظ بالقاعدة لقيمتها الاستراتيجية، فإن التراجع عنها جاء نتيجة تطوير الصواريخ النووية لتحل محل القواعد. وكانت في الأساس منشأة تدريب في الستينيات. وفي ديسمبر عام ١٩٦٩، وافقت الولايات المتحدة على إخلائها بحلول يونيو [٢]١٩٧٠. فقد كانت هناك شهور من المناقشات بين الولايات المتحدة وليبيا، قد تمت في معظمها بطريقة مهذبة، لكن مع رغبة بعض المفاوضين الليبيين في انسحاب الأمريكيين منها، انتهى الأمر بإغلاقها. ففي ١٦ أكتوبر ١٩٦٩، دعا القذافي لتصفية القواعد الأجنبية على التراب الليبي. وبعد أربعة عشر يوما، تلقى بالمر مذكرة رسمية ليبية لإجراء مناقشات

(١) نفسه، ص ص ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣٠- ٢٣٤.

(٢) Department of Defense. Department of the Air Force. Military Air Transport Service. Wheelus Air Base, Libya. (06/01/1948 - 01/01/1953), in War Department. Air Transport Command. (Wheelus Air Base, Libya. (05/17/1945 - 05/15/1947

بشأن إجلاء القوات الأمريكية. وتم رفض أى طلبات لاستئناف الرحلات الجوية وتدريب القوات الجوية الأمريكية فيها. وتم الإصرار على أن ينتهي الأمر قبل ٣٠ يونيو ١٩٧٠، مع استمرار المفاوضات للحصول على المركبات والمعدات مقابل استمرار التعاون بينهما. وتم انسحاب ٤،٠٠٠ فرد وتقديم ٢١ مليون دولار. ولعل المواجهة الشخصية بين المفاوض جيمس والقذافي، وحديث الأول بأن الثاني كان يحمل سلاحًا شخصيًّا، وكانت يده تذهب على قبضة السلاح، ومطالبة جيمس له بتحريك يده بعيدًا، إلى أن سحب يده وانتهت المواجهة بينهما من دون عنف، يُثبت أن القذافي كان مستفزًا بصورة كبيرة، وأنه طائش يمكنه ارتكاب أى شيء . ولهذا في غضون أشهر أزيلت القاعدة، وتم نقل جميع موظفيها إلى قواعد أخرى. ومع ذلك، كان يومًا حزينًا بالنسبة للعديد من الأمريكان، عندما أغلقت ويلوس في ١١ يونيو ١٩٧٠ خصوصا حينما أنزل العلم الأمريكي، وهتف بالنشيد الوطني الليبي. وانتهى أمرها تماما حينما غادرت آخر طائرة سلاح جوي أمريكي C- 130، الساعة ٨:٤١ صباحا، حملت قائدها العقيد والتر راسيل الابن، إلى ألمانيا[١]. وبعد إغلاقها تم تغيير اسمها لمطار عقبة بن نافع، قاعدة الجوي. وذهب استخدامه للسوفيت، وأصبحت مقرا لتدريب سلاح الجو الليبي[٢]. وهي القاعدة التي ضربت من قبل الأمريكان سنة [٣]١٩٨٦، على أثر خلاف القذافي مع الغرب[٤].

ثالثًا- جلاء الأمريكان عن القواعد المغربية:

تم النظر في مصير القواعد مع تصاعد وتيرة الحرب الباردة، والقلق من أن يحل الاتحاد السوفيتي، أو الشيوعيين الصينيين، محلهم في المغرب. وانزعج الأمريكان من إمكانية تأثير

---

(١) Walter J. Boyne:- *The Years of Wheelus, Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1

(٢) Department of Defense. Department of the Air Force. Military Air Transport Service. Wheelus Air Base, Libya. (06/01/1948 - 01/01/1953), in War Department. Air Transport Command. Wheelus Air Base, Libya. 05/17/1945 - 05/15/1947

(٣) Department of Defense. Department of the Navy. Fighter Squadron 132. (01/03/1984)- 06/01/1992

(٤) Scotland. Scottish Court in the Netherlands. (2000 - 2002)

حركة عدم الانحياز على الملك. وكان إصرار المغرب بعد انسحاب القوات الأمريكية من لبنان في يوليو ١٩٥٨، قد جعلها توافق على مبدأ الانسحاب[١].وبينما يحاول المغرب التخلص من القاعدة الأمريكية في أراضيه، ومن ثم لا يوافق على وجود هذه القواعد في أراضى الغير[٢]. وكانت الرغبة الشعبية الجارفة، التى عبرت عنها جريدة العهد الجديد بتاريخ ١٨مارس ١٩٥٨، في جلاء القوات الأجنبية من الشمال الأفريقي كله[٣]، يشي بأن القواعد الأمريكية كانت غير مرحب بها بالمرَّة بين شعوب تلك البلدان.

وخلال عام ١٩٦٠ رفض ملك المغرب تمديد عقد الإيجار للقاعدة، وأمر جميع القوات الأمريكية، بما في ذلك قواعد سلاح الجو الأمريكي، بالجلاء من مطار بن جرير وقاعدتي النواصر وسيدي سليمان، وتحويلهما لسلاح الجو الملكي، في حين غادر أفراد الجيش الأمريكي بقية القواعد سنة ١٩٧٧[٤]. وفى هذا الإطار تم التوصل إلى اتفاق لمغادرة الأمريكان للمغرب في أربع سنوات تبدأ من عام ١٩٥٩. وباكتمال الانسحاب كما هو مقرر عام ١٩٦٣، كان الانتقاد للبعثة العسكرية الأمريكية هناك أقل حدَّة. حينما سحب الأمريكان قنابلهم النووية من القواعد المغربية سنة ١٩٦٣[٥].

وتعاملت الولايات المتحدة مع محاولات الانقلاب عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ على الملك الحسن الثاني بقلق، لكن حدثت شكوك من قبل الملك تجاهها، خصوصا في المحاولة الثانية بقيادة

---

(١) خطاب سفير مصر بتونس إلى السيد وكيل الخارجية بشأن مظاهر ضعف الوحدة المغربية في ميدان السياسة الخارجية، في ١٩٥٨/٨/١١، ملف ٣ رقم ٣/٨١/٧٤٣ج؟ التقارير السياسية للسفارة المصرية في تونس «مختلف»، محفظة ٦١، فيلم ٣٨ تونس، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ١-٢.

(٢) نفسه، ص ص ١-٢.

(٣) تقرير صحفي لملحق السفارة المصرية بالرباط (عماد الدين القاضي)، في ١٩٥٨/٣/٢٧، ملف ٦ رقم ٢/٨٦/٧٤٥ التقارير الصحفية للسفارة المصرية في الرباط، محفظة ٦٣، فيلم ٤٠ المغرب، أرشيف البلدان، خارجية، ص ص ٢ -٣.

(٤) History of Port Lyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey%20History.htm

(٥) Carol Migdalovitz :-*Maghreb Facing New Global Challenges* ..U.S.-Moroccan Relations ..How Special? Programme Moyen-Orient/Maghreb ,October 2011.PP.6-8

الجنرال محمد أوفقير. حيث انطلقت الطائرة إف ٥، المستخدمة في المحاولة فاشلة، من القاعدة الجوية في القنيطرة لإسقاط «طائرة الملك»، في حضور مدربين عسكريين أمريكيين. فهرعت السفارة الأمريكية لطمأنة وزير الخارجية المغربي بأنه لا دخل لها في الأمر. فوقعت الشكوك بين الطرفين[١]. وفي هذا الإطار تدافعت الشكوك إلى أنْ غادَرَ أفرادُ الجيش الأمريكي بقية القواعد سنة [٢]١٩٧٧. وهو الأمر الذي دفع الأمريكان سنة ١٩٨٢، لتوقيع اتفاقية تعاون عسكري مع المغرب. حيث استخدمت القوات الأمريكية المطارات المغربية، ونشأت لجنة عسكرية مشتركة، في المقابل، قدمت الولايات المتحدة الأموال خلالها لرفع مستوى المطارات[٣].

خاتمة

خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها الآتي:

♦ أوضحت الدراسة أن الوجود العسكري الأمريكي في شمال أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية، واختباره لمدى أهمية ليبيا والمغرب الاستراتيجية والعسكرية، هو الذي جعلهم يعملون بشتى الطرق لإيجاد موطئ قدم لهم في هذا الجزء الحيوي من العالم. فقد استفادوا من بريطانيا وفرنسا، في غرس قواعد لهم هناك، وعبر اتفاقيات سرية معهم، ومع أطراف محلية لتأمين تلك القواعد بعد خروج الاستعمار القديم منها. ولعل الاتفاقيات العلنية أوضحت لنا مهارة الأمريكان في التعامل مع كل الأطراف الصديقة، وبأنها كانت تتم بشكل غير معلن مع النظم المحلية.

♦ ذكرت الدراسة بأن إنشاء الأمريكان لقواعدهم في ليبيا والمغرب لم يتوقف على تلك الهياكل التي كانت عليها وقت الحرب الثانية، بل طوروها وأقاموا عليها بنية تحتية وتقنية

---

(١) CAROL MIGDALOVITZ :-*Maghreb Facing New Global Challenges* ..U.S.-Moroccan Relations ..How Special? Programme Moyen-Orient/Maghreb ,October 2011.PP.8,9

(٢) History of Port Lyautey:http://www.portlyautey.com/Port%20Lyautey

(٣) Carol Migdalovitz :-Op.Cit.,.PP.8,9

تتناسب مع تطورات الحرب الباردة. فجاءوا بكل ما هو جديد، وشيدوا فيها كل ما يتناسب مع مفردات الحرب الباردة في ذلك الوقت. بل أقاموا داخلها كل ما يوفر لهم ولجنودهم قدرًا من الراحة والطمأنينة والرعاية الاجتماعية والصحية لهم ولذويهم.

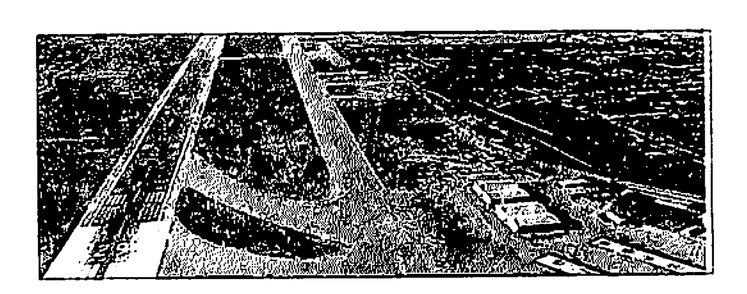
♦ قالت الدراسة بأن القواعد الأمريكية في شمال أفريقيا كانت مفيدة لكافة الأطراف التي وقعتها، للأمريكان وللنظم الحاكمة في ليبيا والمغرب. وأن المساعدات التي قدمها الأمريكان طيلة فترة وجودهم هناك، أثبتت مدى فائدتها لليبيا والمغرب. بل كانت القواعد سببًا مهمًّا في تأسيس جيوش محلية، مدعومة عسكريًّا وفنيًّا، فضلًا عن الدعم المادي والمعنوي. فكانت القواعد ورقة ضغط مهمة لعبت عليها كُلُّ النظم للحصول على المساعدات، وضمانة لاستمرارها وزيادتها.

♦ المتفحص للدراسة يجد أن بنية القواعد قد أتاحت للأمريكان الإحاطة بكل فعاليات منطقة الشرق الأوسط والعالم العربي. فالهوائيات المنصوبة في ليبيا والمغرب، والتي تتكامل مع تلك المنصوبة في أثيوبيا وجنوب الجزيرة العربية، كانت تتلصص على كل كبيرة وصغيرة تدور في منطقة الشرق الأوسط والبلدان العربية. ولعل الذي لم تقله الدراسة - لكونها لم تجد له سندًا وثائقيًّا، اللَّهُمَّ إلا آثاره التقنية التي حدثت فيما بعد - هو أن تلك الهوائيات المنصوبة، والمتكاملة مع بعضها البعض، قد أسهمت في بلورة فكرة الأقمار الصناعية والستالايت والفضائيات.

♦ أوضحت الدراسة أن الرفض الشعبي للقواعد الأمريكية كان سابقًا على رفض النظم المحلية لها. وأن استخدام القواعد في غير ما اتفق عليه، كان محرضًا رئيسيًّا على المطالبة بجلائها. وقالت بأن هناك عوامل داخلية وإقليمية ودولية لعبت دورًا مهمًّا في فضح تلك القواعد، وفي تعرية أهدافها. وهو الأمر الذى تسارعت خطواته وتتابعت، بشكل أجبر القوات الأمريكية على الانسحاب من قاعدة ويلوس في ليبيا سنة ١٩٧٠، وعن بقية القواعد المغربية سنة ١٩٧٧.

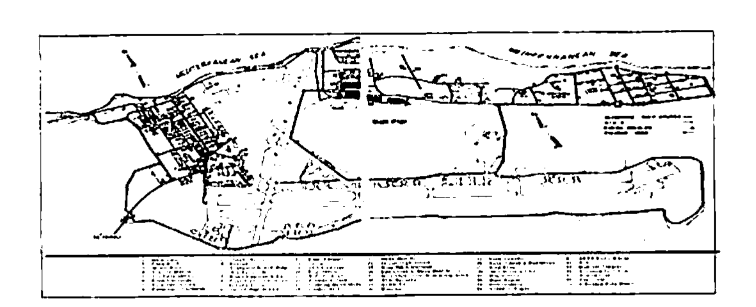
***

ملاحق الدراسة



ملحق رقم (١) صورة جوية لمدرج ١١,٠٠٠ قدم داخل قاعدة ويلوس

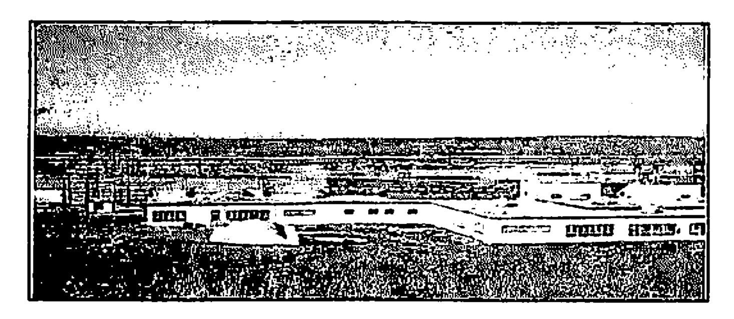
نقلا عن : WALTER J. BOYNE:- *The Years of Wheelus, Air Force Magazine*, Vol. 91, No. 1, January,2008,http://www.airforcemag.com/MagazineArchive/Pages/2008/_January%202008/0108wheelus.aspx



ملحق (٢) رسم كروكي لقاعدة هويلس في ليبيا

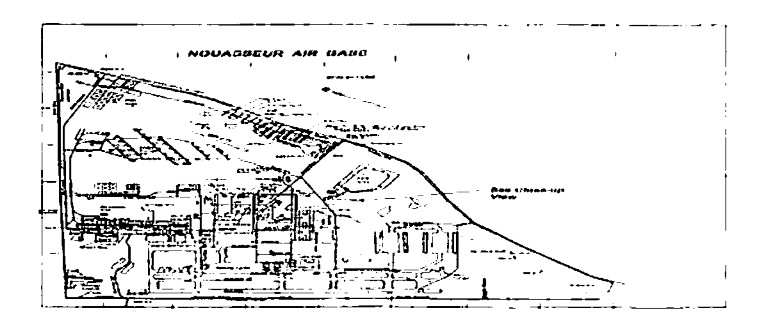
نقلا عن:

http://www.globalsecurity.org/jhtml/jframe.html#http://www.globalsecurity.org/gif.wmd/facility/images/wheelus1



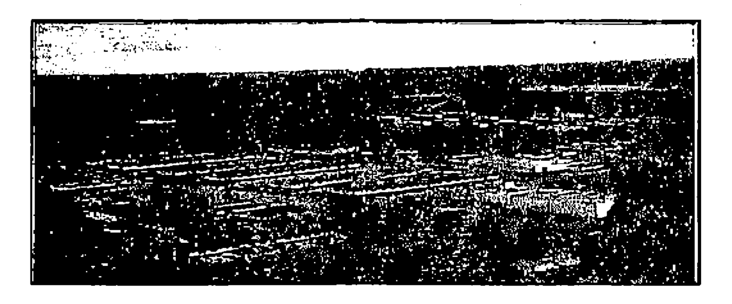
ملحق (٣) صورة لقاعدة القنيطرة

http://en.wikipedia.org/wiki/Kenitra



ملحق (٤) رسم كروكي لقاعدة النواصر

نقلا عن : http://www.inovativecreations.com/family/map.html



ملحق (٥) صورة لقاعدة اتصالات سيدي يحي بالمغرب

* * *

الحياد الأمريكي والحرب العالمية الأولى
(١٩١٤-١٩١٧)

د.صباح أحمد البياع(*)

عملت الولايات المتحدة الأمريكية منذ استقلالها علي تدعيم سياسة التمسك بأهداب السلام ، وحل المشاكل عن طريق المفاوضة ، والتذرع بأسباب التعقل والتروي ، ولم تلجأ إلى أساليب القوة إلا في مواضع قليلة ، واستمسكت بهذه السياسة بعد أن أصبح لها وزن في المجال الدولي.وكانت هذه هي خطة الرؤساء العظام الذين أوكل إليهم توجيه سياسة أمريكا الخارجية منذ القرن التاسع عشر، ومما شجع علي اتباع هذه السياسة تسابق الدول إلي مضمار التسليح وما ساد العالم من الحقد والتنافس بين دوله ، فضلاً عن انقسام أوربا إلي معسكرين متنافرين نتيجة المحالفات والتكتلات العسكرية التي وضعت العالم على شفا حرب عالمية مدمرة(١).

العزلة الأمريكية ومراحل كسرها :

إن سياسة العزلة التى انتهجتها الولايات المتحدة في فترة مابعد استقلالها عن بريطانيا لم تكن وليدة مبدأ مونرو Monroe Doctrine ، وإنما تمتد بجذورها إلى عهد الرئيس الأول جورج واشنطن Gorge Washington الذي وضع أساس هذه العزلة في إعلان الحياد عام ١٧٩٣، وفي خطاب الوداع عام ١٧٩٦.وقد تقوي هذا الشعور في مبدأ مونرو الذي بلور روح الإستقلال لدي السكان المقيمين في الولايات المتحدة الأمريكية وأصبح لديهم احساس كامل بأن قارة أمريكا للأمريكيين" America for Americans". وبهذا فقد ارتبطت

(*) مدرس التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب - جامعة عين شمس.

(١) محمد محمود السروجى : سياسة الولايات المتحدة الخارجية منذ الإستقلال إلى منتصف القرن العشرين ، مطبعة المصرى ، الإسكندرية ، ١٩٩٥. ص١١١.

الولايات المتحدة بمبدأ العزلة في داخل القارة الأمريكية[١].

وفي عام ١٨٢٧ أعلن الرئيس الأمريكي جيمس مونرو James Monroe العقيدة الحيادية المشهورة باسمه والتي تتلخص بأن كل تدخل أوربي في الشئون الأمريكية القارية سيقابل بمجابهة قوية من قبل الأمريكيين أنفسهم،وأن أمريكا لن تتدخل مطلقاً في مثل هذه المنازعات.لقد كانت الولايات المتحدة آنذاك حديثة العهد باستقلالها ولكنها كانت من القوة والوضع الجغرافي النسبي بحيث تمكنت من تنفيذ هذه السياسة العامة حتى عام ١٩١٧،عندما دخلت ، بعد تردد ، في الحرب العالمية الأولى[٢].

وظلت الولايات المتحدة تتمسك بمبدأ العزلة الأمريكية مدة طويلة بعد ذلك حيث طبقه الرئيس مونرو،واعتني به الرئيس جيمس بوليك James K. Polk في رسالته التي وجهها إلي الكونجرس في ديسمبر عام ١٨٤٥ بشأن مسألة تكساس والتي كان يتوق إلي ضمها للإتحاد الأمريكي.كما اشتركت الولايات المتحدة في مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ والذي عالج قضية توزيع مناطق النفوذ في أفريقيا بين الدول الاستعمارية الأوربية ونظم مكافحة تجارة الرقيق[٣].

كما أعلن الرئيس وليم ماكنلي الحرب علي أسبانيا في مايو عام ١٨٩٨ والتي انتهت بخروج كوبا ومنطقة الكاريبي من السيادة الأسبانية لتدخل في ظل سيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، ويستمر كسر العزلة بإعلان سياسة الباب المفتوح في الصين عام ١٨٩٩، ثم تدخل الرئيس تيودور روزفلت Theodore Roosevelt في الصراع الدائر بين روسيا القيصرية واليابان عام ١٩٠٥ ، والذي كان من نتائجه عقد صلح بين الدولتين المتحاربين علي أرض الولايات المتحدة وتحت رعاية الرئيس روزفلت.

كما تطور مبدأ العزلة حين تدخلت الولايات المتحدة في المؤتمرات التي تناولت شئون الساحل الأفريقي المطل علي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي حينما عقد مؤتمر الجزيرة

---

(١) عبد الفتاح حسن أبوعلية : تاريخ الأمريكتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية ، دار المريخ ، الرياض ، ١٩٨٧. ص ١٦١.

(٢) كلوفيس مقصود:معنى الحياد الإيجابي،الطبعة الأولى،دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٠.ص ٦٣.

(٣) عبد الفتاح حسن أبوعلية : مرجع سابق . ص١٦٣.

الخضراء في جنوب أسبانيا عام ١٩٠٦ بواسطة الرئيس تيودور روزفلت لدراسة المسألة المغربية[١].

ومن مظاهر كسر العزلة أيضاً التقارب الأنجلو- أمريكي منذ أواخر القرن التاسع عشر من أجل الحفاظ علي قوة بريطانيا البحرية نتيجة للتسابق الألماني البحري الذي أزعجها بشدة ، وجعلها تسرع في التفاهم مع الدول البحرية الكبري كالولايات المتحدة واليابان.كما عملت بريطانيا علي تأييد الولايات المتحدة في الحرب الأسبانية الأمريكية.وبالنسبة لمشروع قناة بنما فقد تخلت عن نصيبها في المشروع عام ١٩٠١، تقديراً من جانبها بأهمية المشروع بالنسبة للولايات المتحدة.وفي انسحاب انجلترا من هذا المشروع ما يؤكد اعتراف انجلترا واحترامها لمبدأ مونرو.كما حرصت أيضاً علي إرضاء الولايات المتحدة وتحديد الحدود الكندية - الأمريكية بما يتفق ووجهة نظرها.ومن المؤكد أن ثمة عوامل كثيرة تضاف لتفسير هذا التقارب الأنجلو أمريكى كوحدة الثقافة ووحدة النظام السياسي[٢].

من ناحية أخرى كانت العلاقة بين الولايات المتحدة وألمانيا تزداد سوءاً، فألمانيا كانت ترغب في الحصول علي بعض القواعد البحرية في وسط أمريكا وجنوبها ، وبذلت جهداً كبيراً لخلق نفوذ لها في هذه المناطق ، كما أن أطماع ألمانيا في المحيط الهادي والصين لم يكن من شأنها إرضاء الولايات المتحدة ، ويضاف إلي هذا الاختلاف الشديد بين الدولتين من حيث نظامهما السياسي فألمانيا من نظامها استبدادى ، بينما تسير الولايات المتحدة طبقاً للنظام الجمهوري الديمقراطي [٣].

(١) نفسه ، ص ١٦٣.

(٢) محمد أنيس ، السيد رجب حراز : مدخل تاريخ الأمريكتين ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤.ص ١٦٨ ، ١٦٩.

(٣) نفسه ، ص ١٦٩.

إن حياد[١] الولايات المتحدة فى المرحلة الأولى من الحرب العالمية يمكن اعتباره استمراراً لسياسة العزلة التقليدية.كما خشي المسئولون الأمريكيون أن يؤدى دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب طرف أو آخر إلى انقسام خطير فى صفوف المواطنين،نظراً لإنتماء الشعب الأمريكى لعدة أمم،وعلى الأخص الأمم المتحاربة.وقد أشار الرئيس وودرو ويلسون Woodrow Wilsonإلى هذا الخطر فى التصريح الذى أصدره فى ١٩أغسطس عام ١٩١٤ ونادى فيه بضرورة اتباع سياسة الحياد[٢].

وجدير بالذكر أنه فى أواخر عام ١٩١٤وعام ١٩١٥ أجبر ويلسون أن يستبدل سياسة الإعتدال فى أزمات السياسة الخارجية بسياسات أكثر عدوانية.وقد أخبر ويلسون وزير المالية وليم جى ماكادو William G. Mac Adoo فى نوفمبر عام ١٩١٤ قائلاً:" يجب أن نمضي قدماً ، والتقدم معاً بروح جديدة ، وحماس جديد، ومودة جديدة يملؤها روح التعاون"...إن اندلاع الحرب فى أوربا عام ١٩١٤ قد أوجد نوعاً من الغلو الهائل فى النظام السياسي الأمريكى ، فمن الصعب أن نميز إذا ما كانت شخصية ويلسون مثالية أم واقعية بالنسبة للشئون العالمية أو أنها معتدلة أو غير معتدلة[٣].

ولما أعلنت الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤ كان رأي الرئيس ويلسون فيها أنها تمثل فشل السياسة الأوربية وانتصار الأطماع والأحقاد ، نظراً لعدم وجود نظام عالمي يعمل علي

---

(١) الحياد التقليدي:هو حياد سلبي يهدف إلي اتخاذ موقف وسط بين الكتلتين ، وإلى الإحتفاظ بهذا الموقف مهما كانت الظروف وبغض النظر عن عدالة القضايا التى تثار ، وعن صحة أو خطأ موقف هذه الكتلة أو تلك. الحياد بهذا المعنى نوع من الإنعزال أو الهروب من تحمل المسئولية ، وقبول للأمر الواقع وجبن عن المساهمة فى توطيد السلام بجهد ايجابي فعال.انظر:سلامة أحمد سلامة : عدم الإنحياز ، د.ن ، د.م ، ١٩٦٤، ص ٨.

(٢) سمعان بطرس فرج الله:العلاقات السياسية الدولية فى القرن العشرين،الطبعة الثانية ، الجزء الأول ١٨٩٥-١٩١٨،مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.ص ٣٧٦، ٣٧٧.

(٣) Bradley R. Foley, Robert M. Calhoon,"Woodrow Wilson and political moderation",- in: The Journal of Presbyterian History, vol.85, No.2, fall, winter 2007, P.147.

نشر روح التفاهم بين الدول. وكان موقف الولايات المتحدة من هذه الحرب قبيل عام ١٩١٧م هو الحياد ، وقد نصح ويلسون الشعب الأمريكي بقوله :" يجب ألا نتحيز لأي من الفريقين المتحاربين نظرياً أو عملياً...وعلي الأمريكيين أن يكونوا محايدين في أفكارهم كما في أفعالهم"[1].ومن ثم فقد اعتقد ويلسون أنه يمكن الاستفادة من الحرب العظمى كأساس لإنشاء نظام عالمى للسلام للدول التى نشأت على أسس قومية ، وعلى الإقتصاد الرأسمالى ، وتعمل بموجب القانون الدولى[2].

سياسة الحياد الأمريكية :

تحكم النظرية التقليدية في الحياد فكرة أن الدولة المحايدة[3] هي الدولة التى لا يجب أن تتأثر حياتها إلا بأقل قدر ممكن ، من العمليات الحربية.وإذا كان الطرف المحارب يقع عليه واجب عدم التعرض للدولة المحايدة فإن هذا الإلتزام يقابله واجب الأخيرة الإمتناع عن التدخل في النزاع ومراعاة مبدأ المساواة بين الأطراف المتنازعة وعدم التحيز لطرف دون الآخر.فالحياد يتضمن مجموعة من الحقوق والواجبات المتبادلة ، قامت بتقريرها نصوص الاتفاقيات الدولية المختلفة[4].

كذلك من واجب الدولة المحايدة عدم السماح للدول المتحاربة بالإعتداء على أقاليمها ورعاياها وأموالهم.كما يري البعض إنه يجب منع الدولة المحايدة من السماح لأحد الأطراف

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار،محمود محمد جمال الدين:تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين،دار الفكر العربي،القاهرة،١٩٩٩،ص ١٤٦.

(٢) DENNIS SHOWALTER ,«*The United States in the Great War*» : *A Historiography* , *in:* *OAH Magazine of history*,vol.17, No.1.World War 1,Oct., 2002, P.9.

(٣) ويمكن للدول المحايدة إبان الحرب أن تكون مراكز لعمليات إنسانية تخفف من عبء الحروب على الفريقين. كإتفاقيات الأسري والصليب الأحمر وإبقاء العلاقات الدولية التى لابد أن تستمر لكى تستمر الحياة رغم الحروب والقتل والتدمير.انظر : كلوفيس مقصود : مرجع سابق ، ص ٢٦.

(٤) عائشة راتب:النظرية المعاصرة للحياد،دار النهضة العربية،القاهرة، ١٩٦٨.ص ٢١.

المحاربة باستخدام جسورها أو سككها الحديدية أو إمداده بالأسلحة والقروض كما يمنعها من أن تكون وسيلة لنقل الأخبار منه وإليه [١].

وبالنظر إلي التزام أمريكا الحياد ، فقد كان لها بعض الحقوق التي تقرها القوانين الدولية للمحايدين وأهمها حق الإتجار مع الفريقين المتحاربين ومع الدول الحيادية الأخرى ، علي أنه لا يحق لأي فريق من المتحاربين أن يعمل لمنع وصول المواد الحربية المشحونة إلي الفريق الآخر، فله في بعض الحالات مثلاً أن يصادر السفن الحيادية الحاملة لهذه المواد ولكن ليس له حق إغراقها ما لم يهيئ الوسائل أولاً لسلامة ركابها وبحارتها[٢].

ولقد أساء الإنجليز مرات عديدة إلي هذه الحقوق بأنهم صادروا بعض المواد غير الحربية ومنعوا إيصالها إلي العدو ثم لم يلبثوا أن أعلنوا حصاراً بحرياً شمل تأثيره موانئ الأعداء والدول الحيادية المجاورة علي السواء. وشددوا في إيقاف البواخر الأمريكية ومنعها من متابعة سفرها إلي الدول المحايدة المحيطة بألمانيا مثل هولندا والدنمارك والسويد والنرويج خشية تسرب ما تحمله من المواد إلي ألمانيا[٣].

وقد أوضحت تقارير الخارجية البريطانية الصادرة في ١٧ سبتمبر من عام ١٩١٤ أعمال الشغب التى كانت ترتكب ضد الألمان في لندن.فمنذ بداية الحرب ظهرت الكثير من المرارة من قبل السكان البريطانيين تجاه أصحاب المحلات التجارية من الألمان.وقد جاءت أعمال الشغب نتيجة لبعض التصريحات المهينة بشأن الشعب البريطانى والقوات البريطانية ، مما أدى إلى قيام البعض بتحطيم نوافذ المحلات التجارية للألمان ، ومن ثم تدخل الشرطة والتى ألقت القبض على البعض ، وأصدرت التعليمات التى توفر كل الحماية الممكنة لأصحاب

---

(١) نفسه ، ص ٣٧ ، ٣٨.

(٢) فرحات زيادة ، ابراهيم فريجي : تاريخ الشعب الأمريكي ، إشراف : فيليب حتى ،مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٤٦ ، ص ٣٠٢.

(٣) نفسه ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٣.

المحلات التجارية من الأجانب الذين قد يتعرضون للتهديد بهجمات مماثلة.وقد بلغ مجموع المحلات التى تم مهاجمتها حوالى ٣٠محلاً ، ومجموع المعتقلين ٣٧فرداً ، وبلغ عدد ضباط الشرطة المصابين حوالى ١٤ ضابطاً[١].ولعل هذه الحوادث توضح ما سببته الحرب من كراهية بين الإنجليز والألمان بعيداً عن جبهات القتال.

كان الإنجليز يعرفون جيداً أن أفضل وسيلة لإرغام الألمان على وقف القتال هى منع الموارد الخارجية عنهم ، إذ أن مواردهم الداخلية فى تلك الحالة لن تكفي لتلبية مطالب القوات علاوة على أنها لا تقارن بموارد الحلفاء،ولهذا السبب شرع الأسطول البريطانى فى فرض الحصار البحرى ضد ألمانيا[٢].لقد أصرت بريطانيا على تشديد الحصار ، والذى كان في الحقيقة الطريق المبدئي الذى كانوا يأملون من خلاله إخضاع ألمانيا...كما أخبر ونستون تشرشل **Winston Churchill** وزير البحرية البريطانية آنذاك - اللورد جراى **Lord Grey** وزير خارجية بلاده - "إنه لا يجب التنازل عن الحصار حتى يتم التأكد من أن الإصرار سوف يأتى بالولايات المتحدة إلى الميدان فعلياً "[٣].

ونتج عن هذا الحصار خسائر كبيرة لتجارة الولايات المتحدة مع ألمانيا في الأغذية والمواد الأولية.واستجابة للإحتجاجات الأمريكية ،عقدت بريطانيا مع أمريكا اتفاقية أصبحت الولايات المتحدة بموجبها المورد الوحيد للأغذية والمواد الأولية والذخيرة اللازمة للجيشين البريطانى والفرنسي.بالإضافة إلى ذلك سمحت الولايات المتحدة للحكومات الحليفة باقتراض ٢ بليون دولار لتمويل إمدادات الحرب،وفي نفس الوقت والتزاماً بمبدأ الحياد،لم يخضع الرئيس الأمريكى لضغوط الألمان الأمريكيين بفرض حظر على إمدادات السلاح لبريطانيا بحجة

---

(١) *Reports on anti – German riots in London* , HO 45|10944|207142|,Foreign Office,17 Sptemper,1914.

(٢) محمد صلاح الدين حسين : الحرب العالمية الأولى - استراتيجية الميدان الغربي ١٩١٤ ١٩١٨ ، الطبعة الثانية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٥٣،ص ٨٣.

(٣) John A .Thompson ,Woodrow Wilson *.profiles in power* , *Pearson education* limited,London,2002,P.105.

أن هذا الإجراء لن يكون محايداً بالنسبة للحلفاء[١].

ومن خلال التفوق فى عدد السفن الحربية ، استطاعت بريطانيا العظمى فرض حصار أضعف ألمانيا بشكل تدريجى من خلال منع الواردات التى تأتيها عبر البحار.وفى فبراير عام ١٩١٥ أعلنت ألمانيا أن كل المياه المحيطة بالجزر البريطانية تعتبر منطقة حربية ، ولا يجب حتى على السفن المحايدة المرور منها لأنها لن تسلم من الهجوم.ولما كان بعض الأمريكيين يستعملون البواخر البريطانية لتنقلاتهم أصبحوا مستهدفين لأخطار هذا التدبير الألماني الجديد.فاحتج ويلسون علي خطة ألمانيا مصرحاً بإرجاع المسئولية إلي الحكومة الألمانية في كل ما تسببه غواصاتها من خسارة في أرواح الأمريكيين[٢].

وقد عمدت وزارة الخارجية الألمانية في مذكرة تفسيرية إلى تبرير هذا التعدى على حقوق المحايدين.ونصت هذه المذكرة على أن تعيين بريطانيا سلفاً للمنطقة الواقعة بين اسكتلندا والنرويج على أنها منطقة حرب،وتوسعها في قائمة البضائع المحظورة،ثم استيلائها على الممتلكات الألمانية غير المحظورة والمحمولة على سفن محايدة،كلها أمور غير مشروعة تستوجب اتخاذ

---

(١) محمد قدري سعيد:« الحروب الأمريكية»، في:كتاب:الإمبراطورية الأمريكية صفحات من الماضي والحاضر، الطبعة الأولى، ج٢، مكتبة الشروق،القاهرة،٢٠٠١،ص ٢٦، ٢٧.

(٢) وقع أول حادث أدى إلى قتل مواطن أمريكى وهو مسافر على سفينة من سفن الحلفاء حينما أغرقت إحدى الغواصات الألمانية السفينة البريطانية فالابا في البحر الأيرلندى في ٢٨مارس ١٩١٥.وكانت خسائر الأرواح كثيرة بما فيها حياة أمريكى واحد هو ليون ثراشر ....ولم يتم إرسال أى مذكرة للحكومة الألمانية بهذا الشأن ولكن جرت مناقشات طويلة بين روبرت لانسنج وبريان والمستشار القانونى تشاندلر ب. أندرسون . أسفرت عن ضرورة تمتع المواطن الأمريكى المسافر على سفينة محاربة بالحماية الكاملة المستوحاة من قوانين الحرب البحرية.ورأى ويلسون أنه "ينبغي أن نوفق ما بين السياسة والحق الشرعي بنسب حكيمة من غير شك".كما باغتت الحوادث قضية ثراشر،ففي ٢٨ابريل وأول مايو سنة ١٩١٥ هاجم الألمان السفينتين الأمريكيتين كوشنج وجلفلايت وكانت خسائر الأرواح على الجلفلايت ثلاثة.كل هذه الحوادث أثارت جدلاً في الخارجية الأمريكية ولكنها لم تنذر الحكومة الألمانية إلا بعد تدمير لوزيتانيا لأن الموت كان بالجملة للمواطنين الأمريكيين.للمزيد عن قضية ثراشرانظر:ادوارد هنري بيوريج:وودرو ويلسون وسياسة توازن القوي،ترجمة:عبد القادر يوسف،دار النهضة العربية،القاهرة،١٩٦٤،ص ٤٢-٥٣؛ أكرم عبد الوهاب:تاريخ الحرب العالمية الأولى،مكتبة ابن سينا،القاهرة،د.ت.ص ١٦، ٥١.

إجراء ثأري.وقد أضافت المذكرة أن المحايدين قاموا باحتجاجات نظرية على هذه الإجراءات البريطانية التى بررتها بريطانيا بأنها إنما قامت بها لحماية مصالحها الحيوية.فترتب على ذلك أن"على ألمانيا أن تعمل على صيانة مصالحها الحيوية أيضاً".وعلى إثر هذا الإنذار الألمانى رد الرئيس ويلسون رده التاريخى في ١٠ فبراير أنه"إذا ما قامت ألمانيا بتدمير أية سفينة تجارية للولايات المتحدة أو تسببت في موت المواطنيين الأمريكيين فإن الولايات المتحدة ، والحالة هذه ، ستنظر إلى العمل باعتباره خرقاً لا مسوغ له لحقوق الحياد"[(١)].

وجدير بالذكر أن قلب كل ألمانى كان يخفق تيهاً وفرحاً وهو يطالع البلاغ الرسمى الذي أعلن بأن " كل مركب تجارية بريطانية تدخل المياه الإنجليزية من ١٨ فبراير فصاعداً سوف تنسف. وكان جميع المفكرين يعربون عن أملهم في أن تغير حرب الغواصات طبيعة الحروب البحرية وتحرر العالم من عبء إحراز الأساطيل وأن تكون قبل كل شئ سبباً في ايجاد قانون بحري جديد يجعل الأملاك الخاصة في البحار وراء قتال الأعداء.أما رأي الألمان في الحياد وحقوق المحايدين فقد ذكر أحد الضباط " أن الذين ليسوا معنا هم ضدنا أو يحتمل أن يكونوا ضدنا ، ليس لنا مقدرة على اصطناع الأصدقاء ونحن نعرف ذلك ولذا يجب أن نأخذ الحيطة لأنفسنا".كما ذكر أحد تجار الواردات " أن قنابل مثل شرانبيل الأمريكية تفتك بالكثيرين من أبسل جنودنا فهل يتوقع الأمريكان أن نشتري آلاتهم الكاتبة بعد الحرب"[(٢)].

كانت ألمانيا تعتمد في أول الحرب على تعضيد الولايات المتحدة الأدبي لها ، نظراً لكثرة عدد الألمان الأمريكان ونفوذهم بالنسبة لعدد الأمريكيين المقيمين في ألمانيا وتماثل المشروعات الصناعية ، وللإعتقاد الذي كان سارياً بأن صداقة الولايات المتحدة لإنجلترا ليست عن إخلاص.والألمان لا يرون في عدم تشدد الولايات المتحدة في مسألة إرسال المواد الغذائية إلى ألمانيا وفي إرسال الذهب إلى كندا وبيع الأسلحة والذخائر إلى المتحالفين وغير ذلك من

---

(١) ادوارد هنري بيوريج :مرجع سابق،ص ٣٧، ٣٨.

(٢) « ستة أسابيع في ألمانيا والنمسا والمجر- الحصار البحري» ، في : وادى النيل ، ٧ مايو ١٩١٥.

الأعمال التى تنافي العلاقات الودية ، مجرد خرق للمجاملات السياسية بل للحياد[١].

من الملاحظ أنه بمجرد بدء الحرب تأثرت الولايات المتحدة بالحصار البريطانى لألمانيا ، وفى وقت مبكر من عام ١٩١٥ تأثرت بحرب الغواصات التى قامت بها ألمانيا.واعتبرت الولايات المتحدة أن الفريقين المتحاربين يخالفان القانون الدولى ، واحتجت الحكومة الأمريكية باستمرار ضدهما.ولكن الإحتجاجات ضد الحصار البريطانى لم تكن قوية كتلك التى وجهت لحرب الغواصات حيث حملت ألمانيا المسئولية كاملة ، بعبارة أخري كان مسلك حكومة الولايات المتحدة أكثر صرامة بالنسبة لألمانيا منه بالنسبة لبريطانيا ؛ بمعنى آخر إذا توقفت البضائع أو تم الإستيلاء عليها من قبل البريطانيين فإنه يمكن دفع ثمنها ، أما فقدان حياة البشر من قبل حرب الغواصات فلا يمكن تعويضه.وقد تمت الموافقة على هذا التمييز من قبل الغالبية العظمى من الشعب الأمريكى.وصرح الألمان أن استخدام حرب الغواصات كان انتقاماً مشروعاً للحصار البريطانى ، ولكن حكومة الولايات المتحدة رفضت قبول وجود صلة بين نوعين من المخالفات[٢].

كانت نظرية الحياد الحقيقي هى الأكثر انتشاراً بين الشعب الأمريكى ، بل وبين رجالات السياسة الأمريكية حينذاك.والحياد الحقيقي فى مفهوم ذلك الوقت كان يعنى أن تظل العلاقات السياسية والإقتصادية بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الكبري الأوربية المتقاتلة على ما كانت عليه قبل الحرب ، وأن تظل هذه العلاقات دون تطوير فى اتجاه معين منعاً لإثارة حساسيات هنا أوهناك.وقد أبدى الرئيس ويلسون إيمانه بهذه السياسة ، بقوله عند وصول أنباء اشتعال الحرب الأوربية إلى أسماعه " إن على الولايات المتحدة الأمريكية أن تظل بالنسبة لهذه الحرب على الحياد نظرياً وعملياً...وعلى الأمريكيين أن يكونوا محايدين

(١) نفس المصدر.

(٢) BERNADOTTE E. SCHMITT, «*The First World War, 1914-1918*», *in: Proceedings of the American Philosophical Society*, Vol.103, NO.3, Jun.15, 1959, P.327.

في أفكارهم كما في أفعالهم"[١].

كما كان لخطاب ويلسون في جمعية الصحافة في نيويورك أثره في تدعيم فكرة الحياد حيث قال:"إنه بالنيابة عن مواطنيه يري حياد أمريكا أمراً ضرورياً تستدعيه أحوال الوقت ، ومن شرط الحياد أن لا يكون فيه تساهل أو ميل تجاه المنفعة الذاتية بل يتميزبالإنصاف والاعتدال،وهذا ما حمل المحاربين لألمانيا أن يتهموا أمريكا بالإنحراف عن سنة الحرية والعدالة بغية إثارة عوامل العدوان وإحداث الإضطراب فقالوا:لو جنحت أمريكا إلى جانب من المتحاربين انشقت على نفسها وانشطرت حزبين وبئس ما يقولون ، فالأمة الأمريكية مؤلفة من أجناس شتى ولا مآرب لها في التوسع والتوجه وجهة مخصوصة فالرأى العام في أمريكا صريح طليق حر مستقل لأن يتوجه الوجهة التي يرومها من غير ضغط ولا حرج..."[٢].

واستمر ويلسون قائلاً:" فإذا كان لنا نفع في الحياد وأمنية بعيدة في التزام الاعتزال فما ذلك بالشأن القليل والهم الكبير فإذا كان هناك ما يميز ويعلي قدر أهل أمريكا فتلك الميزة هي أنهم أحرار صرحاء سادة في آرائهم حاكمون فيما يعنون به من الشئون لا تأخذهم فيها نشوة الباطل ولا تغرنهم الزخارف وشقشقة اللسان ويعرفون ما يقصد من الحياد في حرب زبون تبعتها من أعظم التبعات في تاريخ الإنسان"[٣].

وقد أدرك الرئيس ويلسون أن الحياد السلبي[٤] – أي العزلة – في الوقت الذي تشتعل فيه الحرب العالمية الأولى يضر بالمصلحة الأمريكية اقتصادياً واستراتيجياً.فمع اقتناعه

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، عبد المجيد نعنعى : تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية الحديث ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د.ت. ص ١٥٤.

(٢) « كلمة رئيس جمهورية أمريكا في الحياد » ، في : المحروسة ، ٨ مايو ١٩١٥.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الحياد السلبي : هو حياد يفترض قلة إمكانيات الدولة المحايدة ووجودها فى حالة من الضعف لا تسمح لها بالدفاع عن أراضيها. ولذلك فإحترام هذه الصورة من الحياد تتوقف على رغبات ومصالح المحاربين. انظر: عائشة راتب : مرجع سابق ، ص ٣١.

في بادئ الأمر بالإستمرار في الوقوف علي الحياد بين الطرفين المتقاتلين وعدم الدخول في المعارك الحربية في جانب أي من الطرفين ، إلا أنه رأي أن الحياد الإيجابي هو الطريق الذي يحقق المصالح الأمريكية[١].

وتتمثل وجهة النظر الأمريكية في الحياد الإيجابي[٢] في إيقاف الحرب بوساطة أمريكية دون انتصار فريق على الآخر انتصاراً تاماً ، لأن انتصار طرف على الآخر انتصاراً كاملاً سيؤدي إما إلي سيطرة روسيا القيصرية ، وإما إلي سيطرة ألمانيا علي القارة الأوربية وبالتالي السيطرة علي العالم ، كما أن الحياد الإيجابي سيؤدي إلي رواج التجارة الأمريكية حيث أصبحت الولايات المتحدة أكبر الدول المصدرة للسلع إلي الدول المتحاربة ، ومن ثم أثرى الأمريكيون ثراءً كبيراً من وراء هذه التجارة.ولذا استمرت الوساطة الأمريكية بين الطرفين المتحاربين وكان آخرها محاولة الرئيس ويلسون نفسه التوسط بين الطرفين في ديسمبر عام [٣]١٩١٦.

وكانت الولايات المتحدة تعتمد فى الحياد على المبدأ القائل بضرورة اعتبار ومعاملة السفن فى المياة المحايدة مثل تلك الموجودة فى أعالى البحار كسفن حربية، كذلك عندما تكون فى مهمة أوعلى أهبة الإستعداد لتنفيذ أوامر الدولة المحاربة للمشاركة فى الهجوم ، وبذلك افترضت الحكومة الأمريكية مسبقاً أن أسلوب الدولة المحاربة فى أعالى البحار المعترف به قانونياً يجب ألا يكون قائماً على التخمين فقط ، ولكن لابد من دليل قاطع يعتمد عليه

---

(١) رأفت غنيمي الشيخ : أمريكا والعالم في التاريخ الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية ، القاهرة ، ٢٠٠٦.ص ١٠٦.

(٢) الحياد الإيجابي : هو حياد متحرك نشط يعلن من بداية الأمر أنه لا يقف مع أى من الكتلتين ولا يريد أن يرتبط بهما ، ولكن هذا لا يمنع من إبداء الرأى بصراحة والتعبير عن الموقف بشجاعة .والحياد الإيجابى فى حركته الدائمة لابد أن يتخذ موقفاً من كل القضايا التى تمس مصير الإنسانية ومصير العالم.وقد يكون هذا الموقف مؤيداً لرأى احدى الكتلتين ، وقد يكون موقفاً جديداً مستقلاً من رأى الكتلتين ، ولكنه فى كل الأحوال الموقف الذى يخدم مصلحة السلام ومبادئ الحق والعدل والمساواة. انظر: سلامة أحمد سلامة : مرجع سابق ، ص ٨.

(٣) رأفت غنيمي الشيخ : مرجع سابق ، ص ١٠٦ ؛ سمعان بطرس فرج الله: مرجع سابق ، ص ٣٧٨- ٣٨١.

وهذا الدليل القاطع يجب أن يكون متوفراً ولا يترك أى مجال للشك[١].

كما أن سفينة الحرب ربما تستخدم القوة لإجبار السفن التجارية على الدوران، وإذا ما تعرضت السفن التجارية للهجوم ، عليها أن تستخدم أسلحتها للإحتفاظ بالعدو على مسافة. وقد منحت السفن التجارية فى هذا التشابك- حق اللجوء للدفاع عن النفس بمجرد التأكد من الهجوم من قبل السفينة الحربية ؛ كما أن السفينة الحربية فى الأراضى التى تدعم هذا الموقف والتى لها حق الأسر ربما تستخدم القوة عندما يكون هناك هجوم مؤكد من قبل السفن التجارية المسلحة للعدو[٢].

وفى وقت مبكر من عام ١٩١٥ ذهب ويلسون في مهمة سرية لمتابعة إمكانية الوساطة بين الطرفين المتحاربين...وقال له جراي إنه إذا ما قامت الولايات المتحدة باتخاذ دور نشط فى صنع برنامج الأمن بالقوة بالنسبة للمستقبل ، فإن انجلترا ربما قد توافق على إنهاء الحرب بشكل رسمي وأن تثق فى مناقشة لاحقة بشأن الاتفاق على تأمين السلم للمستقبل.أما الكولونيل هاوس وهو أحد أصدقاء ومستشاري الرئيس ويلسون - فقد علق على هذا الإقتراح قائلاً " إنه سيكون مخالفاً ليس فقط للقانون المكتوب في بلدنا ، ولكن أيضاً لسياستنا الثابتة بعدم الإنخراط في الشؤون الأوربية"[٣].

وقد حاول ويلسون بدأب بذل جهود للوساطة بين انجلترا وألمانيا من أجل إيقاف الحرب وتحقيق السلام، فأرسل الكولونيل "هاوس "إلى أوربا في عامى ١٩١٥، ١٩١٦ لكنه لم يظفر بتعاون الطرفين.وعندما ازداد اقتناع ويلسون بأن ألمانيا وبريطانيا تتحاربان من أجل الهيمنة على

---

(١) *Memorandum of the German Government concerning defensively armed enemy Merchant ships* ,in :U.S. Department of State, Papers relating to the Foreign Relations of the United States, 1917, supplement 1.,Part 11: Neutral Rights, the World War U.S. Government printing Office, 1917, P.85.

(٢) Ibid,P.85.

(٣) JOHN A. THOMPSON, Op.Cit., P.106.

العالم،طلب من الطرفين في ١٨ ديسمبر ١٩١٦ أن يضع كل منهما شروطه لإيقاف القتال وأن يشاركا في مؤتمر للسلام تحت رئاسته(١).

شرع ويلسون في القيام بدور الوسيط بين الدول الأوربية الكبرى المتقاتلة.وفي ٢٢ يناير عام ١٩١٧ عرض في خطاب له علي الكونجرس الخطوط العامة والرئيسية لمشروعه للسلام علي النحو التالي قائلاً: " يجب أن يكون هناك ليس فقط توازن للقوى ، ولكن تنظيم للقوى ، كذلك يجب أن يكون هناك،ليس فقط المنافسات المنظمة ، ولكن السلام العالمى المنظم ... ومن ثم يجب أن يكون هناك سلام بلا نصر"(٢).

وكانت المحاور التى تضمنها الخطاب هى:

- عقد سلام دائم بواسطة الأمريكيين عن طريق عصبة الأمم.
- عقد سلام بين الأنداد ، لا بين غالبين أو مغلوبين أي سلام بلا نصر.
- عقد سلام تكون فيه الملاحة البحرية حرة أمام الجميع .
- عقد سلام يعتمد علي التعامل لا علي الإرهاب بالقوة العسكرية والحرب ، وبالتالي سلام يقوم علي أساس نزع السلاح.
- حق تقرير المصير للخاضعين للقوة المتسلطة.

ولكن فشلت محاولات التوسط الأمريكية نظراً لأن الحياد الأمريكى كان حياداً رسمياً فقط ، فقد شابه منذ البداية تحيز واضح لدول الحلفاء مما أفقد ألمانيا الثقة فى حسن نوايا الحكومة الأمريكية من جانب،وشجع بريطانيا علي الإستمرار فى الحرب اعتقاداً منها بأن التورط الأمريكى الفعلى إلى جانب دول الحلفاء سوف يضطرها إلى التدخل فى الحرب

(١) محمد قدري سعيد: مرجع سابق ، ص ٢٨.

(٢) *Senate Documents* 685,64th cong., 2nd session. Wilsons '' peace without victory" speech January22, 1917, in. American historical documents, ed.by.Syrett Harold C., Banes &Noble Inc., New York, 1960, P.338.

إن عاجلاً أو آجلاً متى سمحت الظروف بذلك[١].

كما أوضح ويلسون فى هذا الخطاب إنه يعبر عن آمال ورغبات الشعب الأمريكى قائلاً:"ربما أكون الشخص الوحيد من بين شعوب العالم القادر على التحدث عن هذا الأمر بحرية (أى تحقيق السلام العالمى).فأنا أتحدث كفرد ، وكرئيس مسئول عن حكومة عظيمة ، وأشعر بالثقة بأننى قد عبرت عما يدور بعقل وأمل الشعب الأمريكى "[٢].

رأى البعض أن الحياد الأمريكى كان يرجع إلى حد ما إلى طبيعة الرئيس ويلسون.فقد كان سلبي النزعة يغلب الإعتبارات المعنوية على الإعتبارات المادية.وقد شاركه فى هذه النزعة وزير خارجيته وليم جي.بريان . الذي كان يعتقد أن من يستمر فى الحرب لا يقل إثماً عمن بدأها.وقد صرح ويلسون مراراً بأنه من أنصار السلام وأن صلة الولايات المتحدة بالحرب هى صلة الدولة الداعية إلى السلام العادل دون أهواء أو أغراض خاصة.إن سياسة الحياد التى اتبعتها الحكومة الأمريكية فى بداية الحرب الكبرى ، أملتها ظروف الولايات المتحدة الخاصة فى ذلك الوقت ، ولم تكن مجرد تطبيق لنزعة ويلسون السلمية.كما صرح ويلسون إلى صديقه الكولونيل هاوس في يناير ١٩١٧ قائلاً:"إن الإشتراك في الحرب الأوربية جريمة ضد الحضارة"[٣].

وفي هذا الوقت نشرت جريدة فرانكفورت الرسالة التى بعث بها الإمبراطور ولهلم إلى الدكتور بتمان هلنج Pitman Haling وأعرب له فيها عن رغبته الأكيدة في حقن الدماء " فجل ما أتمناه من صميم فؤادي هو عمل أدبي يزيل المصائب التى نزلت بالمحاربين

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، محمود محمد جمال الدين : مرجع سابق ، ص ١٤٧؛ سمعان بطرس فرج الله ، مرجع سابق، ص ٣٨٣، ٣٨٤.

(٢) *Senate Documents* 685,64th cong., 2nd sess., Wilsons '' peace without victory'' speech January22, 1917, op.cit, Pp.339, 340.

(٣) سمعان بطرس فرج الله : مرجع سابق ، ص ٣٧٤، ٣٧٥؛ بيير رونوفن:تاريخ القرن العشرين،تعريب:نور الدين حاطوم،دار الفكر،القاهرة،١٩٨٥،ص ٦٩.

والمحايدين على السواء . ولكن هذا العمل لا يستطيع الإقدام عليه إلا رئيس حكومة ذو ضمير حي وقلب شفيق يدرك عظم المسؤولية الملقاه على عاتقه لإنقاذ العالم ...".ونتيجة لذلك أرسل ملك سكسونيا البرقية التالية إلى الإمبراطور ولهلم "إننا شعرنا باشمئزاز عظيم من رفض الحلفاء شروطنا العادلة لإبرام الصلح وعقدنا النية على الدفاع إلى النهاية إلى أن نشيد الصلح على أنقاض إرادة العدو المجرمة"[1].

أما رئيس مجلس الرايخ فقد أرسل البرقية التالية للامبراطور " إن الأمة الألمانية كلها تلتف اليوم حول جلالتكم وهي عازمة على مواصلة الحرب إلى النهاية دفاعاً عن كيانها وحريتها ولا سيما بعدما جاهر العدو برغبته في سحقنا وسحق حلفائنا"[2].يتضح مما سبق أن ألمانيا لم يكن لديها أى نية للصلح وأنها عازمة على مواصلة الحرب رغم مساعى ويلسون لعقده.

ولذلك نلاحظ أن الرئيس ويلسون يعدل عن سياسة الحياد ويتدخل فى الحرب ضد دول الوسط " الدول المركزية " ، عندما اقتضت المصلحة الأمريكية ذلك بعد أن هددت حرب الغواصات الألمانية الإقتصاد الأمريكى.فبقاء الولايات المتحدة على الحياد فى المرحلة الأولى من الحرب العالمية الأولى ثم دخولها الحرب إلى جانب "دول الحلفاء" بزعم نصرة "النظم الديمقراطية" ضد "الروح العسكرية البروسية" لم يكن لاعتبارات خلقية وإنما فرضه واقع الحياة الإقتصادية الأمريكية كما أملته مقتضيات توازن القوى الدولى[3].

لقد رأى ويلسون أن مصالح بلاده تزداد نمواً واتساعاً من إقبال المحاربين على صناعتها ولا سيما شراء الذخائر بكميات عظيمة وشراء المواد الغذائية بمقادير وافرة حتى ارتفعت أسعارها

(١) « حديث الصلح : ألمانيا تواصل مساعيها رسالة الإمبراطور إلى وزيره الأكبر رد الحلفاء على المحايدين- التصريحات الألمانية » ، فى : المقطم ، ٢٧ يناير ١٩١٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) سمعان بطرس فرج الله : مرجع سابق ، ص ٣٧٥.

في نيويورك ذاتها – كما تقول صحفها – ارتفاعاً باهظاً لم يعهده سكانها من قبل.بيد أنه يري من وجهة ثانية أن استمرار الحرب وانصراف المحاربين إلى أشد التدابير والطرائق التى أعدوها سوف لا يتركان أمريكا خارجة عن دائرة الحرب طويلاً،حتى إذا دخلتها ولم تكن على استعداد لها خسرت كل ما جنته من الفوائد والأرباح وأضاعت كل ما جمعته من وراء السلم والحياد [١].

إن اقتراح ويلسون الجديد عن عقد الصلح بدون انتصار يعد فى نظر الخبراء حكماً عادلاً أو أشبه بمناورة حديثة يري بها الرئيس إلى التقريب بين المتحاربين الذين يأبي كل فريق منهما سماع " انتصار خصمه" أو تفوقه عليه ولكن زوال فكرة الانتصار أو إبعادها على الأقل من المحادثات الأولية قد يلطف الأمور ويمهد السبيل لدخول باب المفاوضات التى تسير بعد ذلك سيراً طبيعياً[٢].

لقد ذكر سفير بريطانيا العظمى فى شهر ابريل سنة ١٩١٥ :" لا جدال في أن غالبية جماهير الشعب الأمريكي ترغب تماماً ألا تتورط فى حرب أوربية ". وكتب الكولونيل هاوس : " إن ٩٠٪ من الأمريكيين يعارضون التدخل المسلح ".وفى الأوساط الحكومية ، لم تكن الإتجاهات متفقة كلها على خط بعينه.وكان بريان وزير الدولة للشئون الخارجية ، من أنصار السلام المخلصين ، وكان يؤمن بضرورة عدم اشتراك الولايات المتحدة في الحرب في أية حال من الأحوال ... وأعلن إلياهو روت Elihu Root ، وزير الدولة السابق في عهد تيودور روزفلت ، لسفير بريطانيا العظمى:" إن الحرب ستكون مسألة خطيرة مع قسم هام من الأهالى الألمان فى قلب الشعب الأمريكى نفسه ، وهم سكان لا يوثق تماماً فى ولائهم"[٣].

وفى الثانى من ابريل عام ١٩١٧ كان الحزب الوطنى الإشتراكى National Socialist Party قد أرسل برقية إلى الرئيس ويلسون جاء فيها:"وبالنيابة عن جمع كثير من الإشتراكيين فى الولايات المتحدة ، فنحن ، لجنة الطوارئ الوطنية للحزب الإشتراكى National Emergency

---

(١) « حول الصلح : الصلح بلا انتصار وموقف أمريكا» ، في : وادي النيل ، ٢٧ يناير ١٩١٧.

(٢) نفس المصدر.

(٣) جلال يحيي : أوربا في العصور الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٨١. ص ٦٤ ، ٦٥.

Committee of the Socialist Party من أجل الحفاظ على السلام فى بلادنا - نحث على وضع حظر كامل على كل الشحنات من أى نوع من الولايات المتحدة لأى دولة من الدول المتحاربة كلها...وقد اتجهنا هذا الإتجاه لعدد من الأسباب:أولاً: لأنه الطريق الوحيد الذي تستطيع من خلاله بلادنا أن تكون بريئة من تهمة المشاركة في سفك الدماء فى الحرب. ثانياً:لأنه السبيل الوحيد الذي يمكن من خلاله أن تتخذ هذه الدولة موقفاً محايداً بحق. ثالثاً:لأنه الطريق الوحيد الذى من خلاله تستطيع هذه الدولة الإحتفاظ بمنتجاتها والتى هى فى حاجة ماسة إليها من أجل المساعدة فى خفض تكاليف مستوى المعيشة(١).

وفى ٣٠ مارس عام ١٩١٧ أرسلت لجنة الطوارئ للرئيس ويلسون وأعضاء الكونجرس رسالة على النحو التالى : " باسم الحزب الإشتراكى للولايات المتحدة ، فإننا نحثكم بجدية على معارضة إعلان الحرب ضد ألمانيا أو إعلان حالة الحرب...وبدلاً من ذلك نحثكم على التصويت لتحذير جميع المواطنين الأمريكيين للابتعاد عن منطقة الخطر.فقد احترمت حكومتنا منطقة الحرب المعينة من قبل حكومة بريطانيا العظمى ؛ فلماذا لا نفعل نفس الشيئ بالنسبة لمنطقة الحرب التى أعلنتها ألمانيا؟فأى شخص يدخل منطقة الخطر فى هذا الوقت ليس مواطناً صالحاً.فالأشخاص المتهورون هم الذين يضعون بلادهم عن عمد فى خطر حرب لا تستحق الحماية...هل يجب أن تدخل البلاد الحرب؟إن ذلك فى مصلحة أصحاب المصالح المالية فقط". كما اقترح الحزب الإشتراكى عمل تصويت لكبار المواطنين سواء من الرجال والنساء داخل الولايات المتحدة بشأن إعلان الحرب.وحمل ويلسون والكونجرس مسئولية سفك دماء الآلآف من البشر...ولكن بإعلان ويلسون الحرب تحول هؤلاء الإشتراكيون من معارضين لدخول الحرب إلى معارضين للحرب نفسها، وبالفعل أعدوا إعلاناً لمناهضة الحرب(٢).

---

(١) JOHN M. WORK,«*The first World War*», in: *The Wisconsin Magazine of History*, vol.41, No.1, autumn, 1957, P32.

(٢) Ibid.,Pp.34, 35.

كما عارض أعضاء الكونجرس سياسة ويلسون ونقلوا إليه مخاوفهم الشخصية فيما يختص بسياسته وبالغوا في إنذاره بأن عواطف الكونجرس كانت بأغلبية ساحقة ضد دخول الحرب بسبب الرعايا الأمريكيين المسافرين على السفن التجارية المسلحة.وقدم عضو الكونجرس جيف ماكليمور Jeff Mc Lemoore في المجلس قراراً من شأنه تحذير المواطنين الأمريكيين بألا يسافروا في السفن التجارية التابعة للدول المتحاربة المسلحة ، وقدم السيناتور توماس ب. جور Thomas P. Gore بعد ذلك بقليل في مجلس الشيوخ قراراً أقوي كان من شأنه منع تراخيص السفر عن المسافرين على مثل تلك السفن.ولكن أشار ويلسون إلى أنه كافح خلال عدة شهور حتى يبعد الولايات المتحدة عن الحرب.وألمح إلى مشكلة الغواصات كتبرير للحرب مع ألمانيا حول قضية السفن التجارية المسلحة[١].

وأوضح ويلسون في خطابه الذي ألقاه فى ٢ ابريل عام ١٩١٧ - أمام الكونجرس لإعلان حالة الحرب - أن الهدف من كسر الحياد هو انهاء الحرب حيث قال : " ومن واجبي الدستورى أن أنصح الكونجرس بأن يعلن فى جلسته الجديدة للحكومة الألمانية الإستبدادية أنها شنت الحرب ضد حكومة وشعب الولايات المتحدة ، وأن تقبل رسمياً وضع الدولة المحاربة" الولايات المتحدة " التى أقحمت فى الحرب ، والتى اتخذت خطوات عاجلة ليس فقط لتضع البلاد فى وضع الدفاع التام ، ولكن أيضاً بذل كل طاقاتها وخدماتها ومواردها لكى تجبر حكومة الإمبراطورية الألمانية على تحديد مدة للحرب إن لم يكن انهاؤها"[٢].

وقد أثار دخول الولايات المتحدة الحرب موجة من التطوع مشابهة لتلك التى حدثت في ألمانيا وبريطانيا في عام ١٩١٤.ومع ذلك قررت الحكومة أن نظام التجنيد الإلزامى فقط هو الوحيد القادر على زيادة عدد الجيش بشكل يفي بالحاجات القتالية في أوربا.وقد تولى مسؤلون

---

(١) إدوارد هنري بيوريج:مرجع سابق،ص ٧٦-٧٩.

(٢) U.S.65th Congress, Ist session, Senate Doc.51, Wilsons speech for declaration of war against Germany, April 2,1917, in: Documents of American History ,ed.by.Commager.H.S, .seventh (ed.), Division of Meredith publishing Company, New York, 1963, P.130

محليون هذه المهمة ، ولم يسمح لأحد باستئجار متطوع ليخدم بدلاً منه.وبدا التجنيد بالنسبة إلى السلطات العسكرية طريقة أكثر كفاءة في توفير الجنود الجدد ، وفي الوقت نفسه لا يحرم البلاد من الرجال اللازمين لشغل المهن المدنية الضرورية[1]. وهذا العمل يؤكد أن الولايات المتحدة لم تكن محايدة على الإطلاق ، كيف ذلك وهى تفرض التجنيد الإجباري على الشباب الأمريكى من أجل توفير الجنود الجدد ، ومن ثم دخول الحرب إلى جانب الحلفاء.

وهكذا أعلن ويلسون أن غرض الولايات المتحدة من الحرب جعل العالم مكاناً آمناً للديمقراطية بالقضاء علي الرق الحربي الألماني ، وإنشاء نظام لإقرار السلام في العالم ، ولذلك لم تطلق الولايات المتحدة علي بريطانيا وفرنسا وروسيا اسم الحلفاء وإنما كانت تذكرهم بإسم " الأصدقاء " أو" الشركاء " !!. وقد يبدو من الغريب إقدام الولايات المتحدة علي هذه الخطوة ، خصوصاً أن مبدأ مونرو كان قد رسم لها سياسة واضحة المعالم فيما يتعلق بالمشكلات الأوربية ، فقد نص علي ابتعاد الولايات المتحدة عن المنازعات الأوربية ، وعن شئون أوربا، فسياسة الحياد هي خير وسيلة لضمان سلامة الولايات المتحدة[2].

ولكن هل كان هناك حياداً حقيقياً اتبعته الولايات المتحدة خلال فترة الحرب أم أنه كان حياداً مزيفاً؟ الواقع أنه لم يكن حياداً حقيقياً ، والدليل على ذلك مظاهر التدخل الأمريكى في الحرب من نواحى متعددة تبين ميل الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء منذ بداية الحرب بل ومساعدتها لهم.

والثابت بشكل رسمى ، أن الولايات المتحدة لم تشترك في الحرب إلا في السادس من ابريل سنة ١٩١٧،ولكن الواقع أنها كانت مشتركة منذ البداية،سواء من ناحية تمويلها أو حتي العطف على أحد جانبيها.هذا ولم يكن للولايات المتحدة،ولفترة دامت جيلين،أية معاهدة تحالف مكتوبة مع بريطانيا،وبالرغم من تفكير ويلسون بأنه سيقيم حياداً ،سواء في التفكير

(١) نيل م.هايمان :الحرب العالمية الأولى ، ترجمة :حسن عويضة ، مراجعة :سامر أبوهواش ، الطبعة الأولى،هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،أبوظبي ، ٢٠١١.ص ٤٦- ٤٨.

(٢) عمر عبد العزيز عمر : تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ١٨١٥- ١٩١٩ ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠. ص٢٦١.

أم في الأعمال،إلا أنه كان يعطف على كل ماهو انجليزي ،ويميل إلى الحلفاء...ولما صودر البريد الأمريكى،طلب وزير الخارجية بريان وهو في قمة غضبه من الرئيس ويلسون أن يتوقف عن تأييد الحلفاء،وأن يتخذ موقفاً حيادياً فعلياً.ولكن ويلسون لم يأخذ بهذا الرأي ، فاستقال بريان في شهر يونيوعام ١٩١٥،وكان وزير الخارجية الجديد روبرت لانسنج (١) مقتنعاً بأن أية هزيمة للحلفاء قد تضطر الولايات المتحدة لأن تهاجم ،ومن الجائز أن تدمر(٢).

مظاهر التدخل الأمريكى :

١- الناحية الإجتماعية :

لقد كانت هناك ثمة مشاعر قوية لدي الشعب الأمريكي نحو بريطانيا وبالتالي نحو دول الحلفاء. وبناءً علي هذا الشعور فإن الحياد الطويل الذي أعلنته الولايات المتحدة منذ اندلاع الحرب عام ١٩١٤ وحتي عام ١٩١٧ ، ظل حياداً مشبوهاً لأن عاطفةً قوية كانت تغمر قلوب الأمريكيين تجاه بريطانيا الأم ، وتجاه الدول التي دخلت الحرب إلي جانبها ضد دول الوسط بزعامة ألمانيا(٣).

وعلى الرغم من إعلان أمريكا الحياد والإلتزام بالسلام ، فقد نما القلق العام مع استمرار الحرب ؛ فعلى الرغم من أن معظم الأمريكيين كانوا لا يرغبون فى المشاركة فى القتال ، إلا أنهم سرعان ما وجدوا أن من المستحيل الإستمرار فى الحياد النزيه...ولا عجب أن الدعاية التي قام بها كل من الطرفين المتحاربين قد لاقت أرضاً خصبة في الولايات المتحدة ، فكثير من الأمريكيين المنحدرين من أصل انجليزي أعلنوا شعورهم مع الحلفاء.كما أن الكثير

---

(١) روبرت لانسنج : Robert Lansing

شغل منصب المستشار الأول ثم وزيراً للخارجية عام ١٩١٥م ، وكان شديد الميل للحلفاء ، كما كان صاحب تأثير قوي ومباشر علي ويلسون ، بل والمسئول عن العديد من القرارات الجوهرية التي أصدرها ويلسون في عهده.

(٢) ديب علي حسن :الولايات المتحدة من الخيمة إلى الإمبراطورية،الطبعة الثانية،الأوائل للنشر والتوزيع،دمشق،٢٠٠٤، ص٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) عبد الفتاح حسن أبو عليه : مرجع سابق ، ص ١٦٥.

من الأمريكيين المنحدرين من أصل ألماني[١] قد جاهروا بتعلقهم بوطنهم القديم.ثم إن الأمريكيين الأيرلنديين اللذين زاد عددهم عن أربعة ملايين ، كانوا يعتبرون انتصار بريطانيا العظمي كارثة ، والغالبية العظمي من هؤلاء كانوا يفضلون قوي الوسط.وقد كان هؤلاء المهاجرين والأمريكيين المتعاطفين يضمون حوالى ٢٠٪ من سكان أمريكا.وكذلك اليهود الذين استنكروا علي روسيا اضهادها بني قومهم فقد عدوا ألمانيا دولة متمدنة حرية بالفوز[٢]!

أما مسؤولى الحكومة الأمريكية فلم يكونوا منقسمين كالجمهور الأمريكي،فقد كان كبار الضباط العسكريين جميعاً ضد ألمانيا؛وكانوا على يقين من أن التوسع الإقتصادى والإقليمى الألمانى من شأنه أن يهدد الأمن والهيمنة على القارة الأمريكية.وقد اتفق ويلسون مع العديد من هؤلاء الضباط في الخوف مما يمثله الإنتصار الألمانى بالنسبة لأمريكا.وأكدت رسالة السفير البريطانى سبرنج رايس خوف ويلسون من هذا الإنتصار حيث ذكر له " إن نجاح الألمان ، يجب أن يجبرنا على اتخاذ التدابير اللازمة للدفاع هنا،وأن تكون هذه التدابير مصيرية بالنسبة لشكل حكومتنا وأفكارنا الأمريكية"[٣].

لقد ذكر القائد الألمانى اريخ لودندورف Erich Ludendorff " إنه فى ربيع ١٩١٥ صرح كاتب أمريكى قدم إلى الجبهة الشرقية بضرورة اشتباك الولايات المتحدة معنا في القتال ولم

---

(١) جعل دخول أمريكا الحرب من ربيع ١٩١٧ لحظة لإزالة العناصر الألمانية من حياة ذلك البلد. غير أنها لم تكن بالمهمة البسيطة ، وذلك لأن الكثير من سكان الولايات المتحدة لهم جذور ألمانية.ومع ذلك ، حظر تدريس اللغة الألمانية في الكثير من المناطق ، واختفت الموسيقي الألمانية من قاعات الحفلات الموسيقية الوطنية.واستعيض عن المصطلحات المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بلغة العدو الجديد مثل « هامبورغر» و« مخلل اللفت » أو « الحصبة الألمانية » بمرادفات وطنية آمنة : مثل « شريحة لحم الحرية » ، و«ملفوف الحرية»و«حصبة الحرية»...وغيرها.للمزيد انظر: نيل م. هايمان:مرجع سابق ، ص ٢٣٤.

(٢) AMANDA M. MANCINI,«*Neutral in spirit? An Analysis of Woodrow Wilson's policies and the United States involvement in World War I.*»in: *International Social Science Review*, ; .vol.72, No.3|4, 1997, P.137

فرحات زيادة ، ابراهيم فريجى : مرجع سابق ، ص ٣٠٢ ؛ جلال يحيى:مرجع سابق،ص٦٣.

(٣) .AMANDA M.MANCINI,Op.Cit.,P.138

يك تصريحه هذا رأياً فردياً ، وذلك لأن الولايات المتحدة لم تكن تعرف ألمانيا فى زمن السلم وإنما كانت صلات قرابتها بانجلترا هى التى تجعلها تراها وأن تنضم إلى جانبها في كل الحوادث التى تتابع في أوربا ..." " وما كان للأهالى المنتمين إلى الأمة الألمانية في الولايات المتحدة سوي نفوذ ضئيل ، وما محاولة الإستفادة من هذا العامل كما فعلنا مدة من الزمن بتحريك إخواننا ضد وطنهم الجديد إلا لعبة غير محكمة جاءت بأوخم العواقب.وأما موقف أيرلانديى أمريكا فى هذه المشكلة الكبري فلم أره واضحاً ، إلا أن الأمر الوحيد الذى لم يكن ثمة شك فيه هو أن الولايات المتحدة ظلت غير قابلة للتحول عن الموقف الذى أجبرت تلك البلاد التعسة على الإندفاع بطريقة الضغط إليه"[١].

ولكن الشعور السائد كان بصورة إجمالية في جانب الحلفاء،وذلك بالنظر لما بين الأمريكيين والإنجليز من روابط عديدة ترجع إلي الثقافة والتقاليد ووحدة اللغة والاتجاه في الحياة ، ولأن الأمريكيين كانوا أيضاً يذكرون دائماً مساعدة الفرنسيين لهم أثناء الثورة الأمريكية ويشعرون بدافع داخلي يهيب بهم لمقابلة المعروف بمثله ، وقد أثار فيهم دفاع الفرنسيين والبلجيكيين عن بلادهم إعجاباً وتقديراً،وكان للسياسة التي اتبعتها ألمانيا في المحيط الباسيفكي،وفي الصين تأثير كبير في خلق النفور منها لدي الأمريكيين[٢].

وبذلك كانت الأقليات الألمانية والأيرلندية تمثل اتجاه الأقليات المعادية لدول الحلفاء ، كما كانت منتشرة في الولايات الغربية الأكثر فقراً، بينما كانت الولايات الصناعية التجارية الغنية الشرقية ذات أغلبية ساحقة انجليزية الأصل.وبالتالي كان الإنجليز أقدر وأسرع في إقناع الشعب الأمريكي بوجهة نظرهم ، بينما كانت وجهات النظر الألمانية لا تنتشر إلا في الدوائر الدبلوماسية وذات المستويات الرفيعة ، الأمر الذي جعلها عاجزة عن كسب الشعب

---

(١) اريخ لودندورف : من النصر إلى الهزيمة أو أسرارها عن الحرب الكبري وضعها اريخ لودندورف رئيس المعسكر العام للجيوش الألمانية ، تعريب : أحمد سليم ، القاهرة ، د.ت ، ص ١٦، ١٧.

(٢) رأفت غنيمي الشيخ : مرجع سابق ، ١٠٧؛ فرحات زيادة ، ابراهيم فريجى : مرجع سابق ، ص ٣٠٢.

الأمريكي إلي جانب ألمانيا[١].

ومنذ البداية لقى البريطانيون اهتماماً كبيراً من جانب الرأى العام الأمريكى بشأن الحرب ، وبالطبع كانوا على علم تام بأن مشاركة العسكرية الأمريكية فى جانبهم سوف تساعد إلى حد كبير فى تحقيق النصر.وقد أعلن لويد جورج والذي كان رئيساً للوزراء فى عام ١٩١٦ بعد ذلك فى وقت لاحق أن " الدول المتحالفة كانت واعية لحقيقة أن الوقت سيأتى عندما تتدخل أمريكا بتأثير لا يقاوم ، ووفقاً لأهداف السلام التى تم صياغتها من أجل اقناع أمريكا ، وخاصة فى المحيط الهادئ ..."[٢].

ويمكن تفسير اتجاه الولايات المتحدة إلي بريطانيا إلي الأسباب التالية :

أ- تخوف الولايات المتحدة من النتائج المترتبة علي انتصار دول الوسط وانهزام دول الحلفاء.وخاصة تفوق الألمان الذين يؤمنون بمبدأ التفوق ونظرية الحكم المطلق وبالتالي فإن انتصارهم يعني تفوق السيادة المطلقة علي السيادة الديمقراطية،ولن تكون الولايات المتحدة بعيدة عن متناول يد الألمان وسلطتهم!.

ب- المشاعر المحلية القوية في ولايات نيوانجلاند تجاه بريطانيا ودول الحلفاء بعد أن داست الجيوش الألمانية حياد البلجيك ، وهو أمر ظل الأمريكيون يبغضونه تماماً لأنه في نظرهم يمثل أسلوب استخدام منطق القوة ضد الشعوب الضعيفة في تطبيق مبدأ المصالح الإستراتيجية للدول الكبرى.

جـ- اقتناع الأمريكيين بأن حيادهم كان محصلة لعدة اتجاهات أمريكية كانت تتناسب مع مرحلة معينة من مراحل الحرب ، ولكن أمر الحياد أصبح غير مجد في ظل تفوق دول الوسط علي دول الحلفاء حيث قام الرئيس ويلسون بإجراء اتصالات مع الدول المتحاربة من أجل وقف الحرب بشرط ألا تتفوق قوة علي قوة أخرى.

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، محمود محمد جمال الدين : مرجع سابق ، ص ١٤٨.

(٢) JOHN MUELLER ,«*Changing attitudes towards War: The impact of the First World War*»,in: *British Journal of Political Science*,Vol.21,No.1.,Jan., 1991, Pp.20, 21.

د- كما فشل الرئيس ويلسون في توقعه ، إذ كان يأمل أن تطلب دول الحلفاء ودول الوسط منه أن يقوم بالتوسط لإنهاء الحرب بعد أن تكون الحرب قد أنهكت الجميع وأجبرتهم علي طلب الوساطة، ولكنه فشل في القيام بهذا الدور لأن الطرفين لم يقتنعا ولم يتوصلا بعد إلي اقتناع بإيقاف الحرب، وعندما أصبح موقف الرئيس الأمريكي موقفاً ضعيفاً أمام الرأي العام الأمريكي الذي بدأ يتحمس كثيراً للإشتراك في الحرب إلي جانب انجلترا ، رأى ضرورة إعلان الحرب(١).

وكانت هناك عوامل أخرى تدعو إلى الميل التدريجى نحو انجلترا وحلفائها ، ومنها موقف سفير الولايات المتحدة فى ألمانيا ج . جيرارد . ، ومنها موقف السفير الأمريكى فى لندن والتر هاينز بيج Walter Hines Page فهذا السياسي الأخير كان متعاطفاً مع انجلترا وكل ما تحارب من أجله، ويجد لها عذراً فى اتباع سياسة الحصار البحرى ، ولذا أخذت علاقته تفتر برئيسه نتيجة التمسك بسياسة الحياد(٢).ولما وقعت الحرب حث الرئيس السابق تيودور روزفلت علناً- علي تدخل أمريكا إلى جانب الحلفاء،وكان كل ما باستطاعة ويلسون أن يفعله هو أن يمنعه من تأليف فرقة من المتطوعين ويذهب للقتال،كما فعل أثناء الحرب الأسبانية الأمريكية(٣).

وعلى الرغم من حيادية الولايات المتحدة ، إلا أن زهاء عشرة آلاف امرأة أمريكية((٤)) بدأن بالمساعدة فى المجهود الحربي لبريطانيا وفرنسا وغيرهما من دول الحلفاء بدءاً من عام ١٩١٤. كما اندفعت النسوة البريطانيات لخدمة بلادهن بأعداد كبيرة.وبدءاً من عام ١٩١٧،

---

(١) عبد الفتاح حسن أبو علية : مرجع سابق ، ص ١٦٥- ١٦٧.

(٢) محمد محمود السروجى : مرجع سابق ، ص ١١٨.

(٣) ديب علي حسن:مرجع سابق،ص٢٦٩.

(٤) لقد خدمت أكثر من إحدي وعشرين ألف ممرضة أمريكية في الحرب العالمية الأولى ، نصفهن مع القوات المسلحة في أوربا.ولكن الكثير من الممرضات قاسين من العمل الشاق في الأماكن النائية.إذ عينت بعض الممرضات الأمريكيات في مرافق فرنسية يعالجن فيها المرضي الأمريكيين بالإضافة إلي الضحايا الفرنسيين . ووجدن أنفسهن في «قرى نائية موحشة حيث الظروف المعيشية البدائية والعادات الإجتماعية الغريبة»،وحيث «نظفن الأرضيات في المبانى الفرنسية القديمة والمتهالكة أو في الشكنات الخشبية القديمة ، وقمن بتجهيز عنابر المرضي ، كما رتبن الأسرة ورعين المرضي الناقلين للعدوي». للمزيد عن دور المرأة فى الحرب انظر : نيل م. هايمان : مرجع سابق ، ص ١٨٣ : ٢٠٥.

خدمت أكثر من ست عشرة ألف إمرأة أمريكية خارج البلاد كجزء من القوات المسلحة الأمريكية ، أو كأعضاء فى منظمات المساعدة المختلفة التى عملت مع القوات المسلحة. ووجدت دراسة حديثة أن " الأغلبية العظمي من النساء اللواتى خدمن في القوات المسلحة الأمريكية كن أجيرات، بيضاوات ، متعلمات ، ومن الطبقة المتوسطة الدنيا وغالباً ما كن يعلن أنفسهن "[١].

اعتقد رئيس الجمهورية الفرنسية المسيو ريمون بوانكاريه Raymond Poincare اعتقاداً تاماً أن الأمريكيين يعطفون على الحلفاء ولم يكن يشك على الإطلاق في أن أعداء الحلفاء هم أعداء الولايات المتحدة وأن الأمريكيين أنفسهم لا يجهلون هذه الحقيقة. وقد أعرب الرئيس فى حديثه عن شكره العظيم لما تبديه الولايات المتحدة من المساعدة لفرنسا ولا سيما المتطوعين من أبنائها فى الجيش الفرنسي الباسل قائلاً:" لقد نهجت الولايات المتحدة خطة الحياد في هذه الحرب،ولكن الأمة الأمريكية أظهرت عطفاً شديداً على فرنسا كان له أعظم وقع فى نفوسنا فأنا أتلقي كل يوم من الشعب الأمريكى على اختلاف طبقاته رسائل لا تعد ولا تحصي تحتوي على تبرعات كبيرة لمنكوبي فرنسا وعلى أمانى خالصة من الشوائب بانتصار الحلفاء النهائي" [٢].

وهكذا كان الرأي العام الأمريكي قد نضج لقبول فكرة الحرب ضد ألمانيا ، فمعظم سكان الولايات المتحدة أصبحوا يعطفون علي قضية الحلفاء ، وعملت الروابط الثقافية والإقتصادية علي التقريب بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وحلفائها ، وخاصة بعد أن أكثر الحلفاء من الإقتراض من المصارف الأمريكية ، فتكونت علاقات مالية لا يسهل فصمها[٣].وبحلول أواخر عام ١٩١٥ كان معظم الأمريكيين يحبذون فوز الحلفاء ،كما أن الحكومة الأمريكية قد أعدت نفسها للدفاع عن الحلفاء ، ومهدت الطريق لدخول الولايات المتحدة الحرب...

---

(١) نفسه ، ص ١٨٤ ، ١٩٣.

(٢) « فرنسا والصلح .تصريح المسيو بوانكاريه»، في : المقطم ، ٣٠ يناير ١٩١٧.

(٣) حسين شريف : الولايات المتحدة من الإستقلال والعزلة إلى سيادة العالم ١٧٨٣-٢٠٠١،ج١ ١٧٨٣-١٩٤٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠١. ص ٢٧٣.

وبالفعل منحت الولايات المتحدة دعمها الدبلوماسي والمعنوي والمادى لبريطانيا ، ووجهت العديد من التقارير الإعلامية الأمريكيين نحو تقبل فكرة التدخل الأمريكى فى الحرب[١].

٢- الناحية الإقتصادية :

لقد تعرضت اقتصاديات الولايات المتحدة لأزمة اقتصادية حادة في أعقاب نشوب الحرب بسبب توقف جانب كبير من صادراتها إلي أوربا.وأصبح لا بد من التفكير الجاد في وضع نهاية لهذه الحرب الضروس حتي يمكن وضع حد للأزمة الإقتصادية ، وبالتالي التفكير الجاد في المشاركة في الحرب إلي جانب أصدقائهم[٢].

كما كان حجم التجارة الأمريكية مع دول الحلفاء في نمو مستمر وضخم في الفترة الواقعة بين عامى ١٩١٤-١٩١٦ مما كان يفرض علي حكومة ويلسون أن تعمل علي المحافظة علي الأقل علي معدلات النمو هذه ، وأن تعمل علي ضمان الكسب المادي للشعب الأمريكي سواء في المستقبل القريب أو البعيد ، وبخاصة أن المؤسسات المالية الكبرى عادة تضغط علي الحكومة الأمريكية من أجل إنقاذ التجارة الأمريكية من الركود عن طريق تقديم قروض مالية إلي بريطانيا وفرنسا[٣].

وفى أغسطس عام ١٩١٤ ، فى الشهر الأول من الحرب ، كان الرئيس ويلسون قد صرح قائلاً:" إن القروض المقدمة من قبل أصحاب البنوك الأمريكيين لأي دولة أجنبية وهى فى حالة حرب يتنافى مع الروح الحقيقية للحياد".وعلى أية حال ففي اكتوبر من نفس العام ، غير ويلسون موقفه زاعماً أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تكون منعزلة عن التجارة العامة...وكان السبب فى هذا التحول الكبير فى الموقف الرسمى لويلسون التكهنات الإقتصادية البسيطة والواضحة.ففي غضون ستة أشهر ، قام الحلفاء بشراء كميات من الذخائر وغيرها من

---

(١) AMANDA M. MANCINI, Op.Cit., P.140.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار ، عبد المجيد نعنعى : مرجع سابق ، ص ١٦١.

(٣) نفسه ، ص ١٦٤، ١٦٦.

الإمدادات والتي حولت الكساد الإقتصادى إلى طفرة "إزدهار" متواضعة للحرب(١).

وخلال نفس فترة الستة أشهر ، كانت تقريباً كل القرارات الإقتصادية التى تصدر من إدارة ويلسون تفضل قوي الحلفاء عامة وبريطانيا العظمى خاصة،حيث كانت أمريكا فى حاجة إلى الأوربيين لشراء منتجاتها للحفاظ على سلامة اقتصادها؛ولكن الدول الأوربية لم يكن فى استطاعتها أن تدفع ٣ بليون دولار ثمناً "للمواد الغذائية،والمواد الخام،والذخائر... الحديد والصلب والنحاس والنفط واللحوم والقمح...وغيرها من المواد" التى تحتاجها؛ إذاً أصبح مد الإعتماد ضرورياً للحفاظ على الأسواق مفتوحة ، والإقتصاد الأمريكى سليم.ومن ثم فإن هذا الضغط الإقتصادى جعل الولايات المتحدة تتخلى تماماً عن الحياد الحقيقي(٢).

وفيما بين إعلان الحرب فى أغسطس عام ١٩١٤، ودخول الولايات المتحدة الحرب فى ابريل ١٩١٧، كان الحصول على مصادر الدولار من بريطانيا قد بلغ ٣,٢٤١ مليون دولار فى مقابل ٦٦٦مليون استرلينى وهى كالتالى : ٩٢٦مليون دولار فى مقابل ١٩٢مليون استرلينى من بيع الذهب ، ٨٣٥ مليون دولار فى مقابل ١٧٢ مليون استرلينى من التخلص من الأوراق المالية الأمريكية التى تملكها بريطانيا ، و١,٤٨٠مليون دولار فى مقابل ٣٠٠مليون استرلينى من القروض التى طرحت من السوق الأمريكية(٣).

لقد أقرضت المصارف الأمريكية بريطانيا وفرنسا قروضاً كبيرة لتمويل عملياتها الحربية ، وقد دفع ذلك الولايات المتحدة إلي دخول الحرب إلي جانب هاتين الدولتين ضماناً لأموالها وحفاظاً علي مصالحها(٤).وكانت الولايات المتحدة قد أقرضت قوات الحلفاء أكثر من ٢,٥ بليون دولار ، فى مقابل ٢٧ مليون دولار لقوات الوسط.وقد انعكس ذلك على المصالح الإقتصادية الخاصة للولايات المتحدة والتى كانت مع بداية الحرب فى عام ١٩١٤ متأثرة بالكساد الإقتصادى

---

(١) AMANDA M. MANCINI, Op.Cit., P.139.

(٢) Ibid,P.139.

(٣) ROBERT SELF, BRITAIN , *America and the war Deb controversy the economic diplomacy of an unspecial relationship*,1917- 1941,Routledge,London,2006,Pp.16,17.

(٤) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٢٦٢.

ولكنه لم ينعكس على الحياد النزيه الذي حث عليه بريان وزير خارجية ويلسون[١].

كما تعرضت السفن الأمريكية للإعتداءات الألمانية وكذلك السفن الإنجليزية ، ومن ثم بدأ يتولد ميل أمريكي تدريجي نحو انجلترا وحلفائها ، وشغلت أعمال الغواصات الألمانية أذهان الرأي العام الأمريكي ، إلا أن أمريكا لم تتخل عن موقف الحياد ، حتي حينما طلبت منها ألمانيا ألا تبيع الأسلحة والذخيرة الحربية لبريطانيا وحلفائها.وحينما تمادت الغواصات الألمانية في إلحاق الأضرار بالسفن الأمريكية أنذرتها الحكومة الأمريكية بأنها لن تقبل أي اعتداء علي سفنها أو تجارتها لأن هذا اعتداء علي موقف الحياد[٢].

ولم يجد بريان وزير الخارجية الأمريكية بداً من التصريح بأنه ليس من حق ألمانيا أو حلفائها أن يقدموا مثل ذلك الطلب لأنه يتنافى وحياد الولايات المتحدة.وقرر أن الولايات المتحدة قد عقدت عزمها على ألا تمانع فى تصدير مواد الحرب إلى كل من الطرفين المتحاربين ، ولذلك فهى مستعدة لأن تبيع لألمانيا ما يلزمها كما هى مستعدة لأن تبيع للحلفاء[٣].

وجدير بالذكر أنه قبل عام ١٩١٤ ، كان ربع المواد الغذائية الألمانية قد تم استيرادها من الخارج ولاسيما اللحوم والأسماك والبيض ومنتجات الألبان.وكانت الولايات المتحدة ترسل نحو ١,٥مليون طن من القمح إلى الموانى الألمانية سنوياً، جنباً إلى جنب مع ثلاثة ملايين طن من حبوب العلف.كما أمدت ألمانيا بثلثي النحاس المستخدم فى الصناعة الألمانية ، وكل القطن المستخدم في مصانع النسيج الألمانية.كما استوردت نصف كمية النترات المستخدمة فى الزراعة والصناعة الألمانية من الخارج والتى كانت تمثل عنصراً هاماً لا غنى عنه فى صنع

---

(١) Joan Hoff, *A Faustian foreign policy. From Woodrow Wilson to George* .W. Bush. Dreams of perfectibility, Cambridge University Press, Cambridge, New York, 2008, Pp.45, .46; Amanda M.Manicni, Op.Cit , P.139

(٢) ناهد ابراهيم دسوقى : دراسات فى التاريخ الأمريكى ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٨. ص ١٤٤ ، ١٤٥.

(٣) محمد محمود السروجى : مرجع سابق ، ص ١١٨.

المتفجرات لقذائف المدفعية[١].ولكن مع بداية الحرب كانت كل مساعدات الولايات المتحدة متجهة لدول الحلفاء.

وهكذا فمنذ بداية الحرب لم تكن الولايات المتحدة محايدة ، فقد انتهكت بإستمرار وبشراسة القانون الدولى للحياد عن طريق شحن الذخائر وغيرها من الإمدادات إلى جانب واحد ، ومنعه عن الجانب الآخر.ويعد هذا انتهاكاً صارخاً للحياد لأنه يساعد جانب واحد ويحرج الجانب الآخر...وبالتالى فقد ساعدت الولايات المتحدة فى قتل الملايين من البشر.وفى نفس الوقت قامت بتصدير المواد إلى الدول المتحاربة مما أدي إلى زيادة تكاليف المعيشة بين جماهير الشعب الأمريكى وبالتالى زيادة معاناتهم[٢].

وكان رأي السفير الألمانى الكونت جوهان فون برنستورف **Count Bernstorff** فى هذه الأعمال قد بسطه فى مذكرة خاصة توجه بها إلى الحكومة الأمريكية وشعبها ١٣ ابريل سنة ١٩١٥ " إذا ما أراد الشعب الأمريكى أن يلتزم الحياد الصحيح فليضع حداً لتصدير الأشياء المحظورة بمقادير عظيمة أو إذا كان يريد أن ينهج منهجاً حراً فى تجارته فليتخذ فى التصدير خطة عادلة إزاء ألمانيا ولو على الأقل فيما يختص بالمواد الغذائية"[٣].

وبنهاية عام ١٩١٦ كانت البلاد تنعم بالرخاء ، وذلك بفضل مشتريات هائلة من المواد الغذائية وإمدادات الحرب للحلفاء التى لم تؤت أكلها فقط ، ولكن أصبحت أوربا مدينة للولايات المتحدة.وعلى ذلك ، فمن أجل ضمان سداد هذه الديون ومواكبة طوفان أوامر الحرب ، فقد دخلت الولايات المتحدة الحرب كما رأي البعض من أجل تحقيق مكاسب اقتصادية ؛ بينما رأى البعض الآخر إذا كانت الولايات المتحدة قد ارتكبت خطأ بدخول الحرب ، إلا أنها

---

(١) Daniel Allen Butler,« *Distant Victory*»: *The Battle of Jutland and the Allied Triumph in the first World War*, Praeger Security International, Westport, London, 2006, P.55.

(٢) John M. Work, Op.Cit., P.32.

(٣) اريخ لدوندورف : مصدر سابق ، ص ١٨.

لم تدخلها لهذه الدوافع الدنيئة[١] .

والواقع أنه كان في وسع الولايات المتحدة أن تمارس ضغطاً أقوي على بريطانيا العظمى وعلى فرنسا ، وذلك بتهديدهما بفرض شروط ، أو بوضع حدود ، على كمية الصادرات.ولكن هذا التقييد كان سيحرم المنتجين والتجار الأمريكيين من المكاسب الاستثنائية ، التى كانت الحرب الأوربية تمنحها لهم.ولذلك فإن حكومة واشنطن قد احترست من أن تصل إلى هذا الحد ، بينما طالبت ألمانيا بأن تتخلى جزئياً عن حرب الغواصات[٢].

وقد ذكر القائد الألمانى لودندورف : " إن مصالح الولايات المتحدة الإقتصادية أخذت تعدها على توالى الأيام إلى الإندماج فى مصاف دول الحلفاء.فكانت انجلترا قد تنازلت للولايات المتحدة عن مركزها المالى العظيم.وبما أن ديونها على شعوب الحلفاء أصبحت باهظة فإن هزيمة هذه الشعوب تصير كارثة مالية على الولايات المتحدة ولم يدع المسلك الذى انتهجته الولايات المتحدة فى مسألة تموين دول الحلفاء بالذخائر أثراً للريب فى نزوعها عن مبدأ الحياد،فالأعمال المناقضة لحقوق الأشخاص والفظائع التى تقترفها انجلترا في البحر لم تصبح جائزة إلا برضا الولايات المتحدة عنها.بينما كانوا قد صرحوا في وزارة الخارجية قبل نشوب هذه الحرب ببضع سنوات فى خلال إحدى المحادثات بأن الولايات المتحدة لا ترضي البته عن مثل هذه المناهج.وكنا نعتمد فى استيراد مطالبنا بمقادير غير محددة على هولندا"[٣].

ومع ربيع عام ١٩١٧ بدا وكأن عمليات الغواصات ستكسب الحرب لألمانيا ، ففى ابريل فقط تم تدمير أكثر من مليون طن من سفن الدول المحايدة.وأدى هذا أن كل أربعة سفن تبحر من الموانى البريطانية تغرق واحدة منها ، ولذا رفض بحارة السفن الأجنبية الإبحار إلى انجلترا.

---

(١) Bernadotte E. Schmitt, Op.Cit., P.328.

(٢) جلال يحيي : مرجع سابق ، ص ٦١.

(٣) اريخ لودندورف : مصدر سابق ، ص١٧.

وفى ذلك الوقت قرر الألمان عودة حرب الغواصات غير المقيدة على أمل انهاء الأمور برمتها[١].

ويؤكد ذلك ما ذكره القائد الألمانى لودندورف حيث قال :" لقد تحسنت حالتنا فى مجموعها ، وغدوت قادراً على التطلع باطمئنان إلى الجانب الغربي.وكذلك حرب الغواصات أحدثت نتائج محمودة تخطت حد ما كانت تأمله القيادة البحرية ، فتقليل الحمولة وتوالي الخسائر فى البضائع المغرقة كان لابد أن ينتجا أثرهما الفعال.وعلقت مجلة الاقتصاد الإنجليزية فى عددها الصادر في ٧ سبتمبر سنة ١٩١٧ ، وربيع سنة ١٩١٨ على هذه الفترة بقولها إنه " أحرج عهد مر على انجلترا منذ نشوب الحرب الكبري وأدعى العهود إلى هلاكها" وقد اضطرت دول الحلفاء إلى استخدام رجال وأدوات حربية في المعارك البحرية كانت تستخدمها فى الحرب البرية إلى هذا الحين ، وهى ظاهرة بدأت تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم"[٢].

ومضي - وزير البحرية الألمانى الأميرال - ألفرد فون تربتز Alfred Von Tirpitz يضع خطوط نظريته عن"وجهة النظر الصحيحة لموقف أمريكا من مسألة الغواصات""...ورأي أن شحنات الذخائر الهائلة والمواد الحربية التى أمكن شحنها نتيجة الحظر الذي فرض على إدارة دفة حرب الغواصات،قد ربطت مصلحة الإقتصاد الأمريكى مع القضية البريطانية بطريقة تختلف تماماً عن تلك التى وجدت في بداية الحرب"، ونتيجة لذلك"فإن أمريكا مهتمة بصورة مباشرة بمسألة مصير وجود انجلترا الإقتصادى وبمسألة عزم بريطانيا على سحق ألمانيا"[٣].

وقد استاء الرأي العام الأمريكي من حرب الغواصات ومهاجمة السفن التجارية ، وقامت الولايات المتحدة بتسليح بواخرها التجارية لمقاومة حرب الغواصات الألمانية ، وكان ذلك بطبيعة الحال مقدمة منطقية لدخول الولايات المتحدة الحرب بسبب الخسائر المادية التي

---

(١) مونتجمرى : الحرب عبر التاريخ ، تعريب وتعليق: فتحى عبدالله النمر، ج٦،مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت،ص ٦٨٨.

(٢) اريخ لودندورف : مصدر سابق ، ص ١٥.

(٣) إدوارد هنري بيوريج:مرجع سابق،ص ١٠٣.

لحقت بها والشلل الذي أصاب تجارتها عبر المحيط(١).

وكان الرئيس ويلسون قد حث فى رسالته إلى الكونجرس فى ٢ ابريل ١٩١٧ على " تمديد الإعتمادات الأكثر ليبرالية لحكومات الحلفاء،لأن مواردنا من الممكن أن تضاف إليهم ".ورداً على ذلك أصدر الكونجرس على الفور أول قانون قرض ليبرالى بدون تصويت معارضة، وحصل القانون على موافقة الرئيس فى ٢٤ ابريل...وأعلن السناتور ريد سموت أثناء إقرار القانون " أود أن أقول أنه سيتم إنفاق كل قرش منه للدفاع عن المبادئ ...التى دخلنا الحرب من أجل الدفاع عنها،ومن أجل صالح الولايات المتحدة إذا ماتم انفاقه من قبلنا أومن قبل الحلفاء". أما رئيس لجنة المخصصات The Chairman of Appropriations Committee فقد كان أكثر صراحة حينما قال:"أنا متعاطف كثيراً مع الإقتراح القائل بعدم عودة مالنا إلينا مرة أخري، ولا يهمنى كثيراً إذا لم نفعل؛إذا ما تم الحفاظ على الدم الأمريكى والأرواح الأمريكية عن طريق منح الأموال"(٢).ويتضح مما سبق أن الكونجرس الأمريكى كان يحبذ الحرب إلى جانب الحلفاء من أجل المصالح الإقتصادية الأمريكية.

وأخيراً يمكن القول إن الإعتداءات الألمانية وحدها لم تكن كافية لدخول الولايات المتحدة الحرب...فقد كانت رداً على القروض الأمريكية للحلفاء.وبالتالى كانت الإجراءات الألمانية جزءاً من قانون الحرب الشاملة.ومن ثم فقد تم اتخاذ قرار الدخول فى الحرب قبل وقت طويل من ضرب لوزيتانيا ،أو مهاجمة ساسكس ، حيث تم اتخاذ قرار المشاركة في الحرب منذ عام ١٩١٤ عندما سمح ويلسون بالقروض للحلفاء ، وعندما اتخذ الكونجرس قرارات فى عامى ١٩١٥و١٩١٦ بالموافقة على منح القروض للحلفاء.وقد اعتقد ويلسون أنه كان محايداً ولكن تصرفاته لم تكن بعيدة تماماً عن الحرب.ولم يكن الدخول فى الحرب بسبب حرب

---

(١) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٢٦٢.

(٢) .Robert Self,Op.Cit,Pp.17,18

الغواصات، ولكن ذلك تم في إطار السياسة الخارجية لويلسون[١].

٣- الناحية العسكرية:

وهذه الناحية متداخلة بطبيعة الحال بالنواحى الإقتصادية، فحرب الغواصات كانت أكبر عامل عسكري دفع الولايات المتحدة إلي الدخول في الحرب إلي جانب الحلفاء ضد دول الوسط.ولكن كانت حرب الغواصات نفسها موجهة ضد التجارة الأمريكية البريطانية علي نفس المستوي الذي كانت توجه به ضد الأساطيل المتحالفة[٢].

وكانت ألمانيا خلال الفترة الأولى من الحرب تسعي إلي توجيه ضربة قاضية لإخراج فرنسا من الحرب ولكنها فشلت، وأرادت تحقيق نفس الهدف بالنسبة لروسيا ولكنها فشلت كذلك، فتحولت إلي العمل علي إخراج انجلترا من الحرب عن طريق حرب غواصات لكي تمنع عن الشعب الإنجليزي الغذاء والسلاح، وأعلنت الحكومة الألمانية أنها ستغرق أية سفينة في نطاق حددته حول الجزر البريطانية معللة ذلك بأن الحكومة البريطانية ضربت حصاراً علي الشواطئ الألمانية بلغ فيه الأمر أن الأسطول البريطاني صادر المواد الغذائية التي تحتاجها النساء والأطفال، إلا أن حكومة ويلسون رفضت هذا التعليل وحملت الحكومة الألمانية مسئولية هذه الإجراءات[٣].

وجدير بالذكر أنه تم عقد مؤتمر فى ديسمبر عام ١٩١٥ كان قد حضره كبار الجنرالات والأدميرالات فى ألمانيا من أمثال فون فالكنهاين Von Falkenhayn وتم فيه توضيح عدد من الحقائق الهامة التى تتمثل في: عدم قدرة ألمانيا على استيراد المواد الغذائية والمواد الخام، وتوقف البحرية التجارية الألمانية، وفقدان ألمانيا بالفعل ما يقرب من جميع مستعمراتها فيما وراء البحار، وكان أسطول أعالى البحار مكبلاً وعاجزاً نتيجة القيود الإستبدادية والقيادة

---

(١) AMANDA M. MANCINI, Op.Cit., P.143.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين: مرجع سابق، ص ١٥٦.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعى: مرجع سابق، ص ١٦٩.

الجبانة ، وعدم قدرة الجيش الألماني على إلحاق الهزيمة بأى دولة من دول الحلفاء، ومعاناة النمسا والمجر من سلسلة من الهزائم على يد الجيش الروسي ، ولكنه كان لا يزال قادراً على مواصلة القتال نتيجة الدعم الألماني[١].

وظهر هناك فريقان من النقاد حول حرب الغواصات ، الفريق الأول يري أن ألمانيا معذورة في عدم احترامها للقانون لأنه ليس من السهل علي الغواصات أن تتريث حتي تتأكد من جنسية الباخرة ثم تمنحها فرصة زمنية طويلة لإنزال ركابها قبل نسفها ، ولكن مهما يكن من أمر فقد كان الرأي العام الأمريكي شديد العطف من البداية علي انجلترا ، ولكنه من ناحية أخرى كان حريصاً علي موقف الحياد الرسمي.أما الفريق الثاني فكان يري أن الحكومة الألمانية فعلت ذلك عمداً وأنها لم تكترث أن يؤدي الأمر إلي حرب مع الولايات المتحدة ، إذ كانت تأمل أن تتمكن من سحق أعدائها قبل أن تجئ الولايات المتحدة بكل قواتها لمساعدتهم[٢].

وكانت السياسة الألمانية فى عام ١٩١٥ هى"حرب الغواصات بدون قيود " ، أى الضرب فوراً بمجرد رؤية السفن التجارية المعادية والمحايدة وبدون إنذار ، وكان هذا ضد القانون الدولى ، وقد عارضت أمريكا المحايدة فى ذلك بشدة حتى حدد الألمان حملات غواصاتهم.وبالرغم من ذلك استمر إغراق كميات ضخمة من سفن الحلفاء فى بحر الشمال وفى البحر المتوسط[٣] .

وفى الواقع أن الحكومة الأمريكية احتجت على الطريقة الإستبدادية التى اتبعتها دول الحلفاء في الحرب البحرية.وأرسلت مذكرة احتجاج للحكومة البريطانية في ٣٠مارس عام ١٩١٥ في لهجة شديدة مؤكدة أن ما يطلق عليه اسم حصار(انجليزي هو انكار تام لحقوق سيادة الأمم التى تعيش في ظل السلام)وانتهت هذه المذكرة إلي أن تحبيذ مسلك انجلترا ازاء

(١) .Daniel Allen Butler, Op.Cit,P.128

(٢) محمد أنيس ، السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ١٧٠.

(٣) مونتجمرى : مصدر سابق ، ص ٦٨٨.

أعدائها الحاليين يعتبر اتخاذ خطة مخالفة للحياد غير مطابق للواجبات التى يتحتم على حكومة الولايات المتحدة مراعاتها فى هذه الأوقات.فهذا التصريح واضح،ثم أصدرت الولايات المتحدة مذكرة أخري فى ٥ نوفمبرعام ١٩١٥ مؤكدة مرة أخري أن مايسمى بالحصار المضروب نطاقه منذ ١١مارس من هذا العام ينبغي وصفه بأنه غير قانونى ، وغير مجد ، إلا أن انجلترا رفضت قبول هذين الاحتجاجين جهاراً فلم يكن من حكومة الولايات المتحدة إلا أن خضعت وأصبحت مجندة لأعمال انجلترا.وبمقتضي ذلك تكون قد اتخذت تجاه ألمانيا خطة مناقضة للحياد[١].

وفي مايو عام ١٩١٥ نسفت الغواصات الألمانية عابرة المحيطات الإنجليزية لوزيتانيا.وقد صرح ويلسون قائلاً بعد ضرب لوزيتانيا " إن حكومة الولايات المتحدة تهدف إلى شيئ أكثر من مجرد حق الملكية أو امتيازات التجارة ، فهى تهدف إلى شيئ أكبرومقدس أكثر وهو حقوق الإنسان ... إن حقوق المحايدين فى وقت الحرب تعتمد على المبادئ ، وليس المنافع ، والمبادئ غير قابلة للتغيير".وبهذه الكلمات تجاوز ويلسون وإلى الأبد عن "الحياد النزيه" والذي كان قد دعا إليه بريان وزير الخارجية مما دفعه إلي الإستقالة.ودخلت الولايات المتحدة الحرب بعد عودة ألمانيا إلى حرب الغواصات بلا قيود[٢] .

كرر بريان خلال المدة ما بين ٧ مايو و ٨ يونية عام ١٩١٥نظريته "الإهمال المقصود" لافتاً انتباه ويلسون إلى حقيقة أن لوزيتانيا كانت تحمل ذخائر حربية.وألح في أن تمنع سفن الركاب من حمل مثل هذه الشحنات وأن يحذر المواطنون الأمريكيون من ركوب سفن المحاربين،كما ألح في أن يرسل لبريطانيا مذكرة حازمة بهذا الشأن على غرار ما أرسل لألمانيا حتى تكون النظرة للفريقين متعادلة...وأن تستخدم سياسة التأنى والتحري.أما لانسنج الذي أصبح وزيراً للخارجية بدلاً من بريان فكتب إلى ويلسون قائلاً: "الغالبية العظمى من الشعب لا تريد الحرب ولكنها في الوقت نفسه تريد من الحكومة ألا تتراجع خطوة عن موقفها حتى تجبر ألمانيا

---

(١) اريخ لودندورف : مصدر سابق ، ص ١٧ ، ١٨.

(٢) Joan Hoff, Op.Cit., P.46.

علي الإذعان لطلباتنا...إن التشبث بتبني الإتجاهين أمر يقرب من الاستحالة"[١].

وبعد تدمير لوزيتانيا كان الغضب الأمريكي عظيماً مما جعل حكومة ألمانيا الإستبدادية تخشي من حدوث تمزق في العلاقات الدبلوماسية أو وقوع حرب بين البلدين وعلى الرغم من أن ويلسون كان يفضل الطرق الدبلوماسية لحل الأزمة ، إلا أن الكونجرس أو الشعب الأمريكي أو كلاهما لم يكن مجبراً على ذلك.ونتيجة لما سبق احتجت الحكومة الأمريكية بشدة وطلبت في لهجة قاسية من الحكومة الألمانية اتخاذ الخطوات الفورية اللازمة لمنع تكرار ذلك ، كما طالبت الحكومة الأمريكية الحكومة الألمانية بضرورة دفع التعويضات المناسبة عن الأضرار التي لحقت بالمواطنين الأمريكيين وممتلكاتهم ، وهددت الولايات المتحدة ألمانيا بأنها إذا لم توقف مثل هذه التصرفات فإن الولايات المتحدة ستعلن الحرب علي ألمانيا[٢].

وبعد هذه الحادثة استمر الرئيس ويلسون علي "حياده" ، وأعلن روبرت لانسنج للحكومة الألمانية :" أن الولايات المتحدة تعتبر تكرار ما حدث عملاً غير ودي".أما البلاد فقد غشيتها موجة من الفزع والغضب،كما اعتبر الرئيس الأمريكي السابق تيودور روزفلت أن هذا الحادث" قرصنة يجب أن يقضي عليها "[٣].

وما كاد الجمهور ينسي موضوع لوزيتانيا حتي قام الألمان بإغراق سفينة الركاب البريطانية آرابك في ١٩ أغسطس سنة ١٩١٥ وترتب على الحادثة موت أمريكيين.وأصبحت العلاقات الألمانية الأمريكية قاب قوسين أو أدنى من القطيعة.وقد أخبر لانسنج السفير الألماني الكونت برنستورف بأن وقت مناقشة المسألة قد ولى.وأنه ما لم تعلن ألمانيا صراحة أنه لن تكون هناك هجمات مباغتة على سفن الركاب،وأن تتمسك بهذا الإعلان،فإن الولايات المتحدة ستعلن الحرب على وجه التحقيق".فصدر في اكتوبر ١٩١٥ تصريح ألماني بالتنصل مما حدث،وأن ألمانيا على استعداد لدفع التعويضات وعبرت عن أسفها بشأن الأمريكيين اللذين قد فقدا روحيهما

---

(١) إدوارد هنري بيوريج:مرجع سابق،ص ٥٩، ٦٠.

(٢) - DANIEL ALLEN BUTLER, Op.Cit,P.128.; AMANDA M. MANCINI, Op.Cit, P.141.

(٣) - محمد محمود السروجي : مرجع سابق ، ص ١١٩.

على السفينة آرابك[١].

وفي يناير ١٩١٦ قدم لانسنج اقتراحاً موجهاً إلى حكومات الحلفاء يقضي بحق استعمال الغواصات في مهاجمة السفن التجارية.والذي رأي السير إدوارد جراي وزير الخارجية البريطانية أن هذا الإقتراح في جملته "لصالح الألمان نظرياً وعملياً،وأنه ضد الحلفاء تماماً". وأضاف السفير الأمريكي في لندن بيج أن جراي "تكلم كما يتكلم المرء عن كارثة كبري ... وأن دهشته ويأسه بالغان".وعلق لانسنج أن جراي أصيب بخيبة أمل لأننا "أخفقنا في أن نكون الأداة لحماية التجارة البريطانية من هجوم ألمانيا".ومن ثم فإن رفض الحلفاء لإقتراح لانسنج كان نذيراً بالتراجع ؛ لأنه بالإضافة إلى التردد المعتاد بشأن الدخول في صدام مع بريطانيا ، خشي الكولونيل هاوس من انتكاس محادثاته مع جراي فيما يختص بوساطة أمريكا وإمكان التدخل[٢].

وفي مارس عام ١٩١٦ أغرقت السفينة الأمريكية ساسكس وفقد ٨٠ شخصاً، أربعة منهم كانوا من الأمريكيين ... وهنا أرسل الرئيس ويلسون مذكرة احتجاج شديدة اللهجة إلى برلين ، محذراً فيها القيصر وحكومته أنه " إذا لم تعلن الحكومة " الألمانية" الإستبدادية الآن وفوراً عن نيتها للتخلى عن أساليبها الحالية فى حرب الغواصات ضد سفن الركاب وسفن الشحن ، فإن حكومة الولايات المتحدة ليس لديها سوى خيار قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين "[٣] .

وفي مايو عام ١٩١٦ خرج الأسطول الألماني من موانيه لمقاتلة الأسطول الإنجليزي علي أمل رفع الحصار واشتبك الأسطولان في معركة بحرية مهمة وهي معركة جاتلاند **Jutland** في ٣١ مايو عام ١٩١٦ تكبد فيها الأسطول البريطاني خسائر ضعف ما تكبده الأسطول الألماني في

---

(١) - إدوارد هنري بيوريج:مرجع سابق،ص ٦٠، ٦١.

(٢) - نفسه،ص ٧١-٧٥.

(٣) Daniel Allen Butler, Op.Cit,Pp.26,27,131.

الرجال والسفن الحربية[1].وكان النصر حليف الأسطول الألماني ، إلا أن المعركة أقنعت ألمانيا بعدم خروج الأسطول الألماني مرة أخرى لمنازلة خصمه.وهنا رأي ويلسون ضرورة إنهاء الصراع لتظل بلاده محايدة ولكن كلا الطرفين كانا غير مستعد لقبول اقتراحه وهو النصر مع السلام[2].

ويؤكد حجم الخسائر البريطانية ما ذكره الأدميرال آرثر بلفور Arthur Balfour قائلاً: " بعد ظهر الأربعاء الموافق ٣١ مايو، وقع اشتباك بحري قبالة سواحل جاتلاند .وكانت السفن البريطانية قد سقطت الواحدة تلو الأخرى ، حيث وقع عليها العبء الأكبر من القتال ، فى معركة الأسطول الحربي وبعض السفن الحربية والطرادات الخفيفة والتى تدعمها أربعة من البوارج السريعة.ومن بين الخسائر الفادحة السفينة الحربية ماري كوين ،وسفن الدفاع التى لا تقهر، وغرق البلاك برنس ولم تغرق أى من البوارج البريطانية.بينما كانت خسائر العدو كبيرة. فعلى الأقل تم تدمير واحدة من سفن المعركة ، كما أفادت التقارير بغرق سفينة واحدة بواسطة المدمرات البريطانية أثناء العمل ليلاً،وتعطيل اثنين من الطرادات الخفيفة وربما تم اغراقها."كما أوضحت التقارير أيضاً التوصيات بشأن ترقية الضباط بعد جاتلاند نتيجة لمجهوداتهم في المعركة، كذلك البرقيات الرسمية المتبادلة والخاصة بالمعركة وكيفية التعامل مع العدو[3].

لقد عقد الحلفاء مؤتمراً بحرياً في وزارة البحرية الإنجليزية عام ١٩١٧ حضره كبار رجال البحرية الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ورجال الحربية ... من أجل اتخاذ الوسائل الناجحة

---

(١) عانى البريطانيون من خسائر كبيرة تفوق الخسائر الألمانية فى السفن والرجال ، فقد فقدوا ثلاث سفن حربية وثلاثة زوارق وثمان مدمرات و ٦٢٧٤ ضابطاً وجندياً. بينما خسر الألمان سفينة واحدة وزورق واحد وأربعة زوارق خفيفة وخمس مدمرات و ٢٥٤٥ ضابطاً وجندياً.انظر: أكرم عبد الوهاب: مرجع سابق ، ص ٩٤.

(٢) عبد العظيم رمضان : تاريخ أوربا والعالم الحديث من ظهور البرجوازية الأوربية إلى الحرب الباردة ، ج٢ من تسوية مؤتمر فيينا ١٨١٥إلى تسوية مؤتمر فرساى ١٩١٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٦، ص ٢٢٠ ، ٢٢١.

(٣) Daniel Allen Butler, Op.Cit,P.189.;*Officers recommended for promotion after Jutland,* Foreign Office, ADM 1|8461|154|15 July 1916 ; Official Dispatches for the battle .of Jutland, Foreign Office, CAB 16|37|4|1920

لحماية سفنهم التجارية من جهة ، والمحافظة على مواصلاتهم البحرية التى ترسل منها المؤن والذخائر إلى الجيوش التى تقاتل بعيدة عن البلاد الأوربية من جهة أخري.كما عرض المستر لويد جورج اقتراحات الحكومة الإنجليزية التى تؤدي إلى توثيق عري التآزر وزيادة الوحدة بين الحلفاء في القيام بعمل ناجح في البحر الأبيض المتوسط.كذلك مجابهة التهديد الخطير الذي أذاعه الألمان في كل البلاد بأنهم سيسيرون في حرب الغواصات بكل مافي استطاعتهم من شدة ووحشية. كما أن البحرية الإنجليزية مع وفرة عدد سفنها وكثرة وحداتها كبيرة وصغيرة لا تستطيع أن تقوم بمفردها برقابة كل البحار.فضلاً عن أن الجمع بين قوات فرنسا وانجلترا وايطاليا البحرية وتوزيعها بكيفية منظمة على المراكز والجهات لابد أن يكون مندوبو هذه الدول قد اتفقوا عليها سوف يؤدي إلى نتيجة أحسن من نتيجة انفراد كل بحرية من بحريات هذه الدول بالعمل الذي تراه نافعاً[١].

وفى ٣١ يناير عام ١٩١٧ أقدم الألمان على خطوة نهائية وحاسمة حين أعلنوا أن غواصاتهم ستتعقب جميع السفن التى تبصرها فى شرق المحيط الأطلسي ، دون النظر إلى العلم الذى ترفعه تلك السفن ، وسواء كانت الدول التابعة لها حيادية أو مشتركة فى الحرب ضد ألمانيا[٢].

كما ورد تلغراف من ايمويدين بأن غواصة ألمانية أغرقت إحدي بواخر الإعانة البلجيكية.وقد نقل أربعة وعشرون رجلاً من بحارة هذه الباخرة إلى ايمويدين بينهم ثمانية مصابون بجراح.وبإغراق الباخرة فيجيلنتيا في مارس عام ١٩١٧م،أعلن الرئيس ويلسون ضرورة الدخول في الحرب إلي جانب الحلفاء والتحول من سياسة الحياد إلي الحرب[٣].

وفي ٢٦ فبراير اقترح الرئيس ويلسون على الكونجرس تسليح البواخر التجارية الأمريكية أى تجهيزها بمدافع بغية الدفاع عن نفسها إذا مست الحاجة ضد هجوم الغواصات.غير أن

---

(١) « الحرب اليوم. حول الأخبار التلغرافية » ، فى : وادي النيل ، ٢٧ يناير ١٩١٧.

(٢) عمر الديراوى : الحرب العالمية الأولى .عرض مصور ، الطبعة السادسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ابريل ١٩٧٩، ص ٣٧٥.

(٣) فظائع الغواصات الألمانية اغراق بواخر الإعانة ، لندن فى ٥ ابريل لمراسل الأهرام الخصوصى . تلغرافات خصوصية ، في : الأهرام ، السنة الثانية والأربعون ، العدد ١٢٠٥٠، السبت ٧ابريل ١٩١٧.

هذا التدبير لاقي بعض المقاومة من قبل مجلس الشيوخ الأمريكي إلى أن انتهى الأمر وأعلنه الرئيس في ١٢ مارس ١٩١٧ بسلطته الخاصة لا بقانون.ويعتبر هذا العمل مقدمة للتدخل لأن العمل العدائي يمكن أن يحدث في كل وقت بين باخرة أمريكية وغواصة ألمانية[١].

من الملاحظ أن الاحتكاك الذي جري بين الولايات المتحدة وألمانيا خلال الفترة بين سنة ١٩١٥ و ١٩١٧،لم يكن حول خسائر الأنفس على السفن الأمريكية،بل كان خاصاً بخسائر الأنفس على سفن الحلفاء، فلقد بلغ مجموع السفن المحاربة التى هاجمها الألمان حتى فبراير ١٩١٧ عشر سفن محاربة (ثمان بريطانية واثنتان إيطاليتان)،وقد وقعت فيها خسائر في الأرواح الأمريكية،وبلغ مجموع الخسائر في الأرواح لدى الأمريكيين إجمالاً ١٧٦ منها ١٢٨ فقدت في لوزيتانيا وحدها[٢].مما يؤكد وقوف الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء منذ بداية الحرب حتى في مسألة حرب الغواصات.

٤- الناحية الأيدلوجية:

كانت هناك نداءات قوية في الولايات المتحدة تدعو إلي الدخول في الحرب إلي جانب الديمقراطيات ، ويقصد بذلك فرنسا وبريطانيا ، علي اعتبار أن ألمانيا والنمسا كانت من الدول الدكتاتورية الأوتوقراطية التي لم يعد نظامها ملائماً في العصر الحديث ، وأن من واجب الشعب الأمريكي أن ينقذ شعوب ألمانيا والنمسا من دكتاتورية حكامها ومنحها الفرصة لتحكم نفسها بنفسها بأسلوب ديمقراطي ولكن كان هناك نقد شديد موجه إلي هذه النظرية يتركز في أن الدخول في الحرب إلي جانب انجلترا وفرنسا يعني كذلك الدخول إلي جانب حليفتهما روسيا القيصرية الأوتوقراطية الدكتاتورية الرجعية ، ولا يشرف الولايات المتحدة أن تدافع عن مثل هذه القيصرية[٣].

لم تكن الحرب العالمية الأولى بالنسبة للأمريكيين قضية واحدة أو بسيطة ، ويعكس

---

(١) بيير رونوفن: مرجع سابق ، ص ٧١.

(٢) إدوارد هنري بيوريج:مرجع سابق،ص ٤١.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار ، محمود محمد جمال الدين : مرجع سابق ، ص ١٥٨.

موقفهم منها على الأقل ثلاثة اعتبارات رئيسية:أولاً:درجة التعاطف التى شعروا بها تجاه جانب أو آخر فى الصراع الأوربي ؛ ثانياً: ظاهرة الحرب نفسها ؛ ثالثاً: وجهات نظرهم حول الدور المناسب للولايات المتحدة فى الشئون العالمية،فالغالبية العظمى من الأمريكيين كانت تتعاطف مع قضية الحلفاء منذ البداية،ولم يكن ذلك بناء على تفضيل أيديولوجية معينة ، وإنما اعتمد على الروابط الثقافية والعاطفية.وقد أشار أحد الصحفيين فى ٢ أغسطس عام ١٩١٤ إلى ذلك بصراحة قائلاً " بدون أن أعرف لماذا يجب أن أكون فى جانب روسيا وفرنسا وانجلترا ضد النمسا وألمانيا وايطاليا".بالطبع كان الأمريكيون متعاطفين مع الحلفاء ، وبرر ذلك التعاطف على أساس أن القوى الغربية كانت تمثل الديمقراطيات ضد الإمبراطوريات المستبدة[١] .

وكان الحلفاء يزيدون في اضعاف الروح الأدبية،فلم يقتصروا على الحصار البحري بل لجأوا إلى ما كانوا يسمونه "ترويج الدعوة لدى العدو"،فأمطروا اعداءهم نشرات كان الغرض منها تسميم الخصم أدبياً ودعوته إلى الثورة ضد القائمين بالحكم.وقد سبق أن قال بسمارك :"إن انجلترا لا تتردد في حالة الحرب في تحريك عوامل الثورة في بلاد أعدائها".ولقد أسرعت انجلترا وحلفاؤها منذ بداية الحرب إلى مصارعة خصومهم أدبياً كما صارعوهم مادياً،فكانوا يمطرونهم وابلاً من النشرات التى يشيرون فيها تارة إلى استبداد العسكرية البروسية،وطوراً إلى انعدام الروح الديموقراطية في ألمانيا واستبداد القيصر وحاشيته،وكانوا يرددون عبارات اليأس من الوصول إلي نصر نهائي ،ويشيرون إلى رغبة الحلفاء في صلح عادل مبنى على التفاهم واحترام حقوق الشعوب ، خلافاً لحكام ألمانيا الذين يعرقلون مساعى السلم ، حباً في استعباد الشعوب وسيادة العالم[٢].

---

(١) J.A. Thompson , « *American Progressive Publicists and the first World war 1914-1917*», in: *The Journal of American History*,vol.58,No.2,Sep.,1971, P.367.

(٢) محمد قاسم ، حسين حسنى:تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا منذ عهد الثورة الفرنسية حتى نهاية الحرب العظمى ، دار الكتب ،القاهرة،١٩٣١،ص ٢٨٠، ٢٨١.

أما بالنسبة لمسألة الدور المناسب للولايات المتحدة فى الشئون العالمية،فقد انقسم التقدميون،مثل الأمريكيين ككل،بين هؤلاء الذين يفضلون سياسة العزلة التقليدية،وبين هؤلاء الذين سعوا إلى مزيد من المشاركة.وبرغم هذا الإختلاف فقد اشتركوا في التزام قوي بالنسبة لفكرة أن السياسة الأمريكية يجب أن يتم صياغتها طبقاً للمعايير الأخلاقية بدلاً من صياغتها على أساس الأمن القوى ومفاهيم الشرف والهيبة الوطنية التقليدية.وقد حصل ويلسون على دعم معظم التقدميين النشطاء فى عام ١٩١٦،وشاركوا فى الدعاية لحملته الإنتخابية وكانوا على صلة وثيقة بالإدارة.كما كانوا على استعداد لدعم حكم الرئيس ودعمه لتحقيق أهدافه،بل وقبول فكرة قيادة الولايات المتحدة للصراع والتى دعا إليها فى رسالته للكونجرس للتوصل إلى " سلام بلا نصر "(١).

كانت الحرب بالنسبة لألمانيا فرصة – منحها الله – من أجل تصفية الحسابات مع فرنسا،وتأمين الهيمنة الألمانية الإقتصادية والسياسية والعسكرية فى القارة على مدي أجيال. وبالنسبة لفرنسا كانت فرصة للوفاء بالحلم الوطني للإنتقام من الفعل الألمانى المهين وإخضاع المناطق المفقودة من الإلزاس واللورين.أما روسيا فكانت فرصة لإستعادة المكانة الدولية التى فقدتها فى الحرب اليابانية الروسية عام ١٩٠٥ وترسيخ دورها كحامية لكل الشعوب السلافية فى أوربا.وكانت الشيخوخة قد أصابت امبراطوية النمسا والمجر والتى كانت فى مواجهة صربيا التى صعدت الصراع فى جميع أنحاء القارة ، والذي كان مصراً علي سحق التطلعات القومية لدول البلقان الصغيرة مرة واحدة وإلى الأبد وإعادة تأكيد مكانتها كقوة عظمى(٢).

ولكن حدث تطور علي جانب كبير من الأهمية غير مجري الأحداث ، ألا وهو اندلاع

---

(١) J.A.Thompson,Op.Cit.,Pp.373, 380.

(٢) *Daniel Allen Butler*, Op.Cit.,P.8.

الثورة الروسية[١] في مارس عام ١٩١٧، مما أدي إلي ضعف الجبهة الروسية وخروج روسيا السوفيتية من الحرب وبذلك ازدادت جبهة دول الحلفاء ضعفاً، مما أدي بالولايات المتحدة إلي التفكير الجاد في الدخول في الحرب إلي جانب دول الحلفاء بعد أن شعرت بتهاوي الجبهة الروسية السوفيتية من جهة ، وصمود بريطانيا كدولة وحيدة في ميدان الحرب أمام الثقل العسكري الألماني من جهة ثانية.كما أن الرأي العام الأمريكي كان متعاطفاً كثيراً علي ما آلت إليه فرنسا التي مازالت مساعدتها للولايات المتحدة في حروب استقلالها ماثلة في أذهان الأمريكيين[٢].

لقد نادى الرئيس الأمريكى بالتعاون مع روسيا حتى بعد سقوط القيصرية ، فحاول ويلسون التعاون مع حكومة كيرنسكى ولكن هذه الحكومة لم يقدر لها البقاء طويلاً.فجاء لينين وتروتسكى ، وحاولا فصل كل علاقة تربط روسيا بالحرب الرأسمالية.ثم اصطلحا مع الألمان فزالت بذلك الجبهة الشرقية ، وبدا للقيصرية الألمانية أن تركز قواتها فى الجبهة الغربية. وظن الكثيرون أن القيادة الألمانية ستقدم عَلَى توجيه ضربة حاسمة إلى الحلفاء قبل أن تصل جيوش الولايات المتحدة إلى ميدان الحرب[٣].

انه من الصعب أن نرى كيف كانت فرنسا وبريطانيا تستطيعان الوقوف فى مواجهة القوات المشتركة عند هجومها على الجبهة الغربية بدون قوات روسيا التى جذبت إلى الشرق ثقل الهجوم الألمانى وقدمت أضخم التضحيات حتى وصلت المعونة الأمريكية.ولقد كادت

---

(١) قامت في عام ١٩٠٥م ثورة تهدف إلي القضاء علي الحكم القيصري الفاسد واستبداده بالشعب حيث نادت طبقة مستنيرة من الأشراف الأحرار والإشتراكيين الماركسيين بضرورة انهيار النظام القديم وإنشاء روسيا جديدة على أساس الحكم الإشتراكى.ولم تكن الحكومة الروسية علي وفاق مع الدوق • البرلمان الروسي؛منذ إنشائه عام ١٩٠٦م ، واستمرت الأزمات بين الحكومة والدوما منذ عام ١٩٠٦م وحتي عام ١٩١٤م حتي اندلعت الثورة في مارس ١٩١٧م ، والتي كان من نتائجها انفجار بركان السخط على الحكم القيصري وتمرد الجيش وخروج روسيا من الحرب وعقد هدنة في ديسمبر ١٩١٧.انظر: محمد عبد الرحيم مصطفي ، كامل جرجس:أوربا المعاصرة (من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩٣٦)؛المطبعة الأميرية ،القاهرة؛١٩٥٣.ص ٢٢٩ ، ٢٣٠.

(٢) عبد الفتاح حسن أبوعلية : مرجع سابق ، ص ١٦٧ ، ١٦٨.

(٣) محمد محمود السروجى : مرجع سابق ، ص ١٢٢.

فرنسا فى عام ١٩١٧ أن تخرج من الحرب.فماذا كان يمكن أن يكون الموقف اذا لم تستوعب الجبهة الشرقية وتستنزف هذا القدر الضخم من الموارد الألمانية والنمساوية؟ ترى كم من الغربيين يتذكرون ما فعلته روسيا من أجلهم فى الحرب العالمية الأولى[١].وهكذا خفف خروج روسيا من الحرب عبئاً ثقيلاً عن كاهل ألمانيا ، مما أتاح فرصة توجيه ضرباتها القوية إلي الميدان الأوربي الغربي ، وأخذت ألمانيا تعد العدة للقضاء علي أعدائها قبل وصول القوات الأمريكية.

جدير بالذكر أنه كان يقوم بمهمة إقناع الشعوب بالتحول من الحياد إلي الحرب باسم الديمقراطية رجال سياسة علي درجة كبيرة من الذكاء والمقدرة علي توجيه الشعوب نحو الهدف الذي يريدونه من أمثال روبرت لانسنج المحامي القدير والذي أشار في مذكراته إلي أنه " كان ينتظر الفرصة التي يمكن أن يستغلها كي يوجه الشعب الأمريكي نحو قتال الاستبداد الألماني ، بإقناع الشعب بأن الدكتاتورية الألمانية تهدد حرياته ، كما تهدد كافة المؤسسات الديمقراطية في أي جزء من أجزاء هذا العالم"[٢].وبذلك كان للمبادئ الديقراطية التى نادت بها الولايات المتحدة على مدار تاريخها من أجل نفعها الخاص أثرها في دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء.

٥- الناحية الدولية :

تتعلق النواحى الدولية التي أثرت في توجيه الولايات المتحدة نحو الحرب بالمشكلات التالية :

١- العلاقات بين الولايات المتحدة وجمهورية المكسيك المجاورة لها .

٢- المشكلة اليابانية وهي مرتبطة بالتوازن الدولي في الشرق الأقصى.

٣-التوازن الدولي العالمي علي ضوء تطورات الحرب في قلب القارة الأوربية.

المشكلة المكسيكية :

كان الدافع وراء دخول الولايات المتحدة الحرب قضية برقية زيمرمان ، ويتلخص هذا

---

(١) فيلمنج : الحرب الباردة وأصولها ١٩١٧ -١٩٦٠ ، ج١ ١٩١٧- ١٩٤٥ ، إدارة المطبوعات والنشر للقوات المسلحة ، القاهرة ، ١٩٦٤، ص ١١ ، ١٢.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار ، محمود محمد جمال الدين : مرجع سابق ، ص ١٥٩.

الحادث في أن زيمرمان Zimmer Mann مساعد وزير الخارجية الألمانية ، أرسل إلي ممثل ألمانيا في المكسيك برقية يقترح فيها علي الحكومة المكسيكية الدخول في حلف مع ألمانيا في حالة دخول الأخيرة الحرب ضد الولايات المتحدة في مقابل استرجاع المكسيك للأراضي التي استولت عليها الولايات المتحدة في عام ١٨٤٨ ، وهي تكساس ونيو مكسيكو وأريزونا ...[١].

وقد صرح زيمرمان فى برقيتة قائلاً :" إنه فى أول فبراير نعتزم بدء حرب الغواصات.وعلى الرغم من ذلك ننوي الحفاظ على حياد الولايات المتحدة.وإذا لم تنجح هذه المحاولة ، فإننا نقترح تحالفاً قائماً على الأسس التالية مع المكسيك: "سوف نخوض الحرب معاً ونصنع السلام معاً.ويجب علينا تقديم الدعم المالى السخى ، ويفهم من ذلك استرجاع المكسيك للأراضى التى فقدتها وهى نيومكسيكو،وتكساس،وأريزونا،والتفاصيل متروكة لكم لعمل تسوية... عليكم ابلاغ رئيس المكسيك بما سبق فى أعظم ثقة فى أقرب وقت، فمن المؤكد أنه سيكون هناك اندلاع للحرب مع الولايات المتحدة ، واقترح أنه يجب على الرئيس المكسيكى المحافظة على موقعه،والمبادرة بالإتصال باليابان مما يدل على الإلتزام بهذه الخطة فى آن واحد،وعرض التوسط بين اليابان وألمانيا.ويرجى الإتصال وتنبيه الرئيس المكسيكى إلى أن توظيف حرب الغواصات سوف يرغم بريطانيا على صنع السلام فى أشهر قليلة""[٢].

وقد تمكنت المخابرات البريطانية من الإستيلاء علي تلك البرقية ، وأن تعرف مضمونها وتبلغها إلي الولايات المتحدة التي بدورها أعلنتها علي الرأي العام الأمريكي الذي أثاره هذا العمل أيما إثارة ، وكان له أبلغ الأثر في الاتجاه ناحية الحرب[٣] .

كانت برقية زيمرمان شيئاً مختلفاً جداً.فقد كانت تهديداً صريحاً ومباشراً للشعب الأمريكى

---

(١) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٢٦٢.

(٢) *The Ambassador in Great Britain(Page)to the Secretary of State,* Telegram,London, February24,1917,in: U.S. Department of State, Papers relating to the Foreign Relations of the United States, 1917, supplement 1.,Part 11: Neutral Rights, the World War U.S. Government printing Office, 1917, P.147; Daniel Allen Butler, Op.Cit, P.200.

(٣) عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق ، ص ٢٦٢.

وسلامة الولايات المتحدة الإقليمية.فعندما أذاعت جريدة النيويورك تايمز قصة برقية زيمرمان فى أول مارس عام ١٩١٧،أثارت ضجة كبيرة على الصعيد الوطنى،والرضا،وحتى اللامبالاة،وشعر معظم الأمريكيين بأن الحرب العظمى ستنتهى فى لحظة.ولأول مرة منذ بداية الحرب ، تهدد واحدة من القوى المتحاربة الولايات المتحدة بشكل صريح ومباشر.فالحرب العظمى لم تعد مجرد مشكلة فى أوربا،أو كما وصفها أوماها ورلد هيرالد Omaha World Herald " قضية التحولات من ألمانيا ضد بريطانيا العظمى إلى ألمانيا ضد الولايات المتحدة"[١].

وقد رأي بعض النقاد الأمريكيين أن شعور الولايات المتحدة بالخطر هو الذي دفعها إلي دخول الحرب ، ويقولون " إن الولايات المتحدة تكره قيام حرب بينها وبين المكسيك مع أنها واثقة من النصر في تلك الحرب ، كما أنها لا يسعها أن تسمح بإغراق سفنها والمواطنين الأمريكيين البحارة ، ولو لم تعلن الحرب لكان ذلك طعنة لعزتها القومية وانتقاصاً علنياً من كرامتها"،وهذا أيضاً تعليل سخيف فحين أغرقت غواصة ألمانية سفينة لوزيتانيا البريطانية بركابها الأمريكيين ، لم تفعل حكومة الولايات المتحدة أكثر من ضرب أحد موظفي مكتب الرئيس ويلسون ، وتقديم نسختين من احتجاج ، كتبا على الآلة الكاتبة،لقد سمعت قرقعة الآلة الكاتبة حينذاك ، لا قصف مدافع الأسطول[٢] . وبالتالى كان لظهور برقية زيمرمان أثرها في تخوف الولايات المتحدة على أمنها القومى بل ومصالحها في المكسيك فكان لابد وأن توقف ألمانيا عند حدها وتعلن الحرب ضدها.

المشكلة اليابانية :

كانت حكومة الولايات المتحدة تنظر بعين القلق إلي نمو اليابان في الشرق الأقصى ، ذلك النمو الذي ظهر في أعقاب ذلك التحالف الياباني مع بريطانيا.وعندما أصبحت بريطانيا منشغلة بقضيتها في حرب مصيرية في أوربا والشرق الأوسط أصبحت الفرصة سانحة أمام اليابانيين من وجهة نظر حكومة الولايات المتحدة لكي يحلوا محل الدول الأوربية الكبرى في

---

(١) - DANIEL ALLEN BUTLER, Op.Cit.,P.201.

(٢) عمر الديراوي : مرجع سابق ، ص ٣٧٩.

الشرق الأقصي سواء المعادية منها لبريطانيا أو الحليفة[١].

أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا واستولت علي شبه جزيرة " شانتونج " في الصين كما حاول اليابانيون أن يفرضوا علي الصين معاهدة في مطلع عام ١٩١٥ تجعلها مجرد تابع لليابان ، فما كان من ويلسون إلا أنه استعان بوساطة الحكومة البريطانية واضطر اليابان للتخلي عن فكرة هذه المعاهدة ، وعقدتا معاهدة لانسنج ايشي Lansing - Ishi في نوفمبر عام ١٩١٧، تلك المعاهدة التي حفظت لليابان اعترافاً أمريكياً بمصالحها في الصين بشكل يمكن أن يحول هذه المصالح إلي نوع من التسلط الياباني علي الصين.وبذلك اكتفي ويلسون بمنع اليابان من فرض حمايتها الفورية علي الصين حتي تنتهي الحرب العالمية الأولى[٢].

كان الأميرال الألمانى تربتز من جانب الرأى القائل إن الولايات المتحدة أخذت تقتنع "بالأخطار المتزايدة التى يشتمل عليها موقف اليابان العدائي"وإن هناك إدراكاً موجوداً من غير شك وغرضه أن يصيب اليابان بنكسة محددة بعد الحرب"وقال إن ذلك سيكون ممكناً فقط إذا ضمن أمن بريطانيا ضماناً أكيداً ضد أى خطر يتهددها من أوربا،أى إذا تم قهر ألمانيا""[٣].

لقد اعترفت حكومتا الولايات المتحدة واليابان ، بأن التشابه الإقليمى قد أوجد علاقات خاصة بين البلدين ، كما اعترفت الولايات المتحدة بأن اليابان لديها مصالح خاصة فى الصين وبصفة خاصة ذلك الجزء الذي يجاور ممتلكاتها.وعلى الرغم من أن السيادة الإقليمية للصين لم تكن ضعيفة ، إلا أن حكومة الولايات المتحدة كان لديها ثقة فى الوعد المتكرر من جانب حكومة اليابان الإستعمارية بأن الموقع الجغرافى يمنح اليابان هذه المصالح الخاصة ، وأنه ليس لديهم الرغبة فى التمييز ضد تجارة الدول الأخرى أو تجاهل الحقوق التجارية الممنوحة للصين

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار ، محمود محمد جمال الدين : مرجع سابق ، ص ١٦١.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار ، عبد المجيد نعنعي : مرجع سابق ، ص ١٧٤، ١٧٥.

(٣) إدوارد هنري بيوريج:مرجع سابق،ص ١٠٤.

فى المعاهدات مع القوى الأخرى(١).

كما أنكرت كل من حكومتى الولايات المتحدة واليابان أن لديهما أى أهداف لإنتهاك استقلال أو سلامة الصين الإقليمية بأى وسيلة، وأعلنتا من ناحية أخرى عن التزامهما بالمبدأ المعروف ب " الباب المفتوح " أو مبدأ تكافؤ الفرص للتجارة والصناعة فى الصين(٢).وهكذا حاولت الولايات المتحدة جذب اليابان إلى جانبها والإتفاق معها حتى لا تتوسع على حساب الصين حتى تنتهى الحرب.

التـوازن الدولـي :

كانت حكومة ويلسون معنية بوضع تصور لما سيكون عليه الموقف السياسي والعسكري والاقتصادي بعد أن تنتهي الحرب لصالح أي من الطرفين المتقاتلين.وكان هناك احتمال قوي بأن التفوق البري الألماني سيعطي دول الوسط القدرة علي التحكم في أوربا كلها، وبالتالي في معظم الاتجاهات الدولية، وبالتالي تفقد حكومة الولايات المتحدة مكانتها في مثل هذه الحالة التي تصبح فيها دولة أو دولتين فقط في أوربا هما المتعاملتان مع حكومة واشنطن(٣).

ولا شك أن انتصار ألمانيا في القارة الأوربية سوف يعقبه تخفيض شديد للمصالح التجارية الأمريكية والمكانة الدولية الأمريكية، بعكس انتصار الحلفاء الذين لا يرغبون في السيطرة المباشرة علي أوربا، ومن ثم كانت مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية تكمن في عدم إعطاء الفرصة لدولة معينة تسيطر علي أوربا وتوجهها(٤).

كان النصر في جانب الحلفاء يمثل نصراً أمريكياً، أما الهزيمة فتعني خسارة مهولة

---

(١) Department of State , Washington , November2,1917,the Lasing- Ishii agreement, November 2, 1917, in: Documents of American history, ed.by. Commager.H.S, Op.Cit, P.134.

(٢) Ibid , P.134.

(٣) عبد العزيز سليمان نوار، عبد المجيد نعنعي : مرجع سابق، ص ١٧٥، ١٧٦.

(٤) عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين : مرجع سابق، ص ١٦٢.

للولايات المتحدة ، وذلك للأسباب التالية :

١- إن ألمانيا لا يمكن لها أن تعامل حكومة الولايات المتحدة بعد الحرب معاملة الصديق ، وإنما ستعاملها كعدو لئيم تستر وراء بريطانيا وفرنسا للقضاء علي ألمانيا.

٢- إن انتصار ألمانيا البري ، بعد تلك المعركة البحرية في جاتلاند بين الأسطولين الألماني والبريطاني ، سيعطي للأسطول الألماني انطلاقة ضد المصالح الأمريكية البحرية ، وخاصة أن أسطول أمريكا كان لا يزال محدوداً جداً بالنسبة للأساطيل الأوربية حينذاك.

٣- ان قوي المعارضة لسياسة الدولار الأمريكي[١] في أمريكا اللاتينية ستجد الفرصة مواتية لربط نفسها مع ألمانيا لإرغام الولايات المتحدة علي تخفيف قبضتها الإقتصادية عن دول أمريكا اللاتينية[٢]. لكل هذه الأسباب وقفت الولايات المتحدة إلى جانب الحلفاء في الحرب منذ بدايتها لحماية مصالحها بالدرجة الأولى ، والقضاء على ألمانيا حتى لا تسيطر على القارة الأوربية ، لأنه إذا حدث ذلك فإنها ستسيطر على "أوراسيا" ، وعلى حد القول الشائع " من يسيطر على أوراسيا يسيطر على العالم.

٦- الناحية الدينية :

إن ويلسون كان حزيناً لإضطراره إلى " الرجوع للبربرية ، والتخلى عن الموقف الذى يسمح لنا بتمييز الحق من الباطل" ، كما قال فى خطبته أمام أعضاء الكونجرس فى ذلك اليوم . ويلاحظ النقاد أن الأمريكيين الذين كانوا يكرهون فعلاً الإنغماس فى الحرب فى أول الأمر ، قد انقلبوا متعصبين للحرب عندما انغمسوا فيها . وتفسير ذلك بسيط إنهم اعتبروها حملة صليبية ، لأنهم

---

(١) سياسة الدولار الأمريكي : انحرفت سياسة ويلسون الخارجية عن سياسة سلفه .. إذ أن تيودور روزفلت كان يستخدم ما عرف بسياسة « العصا الغليظة » في السياسة الخارجية ، في حين شجع تافت علي سياسة الدولار والتي من مقتضاها تشجيع التجارة الأمريكية الخارجية وتوظيف الأموال الأمريكية بالطرق الدبلوماسية . ومع أن هاتين السياستين قد عادتا علي الولايات المتحدة بمزيد من النفوذ في الشئون العالمية ، ولكن في مقابل إثارة عداء دول أمريكا اللاتينية وتعريض رفاهيتها للخطر نتيجة اقحامها في مغامرات دبلوماسية وتجارة عشوائية لم تكن للأمريكان فيها مصلحة حقيقية . انظر: رأفت غنيمي الشيخ : مرجع سابق ، ص١٠٥؛ آلان نيفنز ، هنري ستيل كوميجر: مرجع سابق ، ص ٤٧٣.

(٢) عبد العزيز سليمان نوار،محمود محمد جمال الدين:مرجع سابق، ص ١٥٥ ، ١٥٦.

كانوا مقتنعين أن الحق فى جانبهم ، ألا يؤيد ذلك أن الغواصات الألمانية هى المعتدية على أرواح بحارتهم وأموال تجارهم !وأن زيمرمان يود خلق المشاكل لهم على ترابهم نفسه"[١].

بدأ الانقسام حول أخلاقية الحرب وتداعياتها علي المدي البعيد ، وقد حصل إعلان الرئيس ويلسون بدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٧ علي تأييد شبه كامل من الجماعات الدينية ، ومما سهل تقبل الأمر، وصف ويلسون دخول الولايات المتحدة النزاع بأنه " لم يكن إلا لدعم حقوق الإنسان!وحتى من أيد ألمانيا مسبقاً في النزاع الأوربي تحول عن ذلك.ونظر للحرب علي أنها شر لابد منه ، وأنها الطريق الوحيد للسلام.وانشغلت المنظمات الدينية وزعماؤها بتأييد محموم لجهود الحرب مما جعلها تبدو كحملة صليبية.فقد دعا الرب الأمة لدخول المعركة لإحراز النصر النهائي "للحضارة المسيحية"ومجد المحاربين كأبطال الحق ضد أتباع الشيطان[٢].

وقامت المنظمات الدينية البروتستانتية والكاثوليكية واليهودية وكذا القساوسة بتلبية حاجات العسكريين وأسرهم.وكانت الحرب العالمية الأولى هي السابقة الأولى التى تقدم فيها خدمات غير دينية للعسكريين وأسرهم.فلم تهتم المنظمات الدينية بالنواحى الروحانية فقط ، وانما عملت في المجالات الدنيوية لتلبية الإحتياجات المتعددة التى فرضتها ظروف الحرب.فتشكلت " لجنة الأصدقاء الأمريكيين" في عام ١٩١٧ لتقديم العون والمشورة ودعم النشاط الإنسانى لنفع جميع المشتركين في الحرب.لقد أعفى قانون الخدمة الإختيارية لعام ١٩١٧ رجال الكنيسة وطلاب معاهد اللاهوت من الخدمات القتالية ، كما أعفي أيضاً أعضاء كنائس السلام التاريخية ، ومن المثير حقاً أنه على الرغم من منح آلاف من شهادات الإعفاء ، إلا أن من استخدمها لا يمثل إلا نسبة قليلة ، وغالبية من تم تجنيدهم ذهبوا إلى الحرب...وعملت الكنائس على ايجاد طرق جديدة

---

(١) عمر الديراوي : مرجع سابق ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨.

(٢) مايكل كوربت ، جوليا ميتشيل كوربت : الدين والسياسة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ترجمة : عصام فايز ، وآخرون ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ٢٠٠٦، ص ١٢٣ ، ١٢٤.

لتقديم العون والمشورة لمن يرفض حمل السلاح لإعتبارات أخلاقية أو دينية(١).

وهناك آراء تاريخية تؤكد بأن الضغط اليهودي الكبير علي الحكومة الأمريكية وعلي مجلس الكونجرس الأمريكي ، قد أدي إلي دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلي جانب الإنجليز الذين عملوا جاهدين في سبيل إعلان تصريح بلفور. كما تأثر الرأي العام الأمريكي بالدعاية الصهيونية ، والتأثير اليهودي علي المجتمع الأمريكي خاصة وأن المشكلة اليهودية كانت في بداية الطريق ، ومازال عدد كبير من الرأي العام الأمريكي والأوربي يعطف عليهم ، ولم تنكشف بعد حيلهم وجرائمهم!!(٢).

كما ذكرت جريدة الجويش كرونيكل Jewish Chronicle أسراراً خطيرة عن دور اليهود فى زج الولايات المتحدة فى الحرب حيث قالت " أثناء الأيام العصيبة التى مرت على الحلفاء عام ١٩١٦ وحين كان واضحاً انهزام روسيا حاولت عدة جهات من جانب الحلفاء زج أمريكا فى الحرب إلى جانبهم لترجيح الكفة ولكن جميع تلك المحاولات باءت بالفشل حينئذ ظهر فى الصورة المدعو جيمس مالكولم Malcolm وأخذ زمام المبادرة محاولاً اقناع ممثلى الحلفاء أن الوسيلة الوحيدة للتأثير على الرئيس الأمريكى وإقناعه بدخول الحرب هى تأمين معونة الصهيونية واليهودية العالمية وذلك بوعدهم أن يمنحوا فلسطين وبإصدار مثل هذا الوعد فإن الحلفاء يجندون إلى جانبهم قوي اليهود الرهيبة فى أمريكا والعالم بأسره وعليه فقد حصل السير مارك سايكس Mark Sykes على اذن من وزارة الحرب يخول بموجبه جيمس مالكولم الإتصال بالقوى الصهيونية على هذا الأساس.وقد نجح الوسيط وقامت اليهودية العالمية بدورها ودخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء.وصدر تصريح بلفور على أساس الصفقة التى تمت بين الإنجليز والصهيونية"(٣).

وأخيرا يمكن القول بأن الولايات المتحدة دخلت الحرب لتحفظ ثرواتها وتزداد ثراءً فيما

---

(١) نفسه ، ص ١٢٤.

(٢) عبد الفتاح حسن أبوعلية : مرجع سابق ، ص ١٦٨.

(٣) عبد القادر نهنوش : الحرب العالمية الأولى .البداية والنهاية ١٩١٤ ١٩١٨، القاهرة ، ١٩٨٨.ص ٧٨، ٧٩.

بعد، كما أن طبيعة نظامها الإقتصادي أجبرها على ذلك، وتتمثل تلك الطبيعة فى الإنتعاش المؤقت الذي يتجاوز الأزمة، والقروض التى توجب ضمان سدادها هى وأرباحها العالية النسبة. كما دخل الرئيس ويلسون الحرب لأن رؤوس الأموال الأمريكية الكبيرة التى كانت بريطانيا وفرنسا قد اقترضتاها من الرأسماليين الأمريكيين أضحت فى سنة ١٩١٧ مهددة بالخطر..إذ كانت كفة ألمانيا هى الراجحة. وفى انتصارها المحتمل تضيع رؤوس الأموال الأمريكية المقرضة. أضف إلى ذلك، أن الصناعة الأمريكية والتجارة الأمريكية ازدهرت في سنوات ١٩١٤، ١٩١٦، ١٩١٥، وكان ازدهارها نتيجة لطلبات الحلفاء من الأجهزة الحربية والمواد الإستراتيجية. فلو لم تعلن أمريكا الحرب وانتصر الألمان من جراء ذلك، لواجهت الرأسمالية الأمريكية أزمة خطيرة[1].

كانت الحاجة ماسة إلي سرعة وصول الولايات المتحدة ، فقد أخذت الحرب سنة ١٩١٧ اتجاهاً إلي ما هو أسوأ ، ففي شهر اكتوبر هزم الجيش الإيطالي هزيمة منكرة في كابـــوريـتـو واضطر الحلفاء إلي إرسال الإمدادات علي عجل لصد التقدم النمساوي ، وبعد شهر واحد انهار الروس بعد أن مزقتهم الثورة وطلبوا الصلح ، ودفع الألمان إلي الغرب بأربعين فرقة جديدة سحبت من الجبهتين الروسية والبلقانية[2]. وبالتالى كان على الولايات المتحدة أن ترسل بقواتها إلى ساحات القتال لتشارك في الحرب علنياً وصريحاً، بعد أن كانت مشاركة فيها بالفعل منذ بدايتها ولكن تحت ستار الحياد.

ويتضح مما سبق أن الحياد الأمريكى كان حيادا مزيفاً غير حقيقي، كان حياداً اسمياً فقط شابه منذ البداية تحيز واضح إلى جانب الحلفاء. فالولايات المتحدة لم تحترم قواعد الحياد القانونى التى تقضي بالتعامل مع الدول المتحاربة على قدم المساواة، فكل ما كان يهمها هو حماية المصالح الأمريكية بأي شكل، حتى وإن ادعت سياسة لا تعمل بها كسياسة الحياد.

***

(١) عمر الديراوى : مرجع سابق، ص ٣٦٥، ٣٨٠، ٣٨١ .

(٢) حسين شريف : مرجع سابق، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

المَوْقِفُ البَرِيطَاني مِن الثَّوْرَةِ اليَمَنِيَّة

١٩٦٢ ١٩٦٣م

د. سيد محمد عبد العال[1]

كان مطلب التخلص من نظام حكم الإمامة باليمن قد ترسخ لدى اليمنيين منذ أن جرت المحاولة الأولى في عام ١٩٤٨م، حيث جرت عدة محاولات بعد ذلك للتخلص من هذا النظام، ولكن جميع هذه المحاولات كانت قد فشلت. ومع ذلك ظل هذا المطلب قائما، إذ عملت مجموعات عديدة كان على رأسها قادة الجيش بزعامة عبد الله السلال للإطاحة بالإمام أحمد الذي تولى الحكم عام ١٩٤٨م[2]، ورغم وفاة الإمام أحمد في ١٨ سبتمبر ١٩٦٢م وتولي الإمام محمد البدر السلطة خلفًا لوالده[3]، فإن أمر الثورة على حكم الإمامة كان قد أصبح حتميا، حيث قامت الثورة في يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، وأعلن راديو صنعاء بيانا لقيادة الجيش اليمني عن سقوط حكم الإمامة وقيام الجمهورية اليمنية[4]، والتي كان الاتحاد السوفيتي أول دولة تعترف بها في ٢٨ سبتمبر، ثم أعقب ذلك اعتراف مصر بها في ٢٩ سبتمبر[5]، ومن بعد ذلك وجه محسن العيني وزير الخارجية في ٣٠ سبتمبر نداءً إلى دول العالم للاعتراف بالجمهورية اليمنية[6]. حيث كان مطلب الاعتراف البريطاني بها أهم ما تسعى إليه حكومة الثورة باليمن، وهو ما مثل نقطة الحوار السياسي بينها وبين الحكومة البريطانية منذ قيام الثورة وحتى أخذت

---

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعدكلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي

(٢) إدجار أوبلانس (ترجمة: عبد الخالق لاشين): اليمن الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص١١٩.

- عبد الرحيم عبد الله: مرجع سابق، ص ص١٨-١٩.

(٣) عيد مسعود الجهني: الحدود والعلاقات السعودية اليمنية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ص٢٨٦-٢٨٧.

(٤) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٢٢.

- عبد الرحيم عبد الله: مرجع سابق، ص١٦.

(٥) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٢٨.

(٦) ممدوح محمود منصور: الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، ص٢٩٣.

الحكومة البريطانية موقفها النهائي من الثورة اليمنية في مطلع عام ١٩٦٣م.

أولًا: مرجعية الموقف البريطاني من الثورة اليمنية.

كان الموقف البريطاني من ثورة اليمن مهما لحكومة الجمهورية اليمنية، نظرا للوجود البريطاني في الجنوب اليمني، حيث تجمعت الظروف الخاصة ببريطانيا لترسم الصورة التي سيكون عليها هذا الموقف، وقد كان على رأسها أهمية مستعمرة عدن بالنسبة لبريطانيا، والتي عبر عنها هارولد وانكسون Harold Wankeson وزير الدفاع البريطاني في مارس ١٩٦٢م حين قال: "إن القادة البريطانيين أجروا تغييرًا أساسيًا في سياسة الدفاع بحيث تعتمد القوات البريطانية على ثلاث قواعد في بريطانيا وفي عدن وفي سنغافورة"[١]، وكانت الأهمية بالنسبة لقاعدة عدن قد أخذت في التزايد على ضوء سلسلة التطورات التي لحقت بالوضع البريطاني بالشرق الأوسط بصفة خاصة، ففي عام ١٩٤٨م ترك البريطانيون فلسطين قاعدتهم الرئيسية في المنطقة، ثم أنهت حرب السويس عام ١٩٥٦م الاعتماد على قاعدة القناة، وفي عام ١٩٥٨م أنهت الثورة العراقية الوجود البريطاني بالعراق[٢]، لذلك كله زادت أهمية عدن وبُدئ في تطويرها كي تصبح مقرًا لقيادة القوات البريطانية في الشرق الأوسط، خاصة عندما أقنع الدعم العسكري الذي قدمته بريطانيا للكويت عام ١٩٦١م حين هددها العراق المسؤولين البريطانيين بالحاجة إلى الاحتفاظ بقاعدة عدن[٣]، ثم إن عدن كانت تمثل موقعًا استراتيجيًا مهمًا لضمان استمرارية تأمين تدفق البترول إلى بريطانيا والتي كانت أكبر مستهلك للطاقة في منطقة غرب أوربا[٤].

---

(١) فاروق عثمان أباظة: بريطانيا والحركة الوطنية في الشطر الجنوبي من اليمن ١٩٣٩ ١٩٦٧م، مطابع جريدة السفير، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٢٠٦.

(٢) أحمد يوسف أحمد: الدور المصري في اليمن، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٥٧.

- فاروق عثمان أباظة: ص ص٢٠٤ - ٢٠٥.

(٣) أحمد يوسف أحمد: مرجع سابق، ص١٥٧.

(٤) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢٠٣.

ومن جانب آخر، كان الوجود البريطاني في عدن والمحميات كمستعمرة بريطانية يفرض نفسه على موقف بريطانيا من الثورة اليمنية، إذ لم يكن نظام الإمامة في اليمن يمثل خطرًا على المصالح البريطانية في الجنوب اليمني، ولكن الوضع اختلف مع قيام الثورة، خاصة مع ما ظهر من ردود فعل شعبية تجاهها بالجنوب، والتي أظهرت حماسًا هائلا تجاه الثورة في الشمال[١]، وإذا ما وضع في الاعتبار أن بريطانيا في ذلك الوقت كانت قد عمدت إلى تنفيذ فكرة إنشاء اتحاد الجنوب العربي، وذلك بجمع عدن مع المشيخات الأخرى في الجنوب اليمني لحماية المصالح البريطانية هناك، حيث أُقر المشروع في يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، وهو نفس اليوم الذي قامت فيه الثورة اليمنية، فإن هذا يعني أن الثورة تمت في أسوأ توقيت ممكن بالنسبة للمصالح البريطانية في عدن، مما زاد من انعكاساتها الضارة على هذه المصالح[٢]. وقد عبرَّ هارولد ماكميلان Harold Macmillan رئيس الحكومة البريطانية عن ذلك في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد في ٩ أكتوبر ١٩٦٢م، حيث أكد على أن حكومة الثورة باليمن يمكن أن تعمل بنشاط ضد اندماج عدن في اتحاد الجنوب الذي يجري تنفيذه، وأن هذا قد يؤدي إلى خروج عدن كمستعمرة من السلطة البريطانية، وأن موقف بريطانيا كليًا سيتعرض للخطر في الخليج الفارسي[٣].

ويضاف إلى ذلك قلق بريطانيا على موقف حكام المحميات في الجنوب اليمني من الحكام الجدد في اليمن الشمالي، فقد ذكر أمين عام الكومنولث في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد في ١٥ أكتوبر ١٩٦٢م أن الحكام في اتحاد عدن أبدوا انزعاجا كبيرا من تطورات الأحداث في اليمن، وأنه إذا نجح النظام الجديد في تثبيت مركزه فإن قواتهم العسكرية سوف تتحطم من خلال توسيع سيطرة النظام الجديد إلى حدود مستعمرة عدن[٤]، خاصة مع إعلان سلطات الجمهورية اليمنية نيتها لتخريب سلطة الحكام في المحميات، كل هذا في ظل اعتراف أمين عام الكومنولث في

---

(١) أحمد يوسف أحمد: مرجع سابق، ص١٦١.

(٢) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص ص٢٠٨- ٢٠٩.

(٣) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , October 9 , 1962 , p. 419.

(٤) Ibid , October 15 , 1962 , p.426.

اجتماع مجلس الوزراء المنعقد في ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م بأن الحفاظ على موقف بريطانيا في اليمن يعتمد على الدعم المستمر لها من حكام محمية عدن[١].

ويأتي جانب عداء بريطانيا لمصر والسياسة المصرية بالشرق الأوسط منذ حرب السويس في عام ١٩٥٦م ليؤثر على الموقف البريطاني من الثورة اليمنية، خاصة مع التدخل المصري باليمن عقب الثورة على أثر مطلب يمني من مصر لدعم الثورة عسكريًا، حيث اعترفت مصر بالنظام الجديد باليمن في ٢٩ سبتمبر، وفي اليوم التالي هبطت طائرة مصرية في مطار صنعاء وعلى متنها معدات عسكرية ومساعدات مالية، ثم تلاها وصول القوات المصرية إلى اليمن[٢]. والحقيقة أن هذا الوجود العسكري المصري باليمن أثر على الموقف البريطاني من الثورة اليمنية، حيث كان رجال الاستعمار البريطاني في عدن قد أدركوا التأثير السياسي الفعَّال لمصر بعد ثورة ١٩٥٢م، فقد أدت الحملة المضادة من جانب مصر لاتحاد الجنوب اليمني الذي سعت إليه بريطانيا إلى تدعيم موقف القوى السياسية اليمنية المعارضة لهذا الاتحاد، فضلا عن تحمس الرأي العام في عدن لوحدة اليمن الشمالي والجنوبي، وبالتالي كان التدخل العسكري المصري باليمن يمثل خطورة حقيقية على الوجود البريطاني بالجنوب اليمني[٣]. وهو ما دفع الحكومة البريطانية والسلطات البريطانية الحاكمة في عدن إلى شن حملات دعائية شرسة ضد مصر متهمة إياها بالتدخل في شؤون اليمن الداخلية بهدف توسيع دائرة نفوذها[٤].

وأخيرًا، فإن عدم القضاء نهائيًا على نظام حكم الإمامة باليمن عقب قيام الثورة في ٢٦ سبتمبر كان أحد العوامل التي أثرت على الموقف البريطاني من الثورة اليمنية، فقد كان إعلان الجمهورية في اليمن الشمالي يفتقد إلى تأييد وإجماع القبائل هناك وخاصة الزيدية، حيث بدت

---

(١) Ibid , November 13 , 1962 , p.490.

(٢) أحمد عبيد بن دغر: اليمن تحت حكم الإمام أحمد ١٩٤٨-١٩٦٢م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٥٦٦.

- محمد حسنين هيكل: غارة على أطلال قلعة، مقال بالأهرام، بتاريخ ٣ أبريل ١٩٦٤م.

- عيد مسعود الجهني: مرجع سابق، ص ص٢٨٧-٢٨٨.

(٣) محمد حسنين هيكل: الأسد البريطاني، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٦٢م.

(٤) أمين هويدي: حروب عبد الناصر، الطبعة الثالثة، دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ص١٠٣-١٠٤.

صعوبة إقناع هؤلاء بالولاء لحكومة مدنية لا تستند إلى الزعامة الروحية، خاصة عندما عرف أن الإمام البدر ما زال على قيد الحياة ويحظى بتأييد عمه الأمير الحسن الذي أعلن عن ولائه للإمام البدر وتكاتفه معه في شن حرب ضد النظام الجمهوري(١).

والحقيقة أن بريطانيا كانت تعلم هذه الحقائق، فقد أكد اللورد بريفي سيد Privy Sed في جلسة مجلس الوزراء المنعقدة في ١٥ أكتوبر ١٩٦٢م على أن الموقف العسكري باليمن ما يزال غامضًا، حيث أظهرت حكومة الجمهورية اليمنية سيطرتها على الغرب والجنوب من اليمن الشمالي، بينما ظلت القبائل تحافظ على استقلالها في الشمال والشرق وولائها للنظام القديم، كما ذكر أن التقارير تؤكد بقاء الإمام البدر على قيد الحياة، وأنه يحظى بتأييد المملكة العربية السعودية(٢)، ثم إن السعوديين أكدوا للبريطانيين منذ البداية أن الإمام البدر هو الحاكم الشرعي لليمن، وأنه ما زال موجودًا داخل اليمن ومدعومًا من قِبل مجموعة من القبائل، وبالتالي فإن الحكومة الشرعية لليمن ما زالت قائمة(٣). وبالطبع فإن وضعًا كهذا كان من المؤكَّد تأثيره على موقف بريطانيا من الثورة في اليمن، فلم تتخذ موقفا واضحا انتظارًا لما قد ينجم عنه هذا الغموض.

وبذلك يمكن القول، بأن أهمية موقع عدن بالنسبة لبريطانيا ووضع بريطانيا بعدن ومحمياتها كمستعمرة بريطانية، وكذلك التهديد المصري للوجود البريطاني باليمن الجنوبي بعد تدخل المصريين عسكريًّا لصالح النظام الجمهوري اليمني، فضلا عن غموض الوضع باليمن عقب الثورة وتحوله إلى صراع بين الجمهوريين من جانب والملكيين أنصار الإمام من جانب آخر، كل هذا كان قد وُضِع في الحسبان لدى الساسة والعسكريين البريطانيين عند وضعهم الموقف البريطاني من الثورة اليمنية على طاولة البحث، وأصبح المرجعية لهم عند اتخاذ أي موقف من هذه الثورة.

---

(١) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص ص١٦١-١٦٢.

(٢) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , October 15 , 1962 , p.426.

(٣) سعيد محمد باديب: الصراع السعودي المصري حول اليمن الشمالي ١٩٦٢-١٩٧٠م، مركز الدراسات الإيرانية والعربية، دار الساقي، لندن، ١٩٩٠م، ص١١٠.

ثانيًا: تردد الموقف البريطاني تجاه الثورة اليمنية.

عند قيام الثورة في اليمن وجد البريطانيون أنفسهم أمام حقيقتين، أولاهما: أن نظامًا ثوريًا قد قام في اليمن الشمالي، ولا بد أن يمتد تأثيره إلى عدن والمحميات في جنوب اليمن. وثانيهما: أن هذا النظام قد تلقى مساعدات من مصر، وأن القوات المصرية أصبحت على الحدود مع اليمن الجنوبي(١). ومن ثم جاءت التقديرات الأولية للبريطانيين لتتحدث عن عدم الاعتراف بالنظام الجديد في اليمن مهما كانت الظروف، ومحاولة التأثير على أكبر عدد من الدول كي تتجنب اعترافها بهذا النظام، على اعتبار أن ذلك ينتقص من شرعيته، ومع هذه الشرعية الناقصة يمكن تشجيع عناصر كثيرة في اليمن، وبخاصة القبائل الكبرى على إثارة الكثير من المتاعب له، وكذلك تأييد التحالف السعودي الأردني والذي يستطيع أن يلعب دورا مؤثرا ضد هذا النظام(٢).

لذلك، كان أول ما تحدث به كريستوفر جاندي Christopher Gandy الوزير البريطاني المفوض باليمن مع عبد الرحمن البيضاني نائب رئيس الوزراء هو موضوع الحدود بين الجمهورية اليمنية واليمن الجنوبي(٣)، ثم إن الحكومة البريطانية حثت الولايات المتحدة الأمريكية على اتخاذ موقف حازم تجاه الثورة اليمنية مخافة أن يتمكن السوفيت في نهاية الأمر من استقطاب النظام الجديد باليمن إلى جانبهم مما يتيح لهم تهديد مصالح الغرب في المنطقة(٤). وقد وجد هذا تجاوبًا من حكومة الولايات المتحدة، حيث أكدت الخارجية الأمريكية منذ البداية على دعمها للموقف البريطاني، وبالصورة التي تترك لبريطانيا حرية التعامل مع الوضع باليمن كما تراه مناسبًا لمصالحها(٥)، وعلى أن للولايات المتحدة الأمريكية مصالح حيوية في صيانة الأمن

---

(١) (أحمد عبيد بن دغر: مرجع سابق، ص٥٦٧.

(٢) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٨م، ص٦٣٨.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: أزمة الأمة العربية وثورة اليمن، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٣٨٠.

(٤) ممدوح منصور: مرجع سابق، ص٢٩٨.

(٥) F.R. , Telegram From the Department of State to Secretary of State (Rusk) in New York , September 27 , 1962 , Volume XVIII , p. 142.

بمنطقة الخليج الفارسي، والتي تعتمد على استمرار الوجود البريطاني في منطقة عدن، وفي نفس الوقت أكدت على عدم قبولها للحملة التي تشنها حكومة الجمهورية اليمنية ضد بريطانيا في الجنوب اليمني، متمنية أن تكون جهود النظام الجديد باليمن موجهة نحو الاستقرار الداخلي وليس لأجل مغامرات خارجية[١]. وتأكيدًا لهذا الموقف رفضت الخارجية الأمريكية إعلان اعترافها بالنظام الجديد باليمن حين طالب بذلك السفير اليمني بواشنطن، بل وأكدت على أنها ستواصل التشاور الوثيق في كل تطورات المستقبل حول هذا الأمر مع بريطانيا[٢]. كما اقترحت تمثيل شراكة مع بريطانيا لمتابعة تطوراته إما في واشنطن أو في لندن أو في العاصمتين معًا[٣].

وعقب الثورة، دخلت بريطانيا في إطار تحالف مع السعودية والأردن، حيث كانت حكومتا السعودية والأردن على اتصال دائم بالحكومة البريطانية، وكان الديوانان الملكيان في البلدين على اتصال دائم بالسفارتين البريطانيتين في جدة وعمان، وكذلك كانت السفارتان السعودية والأردنية بلندن على اتصال دائم بالخارجية البريطانية[٤]. وقد جاءت الزيارة التي قام بها الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى لندن لتؤكد هذا التحالف، حيث تعددت لقاءاته، والتي شملت رئيس الوزراء البريطاني هارولد ماكميلان، ووزير الخارجية إليك دوجلاس هوم Alec Douglas Home، ومجموعة النواب المحافظين الذين اشتهروا باسم مجموعة السويس برئاسة النائب جوليان إيمري Julian Amery، وكان فيصل قد التقى مرتين بوزير الخارجية البريطاني خلال تلك الزيارة، كانت الأولى في يوم ٢٩ سبتمبر ١٩٦٢م، والثانية في يوم ٢ أكتوبر، وقد تحدث جوليان إيمري عن هذه اللقاءات في كتيِّب صغير وُزِّع على مجلس العموم البريطاني في ديسمبر ١٩٦٢م، وكان أبرز ما قاله: "إن نجاح جمال عبد الناصر في الحصول على موطئ قدم

---

(١) .Ibid , p. 141

(٢) Ibid , Telegram from the Department of State to Certain pasts , September 27 , 1962 , Volume XVIII , p. 143.

(٣) Ibid , Memorandum from the Assistant Secretary of State for Near Eastern and South Asian Affairs (Talbot) to Secretary of State (Rusk) , October 9 , 1962 , Volume XVII , p. 173.

(٤) محمد حسنين هيكل: هذا الوضوح القاطع في معركة اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ١٢ أكتوبر١٩٦٢م.

لمشروعاته الانقلابية في شبه الجزيرة العربية وهي أهم موطن للبترول واحتياطاته في العالم هو نذير شؤم، ويجب أن يتعاون على مقاومته كل الأطراف الذين لهم مصلحة في ذلك سواء داخل العالم العربي أو خارجه"(١). وجاء في رسالة الأمير فيصل إلى الرياض أن وزير الخارجية البريطاني قال له حرفيًا: "إن بريطانيا تعتبر الثورة في اليمن تهديدًا لمركزها في عدن، وأنها لن تسمح تحت أي ظرف من الظروف لأي تهديد لعدن التي أصبحت قاعدتها الوحيدة في المنطقة"(٢). وفي الوقت نفسه عملت بريطانيا على ضم الأردن للحلف البريطاني السعودي ضد النظام الجديد باليمن، وكذلك ضد الوجود المصري هناك، حيث أيد الملك حسين التعاون مع البريطانيين(٣)، والحقيقة أن التحالف البريطاني مع السعودية والأردن كان أمرا منطقيا، فقد أكدت الاستخبارات الأمريكية على أن قيام الجمهورية اليمنية كنظام موال لعبد الناصر في اليمن من شأنه أن يزيد كثيرا من الضغوط ضد الأنظمة المحافظة في المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية، وكذلك ضد وضع بريطانيا في عدن(٤).

وفي الوقت نفسه، استقبلت لندن الأمير الحسن مندوب اليمن بالأمم المتحدة وعم الإمام البدر، حيث طلب الحسن مساعدة بريطانيا عسكريًا للقضاء على الثورة؛ بيد أن بريطانيا أكدت له عدم إمكانية مساعدته بطريق مباشر، كما عمدت الاستخبارات البريطانية إلى إقناعه بعدم جدوى المساعدات العسكرية المباشرة، هذا مع الموافقة على دعمه بصورة غير مباشرة وبالتنسيق مع السعودية(٥)، وهو الأمر الذي أكدته الخارجية الأمريكية، وإن كانت قد استبعدت أن يظل التدخل البريطاني خفيًا لفترة طويلة، وبالتالي

---

(١) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص ص٦٣٧- ٦٣٨.

(٢) محمد حسنين هيكل: هذا الوضوح القاطع في معركة اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ١٢ أكتوبر١٩٦٢م.

(٣) محمد حسنين هيكل: الشعار الذي رفعته الحوادث إلى مرتبة القانون، مقال بالأهرام، بتاريخ ١٩ أكتوبر١٩٦٢م.

(٤) F.R. Memorandum from the Office of National Estimates Central Intelligence Agency to Director of Central Intelligence , October 8 , , 1962 , Volume XVII , p. 170.

(٥) محمد حسنين هيكل: هذا الوضوح القاطع في معركة اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ١٢ أكتوبر١٩٦٢م.

فإن الكشف عن هذا التدخل سيؤدي إلى التزام القوات المصرية بالوجود في اليمن، وكذلك توقع دعوة اليمن ومصر للاتحاد السوفيتي لزيادة مشاركته لصالح النظام الجمهوري، إذ كان الوجود العسكري السوفيتي لا يزال بسيطًا باليمن منذ النظام السابق، وإن كان يشكل خطرًا على استقرار شبه الجزيرة العربية[1].

على أية حال، فإن حكومة صنعاء أرسلت بعد أسبوع من الثورة إلى لندن لمعرفة أسباب تأخر الحكومة البريطانية في الاعتراف بالثورة اليمنية، وقد ردت الأخيرة بعدم توفر المعلومات الكافية لديها عن الموقف في اليمن، مُرجعة السبب في ذلك إلى أن السلطات اليمنية منعت الوزير المفوض البريطاني في "تعز" من إرسال برقيات بالشفرة إلى وزارة الخارجية في لندن، وبغير هذه البرقيات فإن الوزير البريطاني المفوض باليمن لا يستطيع نقل صورة واضحة لحقيقة الموقف في اليمن إلى حكومته، ورغم رد الحكومة اليمنية بأن هذا المنع قد طبق على الجميع، وأن هذا المنع قد ألغى[2]، فإن الحكومة البريطانية حتى هذه اللحظة لم يكن في نيتها الاعتراف بالثورة اليمنية، فقد ذكر وزير الخارجية البريطاني في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد بتاريخ ٩ أكتوبر ١٩٦٢م بأن الوضع في اليمن ما يزال غامضا، ورأيه أنه يلزم متابعة سياسة عدم التدخل، وأن الاعتراف بالنظام الثوري في اليمن ينبغي أن يتأخر رغم الحجج التي قدمت لصالح الاعتراف الفوري بهذا النظام[3]. وبرَّر رئيس الوزراء البريطاني سياسة عدم التدخل من جانب حكومته، بتأكيده على أن حكومة الثورة باليمن يمكن أن تعمل بنشاط وجدية ضد اندماج عدن في اتحاد الجنوب العربي الذي يجري تنفيذه، وهذا قد يؤدي إلى خروج عدن كمستعمرة من سيطرة بريطانيا، وأن كامل وضع بريطانيا في الخليج الفارسي سوف يتعرض

---

(١) F.R. , Memorandum from the Assistant Secretary of State for Near Eastern and South Asian Affairs (Talbot) to Secretary of State (Rusk) , October 9 , 1962 , Volume XVII , p. 172.

(٢) محمد حسنين هيكل: بريطانيا والثورة في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٦٢م.

(٣) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , October 9 , 1962 , p. 418.

للخطر، كما أن الدعم النشط للقوى المعارضة للثورة سيكون أمرًا مستهجنًا سياسيًّا على أساس أنه دعم للقوى الرجعية بالمنطقة، ولهذا لا بديل عن سياسة عدم التدخل، وتأخير الاعتراف بالنظام الجديد حتى يتم معرفة موقفه من السيطرة على البلاد[١].

ولذلك، مضت الحكومة البريطانية في هذه السياسة تجاه النظام الجديد باليمن، وهو ما دفع الحكومة اليمنية إلى أن تسأل عن سبب عدم الاعتراف البريطاني بها وقد مر على الثورة أسبوعان، فردت المفوضية البريطانية في تعز مُرجعة السبب إلى أن المفوضية في تعز معزولة عن وزارة الخارجية البريطانية؛ لأن السلطات اليمنية تمنع وصول الحقائب الدبلوماسية إليها، وأن البرقيات الشفوية لا تكفي لكل التفاصيل التي تقتضيها عملية رسم صورة كاملة للأوضاع باليمن، ولذا قامت السلطات اليمنية برفع الحظر عن الحقائب الدبلوماسية، بيد أن الحكومة البريطانية استمرت في سياستها، وهو ما دفع الحكومة اليمنية إلى أن تعيد السؤال عن أمر الاعتراف بها مرة أخرى، وكان رد المفوضية البريطانية بأن حكومتها ما تزال تراجع مدى التأييد الشعبي للثورة باليمن، وعندما ردت الحكومة اليمنية بأن الثورة تحظى بالتأييد من اليمنيين، كان جواب المفوضية بالسؤال عن سبب وجود القوات المصرية باليمن، وأن هذا الوجود قد يعطي دليلا على افتقاد النظام اليمنى الجديد للتأييد الشعبي[٢].

هكذا ظلت الحكومة البريطانية على سياستها الرافضة للاعتراف بالثورة اليمنية، وقد وجدت التأييد لموقفها من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، والتي كانت تشعر بالقلق تجاه تأثير هذه الثورة على الوضع بالسعودية، حيث نقلت السفارة الأمريكية بلندن هذا القلق للحكومة البريطانية، وأكدت على الآثار الضارة المحتملة على السعودية من النظام الجديد باليمن، وأن هذا يجب أن يعتبر تهديدًا لها وعلى قدم المساواة مع التهديد لعدن[٣]، ومن جانب

---

(١) Ibid , p. 419.

(٢) محمد حسنين هيكل: بريطانيا والثورة في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٦٢م.

(٣) F.R. , Telegram from the Department of State to the Embassy in London , October 13 , 1962., Volume XVIII , p. 176

آخر، أرادت الولايات المتحدة أن تؤكد على موقفها الداعم لبريطانيا لدى الجانب المصري، لذلك أرسل رسك Rusk وزير الخارجية الأمريكي خطابا إلى سفارته في القاهرة مؤكدًا على حرص الولايات المتحدة على تجنب كل ما يضر بموقف بريطانيا في عدن، وعلى أنها تواصل التشاور مع بريطانيا حول الوضع بالجمهورية اليمنية[1].

وقد نُقل هذا التأييد إلى الحكومة البريطانية، فقد ذكر اللورد بريفي سيد في اجتماع مجلس الوزراء البريطاني المنعقد في ١٥ أكتوبر ١٩٦٢م أن الإدارة الأمريكية أبلغت الحكومة المصرية بأن لديها مصالح مهمة في شبه الجزيرة العربية، وأنها لن تكون على استعداد لرؤية هذه المصالح في وضع خطر بسبب التطورات في اليمن، واعتبرت الإدارة الأمريكية الموقف البريطاني في عدن من بين المصالح التي يضعونها في الاعتبار، وأكد اللورد بريفي على أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وافقت الحكومة البريطانية على عدم الاعتراف بالنظام الجمهوري باليمن رغم أن عشرين دولة كانت قد اعترفت به. ومن جانبه أكد رئيس الوزراء في نهاية الجلسة على ضرورة متابعة الموقف في اليمن، مع استمرار التشاور مع حكومة الولايات المتحدة، وأن السياسة التي يجب اتباعها هي الاستمرار في عدم التدخل وعدم الاعتراف بالوضع في اليمن[2].

وتبريرًا لهذه السياسة ظلت بريطانيا تؤكد على أن عدم اعترافها بالثورة اليمنية يرجع لعدم استقرار الأمور في اليمن لحكومة النظام الجمهوري، والتدليل على ذلك باستمرار الوجود المصري هناك[3]، وقد دفع هذا عبد الرحمن البيضاني نائب رئيس الوزراء اليمني إلى استدعاء الوزير المفوض البريطاني باليمن، وحمّلهُ رسالة إلى هارولد ماكميلان رئيس الحكومة البريطانية، والتي شرح فيها مدى الاستقرار الذي ينعم به النظام الجمهوري باستثناء بعض المناطق من البلاد، وطالبًا بعدم تأخير الاعتراف بالثورة، ومعتبرًا أن تأخير اعتراف بريطانيا

---

(١) Ibid, Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic., October 13, 1962, Volume XVIII, p. 182

(٢) Cab. 128/36, Meeting of the Cabinet, October 15, 1962, p.426.

(٣) محمد حسنين هيكل: بريطانيا والثورة في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٩ أكتوبر ١٩٦٢م.

ومعها أمريكا يعد سببا مباشرا في تريث معظم دول العالم في الاعتراف بالثورة اليمنية[١].

والحقيقة أن حديث بريطانيا عن عدم الاستقرار باليمن كسبب لعدم اعترافها بالنظام اليمني هو محض افتراء، وأن بريطانيا لم تكن راغبة في هذا الاعتراف، ولعل ما يؤكد ذلك أن ما ذكره عبد الرحمن البيضاني عن استقرار الأوضاع للنظام الجمهوري باليمن كان حقيقيًا، وهو ما قال به روبرت كومر Robert Komer نائب وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الجزيرة العربية حينما أكد على أن الجمهورية اليمنية فرضت سيطرتها الكاملة على معظم أرجاء اليمن ما عدا منطقة في الشرق، وأنها على استعداد لاحترام الالتزامات الدولية، وقد دلل على ذلك بالتقرير الذي رفعه الوزير الأمريكي المفوض باليمن، والذي أوصى فيه حكومته بشكل قوي ومتكرر بضرورة الاعتراف بالنظام اليمني الجديد، من أجل تعزيز سياسة معتدلة من جانب هذا النظام، ولمنعه من التحول إلى المزيد من طلب الدعم من مصر ودول خارجية أخرى[٢]، ومن ثم فإن استقرار الوضع للنظام الجمهوري باليمن كان حقيقيا وعلى غير ما تدَّعيه بريطانيا، لدرجة أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت على استعداد للاعتراف بالحكومة اليمنية حينها لولا أنها كانت تضع في حسبانها المعارضة البريطانية لذلك[٣]، وهو الأمر الذي دفع كومر إلى أن يرسل للرئيس كيندي Kenndy في ١٨ أكتوبر ١٩٦٢م مذكرة أكد فيها عدم إمكانية الاعتراف بالنظام اليمني الجديد نظرًا لمعارضة بريطانيا، وداعيًا إلى ضرورة الحصول على تطمينات لها من الجمهورية اليمنية ومصر[٤].

أمام ذلك، بدأت بريطانيا تدرك عدم إمكانية تجاهل الموقف في اليمن، خاصة مع

---

(١) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص ص٤٤٨-٤٤٩.

- الأهرام، بتاريخ ٢٨ أكتوبر ١٩٦٢م.

(٢) F.R. , Paper by the Officer in Charge of Arabian Peninsula Affairs , October 17 , 1962 , Volume XVII , p.182.

(٣) Ibid , p.p. 182-183.

(٤) Ibid , Memorandum from Komer to president Kennedy , October 18 , 1962 , Volume XVII , p. 183.

حقيقة استقرار الأوضاع هناك، وقلق الحكومة البريطانية على وضعها في عدن من تصرفات حكومة الثورة اليمنية؛ لذلك حدث تغير في الموقف البريطاني تجاه النظام الجمهوري اليمني، فقد تحدث وزير الخارجية البريطاني عن الأوضاع باليمن في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد في ٢٢ أكتوبر ١٩٦٢م، مؤكدًا على أن المعلومات من اليمن تظهر أن حكومة الثورة هناك تمكنت من بسط سيطرتها على معظم أرجاء البلاد، ولهذا طالب بضرورة النظر فيما إذا كان يجب على حكومة بريطانيا الاعتراف بالنظام اليمني الجديد من عدمه، وتوقيت هذا الاعتراف. وأكد وزير الخارجية على أن منح الاعتراف سيكون له تداعيات في محمية عدن والخليج الفارسي، وإذا تم حجب الاعتراف فإن هذا قد يسبب مشكلة من جانب الحكومة اليمنية الجديدة لبريطانيا في عدن[١].

ومن جانب آخر، أكد وزير الخارجية في نفس الجلسة السابقة على أن الوضع العام في اليمن مثير للقلق، فالانشقاقات كانت قد وقعت بين القوات السعودية التي أرسلت لمساعدة الملكيين، والتدخل المصري قد ازداد، كما أكد على أن محافظ عدن وافق على أن مسألة الاعتراف يجب أن تكون أمرا مفروغا منه، وأنه يتمنى أن يعطي الوقت لشرح الأمر لحكام المحميات ولمشايخ الخليج الفارسي كي يؤكد على أن منح الاعتراف للنظام الجديد باليمن سيكون إلى حد كبير مسألة لا تعني أن هناك تغييرا في سياسة بريطانيا بالمنطقة، وهو ما قد يخفف القلق لديهم. وأكد الوزير على أنه من الضروري متابعة تطورات الموقف بصفة يومية حتى يمكن اتخاذ قرار توقيت الاعتراف بعد أن تتم المحادثات مع الحكام ويصبح الأمر على درجة كافية من النجاح في ذلك، ولكنه لا يجب أن يتأخر كي لا تتضرر علاقات بريطانيا مع الجمهورية اليمنية. وفي نهاية الجلسة قرر مجلس الوزراء الموافقة من حيث المبدأ على الاعتراف بالنظام الجديد باليمن، ودعا وزير الخارجية للتشاور مع أمين عام الكومنولث للترتيب للتشاور مع حكام الأقاليم الموالية لبريطانيا في محمية عدن والخليج الفارسي من

---

(١) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , October 22 , 1962 , p.436.

أجل تمهيد الطريق للاعتراف بالثورة اليمنية[١].

ورغم هذا القرار، فإن السلطات البريطانية ظلت على ترددها بالنسبة لموقفها من هذه الثورة، فعلى حين جاء تصريح المتحدث الرسمي باسم الحكومة البريطانية عقب القرار السابق ليؤكد على أن حكومته وعدت بالاعتراف بالنظام الجمهوري باليمن[٢]، فإن تصريح ممثل الحكومة في مجلس العموم البريطاني في ٣١ أكتوبر ١٩٦٢م جاء ليثير الشكوك حول جدية هذا القرار، حيث صرح: "بأن عملا ما لم يتم حتى ذلك الوقت بصدد الاعتراف بالجمهورية اليمنية، وإن كان هذا لا يعني بأية حال عداء للنظام اليمنى، وإنما يعكس شكوكنا حول الموقف في أجزاء مختلفة من اليمن، وحول سيطرة الحكومة اليمنية على كل أجزاء البلاد"[٣]. وبعد ذلك، جاء حديث وزير الخارجية البريطاني في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد في ٦ نوفمبر ١٩٦٢م ليؤكد عدم جدية القرار السابق، إذ أكد على أن بلاده تواجه صعوبة كبيرة تجاه الثورة اليمنية، ففي حين أنه من غير المعقول إظهار الدعم للملكيين، فإن أي اعتراف مبكر بالنظام الجمهوري باليمن من المرجح أن يكون له انعكاسات خطيرة على موقف بريطانيا في عدن، والذي يعتمد إلى حد كبير على استمرار ولاء ودعم حكام محمية عدن والمشايخ المجاورة[٤].

وفى نفس الاجتماع السابق، جاء حديث رئيس الوزراء البريطاني ليؤكد على ما كان عليه موقف بلاده، ففي الوقت الذي تحدث فيه عن أن الوضع صعب ودقيق، وأن حاكم عدن يعتبر الاعتراف المبكر بالنظام الجمهوري باليمن مثبطًا لأنصار بريطانيا في اليمن الجنوبي، وأنه قد يقوض كل موقف بريطانيا في المنطقة، فإذا به يستدرك الحديث ليؤكد على أن مواصلة بريطانيا حجبها الاعتراف بهذا النظام يمثل خطرًا عليها، إذ إن ممثلها في تعز سوف يُطرد،

---

(١) Ibid , p. 436.

(٢) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٤٤٩.

(٣) محمد حسنين هيكل: الأسد البريطاني وطبول الحرب، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٦٢م.
- أحمد يوسف: مرجع سابق، ص١٧٢.

(٤) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , November 6 , 1962 , p.473.

وبالتالي سوف تفقد بريطانيا أي احتمال لكي تكون قادرة على التأثير في سياسة النظام الجديد باليمن، ثم إنه يمكن توقع تكثيف حكومة الجمهورية اليمنية للسياسة التقليدية لليمن من تخريب وعداء لمصالح بريطانيا هناك، وربما تفعل ذلك على نحو أكثر فعالية من سابقتها، وعندئذ فإن موقف بريطانيا في عدن سوف يتآكل تدريجيا[١]. ويبدو من هذا الحديث أن هاجس القلق على الوجود البريطاني بعدن كان سببا رئيسيا لتردد الموقف البريطاني، وهو ما أوقع البريطانيين في حيرة من أمرهم، حتى إنه ذُكر في نفس هذا الاجتماع أن الاعتراف بالنظام الجديد باليمن أمرٌ واردٌ وهو ضروري، وأن تأجيل هذا الاعتراف إنما كان انتظارًا حتى يتم النقاش البرلماني حول دمج مستعمرة عدن في اتحاد الجنوب العربي المقرر مناقشته في البرلمان البريطاني بالاجتماع المقرر في ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م[٢].

وبذلك يمكن القول، بأن الحكومة البريطانية تراجعت عن قرار الاعتراف المبدئي الذي قررته من قبل، وفي الوقت نفسه كانت هذه الحكومة تحرص على عدم اعتراف الولايات المتحدة بهذه الثورة، وهو ما جعلها تناقش في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م ما ورد إليها من رغبة الولايات المتحدة في الاعتراف بالثورة اليمنية، حيث أكد وزير الخارجية البريطاني على أن حكومة الولايات المتحدة كانت قد اتخذت موقفًا يؤكد على أن اعترافها بالنظام الجمهوري باليمن سوف يتوقف على التفاهم مع الحكومة المصرية حول انسحاب قواتها من اليمن، وصيانة الاستقرار في السعودية، ولكن يبدو الآن أنها تفكر في الاعتراف دون أي شروط. وقد عقَّب عليه أمين عام الكومنولث في الجلسة نفسها مؤكدًا على أن اعتراف الولايات المتحدة بالنظام الجمهوري من الممكن أن يكون له أوخم العواقب على محمية عدن، هذا مع الوضع في الاعتبار أن دعم الولايات المتحدة للنظام الجمهوري من خلال الاعتراف به قد يقويه ويضعف في المقابل أنصار بريطانيا، لذلك أكد مجلس الوزراء في نهاية اجتماعه على أنه ينبغي على رئيس الوزراء وبالتشاور مع وزير الخارجية بذل المساعي لدى حكومة الولايات

---

(١) Ibid., p.p. 473-474.

(٢) Ibid., p. 474.

المتحدة لتأخير الاعتراف بالنظام الجمهوري باليمن[١].

ومثلما كان التردد واضحًا في قرار الحكومة البريطانية، بدا هذا التردد أكثر وضوحًا داخل مجلس العموم البريطاني، ففي الوقت الذي صوَّت فيه المجلس في ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م على عدم الاعتراف بالنظام الجمهوري باليمن[٢]، قام المجلس بإرسال وفد برلماني إلى صنعاء لدراسة الأوضاع بالجمهورية اليمنية، وبالفعل سافر الوفد في يوم الجمعة ١٦ نوفمبر برئاسة النائب وليم بيتس William Bates عضو المجلس وخمسة أعضاء من حزبي العمال والمحافظين[٣]. وفي اليوم التالي للزيارة صرح بيتس قائلًا: إن أول شيء لاحظته في اليمن أنه في ثورة، وأنه يمكن الوصول إلى اليمن ومغادرته في أية لحظة دون الحصول على إذن مكتوب من الإمام، وقال بأنه سيشرع بمجرد وصوله إلى لندن في تأليف جمعية الصداقة البريطانية اليمنية التي ستكون مهمتها تحسين العلاقات بين البلدين ودعم الروابط بين الشعبين، وقال بأن أعضاء البعثة سوف يذكرون للمسؤولين البريطانيين أن الوضع يقتضي ضرورة البحث في تقديم المعونة إلى اليمن؛ لأن مسألة الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية أمر طبيعي، وأن الدول الغربية يجب أن تسارع إلى الاعتراف بالحكومة اليمنية لأنه من الخطأ التشكيك في سيطرتها على جميع المدن وجميع المرافق، وأكد وليم بيتس أن الحوار دار مع عبد الرحمن البيضاني حول مسألة الاعتراف بالحكومة اليمنية وتقديم المعونة الفنية العسكرية والاقتصادية إلى اليمن، وكان عبد الرحمن البيضاني في الاجتماع الذي عقده مع الوفد البريطاني قد اتهم بريطانيا بالتآمر ضد حكومة الثورة في مناطق الحدود اليمنية لإيجاد حجة لتأخير اعترافها بالثورة اليمنية[٤].

وعقب عودة الوفد إلى لندن استمر في الدفاع عن الثورة اليمنية، فعلى أثر برنامج تليفزيوني

---

(١) Ibid , Meeting of the Cabinet , November 13 , 1962 , p. 490.

(٢) أحمد يوسف: مرجع سابق، ص١٧٢.

- فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢٢٤.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٤٨٩

- الأهرام، بتاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٦٢م.

(٤) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٠٣.

- الأهرام، بتاريخ أول ديسمبر ١٩٦٢م.

سيئ عرض عن اليمن في التليفزيون البريطاني تولى وليم بيتس مهاجمة هذا البرنامج، ووصفه بأنه غير دقيق ولا يعبر عن الصورة الصادقة التي كان قد شاهدها باليمن، وأضاف كذلك بأن البعثة التي ترأسها لم تر أثرًا لقوات ملكية يمنية تهدد بالقضاء على النظام الجمهوري اليمنى، وأكد على أن رجال التليفزيون البريطاني أساءوا إلى الذين نزلوا في ضيافتهم[1]. وتأكيدًا على استقرار الأوضاع باليمن نشرت صحيفة صنداي تايمز Sunday times في يوم الاثنين ٣ ديسمبر ١٩٦٢م مقالا للنائب ريتشارد كافرن Richard Cavern عضو الوفد قال فيه: إن شعبية حكومة الثورة في اليمن لا يرقى إليها الشك، وهي تسيطر سيطرة كاملة وحازمة على البلاد، وإن بريطانيا لا تستطيع أن تظل محل عداوة لثورات الشرق الأوسط، وإن الأمل في عودة الملكية إلى اليمن يعتبر وهما كبيرا، وإن نظام الحكم الجديد باليمن هو أفضل كثيرًا من نظام حكم الأئمة[2]. وزيادة على ذلك، طالب الوفد بضرورة اعتراف الحكومة البريطانية بالنظام الجديد باليمن[3].

وعلى هذا، يمكن القول بأن رفض مجلس العموم الاعتراف بالثورة اليمنية في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م، ثم موافقته في الجلسة نفسها على إرسال وفد برلماني لأجل استطلاع الأوضاع باليمن، يؤكد حالة التردد في الموقف البريطاني، إذ كيف يقر المجلس عدم الاعتراف بالنظام اليمني الجديد، وفي الوقت نفسه يقوم بإرسال وفد إلى هناك، ويعود هذا الوفد ليقرَّ باستقرار هذا النظام، ويطالب بضرورة اعتراف الحكومة البريطانية به ولا يتم الاستماع لهذا الرأي، بل وتظل حالة التردد وعدم الاعتراف بالنظام اليمنى قائمة.

ومع ذلك، ظلت حكومة الثورة باليمن تطالب بريطانيا بضرورة الاعتراف بها، فعندما التقى عبد الرحمن البيضاني بالوزير البريطاني المفوَّض باليمن في نوفمبر ١٩٦٢م أكد على تطلع

---

(١) نفسه، ص٥٤٥.

(٢) نفسه، ص٥٠٥.

(٣) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص ص٢١٥-٢١٦.

حكومة بلاده لإقامة علاقات وثيقة مع بريطانيا[١]. وفي هذا الوقت، حدث تغير في الموقف الأمريكي وهو ما أثر على الموقف البريطاني تجاه الثورة اليمنية، فقد ذكر وزير الخارجية البريطاني في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٦٢م أن حكومة الولايات المتحدة تهدف بوضوح إلى الاعتراف بالنظام الجمهوري باليمن مقابل تعهدات من السعودية والأردن ومصر بعدم التدخل في الشؤون اليمنية، وكذلك تعهدات محددة من مصر بسحب قواتها من اليمن، وتأكيد عبد الله السلال على استعداد بلاده للحفاظ على حسن الجوار والعلاقات مع الأراضي المحيطة بها. وقد أكد وزير الخارجية على أنه إذا ما اعترفت حكومة الولايات المتحدة بالنظام الجديد باليمن فإنه سيكون لا مفر لبريطانيا من أن تحذو حذوها، وإن كان هذا سيتوقف على الشروط المحددة للبيانات التي سيدلي بها عبد الله السلال وعبد الناصر، كما أكد على أن النصوص المتوقع صدورها ستتم دراستها من الحكومة بعناية تامة وبالتشاور مع حاكم عدن، خاصة أن الولايات المتحدة في مفاوضاتها مع اليمن ومصر تدرك تمامًا المصالح الخاصة لبريطانيا في اليمن[٢].

والحقيقة أن الولايات المتحدة كانت تدرك المصالح البريطانية باليمن وحريصة عليها تمامًا عند مفاوضاتها مع السلطات اليمنية والمصرية، فقد كتب روبرت كومر نائب وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الجزيرة العربية للرئيس كيندي مؤكدًا على أن الولايات المتحدة الأمريكية لديها إمكانية الحصول على إعلانٍ مُرْضٍ من مصر يقر بأنها لن تكون عائقًا أمام اتحاد عدن بالجنوب اليمني والذي تسعى إليه بريطانيا، وأن يعلن النظام الجديد باليمن استعداده للاعتراف بمعاهدة صنعاء التي عقدت عام ١٩٣٤م مع البريطانيين من أجل احترام سيادة عدن، وأكد كذلك على أن اعتراف بلاده بالجمهورية اليمنية ستكون بريطانيا على علم تام به[٣]. حيث أكدت

---

(١) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٣٨٠.

(٢) Cab. 128/36, Meeting of the Cabinet, November 27, 1962, p.516.

(٣) F.R., Memorandum from Robert W. Komer of the National Security Council State to President Kennedy, November 28, 1962, Volume XVIII, p. 239.

الخارجية الأمريكية على حفاظها على اتصال وثيق مع بريطانيا في جميع مراحل تطور قضية الاعتراف بالثورة اليمنية(١). كما أكدت أيضًا في مذكرة لها على أن المفاوضات التي أجرتها مع السلطات اليمنية ومصر حول البيانات المتفق على إصدارها كي يتم اعتراف الولايات المتحدة بالجمهورية اليمنية كانت قد أدت إلى إحداث تغييرات على هذه البيانات كي تكون مقبولة لدى البريطانيين(٢).

أمام هذا التغيير الذي حدث في الموقف الأمريكي ذكر أمين عام الخارجية البريطانية في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد في ٦ ديسمبر ١٩٦٢م أن الولايات المتحدة ما تزال تضع إصدار بيانات بواسطة اليمن ومصر كشروط لاعترافها بالثورة اليمنية، وأعرب عن أمله أن هذه البيانات ستشمل تعهدًا محددًا للحفاظ على علاقات ودية للجمهورية اليمنية مع مستعمرة عدن، وأكد أن بلاده كانت قد سعت لدى الحكومة الأمريكية لتأخير اعترافها بالنظام الجديد باليمن لأجل تأمين تنازلات من جانب السلطات اليمنية والحكومة المصرية لمصالح بريطانيا في عدن، كما أكد على أن موقف الولايات المتحدة من الثورة اليمنية غير قابل للمقارنة بموقف بريطانيا، حيث لم يكن للأمريكيين مصالح مباشرة في المنطقة، وذكر أن من رأيه أنه ليس من الضروري أن تأخذ الحكومة البريطانية قرارًا فوريًا في أمر الاعتراف بالنظام الجمهوري باليمن، وإن كان من رأيه أيضًا أنه بمجرد أن تعترف الولايات المتحدة بالنظام اليمني الجديد فلن يكون من الممكن لبريطانيا تأخير اعترافها بهذا النظام لأكثر من فترة محدودة(٣).

وفي الجلسة نفسها، قال أمين عام الكومنولث: إن المناقشات التي عقدت مؤخرًا في عدن أكدت بقوة الرأي القائل بأنه إذا أرادت بريطانيا الاعتراف بالنظام الجديد في اليمن فإن هذا سيكون له تأثير ضار على موقفها بالمنطقة، خاصة إذا ما وضع في الاعتبار أن سلطات

---

(١) F.R. , Memorandum from the Department of State Executive Secretary (Bruback) to the President's Affairs (Bundy) , December 6 , 1962 , Volume XVIII , p. 261.

(٢) Ibid , p.p. 260-261.

(٣) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , December 6 , 1962 , p.536.

الجمهورية اليمنية ليست على استعداد حتى الآن للاعتراف بوجود مصالح بريطانية في اليمن، كما أنها ليست على استعداد للعمل على الحفاظ على علاقات ودية مع مستعمرة عدن والمحميات، وهو ما يعني أن نواياهم تظل معادية لبريطانيا، وبالتالي فإنه في ظل هذه الظروف سيكون من الأفضل كثيرًا لبريطانيا أن تفقد تمثيلها الدبلوماسي باليمن من أن يضعف بأي شكل من الأشكال أنصارها في عدن، وكذلك قدرتها على الحفاظ والدفاع عن مصالحها الحيوية بالمنطقة[١].

هكذا فرض تغير الموقف الأمريكي نفسه على الحكومة البريطانية والتي أكدت في ختام اجتماع مجلسها المنعقد في ٦ ديسمبر ١٩٦٢م على أن اعتراف حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بالنظام الجديد باليمن سوف ينشأ عنه وضع جديد، وسيكون من الضروري على الحكومة البريطانية اتخاذ قرار فيما إذا كان ينبغي أن تحذو حذو الولايات المتحدة بالاعتراف بالثورة اليمنية أم لا، وهذا القرار لا يمكن اتخاذه بسهولة، حيث إنه لن يعتمد فقط على الشروط المحددة التي ستعترف بموجبها الولايات المتحدة، بل كذلك على تطورات الموقف في عدن من الثورة[٢].

ومن جانبها أبلغت الخارجية الأمريكية لندن بعزمها على المضي قُدُمًا في أمر الاعتراف بالجمهورية اليمنية، وأشارت إلى اقتناع الحكومة الأمريكية بأن المزيد من التأخير في الاعتراف سوف يؤثر سلبًا على مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا، وأنها سوف تشير في بيانها إلى معاهدة صنعاء المعقودة عام ١٩٣٤م على النحو المتفق عليه، وأكدت على أن عبد الرحمن البيضاني نائب رئيس الجمهورية ووزير الخارجية اليمني[٣] أبلغ الولايات المتحدة بأنه عندما يقدم سفير بريطانيا أوراق اعتماده للرئيس عبد الله السلال فإن الأخير سوف يعطي تعهدًا قطعيًا بمراعاة هذه

---

(١) Ibid , p. 536.

(2) Ibid , p. 536.

(٣) • تولى المنصب في أول نوفمبر ١٩٦٢م مع التغيير الوزاري.

المعاهدة[1]. وبالفعل جاء ذلك في بيان عبد الرحمن البيضاني في يوم ١٨ ديسمبر ١٩٦٢م بعد زيارة القائم بالأعمال الأمريكي له في صباح نفس اليوم، والذي أبلغه استحسان حكومته بأن يقوم عبد الرحمن البيضاني باسم الحكومة اليمنية بإعلان ما سبق اقتراحه من جانب واحد طالما أنه يمثل حقيقة نوايا بلاده[2]، وقد جاء البيان لتعلن فيه الحكومة اليمنية عن احترامها للمعاهدات الدولية التي أبرمها اليمن، ومنها معاهدة صنعاء عام ١٩٣٤م مع الحكومة البريطانية، والتي نصت على ضمانات متبادلة بضرورة عدم التدخل من جانب أي طرف في شؤون الطرف الآخر عبر الحدود[3].

وعلى أثر الاتفاق بين الجانبين صرح عبد الرحمن البيضاني في ١٨ ديسمبر بمؤتمر صحفي بأن الولايات المتحدة الأمريكية وافقت بعد مفاوضات على الاعتراف بحكومة الجمهورية اليمنية[4]، وبالفعل اعترفت الولايات المتحدة الأمريكية بها في ١٩ ديسمبر ١٩٦٢م، حيث حضر القائم بالأعمال الأمريكي وأعلن في مؤتمر صحفي بصنعاء قرار حكومته، ومُرَحِّبًا في بيانه بما جاء في بيان عبد الرحمن البيضاني السابق[5]. وقد جاء القرار الأمريكي بعد تأكيد التقارير الرسمية للخارجية الأمريكية على أن الملكيين لن يكونوا قادرين على استعادة

---

(١) F.R. , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic ., December 14 , 1962 , Volume XVIII , p. 265

(٢) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٣٨.

- الأهرام، بتاريخ ١٨ ديسمبر١٩٦٢م.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص ص٥٤١-٥٤٢.

(٤) نفسه، ص٥٣٨.

(٥) محسن العيني: خمسون عامًا في الرمال المتحركة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٦٠.

- عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٤١.

- أحمد حمروش: قصة ثورة ٢٣ يولية، الجزء الثالث (عبد الناصر والعرب)، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، ص٢٢٥.

- إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٦٣.

السيطرة الفعلية على اليمن طالما ظلت القوات المصرية هناك[١]، وهو ما أكده روبرت ستوكي Robert Stukey الوزير الأمريكي المفوض باليمن، حيث ذكر أن الجمهوريين يسيطرون على الجزء الأكبر من اليمن، وأن الملكيين يسيطرون على المناطق الحدودية الشمالية والشرقية فقط[٢]، ثم إن الخارجية الأمريكية تحدثت في مذكرة لها عن قلق بلادها مما يحدث في داخل اليمن، وأن عدم الاعتراف بالنظام الجديد هناك سوف يؤدي إلى تصعيد النزاع، ويهدد استقرار شبه الجزيرة العربية بكاملها، وأنه قد يؤدي إلى إنهاء وجود الولايات المتحدة باليمن، وإلى زيادة النفوذ السوفيتي به[٣]. ومن جانبها برَّرَتْ الحكومة البريطانية على لسان وزير الدولة للشؤون الخارجية اعتراف أمريكا بالجمهورية اليمنية بأنه قلق من جانب الولايات المتحدة الأمريكية على أن استمرار الدعم للملكيين من قِبل الحكومات القائمة في السعودية والأردن قد يؤدي إلى ثورات شعبية في هذه البلدان[٤]، هذا فضلاً عن استجابة اليمن لجميع شروط الاعتراف التي وضعتها أمريكا، وبخاصة احترام المعاهدات المعقودة من قِبل اليمن، وعلى رأسها معاهدة صنعاء مع بريطانيا عام ١٩٣٤م[٥].

وقد جاء رد الفعل البريطاني على الاعتراف الأمريكي بالنظام الجمهوري باليمن سريعًا، وذلك بتأجيل الاعتراف بهذا النظام، حيث أعلنت الحكومة البريطانية في نفس اليوم الذي اعترفت فيه أمريكا بالحكومة اليمنية ١٩ ديسمبر بأنها لا تنوي الاعتراف بحكومة الثورة

---

(١) F.R. , Memorandum from the Department of State Executive Secretary (Bruback) to the President's Special Assistant for National Security Affairs (Bundy) , December 6 , 1962 , Volume XVIII , p. 261.

(٢) سعيد محمد باديب: مرجع سابق، ص١٢٠.

(٣) F.R. , Memorandum from the Department of State Executive Secretary (Bruback) to the President's Special Assistant for National Security Affairs (Bundy) , December 6 , 1962 , Volume XVIII , p. 261.

(4) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , December 20 , 1962 , p.559.

(٥) ممدوح منصور: مرجع سابق، ص٢٩٨.

باليمن في الوقت الحاضر[١]، كما أن الحكومة أقرت في اجتماعها بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٦٢م تأجيل هذا الاعتراف حتى يحين الوقت الذي تكون فيه القوات المصرية قد انسحبت فعلًا من اليمن، خاصة أن واقع الأحداث كان يؤكد عدم إمكانية انسحاب القوات المصرية في ظل الظروف القائمة باليمن، حيث الالتزام الكامل من جانب السلطة المصرية لضمان نجاح الجمهوريين هناك، ومن دون هذا الدعم لن تكون حكومة الجمهورية اليمنية قادرة على الحفاظ على سيطرتها على كثير من أجزاء البلاد[٢]، كما رفض مجلس العموم البريطاني طلبًا للنائب وليم بيتس بمناقشة دعوته للحكومة البريطانية إلى الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية حرصًا على مصالح بريطانيا، وأذاع راديو لندن أن الدوائر البريطانية المسؤولة عن عدن تعتبر اعتراف أمريكا بحكومة الثورة اليمنية انتصارًا لهذه الحكومة، وأكد البيان على رفض بريطانيا ومعها فرنسا الاعتراف بها[٣].

هكذا جاء الاعتراف الأمريكي بالثورة اليمنية ليضع حدًّا لتردد الموقف البريطاني تجاهها، حيث شعرت بريطانيا بالخطر بعد أن استقر أمر الثورة بهذا الاعتراف، فقد صرح مصدر بريطاني مسؤول بأن اعتراف أمريكا بجمهورية اليمن يقضي على آخر أمل لمحمد البدر إمام اليمن المخلوع في عودة الإمامة للحكم، كما أكدت وكالة اليونيتدبرس United press أن اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية سيفتح باب الاعتراف بالثورة اليمنية أمام الدول الغربية الأخرى[٤]. وبالطبع كانت بريطانيا تعلم أن هذا الاعتراف سيؤدى إلى استقرار النظام الجمهوري باليمن، وبالتالي زيادة الخطورة على موقف بريطانيا بالجنوب اليمني، ومن ثم ضرورة أخذ موقف تجاهه من جانبها بعد فترة من التردد كانت قد سادت هذا الموقف.

على أية حال، فإن حالة التردد التي انتابت الموقف البريطاني تجاه الثورة اليمنية كانت أمرًا

---

(١) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٤٢.

(٢) Cab. 128/36 , Meeting of the Cabinet , December 20 , 1962 , p.559.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٤٥.

(٤) نفسه، ص٥٤٢.

منطقيًا، فقد أدرك البريطانيون منذ البداية مدى تهديد هذه الثورة للوجود البريطاني في عدن، خاصة مع اتساع نطاق المساندة المصرية لحكومة الثورة، وبالتالي زيادة خطورتها على المصالح البريطانية، هذا مع ضعف اتحاد الجنوب العربي الذي أقامته بريطانيا أمام تيار الثورة في اليمن، خاصة أن الأمم المتحدة كانت قد رفضت الاعتراف بهذا الاتحاد كممثل لليمن الجنوبي، مما أفقد بريطانيا الأمل في حماية وجودها ومصالحها في عدن تحت ستار اتحاد مستقل يحظى بالاعتراف الدولي، وهو ما زاد من خطر الثورة اليمنية على بريطانيا بعدن، وبالتالي ترددها في الاعتراف بها[١]، كما كانت التهديدات التي يرددها عبد الله السلال ضد الوجود البريطاني في عدن قد زادت من حالة التردد لدى البريطانيين، وهو ما أكده الرئيس كيندي في رسالة له إلى عبد الناصر، والذي قال بأن تهديدات السلال لن تؤدي إلا إلى زيادة مخاوف بريطانيا، في حين أن عبارات التطمين من الممكن أن تساعد في تحقيق اعتراف الحكومة البريطانية بالجمهورية اليمنية، وأكد كذلك على أنه ليس في وضع يسمح له بالضغط على الحكومة البريطانية لقبول الاعتراف في ظل بيانات غير حكيمة تصدر من صنعاء[٢]. كل هذا في ظل عدم توقع انسحاب القوات المصرية من اليمن، أو أن تطلب حكومة الجمهورية اليمنية انسحاب هذه القوات من أراضيها طالما ظلت هذه الحكومة تواجه تهديدًا من الملكيين وما يعتمدون عليه من دعم خارجي، وهو ما كان يقلق بريطانيا ويزيد من ترددها[٣]، ويضاف لذلك اعتقاد البريطانيين بأن قبائل اليمن لن ترضى بغير نظام الإمامة بديلًا، وأن الملك سعود والملك حسين والإمام البدر والأمير الحسن يستطيعون سحق الثورة وإعادة حكم الإمامة لليمن، ومن ثم كان ترددهم في

---

(١) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص ص٢٢٦-٢٢٧.

(٢) F.R. , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic ., January 19 , 1963 , Volume XVIII , p. 310

- محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص658.

(٣) F.R. , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Kingdom , February 28 , 1963 , Volume XVIII , p. 379.

الاعتراف بنظام قد يسقط من وجهة نظرهم في ظل هذه الضغوط التي تمارس ضده[١].

ومن جانب آخر، كان قد ساد دوائر صنع القرار والسياسة البريطانية تجاه الثورة اليمنية انقسام حاد، وهو ما أدَّى إلى زيادة حالة التردد لدى الحكومة البريطانية، فوزارة الخارجية وقطاع واسع داخل البرلمان وبخاصة من أعضاء حزب العمال، وبمساعدة قوية من بعض الصحف البريطانية كانت تناصر وجهة النظر التي تقول بضرورة الاعتراف بالنظام الجديد في اليمن لأجل الحفاظ على المصالح البريطانية في عدن[٢]، بينما جاءت وجهة النظر الأخرى، والتي تبنتها وزارة الدفاع ووزارة المستعمرات وشؤون الكومنولث وقطاع واسع من أعضاء البرلمان وبخاصة من أعضاء حزب المحافظين لتؤكد على عدم الاعتراف بهذا النظام، كي لا تتأثر مكانة حكام المحميات بالجنوب اليمني الموالين لبريطانيا وكذلك مشروعاتها هناك[٣]، ويعد دنكان سانديز Duncan Sundys وزير المستعمرات من أبرز رجال هذا الفريق، والذي كان على استعداد تام للتصدي لأي رأي يظهر لدى الخارجية والحكومة البريطانية للاعتراف بالثورة اليمنية، وموقفه هذا كان يكتسب قوة إذا ما تحدث عن أثر هذه الثورة على وضع بريطانيا في عدن والمحميات[٤]، خاصة أنه كان يجد التأييد لموقفه هذا من جانب السياسيين والعسكريين البريطانيين في عدن، والذين كان من رأيهم أن تتخذ الحكومة البريطانية موقفًا ثابتًا ضد النظام الجمهوري باليمن كي لا تتعرض مصالح بريطانيا في الجنوب اليمني للانهيار[٥].

ورغم هذا التردد الذي ساد الموقف البريطاني تجاه النظام الجديد باليمن، فإن أهمية الحدث وتأثيره على المصالح البريطانية في المنطقة وبخاصة في الجنوب اليمني، كان لا بد أن يفرض نفسه

---

(١) محمد حسنين هيكل: بريطانيا والثورة في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٦ أكتوبر ١٩٦٢م.

(٢) أحمد يوسف: مرجع سابق، ص ص١٦٥-١٦٦.

- فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢١٥.

(٣) أحمد يوسف: مرجع سابق، ص ص١٦٨-١٦٩.

- فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢٢١.

(٤) Cab. 128/36, Meeting of the Cabinet, December 6, 1962, p.536.

(٥) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢٢٢.

على الدوائر السياسية البريطانية كي تصل إلى قرار حاسم لموقفها من هذا النظام، خاصة بعد أن حسمت الولايات المتحدة الأمريكية موقفها واعترفت بالثورة اليمنية في ١٩ ديسمبر ١٩٦٢م، حيث استقر الرأي لدى السلطات البريطانية بعدها على رفض الاعتراف بهذه الثورة.

ثالثًا: الرفض البريطاني للاعتراف بالثورة اليمنية.

كان قرار الرفض البريطاني للاعتراف بالثورة اليمنية قرارا متوقعا، ذلك أن بريطانيا ومنذ البداية عمدت إلى مواجهة هذه الثورة والوقوف ضدها، انطلاقا من حقيقة أن النظام الجديد باليمن يمثل خطرا حقيقيا على وجودها بالجنوب اليمني، وإذا أضيف إلى ذلك الوجودُ المصريُّ باليمن عقب الثورة، فإن الوضع باليمن كان جِدَّ خطيرٍ للبريطانيين؛ ولهذا لم يمنع الموقف السياسي البريطاني المتردد تجاه الاعتراف بالثورة اليمنية من أن تحسم بريطانيا أمرها بضرورة التصدي للنظام اليمني الجديد، وذلك من خلال تزويد المعارضين لهذا النظام (السعودية والأردن) بالأسلحة والتحالف معهما، وتدريب قبائل الملكيين في الجنوب اليمني، وكذلك تجنيد قوات المرتزقة لمقاتلة الجمهوريين(٦).

فمنذ البداية حرصت بريطانيا على الارتباط بالسعودية والأردن المناهضتين للثورة اليمنية، وهو ما صرح به الأمير فيصل بن عبد العزيز في لقاء له مع السيد تالبوت Talbot المسؤول بالخارجية الأمريكية بتاريخ ١١ أكتوبر ١٩٦٢م، حيث قال بأن بريطانيا لديها مصالح في اليمن، والواضح في هذا الوقت الميل لانضمامها مع الحكومة السعودية والأردنية في جهد الإطاحة بعبد الله السلال من خلال التشجيع على ذلك وتقديم المال والأسلحة(٧)، كما ذكر عبد الرحمن البيضاني للوفد البرلماني البريطاني الذي زار اليمن في نوفمبر ١٩٦٢م في خطاب

(٦) محمد حسنين هيكل: الشعار الذي رفعته الحوادث إلى مرتبة القانون، مقال بالأهرام، بتاريخ ١٩ أكتوبر١٩٦٢م.
- فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص ص٢٢٢-٢٢٣.

(٧) F.R., Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic ., October 13, 1962, Volume XVIII, p.p. 178-179

ألقاه أمام الوفد في منطقة "عمران" شمال غرب اليمن بأن بريطانيا تتآمر ضد بلاده مع الملك السعودي والملك الأردني[1]. وفي إطار هذا الارتباط، قدمت بريطانيا مساعداتها العسكرية لكل من الأردن والسعودية، ففي ١٠ أكتوبر ١٩٦٢م قدمت بريطانيا إلى الأردن طائرات من طراز "هنتر" بعد أن تم الاتفاق على ذلك مع الملك حسين ملك الأردن[2]، وعندما قامت القوات المصرية في ٤ نوفمبر ١٩٦٢م بقصف قرى سعودية قرب "نجران" قدمت بريطانيا شبكة صواريخ دفاعية أرض جو، وكذلك العديد من الطائرات البريطانية للمملكة العربية السعودية[3].

وتأكد للحكومة اليمنية أمر هذا الارتباط على أثر لجوء طيار أردني بطائرته الحربية إلى القاهرة في يوم الاثنين ١٢ نوفمبر ١٩٦٢م، وعقده مؤتمرا صحفيًّا أذاع فيه أسرار التورط العسكري الأردني في القتال ضد الثورة اليمنية؛ لذلك استدعى عبد الرحمن البيضاني الوزير المفوض البريطاني في يوم الثلاثاء ١٣ نوفمبر ١٩٦٢م وأبلغه اعتراض حكومته على ذلك، وأكد على أن حكومة الثورة اليمنية لن تقف مكتوفة الأيدي وهي تراقب المساعدات البريطانية للمتمردين، وقيام القوات الجوية البريطانية بنقل القوات الأردنية إلى منطقة "بيجان" الواقعة تحت السيطرة البريطانية[4]، كما ذكر عبد الرحمن البيضاني في بيان له أصدره في يوم السبت ٥ ديسمبر ١٩٦٢م بأن الحلف العدواني الذي اكتمل ضد الثورة اليمنية أقام مركزين في "نجران" و "جيزان" لتدريب المرتزقة تمهيدًا لدفعهم إلى داخل الأراضي اليمنية بعد تزويدهم بالأسلحة التي تنقلها إليهم الطائرات الأردنية التي يقودها طيارون بريطانيون من عمان في الأردن إلى الطائف في السعودية، حيث تنقلها بعد ذلك الطائرات السعودية التي يقودها طيارون أجانب

---

(١) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٠٣.

- الأهرام، بتاريخ أول ديسمبر ١٩٦٢م.

(٢) محمد حسنين هيكل: هذا الوضوح القاطع في معركة اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٦٢م.

(٣) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٥٣.

(٤) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٤٧٧.

- الأهرام، بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٩٦٢م.

إلى "نجران" و "جيزان"[١].

ورغم هذا الاعتراض فإن بريطانيا حرصت على هذا التحالف وعلى استمراره؛ لذلك كان حرصها على عودة العلاقات الرسمية مع السعودية في يناير ١٩٦٣م وتغاضيها عن الخلاف معها حول قضية واحة البوريمي وقبولها تحويل القضية للأمم المتحدة، كما زادت من تدفق الخبراء العسكريين البريطانيين على السعودية، وكذلك زادت من تجنيد الجنود المرتزقة بقيادة الضباط البريطانيين، هذا فضلا عن زيادة تدفق الأسلحة لتدريب الملكيين المحتشدين في الشمال اليمني[٢]، ومن أجل استمرار هذا التحالف لعبت بريطانيا دورا كبيرا في إفشال محاولات فض الاشتباك التي جرت بين الجانبين المصري والسعودي عقب هجوم رمضان الذي شنته القوات المصرية واليمنية على الملكيين في نهاية يناير وبداية فبراير ١٩٦٣م[٣]. على أية حال، فإن حرص بريطانيا على هذا التحالف إنما تعكسه رغبتها في التصدي للثورة اليمنية، فقد أكدت الخارجية الأمريكية على أن التحالف البريطاني - السعودي - الأردني يمكن أن يعمل على إحداث مواجهة قوية لحكم عبد الله السلال باليمن، كما يمكن أن يخلق حالة من الجمود لأي طرف كي لا يكون قادرا على حكم البلاد بكاملها[٤].

ومن جانب آخر، جعلت بريطانيا من محمية "بيجان" مركزا لمعسكر الثورة المضادة للنظام الجمهوري باليمن، وهو ما ظهر منذ البداية، فقد جرت مباحثات عقب الثورة مباشرة بين دوجلاس Douglas ضابط الاستخبارات البريطاني مع كاتم سر شريف بيجان في مكتب جهاز الاستخبارات البريطاني بعدن، حيث تم الاتفاق على تسليح ٢٠ ألف رجل في

---

(١) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٣٥.
- الأهرام، بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٦٢م.

(٢) غسان سلامة: السياسة الخارجية السعودية منذ ١٩٤٥م، معهد الانماء العربي، بيروت، ١٩٨٠م، ص١٩٠.

(٣) F.O., 371/178578, R. No. 5, from Beely to the Foreign Office, January 16, 1964.

(٤) F.R., Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic, October 13, 1962, Volume XVIII, p. 179.

المحور الشرقي من قبائل "خولان"، وعلى إنشاء خطوط إمداد متصلة تبدأ بالبواخر الحربية من عدن حتى ميناء "المكلا" عاصمة حضرموت، ومن حضرموت إلى الربع الخالي ثم إلى داخل اليمن، وكذلك تم الاتفاق على تقديم معونة فنية كاملة من خبراء الشفرة والعاملين في تدريب المدفعية الثقيلة، وأن يكون مقرها منطقة "النقوب" موطن الشريف الهيبلي، وعلى تنظيم هبوط طائرات نقل كبيرة بمعدل طائرة في كل ليلة بمطار النقوب السري الذي جرى تمهيده إلى جوار القصر الأبيض للشريف(١).

وفي هذا الإطار صرح مصدر رسمي في لندن بأن بريطانيا أقامت منشآت عسكرية على حدود اليمن، وأنها أقامت في محمية بيجان المتاخمة للحدود الشرقية لليمن شبكة رادار ومدافع مضادة للطائرات، والتي يتولى الجنود البريطانيون تشغيلها، وأن الأمر قد صدر بمنع الطيران فوق بيجان بغير إذن مسبق بعد أن قامت طائرات قادمة من اليمن الشمالي بعمليات استكشاف فوق إمارة بيجان(٢). وبذلك يمكن القول بأن بريطانيا كانت عبر شريف بيجان تقدم الأسلحة والذخائر والمعونة الفنية في مجالات التخطيط والتنظيم والتدريب وتشغيل الأجهزة للملكيين في الشطر الشمالي من اليمن، وكذلك إرسال الإمدادات التي كان يتلقاها الملكيون ليلا بالمظلات من طائرات تقلع قواعدها من الجنوب اليمني(٣). والحقيقة أن هذا الإمداد العسكري من بريطانيا يتفق تمامًا مع ما أوصت به وكالة الاستخبارات البريطانية بإطالة الصراع باليمن لأجل استنزاف الجيش المصري هناك(٤).

وبالإضافة لذلك عمدت بريطانيا إلى تحريض أمير بيجان للقيام بعمليات عسكرية

---

(١) مكرم محمد أحمد: الثورة جنوب الجزيرة العربية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م، ص١٧٥.

(٢) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٤٦.

(٣) أحمد يوسف: مرجع سابق، ص ص١٧٢-١٧٣.

- فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢٢٥.

(٤) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص٦٥٦.

مباشرة ضد النظام الجمهوري باليمن الشمالي وزودته بالأسلحة اللازمة لذلك[١]، وهو ما جعل حكومة الثورة تعلن بعد شهر واحد من قيامها أن هناك عناصر مقاتلة يتم تسللها إلى أعوان الملكية، فضلًا عن المال والإمدادات الأخرى، وأن الإمدادات تأتي من إمارة بيجان[٢]، فبتمويل من حكام اتحاد الجنوب العربي والإدارة البريطانية في عدن والمحميات تشكلت الفرق العسكرية من القبائل المحلية ومن الملكيين الفارّين من اليمن الشمالي في إمارة بيجان[٣]. والنتيجة لذلك أن بيجان أصبحت مركزًا لتسلل عناصر مسلحة للقتال ضد الجمهوريين، ففي أكتوبر ١٩٦٢م سمح البريطانيون بتسلل عناصر من المرتزقة وعناصر أُردنية وسعودية مضافًا إليها بعض جنود إمارة بيجان ومعها مدافع هاون ورشاشات وألغام كلها بريطانية الصنع، وتحصنت هذه العناصر في محور "مأرب"، ولهذا قامت الطائرات اليمنية في ٢٢ أكتوبر بغارة على منطقة التسلل، وهو ما دفع السلطات البريطانية إلى أن تدَّعي بأن غارات من الطائرات اليمنية وقعت على قرى وتجمعات سكانية داخل إمارة بيجان نفسها، وأكدت كذلك على أن الأوامر صدرت إلى سلاح الجو البريطاني بإسقاط أي طائرة من اليمن الشمالي تقترب من إمارة بيجان، والتي تقع تحت الحماية البريطانية[٤].

وأمام هذا الاتهام أعلن عبد الرحمن البيضاني في ٢٤ أكتوبر ١٩٦٢م أن الحكومة اليمنية أمرت بالتحقيق فيما ادعته بريطانيا بضرب إمارة بيجان بالقنابل ومحاكمة من تثبت عليهم تهمة مخالفة الأوامر التي أصدرتها الحكومة والتي تقضي بعدم تجاوز الطيران اليمني المجال الجوي اليمني الشمالي، وقد استدعى عبد الرحمن البيضاني الوزير المفوض البريطاني وسلمه

---

(١) محمد حسنين هيكل: هذه هي الحقيقة الآن في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ أول مايو١٩٦٤م.

(٢) مكرم محمد أحمد: مرجع سابق، ص٢٠٤.

(٣) جولوفيكا إيلينا (ترجمة: محمد عبد الله البحر): التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية ١٩٦٢-١٩٨٥م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٩٤م، ص٢٩.

(٤) محمد حسنين هيكل: بريطانيا والثورة في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٦ أكتوبر١٩٦٢م.

- إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص ص١٥٤-١٥٥.

نسخة من تصريحاته السابقة والتي أذاعتها إذاعة صنعاء، وأكد له استعداد حكومة الثورة لتعويض أية خسارة[1]. ورغم ذلك، فقد ذكر عبد الرحمن البيضاني أن معلومات الجمهورية اليمنية تؤكد أن بريطانيا حشدت في إمارة بيجان قوات مدرعة مزودة بالمدفعية المتحركة استعدادًا للهجوم على بلاده[2]، وفي ٩ نوفمبر ١٩٦٢م اتهم عبد الله السلال بريطانيا بالتآمر ضد الجمهورية اليمنية[3]. وحين لقائه الوفد البرلماني البريطاني باليمن في نوفمبر ١٩٦٢م أكد عبد الرحمن البيضاني على تآمر بريطانيا مع أمير بيجان ضد الثورة اليمنية[4].

وإمعانًا في تصدِّيها للثورة اليمنية عمدت بريطانيا إلى تكوين ما عرف بـ "جيش المرتزقة"[5]، حيث استطاع جوليان أيمري رئيس مجموعة نواب السويس التي كان شعارها: أن عدن لن تلحق بالسويس وبعض أصدقائه أن يُنشئوا مكتبًا للاتصال والدفاع عن نظام الإمامة باليمن، وفي أيام قليلة كان هذا المكتب قد تلقى اعتمادات ضخمة حُوِّلَتْ إليه من الرياض ونيويورك وغيرها من المراكز، وبدأ يتصل ببعض الضباط المحترفين، وبينهم الميجور جون كوبر John Cooper الذي راح يتردد على بعض وكالات تأجير المرتزقة في شارع "سلون" في لندن، ولم تمض بضعة أسابيع بعد ثورة اليمن حتى كان جون كوبر قد وصل إلى نجران وتسلل داخلًا إلى منطقة الجوف ومعه قوة خاصة من مساعديه، وهناك أنشأوا قاعدة للاستقبال والإعداد يتوجه إليها القادمون بعدهم[6]. ثم إن السلطات البريطانية في

---

(١) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٤٦٣.
- الأهرام، بتاريخ ٢٥ أكتوبر ١٩٦٢م.

(٢) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٤٦٤.

(٣) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص ص١٥٤- ١٥٥.

(٤) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٠٣.
- الأهرام، بتاريخ أول ديسمبر ١٩٦٢م.

(٥) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص٦٦٣.
- أمين هويدي: مرجع سابق، ص١٠٢.

(٦) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص ص٦٦٣- ٦٦٥.

عدن سهلت مرور الموالين لحكم الإمامة إلى اليمن الجنوبي عبر إمارة بيجان، وأقامت لهم مراكز للتدريب، كما أنها قامت بتجنيد بعض جنودها كمرتزقة، هذا فضلًا عن قيام البعض بتدريب الملكيين ثم إرسالهم مزودين بالسلاح كقوات خاصة إلى اليمن الشمالي، بل والقيام بالقتال إلى جوارهم[١].

ووضح دور بريطانيا في تكوين قوات المرتزقة مع قصف القوات المصرية لهذه القوات في منطقة مأرب على الحدود مع إمارة بيجان مما أدى إلى إعلان القوات البريطانية في الجنوب عن قصف أي طائرة مصرية تقترب من حدود اليمن الجنوبي[٢]، وزاد الدور وضوحًا بعد حصول السلطات المصرية على وثائق[٣]* تثبت هذا الدور[٤]، حيث استطاعت إحدى الدوريات المصرية الجوية على الحدود الجنوبية لليمن الشمالي القبض على رجل كان يحاول الاختباء بين الجبال، ووجدت معه مجموعة من الرسائل الموجهة من لندن إلى جون كوبر قائد العمليات العسكرية البريطانية باليمن[٥]، والتي كان بعضها بتوقيع من يدعى توني، والذي عُرِف فيما بعد بأنه النقيب طيار أنطوني بويل Anthony Boyle أحد العاملين في إدارة الحاكم العام لعدن[٦]* على عهد شارلز جونستون Charles Johnston حتى يونية ١٩٦٣م، ومن بعده على عهد كيندي تريفاسكس Kennedy Trevasks.

---

(١) F.O., 371/174483, Tele No. 1031, From Gaddo to the Foreign Office, September 4, 1964.

- محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص٦٦٦.

(٢) محمد حسنين هيكل: الأسد البريطاني وطبول الحرب، مقال بالأهرام، بتاريخ ٢٩ أكتوبر١٩٦٢م.

(٣) (*) تم نشر هذه الوثائق في جريدة الأهرام بتاريخ أول مايو١٩٦٤م.

(٤) الأهرام، بتاريخ أول مايو١٩٦٤م.

(٥) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، ص٦٦٦.

(٦) (*) تم مناقشة الأمر في مجلس العموم البريطاني بجلسة ٣ مايو ١٩٦٤م، حيث نفى دوجلاس هوم رئيس الحكومة البريطانية حينها علم حكومته بالأمر، ونفي كذلك أن يكون الحاكم العام لعدن على دراية بالنشاط الذي كان يقوم به أنطوني بويل، وفي ٢١ يولية ١٩٦٤م صرح رئيس الحكومة في مجلس العموم بأن أحدًا لم يخوّل أنطوني بويل للقيام بتلك النشاطات، وأن الحاكمين العامين لعدن واللذين عمل بويل في خدمتهما لم يكونا على علم بها.

إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص٢١٨.

وقد تبين من هذه الوثائق مدى تورط الحكومة البريطانية في الحرب ضد الثورة اليمنية سواء بجنودها على شكل مرتزقة أو بتزويد الملكيين بالأسلحة الخفيفة والثقيلة عن طريق إمارتي «نقوب» و «بيجان» على الحدود مع اليمن الجنوبي، فضلًا عن الحملات الإعلامية لدعم الجنود المرتزقة، ودعمها الفنيين والخبراء، سواء باستخدام اللاسلكي والشفرة والمفرقعات، أو في تدريب القوات الملكية ومن بينها قوات المرتزقة بالطبع في اليمن الجنوبي[١]، وقد اعترف فيما بعد متحدث رسمي باسم الحكومة البريطانية بصحة تلك الوثائق[٢]. وهو ما يثبت الدور البريطاني في تشكيل قوات المرتزقة باليمن.

هكذا مضت بريطانيا في تصديها للنظام الجديد باليمن ومنذ قيام الثورة، وهو ما كان يعطي مؤشرا حقيقيًا عن الصورة التي سيكون عليها الموقف البريطاني من هذه الثورة، والذي استقر في النهاية على رفض الاعتراف بها، حتى وإن كان التردد قد ساد هذا الموقف فترة من الزمن، وقد جاءت لحظة البت في قرار الرفض البريطاني، ففي يوم الاثنين ٢٤ ديسمبر ١٩٦٢م وعقب الاعتراف الأمريكي بالثورة اليمنية، قرر عبد الرحمن البيضاني استدعاء كريستوفر جاندي الوزير المفوض البريطاني في تعز إلى صنعاء، وحدد موعدًا لمقابلته في صباح الأربعاء ٢٦ ديسمبر، كما كلف الإذاعة اليمنية بأن تذيع خبر بحث العلاقات مع بريطانيا، وإعادة النظر في موقف الدول التي لم تعترف بحكومة الثورة ولا يزال ممثلوها موجودين باليمن، وبالفعل أذاع راديو صنعاء أن الوزير المفوض البريطاني سوف يصل إلى صنعاء لمقابلة عبد الرحمن البيضاني لبحث العلاقات السياسية بين حكومتي اليمن وبريطانيا بعد أن قام مجلس الوزراء اليمني بمناقشة هذا الموضوع، وكان الغرض من ذلك كما قال عبد الرحمن البيضاني هو أن يحاط الوزير المفوض علمًا بالرفض اليمني للموقف البريطاني تجاه عدم اعترافهم بالثورة والجمهورية اليمنية رغم استمرار وجود المفوضية البريطانية باليمن[٣]. ومن جانب آخر، كان عبد الله السلال في ١٤ ديسمبر ١٩٦٢م قد هدد بإغلاق مقار البعثات الدبلوماسية الأجنبية باليمن لكل الدول التي لم

(١) محمد حسنين هيكل: هذه هي الحقيقة الآن في اليمن، مقال بالأهرام، بتاريخ أول مايو ١٩٦٤م.

(٢) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص٢١٨.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٤٩.

تعترف بحكومة الثورة في اليمن(١).

وفي يوم ٢٦ ديسمبر ١٩٦٢م تم عقد اللقاء بين عبد الرحمن البيضاني والوزير المفوض البريطاني، حيث أبدى الوزير البريطاني أسفه لتأخير اعتراف بلاده بحكومة الثورة اليمنية، بينما طالبه عبد الرحمن البيضاني بأن يسأل حكومته عما إذا كانت مدة الثلاثة أشهر التي تمتعت خلالها المفوضية البريطانية في اليمن بجميع الامتيازات الدبلوماسية تحت حماية ورعاية حكومة الثورة غير كافية لإقناعها بأن هذه الحكومة هي الحكومة الشرعية، وإذا كانت هناك حكومة أخرى فلماذا لم تنقل بريطانيا مفوضيتها إلى أراضيها؟(٢). وفي نفس اليوم عقد عبد الرحمن البيضاني مؤتمرًا صحفيًا، حيث أعلن في هذا المؤتمر أن الاستعمار يريد أن يقوّض ثورة اليمن؛ لأنه لا يتصور قيام جمهورية متحررة من كل قيد في الجزيرة العربية، ولأن قيام جمهورية في اليمن تؤمن بالوحدة والقومية العربية لا يعني شيئا سوى القضاء على الاستعمار في كل أنحاء هذه المنطقة(٣).

وقد أكد عبد الرحمن البيضاني على أن الموقف العقلاني لحكومة الثورة مع الحكومة البريطانية أدى إلى تأييد بعض الصحف البريطانية لحكومة الثورة، حيث نشرت صحيفة «التايمز» البريطانية خبرًا قالت فيه: إنه يمكن الآن لحكومة اليمن أن تطلب ضرورة مغادرة كريستوفر جاندي الوزير المفوض البريطاني للأراضي اليمنية، وأذاعت وكالة الأسوشيتد برس للأنباء أن حكومة الثورة هددت بطريق غير مباشر بإغلاق المفوضية البريطانية في اليمن، نظرًا لاستمرار بريطانيا في موقفها الرافض للاعتراف بالثورة اليمنية، إذ ألمحت إلى سحب الامتيازات الدبلوماسية من المفوضية ما دامت تمثل حكومة لا تعترف بها(٤).

ورغم ما تحدثت عنه الخارجية الأمريكية من وجود دعاية تحريضية ضد بريطانيا

---

(١) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٦٣.

- فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص ص٢١٩-٢٢٠.

(٢) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص ص٥٥٠-٥٥١.

(٣) نفسه، ص٥٥٠.

- الأهرام، بتاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٦٢م.

(٤) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٥٣.

من حكومتي صنعاء والقاهرة، واستمرار مراوغة بريطانيا في الاعتراف بالجمهورية اليمنية، والجانب العدائي من كثير من الصحف البريطانية للثورة، وكذلك الضغوط البريطانية ضد الجمهورية اليمنية والتي يتم ترتيبها من قبل شريف بيجان[١]، فإن قضية اعتراف بريطانيا بالجمهورية اليمنية كانت قيد البحث في هذا الوقت من جانب البريطانيين[٢]، فقد استقبل عبد الرحمن البيضاني في ٧ يناير ١٩٦٣م كريستوفر جاندي الوزير المفوض البريطاني باليمن، والذي أبلغ عبد الرحمن البيضاني بأنه تلقى تأكيدات قاطعة من حكومته بأنها قررت الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية، وأن إعلان ذلك قد يستغرق وقتًا لاستيفاء الإجراءات الشكلية، لكنه لن يطول أكثر من عشرة أيام[٣]، كما أن عبد الرحمن البيضاني ذكر بأنه كان قد تبادل باسم الحكومة اليمنية الرسائل مع هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا، والتي تحدثت عن أن بريطانيا أوشكت على إعلان الاعتراف البريطاني بحكومة الجمهورية العربية اليمنية، ذلك الاعتراف الذي كان من شأنه أن يؤدي إلى وقف التسلل من الجنوب للشمال اليمنى بعد أن تم الاتفاق بمقتضي الاعتراف الأمريكي بالثورة اليمنية على وقف التسلل من الشمال للجنوب اليمني[٤].

ومن جانب آخر، قابل كريستوفر جاندي الرئيس عبد الله السلال قبل سفره لبريطانيا للتشاور مع حكومته، حيث أكد الوزير البريطاني في هذه المقابلة على اتجاه حكومته إلى الاعتراف بالجمهورية اليمنية بعد أن أكد له الرئيس عبد الله السلال نية الحكومة اليمنية التي تتجه إلى إزالة أسباب التوتر والقلق حول الحدود بين اليمن الجنوبي والشمالي، وبعد المقابلة صرح الوزير المفوض البريطاني للصحفيين بأنه أبلغ عبد الرحمن البيضاني بأن

---

(١) F.R. , Memorandum from the Assistant Secretary of State for Near Eastern and South Asian Affairs (Talbot) to Secretary of State (Rusk) , January 2 , 1963 , Volume XVII , p. 292.

(٢) Ibid , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic ., January 4 , 1963 , Volume XVIII , p. 299.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٦٩.

- الأهرام، بتاريخ ٨ يناير ١٩٦٣م.

(٤) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٩٢.

حكومته ترغب في إقامة علاقات ودية مع الجمهورية اليمنية، وأن عبد الرحمن البيضاني أبلغه بأن حكومة الثورة كانت تسعى إلى ذلك منذ قيامها ولكن بريطانيا لم تفسح المجال لتنمية هذه العلاقات بتأخرها في الاعتراف بالوضع الشرعي الذي تمثله حكومة الثورة. وقد أعلن راديو لندن في يوم ١٥ يناير ١٩٦٣م أن كريستوفر جاندي سوف يقدم تقريرًا شخصيًا إلى اللورد دوجلاس هوم وزير الخارجية عن اجتماعه مع قادة اليمن، كما سيبحث معه مسألة الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية، وصرحت مصادر بريطانية مسؤولة في لندن يوم الأربعاء ١٦ يناير ١٩٦٣م بأن بحث الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية يمر بمراحله النهائية[١]، وفي ١٧ يناير ١٩٦٣م أذاع راديو لندن أن وزير بريطانيا باليمن في طريقه إلى لندن لأجل التشاور بعد أن وصل إلى عدن، وأن كريستوفر جاندي استُدْعِيَ لتقديم تقرير للخارجية البريطانية حول محادثاته مع زعماء اليمن حول تطورات الأحداث باليمن منذ قيام الثورة حتى لقائه الذي سيعقد مع وزير الخارجية[٢].

في هذا الوقت كان عبد الرحمن البيضاني يعتقد أن بريطانيا لن تستطيع أن تقف وحدها ضد اليمن في المعركة السياسية، خاصة بعد أن انتزع اليمن اعتراف الحكومة الأمريكية وما تبع ذلك من اعترافات دولية بحكومة الثورة، وهو ما جعله يعتقد أن هذا أفقد البريطانيين نصيرًا لهم في رفض الاعتراف بالثورة اليمنية، هذا فضلا عن حصول حكومة الثورة على مقعد اليمن بالأمم المتحدة، والذي يعد اعترافا من منظمة دولية بالثورة[٣]، ومع ذلك، فإن هذا لم يكن ليغير من الموقف البريطاني الرافض للثورة اليمنية، هذا على الرغم من الخطوات التي أخذت في إطار الاعتراف بها، والتي وصلت إلى حد اتفاق عبد الرحمن البيضاني مع الوزير المفوض البريطاني على صيغة الخطابات التي يتم تبادلها بعد الاعتراف، ولكن هذه الخطوات توقفت بعد أن أخذت بريطانيا قرارها برفض الاعتراف[٤].

---

(١) نفسه، ص ص٥٧٧-٥٧٨.

(٢) نفسه، ص٥٧٨.

(٣) نفسه، ص ص٥٤٩- ٥٥٠.

(٤) أحمد حمروش: مرجع سابق، ص٢٢٥.

وبالفعل مر النقاش حول هذا الأمر داخل دوائر صنع القرار البريطاني بأصعب مراحله خلال هذه الفترة، وليخرج بعد ذلك قرار الحكومة البريطانية برفض الاعتراف، حيث استقر الموقف البريطاني حول هذا الرأي مع نهاية يناير ١٩٦٣م، وذلك بعدم الاعتراف بالثورة اليمنية(١)، إذ صرح مصدر مسؤول بالحكومة البريطانية في ٤ فبراير ١٩٦٣م بأن الموقف في اليمن غير واضح بما يكفي لتبرير الاعتراف بالنظام الجديد باليمن، وفي يوم ٦ فبراير ١٩٦٣م صرح وزير الخارجية البريطاني بأن سياسة الحكومة البريطانية تجاه حكومة الثورة اليمنية هي الاعتراف بها حين تملك السيطرة الفعالة على كل أراضيها، وهو الأمر الذي لم يثبت لبريطانيا(٢)، فمن وجهة نظرها لا يمكن الاعتراف بنظام يعتمد في وجوده على تأييد خارجي، ويقصد بذلك الوجود المصري باليمن(٣). وقد وقف وراء هذا القرار كل من هارولد ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني، ودنكان سانديز وزير الدولة لشؤون المستعمرات، وبيتر ثورنيكروفت Peter Thorneycroft وزير الدفاع، وجوليان إيمري وزير الطيران(٤)، والغريب أن حزب العمال الذي كان يُبدي الموافقة على الاعتراف بالثورة اليمنية عند وجوده في المعارضة ساير الحكومة في عدم الاعتراف بها بعد أن أصبح في السلطة(٥).

ومن جانبها ردت الجمهورية اليمنية على الرفض البريطاني بإعلان رئيس الجمهورية عبد الله السلال بأنه سيطلب ترحيل الدبلوماسيين البريطانيين من اليمن خلال أسبوع إذا لم تعترف بريطانيا بنظام الحكم الجديد في اليمن(٦)، ولذا تلقت الحكومة البريطانية إنذارًا

---

(١) F.O., 371/1728578, Letter from Beith to Stevens, January 31, 1963.

- عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص594.

- أحمد حمروش: مرجع سابق، ص٢٢٥.

(٢) فاروق عثمان أباظة: مرجع سابق، ص٢٢٤.

(٣) صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٦٣٨.

(٤) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٩٤.

(٥) صلاح العقاد: مرجع سابق، ص٦٣٨.

(٦) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٩٣.

من الجمهورية اليمنية لإغلاق مفوضيتها في "تعز" في موعد أقصاه ١٧ فبراير ١٩٦٣م[١]، وقد أكدت الخارجية الأمريكية على أن سياسة عدم ضبط النفس من جانب الجمهورية اليمنية والشروع في سياسة عدوانية ضد بريطانيا ترجع إلى عدم اعتراف بريطانيا بها، كما أكدت على أن الاعتراف بالثورة اليمنية من جانب بريطانيا أصبح أكثر إلحاحًا بعد الإنذار الذي وجهه عبد الله السلال إلى بريطانيا بضرورة الاعتراف أو إغلاق مفوضيتها في تعز، وأنه إذا كانت بريطانيا لا ترغب في الاعتراف بهذه الثورة تحت تهديد عبد الله السلال، فإن عدم اعترافها من الممكن أن يجلب عليها صعوبات في منطقة عدن[٢]، ورغم ذلك رفضت بريطانيا هذا الإنذار، وطلبت من حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أن تتولى رعاية المصالح البريطانية باليمن بعد إغلاق مفوضيتها في تعز[٣]، وبالفعل أغلقت المفوضية البريطانية في ١٦ فبراير ١٩٦٣م بسبب عدم الاعتراف البريطاني بالنظام الجديد في اليمن[٤].

وزيادة على ذلك، أصبحت الجمهورية اليمنية مقتنعة بأن بريطانيا معادية لها وداعمة للملكيين وبالتالي ضرورة معاملتها بالمثل، حيث أكدت الخارجية الأمريكية في رسالة إلى سفارتها بلندن على اقتناع الجمهوريين في اليمن بعداء بريطانيا لهم، والذي أرجعته إلى تأخر الاعتراف البريطاني بالثورة اليمنية، وذكر السيد بال Ball المسؤول بالخارجية الأمريكية بأن محسن العيني أخبره بأن الجمهورية اليمنية لديها القدرة على إثارة المشاكل في عدن، وبالمثل يمكن لها إثارة المتاعب في السعودية. وتعقيبًا على ذلك أكد هذا المسؤول بأن عدم اعتراف بريطانيا بالحكومة اليمنية يعد سببا رئيسيًا في سياسة عدم ضبط النفس التي تسير عليها

---

(١) F.R. , Telegram from the Embassy of the United State in London to Washington , February 14 , 1963 , Volume XVIII , p. 347.

(٢) Ibid , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Kingdom , February 12 , 1963 , Volume XVIII , p. 347.

(٣) Ibid , Telegram from London to Washington , February 14 , 1963 , Volume XVIII , p. 347.

(٤) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٦٤.

الجمهورية اليمنية، والشروع في سياسة عدوانية ضد الوجود البريطاني في عدن[١].

وترجمت الحكومة اليمنية سياستها هذه بصورة عملية، ففي ٢٩ يناير ١٩٦٣م تحركت قوة محدودة من الجمهورية اليمنية داخل إمارة بيجان، وقامت بقتل عدد من جنود اتحاد المحميات بالجنوب اليمني، ثم توغلت قوة جمهورية أخرى خلال أيام قليلة لاحقة وهاجمت منطقة عسكرية بالقرب من قلعة "خريب"؛ ولذا واجهت القوات البريطانية هذا التوغل مما اضطر قوات الجمهوريين إلى الانسحاب في ٢٦ فبراير ١٩٦٣م بفضل القصف بنيران المدفعية البريطانية[٢]. ولم تكتف بريطانيا بذلك، فقد قام سلاح الجو البريطاني وفي نفس اليوم بالاعتداء على الأراضي اليمنية، حيث أعلن راديو صنعاء نبأ هذا العدوان، وأكد على أن الرئيس عبد الله السلال أبلغ ذلك إلى يوثانت Uthant سكرتير عام الأمم المتحدة، وإلى جامعة الدول العربية، ثم استدعى الوزير المفوض الأمريكي في اليمن ولفت نظره إلى تصرفات بريطانيا ونتائجها على ثورة اليمن، ثم وجه عبد الله السلال إنذارًا إلى الحكومة البريطانية عن طريق السفارة الأمريكية في يوم الخميس ٢٨ فبراير ١٩٦٣م بأنها إذا لم تتوقف فورًا عن الأعمال الاستفزازية على حدود اليمن فإن بريطانيا سوف تواجه "سويس أخرى باليمن"[٣]. وفي نفس اليوم وجه عبد الله السلال إلى مجلس الأمن رسالة طلب إليه فيها اتخاذ إجراء عاجل لوقف العدوان البريطاني على بلاده[٤].

وقد اعتبرت الخارجية الأمريكية سياسة اليمن العدوانية تجاه بريطانيا نتيجة مباشرة لعدم اعتراف بريطانيا بالجمهورية اليمنية، حيث كانت حكومة اليمن تمارس ضبط النفس في علاقاتها مع عدن تحسبًا لاعتراف بريطانيا بنظامها الجمهوري، وقد استمر ذلك طيلة

---

(١) F.R. , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Kingdom , February 12 , 1963 , Volume XVIII , p. 347.

(٢) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص ص١٦٤-١٦٥.

(٣) عبد الرحمن البيضاني: مصدر سابق، ص٥٩٨.

(٤) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، ص١٧٥.

أسابيع قبل البت في الاعتراف أو الرفض نهائيًا من جانب بريطانيا[١]. ثم إنه أصبح من المؤكد عدم اعتراف الجمهورية اليمنية بالاتحاد الجنوبي العربي[٢]، حيث كان من المتوقع أن يؤدي اعتراف بريطانيا بالجمهورية اليمنية إلى إسكات معارضة حكومة اليمن لهذا الاتحاد، خاصة أن عبد الله السلال كان قد أبدى استعداده لكي يعلن اعترافه بمعاهدة صنعاء، وذلك عند تقديم السفير البريطاني أوراق اعتماده إلى حكومة عبد الله السلال عقب اعتراف بريطانيا بالنظام الجمهوري باليمن[٣]. بل وصل الأمر إلى درجة التحريض علنًا ضد بريطانيا، فقد دعا الرئيس عبد الله السلال اليمنيين بالجنوب اليمني في اجتماع جماهيري حاشد كان قد عقده بمدينة تعز في يوم ٧ مارس ١٩٦٣م إلى الثورة ضد الوجود البريطاني للانتقام من البريطانيين الرافضين لنظامه[٤].

ورغم ذلك، لم تفقد حكومة الجمهورية اليمنية الأمل في نيل الاعتراف البريطاني بالثورة، فقد أكد محسن العيني للأمريكيين عند زيارته إلى الولايات المتحدة الأمريكية عقب اعتداء بريطانيا على بلاده في فبراير عام ١٩٦٣م أن مشكلة اليمن لن تجد حلًّا إلا بالاعتراف البريطاني والسعودي بالنظام الجمهوري في اليمن[٥]. وعند زيارة رالف بانش Ralph Bunche مبعوث الأمم المتحدة لليمن في ٢ مارس ١٩٦٣م كان أهم ما تحدث فيه اليمنيون معه هو ضرورة الاعتراف البريطاني بنظامهم الجمهوري، وإبعاد أسرة حميد الدين، ومن بعد ذلك سوف تقوم القوات المصرية بالانسحاب من اليمن[٦]، وقد أكد رالف بانش على مطلب اليمنيين حين لقائه

(١) F.R. , Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Kingdom , February 28 , 1963 , Volume XVIII , p.p. 379-380.

(٢) Ibid , p. 380.

(٣) Ibid , p. 379.

(٤) إدجار أوبلانس: مرجع سابق، هامش ص١٧٥.

(٥) محسن العيني: مصدر سابق، ص٦٨.

(٦) نفسه، ص ص٦٤-٦٥.

مع جمال عبد الناصر في أثناء زيارته للقاهرة عقب رحيله من اليمن[١]. ومع هذا ظلت بريطانيا على موقفها، فرغم تأكيد الخارجية الأمريكية على المجهود الكبير الذي بذله الرئيس كيندي لأجل دفع بريطانيا لأجل الاعتراف بحكومة الثورة اليمنية[٢]، فإن الرفض البريطاني للاعتراف بهذه الحكومة ظل قائمًا مع حرص بريطانيا على متابعة ما يحدث في الجمهورية اليمنية، حيث أكد وزير الخارجية البريطاني في اجتماع مجلس الوزراء المنعقد بتاريخ ١٤ مارس ١٩٦٣م على أن يظل هدف بلاده هو القضاء على النفوذ المصري باليمن[٣]. وهو ما يعني إصرار بريطانيا على موقفها الرافض للاعتراف بالثورة اليمنية.

* * *

هكذا مضت بريطانيا في موقفها المتردد تجاه ثورة اليمن، والذي كان يحكمها فيه وضعُها في مستعمرة عدن، ووجود الجيش المصري باليمن الشمالي لمساعدة حكومة الثورة، وقلق حُكَّام المحميات بالجنوب اليمني من هذه الحكومة، ومع هذا جاء القرار النهائي للحكومة البريطانية في نهاية يناير ١٩٦٣م ليؤيد رأي عدم الاعتراف بالنظام اليمني الجديد، حيث توافق قرارها مع سياسة التصدي التي اتخذتها منذ البداية ضد هذا النظام، والتي استعانت فيها بأعداء الثورة إقليميًا ومحليًّا، فكان ارتباطها بالمملكة العربية السعودية والأردن وأنصار الإمام داخل اليمن، فضلًا عن استخدامها إمارة بيجان كمركز للثورة المضادة لثورة اليمن، وكذلك مشاركتها الفعلية من خلال تجنيد المرتزقة وبذل المال والسلاح لصالح إعادة نظام الإمامة باليمن، ومن ثم كان قرار رفض الاعتراف بالثورة اليمنية من جانب الحكومة البريطانية رغم ترددها قد جاء متمشيًا مع سياسة التصدي التي اتبعتها بريطانيا ومنذ البداية تجاه هذه الثورة.

* * *

---

(١) نفسه، ص ص٦٥-٦٦.

(٢) F.R., Telegram from the Department of State to the Embassy in the United Arab Republic, March 2, 1963, Volume XVIII, p. 390.

(٣) Cab. 128/36, *Meeting of the Cabinet*, March 14, 1963, p.114.

مصادر الدراسة

أولا: الوثائق.

(١) وثائق غير منشورة:

(I)-United Kingdom.

(A) - Cabinet office.

*- Cab., 128/36, 1962.

*- Cab., 128/36, 1963.

(B) - Foreign office.

*- F.O. 371/1728578, 1963.

*- F.O. 371/174483, 1964.

*- F.O. 371/178578, 1964.

(٢) وثائق منشورة:

(II) - United States.

(A) - Foreign Relation.

Near East 1962-1963.

Volume XVIII, Washington 1995.

ثانيا: المذكرات الشخصية.

(١)- عبد الرحمن البيضاني: أزمة الأمة العربية وثورة اليمن، المكتب المصري الحديث، القاهرة ١٩٨٤م.

(٢)- محسن العيني: خمسون عامًا في الرمال المتحركة، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠١م.

ثالثا: المراجع العربية والمعرَّبة.

(١) أحمد حمروش: قصة ثورة ٢٣ يولية، الجزء الثالث (عبد الناصر والعرب)، الطبعة الثانية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.

(٢) أحمد عبيد بن دغر: اليمن تحت حكم الإمام أحمد ١٩٤٨-١٩٦٢م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٥م.

(٣) أحمد يوسف أحمد (دكتور): الدور المصري في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م.

(٤) إدجار أوبلانس (ترجمة: د. عبد الخالق لاشين): اليمن الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٠م.

(٥) أمين هويدي: حروب عبد الناصر، الطبعة الثالثة، دار الموقف العربي للصحافة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٢م.

(٦) جولوفيكا إيلينا (ترجمة: محمد عبد الله البحر): التطور السياسي للجمهورية العربية اليمنية ١٩٦٢-١٩٨٥م، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ١٩٩٤م.

(٧) سعيد محمد باديب: الصراع السعودي المصري حول اليمن الشمالي ١٩٦٢-١٩٧٠م، مركز الدراسات الإيرانية والعربية، دار الساقي، لندن، ١٩٩٠م.

(٨) صلاح العقاد (دكتور): المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٩) عبد الرحيم عبد الله: اليمن.. ثورة وثوار، دار النصر للطباعة، القاهرة، د.ت.

(١٠) عيد مسعود الجهني (دكتور): الحدود والعلاقات السعودية اليمنية، القاهرة، ١٩٩٤م.

(١١) غسان سلامة (دكتور): السياسة الخارجية السعودية منذ ١٩٤٥م، معهد الاتحاد العربي، بيروت، ١٩٨٠م.

(١٢) فاروق عثمان أباظة (دكتور): بريطانيا والحركة الوطنية في الشطر الجنوبي من اليمن ١٩٣٩-١٩٦٧م، مطابع جريدة السفير، القاهرة، ١٩٨٨م.

(١٣) محمد حسنين هيكل: سنوات الغليان، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٨م.

(١٤) مكرم محمد أحمد: الثورة جنوب الجزيرة العربية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.

(١٥) ممدوح محمود منصور (دكتور): الصراع الأمريكي السوفيتي في الشرق الأوسط، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.

رابعا: الصحف.

الأهرام ١٩٦٢ ١٩٦٣ ١٩٦٤.

* * *

اتِّفَاقِيَّاتُ المِيَاهُ الفِلسْطِينيَّة في ظِلِّ اتِّفَاقِيَّات أُوسْلُو

د.سامي محمد علقم(*)

المقدمة

احتلت المياه موقعا مهما في الفكر الاستراتيجي الصهيوني منذ بدء التفكير بإنشاء دولة إسرائيل، وقد استند هذا الفكر إلى ادعاءات دينية وتاريخية باطلة ناتجة عن اعتقادها بما ورد في التوراة، ولاعتقادها أيضا أن الحدود المثالية لدولة إسرائيل من النيل إلى الفرات كما جاء في التوراة. وبناءً على هذه الادعاءات قامت الحركة الصهيونية بإيفاد الخبراء واللجان العلمية خلال القرن التاسع عشر لدراسة الموارد المائية في فلسطين ومدى الاستفادة من مياه نهر الأردن لتوليد الطاقة الكهربائية بسبب انخفاض البحر الميت عن البحر المتوسط، وقد قام بهذه الدراسة خبراء فرنسيون وأمريكيون عام ١٨٠٥م، ومن بينهم هرتزل أحد مؤسسي الحركة الصهيونية أواخر القرن التاسع عشر، وكذلك الجمعية البريطانية عام ١٨٩٧م التي أوصت بإمكانية إسكان خمسة ملايين مهاجر يهودي في فلسطين، إلى أن أهمية المياه في الفكر الصهيوني أخذت تتبلور بعد أعقاب المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م، حيث صرح ثيودور هرتزل بقوله في أعقاب المؤتمر: «إننا وضعنا في هذا المؤتمر أسس الدولة اليهودية بحدودها الشمالية التي تمتد إلى نهر الليطاني»، ظلت المياه على رأس أولويات الدولة اليهودية حتى بعد قيامها عام ١٩٤٨م، ودليل ذلك كان قرار تأميم المياه في شهر أغسطس عام ١٩٤٩م الذي أصدرته حكومة إسرائيل الذي يقضي باعتبار المياه ملكا للدولة ولها فقط حق التصرف فيها ولا يحق للأفراد ذلك، واستندت مهمة الإشراف على هذا القرار لوزير الزراعة يساعده مفوض المياه في وظيفة حصر صلاحية الترخيص للأفراد بالحصول على كمية من المياه من مصادرها المختلفة.

(*) جامعة القدس المفتوحة – فلسطين

تعتبر قضية المياه مسألة أساسية في الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، وتشكل مسألة السيادة على المياه الفلسطينية في الضفة الغربية حجر الزاوية في أي تسوية لهذه المسألة.

ولعل وصول مثل هذه القضية مع بقية ملفات الوضع النهائي يشير إلى مستوى الأهمية التي يحتلها موضوع المياه والسيادة عليه، ولعل استمرار إسرائيل بالسيطرة على المياه الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة واستمرار التصرف في المصادر المائية الفلسطينية وكأنها صاحبة السيادة المطلقة عليها وحجم الهيمنة التي تمارسها على المصادر المائية الفلسطينية في الضفة الغربية يشير إلى مدى أهمية المياه والسيادة عليها لمشروعها الاستيطاني التوسطي، وبالنسبة للشعب الفلسطيني وقيادته فإن السيادة على مواردهم المائية تعتبر من أسس وأولويات مشروعهم الوطني، ولذلك يشكل هذا الملف أهمية كبرى لكل طرف، وبسبب اعتماد كل طرف عليه في بناء إستراتيجيته وخططه التنموية المستقبلية في كافة القطاعات.

إن عملية تنفيذ اتفاقيات المياه في أوسلو تستحق العناية والتقييم، ويجب دراسة الإنجازات والنواقص معا ووضعها في إطار منظور عملية السلام الإسرائيلية-الفلسطينية الشاملة.

إذًا ما مدى التقدم الذي تحقق؟ وأي شكل اتُّخِذ؟ لماذا جاء التنفيذ أقل مما هو متوقع ولماذا؟ وما هي صلة عملية التنفيذ بمفاوضات السلام الموسعة ومستقبل المنطقة التي تضم الإسرائيليين والفلسطينيين؟ هذه الأسئلة تنطوي على أهمية تتجاوز عملية السلام.

وحسب ما جاء في الاتفاقيات المرحلية فإن ما هو مطلوب من مفاوضات الوضع النهائي أن يحققه في موضوع المياه هو تسوية لمسألتين أساسيتين هما:

أولا: التوزيع العادل لحقوق المياه في المصادر المشتركة بين الطرفين، فتوزيع المياه في الوقت الحاضر ونتيجة للسيطرة الإسرائيلية غير متوازن وتميل لصالح إسرائيل بالرغم مما نصت عليه اتفاقية طابا (أوسلو٢) من كميات إضافية للفلسطينيين.

ثانيا: الإدارة المشتركة للمصادر المائية المشتركة: قانون المياه الدولية يؤسس الإدارة المشتركة

للمياه المشتركة على التبادلية والمساواة واحترام السيادة، وتبعا لاتفاقيات (أوسلو٢) فإن مصادر المياه الواقعة في تلك المناطق التي تخضع للسلطة الفلسطينية هي فقط تدار إدارة مشتركة وليس جميع المصادر المشتركة.

اتفاقيات أوسلو

وقَّع الفلسطينيون والإسرائيليون ثلاثَ اتفاقيات فيما بينهم، عُرفت في مجموعها باتفاقيات أوسلو وهي :

١- اتفاق إعلان المبادئ الذي عُرف باسم (اتفاق أوسلو١)، وتم التوقيع عليه في واشنطن بتاريخ ١٩٩٣/٩/١٣، وقد حدد هذا الاتفاق النقاط المرجعية لحل الصراع بين الجانبين، ووُضعت فيه ترتيبات الحكم الذاتي الفلسطيني لفترة مرحلية، تنتهي في موعد أقصاه أيلول/سبتمبر ١٩٩٨م.[١]

٢- اتفاق غزة – أريحا:

أولا: الذي عُرف باسم «اتفاق القاهرة التنفيذي»، والذي تم التوقيع عليه في ١٩٩٤/٥/٤، وتم بموجبه تأسيس السلطة الفلسطينية في أريحا وأجزاء من قطاع غزة، والذي تضمن أيضا أن تحتفظ قوات الاحتلال بحق السيطرة الكاملة على مداخل ومخارج غزة وأريحا.[٢]

٣- اتفاق طابا: الذي عُرف باسم «الاتفاق المرحلي» أو «اتفاق اوسلو٢»، وتم توقيعه في ٢٨/أيلول/١٩٩٥م في واشنطن، وبموجبه تم توسيع صلاحيات سلطة الحكم الذاتي في غزة وأريحا، وتم تقسيم أراضي السلطة الفلسطينية إلى أربعة أقسام:

١- المنطقة (أ): تحت إشراف الأمن الفلسطيني، وتشمل المدن الست في الضفة الغربية (جنين، طولكرم، قلقيلية، نابلس، بيت لحم، رام الله).

---

(١) فرحان موسى حسين . النزاع على السيادة في فلسطين في ظل اتفاقيات أوسلو (المخزون المائي نموذجا) رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، ٢٠١٢، ص ١١٣ .

(٢) أبو خالد العملة . أوسلو، محطة لتهويد القدس ... خطوة للسيطرة على المنطقة، ط١، بيروت: دار الكنوز الأردنية، ١٩٩٧م

٢- المنطقة (ب): تتضمن القرى، وستوضع تحت إشراف مشترك لقوات الشرطة الفلسطينية والجيش الإسرائيلي.

٣- المنطقة (ج): تتضمن المناطق غير المأهولة، وسيُعهد الأمن فيها إلى الإسرائيليين وبالسلطة المدنية إلى الفلسطينيين، وبإمكان السلطة الفلسطينية تسييرُ دوريات أمن مشتركة مع الإسرائيليين.

٤- المنطقة (د): تتضمن المستوطنات الإسرائيلية وقواعد الجيش وتوضع تحت السيطرة الإسرائيلية، إضافة إلى منطقة الموانئ الساحلية ١٨كم٢ المحاذية لمجموعة مستوطنات غوش قطيف جنوبي قطاع غزة.[١]

المياه في اتفاق إعلان المبادئ (أوسلو١)

اشتمل هذا الاتفاق على ست عشرة مادة وأربعة ملاحق، تطرقت ثلاث مواد منها إضافة إلى الملخصين الثالث والرابع لموضوع المياه، وإن كان بأشكال وأساليب عامة، وغير واضحة أو محددة، تمثلت في الحديث عن إنشاء سلطة فلسطينية لإدارة المياه في منطقة الحكم الذاتي والتركيز على التعاون في مجال المياه، والتعاون بين الجانبين للنهوض ببرامج التنمية الإقليمية بما يشمل من ضمنها موضوع المياه.[٢]

المادة الأولى من الملحق الثالث أقرت مبدأين عاملين لحل الخلاف: التخصيص العادل لحقوق المياه من المصادر المشتركة والإدارة المشتركة لهذه المصادر حيث نصت هذه المادة على:

التعاون في مجال المياه بما في ذلك مشروع تطوير المياه يقوم بإعداد خبراء من الجانبين، والذي سيحدد كذلك شكل التعاون في الإدارة موارد المياه في الضفة الغربية وقطاع غزة، وسيتضمن مقترحات لدراسات وخطط حول حقوق المياه لكل طرف إلى استخدام عادل ومنصف لموارد المياه المشتركة، على أن يطبق في الفترة الانتقالية وما بعدها. وهكذا سجَّل هذا

---

(١) جواد الحمد. عملية السلام في الشرق الأوسط ، عمان : المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث ، ١٩٩٤م ، ص٤٤ .

(٢) فرحان موسى حسين ،، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٤ .

النصُّ موضوع التوزيع العادل لحقوق المياه وموضوع الإدارة المشتركة لمصادر المياه المشتركة، وللتفاوض بشأنهما مستقبلا، وحُدِّدت الفترة الزمنية فيما بعد في اتفاقية طابا للتزامن مع محادثات الوضع النهائي.[١]

وعلى الرغم من أن إعلان المبادئ تطرق إلى مبدأ الاستخدام المنصف والمعقول، والاعتراف بحقوق فلسطين في المشاركة في إدارة الموارد المائية المشتركة (المادة ١، من الملحق ٣) الخاص ببروتوكول التعاون الإسرائيلي الفلسطيني في البرامج الاقتصادية والتنموية، فإنه لم يأت على ذكر الحقوق الفلسطينية في السيادة على مصادرهم المائية، وبالتالي لم يتم التطرق للحديث عن عملية نقل حقيقية للسيطرة على المصادر المائية الفلسطينية إلى فلسطين.

وإنه لمن المفيد الإشارة إلى أن إسرائيل تمكنت من فرض وجْهة نظرها في إعلان المبادئ وإقناع فلسطين بقبول فكرة مناقشة المياه من خلال برتوكولات التعاون الإسرائيلي -الفلسطيني في البرامج الاقتصادية والتنموية، ليبدو موضوع المياه وكأنه مسألة اقتصادية وتنموية بحتة، وليست مسألة حقوق سيادية. وبناءً على ذلك تم إنشاء لجان تعاون ثنائية هدفها البحث عن موارد بديلة لتلبية احتياجات الجانبين من المياه بعيدا عن مبدأ الاستخدام المنصف والإدارة المشتركة للمصادر المشتركة، وبعيدا عن حق الفلسطينيين في استخدام المصادر المائية.

وبذلك يكون البحث عن البدائل من مسؤولية الطرفين مع المحافظة على الفجوة الواسعة في الاستهلاك من المصادر المشتركة بينهما، وصرف النظر عن أن مشكلة الفلسطينيين ومعاناتهم ناتجة عن استمرار الاحتلال واستمراره في استغلال حصتهم، ولذلك صرف النظر عن الانتهاكات الإسرائيلية للقوانين والمعاهدات والقرارات الدولية المتعلقة بالحقوق الفلسطينية في مواردهم المائية من الضفة الغربية ونهر الأردن التي تسيطر عليها إسرائيل وتستغلها لتحقيق مصالحها الاستيطانية.[٢]

---

(١) أبو خالد العملة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨٢ .

(٢) عادل محمد العضالية ، الصراع على المياه في الشرق الأوسط (الحرب والسلام) عمان : دار الشروق للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٣١ . ولمزيد من المعلومات ، انظر نص المواد في اتفاقية إعلان المبادئ (أوسلو) .

المياه في اتفاقية القاهرة (غزه – أريحا أولا)

احتلت قضيةُ المياه في هذه الاتفاقية موقعًا أكثرَ إنصافًا إلى حد ما مما جاء في اتفاقية إعلان المبادئ التي سبقتها، وهذا ما يمكن ملاحظته في نص المادة (٥) من الاتفاقية والتي جاء بها: المادة (٥)، الولاية القانونية: تشمل صلاحيات السلطة الفلسطينية كل الشؤون التي تدخل في نطاقها واختصاصها الإقليمي والوظيفي والشخصي، حيث يشمل نطاق الاختصاص الإقليمي قطاع غزة ومنطقة أريحا على النمو المحددة المادة الأولى باستثناء المستوطنات ومنطقة المنشآت العسكرية، ويدخل في نطاق الاختصاص الإقليمي الأرض وما تحتها وما في باطنها، والمياه الإقليمية طبقا للنصوص هذا الاتفاق.[1]

كذلك فإن السلطة الفلسطينية ومن خلال الفقرة (٣١) من الملحق (٢) للاتفاقية حصلت على اعتراف إسرائيلي بضرورة إشراكها في إدارة وتشغيل كافة شبكات المياه والصرف الصحي في المناطق الفلسطينية إضافة إلى تشغيل مجموعة من الآبار في قطاع غزة الواقعة خارج حدود المجمع الاستيطاني «غوش قطيف» الأمر الذي يعتبر انتصارا مرحليا يمكن البناء عليه، وفي المقابل وافق الفلسطينيون في النقطة الثانية والثالثة والرابعة من هذه الفقرة على استمرار شركة «ميكروت» الإسرائيلية في تشغيل وإدارة شبكة المياه التي تزود المستوطنات والمنشآت العسكرية الواقعة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وأن يستمر المستوطنون في استخراج كميات المياه التي كانوا يستخرجونها قبل الاتفاق، على أن تقوم إسرائيل بتقديم بيانات شاملة ومفصلة عن عدد الآبار وكميات ونوعية المياه التي يتم استخراجها من الآبار الفلسطينية في قطاع غزة بشكل شهري .[2]

وعلى الرغم مما يمكن اعتباره اختراقا باتجاه إقرار الحقوق الفلسطينية فإنه مما يجب التوقف عنده مليًّا من بنود هذه الاتفاقية وملاحقها فيما يخص موضوع المياه مما يلي :

١. لم تتطرق هذه الاتفاقية إلى حقوق الفلسطينيين في مياههم الجوفية أو السطحية في

---

(١) أبو خالد العملة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٩ .

(٢) فرحان موسى حسين ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٥ – ١١٦ .

الضفة الغربية وقطاع غزة.

٢. لم تتطرق هذه الاتفاقية إلى موضوع الحقوق في السيادة على الموارد المائية، وإن وردت كلمة «الولاية القانونية»، لكنها لم تفد نفس المعنى، إذ إنها وردت ضمن سياق الوظيفة وليس السيادة.

٣. أعطت الاتفاقية صلاحيات شركة «ميكروت» في مناطق السلطة الفلسطينية بما يتعلق بالمستوطنات والمنشآت العسكرية، وفي ذلك ما فيه من قبول الجانب الفلسطيني بالانتقاص من سيادته التي لم تأت ذكرها أصلا. بل لقد عززت هذه الاتفاقية من دور الشركة ومكانتها حيث منحتها هذه الاتفاقية صلاحية تزويد السلطة الفلسطينية بكميات محددة من المياه التي تستخرجها الشركة من آبار الفلسطينيين في الضفة الغربية لتبيعها للسلطة الفلسطينية بأسعار «قيل إنها أسعار التكلفة».

٤. تم إخراج المستوطنات والمنشآت العسكرية من نطاق صلاحية السلطة الفلسطينية رغم وقوعها ضمن الولايات الإقليمية لها. وأبقت الاتفاقية على معدلات استهلاك المستوطنين في المستوطنات الإسرائيلية المقامة في الضفة الغربية مع ما ينطوي ذلك عليه من إجحاف وتمييز ضد السكان الفلسطينيين؛ إذ إن معدلات الاستهلاك للفرد الواحد داخل المستوطنات يفوق أربعة إلى خمسة أضعاف ما يستهلكه الفلسطينيون.[١]

ولقد تركت الإجراءات الإسرائيلية آثارها الخطيرة على الحقوق الفلسطينية في المياه، فمعدلات الاستهلاك الفردي للمواطن الفلسطيني أصبحت تقل كثيرا عن معدلات الاستهلاك الفردي في إسرائيل كما هو موضح في الجدول التالي:

نوع الاستهلاك	فلسطين	إسرائيل	النسبة
عدد السكان (مليون)	٢,٨٧	٥,٧	١ : ١,٩٦
كمية المياه للاستهلاك الآدمي	٩١	٥٧١	١ : ٢,٣
نصيب الفرد من مياه الشرب م٣ / سنويا	٣٠	١٠١	١ : ٣,٣٦

(١) *Palestinian national authority water authority*, water supply repor، 2010 march 212 pag Vo.

كمية المياه للاستهلاك الزراعي م٣ / سنويا	١٧١	١٢٥٢	١ : ٧،٣
كمية المياه للاستهلاك الصناعي م٣ / سنويا	٥	١٣٦	١ : ٢٧
إجمالي نصيب الفرد من المياه م٣ / سنويا	٩٣	٣٤٤	١ : ٣،٧

يتضح من الجدول أن معدل نصيب الفرد الفلسطيني من المياه يصل إلى ٢٧٪ بالمقارنة مع نصيب الفرد الإسرائيلي، وهذا راجع إلى اعتماد إسرائيل الكبير على المياه الفلسطينية لتلبية متطلباتها المائية الكبيرة، وتستغل إسرائيل مياه الخزان الجوفي الفلسطيني عبر شبكة من الآبار العميقة يصل عددها إلى (٣٠٠) بئر غرب الخط الأخضر بالإضافة إلى (٥١) بئرا. (١٧ بئرا) موجودة في المستوطنات الإسرائيلية بالضفة الغربية و (٤٣ بئرا) موجودة في المستوطنات الإسرائيلية في قطاع غزة.[1]

المياه في اتفاقية طابا (الاتفاقية المرحلية) (أوسلو٢)

لقد جاءت اتفاقية طابا أكثر تفصيلا مما سبقها من اتفاقيات إعلان المبادئ، واتفاقية القاهرة، حيث أعطت كميات إضافية من المياه للفلسطينيين، على الرغم من أنها حافظت على مياه المستوطنين الإسرائيليين في الضفة الغربية على معدلاتها السابقة، كما أن هذه الاتفاقية حددت ترتيبات الإدارة المشتركة لقطاع المياه الفلسطيني.[2]

وتطرق الملحق (٢) من المادة (٤٠) إلى قضية المياه، وتنص النقطة (١) منه على أن إسرائيل «تعترف بحقوق الفلسطينيين في المياه في الضفة الغربية، وهذه هي المرحلة الأولى التي يتم الاعتراف فيها بالحقوق المائية للفلسطينيين بوضوح» رغم عدم تعريف أي الموارد الأساسية التي اعترف بها الجانب الإسرائيلي، وبقي الموضوع بشكل عام، مما يعطي دلالة أفضل للاستنتاج.؟

إذ تم في هذه الاتفاقية - ولأول مرة - ذكرُ اعتراف صريح من إسرائيل بحقوق الفلسطينيين في المياه بعد أن كانت إسرائيل ترفض رفضا مطلقا مجرد النقاش في هذا الأمر. إذ كان الحديث

---

(١) شريف موسى . المياه في المفاوضات الفلسطينية-الاسرائيلية ،ط١ ،بيروت :مؤسسة الدراسات الفلسطينية ،١٩٩٧ ،ص٨٤

(٢) مركز المعلومات الوطني الفلسطيني -وفا . المياه في المفاوضات النهائية .

من وجْهة نظر الإسرائيليين يُوجَّه دوما نحو الحديث عن «استعمالات المياه» وليس «حقوق المياه»، وذلك حسبما ورد في الفقرة الأولى من المادة (٤٠) من الملحق الثالث للاتفاقية، والتي كان مما جاء فيها: تعترف إسرائيل بحقوق المياه الفلسطينية في الضفة الغربية، بيد أن الجزء الثاني من الفقرة نص على أنه: «سوف يتم التفاوض حولها في مفاوضات الوضع الدائم، وتسوى في اتفاق الوضع الدائم الخاص بمصادر المياه المتعددة».(١)

يضاف إلى ذلك أن هذه الاتفاقية وبرغم الاعتراف الإسرائيلي بحقوق المياه الفلسطينية، فإنها لم تُفصِّل ماهية هذه الحقوق، وأبقت على الغموض يكتنفها، إذ إنها لم تعط التفاصيل التي توضح هذه الحقوق، ثم إنها لم تسم المصادر المائية التي يوجد للفلسطينيين حقوق فيها، والتي ستكون هي محط التفاوض خلال المحادثات النهائية.(٢)

أما على صعيد الكميات المخصصة للفلسطينيين من المياه فقد استطاع الفلسطينيون من خلال هذه الاتفاقية الحصول على اعتراف إسرائيل بحاجة الفلسطينيين لكميات إضافية من المياه، حيث أكدت الفقرة السادسة من المادة (٤٠) على حاجة الفلسطينيين المستقبلية للمياه والتي قدرت بنحو ٧٠-٨٠ مليون متر مكعب سنويا، أما الفقرة السابعة فقد أكدت على اعتراف الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي بحاجة الفلسطينيين الفورية في الفقرة الانتقالية بما مجموعه ٢٨,٦ مليون متر مكعب من المياه العذبة للاستخدام المنزلي.(٣)

بحيث توفر إسرائيل ٩,٥ مليون متر مكعب منها للجانب الفلسطيني، على أن يقوم الفلسطينيون بتوفير الكمية المتبقية ومقدارها ١٩,١ مليون متر مكعب سنويا من الحوض الشرقي أو من مصادر بديلة يتم الاتفاق عليها، واقترح أن تقوم شركة «ميكروت» بتوفير كمية ١٤,٥ مليون متر مكعب بأسعار التكلفة يتفق عليها الجانبان، بحيث تكون ٤,٥ مليون متر مكعب للضفة الغربية، وباقي الكمية (١٥ مليون متر مكعب سنويا) لقطاع غزة، وقد عُدَّ هذا

---

(١) عادل الفضايلة .مصدر سبق ذكره ،ص٢٣٣

(٢) شريف موسى ،المصدر نفسه ،ص٨٦

(٣) مركز المعلومات الوطني الفلسطيني – وفا ،مصدر سبق ذكره .

إنجازا، حيث اعترفت إسرائيل من خلال هذه الاتفاقية بحقوق كانت ترفض دوما الاعتراف بها، كما أنها اعترفت بحاجة الفلسطينيين إلى كميات إضافية.[١]

على الرغم من أن هذه الكميات الإضافية تقل حتى عن أقل تقديرات الخبراء الفلسطينيين لحجم احتياجاتهم المستقبلية، وهذه الزيادة برغم أنها تزيد في الكميات التي يتزود بها الفلسطينيون، فإنها لا تؤثر إلا تأثيرا هامشيا في إسرائيل، وهذا بحد ذاته لا يشكل تغييرا بعيدا عن موقف إسرائيل بخصوص أولوية الاستخدام.

وعلى الرغم من أن الفلسطينيين سيقومون بتوفير معظم الكميات الإضافية بأنفسهم من الحوض الشرقي، فإن إسرائيل تقوم حاليا بتوفير نصف الكميات الجارية للاستخدامات المنزلية من خلال شركة «ميكروت»، وبذلك تعزز هذه الترتيبات من اعتماد الفلسطينيين على شركة «ميكروت» للحصول على احتياجاتهم من المياه. وهذا يعتبر اعترافا ضمنيا من الجانب الفلسطيني بالدور الإسرائيلي في مياه الفلسطينيين، ومن جهة أخرى فإن إسرائيل بدلا من أن تمهد الطريق لاستقلال مياه الفلسطينيين، تحاول أن تثبت أنه حتى في حال حصول الفلسطينيين على كميات كبيرة من الحوض الجبلي مستقبلا، فإن هذه المياه ستأتي ولو بشكل جزئي من إسرائيل، وبذلك يكون تزويد الفلسطينيين بالمياه من إسرائيل مساويًا لتحويل إسرائيل إلى دولة مصدِّرة للمياه والسلطة الفلسطينية إلى مستهلك.[٢]

ويتمثل أحد أهم الإنجازات التي ترتبت عليها اتفاقيات المياه في أوسلو(٢) في قيام هيئة المياه الفلسطينية. كانت الهيئة قد تأسست رسميا في نيسان/أبريل ١٩٩٥ قبل اتفاقية أوسلو(٢)، وقد أوكلت مهمة تنمية مصادر المياه وإدارتها وتنفيذ المشروعات بمساعدة مساهمات الدول المانحة المخصصة لإنجاز هذه المهمة.

ومنذ توقيع اتفاقية (أوسلو٢) بدأ مسئولو هيئة المياه الفلسطينية التنسيق مع نظرائهم الإسرائيليين في مفوضية المياه الإسرائيلية (Israeli water commission) وبقية هيئات

---

(١) عادل الفضايلة مصدر سبق ذكره ص٢٣٤

(٢) شريف موسى، مصدر سبق ذكره، ص ٨٦ - ٨٧.

المياه الإسرائيلية في اللجنة المشتركة للمياه ولجانها الفرعية العديدة لتنفيذ شروط المادة (٤٠) حرفيا، وبالإضافة إلى هذه الواجبات المباشرة، أوكلت لهيئة المياه الفلسطينية مهمة وضع خطط لتطوير سياسة مائية جديدة وبنية تحتية للمياه في دولة فلسطين المستقبلية. وهذه مسؤوليات جسام كان لا بد من أن تتواجه بقدر من الحظ العاثر، غير أن المساعدات الفنية والمالية من المانحين الدوليين بدأت في خلق نظام مياه فلسطيني وإطار عمل مؤسساتي لهذا النظام.[١]

وما تزال هيئة المياه الفلسطينية كغيرها من المؤسسات الفلسطينية في طور تشييد المؤسسات التي لم تكن موجودة أصلا. والكثير من البنى التحتية للمياه في الأراضي الفلسطينية تحتاج إلى إعادة تأهيل، فنتيجة للاحتلال الإسرائيلي الذي أعقب حرب ١٩٦٧ تم تدمير الكثير من الآبار والمنشآت ولم يعد بناؤها. وتعمل هيئة المياه الفلسطينية على أساس حالة من الطوارئ في محاولة لتغيير هذا الواقع الأليم، وتصب كل جهودها الآتية تقريبا في تخطيط وتنفيذ (بمساعدة المانحين الدوليين) أكبر عدد من مشروعات التنمية المائية يمكن أن تصدق عليه اللجنة المشتركة للمياه، وفي هذا الصدد تأخذ مسألة تحسين كمية ونوعية المياه المخصصة للشعب الفلسطيني في أسرع وقت ممكن أولوية قصوى.[٢]

ولأن هيئة المياه الفلسطينية تفتقر إلى قوانينها الخاصة لتنظيم قطاع المياه بعد انقضاء سنوات الاحتلال فقد وجب عليها الاعتماد على قوانين وسياسات نفذتها الأردن (في الضفة الغربية) ومصر (في قطاع غزة) يرجع تاريخ بعضها إلى أيام الحكم العثماني، وأبرز مثال في هذا الصدد هو الاعتماد على الأوامر العسكرية الإسرائيلية التي فرضت عقب حرب ١٩٦٧، وتعتبر أسعار المياه أحد المجالات التي يتم فيها فحص دقيق للمبادرات السياسية الجديدة، فما زالت هيئة المياه الفلسطينية تفرض الأسعار نفسها التي تفرضها الإدارة المدنية الإسرائيلية

---

(١) ألوين روبر، اتفاقية المياه في أوسلو (٢) تفادي كارثة وشيكة، دراسات عالمية، العدد ٣٣ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ٢٠٠١، ص ١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١.

على المياه أثناء الاحتلال.[1]

وكانت الوظيفة التنظيمية لهيئة المياه الفلسطينية مجالا آخر تباطأت فيه السلطة الفلسطينية في المبادرة لسَنِّ قوانين جديدة، ففي قطاع غزة لم تكن هناك أي قيود من الناحية العملية على حفر آبار جديدة، مع أن مثل هذه الآبار تزيد من استنزاف طبقة صخرية مائية كانت قد استخدمت فوق طاقتها سلفا.

أما في الضفة الغربية فإن حصص وتصاريح المياه التي تقررت أثناء الاحتلال ما تزال سارية المفعول. وحتى في المنطقة (أ) التي تقع تحت سيطرة السلطة الفلسطينية كاملة، فإن هيئة المياه الفلسطينية لم تزد تراخيص للاستفادة من المياه. وتؤيد هيئة المياه الفلسطينية بقوة استخدام عدادات الماء والحصص المصرح بها لحماية المصادر المائية من الاستغلال الزائد، ولكن لم يعلن قانون للسلطة الفلسطينية في هذا الصدد، ولم توضع قوانين جديدة للتراخيص موضع التنفيذ، وكما حدث في حالة دراسة التعرفة تُجري هيئة المياه الفلسطينية دراسة موازية للنظر في القوانين الملائمة لاستغلال المياه، وتركز دائرة التنظيم فيها بصورة رئيسية على ضمان توافق تصاريح الاستفادة من المياه الموجودة فعلا مع قرارات اللجنة المشتركة للمياه.[2]

ومع أن الممارسة الراهنة هي تطبيق للقوانين السارية فقد أعدت هيئة المياه الفلسطينية مجموعة شاملة من (١٥) مبدأ، القصد منها وضع قاعدة تحكم قطاع المياه في الدولة الفلسطينية مستقبلا وتعرف مجموعة المبادئ هذه «عناصر سياسية مائية» "   " ، وما تزال هذه المبادئ حتى الآن تنتظر تنسيقها مع آراء هيئات السلطة الفلسطينية الأخرى بما في ذلك وزارات الزراعة والصناعة أو التخطيط، ولم تعرض هذه المبادئ على المجلس الوطني الفلسطيني أيضا، وتمثل هذه المبادئ بصورة رئيسية موقف هيئة المياه الفلسطينية والطريقة التي تفكر بها لتأسيس قطاع المياه الفلسطينية من الناحية العلمية والأكاديمية.

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٣ - ١٤.

(٢) سلمة نبيل شريف رئيس هيئة المياه الفلسطينية للرئيس ياسر عرفات، كانون الثاني / يناير ١٩٩٦م، وهو مضمن في:

Palestinian national authority, PWA ,background information.

يفاجأ المرء عند قراءته مجموعة المبادئ المعروفة باسم «عناصر سياسية مائية» بالتشابه بينها وبين قانون المياه الإسرائيلي لعام ١٩٥٩، وتتصف المادة الأولى بأهمية كبرى بالنسبة إلى القانون الفلسطيني المستقبلي للمياه، إذ تنص على أن «كل مصادر المياه يجب أن تكون ملكا للدولة»، ويلغي هذا المبدأ ممارسة فلسطينية موجودة بالفعل، وهي الملكية الخاصة لمصادر المياه بواسطة الأفراد أو القرى، وتمثل القاعدة توجه سياسة إسرائيل المائية، وهي أن الماء ملكية عامة تتولى تنظيمها الدولة، وعلى الرغم من أنه قد تم تحت الحكم الأردني إعلان قانون المصادر المائية عام ١٩٦٦ لتنظيم استخراج المياه في الضفة الغربية فإنه لم يوضع موضع التنفيذ قبل حرب عام ١٩٦٧، وفي أثناء الاحتلال الإسرائيلي أصر الباحثون القانونيون الفلسطينيون على تبني العرب القانون العثماني الذي يقضي بأن ملكية الأرض تشمل ملكية الينابيع والآبار الموجودة تحت الأرض.

غير أنه بالنسبة إلى فاضل كعوش، نائب رئيس هيئة المياه الفلسطينية، فإن قانون المياه في دولة فلسطين المستقبلية سيعرِّف «حقوق المياه» على أنها «حق استخدام المياه لاستهلاكها»، كما ستكون كل مصادر المياه ملكا عاما، وتنظم استخدامها الدولة، وسوف تستخدم العدادات وتحدد الحصص بناء على الحاجة و الوفرة.[١]

المياه في قطاع غزة في ظل اتفاقيات (أوسلو):

يعاني قطاع غزة من شح الموارد المائية ومن رداءة نوعية المياه المتوفرة، فلا يوجد مياه سطحية في قطاع غزة، والمصدر الوحيد للمياه هو من المياه الجوفية التي مصدرها الجزء الذي يقع تحت قطاع غزة من الحوض الساحلي، إضافة إلى ما توفره شركة المياه الإسرائيلية «ميكروت» والتي لا تزيد عن (٥) مليون متر مكعب من المياه سنويا طبقا لاتفاقيات أوسلو.[٢]

ومن حيث كميات الأمطار التي تسقط سنويا على قطاع غزة فهي مقارنة مع الضفة الغربية

---

(١) ألوين روبر ز مصدر سبق ذكره ص ١٥ .

(٢) *Palestinian water authority* ,id ,peg55 .

تعدُّ قليلة جدا إذ تبلغ ٣٠٠ ملم سنويا. يذهب منها ما مجموعه ٣٥مليون متر مكعب من المياه سنويا كطاقة تغذية للأحواض الجوفية، إضافة إلى ٣٦ مليون متر مكعب من المياه المالحة التي تتسرب من الأحواض الجوفية المالحة التي تسيطر عليها إسرائيل إلى الشرق والشمال من قطاع غزة وما مجموعه ٥٤ مليون متر مكعب تتسرب من التدفقات الراجعة من مياه الري والمياه العادمة، ويتسرب حوالي ٨ مليون متر مكعب من مياه البحر إلى المياه الجوفية تحت قطاع غزة سنويا.[١]

حسب معطيات سلطة المياه الفلسطينية فإن مجموع ما حصل عليه قطاع غزة من المياه في العام ٢٠١٠ هو ١٧٢,٤ مليون متر مكعب، لكن هذا الرقم لا يمكن الاعتماد عليه في حساب حصة الفرد من المياه.[٢] أما فيما يخص المياه الصالحة للشرب في قطاع غزة فإن نسبتها لا تتعدى ٧٪، وتصنف بقية المياه المستخدمة في قطاع غزة للاستخدامات المنزلية على أنها مياه من نوعية رديئة ولا تصلح للاستهلاك الآدمي.[٣]

الوصول إلى الآبار الجوفية الداخلية في قطاع غزة لا يخضع لقيود الاحتلال الإسرائيلي، على عكس ما هو موجود في الضفة الغربية، لكن المشكلة تكمن في استنزاف هذه الآبار فوق طاقة هذا الجزء من الحوض الساحلي الذي يقع تحت قطاع غزة، فالأزمة المائية في قطاع غزة ليست شيئا طبيعيا، حيث إن قطاع غزة يعتبر من المناطق الأكثر افتقارا للماء في العالم، ولا يمكن اعتبار قطاع غزة قادرا على الوصول إلى الاكتفاء الذاتي من المياه.[٤]

---

(١) MESSERSCHMID ,CLEMENS, *back to the basics : « policy option for Palestinian water sector de»* velopment, birzeit university working pepersevies ,zoll,peg3 .

(٢) Palestinian water ,id,peg56 .

(٣) COPPERMANAHARON. DAVID, *use of the mountain aquifer strategic assessment* ,volı .noı ,institute for national security studies, telaviv university. June/2008 www.inss.org.il

(٤) MESSERSCHMID, id ,peg3

إن المقترحات التي تطرح من أجل حل مشكلة المياه في قطاع غزة تنصبُّ على تزويد قطاع غزة بما يحتاجه من المياه من داخل القطاع، هي مقترحات في مجموعها غير عملية؛ لأن قطاع غزة وصل إلى حالة من الاستنزاف للمخزون المائي الجوفي، ولا يتوفر منه ما يلبي احتياجاته ولا يمكن تحقيق الاكتفاء الذاتي لقطاع غزة من داخله. ويكمن الحل في تزويد قطاع غزة بحاجته من المياه من خارج القطاع، شأنه في ذلك شأن العديد من المدن العالمية التي تأتيها إمدادات المياه من خارجها، كما هو حال مدينة مانهاتن، أو مدينة نيويورك، أو مدينة بئر السبع المجاورة لقطاع غزة التي يتم نقل المياه إليها عبر الناقل القطري الإسرائيلي من بحيرة طبرية، فلماذا لا يتم نقل المياه إلى قطاع غزة شأنها في ذلك شأن مثل هذه المدن لحل هذه المشكلة التي تهدر حياة السكان جميعهم في قطاع غزة.[١]

لم تتطرق اتفاقية (اوسلو٢) لمشكلة المياه في قطاع غزة بذات التفصيل الذي بحثت فيه مسألة المياه في الضفة الغربية، إذِ اقتصر الأمرُ على البند الأخير وهو بند رَقْم (٢٥) من المادة (٤٠) من الملحق الثالث لاتفاقية (أوسلو٢). وقد نص هذا البندُ على إبقاء الترتيبات الخاصة بموضوع المياه وأنظمة الصرف الصحي وفق ما جاء في جدول رقم (١١) الملحق بالاتفاقية، حيث إن مجمل ما ورد في هذا الجدول كان يدور حول مصادر المياه وأنظمة الصرف الصحي الخاصة بالمستوطنات ومعسكرات الجيش الإسرائيلي في قطاع غزة بحيث تكون شركة «ميكروت» وحدها هي صاحبة الصلاحية لهذا الموقع دون تدخل من الجانب الفلسطيني، وبحسب اتفاقية (أوسلو٢) فإن حصة قطاع غزة من المياه الإضافية هي (١٥) مليون متر مكعب من المياه سنويا، توفرها شركة «ميكروت»، وهي كمية لا تكفي لتلبية احتياجات سكان غزة مع الأخذ بعين الاعتبار أن ما توفر لقطاع غزة في العام ٢٠١٠ حسب إحصائيات سلطة المياه الفلسطينية هو فقط كمية لا تزيد عن (٥) مليون متر مكعب سنويا.

---

(١) Id, peg4 .

الخاتمة

يرى الباحث أن الأولية الأولى تكمن في وضع حد لمعاناة الفلسطينيين في موضوع المياه، وذلك من ناحيتين:

١. تمكين الفلسطينيين من ممارسة سيادتهم على أرضهم وعلى مواردهم الطبيعية، والموارد المائية تحديدا وفق قانون المياه الدولية والمعاهدات والمواثيق الدولية التي تُعنى بتنظيم الإدارة المشتركة للمياه المشتركة.

٢. إيجاد حل سريع لأزمة المياه الفلسطينية من خلال زيادة الإنتاج من المياه الجوفية للسكان في الضفة الغربية وإمداد قطاع غزة بما يُلبي احتياجاتهم من المياه، ولذلك يحتاج الفلسطينيون إلى تعويض النقص الذي ما زال الفلسطينيون يعانون منه، وذلك من خلال إعادة تخصيص المياه وليس من خلال اللجوء إلى المصادر غير التقليدية والمصادر الإضافية للمياه كما تطالب إسرائيل. مع التأكيد على عدم وجود سبب طبيعي لأزمة المياه في الضفة الغربية، إنما هي أسباب بشرية تفاقمها إسرائيل بالسحب الجائر والتوزيع غير العادل والسلوك أحادي الجانب.

هكذا نجد أن هناك وجهات نظر مختلفة فيما يتعلق بتنفيذ اتفاقيات المياه في أوسلو(٢)، أضف إلى ذلك أنه قد أحرز بعض التقدم وأن تنفيذ الاتفاقية يمضي قدما، حتى إن لم يسفر ذلك عن رضاء الفلسطينيين والإسرائيليين على حد سواء أو المنظمات الدولية المانحة أيضا. ولكن يبدو أن الطرفين متقيدان حرفيا بشروط الاتفاقية على الرغم من اتهامات سوء النية التي يوجهها أحدهما إلى الآخر في بعض الأحيان.

ويجري الآن تشييد البنية التحتية الفلسطينية، وكذلك البنية التحتية للإدارة المشتركة، مع أن الأخيرة لم تزل في مراحلها الابتدائية كما يبدو واضحا، ويتصل الفلسطينيون والإسرائيليون الذين يعملون على تنفيذ اتفاقيات المياه مع بعضهم ببعض يوميا، حتى إن كان الاتصال عن طريق الهاتف وليس شخصيا. وربما يتمسك كبار المسؤولين في هيئة المياه الفلسطينية أو مفوضية المياه الإسرائيلية وشركة (ميكروت) بأجندتهم السياسية،

ولكن موظفي المستوى الوسيط يشددون على حقيقة أن هناك علاقة عمل تربطهم على المستوى الشخصي بنظرائهم، وهذا يعني أن الثقة المتبادلة آخذة في النمو. ومع كل ذلك فهناك أيضا رأي سلبي في عمليَة التنفيذ، فكل من الفلسطينيين والإسرائيليين قد انتقد بشدة الافتقار إلى التقدم الحقيقي الذي نتج عن الاتفاقيات.

***

المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

١.أبو خالد العملة. أوسلو، محطة لتهويد فلسطين، خطوة للسيطرة على المنطقة، ط١، بيروت: دار الكنوز الأردنية، ١٩٩٧م.

٢.ألوين روير. اتفاقيات المياه في أوسلو (٢): تفادي كارثة وشيكة، دراسات عالمية، العدد ٣٣ ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط١، ٢٠٠١م.

٣.جواد الحمد. عملية السلام في الشرق الأوسط، عمان: المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث، ١٩٩٤م.

٤.سلمة نبيل شريف. رئيس هيئة المياه الفلسطينية، للرئيس ياسر عرفات، كانون الثاني ١٩٩٦م.

٥.شريف الموسى. المياه في المفاوضات الفلسطينية -الإسرائيلية، ط١، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٧م.

٦.عادل محمد العضايلة. الصراع على المياه في الشرق الأوسط (الحرب والسلام)، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.

٧.فرحان موسى حسين. النزاع على السيادة في فلسطين في ظل اتفاقيات أوسلو (المخزون المائي نموذجا)، رسالة ماجستير، جامعة القدس، فلسطين، ٢٠١٢م.

٨.مركز المعلومات الوطني الفلسطيني (وفا). المياه في المفاوضات النهائية.

٩.وزارة شؤون البيئة. «الانتهاكات الإسرائيلية للبيئة الفلسطينية، أيلول، ٢٠٠٠م.

المراجع باللغة الإنجليزية:

1. COPPERMAN ,AHARON,DAVID, *Use of the Mountain Aquifer Strategic Assessment*, vol11, No1 ,Institute for National security studies, Tel Aviv University. June 2008 www.inss.org.il

2. MESSERSCHMID, CLEMENS ,*Back to the Basics :policy Option for Palestinian water sector Development*, Birzeit university working paper series,2011 .

3. PALESTINIAN NATIONAL AUTHORITY, *Palestinian Water Authority, Water Supply Report* 2010 , march ,2012

* * *

ملخص باللغة العربية

الدور الأمريكي في الجلاء البريطاني عن قناة السويس سنة ١٩٥٤

يتمحور هذا البحث حول دور أمريكا في الضغط على بريطانيا للجلاء عن القاعدة البريطانية في قناة السويس سنة ١٩٥٤، وذلك من خلال استعراض وتحليل الوثائق الأمريكية والبريطانية مثل وثائق وزارة الخارجية والشؤون الدولية، وكذلك مذكرات وأوراق الرئيس الأمريكي دوايت إيزنهاور، ونقاشات مجلس العموم البريطاني ومذكرات وزير الخارجية البريطاني أنتوني إيدن، فضلا عن متابعة أعداد مختلفة من صحيفة نيويورك تايمز وبعض المراجع الثانوية.

ركزت أمريكا على مصر خلال الخمسينيات؛ لأنها تضم قناة السويس ذات الأهمية الكبرى في الملاحة الدولية، كما أن مصر تلعب دورًا قياديًا في العالم العربي يمكن لأمريكا أن تستخدمه في تحديد سياستها في المنطقة الهادفة إلى ضم مصر وبعض الأقطار العربية الأخرى إلى منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط، والتي تحولت فيما بعدُ إلى حلف بغداد، لمواجهة المد الشيوعي في المنطقة، كما أنها تريد أيضا أن تحتوي القيادة المصرية الجديدة، وتعمل على تحسين صورتها السيئة في المنطقة بسبب دعمها لإسرائيل، وتحالفها مع بريطانيا كقوة استعمارية في المنطقة، ونقطة البداية في تحقيق هذه الأهداف هو حل الخلاف البريطاني المصري بخصوص القاعدة البريطانية في قناة السويس.

وبعد استعراض الموضوع توصل الباحث إلى النتائج التالية:

١- لعبت أمريكا دورًا بارزًا في الضغط على بريطانيا للتخلي عن القاعدة العسكرية في أكتوبر ١٩٥٤، وذلك كبداية للهيمنة الأمريكية على المنطقة.

٢- تراجع مكانة بريطانيا في المنطقة بعد الجلاء.

٣- عدم نجاح أمريكا في ضم مصر إلى التحالف العربي ضد الاتحاد السوفيتي.

٤- زيادة شعبية الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

٥- كان هذا الحدث مقدمة للعدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م.

* * *

News Paper:

New York Times, 15 July 1954,

New York times, 7 November 1954

New York Time, 31 July 1954,

Secondary Sources :

ABU-JABER, FAIZ S., *American-Arab relations from Wilson to Nixon* (*Oswego*, NY: state university of New York, 1979),

ARONSON, *Geoffrey from sideshow to center stage* (Boulder, co: Lynne Rienner Publishers, inc., 1986).

CREMEANS, CHARLES D, *the Arabs and the world* (new York : Frederick A. Praeger, 1983).

EVELAND, WILBUR *C,Ropes of Sand* (New York : W.W. Norton and Company, 1980.

HORROCKS, BRIAN " *Middle East defense-British view,*" Middle Eastern Affairs (February 1955).

MEYER, GAIL E. *Egypt and the United States* (London: Associated University Presses, 1980).

* * *

REVUE EGYPTIENNE DES ÉTUDES HISTORIQUES





SOCIETÉ EGYPTIENNE

DES ÉTUDES HISTORIQUES

REVUE EGYPTIFNNE DES ÉTUDES HISTORIQUES

VOL.49

LE CAIRE

2014-2015

THE AMERICAN ROLE OF BRITISH EVACUATION FROM

THE SUEZ CANAL ZONE IN 1954

Dr. Abdulqader I. Al-Jabareen[*]

INTRODUCTION

When the american president Dwight D. Eisenhower took office in January 1953, he inaugurated a new policy in the Middle East. This republican administration raised the slogans of liberation, peace and justice in the world, and promised an American impartiality in seeking a peaceful solution to the Middle East problems. President Eisenhower said: "the government of the United States believes that the interests of world peace call for every possible effort to create a condition of great calm and stability in the Near East"[2]. The new American leadership was mainly concerned with what it called the conspicuous decline of American prestige in the Middle East.The region now appeared to compose a major gap in the western defense system [3].

The possibility that the Soviets would make an incursion into the Middle Eeast disturbed secretary of state John Foster Dulles. A week after taking office, Dulles warned that:

In the Middle East we find that the communists are trying to inspire the Arabs with a fanatical hatred of the British and ourselves. That area contains

---

(*) Hebron University, History Department

(1) «*statement by the president on Eric Johnston's mission to the Near East,*» public papers of the presidents of the United States : Dwight D. Eisenhower, 1953 – 1958 (Washington, DC: U.S Government (printing office 1960-61),677

(2) GAIL E. MEYER, *Egypt and the United States* (London: Associated University Presses, 1980), 51.

the greatest known oil reserves that there are in the world, and the soviet interest is shown by the fact that Stalin, when he was negotiating with Hitler in 1940, said that that area must be looked upon as the center of soviet aspiration. if all of that passed into the hands of our potential enemies, that would make a tremendous shift in the balance of economic power [1].

The Eisenhower administration's Middle East policy, therefore, was to solve the Anglo-Egyptian dispute over the Suez Canal and to deal with the Arabs and the Israelis in reference to the Palestine question. If these obstacles would be removed, then the U.S, it was expected, would stabilize the region and convince the Middle East countries, mainly Egypt, to join the west in a Middle East defense plan.

The U.S. diplomacy through President Eisenhower and secretary of state John Foster Dulles who visited London and Cairo, accompanied with Pressure from the British public opinion, resulted in concluding an Anglo-Egyptian agreement over the Suez Canal in October 1954.

The American diplomacy and the British decision to evacuate:

A. The Sudan

The settlement of the Anglo-Egyptian dispute over the Suez Canal maintained the highest priority in the minds of the American policy makers. They had been encouraged by the signs of flexibility on the part of the British and Egyptians over the Sudan dispute. Actually, by the end of the Truman administration, the U.S urged British to open negotiations with Egypt concerning the Sudan, since 1936, Sudan had been under Anglo-Egyptian control. Before its revolution, Egypt had insisted that Britain should evacuate the Sudan and that there must be unification between Egypt and the Sudan (the Nile Valley). The new Egyptian

---

(1) « *A Survey of foreign policy problems addressed by secretary Dulles,* » *U.S Department of state Bulletin 28* (February 9, 1957) : 212-14.

leadership, however, dropped the idea of unification with the Sudan in favor of Sudanese self-determination. At the same time, Britain was willing to make a compromise on the Sudan issue. Through bilateral negotiations, both Egypt and Britain agreed to settle the Sudan problem by ending their control after a three-year transitional period (which started on 12 February 1953). During three-year period the Sudan would develop its national institutions of self-government. Then the Sudanese would choose either to be independent or to unite with Egypt. in 1955, the Sudanese proclaimed their independence which was recognized by Britain, the Soviet Union, and the United states. (1)

The Anglo-Egyptian agreement over the Sudan was concluded at the beginning of the Eisenhower administration. Secretary of state John F. Dulles welcomed the agreement and described it as " gratifying to the United States." He also considered it as "one which the three peoples concerned -- British, Egyptian, and Sudanese – can view with equal satisfaction as appropriate to their respective relationships". secretary Dulles hoped that the agreement "may well be the first step toward the establishment of more fruitful associations in an area of critical importance to the security of the free world"(2).

B. The Suez base

The next issue that the Eisenhower administration attempted to resolve (in its desire to encourage Egypt to join the western powers in defending the Middle East) was the question of British evacuation of the Suez Canal zone. Britain had a huge military base along the west bank of the Suez Canal. The base was three miles wide, sixty-five miles long and housed 80,000 men (3).

---

(1) Charles D. Cremeans, *The Arabs and the world* (new York : Frederick A. Praeger, 1983), 336.

(2) « *Message by Secretary Dulles to Foreign secretary Eden on February 14, 1953,*» *Department of State Bulletin* 28 (February 23, 1953) : 305-306

(3) Brian Horrocks, « *Middle East defense-British view,* » *Middle Eastern Affairs* (February 1955) : 33.

In his memoirs, mandate for change 1953-1956 (1963), President Eisenhower explained that his goal was to work with Britain in order to solve the problem peacefully, without damaging Egypt's bounds with the Canal zone because the Canal might subsequently be used against the West's interests in the Middle East[1].

To try to solve this and other Middle Eastern problems, Secretary Dulles began to prepare for a fact-finding trip to the Middle East. In a press conference on 9 March 1953, Secretary Dulles explained the objectives of his coming Middle East trip :

President Eisenhower is keenly aware of the importance of the Near East and South Asia. the peoples of that part of the world have a rich culture in which we of the United States largely drawn. The President has, therefore, asked me to go personally to the Near East and South Asia to show our friendship for the government and peoples of the areas... I am going to get first hand information. I shall listen carefully to what I am told and consider the problems presented to me with utmost sympathy, nor do I expect to ask the government I visit for any decisions. I am going to renew old friendships, and I hope, make new ones. I shall be the first secretary of opportunity to dispel misunderstandings and to develop close relations between the United States and these friendly nations [2].

Meanwhile, negotiations between Britain and Egypt had been resumed. but soon they broke down again. The two countries were even further from agreement. Egypt wanted a complete British evacuation while Britain demanded partial withdrawal with the assurance that Egypt would adhere to

---

(1) Dwight Eisenhower, *The White House Years : «mandate for change»* , 1953-1956 (Garden City, NY: Doubleday and Company, Inc., 1963), 150-51.

(2) « *Press conference statement by the secretary,* » U.S Department of state Bulletin 28 (March 23,1953) :431.

the Western-sponsored defense plan. President Muhammed Najuib summed up the dilemma:

Great Britain took the position that Egypt must first agree to some sort of military alliance before it could safely evacuate the Suez Canal zone. the Council of the Revolution, for it's part, took the position that Egypt would have to be given it's independence before it could agree to any sort of alliance with the west. The government of an occupied country ... is no more able to negotiate a treaty of alliance with the occupying power, or, for that matter, with an allied power like the United States than a prisoner is able to negotiate with his jailers, or their intermediaries, the terms of his parole(1).

Under these circumstances, the British government urged the U.S to mediate in order to break the stalemate. Foreign minister Anthony Eden visited Washington in early March and presented a British package deal in which Egypt should join the Middle East defense organization before the British evacuation from Suez. President Eisenhower seemed to agree with the British proposal(2). Secretary Dulles, however, was "impatient with the British for their failure to reach an amicable agreement with Egypt and was, together with the state and defense bureaucracies, taking an increasingly independent line (from Britain) on the components of a successful agreement"(3).

After a series of conferences with president Eisenhower and foreign minister Anthony Eden, Secretary Dulles and Security Director Harold Stassen arrived Cairo on 11 May 1953. One of the objectives of this trip, which included visits to Egypt and many Middle Eastern and Asian countries, was to find a solution to the Suez problem and to strengthen the Middle Eastern area against possible

(1) MEYER, *Egypt and the United States*,59

(2) EISENHOWER, *The White House Years : «mandate for change»*, 1953-1956, 152.

(3) GEOFFREY ARONSON,*from Sideshow to Center Stage* (Boulder, co: Lynne Rienner Publishers, Inc., 1986), 64.

soviet aggression(1). In his letter to Egyptians president Najuib, which was hand delivered by secretary Dulles, president Eisenhower asserted : "the united states shared with Britain the desire that the discussion of the Canal would include the broader problem of the defense of the entire Middle East(2).

In Cairo, Secretary Dulles assured the Egyptian government of their right and sovereignty over the Suez, and he emphasized the idea of Middle East defense. Dulles states:

We came to the conclusion that there should be a solution consistent with full Egyptian sovereignty, with a phrased withdrawal of foreign troops ... all to be arranged, however, so that the important base in the Canal area, with its depots of supplies and systems of technical supervision, should remain in good working order and be available for immediate use on behalf of the free world in the event of future hostilities[3].

Actually, Dulles statement reflected the British version (package deal) of solving the Suez dilemma. Perhaps Dulles policy of connecting the British withdrawal with Egyptian adherence to the defense plan was due to his disappointment with the Egyptian role in mobilizing the Arab states against pro-Western Turkish efforts to combine the Arabs and Turkey in a new defense plan. Based upon support from the West, Turkish officials toured the area to convince the Arab states to support the defense plan. Iraq supported the idea enthusiastically but was verbally assaulted by Egypt asked for a meeting of the foreign ministers of the Arab league members on 28 March 1953. Egypt wanted Arab solidarity and opposition to the West's policy in the region. The Turkish-Western efforts to rally Arab support to their defense plan had failed. Dulles,

---

(1) EISENHOWER, *The White House Years* : «*mandate for change*», 1953-1956, 155-56.

(2) Ibid., 154.

(3) Denise Folliot, ed., *Documents on International Affairs*, 1943 (London : oxford university press, 1956), 341-42.

therefore, become frustrated and felt that the British presence in Egypt should not be ended without assurance of some sort of Egyptian cooperation with the West(4).

Following the Secretary's Middle East trip, there were extensive American efforts to bring about a solution to the Suez problem. The U.S ambassador to Cairo, Jefferson Caffery, mediated between the two countries and softened their respective positions. The American officials promised to provide Egypt with economic aid if they concluded an agreement with Britain. Meanwhile, the British Government felt the pressure of Egyptian American, and British public opinion. Egypt threatened to resume guerilla warfare against the British installation in Suez. The U.S became impatient with the British inability to solve their dispute with Egypt. Consequently, the U.S. put pressure on the British to soften their position. America influence was evident in a statement by Prime Minster Churchill to the House of Commons:

I have for sometime been of the opinion that the United States has a strategic interest in Egypt, as well as interests in the international waterway of the Canal, and that responsibility for both of these matters should no longer be allowed to rest exclusively with Great Britain. Although, of course, the strategic importance of Egypt and the Canal have been enormously reduced by modern developments of war, it cannot be wholly excluded from American thought where the recent extension of NATO'S southern flank to Turkey is concerned(5).

British public opinion was critical of such massive peacetime commitment in Egypt. The value of the Canal base as an asset to British defense needs and to those of the west had become dubious. In a debate in the House of Commons, Anthony Head, conservative Secretary for war, explained that changes in

(4) Faiz S. Abu-Jaber, *American-Arab relations from Wilson to Nixon* (Oswego, NY: state university of New York, 1979), 62-69.

(5) *New York Times*, 15 July 1954, p. 8.

technology no longer made it necessary for Britain to maintain troops in the Suez. He based his argument on four points. First, in the age of nuclear weapons it was no longer practical to maintain bases that far from home. Second, "those facilities [Suez bases] would be of little or no use to us in peace or war with a hostile Egypt." Third, "... with the size of our forces ... and particularly this is true of the army... we are overstretched and overstrained." And finally, the new NATO bases in Turkey provided Britain in with better access to areas of the Middle East than did the bases in Egypt(1).

Foreign Minister Anthony Eden on his turn gave the reasons for Britain's change of attitude about the importance of the Suez base, he observed that "the Suez Canal remained of supreme importance, the base was yearly less so ... It did not seem likely in this nuclear age we should ever need a base on the past scale. Smaller bases, redeployment and dispersal would serve our purpose better"(2).

All these factors made it more pressing that Britain should come to an agreement with Egypt. An agreement was reached. An Anglo-Egyptian Treaty was accepted by parliament and by the new government of Egypt headed by President Nasser. The latter had assumed office on July 27 and signed the treaty on 19 October 1954. This agreement "removed one of the main causes of friction in this part of the world."(3)

The agreement

The agreement provided for British evacuation from the Suez Canal

"within a period of Twenty months from the date of signature of the present agreement". The British maintained the right to use the Canal bases in case of

---

(1) *House of commons Debate* (29 July 1954), cols. 724-731

(2) Anthony Eden, *Full circle. Boston Houghton Mifflin*,1960 P.220

(3) Horrocks, «*Middle East Defense-British Views,* » *Middle Eastern Affairs* (February 1955), 40.

outside attack against Arab countries or Turkey.

Britain retained the right to keep technicians, officers, and heavy military equipment in the Canal bases for another seven years[1].

The following Articles give more details of the agreement

Article 1

Her Majesty's forces shall be completely withdrawn from Egyptian territory in accordance with the schedule set forth in part A of annex 1 within a period of twenty months from the date of signature of the present agreement.

Article 2

The Government of the United kingdom declare that the treaty of alliance signed in London on the 26th of August 1936, with the agreed minutes, exchanged notes, conventions concerning immunities and privileges enjoyed by the British forces in Egypt and all other subsidiary agreements, is terminated.

Article 3

In the event of an armed attack by an outside power on any country which at the date of signature of the present agreement is a party to the treaty of joint defense between the Arab league states, signed in Cairo on the 13th of April, 1950, or on Turkey, Egypt shall afford to the united kingdom such facilities as may be necessary in order to place the base on a war footing and to operate it effectively. These facilities shall include the use of Egyptian ports within the limits of what is strictly indispensable for the above mentioned purposes.

Article 4

In the event of the return of British forces to the Suez Canal base area on accordance with the provisions of Article 3, these forces shall withdraw immediately upon the cessation of the hostilities referred to In that article.

---

(1) *«Operation of the Suez Canal Base, » American foreign Policy,* 1950-1955 : basic documents, vol. 11, pp. 2228-2229.

Article 5

In the event of the return of a threat of an armed attack by an outside power on any country which at the date of signature of the present agreement is a party to the treaty of joint defense between Arab league stats or on turkey, there shall be immediate consultation between Egypt and the United Kingdom.

Article 6

The two contracting governments recognize that the Suez maritime Canal, which is an integral part of Egypt, is a waterway economically, commercially, and strategically of international importance, and express the determination to uphold the convention guaranteeing the freedom of navigation of the Canal signed at Constantinople on the 29th of October 1888.

Article 7

A. the present agreement shall remain in force for the period of seven years from the date of its signature.

B. during the last twelve months of that period the two contracting government shall consult together to decide on such arrangements as may be necessary upon the termination of the agreement.

C. unless both the contracting government agree upon any extension of the agreement it shall terminate seven years after the date of signature and the government of the united kingdom shall take away or dispose of their property then remaining in the base[1].

The American and Egyptian Reaction:

Secretary Dulles welcomed the agreement. He stated that:

What has occurred is a major step in the evolution of the relations between the states of the Near East and the nations of the west. this agreement

(1) *Documents on American foreign Relations 1954*, pp. 391 – 394.

eliminates a problem which has effected not only the relations between the United kingdom And Egypt but also those of the Western Nations as a whole with the Arab states. I hope that it makes the beginning of a new era of closer collaboration between The States of the Near East and those of the West[1].

Dulles also expressed the hope that a "new and more permanent basis had been laid for the tranquility and security of the Near East"[2].

President Jamal Abdel Nasser described the agreement as:

... a turning point . . . with this agreement, a new era of friendly relations based on mutual trust . . . opens between Egypt and Britain and the western countries . . . . now we want to get rid of the hatred in our hearts and start building up our relations with Britain on a solid basis of mutual trust and confidence, which has been lacking for the past seventy years[3].

The Egyptian government expressed appreciation to the United States for its help in settling their dispute with the British. The United States, in fulfillment of its 1953 promise and to encourage Egypt to respect the Suez agreement, granted Egypt $40 million for economic development.

Originally, this money was earmarked for economic and military assistance to Egypt and was promised by president Eisenhower to president Najuib in July 1953.

Eisenhower had stated that the U.S. would be willing to enter into "firm commitments for economic and military assistance following the conclusion of the Anglo-Egyptian dispute"[4].

After Egypt concluded an agreement with Britain, opposition in congress to

(1) *U.S Department of State Bulletin* 31 (August 9, 1954) : 198.

(2) *Ibid.*

(3) *New York times*, 7 November 1954, p. 6.

(4) *New York Time*, 31 July 1954, p. 5.

economic aid to Egypt was overcome. Military assistance, however, remained linked to the Egyptian adherence to the U.S. global defense plan. Some members of Congress feared that any military assistance to Egypt would jeopardize Israeli security. Egypt did not seem willing to join any western defense plan and the U.S. Congress was not willing to antagonize Israel before the upcoming congressional election in November of 1954 [1].

The $20 million military assistance to Egypt was diverted to economic aid. American restrictions on arms sale to Egypt remained a major obstacle to the development of a more cooperative relationships between the two countries.

Egypt was invited to join the Baghdad pact Alliance but it refused because of the following reasons: First, Egypt's priority was to end the British presence in its territories and to address the Palestine problem. Second, Egypt was convinced that the pact was designed to head off soviet competition in oil and strategic bases disregarding the national interests of the Arabs. Nasser remained neutral in the East-West Cold War, associated with India and other countries and established the Non-allied Movement, tried to preserve Arab unity, and established diplomatic and commercial relations with the soviet block. All these developments led to the 1956 aggression against Egypt[2]. This paper discussed the American Policy towards Egypt as well as the decline of British influence in the area. Since President Eisenhower took office in January 1953, he followed a new policy in the Middle East. He was mainly concern with the continuing decline of American position in the Middle East and a possible Soviet intervention there. One of the main objective of Eisenhower's Middle Eastern policy was to solve the Anglo-Egyptian dispute over the Suez Canal. If this problem could be removed then the U.S. could demonstrate good will

---

(1) Wilbur C. *Eveland, Ropes of Sand* (New York : W.W. Norton and Company, 1980), 96-105.

(2) Faiz S. Abu-Jaber, *American-Arab Relations from Wilson to Nixon* (Oswego, NY: state university of New York, 1979), 114.

toward the Egyptians and convince them to join the west in a Middle East defense plan against the Soviet Union. As a result of American pressure and unfavorable British public opinion to the British presence in Egypt, the British government came into an agreement with Egypt on October 19,1954.

The Anglo Egyptian agreement over the Canal did not contribute significantly to improving the American position in the region, The American Administration wanted a pro-western solution that would contain international communisms, while President Nasser wanted to preserve Egypt's sovereignty, put an end to the British presence in Egypt, address the Palestine problem, and champion the Arab nationalism. Finally, the American Policy in the region failed, the British position retreated, and Nasser was getting momentum.

***

Bibliography

Primary sources

operation of the Suez Canal base, American foreign policy, 1950-1955 basic documents, vol. 1,.

Message by Secretary Dulles to Foreign secretary Eden on February 14, 1953, department of State Bulletin 28 (February 23, 1953).

Documents on American foreign relations 1954.

DENISE FOLLIOT, ED., Documents on international affairs, 1943 (London : oxford university press, 1956).

House of commons Debate (29 July 1954), cols724-731

statement by the president on Eric Johnston's mission to the Near East, public papers of the presidents of the United States : Dwight D. Eisenhower, 1953 – 1958 (Washington, DC: U.S Government (printing office 1960-61.

A Survey of foreign policy problems addressed by secretary Dulles, U.S Department of state Bulletin 28 (February 9, 1957).

Press conference statement by the secretary, U.S Department of state Bulletin 28 (March 23,1953)

U.S Department of state Bulletin 31 (August 9, 1954)

Memoirs:

ANTHONY EDEN, Full circle. Boston Houghton Mifflin,1960

DWIGHT EISENHOWER, *the white house years: mandate for change*, 1953-1956 Garden City, NY: Doubleday and Company,(Inc., 1963)